المُسْتَطْرَف

في كُلِّ فَنٍّ مُسْتَظْرَف

تأليف

شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي
المتوفى ٨٥٠ هـ

طبعة جديدة منقّحة
بإشراف
المكتب العالمي للبحوث

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

المستطرف

في كل فن مستظرف

تأليف

شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي

المتوفى ٨٥٠ هـ

المجلد الأول

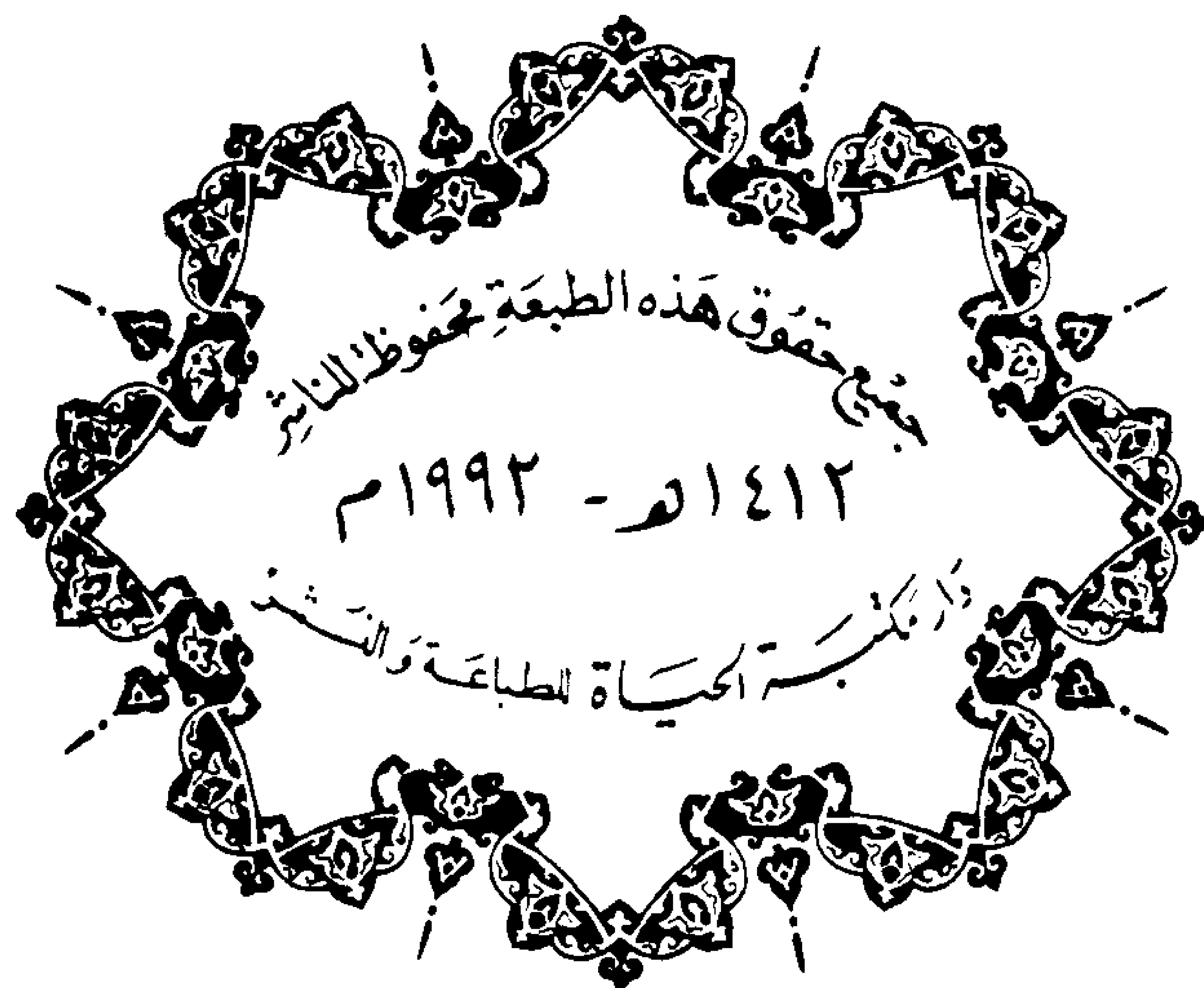
طبعة جديدة منقحة

بإشراف

المكتب العالمي للبحوث

منشورات دار مكتبة الحياة

بيروت - لبنان


جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

مقدمة الناشر

حب الشعر والأدب عميق في النفس العربية ، فهو حديث جلساتها وسمر لياليها ورواية أيامها وأخبارها .

لكن الجلسات يطول فيها الحديث ويتشعب ويتنقل بين الأحاديث الدينية وأخبار الفرسان والفروسية وشعراء القبائل ونقائضهم ، وروايات العشاق وغزلهم وتشببهم ، إلى أخبار الأسفار والملح والنوادر المسلية إلى الألغاز الشعرية فالأهاجي والمدائح . .

وينطلق من التاريخ والسير وأخبار الأولين شعراً ونثراً إلى حديث الأسفار وغرائب الأحداث المتداخلة بين علم الرحلة وعالم الأسطورة .

وكانت مجالس الأمراء والوزراء في العصور المتأخرة تعتمد على هذا السمر والمنادمة وليس على الاخبار الرصينة والكتب العلمية المتخصصة ولذلك كثرت الكتب التي تجمع من كل واد أغنية ومن كل فن طرف فكان الكشكول وثمرات الأوراق في المحاضرات والعقد الفريد وما شابه ذلك .

وكان كذلك هذا الكتاب :

المستطرف في كل فن مستظرف

نسجاً على هذا المنوال وحرثاً في هذا الحقل الجامع لكل لطيف وأنيس وجميل وغريب من الملح والنوادر والأخبار والكلمات والأشعار والألغاز والأفكار والأعلام والأسفار فهو مرجع في عادات عصره وأخبار أيامه .

وهو صورة عن حياة الترف التي عاشها حكام تلك الأيام واهتماماتهم .

وهو أيضاً كتاب مؤنس مسلٍ وممتع لمن يفتش عن الغريب والممتع .

في عصرنا قامت الموسوعات تجمع شتات العلوم والفنون ، أما في العصر الذي عاش فيه شهاب الدين الأبشيهي فقد كان الاهتمام الموسوعي منصباً على الشعر والأدب والعادات والتقاليد الجميل والمقبول منها والمنفر المرذول أيضاً فلذا رأينا فيه أربع وثمانين باباً وفي كل باب أكثر من فصل .

ولقد بدأت أبوابه بالأحاديث الدينية والعظات الارشادية من الإخلاص لله وفضل الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها من الأركان والفضائل لينتقل منها إلى الحديث عن العقل فالقرآن وفضله ومحكم آياته .

فإذا استوفى كل ذلك ، انتقل إلى الحديث عن فضل العلماء والعلم والمتعلمين ، ثم استطرد إلى الأداب والأمثال السائرة وحكاياتها وأول من قالها ولماذا قيلت وما دخل في هذا الباب من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ثم وردت الأمثال العربية من نصيحة وعامية ودخيلة من المولدين .

وبينا هو في ذاك ينتقل إلى البيان والبلاغة والفصاحة وهو في كل ذلك يأتي بالأمثلة والشواهد الغريبة والمليحة من أخبار الرجال والنساء وحكايتهم ونوادرهم .

ولا ينسى أن يحدثنا عن الشعر والشعراء والسرقات الشعرية والنحل والانتحال .

ثم ينتقل بنا للحديث عن الأخلاق العامة والفضائل والرذائل ، فهو يتحدث في التوكل على الله وعن القناعة والرضا والحرص والطمع وطول الأمل . ولا ينسى المشورة والنصيحة والتجارب والنظر في العواقب والوصايا ، وفضل الصمت وتحريم الغيبة والنميمة .

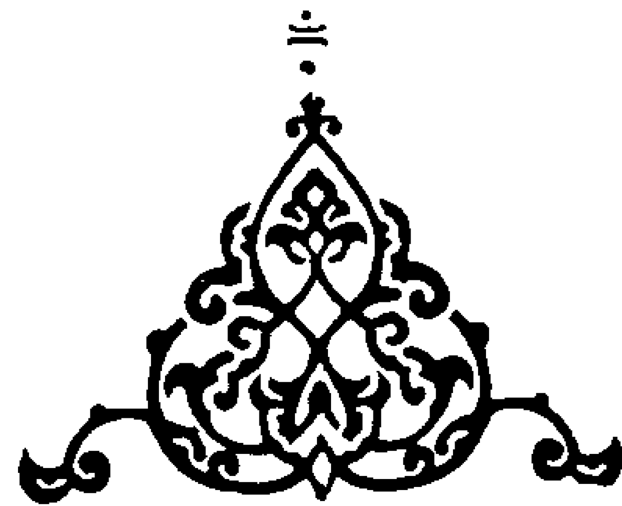
وينقلنا معه بعد هذا كله إلى أولي الأمر من ملوك وسلاطين وما يجب على من يصحبهم أن يعمل وبما يجب أن يحلى من الصفات والأخلاق ومن العلوم والمعارف ولا يترك في ذلك حتى القضاة والمتصوفة . والاخلاق حسنها وسيئها والعلاقات الإنسانية في الأسرة والمجتمع والبلد وعجائب المخلوقات والمعالم الجغرافية .

ويستطرد بعدها إلى الأغاني والمغنيات والقيان وأنواع الشعر المغنّى من فصيح وعامي .

ولا ينسى أن يتحفنا بأنواع مختلفة من النوادر عن كل فئة من فئات المجتمع من أعلاه إلى أدناه ويعود بعد هذا كله إلى الدعاء والأدعية والقضاء والقدر والموت والأمراض والعلل فكأننا انتقلنا إلى كتاب طبي .

ويختمها بالحديث عن الزهد وفضله وأهله وفي فضل الصلاة على النبي ﷺ .

إنه في الحقيقة أوسع الكتب انتشاراً في نوعه وأشملها مضموناً وأجملها حديثاً وهو ضرورة لكل مكتبة ففيه من العلم للمتعلمين ومن التسلية لطالبيها ومن الوعظ لمريديه ما يجعل منه كتباً في كتاب ومراجع في مرجع واحد تحويه المكتبة فكأنها حوت أسفاراً كثيرة وكتباً لا تعد .



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك العظيم العليّ الكبير ، الغني الحميد اللطيف الخبير ، المنفرد بالعز والبقاء ، والارادة والتدبير ، الحي العليم الذي ليس كمثله شيء ، هو السميع البصير . تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . أحمده حمد عبد معترف بالعجز والتقصير . وأشكره على ما أعان عليه من قصد ، ويسَّر من عسير . وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ولا مشير ، ولا ظهير له ولا وزير . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله البشير النذير ، السراج المنير ، المبعوث إلى كافة الخلق من غني وفقير ، ومأمور وأمير . صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير ، وينجو بها في الآخرة من عذاب السعير . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، فنعم المولى ونعم النصير .

(أما بعد) فقد رأيت جماعة من ذوي الهمم ، جمعوا أشياء كثيرة من الآداب ، والمواعظ ، والحكم . وبسطوا مجلدات في التواريخ ، والنوادر ، والأخبار ، والحكايات ، واللطائف ، ورقائق الأشعار ، وألفوا في ذلك كتباً كثيرة . تفرد كل منها بفرائد فوائد لم تكن في غيره من الكتب محصورة . فاستخرت الله تعالى وجمعت من مجموعها هذا المجموع اللطيف . وجعلته مشتملاً على كل فن ظريف . وسمّيته (المستطرف في كل فن مستظرف) ، واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم ، وأحاديث صحيحة ، من أحاديث النبي الكريم . وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار . ونقلت فيه كثيراً مما أودعه الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار) ، وكثيراً مما نقله ابن عبد ربه في كتابه (العقد الفريد) . ورجوت أن يجد مطالعه فيه كل ما يقصد ويريد . وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة . من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة ، وأودعته من الأحاديث النبوية . والأمثال الشعرية ، والألفاظ اللغوية ، والحكايات الجدّية ، والنوادر الهزلية ، ومن الغرائب والدقائق ، والأشعار والرقائق . ما تشنف[2] بذكره الأسماع وتقر برؤيته العيون . وينشرح بمطالعته كل قلب محزون .

من كل معنى يكادُ الميت يفهمه   حسناً ويعشقه القرطاس والقلم

(وجعلته) يشتمل على أربعة وثمانين باباً ، من أحسن الفنون ، متوّجة بألفاظ كأنها الدرّ المكنون كما قال بعضهم شعراً:
المعنى :

ففي كل باب منه دُرّ مؤلف   كنظم عقود زينتها الجواهر
فإن نظم العقد الذي فيه جوهر   على غير تأليف فما الدّرُ فاخر

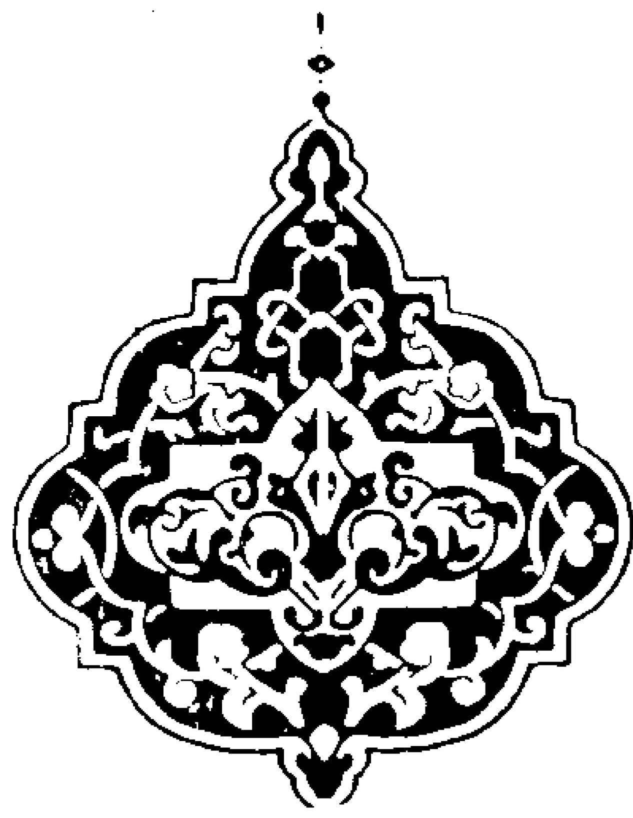
(وضمنته) كل لطيفة، ونظمته بكل ظريفة، وقرنت الأصول فيه بالفصول، ورجوت أن يتيسر لي ما رمته من الأصول (وجعلت)أبوابه مقدمة، وفصلتها في مواضعها مرتبة منظمة، ليقصد الطالب إلى كل باب منها عند الاحتياج إليه، ويعرف مكانه بالاستدلال عليه، فيجد كل معنى في بابه إن شاء الله تعالى. والله المسؤول في تيسير المطلوب. وأن يلهم الناظر فيه ستر ما يراه من خلل وعيوب. انه على ما يشاء قدير، وبالاجابة جدير. وهذه فهرست الكتاب والله سبحانه المهون للصعاب.

(الباب الأول) في مباني الاسلام، وفيه خمسة فصول (الباب الثاني) في العقل، والذكاء، والحمق، والذم، وغير ذلك (الباب الثالث) في القرآن العظيم، وفضله، وحرمته، وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم، والأجر الجسيم. (الباب الرابع) في العلم، والأدب، وفضل العالم والمتعلم. (الفصل الخامس) في الآداب، والحكم، وما أشبه ذلك. (الباب السادس) في الأمثال السائرة، وفيه فصول. (الباب السابع) في البيان، والبلاغة، والفصاحة، وذكر الفصحاء، من الرجال، والنساء، وفيه فصول. (الباب الثامن) في الأجوبة المسكتة، والمستحسنة، ورشقات اللسان، وما جرى مجرى ذلك. (الباب التاسع) في ذكر الخطب، والخطباء، والشعراء، وسرقاتهم، وكبوات الجياد، وهفوات الأمجاد. (الباب العاشر) في التوكل على الله تعالى، والرضا بما قسم، والقناعة، وذم الحرص، والطمع وما أشبه ذلك، وفيه فصول. (الباب العاشر) في التوكل على الله تعالى، والرضا بما قسم، والقناعة، وذم الحرص، والطمع وما أشبه ذلك، وفيه فصول. (الباب الحادي عشر) في المشورة، والنصيحة، والتجارب، والنظر في العواقب. (الباب الثاني عشر) في الوصايا الحسنة، والمواعظ المستحسنة، وما أشبه ذلك. (الباب الثالث عشر) في الصمت، وصون اللسان، والنهي عن الغيبة، والسعي بالنميمة، ومدح العزلة، وذم الشهرة، وفيه فصول. (الباب الرابع عشر) في الملك، والسلطان، وطاعة ولاة أمور الاسلام، وما يجب للسلطان على الرعية، وما يجب لهم عليه. (الباب الخامس عشر) فيما يجب على من صحب السلطان، والتحذير من صحبته. (الباب السادس عشر) في الوزراء وصفاتهم، وأحوالهم، وما أشبه ذلك. (الباب السابع عشر) في ذكر الحجاب، والولاية، وما فيها من الغرر، والخطر. (الباب الثامن عشر) فيما جاء في القضاء وذكر القضاة، وقبول الرشوة، والهدية على الحكم، وما يتعلق بالديون، وذكر القصاص، والمتصوفة، وفيه فصول. (الباب التاسع عشر) في العدل، والاحسان، والانصاف وغير ذلك (الباب العشرون) في الظلم وشؤمه، وسوء عواقبه، وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك (الباب الحادي والعشرون) في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال، وسيرة السلطان في استجباء الخراج، وأحكام أهل الذمة، وفيه فصلان. (الباب الثاني والعشرون) في اصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وقضاء حوائج المسلمين، وإدخال السرور عليهم. (الباب الثالث والعشرون) في محاسن الأخلاق ومساويها. (الباب الرابع والعشرون) في حسن المعاشرة والمودة، والأخوة، والزيارة، وما أشبه ذلك. (الباب الخامس والعشرون في الشفقة على خلق الله تعالى، والرحمة بهم، وفصل الشفاعة، واصلاح ذات البين وفيه فصلان. (الفصل السادس والعشرون) في الحياء، والتواضع ولين الجانب، وخفض الجناح، وفيه فصلان. (الباب السابع والعشرون) في العجب، والكبر، والخيلاء، وما أشبه ذلك.

(الباب الثامن والعشرون) في الفخر، والمفاخرة، والتفاضل، والتفاوت. (الباب آلتاسع والعشرون) في الشرف، والسؤدد، وعلو الهمة. (الباب الثلاثون) في الخير، والصلاح، وذكر السادة الصحابة، وذكر الأولياء، والصالحين رضي الله عنهم أجمعين. (الباب الحادي والثلاثون) في مناقب الصالحين، وكرامات الأولياء

رضي الله عنهم (الباب الثاني والثلاثون) في ذكر الأشرار، والفجار وما يرتكبون من الفواحش، والوقاحة، والسفاهة. (الباب الثالث والثلاثون) في الجود، والسخاء، والكرم، ومكارم الأخلاق، واصطناع المعروف، وذكر الأمجاد، وأحاديث الأجواد. (الباب الرابع والثلاثون) في البخل، والشح، وذكر البخلاء، وأخبارهم وما جاء عنهم. (الباب الخامس والثلاثون) في الطعام، وآدابه والضيافة، وآداب المضيف، والضيف، وأخبار الأكلة، وما جاء عنهم، وغير ذلك. (الباب السادس والثلاثون) في العفو، والحلم، والصفح، وكظم الغيظ، والاعتذار، وقبول المعذرة، والعتاب، وما أشبه ذلك. (الباب السابع والثلاثون) في الوفاء بالوعد ، وحسن العهد، ورعاية الذمم. (الباب الثامن والثلاثون) في كتمان السر وتحصينه ، وذم إفشائه . (الباب التاسع والثلاثون) في الغدر ، والخيانة ، والسرقة ، والعداوة ، والبغضاء ، والحسد ، وفيه فصول . (الباب الأربعون) في الشجاعة وثمرتها، والحروب وتدبيرها، وفضل الجهاد، وشدة البأس، والتحريض على القتال، وفيه فصول. (الباب الحادي والأربعون) في ذكر أسماء الشجعان، وذكر الأبطال وطبقاتهم، وأخبارهم، وذكر الجبناء وأخبارهم، وذم الجبن. (الباب الثاني والأربعون) في المدح، والثناء وشكر النعمة، والمكافأة، وفيه فصول. (الباب الثالث والأربعون) في الهجاء، ومقدماته. (الباب الرابع والأربعون) في الصدق، والكذب، وفيه فصلان. (الباب الخامس والأربعون) في بر الوالدين، وذم العقوق، وذكر الأولاد، وما يجب لهم وعليهم، وصلة الرحم والقرابات، وذكر الأنساب، وفيه فصول. (الباب السادس والاربعون) في الخلق، وصفاتهم، وأحوالهم، وذكر الحسن، والقبح، والطول، والقصر، والألوان، واللباس، وما أشبه ذلك. (الباب السابع والأربعون) في ذكر الحلي، والمصوغ ، والطيبَ والتطيب، وما جاء في التختّم . (الباب الثامن والأربعون) في الشباب، والشيب، والصحة، والعافية، وأخبار المعمرين، وما أشبه ذلك، وفيه فصول. (الباب التاسع والأربعون) في الأسماء، والكنى، والألقاب، وما استحسن منها. (الباب الخمسون) في الأسفار، والاغتراب، وما قيل في الوداع، والفراق، والحث على ترك الاقامة بدار الهوان، وحب الوطن، والحنين إلى الأوطان. (الباب الحادي والخمسون) في ذكر الغنى، وحب المال، والافتخار بجمعه. (الباب الثاني والخمسون) في ذكر الفقر، ومدحه. (الباب الثالث والخمسون) في ذكر التلطف، في السؤال، وذكر من سُئل فجاد. (الباب الرابع والخمسون) في ذكر الهدايا، والتحف، وما أشبه ذلك. (الباب الخامس والخمسون) في العمل، والكسب، والصناعات، والحرب، والعجز، والتواني، وما أشبه ذلك. (الباب السادس والخمسون) في شكوى الزمان، وانقلابه بأهله، والصبر على المكاره، والتسلي عن نوائب الدهر، وفيه ثلاثة فصول. (الباب السابع والخمسون) فيما جاء في اليسر، بعد العسر، والفرج بعد الشدة، والسرور بعد الحزن، ونحو ذلك. (الباب الثامن والخمسون) في ذكر العبيد؛ والاماء، والخدم، وفيه فصلان. (الباب التاسع والخمسون) في أخبار العرب، وذكر غرائب من عوائدهم ، وعجائب أمرهم . (الباب الستون) في الكهانة ، والقيافة ، والزجر ، والعرافة ، والفأل ، والطيرة ، والفراسة ، والنوم ، والرؤيا . (الباب الحادي والستون) في الحيل ، والخدائع المتوصلة بها إلى بلوغ المقاصد ، والتيقظ ، والتبصر ، ونحو ذلك . (الباب الثاني والستون) في ذكر الدواب، والوحوش، والطير، والهوام، والحشرات، مرتباً على حروف المعجم. (الباب الثالث والستون) في ذكر من عجائب المخلوقات، وصفاتهم. (الباب الرابع والستون) في خلق الجان وصفاتهم، (الباب الخامس والستون) في ذكر

البحار وما فيها من العجائب، وذكر الأنهار، والآبار وفيه فصول. (الباب السادس والستون) في ذكر عجائب الأرض، وما فيها من الجبال، والبلدان وغرائب البنيان، وفيه فصول. (الباب السابع والستون) في ذكر المعادن، والأحجار، وخواصها (الباب الثامن والستون) في ذكر الأصوات، والألحان، وذكر الغناء، واختلاف الناس، ومن كرهه، واستحسنه. (الباب التاسع والستون) في ذكر المغنين، والمطربين وأخبارهم، ونوادر الجلساء في مجالس الخلفاء. (الباب السبعون) في ذكر القينات، والأغاني. (الباب الحادي والسبعون) في ذكر العشق ومن بلي به، والافتخار به، والعفاف، وأخبار من مات بالعشق، وما في معنى ذلك، وفيه فصول. (الباب الثاني والسبعون) في ذكر رقائق الشعر، والمواليا، والدوبيت، وكان وكان، والموشحات، والزجل، والقومة، والألغاز، ومدح الأسماء، والصفات وفيه فصول. (الباب الثالث والسبعون) في ذكر النساء وصفاتهن، ونكاحهن، وطلاقهن، وما يمدح وما يذم من عشرتهن، وفيه فصول. (الباب الرابع والسبعون) في ذم الخمر وتحريمها، والنهي عنها. (الباب الخامس والسبعون) في المزاح، والنهي عنه. وما جاء في الترخيص فيه، والبسط، والتنعم، وفيه فصول. (الباب السادس والسبعون) في النوادر، والحكايات، وفيه فصول. (الباب السابع والسبعون) في الدعاء وآدابه، وشروطه، وفيه فصول. (الباب الثامن والسبعون) في القضاء والقدر، وأحكامهما، والتوكل على الله تعالى. (الباب التاسع والسبعون) في التوبة وشروطها، والندم والاستغفار، (الباب الثمانون) في ذكر الأمراض والعلل، والطب، والدواء، من السنة، والعيادة وثوابها، وما أشبه ذلك، وفيه فصول. (الباب الحادي والثمانون) في ذكر الموت، وما يتصل به من القبر، وأحواله، (الباب الثاني والثمانون) في الصبر، والتأسي، والتعازي، والمراثي، ونحو ذلك، وفيه فصول. (الباب الثالث والثمانون) في ذكر الدنيا، وأحوالها، وتقلبها بأهلها، والزهد فيها، ونحو ذلك. (الباب الرابع والثمانون) في فضل الصلاة على النبي ﷺ وهو آخر الأبواب ختمتها بالصلاة على سيد العباد أرجو بذلك شفاعته ﷺ يوم المعاد.



الباب الأول

في مباني الاسلام

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في الاخلاص لله تعالى والثناء عليه

وهو أن تعلم أن الله تعالى واحدٌ لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا ندّ له، أزلي قائم، أبدي دائم، لا أول لوجوده، ولا آخر لأبديته، قيوم لا يفنيه الأبد، ولا يغيره الأمد، بل هو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، منزه عن الجسمية ليس كمثله شيء وهو فوق كل شيء، فوقيته لا تزيده بعداً عن عباده، وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، وهو معكم أينما كنتم، لا يشابه قربه قرب الأجسام، كما لا يشابه ذاته ذوات الأجرام، منزه عن أن يحده زمان، مقدس عن أن يحيط به مكان، تراه أبصار الأبرار، في دار القرار على ما دلت عليه الآيات والأخبار. حيّ قادرٌ جبار قاهر لا يعتريه عجز ولا قصور ولا تأخذه سنة[1] ولا نوم، له الملك والملكوت والعزة والجبروت. خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا تحصى مقدوراته، ولا تتناهى معلوماته، عالم بجميع المعلومات، لا يغرب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات. يعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وخفيات السرائر، مريد للكائنات، مدبر للحادثات، لا يجري في ملكه قليل، ولا كثير، ولا جليل، ولا حقير، خير، أو شر، نفع، أو ضر إلا بقضائه وقدره وحكمه، ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو المبدىء المعيد الفاعل لما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا مهرب لعبد من معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته، إلا بمحبته وإرادته. لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين، على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا، سميع بصير، متكلم بكلام لا يشبه كلام خلقه، وكل ما سواه سبحانه وتعالى فهو حادث، أوجده بقدرته وما من حركة وسكون إلا وله في ذلك حكمة دالة على وحدانيته قال الله

---

(١) سنة من وسن يوسن وسناً. وهو الفتور الذي يسبق النوم.

تعالى: ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾[1] الآية وقال أبو العتاهية:

فيا عجباً كيف يعصى الالـ ـه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد
والله في كل تحريكة وتسكينة في الورى شاهد

وقال غيره:

كل ما ترتقي إليه بوهم من جلال وقدرة وسناء
فالذي أبدع البرية أعلى منه سبحانه مبدع الأشياء

وقال علي رضي الله عنه في بعض وصايا لولده: اعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد لا يضاده في ملكه أحد. وعنه عليه الصلاة والسلام كل ما يتصور في الأذهان، فالله سبحانه بخلافه. وقال لبيد بن ربيعة[2].

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل ابن أنثى لو تطاول عمره إلى الغاية القصوى فللقبر آيل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية[3] تصفر منها الأنامل
وكل امرىء يوماً سيعرف سعيه إذا حصّلت عند الإله الحصائل

وروي أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر: إن أشعر كلمة قالتها العرب: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

ثم بعد هذا الاعتقاد، الاقرار بالشهادة بأن محمداً رسول الله بعثه برسالته إلى الخلائق كافة، وجعله خاتم الأنبياء، ونسخ بشريعته الشرائع، وجعله سيد البشر والشفيع المشفع في المحشر، وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة، فلا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت من سؤال منكر ونكير وهما ملكان من ملائكة الله تعالى يسألان العبد في قبره عن التوحيد والرسالة، ويقولان له: من ربك وما دينك ومن نبيك ويؤمن بعذاب القبر، وأنه حق، وأن الميزان حق، والصراط حق، والحساب حق، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الله تعالى يُدْخل الجنة من يشاء بغير حساب، وهم المقربون، وأنه يخرج عصاة الموحدين من النار، بعد الانتقام، حتى لا يبقى في جهنم من في قلبه مثقال ذرة من الايمان، ويؤمن بشفاعة العلماء، ثم بشفاعة الشهداء، وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ويحسن الظن بجميعهم، على ما وردت به الأخبار، وشهدت به الآثار،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٤.

(٢) هو لبيد بن ربيعة. شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات. من الفرسان الأشراف في الجاهلية. من أهل عالية نجد. أدرك الاسلام، ووفد على النبي ﷺ ويعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. جمع بعض شعره في ديوان صغير ترجم إلى الالمانية. أنظر خزانة الادب للبغدادي: (١ : ٣٣٧ - ٢٣٩) وآداب اللغة (١ : ١١١).

(٣) دويهية: تصغير داهية وتأتي بمعنى المصيبة.

فمن اعتقد جميع ذلك مؤمناً به موقناً فهو من أهل الحق، والسنة، مُفارق لعصابة الضلال، والبدعة. رزقنا الله الثبات على هذه العقيدة وجعلنا من أهلها، ووفقنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بحبلها، إنه سميع مجيب، فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الاسلام الخمسة قال رسول الله ﷺ: « بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ».



في الصلاة وفضلها

قال الله تعالى: ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾(٣) واختلفوا في اشتقاق اسم الصلاة مم هو، فقيل هو من الدعاء، وتسمية الصلاة دعاء معروفة في كلام العرب، فسميت الصلاة صلاة لما فيها من الدعاء، وقيل سميت بذلك من الرحمة قال الله تعالى: ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾(٤) فهي من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الناس دعاء، قال ﷺ: « اللهم صل على آل أبي، أو في أي ارحمهم » وقيل سميت بذلك من الاستقامة، من قولهم، صليت العود على النار إذا قومته، والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته، وتنهاه عن خلافه، قال الله تعالى: ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾(٥) وقيل لأنها صلة بين العبد وربه، وعن رسول ﷺ قال: « علم الايمان الصلاة، فغن فرغ لها قلبه، وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن ».
وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضاه في الاسلام، وما أكمل الله تعالى صلاة، قيل وكيف ذلك، قال لا يتم ركوعها، وسجودها، وخشوعها وتواضعه وإقباله على الله فيها. وقالت عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه).
وقيل للحسن ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً فقال: (لأنهم حلوا بالرحمن، فألبسهم نوراً من نوره).
وقال بعضهم: (لا تفوت أحداً صلاة في جماعة إلا بذنب). وكانت رابعة العدوية(٦) تصلي في اليوم والليلة، ألف

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٨.
(٢) سورة البقرة الآية ٤٣.
(٣) سورة النساء الآية ١٠٣.
(٤) سورة الاحزاب الآية ٥٦.
(٥) سورة العنكبوت الآية ٤٥.
(٦) هي رابعة بنت اسماعيل العدوية أم الخير. مولاة آل عتيك، البصرية: صالحة، مشهورة، من أهل البصرة، ومولدها بها. لها أخبار في العبادة والنسك ولها شعر: من كلامها « اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم » توفيت بالقدس سنة (١٣٥هـ - ٧٥٢ م) وفي قول آخر سنة (١٨٥هـ - ٨٠١ م).

ركعة وتقول: والله ما أريد بها ثواباً، ولكن ليسر ذلك رسول الله ﷺ، ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: انظروا إلى امرأة من أمتي، هذا عملها في اليوم والليلة. وقال بعضهم صليت خلف ذي النون المصري[1] فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال: الله ثم بهت، وبقي كأنه جسد لا روح فيه إعظاماً لربه جل وعلا ثم قال: الله أكبر فظننت أن قلبي انخلع من هيبة تكبيره. وقيل أوحى الله تعالى إلى داود[2] عليه السلام: يا داود كذب من ادعى محبتي، وإذا جن عليه الليل نام عني، أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه. ولعبد الله بن المبارك رضي الله تعالى عنه:

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وكان سيدي الشيخ الامام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم التحريري -رحمه الله- كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

يا أيها الراقد كم ترقد قم يا حبيبي قد دنا الموعد
وخذ من الليل ولو ساعة تحظى إذا ما هجع الرقد
من نام حتى ينقضي ليله لم يبلغ المنزل لو يجهد

وكان سيدي أويس القرني لا ينام ليلة ويقول: ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفتر. وقال حذيفة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا جذبه أمر فزع إلى الصلاة. وقال هشام بن عروة: كان أبي يطيل المكتوبة ويقول هي رأس المال. وقال أبو الطفيل: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يقول: يا أيها الناس قوموا إلى نيرانكم فاطفئوها. سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر). وجزأ محمد بن المنكدر عليه وعلى أمه، وعلى أخته الليل أثلاثاً، فماتت أخته، فجزأه عليه وعلى أمه، فماتت أمه فقام الليل كله. وكان مسلم بن بشار، إذا أراد أن يصلي في بيته يقول لأهله: تحدثوا فلست أسمع حديثكم. وكان إذا دخل البيت سكت أهله فلا يسمع لهم كلام فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا. ووقع حريق إلى جنبه وهو في الصلاة فما شعر به حتى أطفىء. وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير في المسجد الحرام يحسبه جذعاً منصوباً لطول انتصابه في الصلاة، وكانت العصافير تقع على ظهر إبراهيم بن شريك وهو ساجد كما تقع على الحائط. وختم القرآن في ركعة واحدة أربعة من الأئمة: عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير، وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنهم. ورأى الأوزاعي[3] شاباً بين القبر والمنبر فلما طلع الفجر استلقى ثم قال: (عندالصباح يحمد القوم السرى) فقال:(يا

---

(١) هو ثوبان بن ابراهيم الاخميمي المصري، ابو الفياض، أو أبو الغيض: أحد الزهاد والعباد المشهورين، من أهل مصر. نوبي الأصل من الموالي. كانت له حكمة وشعر. وهو أول من تكلم بمصر في «ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية» توفي سنة (٢٤٥هـ - ٨٥٩ م).

(٢) هو النبي الملك - ابن اشعيا - مؤسس مملكة يهوذا. وهو ابو سليمان الحكيم، وأحد أجداد السيد المسيح عليه السلام.

(٣) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الاوزاعي من قبيلة الاوزاع، أبو عمرو، أمام الديار الشامية في الفقه والزهد. ولد في بعلبك، ونشأ في البقاع، وسكن بيروت وتوفي بها سنة (١٥٧هـ - ٧٧٤ م)

ابن أخي لك ولأصحابك لا للجمالين). وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب عن وجهه في الصلاة، فقيل له : كيف تصبر؟ فقال : بلغني أن الفساق يتصبرون تحت السياط ليقال فلان صبور، وأنا بين يدي ربي، أفلا أصبر على ذباب يقع عليّ. وقال أبو صفوان بن عوانة : ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض وهو قائم يصلي في القمر كأنه يشبه الملائكة. وقال الحسن : ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ كانت تقوم بالأسحار، حتى تورمت قدماها. وقام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وكانت دموعه تقع في مصلاه كوكف المطر[1]. وكان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يسمع لقلبه خفقان وغليان. هذا خوف الحبيب، والخليل مع ما أعطيا من الإجلال، والإكرام وشرف المقام، فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الآثام. وقال رسول الله ﷺ لرجل قال له : ادع الله أن يجعلني رفيقك في الجنة ، فقال : (أعني على نفسك بكثرة السجود) وقال حاتم الأصم رحمه الله تعالى فاتتني صلاة الجماعة مرة فعزاني أبو اسحق البخاري وحده. ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف، لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا. وكان السلف رضي الله تعالى عنهم، يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى، وسبعاً إذا فاتتهم الجماعة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه. (وأنشد بعضهم) :

خسر الذي ترك الصلاة وخابا ... وأبى معادا صالحاً ومآبا
إن كان يجحدها فحسبك أنه ... أضحى بربك كافراً مرتابا

أو كان يتركها لنوع تكاسل ... غطى على وجه الصواب حجابا
فالشافعي ومالك رأيا له ... ان لم يتب حد الحسام عقابا
والرأي عندي للامام عذابه ... بجميع تأديب يراه صوابا

اللهم أعنا على الصلاة، وتقبلها منا بكرمك ولا تجعلنا من الغافلين برحمتك يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

(ومما يستحسن إلحاقه بهذا الفصل) ذكر شيء من فضل السواك والآذان

(أما السواك) فقد قال الرسول ﷺ: (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة). وقال أيضاً : (صلاة على أثر سواك أفضل من خمسين وسبعين صلاة على غير سواك). وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا قام ليتهجد شاص فاه بالسواك. وقال ﷺ : (السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب)، وعنه ﷺ قال : (لو يعلم الناس ما في السواك لبات مع الرجل في لحافه) وقال أيضاً : (أفواهكم طرق لكلام ربكم فنظفوها). والاختيار في السواك أن يكون بعود الأراك، ويجزي بغيره من العيدان وبالسعد والاشنان، والخرقة الخشنة، وغير ذلك مما ينظف ويستاك عرضاً مبتدئاً بالجانب الأيمن من فيه، وينوي به الاتيان بالسنة، والسواك بعود الزيتون يزيل الحفر من الأسنان. وقال الأصحاب يقول عند السواك اللهم بارك لي فيه يا أرحم الراحمين. ويستاك في ظاهر الأسنان وباطنها ويمر السواك على أطراف أسنانه وأضراسه، وسقف حلقه إمراراً لطيفاً، ويستاك بعود

---

(١) وكف يكف وكفاً : سال قليلاً قليلاً

متوسط لا شديد اليبوسة ، ولا شديد اللين ، فإن اشتد يبسه لينه بالماء . وقد قيل إن من فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت ، ويسهل خروج الروح .

(وأما الأذان) فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه . قيل في قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ﴾ . نزلت في المؤذنين . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : (يغفر الله للمؤذن مدى صوته ، ويشهد له ما سمعه ، من رطب ويابس) . وعن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة . رواه مسلم . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين) رواه البخاري ومسلم . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة) ، رواه البخاري . والأحاديث في فضله كثيرة مشهورة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .



في الزكاة وفضلها

قرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة في مواضع شتى من كتابه قال الله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾[3] . وعن بريدة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ما حبس قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر » وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ : « ما خالطت الزكاة مالا قط إلا أهلكته » . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال : « من كان عنده ما يزكي ، ولم يزكِ ، ومن كان عنده ما يحج ، ولم يحج سأل الرجعة » . يعني قوله تعالى : ﴿ **رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت** ﴾[4] (ولنلحق) بهذا الفصل ذكر شيء من الصدقة وفضلها ، وما جاء فيها ، وما أعد الله تعالى للمتصدقين من الأجر والثواب ودفع البلاء قال الله تعالى : ﴿ **إن الله يجزي المتصدقين** ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ **والمتصدقين والمتصدقات** ﴾[6] الآية والآيات الكريمة في ذلك كثيرة ، والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة .

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٣ .
(٢) سورة النور الآية ٣٧ .
(٣) سورة البينة الآية ٥ .
(٤) سورة المؤمنون الآيتان ٩٩ - ١٠٠ .
(٥) سورة يوسف الآية ٨٨ .
(٦) سورة الاحزاب الآية ٣٥ .

وروى الترمذي[1] في جامعه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » ، وفي صحيح مسلم[2] وموطأ مالك[3] وجامع الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما نقص مال من صدقه » أو قال : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو ، إلا عزا وما تواضع عبد إلا رفعه الله تعالى » .

(ودخلت) امرأة شلاء على عائشة رضي الله عنها فقالت : كان أبي يحب الصدقة ، وأمي تبغضها ، لم تتصدق في عمرها إلا بقطعة شحم وخلقة فرأيت في المنام كأن القيامة قد قامت ، وكانت أمي قد غطت عورتها بالخلقة ، وفي يدها الشحمة تلحسها من العطش . فذهبت الى أبي وهو على حافة حوض يسقي الناس به فطلبت منه قدحاً من ماء فسقيت أمي ، فنوديت من فوقي ألا من سقاها فشل الله يدها . فانتبهت كما ترين .

(ووقف) سائل على امرأة وهي تتعشى ، فقامت فوضعه لقمة في فيه ، ثم بكرت إلى زوجها في مزرعته ، فوضعت ولدها عنده ، وقامت لحاجة تريد قضاءها فاختلسه الذئب فوقفت وقالت : يا رب ولدي فأتاها آت فأخذ بعنق الذئب فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر . فقال لها هذه اللقمة ، بتلك اللقمة التي وضعتها في فم السائل .

(وعشش) ورشان[4] في شجرة في دار رجل ، فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له أخذ أفراخ ذلك الورشان ففعل ذلك مراراً وكلما فرخ الورشان أخذوا أفراخه فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام وقال : يا رسول الله أردت أن يكون لي أولاد يذكرون الله تعالى من بعدي فأخذها الرجل بأمر امرأته ،ثم أعاد الورشان الشكوى فقال سليمان لشيطانين : إذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاه نصفين ، فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير ، ثم صعد وأخذ الأفراخ على عادته ، فشكا الورشان ذلك الى سليمان عليه السلام فقال للشيطانين ألم تفعلا ما أمرتكما به فقالا : اعترضنا ملكان فطرحانا في الخافقين .

وقال النخعي : كانوا يرون أن الرجل الظلوم إذا تصدق بشيء دفع عنه البلاء وكان الرجل يضع الصدقة في يد الفقير ويتمثل قائماً بين يديه ويسأله قبولها حتى يكون هو في صورة السائل . وقال رسول الله ﷺ : « الصدقة

---

(١) هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي ـ أبو عيسى ـ من أئمة علماء الحديث وحفاظة من أهل ترمذ (على نهر جيحون) تتلمذ للبخاري وشاركه في بعض شيوخه .
من تصانيفه « الجامع الكبير » والمعروف باسم « صحيح الترمذي » في الحديث و« الشمائل النبوية » و« التاريخ » و« العلل » في الحديث . توفي رحمه الله سنة (٢٧٩هـ ـ ٨٩٢ م) .

(٢) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ـ أبو الحسين ـ حافظ من أئمة المحدثين . ولد بنيسابور ، ورحل إلى الحجاز ، ومصر ، والشام ، والعراق ، وتوفي بظاهر نيسابور سنة (٢٦١هـ ـ ٨٧٥ م) .
أشهر كتبه « صحيح مسلم » .جمع فيه اثني عشر ألف حديث ، كتبها في خمس عشرة سنة . ومن كتبه « المسند الكبير » رتبه على الرجال و« الجامع » مرتب على الابواب و« الكنى والاسماء » وغيرها كثير .
انظر تذكرة الحفاظ : (٢ : ١٥٠) البداية والنهاية : (١١ : ٣٣) .

(٣) هو الامام مالك بن انس بن مالك الأصبحي الحميري ـ أبو عبد الله ـ امام دار الهجرة . أحد الائمة الاربعة عند أهل السنة ، وإليه تنسب المالكية . توفي سنة (١٧٩هـ ـ ٧٩٥ م) من كتبه « الموطأ » وله رسائل في « الوعظ » وكتاب في « تفسير القرآن » وغيرها كثير .

(٤) الورشان : نوع من الحمام البري ـ .

تسد سبعين باباً من الشر » . وعنه ﷺ قال : « ردوا صدمة البلاء ، ولو بمثل رأس الطائر من طعام » . وروى عنه ﷺ أنه قال : « ردوا مذمة السائل ولو بظلف محرق » وعنه أيضاً ﷺ : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » . وقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه : من رد سائلاً خائباً لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام . وكان نبينا محمد ﷺ يناول المسكين بيده . وعنه ﷺ : « ما من مسلم يكسو مسلماً ثوباً ، إلا كان في حفظ الله ما كانت عليه منه رقعة » . وقال عبد العزيز بن عمير : الصلاة تبلغك نصف الطريق . والصوم يبلغك باب الملك ، والصدقة تدخلك عليه . وعن الربيع بن خيثم أنه خرج في ليلة شاتية وعليه برنس خزّ فرأى سائلاً فأعطاه إياه وتلا قوله تعالى : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾[1] وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وأن سوء الخلق شؤم ، وحسن الملكة نماء ، والصدقة تدفع ميتة السوء » ، قال يحيى بن معاذ : ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا من الصدقة . وعن عمر رضي الله عنه : ان الاعمال تباهت فقالت الصدقة : أنا أفضلكن . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « تداركوا الهموم والغموم بالصدقات ، يدفع الله ضركم وينصركم على عدوكم » . وعن عبيد بن عمير قال : يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط ، وأعطش ما كانوا قط فمن أطعم لله أشبعه الله ، ومن سقى لله سقاه الله ، ومن كسا لله كساه الله . وقال الشعبي : من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير الى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه . وكان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل فان كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه فإن لم يكن عنده من ذلك شيء أعطاه دهناً أو غيره مما ينتفع به فان لم يكن عنده شيء أعطاه كحلاً أو أخرج ابرة وخيطاً فرقع بهما ثوب السائل . ووجه رجل ابنه في تجارة فمضت أشهر ولم يقع له على خبر فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم ، فلما كان بعد سنة ، رجع ابنه سالماً رابحاً فسأله أبوه : هل أصابك في سفرك بلاء قال : نعم غرقت السفينة بنا في وسط البحر ، وغرقت في جملة الناس وإذا بشابين أخذاني فطرحاني على الشط وقالا لي قل لوالدك هذا برغيفين ، فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك . وقال علي رضي الله تعالى عنه وكرّم الله وجهه : إذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك فيوافيك به حيث تحتاج إليه فاغتنم حمله إياه ولله در القائل حيث قال : .

يبكي على الذاهب من ماله ... وإنما يبقى الذي يذهب

(وحكى) أن رجلاً عَبَدَ الله سبعين سنة فبينما هو في معبده ذات ليلة إذ وقفت به امرأة جميلة فسألته أن يفتح لها ، وكانت ليلة شاتية فلم يلتفت اليها وأقبل على عبادته فولت المرأة فنظر إليها فأعجبته فملكت قلبه وسلبت لبه فترك العبادة وتبعها ، وقال : إلى أين ؟ فقالت : إلى حيث أريد . فقال : هيهات صار المراد مريداً والأحرار عبيداً ، ثم جذبها فأدخلها مكانه فأقامت عنده سبعة أيام ، فعند ذلك تذكر ما كان فيه من العبادة وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة ايام فبكى حتى غشي عليه فلما أفاق قالت له : يا هذا والله أنت ما عصيت الله مع غيري ، وأنا ما عصيت الله مع غيرك ، وإني أرى في وجهك أثر الصلاح فبالله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرني . قال فخرج هائماً على وجهه فآواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان وكان بالقرب منهم راهب يبعث إليهم في كل ليلة بعشرة أرغفة ، فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز ، فمد ذلك الرجل العاصي يده فأخذ رغيفاً فبقي منهم رجلاً لم يأخذ شيئاً فقال : أين رغيفي . فقال الغلام : قد فرقت عليكم العشرة فقال : أبيت طاوياً ، فبكى الرجل العاصي وناول

---

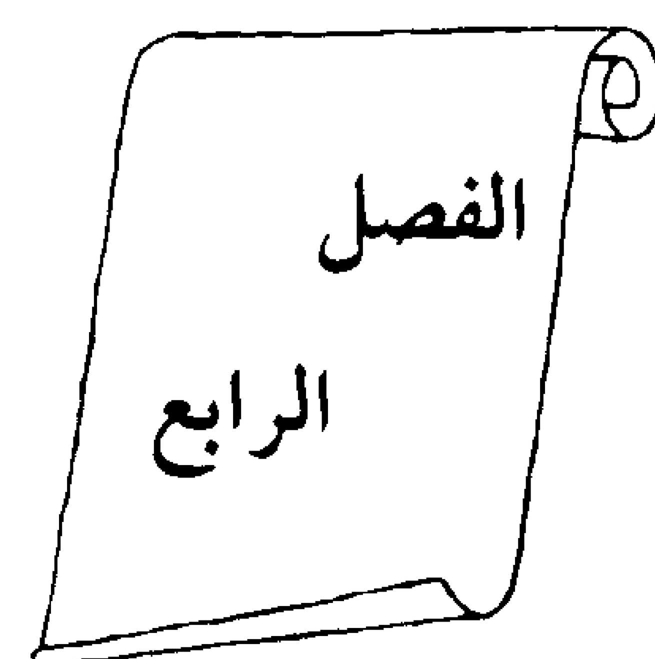
(١) سورة آل عمران الآية ٩٢ .

الرغيف لصاحبه وقال لنفسه أنا أحق أن أبيت طاوياً لأنني عاص وهذا مطيع ، فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة هذا رجل فرّ من ذنبه وجاء طائعاً ، وقالت ملائكة العذاب ، بل هو رجل عاص فأوحى الله تعالى إليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة ، بمعصية السبع ليال فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة ، فأوحى الله إليهم أن زنوا معصية السبع ليال بالرغيف الذي آثر به على نفسه فوزنوا ذلك فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة وقبل الله توبته .

(وحكي) أن رجلاً جلس يوماً يأكُل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية فوقف سائل ببابه فخرج اليه وانتهره فذهب ، فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر وزالت نعمته وطلق زوجته وتزوجت بعده برجل آخر فجلس يأكل معها في بعض الأيام ، وبين أيديهما دجاجة مشوية وإذا بسائل يطرق الباب فقال الرجل لزوجته :ادفعي إليه هذه الدجاجة. فخرجت بها إليه فإذا هو زوجها الأول فدفعت إليه الدجاجة ، ورجعت وهي باكية فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته أن السائل كان زوجها وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذي انتهره زوجها الأول فقال لها زوجها : أنا والله ذلك السائل .

(وذكر) عن مكحول أن رجلاً أتى إلى أبي هريرة رضي الله عنه فقال : ادع الله لابني فقد وقع في نفسي الخوف من هلاكه .فقال له : ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائي وأنجع وأسرع اجابة .قال : بلى. قال:تصدق عنه بصدقة تنوي بها نجاة ولدك وسلامة ما معه. فخرج الرجل من عنده وتصدق على سائل بدرهم وقال :هذا لخلاص ولدي وسلامته ومامعه فنادى في تلك الساعة مناد في البحر: الا إن الفداء مقبول وزيد مغاث ، فلما قدم سأله أبوه عن حاله فقال : يا أبت لقد رأيت في البحر عجباً يوم كذا وكذا في وقت كذاوكذا-وهو اليوم الذي تصدق فيه والده عنه بالدراهم - وذلك انا أشرفنا على الهلاك والتلف فسمعنا صوتاً من الهواء ألا أن الفداء مقبول ، وزيد مغاث وجاءنا رجال عليهم ثيابٌ بيض فقدموا السفينة الى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصرنا بخير أجميعين .

والآثار والحكايات في ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وعى وأن ليس للانسان إلا ما سعى والله أعلم .



في الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب

قال الله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾**(١) .قيل: الصوم عموم وخصوص ، وخصوص الخصوص. فصوم العموم هو كف البطن والفرج وسائر

(١) سورة البقرة الآية ١٨٣ .

الجوارح عن قصد الشهوة . وصوم الخصوص هو كف السمع والبصر واللسان ، واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وصوم خصوص الخصوص ، هو صوم القلب عن الهمم الدنية وكفه عما سوى الله بالكلية . قال رسول الله ﷺ : « زكاة الجسد الصيام» . وعنه ﷺ : « للصائم فرحتان فرحة عند افطاره وفرحة عند لقاء ربه » . وقال وكيع في قوله تعالى : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية** ﴾[1] إنها أيام الصوم ، تركوا فيها الأكل والشرب . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :«من أفطر يوماً في رمضان من غير رخصة رخصها الله له لم يقض عنه صيام الدهر» . وروي في صحيح النسائي[2] عنه أيضاً ﷺ أنه قال : « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وأغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين » . وروى الزهري أن تسبيحة واحدة في شهر رمضان أفضل من ألف تسبيحة في غيره . وروي عن قتادة أنه كان يقول : من لم يغفر له في شهر رمضان فلن يغفر له في غيره . وقال رسول الله ﷺ : « لو يعلم الناس ما في شهر رمضان من الخير لتمنت أمتي أن يكون رمضان السنة كلها ولو أذن الله للسموات والأرض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة » ، وقال ﷺ: « ليس من عبد يصلي في ليلة من شهر رمضان إلا كتب الله له بكل ركعة ألفاً وخمسمائة حسنة ، وبنى له بيتاً في الجنة من ياقوته حمراء لها سبعون ألف باب لكل باب منها مصراعان من ذهب ، وله بكل سجدة يسجدها شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام » ، وقال ﷺ : « إن لكل صائم دعوة فإذا أراد أن تقبل فليقل في كل ليلة عند فطره يا واسع المغفرة اغفر لي » .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : من صام يوماً من رمضان خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإذا انسلخ عنه الشهر وهو حي لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول ومن عطش نفسه لله في يوم شديد الحر من أيام الدنيا كان حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة. وقال بعضهم : الصيام زكاة البدن ، ومن صام الدهر فقد وهب نفسه لله تعالى : وروي في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ، ما اجتنبت الكبائر » . وعنه ﷺ انه قال : « صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، كصيام الدهر ، وهي الأيام البيض ، وهي الثالث عشر والرابع عشر ، والخامس عشر ، من كل شهر .

في صحيح البخاري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » . وفضل الصوم غزير لأنه خصه الله تعالى بالاضافة إليه كما ثبت في الصحيح من الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : مخبراً عن ربه عز وجل « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا اجزي به » وقد يكتفي في فضله بهذا الحديث الجليل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قال الله تعالى : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا** ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ : ومن خرج

---

(١) سورة الحاقة الآية ٢٤ .

(٢) هو احمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان ـ أبو عبد الرحمن ـ صاحب السنن ، القاضي ، الحافظ . أصله من نسا (بخراسان) . جال في البلاد ، واستوطن مصر ، ودفن في بيت المقدس سنة (٣٠٣هـ ـ ٩١٥م) من كتبه : « المجتبى » وهو السنن الصغرى ، ومن الكتب الصغرى المشهورة في الحديث . و« الضعفاء والمتروكون » في رجال الحديث و« مسند علي » وغيرها .

(٣) سورة آل عمران الآية ٩٧.



في الحج وفضله

من بيته حاجاً أو معتمراً فمات أجرى الله له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة ، وقال ﷺ : من استطاع الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً . وإن شاء نصرانياً . وفي **الحديث**: إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة . وفيه : أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له وهو أفضل يوم في الدنيا . وفي الخبر أن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة وأنه يبعثه الله يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق وصدق . وجاء في الحديث الصحيح: أن آدم عليه الصلاة والسلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا : يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام . وقال مجاهد[1] : إن الحجاج إذا قدموا مكة لحقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الابل ، وصافحوا ركبان الحمر ، واعتنقوا المشاة اعتناقاً ، وكان من سنة السلف رضي الله عنهم أن يشيعوا الغزاة ، ويستقبلوا الحجاج ، ويقبلوهم بين أعينهم ، ويسألوهم الدعاء لهم ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام . وعن النبي ﷺ : « إن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف فان نقصوا كملهم الله تعالى من الملائكة ، وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة ، فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها ، حتى تدخل الجنة فيدخل معها » (وحكي) أن جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة[2] أبي محمد بن حمدان ، حجت سنة ست وثماني وثلثمائة فصارت تاريخاً مذكوراً قيل : انها سقت أهل الموسم كله السويق بالطبرزد والثلج . واستصحبت البقول المزروعة في المراكن على الجمال ، وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين ، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار ، ولم تستصبح فيها وعندها إلا بشموع العنبر ، وأعتقت ثلاثمائة عبد ، ومائتي جارية ، وأغنت الفقراء والمجاورين . ولما بنى آدم عليه الصلاة والسلام البيت وقال : يا رب إن لكل عامل أجراً فما أجر عملي . قال: إذا طفت به غفرت لك ذنوبك . قال: زدني . قال : جعلته قبلة لك لأولادك، قال: يا رب زدني. قال : أغفر لكل من استغفرني من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك. قال: يا رب حسبي . وفي الحديث : الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة * وقيل للحسن: ما الحج المبرور؟ قال: أن ترجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة. وأول من كسا الكعبة الديباج عبد الله بن الزبير[3] وكانت كسوتها المسوح والانطاع وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم . وكان

---

(١) هو مجاهد بن جبر - ابو الحجاج المكي - شيخ القراء والمفسرين . أخذ التفسير عن ابن عباس قرأه عليه ثلاث مرات . له كتاب « التفسير » ويقال انه مات وهو ساجد سنة (١٠٤ هـ - ٧٢٢ م).

(٢) من امراء الدولة الحمدانية . أخو سيف الدولة . تولى امارة الموصل وامتد نفوذه إلى الجزيرة العربية والشمال السوري توفي سنة (٣٥٨هـ - ٩٦٨ م) .

(٣) هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الاسدي - أبو بكر - فارس قريش في زمنه ، بويع بالخلافة سنة ٦٤هـ ، عقب موت يزيد بن معاوية . حكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام ، وجعل قاعدة ملكه المدينة المنورة . توفي سنة (٧٣هـ - ٦٩٢ م).

حكيم بن حزام يقيم عشية عرفة مائة بدنة . ومائة رقبة فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر وكان يطوف بالبيت فيقول :لا إله إلا الله وحده لا شريك له نعم الرب ونعم الإله أحبه وأخشاه . ورؤي الحسن بن علي رضي الله عنهما يطوف بالبيت ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين ثم وضع خده على المقام فجعل يبكي ويقول :عبيدك ببابك ، خويدمك ببابك ،سائلك ببابك ،مسيكينك ببابك. يردد ذلك مراراً ثم انصرف رضي الله عنه فمرّ بمساكين معهم فلق خبز يأكلون فسلم عليهم فدعوه إلى الطعام فجلس معهم وقال : لولا إنه صدقة لأكلت معكم ، ثم قال :قوموا بنا إلى منزلي .فتوجهوا معه فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم (وحج) عبد الله بن جعفر[١] رضي الله عنه ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشي على رجليه حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكاً وحملهم على ثلاثين راحلة وأمر لهم بثلاثين ألفاً وقال: أعتقتهم لله تعالى لعله يعتقني من النار . وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما : إني لأستحي من ربي أن القاه ولم أمش إلى بيته.فمشى من المدينة الى مكة عشرين مرة . ومن لطيف ما أنشد عمرو بن حيان الضرير حين لم يهد إليه الحجاج شيئاً :

كأن الحجيج الآن لم يقربوا مني ... ولم يحملوا منها سواكاً ولا نعلا
أتونا فما جادوا بعود اراكة ... ولا وضعوا في كف طفل لنا نقلا

وقال غيره :

يحجون بالمال الذي يجمعونه ... حراماً إلى البيت العتيق المحرم
ويزعم كل منهمو أن وزره ... يحط ولكن فوقه في جهنم

وقال آخر :

حج في الدهر حجة ... حج فيها وأحرما
وأتانا من الحجا ... ز كما راح مُحْرِما
فهو ذو الحجة الذي ... ما توقى مُحَرّما

وتخاصم بدوي مع حاج عند منصرف الناس فقيل له : اتخاصم رجلاً من الحجاج فقال :

يحج لكيما يغفر الله ذنبه ... ويرجع قد حطت عليه ذنوب

وقال أبو الشمقمق :

إذا حججت بمال أصله دنس ... فما حججت ولكن حجت العير
ما يقبل الله إلا كل طيبة ... ما كل من حج بيت الله مبرور

والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي . صحابي جليل . كان كريماً يسمى (بحر الجود) وللشعراء فيه مدائح . كان أحد الامراء في جيش علي يوم صفين توفي سنة (٨٠هـ - ٧٠٠ م).

الباب الثاني

في العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك

نص الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز ومنزل خطابه الوجيز على شرف العقل وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وأوضحها وبين بدائع مصنوعاته وشرحها فقال تعالى : ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾[١] . وروي عن النبي ﷺ أنه قال: أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له اقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال عزّ من قائل : « وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعزعليّ منك ، بك آخذ وبك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب » . وقال أهل المعرفة والعلم[٢] العقل جوهر مضيء خلقه الله عز وجل في الدماغ وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط ، والمحسوسات بالمشاهدة .

واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين : قسم لا يقبل الزيادة والنقصان ، وقسم يقبلهما . فأما الأول فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء ، وأما الثاني فهو العقل التجريبي وهو مكتسب وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع وباعتبار هذه الحالة يقال ان الشيخ أكمل عقلاً ، وأتم دراية ، وان صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح معرفة ولهذا قيل من بيضت الحوادث سواد لمته ، وأخلقت التجارب لباس جدته وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته تصاريف أقداره وأقضيته كان جديراً برزانة العقل ورجاحة الدراية . وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل ، وزيادة معرفة ، تخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجحاً على ذوي التجارب والآداب ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى به في محكم كتابه العزيز حيث يقول : ﴿ **وآتيناه الحكم صبياً** ﴾[٣] فمن سبقت له سابقة من الله تعالى في قسم السعادة وأدركته عناية أزلية أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه ، وأسفر عن وجه الاصابة ظنه ، وان كان حديث السن قليل التجربة كما نقل في قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبي حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام في أمر الغنم والحرث وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم ، والآخر صاحب حرث، فقال أحدهما : إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثي فأهلكته وأكلته

---

(١) سورة النحل الآية ١٢ .

(٢) فرقة من المسلمين يرون أن أفعال الخير من الله تعالى وأفعال الشر من الانسان . وان القرآن مخلوق محدث وليس بأزلي .

(٣) سورة مريم الآية ١٢.

ولم تبق لي فيه شيئاً ، فقال داود عليه السلام الغنم لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه ، فلما خرجا من عنده مرّا على سليمان عليه السلام وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة فقال لهما:ما حكم بينكما الملك فذكرا له ذلك فقال :غير هذا أرفق بالفريقين فعادا إلى داود عليه السلام ، وقالا له ما قاله ولده سليمان عليه السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له ما هو الارفق بالفريقين . فقال سليمان تسلم الغنم الى صاحب الحرث - وكان الحرث كرماً قد تدلت عناقيده في قول أكثر المفسرين - فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها وينتفع بدرها ونسلها ، ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به فإذا عاد الكرم الى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه ، سلم صاحب الكرم الغنم الى صاحبها ، وتسلم كرمه كما كان بعناقيده وصورته . فقال له داود القضاء كما قلت وحكم به كما قال سليمان عليه السلام . في هذه القصة نزل قوله تعالى : ﴿**وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً**﴾[1] فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة ، بل حصلت بعناية ربانية ، وألطاف إلهية ، وإذا قذف الله تعالى شيئاً من أنوار مواهبه في قلب من يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب ، ورجح على ذوي التجارب والاكتساب في كثير من الأسباب . ويستدل على حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه ، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته فان المشاهدة من خصائص الأجسام فأقول يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة منها ميله إلى محاسن الاخلاق واعراضه عن رذائل الأعمال ، ورغبته في اسداء صنائع المعروف ، وتجنبه ما يكسبه عاراً ، ويورثه سوء السمعة . وقد قيل لبعض الحكماء :بم يعرف عقل الرجل فقال :بقلة سقطه في الكلام ، وكثرة اصابته فيه ، فقيل له فإن كان غائباً فقال بإحدى ثلاث : إما برسوله ، وإما بكتابه ، وإما بهدايته ، فإن رسوله قائم مقام نفسه ، وكتابه يصف نطق لسانه ، وهديته عنوان همته . فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها . وقيل من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس ، ويكفي أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه . فإنه روي عن النبي ﷺ أنه قال : « من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق» فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق . وقالوا : العاقل الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه . وقال رسول الله ﷺ : « الجنة مائة درجة ، تسعة وتسعون منها لأهل العقل ، وواحدة لسائر الناس » . وقال علي بن عبيدة : العقل ملك والخصال رعية فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها . فسمعه أعرابي فقال : هذا كلام يقطر عسله ، وقيل بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس ، وكل شيء إذا كثر رخص ، إلا العقل فإنه كلما كثر غلا ، وقيل لكل شيء غاية وحدّ ، والعقل لا غاية له ولا حد ، ولكن الناس يتفاوتون فيه . تفاوت الأزهار في المروج . واختلف الحكماء في ماهيته ،فقال قوم :هو نور وضعه الله طبعاً وغريزة في القلب كالنور في العين، وهو يزيد وينقص ، ويذهب ويعود ، وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور . وعمي القلب كعمي البصر قال الله تعالى : ﴿ **فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور** ﴾[2] وقيل محل العقل الدماغ ، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله تعالى . وذهب جماعة إلى أنه في القلب كما روي عن الشافعي رحمه الله تعالى ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ **فتكون لهم قلوب يعقلون بها** ﴾[3] وبقوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن**

---

(١) سورة الانبياء الآيتان ٧٨ - ٧٩.

(٢ ، ٣) سورة الحج الآية ٤٦ .

كان له قلب﴾[1] أي عقل . وقالوا التجربة مرآة العقل ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ، ولا يسقط لهم فهم ، وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع ، فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة (قال الشاعر) :

ألم تـر أن الـعـقـل زيـن لأهـله ... ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر :

إذا طال عمر المرء في غير آفـة ... أفـادت لـه الأيـام في كـرهـا عقـلا

وقال عامر بن عبد قيس : إذا عقلك عقلك عما لا يعنيك فأنت عاقل . ويقال لا شرف إلا شرف العقل ، ولا غنى إلا غنى النفس . وقيل يعيش العاقل بعقله حيث كان ،كما يعيش الأسد بقوته حيث كان. قال الشاعر :

إذا لم يكن لـلمـرء عقـل فـإنـه ... وإن كـان ذا بيت على النـاس هين

ومن كـان ذا عقـل أجـلّ لعقـله ... وأفضـل عقـل عقـل من يتـدين

وقالوا : العاقل لا تبطره المنزلة السنية ، كالجبل لا يتزعزع وان اشتدت عليه الريح ، والجاهل تبطره أدنى منزلة ، كالحشيش يحركه أدنى ريح . وقيل لعلي رضي الله تعالى عنه صف لنا العاقل . قال : الذي يضع الشيء مواضعه . قيل فصف لنا الجاهل . قال : فقد فعلت يعني الذي لا يضع الشيء مواضعه . وقال المنصور لولده خذ عني اثنتين : لا تقل من غير تفكير ، ولا تعمل بغير تدبير . وقال اردشير : أربعة تحتاج إلى أربعة ، الحسب إلى الأدب ، والسرور إلى الأمن ، والقرابة إلى المودة ، والعقل إلى التجربة . وقال كسرى أنو شروان : أربعة تؤدي إلى أربعة : العقل إلى الرياسة ، والرأي إلى السياسة ، والعلم إلى التصدير ، والحلم إلى التوقير . وقال القاسم بن محمد : من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه ، كان حتفه من أغلب الخصال عليه . وقيل: أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه ، وقيل ثلاثة هن رأس العقل ، مداراة الناس ، والاقتصاد في المعيشة ، والتحبب إلى الناس . وقيل من أعجب برأي نفسه ، بطل رأيه ، ومن ترك الاستماع من ذوي العقول مات عقله . وعن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه أنه قال : أهل مصر أعقل الناس صغاراً ، وأرحمهم كباراً . وقيل : العاقل المحروم . خير من الأحمق المرزوق ، وقيل لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت ، ولا طعاماً حتى يستمرئه ، ولا يثق بخليل حتى يستقرضه ، وقيل طول اللحية أمان من العقل . وسئل بعضهم أيما أحمد في الصبا ، الحياء ، أم الخوف . قال الحياء ، لأن الحياء يدل على العقل ، والخوف يدل على الجبن . وقيل غضب العاقل على فعله وغضب الجاهل على قوله وقال أبو الدرداء[2] رضي الله تعالى عنه قال لي رسول الله ﷺ: « يا عويمر ازدد عقلاً تزدد من الله تعالى قرباً » قلت بأبي وأمي ومن لي بالعقل؟ قال :«اجتنب محارم الله تعالى، وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلاً ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزدد في الدنيا عقلاً ، وتزدد من الله قرباً وعزاً »،وحكى بعض أهل المعرفة قال حياة النفس بالروح ، وحياة الروح بالذكر ، وحياة القلب ، بالعقل ، وحياة العقل ، بالعلم . ويروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها :

---

(١) سورة ق ، الآية ٣٧ .

(٢) هو عويمر بن مالك ـ ابو الدرداء ـ صحابي جليل ، من علماء القران ، توفي سنة (٣٢هـ ـ ٦٥٢ م).

ان المكارم أخلاق مطهرة ... فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والعرف ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها ... والشكر تاسعها واللين عاشيها
والعين تعلم من عينيّ محدثها ... ان كان من حزبها أو من أعاديها
والنفس تعلم أني لا أصدقها ... ولست أرشد إلا حين أعصيها

وقال بعض الحكماء : العاقل من عقله في ارشاد ، ورأيه في امداد ، فقوله سديد ، وفعله حميد ، والجاهل من جهله في اغراء ، فقوله سقيم ، وفعله ذميم ، ولا يكفي في الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته ، وتسريح لحيته ، وكثرة صلفته ونظافة بزته ، إذ كم من كنيف مبيض ، وجلد مفضض ، وقد قال الأصمعي[1] : رأيت بالبصرة شيخاً له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة وحوله حاشية وهرج وعنده دخل وخرج فأردت أن أختبر عقله فسلمت عليه وقلت له: ما كنية سيدنا؟ فقال :أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين. قال الأصمعي فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجه ودخله. وقد يكون الرجل موسوماً بالعقل مرقوماً بعين الفضل فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله ، وتشهد عليه بقلة عقله واختلاله . وقيل : إن اياس بن معاوية القاضي كان من أكابر العقلاء وكان عقله يهديه الى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها ، فكان من جملة الوقائع التي صدرت منه ، وشهدت له بالعقل الراجح ، والفكر القادح ، أنه كان في زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة فاتفق أن رجلاً أراد أن يحج فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيساً فيه جملة من الذهب ، ثم حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره ، وجحده ، فجاء إلى القاضي اياس وقص عليه القصة فقال القاضي : هل أخبرت بذلك أحداً غيري قال :لا . قال :فهل علم الرجل أنك أتيت إليّ ؟ قال : لا. قال : انصرف واكتم أمرك ثم عد إليّ بعد غدّ . فانصرف، ثم ان القاضي دعا ذلك الرجل المستودع فقال له : قد حصل عندي أموال كثيرة . ورأيت أن أودعها عندك ، فاذهب وهيّيء لها موضعاً حصيناً . فمضى ذلك الرجل وحضّر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل فقال له القاضي اياس : امض إلى خصمك ، واطلب منه وديعتك ، فإن جحدك فقل له امض معي إلى القاضي اياس ، أتحاكم أنا وأنت عنده .فلما جاء إليه دفع إليه وديعته ، فجاء إلى القاضي وأعلمه بذلك ، ثم أن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضي طامعاً في تسليم المال فسبه القاضي وطرده . وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره . ولما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها ، فقال الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض ، فتمكننا الغرة منهم ، والوثبة عليهم ، وعقدوا لذلك المشورات ، وتراجعوا فيه بالمناظرات ، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر ، وكان رجل منهم من ذوي العقل والمعرفة والرأي غائباً عنهم ، فقالوا من الحزم عرض الرأي عليه فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال: لا أرى ذلك صواباً ، فسألوه عن علة ذلك ،فقال : في الغد أخبركم ان شاء الله تعالى . فلما أصبحوا أتوا إليه ، وقالوا قد وعدتنا أن تخبرنا في هذا اليوم بما عولنا عليه ، فقال سمعاً وطاعة وأمر بإحضار كلبين عظيمين ، كان قد أعدهما ثم حرش

(١) هو عبد الله بن قريب بن علي بن اصمع الباهلي - أبو سعيد الاصمعي - راوية العرب ، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر . كان كثير التطواف في البوادي . وكان الرشيد يسميه (شيطان الشعر) . قال الأخفش : ما رأينا أحداً اعلم بالشعر من الاصمعي . من تصانيفه : « الابل » و« الاضداد » وفي نسبته إليه شك . و« خلق الانسان » و« الفرق » وغيرها توفي سنة (٢١٦هـ - ٨٣١ م) .

بينهما وحرض كل واحد منهما على الآخر ، فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما فلما بلغ الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلبين ذئباً كان قد أعده لذلك فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعاً على الذئب فقتلاه ، فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال : مثلكم مع المسلمين ، مثل هذا الذئب مع الكلاب ، لا يزال الهرج بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم ، فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتآلفوا على العدو ، فاستحسنوا قوله ، واستصوبوا رأيه فهذه صفة العقلاء .

(وأما ذم الحمق) فقد قال ابن الأعرابي الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأي فلا يشاور ولا يلتفت إليه في أمر من الأمور ، والحمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت قال الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

والحمق مذموم قال رسول الله ﷺ : « الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى ، إذ حرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل » . ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة ، بطول اللحية لأن مخرجها من الدماغ ، فمن أفرط طول لحيته قل دماغه ، ومن قل دماغه ، قل عقله ، ومن قل عقله فهو أحمق ، وأما صفته من حيث الأفعال ، فترك نظره في العواقب وثقته بمن لا يعرفه ، والعجب ، وكثرة الكلام ، وسرعة الجواب ، وكثرة الالتفات ، والخلو من العلم ، والعجلة ، والخفة ، والسفه ، والظلم ، والغفلة ، والسهو ، والخيلاء ، ان استغنى بطر ، وان افتقر قنط ، وان قال أفحش ، وان سئل بخل ، وان سأل ألح ، وان قال لم يحسن ، وان قيل له لم يفقه ، وإن ضحك قهقه ، وان بكى صرخ ، وان اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس ، فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق . قال عيسى عليه السلام : عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهما ، وعالجت الأحمق فأعياني . والسكوت عن الأحمق جوابه . ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر ، فقال حجر على حجر . (وحكي) أن أحمقين اصطحبا في طريق ، فقال أحدهما للآخر : تعال نتمن على الله ، فإن الطريق تقطع بالحديث ،فقال أحدهما :أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ، وصوفها . وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك ، حتى لا تترك منها شيئاً .قال: ويحك أهذا من حق الصحبة ، وحرمة العشرة؟فتصايحا ، وتخاصما ، واشتدت الخصومة حتى تماسكا بالأطواق ثم تراضيا ، على أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما فطلع عليهما شيخ بحمار ، عليه زقان من عسل ، فحدثاه بحديثهما فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب ،ثم قال: صبّ الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين . وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال :كان رجل يتعبد في صومعة فأمطرت السماء وأعشبت الأرض فرأى حماره يرعى في ذلك العشب فقال : يا رب لو كان لك حمار لرعيته مع حماري هذا ، فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهم أن يدعو عليه فأوحى الله إليه لا تدع عليه فإني أجازي العباد على قدر عقولهم . ويقال فلان ذو حمق وافر ، وعقل نافر ، ليس معه من العقل إلا ما يوجب ، حجة الله عليه . وخطب سهل هند ابنة عتبة فحمقته فقال :

وما هوجي يا هند إلا سجية أجرّ لها ذيلي بحسن الخلائق
ولو شئت خادعت الفتى عن قلوصه ولاطمت في البطحاء من كل طارق

ويقال للأبله السليم القلب ، هو من بقر الجنة لا ينطح ، ولا يرمح ، والأحمق المؤذي هو من بقر سقر والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثالث

في القرآن وفضله وحرمته وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم

قال الله تعالى : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر** ﴾[1] وسمى الله تعالى القرآن كريماً فقال تعالى :﴿ **انه لقرآن كريم** ﴾[2] وسمّاه حكيماً فقال تعالى : ﴿ **يس والقرآن الحكيم** ﴾[3] وسمّاه مجيداً فقال تعالى : ﴿ **ق والقرآن المجيد** ﴾[4] أنزله الله تعالى على سيد الأنام وخاتم الأنبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته ، وعن الاتيان بآية من مثله ، قال تعالى : ﴿ **قل فأتوا بسورة من مثله** ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾[6] فهو النور المبين والحق المستبين لا شيء أسطع من أعلامه ولا أصدع من أحكامه ولا أفصح من بلاغته ولا أرجح من فصاحته ، ولا أكثر من إفادته ، ولا ألذ من تلاوته ، قال رسول الله ﷺ : « القرآن فيه خبر من قبلكم ، ونبأ من بعدكم ، وحكم ما بينكم » . وقال أيضاً ﷺ : « أصغر البيوت بيت صفر من كتاب الله تعالى » . قال الشعبي[7]:الذي يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه عز وجل . ووفد غالب بن صعصعة على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومعه ابنه الفرزدق فقال له : من أنت ؟ قال : غالب بن صعصعة . قال: ذو الابل الكثيرة ؟ قال: نعم ، قال: فما فعلت بإبلك. قال : أذهبتها النوائب وزعزعتها الحقوق . قال: ذلك خير سبلها ثم قال له : يا أبا الأخطل من هذا الذي معك ؟ قال : ابني وهو شاعر . قال : علمه القرآن فهو خير له من الشعر . فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه في سنة وفي ذلك قال :

وما صب رجلي في حديد مجاشع ... مع القيد إلا حاجة لي أريدها

وقال أنس رضي الله عنه قال لي رسول الله ﷺ :«يابني لا تغفل عن قراءة القرآن اذا أصبحت وإذا أمسيت

---

(١) سورة القمر الآيات (١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠).
(٢) سورة الواقعة الآية ٧٧
(٣) سورة يس الآية ١.
(٤) سورة ق ، الآية ١.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٣ . سورة يونس الآية ٣٨ .
(٦)سورة الاسراء الآية ٨٨ .
(٧) هو ابو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري ـ أبو عمرو ـ راوية من التابعين ، يضرب المثل في حفظه ، وهو من رجال الحديث الثقات . كان فقيهاً شاعراً توفي سنة (١٠٣هـ ـ ٧٢١ م).

فإن القرآن يحيي القلب الميت وينهى عن الفحشاء والمنكر » . (وحكى) الزمخشري في كتابه ربيع الأبرارقال :ومن حكايات الحشوية ما قيل أن ابراهيم الخواص مرّ بمصروع فأذن في اذنه فناداه الشيطان من جوفه دعني أقتله فإنه يقول القرآن مخلوق . وكان سفيان الثوري[١] رحمه الله تعالى إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن . وكان الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى إذا دخل شهر رمضان يفرّ من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم ويقبل على القراءة في المصحف وكان أبو حنيفة والشعبي رحمهما الله تعالى يختمان في رمضان ستين ختمة .

وقال علي رضي الله تعالى عنه : من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزوا . وقال الشعبي : اللسان عدل على الأذن والقلب فاقرأ قراءة تسمعها أذنك ويفهمها قلبك . وقال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله » . وعنه ﷺ أنه قال : « إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد » ،قيل :يا رسول الله وماجلاؤها؟قال : « قراءة القرآن وذكر الموت » . وقال عمر بن ميمون : من نشر مصحفاً حين يصلي الصبح فقرأ مائة آية ، رفع الله له مثل عمل جميع أهل الدنيا . وقال علي كرم الله وجهه : من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ، ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمسة وعشرون حسنة، ومن قرأه على غير وضوء، فعشر حسنات .

وقال ابن عباس[٢] رضي الله عنهما: لئن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة . وقال رسول الله ﷺ : « اقرأوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » ،وعن صالح المزني قال : قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام ،فقال لي :يا صالح هذه القراءة فأين البكاء .وكان عثمان رضي الله عنه : يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد يوسف إلى مريم ، وليلة الاثنين بطه إلى طسم ، وموسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الاربعاء بتنزيل الى الرحمن ، ويختتم ليلة الخميس .

وعن علي رضي الله عنه : لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا خير في قراءة لا تدبر فيها . وكان عكرمة ابن أبي جهل رضي الله تعالى عنه ولعن أباه إذا نشر المصحف أغمي عليه ويقول هو كلام ربي . وأبطأت عائشة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ ليلة فقال : ما حبسك ؟قالت : قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه ، فقام فاستمع إليه طويلاً ثم قال : هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله ، وقال ابن عيينة :رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت يا رسول الله قد اختلفت عليّ القراءات فعلى قراءة من تأمرني . فقال : على قراءة أبي عمرو . وعن أبي عمرو :اني لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله ﷺ وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، فقرأت عليهم (فاشدد بها يدك) . فينبغي للانسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلاً ونهاراً سفراً أو حضراً . وقال الشيخ محيي الدين النووي[٣] رحمه الله تعالى في كتابه

---

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري . من بني ثور بن عبد مناة ، ـ ابو عبد الله ـ أمير المؤمنين في الحديث ، وكان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى . ولد بالكوفة سنة (١٤٤هـ) وسكن مكة والمدينة من كتبه « الجامع الكبير » و« الجامع الصغير » وكتاب في « الفرائض » . توفي سنة (١٦١هـ ـ ٧٧٨ م) .

(٢) ابن عم النبي ﷺ اسلم قبل الهجرة . وهو من رواة الحديث المشهورين توفي سنة (٦٩هـ ـ ٦٨٨ م) .

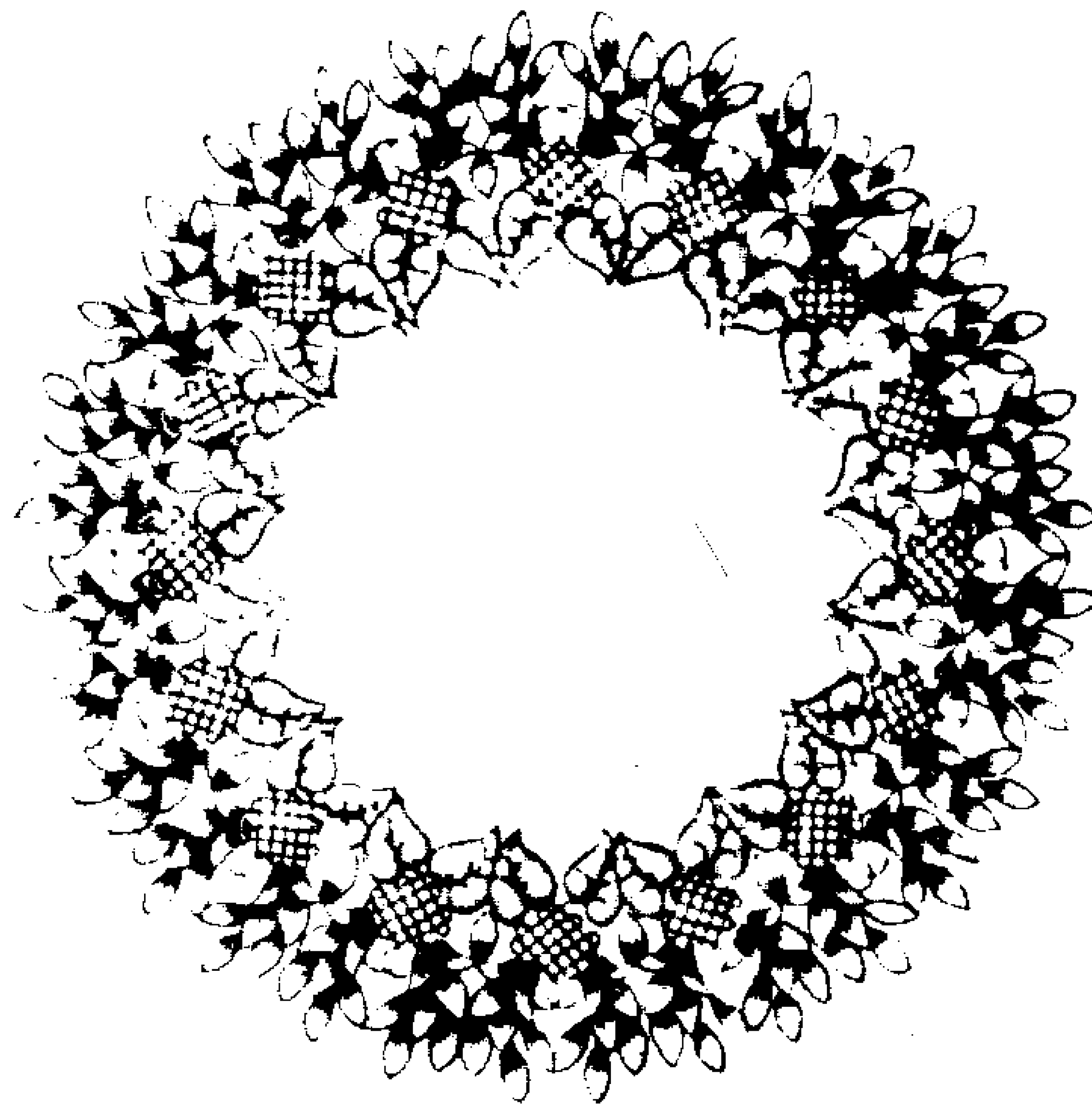
(٣) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني ، النووي . ـ ابو زكريا ـ علامة بالفقه والحديث ولد في نوا (بحوران) واليها نسبته . من كتبه : « منهاج الطالبين » و« الدقائق » و« المنهاج في صحيح مسلم » و« حلية الابرار » ويعرف بالاذكار النووية و« رياض الصالحين » و« بستان العارفين » وغيرها كثير . توفي سنة (٦٧٦هـ ـ ١٢٧٧ م) .

الأذكار : « قد كان للسلف رضي الله عنهم عادات مختلفة في القدر الذي يختمون فيه فكانت جماعة منهم يختمون في كل شهر ختمة وآخرون في كل عشر ليال ختمة ، وآخرون في كل ثلاث ليال ختمة وكان كثيرون في كل يوم وليلة ختمة ، وختم جماعة في كل يوم وليلة ختمتين ، وختم بعضهم في اليوم والليلة ثماني ختمات ، اربعاً في الليل وأربعاً في النهار ، وروي أن مجاهداً رحمه الله تعالى كان يختم القرآن في شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء . وأما الذين ختموا القرآن في ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمنهم عثمان بن عفان ، وتميم الداري ، وسعيد بن جبير رضي الله عنهم . وروينا في مسند الامام المجمع على حفظه وجلالته واتقانه وبراعته أبي محمد الدارمي رحمه الله عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح وإذا وافق أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي . قال الدارمي : هذا حديث حسن عن سعد. وأفضل القراءة ما كان في الصلاة وأما في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل ، والنصف الأخير منه أفضل من الأول ، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة ، وأما قراءة النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح ، ولا كراهة في وقت من الأوقات ، ولا في أوقات النهي عن الصلاة ، ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة . وقيل إن الدعاء يستجاب عند ختم القرآن ، وان الرحمة تنزل عند ختمه ، ويستحب الدعاء عقب الختم استحباباً مؤكداً تأكيداً شديداً ، ويجب على القارىء الاخلاص في قراءته ، وأن يريد بها وجه الله تعالى ، وأن لا يقصد بها توصلاً إلى شيء ، سوى ذلك وأن يتأدب مع القرآن ويستحضر في ذهنه أنه يناجي ربه سبحانه وتعالى ، ويتلو كتابه فيقرأ على حالة من يرى الله تعالى ، فانه إن لم يكن يراه فان الله يراه ، وينبغي للقارىء إذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك وأن يكون شأنه الخشوع والتدبر ، والخضوع فهذا هو المقصود ، والمطلوب وبه تنشرح الصدور ويتيسر المرغوب ، ودلائله أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر ، وقد كان الواحد من السلف رضي الله عنهم يتلو آية واحدة ، ليلة كاملة يتدبرها ، ويستحب البكاء ، والتباكي لمن لا يقدر على البكاء ، فإن البكاء عند القراءة صفة العارفين ، وشعار عباد الله الصالحين ، قال الله تعالى : ﴿ **ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً** ﴾(١) . وقال السيد الجليل صاحب الكرامات والمعارف والمواهب واللطائف ابراهيم الخواص رضي الله تعالى عنه دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلو البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين ، وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة ، وآثار بفضيلة الأسرار . قال العلماء : إن أراد القارىء بالأسرار بعد الرياء فهو أفضل في حق من يخاف ذلك ، فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل بشرط أن لا يؤذي غيره من مصل ، أو نائم ، أو غيرهما . والأحاديث في فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة ، ومن أراد الزيادة فلينظر في كتاب التبيان في آداب حملة القرآن لشيخ مشايخ الاسلام محيي الدين النووي قدس الله روحه ونور ضريحه.وقد جاء في فضل القرآن أحاديث كثيرة .

وروى في فضل قراءة سورة من القرآن في اليوم والليلة فضل كبير منها يٰس وتبارك الملك والواقعة والدخان . فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قرأ يٰس في يوم وليلة ابتغاء وجه الله تعالى غفر له » وفي رواية له : « من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح مغفوراً له » . وفي رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة» . وعن جابر رضي الله

(١) سورة الاسراء الآية ١٠٩ .

عنه قال : كان رسول الله ﷺ لا ينام كل ليلة حتى يقرأ ﴿ **ألم تنزيل الكتاب** ﴾، ﴿ **وتبارك الملك** ﴾ . وعن أبي هريرة رضي **الله** عنه أنه قال : من قرأ في ليلة ﴿ **إذا زلزلت الأرض** ﴾ ، كانت له كعدل نصف القرآن ، ومن قرأ ﴿ **قل يا أيها الكافرون** »، كانت له كعدل ربع القرآن ، ومن قرأ ، ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾، كانت له كعدل الثلث ، والأحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة وقد أشرنا الى المقاصد منها والله تعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الرابع

في العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم

قال الله تعالى : ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾[2]. وعن معاذ بن جبل[3] رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسنة ودراسته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لأهله قربة لأنه معالم الحلال والحرام وبيان سبيل الجنة والمؤنس في الوحشة والمحدث في الخلوة والجليس في الوحدة والصاحب في الغربة ، والدليل على السراء ، والمعين على الضراء ، والزين عند الاخلاء ، والسلاح على الأعداء ، وبالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار ، في الدرجات العلى ومجالسة الملوك في الدنيا ، ومرافقة الأبرار في الآخرة ، والفكر في العلم يعدل الصيام ، ومذاكرته تعدل القيام ، وبالعلم توصل الأرحام وتفصل الأحكام وبه يعرف الحلال والحرام ، وبالعلم يعرف الله ويوحد ، وبالعلم يطاع اللهويعبد » . قيل : العلم درك حقائق الأشياء مسموعاً ومعقولاً وقال النبي ﷺ : « خير الدنيا والآخرة مع العلم ، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل ». وعنه عليه الصلاة والسلام : « يوزن مداد العلماء ، ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر ، ولغدوة في طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة ، ولا يخرج أحد في طلب العلم ، إلا وملك موكل به يبشره بالجنة ، ومن مات وميراثه المحابر ، والأقلام دخل الجنّة ».وقال علي كرم الله وجهه : أقل الناس قيمة أقلهم علماً . وقال أيضاً رضي الله عنه : العلم نهر ، والحكمة بحر ، والعلماء حول النهر يطوفون ، والحكماء وسط البحر يغوصون ، والعارفون في سفن النجاة يسبرون . وقال موسى عليه السلام في مناجاته : إلهي من أحب الناس إليك؟ قال: عالم يطلب علماً . وقال بعض السلف رضي الله عنهم: العلوم أربعة : الفقه للأديان ، والطب للأبدان ، والنجوم للأزمان ، والنحو للسان . وقيل العالم طبيب هذه الأمة ، والدنيا داؤها ، فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرىء غيره . وسئل الشعبي عن مسألةفقال:لا علم لي بها . فقيل له :ألاتستحي ؟فقال ولمَ أستحي مما لم تستح الملائكة منه حين قالت لا

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٨ .

(٢) سورة المجادلة الآية ١١ .

(٣) صحابي جليل . كان أعلم الامة بالحلال والحرام ، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ شهد بدراً وأحداً والخندق وشهد العقبة مع الانصار السبعين . توفي سنة (١٨هـ - ٦٣٩ م) وله ١٥٧ حديثاً .

علم لنا . وعن النبي ﷺ : « فضل العالم على العابد ، كفضلي على أدناكم »وروى .«كفَضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» .وقال علي كرم الله وجهه: من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته ، قبل تأديبه بلسانه. وقيل: مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالاجلال من مؤدب الناس ومعلمهم: وأنشدوا :

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبداً وأنت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويهتدي ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال بعضهم :

إني رأيت الناس في عصرنا ... لا يطلبون العلم للعلم
إلا مباهاة لأصحابه ... وعدة للغش والظلم

نظر رجل إلى امرأته وهي صاعدة في السلم فقال لها : أنت طالق ان صعدت ، وطالق إن نزلت ، وطالق إن وقفت . فرمت نفسها إلى الأرض فقال لها : فداك أبي وأمي ، ان مات الامام مالك احتاج إليك أهل المدينة في أحكامهم . وقال النبي ﷺ : « هلاك أمتي في شيئين : ترك العلم ، وجمع المال » . وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «العلم بالله والفقه في دينه» وكررها عليه فقال: يا رسول الله أسألك عن العمل فتخبرني عن العلم فقال : «ان العلم ينفعك معه قليل العمل ، وان الجهل لا ينفعك معه كثير العمل» . وقال عيسى عليه السلام: من علم وعمل عدّ في الملكوت الأعظم عظيماً . وقال الخليل عليه السلام : العلوم أقفال ، والأسئلة مفاتيحها . وعنه عليه السلام : زلة العالم مضروب بها الطبل ، وزلة الجاهل يخفيها الجهل .وقال الحسن: رأيت أقواماً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون من عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه ، والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق ، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم . وقال يزيد بن ميسرة : من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله بوجهه ووجوه العباد إليه، ومن أراد بعلمه غير وجه الله ، صرف الله وجهه ووجوه العباد عنه . وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «ألا أخبركم بأجود الأجواد» قالوا : بلى يا رسول الله قال : « الله أجود الأجواد وأنا أجود ولد آدم ، وأجود من بعدي رجل علم علماً فنشره ، يبعث يوم القيامة أمة واحدة ، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله ، حتى قتل . » وقال الثوري : كان يقال: العالم الفاجر فتنة لكل مفتون . وعن الفضيل رحمه الله تعالى أنه قال : لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم ، وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله إذاً لخضعت لهم رقاب الجبابرة ، وانقاد لهم الناس ، وكانوا لهم تبعاً ، ولكنهم أذلوا أنفسهم وبدلوا علمهم لأبناء الدنيا ، فهانوا وذلوا : إنا لله وإنا اليه راجعون فأعظم مصيبة والله أعلم ، للقاضي العلامة أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني[1] وقد أحسن كل الاحسان ، كأنما طرزت في خلع حسان :

(١) هو أبو الحسن ولي القضاء في جرجان والري وتوفي سنة (٣٩٢هـ ـ ١٠٠١ م) . له ديوان .

ولم أقض حق العلم ان كنت كلما — بدا طمعاً صيرته لي سلما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي — لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة — إذاً فاتباع الجهل قد كان أسلما
فإن قلت زند العلم كاب فإنما — كبا حين لم نحرس من حماه وأظلما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم — ولو عظموه في النفوس لعظما
لكن أهانوه فهانوا ودنسوا — محياه بالأطماع حتى تجهما

وقيل : من لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره .وقال الفضيل :شر العلماء من يجالس الأمراء وخير الأمراء من يجالس العلماء . وقال لقمان : جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بماء السماء .وقيل :من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار . وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رأى طالبي العلم قال مرحباً بكم ينابيع الحكمة ، ومصابيح الظلمة ، خلقان الثياب ، جدد القلوب ، رياحين كل قبيلة . وقال علي رضي الله عنه : كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل ضعة[1] أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه . وعن النبي ﷺ : « ما أتى الله أحداً علماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحداً » . ودعا بعضهم لآخر فقال جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية ، وممن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمله ، وعن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « على باب الجنة شجرة تحمل ثماراً كثديّ النساء يخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن والحليب ، والناس عطاش » ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : «من تعلم باباً من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبياً» . وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : « ويل لأمتي من علماء السوء يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم » .

العلم أنفس شيء أنت داخره — من يدرس العلم لم تدرس مفاخره
أقبل على العلم واستقبل مقاصده — فأوّل العلم اقبال وآخره

(قال الشعبي : دخلت على الحجاج حين قدم العراق فسألني عن اسمي فأخبرته ثم قال : يا شعبي كيف علمك بكتاب الله ؟قلت :عني يؤخذ . قال : كيف علمك بالفرائض ؟قلت :إليّ فيها المنتهى ،قال : كيف علمك بأنساب الناس؟ قلت: أنا الفيصل فيها . قال: كيف علمك بالشعر؟ قلت : أنا ديوانه قال: لله أبوك. وفرض لي أموالاً وسودني على قومي فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعاليك همدان وخرجت وأنا سيدهم . قال البستي [2] :

إذا لم يزد علم الفتى قلبه هدى — وسيرته عدلاً وأخلاقه حسنا
فبشره ان الله أولاه فتنة — تغشيه حرماناً وتوسعه حزنا

وقال الهيثم بن جميل: شهدت مالك بن أنس رضي الله عنه سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين

---

(١) الضعة : الذل والهوان .

(٢) هو علي بن محمد بن الحسين بن يوسف ، ـ ابو الفتح ـ شاعر عصره وكاتبه ، ولد في بست (قرب سجستان) وإليها نسبته . كان من كتاب الدولة السامانية في خراسان له ديوان شعر توفي سنة (٤٠٠هـ ـ ١٠١٠ م) .

وثلاثين منها لا أدري . وقال الأوزاعي : شكت النواويس إلى الله تعالى ما تجد من نتن ريح الكفار فأوحى إليها :بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه . وقال علي رضي الله عنه : من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض . ولصالح اللخمي :

تعلم إذا ما كنت لست بعالم فما العلم إلا عند أهل التعلم
تعلم فإن العلم أزين للفتى من الحلة الحسناء عند التكلم

ودخل عبد الله بن مسلم الهذلي على المهدي في القراء فأخذ عشرة آلاف درهم ، ثم دخل في الرماة فأخذ عشرة آلاف درهم ، ثم دخل في المغنين فأخذ كذلك ، ثم دخل في القصاص فأخذ كذلك فقال المهدي : « لم أر كاليوم أجمع لما يجمع الله في أحد منك . » وملّ جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتواروا عنه في بيت ، فرقى السطح ، وجعل يستمع من كوّة حتى وقع عليه الثلج فصبر فشكر الله له ذلك فجعله أمام الحكماء ، لا يختلفون في شيء إلا صدروا عن رأيه ، وشكا رجل إلى وكيع بن الجراح سوء الحفظ فقال له : استعن على الحفظ بترك المعاصي فأنشأ يقول :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وذلك إن حفظ العلم فضل وفضل الله لا يؤتى لعاصي

ووجد في بعض الآثار عن بعضهم أنه قال : إذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب ، أو المصحف ، أو ابتداء القراءة في كل شيء أردت ، بسم الله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، عدد كل حرف كتب ويكتب أبد الآبدين ودهر الداهرين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . قيل : وإذا أردت أن لا تنسى حرفاً فقل قبل القراءة : اللهم افتح علينا حكمتك ، وانشر علينا رحمتك يا ذا الجلال والاكرام . وإذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف كل صلاةمكتوبة .آمنت بالله الواحد الأحد الحق لا شريك له وكفرت بما سواه . ومن فوائد سيدي الشيخ صالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل رحمه الله تعالى في الحفظ :يقرأ في كل يوم عشر مرات﴿ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماًوعلماً﴾الى قوله تعالى:﴿ وكنا فاعلين ﴾يا حي يا قيوم ، يا رب موسى وهارون ، ويا رب ابراهيم ويا رب محمد ﷺ ، الزمني الفهم ، وارزقني العلم ، والحكمة والعقل ، برحمتك يا أرحم الراحين . وعن أبي يوسف قال : مات لي ولد فأمرت من يتولى دفنه ، ولم أدع مجلس أبي حنيفة[١] خوفاً أن يفوتني منه يوم . وقال محمد بن اسحاق بن خزيمة : ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث ، ولا أحفظ له من محمد بن اسماعيل البخاري[٢] ، حتى كان يقال إن حديثاً لا يعرفه محمد

---

(١) هو النعمان بن ثابت ـ ابو حنيفة ـ امام الحنفية ، الفقيه المجتهد المحقق ، أحد الائمة الاربعة عند أهل السنة .
وقال الشافعي : الناس عيال في الفقه على ابو حنيفة له « مسند » في الحديث . توفي سنة (١٥٠هـ ـ ٧٦٧ م) .

(٢) هو محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري ـ ابو عبد الله ـ صاحب « الجامع الصحيح » المعروف بصحيح البخاري وله : « التاريخ » و« الضعفاء » في رجال الحديث و« الادب المفرد » ولد في بخارى سنة : (١٩٤هـ ـ ٨١٠ م) ونشأ يتيماً وقام برحلة طويلة (سنة ٢١٠) في طلب الحديث فزار خراسان ومصر والشام وسمع من نحو الف شيخ وجمع نحو ستمائة الف حديث اختار منها في صحيحه ما وثق بروايته توفي سنة (٢٥٦هـ ـ ٨٧٠ م) .
انظر : تذكرة الحفاظ (٢ : ١٢٢) .
تهذيب التهذيب (٩ : ٤٧) .

ابن اسماعيل ليس بحديث . وقال البخاري رحمه الله تعالى : أحفظ مائة ألف حديث صحيح ، ومائتي ألف حديث غير صحيح . وقال : ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك ، وصليت ركعتين ،وقال : أخرجته من ستمائة ألف حديث وصنفته في ست عشرة سنة ، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى .وقال مجاهد : أتينا عمر بن عبد العزيز لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه .وكان يقال : الليث بن سعد[1] رحمه الله تعالى ذهب علمه كله بموته ، ولهذا قال الشافعي لما قدم مصر بعد موته : والله لأنت أعلم من مالك ، وإنما أصحابك ضيعوك . وقال الليث بن سعد : ما هلك عالم قط إلا ذهب ثلثا علمه ولو حرص الناس . ويقال إذا سئل العالم فلا تجب أنت فان ذلك استخفاف بالسائل والمسؤول . وقالوا : من خدم المحابر خدمته المنابر .

لا تدخر غير العلو م فإنها نعم الذخائر
فالمرء لو ربح البقا ء مع الجهالة كان خاسر

وللشافعي رضي الله عنه تعالى عنه :

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان

وقال الزهري[2]: العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، وعامر الشعبي بالكوفة ، والحسن البصري بالبصرة ، ومكحول بالشام . وقال بعضهم : العلماء سرج الأزمنة كل عالم سراج زمانه يستضيء به أهل عصره. وقيل لابراهيم بن عيينة أي الناس أطول ندامة . قال : أما في الدنيا فصانع المعروف الى من لا يشكره ، وأما في الآخرة فعالم مفرط :

كن عالماً وارض بصف النعال ولا تكن صدراً بغير الكمال
فإن تصدرت بلا آلة صيرت ذاك الصدر صف النعال

وقيل لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام جاء عصفور فأخذ بمنقاره من البحر قطرة ثم حط على ورك الخضر ثم طار فنظر الخضر إلى موسى عليه السلام وقال : يا نبي الله ان هذا العصفور يقول : يا موسى أنت على علم من علم الله علمكه الله لا يعلمه الخضر ، والخضر على علم من علم الله علمه الله إياه لا تعلمه أنت ، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله ، لا تعلمه أنت ، ولا الخضر وما علمي ، وعلم الخضر في علم الله إلا كهذه القطرة من هذاالبحر. قال الله تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾[4] قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما خلق الله تعالى أربعين الف عالم الأنس ، والجن

---

(١) هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي. امام أهل مصر، في عصره حديثاً وفقهاً . أصله من خراسان ومولده في قلقشندة وله تصانيف. توفي سنة (١٧٥ - ٧٩١ م).

(٢) هو محمد بن سعد بن منيع الزهري - ابو عبد الله - مؤرخ ثقة ، (١٦٨هـ - ٧٨٤ م) وسكن بغداد ، فتوفي فيها سنة (٢٣٠هـ - ٨٤٥ م) صحب الواقدي المؤرخ زماناً ، فكتب له وروى عنه وعرف بكاتب الواقدي . اشهر كتبه « طبقات الصحابة » اثنا عشر جزءاً يعرف بطبقات ابن سعد . انظر : تهذيب التهذيب (٩ : ١٨٢).تاريخ بغداد (٥ :٣٢١).

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٤) سورة المدثر الآية ٣١ .

عالمان ، والبواقي لا يعلمها إلا هو . وقال موسى عليه السلام : يا رب قد قلت للسموات والأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ، فلو لم تطعك السموات والأرض ماذا كنت فاعلاً بهم . قال : يا موسى كنت آمر دابة من دوابي أن تبتلعهما . قال موسى : يا رب وأين تلك الدابة ؟ قال : في مرج من مروجي . قال موسى : يا رب وأين ذلك المرج ؟ قال : في علم من علمي لا يعلمه إلا أنا . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في فكرة فقال : «فيم تفكرون ، تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله ، فإن الله خلق من جانب الغرب أرضاً يقال لها البيضاء تقطعها الشمس في أربعين يوماً فيه خلق ما عصوا الله طرفة عين» . فقال ابن عمر : يا رسول الله أين إبليس منهم ، قال : «ما علموا بإبليس خلق ، أم لا» قال : أمن بني آدم ؟ قال : «ما علموا بآدم خلق ، أم لا» فهذه كلها مما أعدها الله في علم غيبه إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون . وقال قتادة[1] لو كان أحد منا مكتفياً من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام إذ قال : هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً . وقال الحكماء : أفضل العلم وقوف العالم عند علمه . وقال بعضهم : ليس العلم ما خزنته الدفاتر ، وإنما العلم ما خزنته الصدور . وقيل : العلم يؤدي إلى التصدير ، وقيل : من تواضع للعلم ناله ، ومن لم يتواضع له لم ينله . وقيل : من برق علمه ، برق وجهه ، ومن لم يستفد بالعلم مالاً اكتسب به جمالاً ، والعلم نور وهدى ، والجهل غي وردى . وقال بعضهم : العالم يعرف الجاهل ، والجاهل لا يعرف العالم ، لأن العالم كان جاهلاً والجاهل لم يكن عالماً . وقيل : أربعة يسودون العبد : العلم ، والأدب ، والصدق ، والأمانة . وقيل : أهل العراق أطلب الناس للعلم . وقال حماد بن سلمة : مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها . ولابراهيم بن خلف المهراني[2] :

النحـو يصلح مـن لسـان الألكن ... والمـرء تـكـرمـه إذا لم يـلحـن

وإذا طـلبت مـن الـعلوم أجلهـا ... فـأجلهـا منهـا مـقيـم الألسـن

ودخل اعرابي السوق فوجدهم يلحنون فقال : سبحان الله يلحنون ويربحون؟ وكلم أبو موسى بعض قواده فلحن فقال : لم لا تنظر في العربية؟ فقال : بلغني أن من نظر فيها قل كلامه . فقال : ويحك لأن يقل كلامك بالصواب ، خير لك من أن يكثر كلامك بالخطأ . وكان يقال مجالسة الجاهل مرض للعاقل ، وقال أبو الأسود الدؤلي[3] : إذا أردت أن تعذب عالماً فاقرن به جاهلاً . وقال الشاعر :

جهلت ولا تـدري بأنـك جـاهـل ... ومن لي بأن تدري بأنك لا تـدري

---

(١) هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز مفسر حافظ قال الامام احمد ابن حنبل : « قتادة احفظ أهل عصره » وكان مع علمه بالحديث ، رأساً في العربية ، ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب . وكان يرى القدر ، وقد يدّلس في الحديث مات بواسط سنة (١١٨هـ - ٧٣٦ م).
انظر تذكرة الحفاظ (١ : ١١٥). الجرح والتعديل القسم ٢ (٣ : ١٣٣ - ١٣٥).

(٢) المهراني نسبة إلى مهرة ، وهي بلاد مقفرة في جزيرة العرب تقع جنوبي شرقي ساحل الاوقيانوس الهندي بين حضرموت وعمان .

(٣) شاعر من قبيلة دبل ، كان ابوه من انصار علي بن أبي طالب إليه ينسب أصول النحو العربي توفي نحو : (٦٢هـ - ٦٨١ م).

وقال رجل للحسن : أنا أفصح الناس . قال : لا تقل هذا . قال : فخذ عليّ كلمة واحدة . قال هذه واحدة . أبوجهل كناه المسلمون بذلك ، وكانت قريش تكنيه أبا الحكم فقال حسان[1] رضي الله تعالى عنه :

الناس كنّوه أبا حكم والله كناه أبا جهل

وأما ما جاء في الأدب فقد قال بعض الحكماء : العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام . وقال علي كرم الله وجهه: الأدب كنز عند الحاجة عون على المروءة ، صاحب في المجلس ، أنيس في الوحدة تعمر به القلوب الواهية ، تحيا به الألباب الميتة وينال به الطالبون ما حاولوا . وقيل: عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح . وحكي أن رجلاً تكلم بين يدي المأمون فأحسن فقال: ابن من أنت ؟ قال: ابن الأدب يا أمير المؤمنين . قال: نعم النسب انتسبت إليه . ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت ، لا من حيث ينبت ، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد . قال الشاعر :

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب
ان الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

وقال بعض الحكماء : من كثر أدبه ، كثر شرفه ، وإن كان وضيعاً ، وبعد صيته وان كان خاملاً ، وساد إن كان غريباً ، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيراً . قال بعض الشعراء :

لكل شيء زينة في الورى وزينة المرء تمام الأدب
قد يشرف المرء بآدابه فينا وإن كان وضيع النسب

وقال بعض الأعاجم مفتخراً :

مالي عقلي وهمتي حسبي ما أنا مولى وما أنا عربي
إذا أنتمى منتم إلى أحد فإنني منتم إلى أدبي

وقيل : الفضل بالعقل والأدب ، لا بالأصل والحسب . وقيل المرء بفضيلته ، لا بفصيلته ، وبكماله لا بجماله وبآدابه لا بثيابه . وقيل لرجل : من أدبك قال رأيت جهل الجهال قبيحاً فاجتنبته فتأدبت . ومن أدب ولده صغيراً سرّ به كبيراً . من عرف الأدب اكتسب به المال والجاه، خير الخلال الأدب ، وشر المقال الكذب . وقيل لبقراط[2]. ما الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له؟ قال: كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذي ليس بناطق. ودخل أبو العالية على ابن عباس رضي الله عنهما فأقعده معه على السرير وأقعد رجالاً من قريش تحته فرأى سوء

---

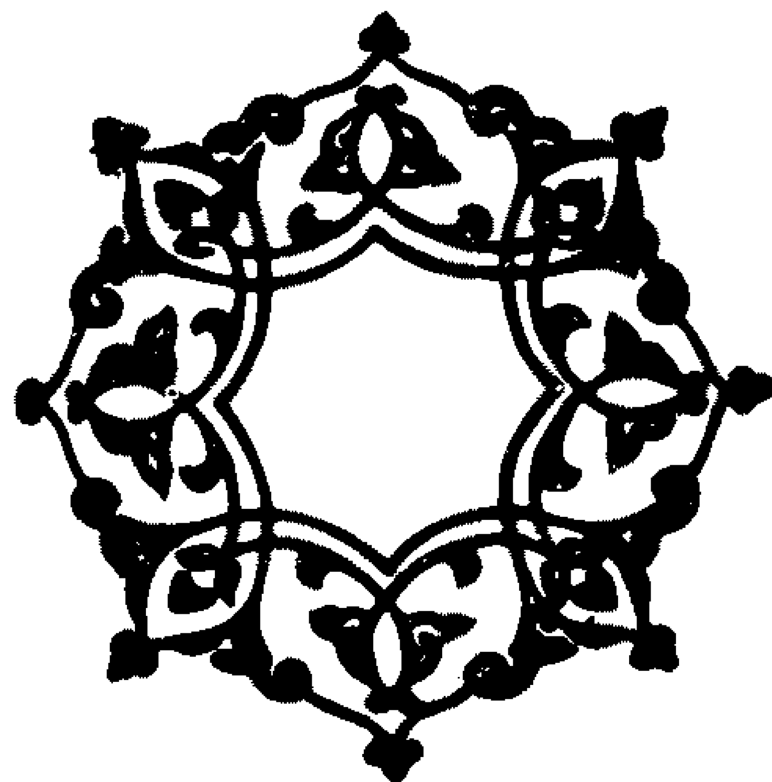
(١) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الانصاري ـ أبو الوليد ـ صحابي شاعر النبيﷺ وأحد المخضرمين الذين ادركوا الجاهلية والاسلام . عمي قبيل وفاته . قال ابو عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاثة كان شاعر الانصار في الجاهلية ، وشاعر النبي في النبوة ، وشاعر اليمانيين في الاسلام . توفي سنة (٥٤هـ ـ ٦٧٤ م).
انظر تهذيب التهذيب (٢ : ٢٤٧). الاصابة (١ : ٣٢٦).

(٢) بقراط : ولد سنة ٤٦٠ق . م . في جزيرة كوس باليونان . من أشهر الاطباء القدماء من مؤلفاته التي نقلت إلى العربية « تقدمة المعرفة » و« طبيعة الانسان ».

نظرهم إليه ، وحموضة وجوههم فقال: ما لكم تنظرون إليّ نظر الشحيح[1] إلى الغريم المفلس. هكذا الأدب يشرف الصغير على الكبير ، ويرفع المملوك على المولى ويقعد العبيد على الأسرة . وقال جالينوس[2]: ان الابن الوضيع إذا كان أديباً كان نقص أبيه زائداً في منزلته ، وابن الشريف إذا كان غير أديب كان شرف أبيه زائداً في سقوطه . وقيل: أحسن الأدب أن لا يفتخر المرء بأدبه . وسمع معاوية رجلًا يقول : أنا غريب. فقال: كلا الغريب من لا أدب له . ويقال: إذا فاتك الأدب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب. ولعبد الملك بن صالح :

في النـاس قوم أضـاعوا مجـد أوّلهم ... مـا في المكـارم والتقـوى لهم أرب
سـوء الـتـأدب أرداهـم وأرذلهـم ... وقـد يـزين صحيـح المنصب الأدب

وقيل: أربعة تسوّد العبد : الأدب والعلم والصدق والأمانة . وقال بعض الحكماء : خمسة لا تتم إلا بخمسة: لا يتم الحسب إلا بالأدب ولا يتم الجمال إلا بالحلاوة ولا يتم الغنى إلا بالجود ولا يتم البطش إلا بالجراءة ، ولا يتم الجهاد إلا بالتوفيق . والله تعالى أعلم .



(١) الشحيح من الشح وهو البخل .

(٢) جالينوس ولد سنة (١٣١ م) طبيب يوناني له اكتشافات جمة في علم التشريح وأهم به مشاهير الاطباء توفي سنة (٢٠١ م).

الباب الخامس

في الآداب والحكم وما أشبه ذلك

قال الحكماء : إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة ، وألزمه القناعة ، وفقهه في الدين ، وعضده باليقين ، فاكتفى بالكفاف[1] ، واكتسى بالعفاف . وإذا أراد به شراً حبب إليه المال ، وبسط منه الآمال ، وشغله بدنياه ، ووكله إلى هواه ، فركب الفساد ، وظلم العباد * الثقة بالله أزكى أمل * والتوكل عليه أوفى عمل * لا يغرنك صحة نفسك ، وسلامة أمسك ، فمدة العمر قليلة ، وصحة النفس مستحيلة * من أطاع هواه باع دينه بدنياه * ثمرة العلوم العمل بالمعلوم * من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد ، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد * أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه * خير الناس من أخرج الحرص من قلبه ، وعصى هواه في طاعة ربه ، * نصرة الحق شرف ، ونصرة الباطل سرف[2] * البخيل حارس نعمته ، وخازن لورثته * من لزم الطمع عدم الورع * إذا ذهب الحياء حل البلاء * علم لا ينفع كدواء لا ينجع[3] * من جهل المرء أن يعصي ربه في طاعة هواه ، ويهين نفسه في إكرام دنياه * أيام الدهر ثلاثة : يوم مضى لا يعود إليك ، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك ، ويوم مستقبل لا تدري ما حاله ولا تعرف من أهله * من كَثُرَ ابتهاجه بالمواهب ، اشتد انزعاجه للمصائب * لا تبت على غير وصية وان كنت من جسمك في صحة ، ومن عمرك في فسحة * عظ المسيء بحسن أفعالك * ودل على الجميل بجميل خلالك * إياك وفضول الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن ، ويحرك من عدوك ما سكن * لا يجد العجول فرحاً ، ولا الغضوب سروراً ، ولاالحلول صديقاً * حسن النية من العبادة ، حسن الجلوس من السياسة * من زاد في خلقه ، نقص في حظه * من ائتمن الزمان خانه * أظهر الناس محبة ، أحسنهم لقاء * لا يكمل للانسان دينه ، حتى يكون فيه أربع خصال : يقطع رجاءه مما في أيدي الناس ، ويسمع شتم نفسه ويصبر ، ويحب للناس ما يحب لنفسه ، ويثق بمواعيد الله * إياك والحسد فإنه يفسد الدين ، ويضعف اليقين ، ويذهب المروءة * قيل لأفلاطون[4] : ما الشيء الذي لا يحسن أن يقال وان كان حقاً ، قال : مدح الانسان نفسه * أربعة تؤدي إلى

---

(١) الكفاف : ما يكفي الانسان ويسد رمقه.

(٢) السرف : الاسراف .

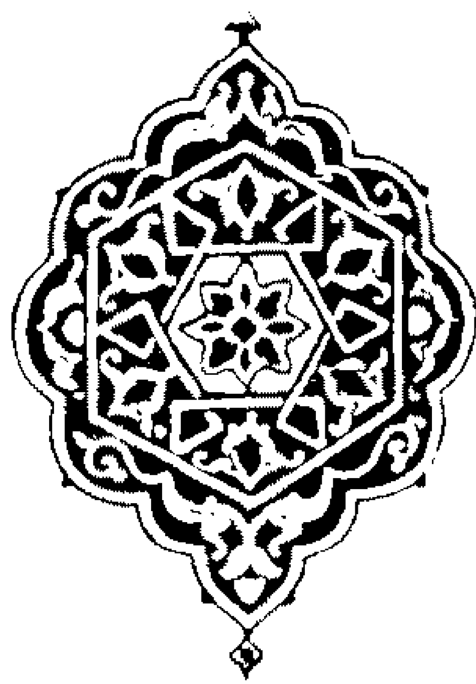
(٣) لا ينفع .

(٤) افلاطون : من المشاهير ومن أبرز فلاسفة اليونان . تلميذ سقراط ومعلم ارسطو من مؤلفاته : « جمهورية افلاطون » و« السياسة » والمحاورات » و« الشرائع » وجميع مؤلفاته بين ايديناسوس « الشرائع » توفي سنة (٣٤٧ ق . م).

أربعة : الصمت إلى السلامة ، والبرّ إلى الكرامة ، والجود إلى السيادة ، والشكر إلى الزيادة * من ساء تدبيره أهلكه جده * الغرة ثمرة الجهل * آفة القوّة استضعاف الخصم ، * آفة النعم قبح المن * آفة الذنب حسن الظن * الحزم أسد الآراء * والغفلة أضر الأعداء * من قعد عن حيلته أقامته الشدائد ، ومن نام عن عدوّه أيقظته المكايد * من قرب السفلة وأطرح ذوي الأحساب والمروءات استحق الخذلان * من عفا تفضل * من كظم غيظه فقد حلم * من حلم فقد صبر * ومن صبر فقد ظفر * من ملك نفسه عند أربع حرمه الله على النار ، حين يغضب ، وحين يرغب ، وحين يرهب ، وحين يشتهي * من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما ، ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما * كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله ، فاقصره على الجميل ، واقتصر منه على القليل * كل امرىء يُعرف بقوله ويُوصف بفعله ، فقل سديداً ، وافعل حميداً * من عرف شأنه ، وحفظ لسانه ، وأعرض عما لا يعنيه ، وكف عن عرض أخيه ، دامت سلامته ، وقلت ندامته * كن صموتاً وصدوقاً ، فالصمت حرز ، والصدق عز * من أكثر مقاله سئم ، ومن أكثر سؤاله حرم ، من استخف باخوانه خذل ، ومن اجترأ على سلطانه قتل * ما عز من أذل جيرانه ، ولا سعد من حرم اخوانه * خير النوال ما وصل قبل السؤال * أولى الناس بالنوال أزهدهم في السؤال * من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه * من غاظك بقبيح الشتم منه ، فعظه بحسن الحلم عنه * من يبخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه * إذا اصطنعت المعروف فاستره * وإذا اصطنع إليك فانشره * من جاور الكرام أمن من الاعدام * من طاب أصله زكا فرعه * من أنكر الصنيعة استوجب القطيعة * من مَنَّ بمعروفه سقط شكره ، ومن أعجب بعمله حبط أجره * من رضي من نفسه بالاساءة ، شهد على أصله بالرداءة ، * من رجع في هبته بالغ في خسته * من رقى في درجات الهمم عظم في عيون الأمم * من كبرت همته كثرت قيمته * من ساء خلقه ضاق رزقه * من صدق في مقاله زاد في جماله * من هان عليه المال توجهت إليه الآمال * من جاد بماله جل * ومن جاد بعرضه ذل * خير المال ما أخذ في الحلال وصرف في النوال * وشر المال ما أخذ من الحرام وصرف في آثام * أفضل المعروف إغاثة الملهوف * من تمام المروءة أن تنسى الحق لك ، وتذكر الحق عليك * وتستكبر الاساءة منك وتستصغرها من غيرك * من أحسن المكارم عفو المقتدر * جود الرجل يحببه إلى أصدقائه ، وبخله يبغضه إلى أوِدَّائه * لا تسىء إلى من أحسن إليك ، ولا تعن على من أنعم عليك * من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه * من طال تعديه كثرت أعاديه * شر الناس من ينصر الظلوم ويخذل المظلوم * من حفر حفيراً لأخيه كان حتفه فيه * من سل سيف العدوان أغمد في رأسه * من لم يرحم العبرة سلب النعمة * ومن لم يقل العثرة سلب القدرة * لا تحاج من يذهلك خوفه ، ويملكك سيفه * صمت تسلم به ، خير من نطق تندم عليه * من قال ما لا ينبغي ، سمع ما لا يشتهي * جرح الكلام أصعب من جرح الحسام * من سكت عن جاهل فقد أوسعه جواباً ، وأوجعه عتاباً * من أمات شهوته أحيا مروءته * من كثرت عوارفه كثرت معارفه * من لم تقبل توبته عظمت خطيئته * إياك والبغي فإنه يصرع الرجال ، ويقطع الآجال * الناس في الخير أربعة أقسام : منهم من يفعله ابتداء ، ومنهم من يفعله اقتداء ، ومنهم من يتركه حرماناً ،ومنهم من يتركه استحساناً ، فمن فعله ابتداء فهو كريم ، ومن فعله اقتداء فهو حكيم ، ومن تركه حرماناً فهو شقي ، ومن تركه استحساناً فهو دنيء * من سالم سلم ، ومن قدم الخير غنم * من لزم الرقاد عدم المراد * ومن دام كسله خاب أمله * العجول مخطىء وان ملك ، والمتأني مصيب وان هلك * من أمارات الخذلان معاداة الاخوان * استفساد الصديق من عدم التوفيق * الرفق مفتاح الرزق * من نظر في العواقب سلم من النوائب * ومن أسرع في الجواب أخطأ في الصواب * من ركب العجل أدركه الزلل * من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه * من قلت فضائله ضعفت وسائله * من فعل ما شاء لقي

ما ساء * من كثر اعتباره قل عثاره * من ركب جده غلب ضده * القليل مع التدبير أبقى من الكثير مع التبذير * ظن العاقل أصح من يقين الجاهل * قليل تحمد آخرته خير من كثير تذم عاقبته * من خاف سطوتك تمنى موتتك * إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل * من أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه * من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة * لا تشتك ضعفك إلى عدوك فإنك تشمته بك وتطمعه فيك * من لم يعمل لنفسه عمل للناس * ومن لم يصبر على كده صبر على الافلاس * من أفشى سره أفسد أمره * الحازم من حفظ ما في يده ، ولم يؤخر شغل يومه لغده * من طلب ما لا يكون طال تعبه * لا تفتح باباً يعييك سده ، ولا ترم سهماً يعجزك رده * سوء التدبير سبب التدمير * اغمد سيفك ما ناب عنك لسانك * ليس العجب من جاهل يصحب جاهلاً ولكن العجب من عاقل يصحبه ، لأن كل شيء يفر من ضده ، ويميل إلى جنسه * إذا نزل القدر بطل الحذر * رب عطب تحت طلب ، ومنية تحت أمنية * لا يخلو المرء من ودود يمدح ، وعدو يقدح * الجوع خير من الخضوع * الكذوب متهم وان صدقت لهجته ، ووضحت حجته * من طاوعه طرفه أشتد حتفه * من لم تسر حياته لم تغم وفاته * من أعظم الذنوب تحسين العيوب * الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية * إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل * من ساءت أخلاقه طاب فراقه * من حسنت خصاله طاب وصاله * بعد يورث الصفا خير من قرب يوجب الجفا * اللسان سيف قاطع لا يؤمن من حده والكلام سهم نافذ لا يمكن رده * من أطلع على جاره انهتكت حجب أستاره * أجهل الناس من قل صوابه وكثر إعجابه * أظهر الناس نفاقاً من أمر بالطاعة ولم يأتمر بها ونهى عن المعصية ولم ينته عنها * من سلا عن المسلوب كمن لم يسلب * ومن صبر على النكبة كمن لا ينكب * الفضيلة بكثرة الآداب لا بفراهة الدواب * من زادت شهوته نقصت مروءته * من عرف بشيء نسب إليه ، ومن اعتاد شيئاً حرص عليه * عند الجدال يظهر فضل الرجال * من أخر الأكل لذ طعامه * ومن أخر النوم طاب منامه * موت في دولة وعز خير من حياة في ذلة وعجز * مقاساة الفقر هي الموت الأحمر ومسألة الناس هي العار الأكبر * حق يضر خير من باطل يسر * كم من مرغوب فيه يسوء ولا يسر ، ومرهوب منه ينفع ولا يضر * عثرة الرجل تزيل القدم ، وعثرة اللسان تزيل النعم * المزاح يورث الضغائن * من حلم ساد * ومن تفهم ازداد * معاشرة ذوي الألباب عمارة القلوب * شر ما صحب المرء الحسد * ربما أصاب الأعمى رشده وأخطأ البصير قصده * اليأس خير من التضرع إلى الناس * لا تكن ضاحكاً في غير عجب ولا ماشياً في غير أرب * من سعى بالنميمة حذره القريب ومقته الغريب * الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استبد برأيه * أشرف الغنى ترك المنى * من ضاق خلقه مله أهله * الحسد للصديق من سقم المودة * كل الناس راض عن عقله * دنياك كلها وقتك الذي أنت فيه * استر سوءة أخيك لما يعلم فيك * خمول الذكر أسنى من الذكر الذميم * العجلة أخت الندامة * من كرم أصله لان قلبه * ومن قل لبه زاد عجبه * ربما أدرك بالظن الصواب * ليس لمعجب رأي ، ولا لمتكبر صديق * سل عن الرفيق قبل الطريق * وعن الجار قبل الدار * لا تعادين أحداً فإنك لا تخلو من عداوة * جاهل أو عاقل كالحذر من حكمة العاقل وجهل الجاهل * ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه * من قل سروره كان الموت راحته * لا تردن على ذي خطأ خطأه فيستفيد منك علماً ويتخذك عدواً * استحي مَنْ ذم من لو كان حاضراً لبالغت في مدحه ، ومدح من لو كان غائباً لسارعت إلى ذمه * وقيل المنفعة توجب المحبة ، والمضرة توجب البغضة ، والمخالفة توجب العداوة ، والمتابعة توجب الالفة ، والعدل يوجب اجتماع القلوب ، والجور يوجب الفرقة ، وحسن الخلق يوجب المودة ، وسوء الخلق يوجب المباعدة ، والانبساط يوجب المؤانسة ، والانقباض يوجب الوحشة ، والكبر يوجب المقت ، والتواضع يوجب الرفعة ، والجود يوجب المدح ، والبخل يوجب الذم ، والتواني يوجب التضييع ، والحزم يوجب السرور ، والحذر يوجب

السلامة ، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة ، وبالتأني تسهل المطالب ، وبحسن المعاشرة تدوم المحبة ، وبخفض الجانب تأنس النفوس ، وبسعة خلق المرء يطيب عيشه ، والاستهانة توجب التباعد ، وبكثرة الصمت تكون الهيبة ، وبعدل المنطق تجلب الجلالة ، وبالنصفة تكثر المواصلة ، وبالافضال يعظم القدر ، وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال ، وباحتمال المؤن يجب السؤدد ، وبالحلم على السفيه تكثر أنصارك عليه ، وبالرفق والتودد تستحق اسم الكرامة ، وبترك ما لا يعنيك يتم لك الفضل * واعلم ان السياسة تكسو أهلها المحبة * ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة * والنظر في العواقب نجاة * ومن لم يحلم ندم ، ومن صبر غنم ، ومن سكت سلم ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم ، ومن أطاع هواه ضل ، ومع العجلة الندامة ، ومع التأني السلامة ، وزارع البر يحصد السرور ، وصاحب العقل مغبوط ، وصداقة الجاهل تعب * إذا جهلت فاسأل * وإذا زللت فارجع * وإذا أسأت فاندم ، وإذا ندمت فاقلع * المروءات كلها تبع للعقل ، والرأي تبع للتجربة ، والعقل أصله التثبت وثمرته السلامة ، والأعمال كلها تتبع القدر * واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب: من التوراة: من قنع شبع ، ومن الانجيل: من اعتزل نجا ، ومن الزبور: من سكت سلم ، ومن القرآن: ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم * واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات : لا تحمل بطنك ما لا يطيق ، ولا تعمل عملاً لا ينفعك ، ولا تغتر بامرأة ، ولا تثق بمال ولو كثر * والله تعالى أعلم .



الباب السادس

في الأمثال السائرة

وفيه فصول

الفصل الاول

فيما جاء من ذلك في القرآن العظيم وأحاديث النبي الكريم

اعلم ، أن الامثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه ، وحلى بجواهره كتابه ، وقد نطق كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها ، ولم يخل كلام سيدنا رسول الله ﷺ منها وهو أفصح العرب لساناً ، وأكملهم بياناً ، فكم في إيراده وإصداره من مثل يعجز عن مباراته في البلاغة كل بطل ، وسنذكر إن شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب والمولدين والعامة * فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون * الآن حصحص الحق * قضي الأمر الذي فيه تستفتيان * أليس الصبح بقريب * ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة * ليس لها من دون الله كاشفة * أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم * وحيل بينهم وبين ما يشتهون * لكل نبأ مستقر * قل كل يعمل على شاكلته * وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً * وإن تصبهم سيئة يفرحوا بها * كل نفس بما كسبت رهينة * حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة * ما على الرسول إلا البلاغ * كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله * ما على المحسنين من سبيل * تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى * هل جزاء الاحسان إلا الاحسان * ولا ينبئك مثل خبير * ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم * كل حزب بما لديهم فرحون * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها * لا يستوي الخبيث والطيب *ففررتمنكم لما خفتكم * وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض * يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء * يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم * وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين * ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه * وإنهم لكاذبون * اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم * ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون * فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم**

بسيطر * إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين * فبئس القرين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين * لا يجليها لوقتها إلا هو * فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى * كل يوم هو في شأن * فبأي حديث بعده يؤمنون * وما ربك بغافل عما تعملون * واهجرهم هجراً جميلاً * من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها * إن هي إلا فتنتك فاعتبروا يا أولى الأبصار * إنه لقسم لو تعلمون عظيم * ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت * ولتعلمن نبأه بعد حين * وكان بين ذلك قواماً * لمثل هذا فليعمل العاملون * كل من عليها فان * كل نفس ذائقة الموت * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * ﴾

(ومن) الأمثال من الحديث النبوي : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى * نية المرء خير من عمله * آفة العلم النسيان * من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه * إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه * أنزلوا الناس منازلهم * اليد العليا خير من اليد السفلى * من مات غريباً مات شهيداً * مطل الغني ظلم * يد الله مع الجماعة * الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق * من غشنا فليس منا * سيد القوم خادمهم * الحياء شعبة من الايمان * تخيروا لنطفكم * ابدأ بنفسك ثم بمن تعول * حدث عن البحر ولا حرج * المجالس بالأمانات * كل ميسر لما خلق له * اطلبوا الخير من حسّان الوجوه * إياك وما يعتذر منه * الوحدة خير من جليس السوء * استعينوا على الحوائج بالكتمان * الندم توبة * لا يكون المؤمن طعاناً ولا لعاناً * دع ما يريبك إلى ما لا يريبك * من كثر سواد قوم فهو منهم * انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً * انتظار الفرج عبادة * كاد الفقر أن يكون كفراً * نعم صومعة الرجل بيته * الأعمال بخواتيمها .



في أمثال العرب

إن من البيان لسحرا * إن الجواد يعثر * إن البلاء موكل بالمنطق * إن أخا الهيجاء من يسعى معك ، ومن يضر نفسه لينفعك * أنف في السماء وأست في الماء * إن الذليل الذي ليست له عضد * أي الرجال المهذب * إنما هو كبرق خلب * إذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم * إياك أعني فاسمعي يا جارة * إن لم يكن وفاق ففراق * إنك لا تجني من الشوك العنب * إذا حان القضاء ضاق الفضاء * إن المناكح خيرها الابكار * إذا كنت مناطحاً فناطح بذوات القرون * آوى إلى ركن بلا قواعد * إياك أن تضرب بلسانك عنقك * أكل وحمد خير من أكل وذم * آفة المروءة خلف الوعد * إذا قلت له زن طأطأ رأسه وحزن * إذا أتاك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تقض له حتى يأتيك خصمه فلعله فقئت عيناه * ترك الذنب أيسر من طلب التوبة * اتق شر من تحسن إليه * الناس اخوان وشتى في الشيم * بلغ السيل الزبى * أجع كلبك يتبعك * حافظ على الصديق ولو في الحريق * اشتدي أزمة تنفرجي * اتبع السيئة الحسنة تمحها * الخيل أعرف بفرسانها * رمتني بطرفها وانسلت * رب رمية

من غير رام * الرباح مع السماح * رب أكلة تمنع أكلات * استراح من لا عقل له * رب أخ لم تلده أمك * رب طمع أدى إلى عطب * ربما كان السكوت جواباً * رب ملوم لا ذنب له * رب عين أنم من لسان * رحم الله من هداني إلى عيوبي * ركوب الخنافس ولا المشي على الطنافس * سبق السيف العذل * زوج من عود خير من قعود * سبك من بلغك السب * سحابة صيف ، عن قليل تقشع * شر أيام الديك يوم تغسل رجلاه * طاعة النساء ندامة * أطلب تظفر * طرف الفتى يخبر عن لسانه * ظاهر العتاب خير من باطن الحقد * عند الصباح يحمد القوم السرى * والظلم مرتعه وخيم * عند النطاح يغلب الكبش الأجم .

العبد يقرع بالعصا   والحر تكفيه الملامة

اعقل وتوكل * العتاب قبل العقاب * عند الرهان تعرف السوابق * عند الامتحان يكرم المرء او يهان * عند النازلة تعرف أخاك * في القمر ضياء والشمس أضوأ منه * القول ما قالت حذام * لقد أسمعت لو ناديت حياً * أقلل طعامك يحمد منامك * كل فتاة بأبيها معجبة * كل كلب ببابه نباح * كاد العروس أن يكون ملكاً * كثرة العتاب توجب البغضاء * أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع * الكلام أنثى ، والجواب ذكر * كل إناء يرشح بما فيه * كما تزرع تحصد * كل امرىء في بيته صبي * كلب جوال خير من أسد رابض * لقد ذل من بالت عليه الثعالب * ليس الخبر كالعيان * لكل صارم نبوة[1] ولكل جواد كبوة[2] * لكل قادم دهشة * لعل لها عذراً وأنت تلوم * لكل ساقطة لاقطة * لكل مقام مقال * لك لسان من رطب ويدان من خشب * للباطل جولة ثم يضمحل * ليست النائحة الثكلى مثل المستأجرة * لكل غد طعام * لكل دهر دولة ورجال * لا عطر بعد عروس * لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين * لا يضر السحاب نباح الكلاب * لا تقتن من كلب سوء جرواً * مقتل الرجل بين فكيه * ما حكّ جلدك مثل ظفرك * من عتب على الدهر طال عتبه * معاتبة الاخوان خير من فقدهم * النفس مولعة بحب العاجل * هذه بتلك والبادي أظلم * يا حبذا الامارة ولو على الحجارة * يكسو الناس وأسته عارية * يدك منك وإن كانت شلاء .



في أمثال العامة والمولدين

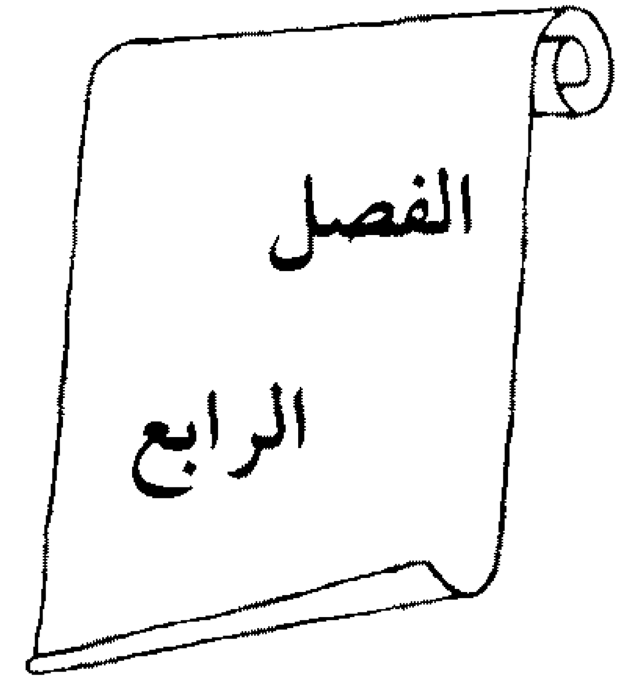
التسلط على المماليك دناءة * اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر ، ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجر * أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية * الحاجة تفتق الحيلة * الحاوي لا ينجو من الحيات * الحبة تدور وإلى الرحى

---

(١) الصارم : السيف .

(٢) الكبوة : السقطة . كبا ، يكبو : أي سقط .

ترجع * المؤذى ردى كلما جلوته صدى * الأسواق موائد الله في أرضه * آلسلامة إحدى الغنيمتين * الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ * الطير بالطير يصاد * اطلع القرد في الكنيف فقال هذه المرآة لهذاالوجه الظريف * العادة طبيعة خامسة * الغائب حجته معه * الخضوع عند الحاجة رجولية * الناس أتباع لمن غلب * النكاح يفسد الحب * النصح بين الملا تقريع * الحر حر وإن مسه الضر ، والعبد عبد وإن ملك الدار * الثقيل إذا تخفف صار طاعوناً * أضيع من حلى على زنجية * العمل للزرنيخ والاسم للنورة * أنشط من اير دخل نصفه * البغل الهرم لا يفزعه صوت الجلجل * بدن وافر وقلب كافر * تزاوروا ولا تجاوروا * تعاشروا كالاخوان وتعاملوا كالأجانب * ثمرة العجلة الندامة * جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة * حيثما سقط لقط * خذ اللص قبل أن يأخذك * خذ القليل من اللئيم وذمه * ذُلّ من لا سفيه له * ريق العدو سم قاتل * رب ساع كقاعد * زكاة البدن العلل * زلق الحمار وكان من سهوة المكاري * زلة الرجل عظم يجبر * وزلة اللسان لا تبق ولا تذر * سلطان غشوم خير من فتنة تدوم * سواء قوله وبوله * سفير السوء يفسد ذات البين * شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه * صديق الوالد عم الولد * ضرب الطبل تحت الكساء * طاعة الولاة بقاء العز * طفيلي ويقترح * عناية القاضي خير من شاهديّ عدل * دلت على أهلها براقش (وهو اسم كلبه نبحت فدلت على الجيش فقتلوهم) * غش القلوب يظهر في فلتات الالسن ، وصفحات الوجوه * غنى المرء في الغربة وطن * فرّ من الموت وفي الموت وقع * فم يسبح وقلب يذبح * فلان كالكعبة يزار ولا يزور * قيل للزمار تهيأ للزمر قال : المزمار في كمي ، والريح في فمي * كُلْ قليلاً تعش كثيراً * كلامه ريح في قفص * كالابرة تكسو الناس وهي عريانة * كلمة حكمة من جوف خرب * كاد المريب يقول خذوني * كنت سنداًلا فصرت مطرقة * كل ما فاتك من الدنيا فهو غنيمة * كلما طار قصوا جناحه * لو كانالمزاحفحلاً لم ينتج إلا شراً * لسان الجاهل مفتاح حتفه * لكل جديد لذة *لوضاعت صفعة ما وجدت إلا في قفاه * لو كان في البوم خير ما فات الصياد * من اعتمد على شرف آبائه فقد عقهم * من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً * وبالله التوفيق .



في الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم

(حرف الألف)

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
إذا جـاء مـوسى وألقى العصـا فقـد بـطل السحـر والسـاحـر
إذا لم يكن فيكن ظـل ولا جنـا فـأبعـدكن الله مـن شجـرات

إذا كنت في فكري وقلبي ومقلتي ... فأي مكان من مكانك ألطف
إذا أراد كريم منع صاحبه ... فليس يخفي عليه كيف ينفعه
إذا ما أتيت الأمر من غير بابه ... ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتد
إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرف الهجران إن كان يعقل
إذا لم يكن عندي نوال هجرتني ... وإن كان لي مال فأنت صديقي
الناس في طلب المعاش وإنما ... بالجد يرزق منهم من يرزق
أيها السائل عما قد مضى ... هل جديد مثل ملبوس خلق
إنما أنفسنا عارية ... والعواري حكمها أن تسترد
إن العدوّ وإن أبدى مسالمة ... إذا رأى منك يوماً غرّة وثبا
أتمنى على الزمان محالا ... أن ترى مقلتاي طلعة حر
إذا ملك لم يكن ذا هبة ... فدعه فدولته ذاهبة
إذا ثارت خطوب الدهر يوماً ... عليك فكن لها ثبت الجنان
إذا كنت ترضى بما قد ترى ... فدونك الحبل به فاختنق
إن الأمور إذا بدت لزوالها ... فعلامة الأدبار فيها تظهر
إذا ضاع شيء بين أم وبنتها ... فإحداهما لا شك ذلك آخذه
إذا كان رب البيت بالطبل ضارباً ... فلا تلم الصبيان فيه على الرقص
إذا ما أراد الله إهلاك نملة ... سمت بجناحيها إلى الجوّ تصعد
إذاأنت لم تعرض عن الجهل والخنى ... أصبت حليماً وأصابك جاهل
إذا لم تستطع أمراً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع
إذا صوّت العصفور طار فؤاده ... ولكن حديد الناب عند الثرائد
أهن عامراً تكرم عليه فإنما ... أخو عامر من مسه بهوان
إذا محاسني اللاتي أتيت بها ... عدّت ذنوباً فقل لي كيف أعتذر
اخوان صدق ما رأوك بغبطة ... فإذا افتقرت فقد هوى بك من هوى
إذا اعتاد الفتى خوض المنايا ... فأيسر ما يمر به الوحول
ألم تر أن المرء تدوي يمينه ... فيقطعها عمداً ليسلم سائره
إذا أنت لم تعلم طبيبك كل ما ... يسوءك أبعدت الدواء عن السقم
إذا أنت حملت الخؤون أمانة ... فإنك قد أسندتها شر مسند
أكل خليل هكذا غير منصف ... وكل زمان بالكرام بخيل
إذا أنت عبت المرء ثم أتيته ... فأنت ومن تزرى عليه سواء
أسأت إذ أحسنت ظني بكم ... والحزم سوء الظن بالناس
الحادثات إذا ألّم خطوبها ... فلها مساو مرة ومحاسن
الخير لا يأتيك متصلاً ... والشر يسبق سيله مطره
العلم ينهض بالخسيس الى العلا ... والجهل يقعد بالفتى المنسوب

الكفر بالنعمة يدعو إلى زوالها والشكر أبقى لها
أيا دارهم ما كنت أنت بدارهم ولا أنا مذ سار الركاب بهم أنا
أقلب طرفي لا أرى غير صاحب يميل مع النعماء حيث تميل
إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

حرف الباء الموحدة

بنا فوق ما تشكو فصبراً لعلنا نرى فرجاً يشفي السقام قريباً
بالملح نصلح ما نخشى تغيره فكيف بالملح إن حلت به الغير
بني عمنا إن العداوة شأنها ضغائن تبقى في نفوس الأقارب

(حرف التاء المثناة الفوقية)

تحن إليه أفئدة البرايا وتهواه الخلائق للسماع
تلوم على القطيعة من أتاها وأنت سننتها للناس قبلي
تلجي الضرورات في الأمور الى سلوك ما لا يليق بالأدب
تفرقت الظباء على حراش وما يدري حراش ما يصيد
تجتلي الأذن منه أحسن مما تجتلي العين من وجوه البدور

(حرف الجيم)

جن له الدهر فنال الغنى آه لمن أغفله الدهر
جربت أهلي وأهليه فما تركت إلى التجارب في ود امرىء غرضاً

(حرف الحاء المهملة)

حياك من لم تكن ترجو تحيته لولا الدراهم ما حياك انسان

(حرف الخاء المعجمة)

خفض الجأش واصبرن رويداً فالرزايا إذا توالت تولت
خليلي إن الحب صعب مراسه وإن عزيز القوم فيه يهان
خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة إن الجلوس مع العيال قبيح
خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب
خن من آمنت ولا تركن إلى أحد فما نصحتك إلا بعد تجريبي

حرف الدال المهملة)

داود محمود وأنت مذمم عجباً لذاك وأنتما من عود
دعيني أنهب الأموال حتى أعف الأكرمين عن اللئام

(حرف الذال المعجمة)

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

(حرف الراء)

رب مهزول سمين عرضه وسمين الجسم مهزول الحسب
رضيت ولا أرضى إذا كان من الأمر ما فيه رضا صاحب الأمر
ردوا عليّ صحائفاً سودتها فيكم بلا حق ولا استحقاق
رب يوم بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه

(حرف الزاي)

زنيم ليس يعرف مَنْ أبوه بغيّ الأم ذو حسب لئيم

(حرف السين المهملة)

سروري أن تبقى بخير ونعمة وإني من الدنيا بذلك قانع
سوء حظي أنالني منك هجراً فعلى الحظ لا عليك العتاب
سبكناه ونحسبه لجيناً فابدي الكير عن خبث الحديد
ستذكرني إذا جربت غيري وتعلم أنني نعم الصديق

حرف الشين المعجمة)

شفيعي إليك الله لا رب غيره وليس إلى رد الشفيع سبيل
شكرتك قبل الخير إن كنت واثقاً بأني بعد الخير لا شك شاكر

(حرف الصاد المهملة)

صحح لنا والده أوّلاً وأنت في حل من الوالدة

(حرف الضاد المعجمة)

ضاقت ولو لم تضق لما انفرجت والعسر مفتاح كل ميسور

(حرف الطاء المهملة)

طويل عمر المعالي والندى أبداً قصير عمر الأعادي والمواعيد
طوبى لأعين قوم أنت بينهم القوم في نزهة وجهك الحسن

(حرف الظاء المشالة)

ظهرت خيانات الثقات وغيرهم حتى اتهمنا رؤية الابصار
ظلمت امرأ كلفته غير خلقه وهل كانت الأخلاق إلا غرائزا

(حرف العين المهملة)

علم الله كيف أنت فأعطا ك المحل الجليل من سلطانه
على المرء ان يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر
عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر
عتبت على عمرو فلما تركته وجربت أقواماً بكيت على عمرو

(حرف الغين المعجمة)

غنّي بلا دين عن الخلق كلهم وإن الغنى إلا عن الشيء لا به
غلام أتاه اللؤم من شطر نفسه ولم يأته من شطر أم ولا أب

(حرف الفاء)

فلم أر كالأيام للمرء واعظاً ولا كصروف الدهر للمرء هادياً
فنفسك أكرمها فإنك إن تهن عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما
فصبر جميل إن في اليأس راحة إذا الغيث لم يمطر بلادك ماطره
فما أكثر الأصحاب حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليل
فإن كانت الأجسام منا تباعدت فإن المدى بين القلوب قريب
فلو كان حمداً يخلد المرء لم يمت ولكنّ حمد المرء غير مخلد
فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

(حرف القاف)

قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه
قد زال ملك سليمان فعاوده والشمس تنحط في المجرى وترتفع

قد يدرك المتأني نجح حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل
قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه   خلف وجيب قميصه مرقوع

(حرف الكاف)

كلوا اليوم من رزق الإله وأبشروا   فإن على الخلّاق رزقكم غدا
كفى زاجراً للمرء أيام دهره   تروح له بالواعظات وتغتدي
كنت من كربتي أفر إليهم   فهم كربتي فأين الفرار
كانوا بني أم ففرق شملهم   عدم العقول وخفة الاحلام
كل المصائب قد تمر على الفتى   فتهون غير شماتة الأعداء
كأنك من كل النفوس مركب   فأنت إلى كل الأنام حبيب
كالكلب إن جاع لم يمنعك بصبصة   وإن ينل شبعاً ينبح من الأشرار

(حرف اللام)

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي   إذا هو لم يجعل له الله واقياً
لعمري ما ضاقت بلاد بأهلها   ولكن أخلاق الرجال تضيق
للموت فينا سهام وهي صائبة   من فاته اليوم سهم لم يفته غداً
لو إن خفة عقله في رجله   سبق الغزال ولم يفته الأرنب
لو كان ما بي في صخر لأنحله   فكيف يحمله خلق من الطين
لعمرك ما الأيام إلا معارة   فما استطعت من معروفها فتزوّد
لكل امرىء حالان بؤس ونعمة   وأعطفهم في النائبات أقاربه

(حرف الميم)

من يحمد الناس يحمدوه   والناس من عابهم يعاب
من لم يعدنا إذا مرضنا   إن مات لم نشهد الجنازة
متى يبلغ البنيان يوماً تمامه   إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
من كان فوق محل الشمس رتبته   فليس يرفعه شيء ولا يضع
من الناس من يغشى الأباعد نفعه   ويشقى به حتى الممات أقاربه
ما كان في المخدع من أمركم   فإنه في المسجد الجامع
ما قام عمرو في الولا   ية قائماً حتى يقعد

(حرف النون)

نسوّد أعلاها وتأبى أصولها   وليس إلى ردّ الشباب سبيل
نحن بنو الموتى فما بالنا   نعاف ما لا بد من شربه

نــدمت نــدامــة الكسـعي[1] لمـا رأت عينـاه مـا صـنعـت يـداه

(حرف الهاء)

هنــاكم الله بــالــدنيــا ومتعكـم بمـا نُحب لـكم منهـا ونــرضــاه
هـل بـالحوادث والأيـام من عجب أم هل إلى ردّ ما قد فات من طلب
هب الــدنيــا تقــاد إليــك عفــواً ألــيس مــصــير ذاك الى الــزوال
هنيئــاً لمن لا ذاق للدهـر لــوعــة ولم تــأخــذ الأيــام منــه نصيبــاً
هم يحسـدوني على مـوتي فـواحـزني حتى على الموت لا أخلو من الحسد

(حرف الواو)

ولم أر كــالمعـروف ، أمّــا مـذاقــه فـحـلو وأمّــا وجـهــه فـجـمـيـل
وإذا خـشيـت من الأمــور مـقــدّراً وهــربـت منـه فنحـوه تـتـوجـه
والــرزق يخــطىء باب عاقل قومه ويبيت بوّاباً بــبــاب الأحمــق
ولا يــغــررك طــول الحــلم مــني فــلما أبــداً تــصــادفــني حــليــماً
ولا خــير فيمن لا يــوطن نـفســه على نائبات[2] الدهـر حين تنوب
وإذا أتـتــك مــذمتي من نــاقص فـهي الـشهــادة لي بــأني كــامــل
ومــا لــلمــرء خــير في حــيــاة إذا مــا عــد من سقط المتــاع
ومــا المـرء إلا كــالهـلال وضــوئـه يــوافي تمـام الشهــر ثـم يـغـيـب
وقـد تسلب الأيـام حـالات أهلهـا وتعـدو على أسـد الرجـال الثعـالب
ومن يأمن من الدهـر الخؤون فـإنني برأي الذي لا يـأمن الدهـر اقتدي
وإذا افتقـرت إلى الذخـائـر لم تجـد ذخــراً يكـون كصــالــح الأعمــال
ومـن يكـن الـغــراب لــه دليــلاً يمــر بــه عــلى جـيـف الـكـلاب
ومن يكن مثــلي ذا عيــال ومقتــراً من الــزاد يطرح نفسه أي مـطرح
ولــربمــا منــع الكــريم ومــا بــه بــخــل ولــكــن ســوء حظ الطالب
ولا بات يسقينا سوى الماء وحــده وهذا جزاء من بات ضيف الضفادع
ومن عاش في الدنيا فلا بد أن يرى من العيش ما يصفو ومـا يتكـدر
ولـو دامت الـدولات دامت لغيرنـا رعــايــا ولــكــن مــا لهــن دوام
وأحسن فــإن المــرء لا بــدّ ميت وإنــك مجزي بمـا كنت ســاعيــاً
ولا تــريــن الــنــاس إلا تجــمــلاً وإن كنت صفر الكف والبطن طاوياً
ومــا لامـرىء طــول الخلود وإنمــا يخــلده طـول الـثــنــاء فيــخــلد

---

(١) الكسعي : من كسع كسعاً : طرده .
(٢) النائبة : المصيبة .

ولـرب نـازلـة يضيق بهـا الفتى ... ذرعـاً وعنـد الله منهـا المخـرج
وكـان رجـائـي أن أعـود ممتعـاً ... فـصـار رجـائي أن أعـود مسلماً
وتجـلدي لـلشـامـتـين[1] أريهـم ... إني لـريب الـدهـر لا أتضعضـع
ولا بـد من شكوى إلى ذي مروءة ... يـواسيـك أو يسليـك أو يتـوجـع
وهـوّن حـزني عـن خـليـلي أنني ... إذا شئت لاقيت الذي مات صاحبه
ويـوم عـلينـا ويـوم لـنـا ... ويـوم نـسـاء ويـوم نـسـر

(حرف اللام ألف)

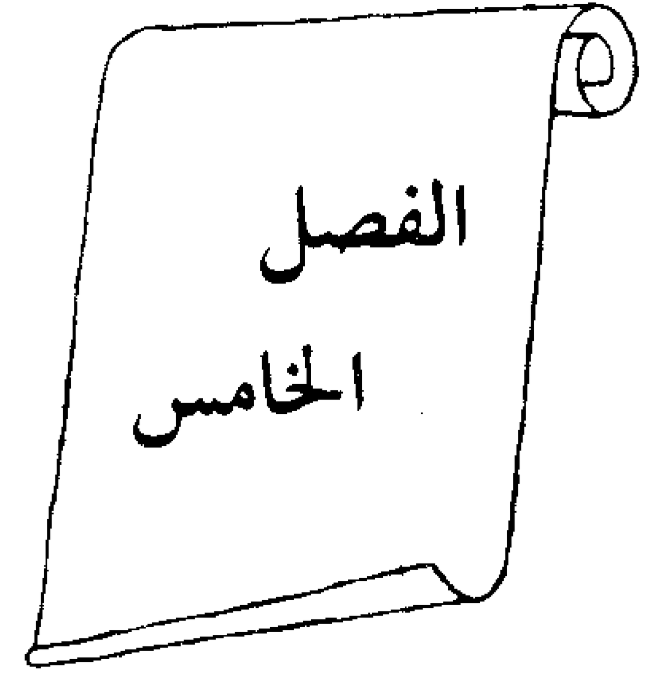
لا تنـظرن إلى الجهـالـة والحـجى ... وانـظر إلى الاقـبـال والادبـار
لا تـسـأل المـرء عـن خـلائقـه ... في وجهـه شـاهـد من الخـبـر
لا يـصـبـر الحـر تحـت ضيـم ... وإنمـا يـصـبـر الحـمـار
لا تـنـه عـن خلق وتـأتي مثـله ... عـار عليـك إذا فعلت عـظيم
لا يـبـالي الـشـتـم عـرض ... كـلـه شـتـم وذم
لا تنـظرن إلى امـرىء مـا أصله ... وأنـظر إلى أفعـالـه ثـم أحـكـم
لا يسكن المرء في أرض يهان بها ... إلا من العجـز ومن قـلة الحيـل
لا يقبلون الشكـر مـا لم ينعمـوا ... نعـماً يكـون لهـا الثنـاء تبيعـاً
لا أسأل الناس عمّا في ضمائرهم ... مـا في ضمـير لهم من ذاك يكفيني

(حرف الياء المثناة التحتية)

يـفـر من المـنـيـة كـل حـي ... ولا ينجي من الـقـدر الحـذار
يـريك الـرضا والغـل حشو جفونه ... وقـد تنطق العينـان والفم سـاكت
يهـمـهـم لـلشـعـير إذا رآه ... ويـعـبس إن رأى وجـه الـلجـام
يفـارقـني من لا أطيـق فـراقـه ... ويصحبني في النـاس من لا أريـده
يـزيـد تـفـضـلاً وأزيـد شكـراً ... وذلـك دأبـه أبـداً ودأبي
يواسي الغراب الذئب في كل صيده ... وما صارت الغربان في سعف النخل
يهون علينا أن تصاب جسومنـا ... وتـسلم أعـراض لـنـا وعـقـول
يغـرّ الفـتى مـرّ الليـالي سليمـة ... وهـن بـه عـما قـليـل غـوائـر
يـغـيـظني وهـو عـلى رسـله ... والمـرء في غـيظ سـواه حـليـم
يـريـك البشـاشـة عنـد اللقـا ... ويبـريـك في السـرّ بـري الـقلم

---

(١) شمت : فرح ببلية العدو .



في الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم

(حرف الألف)

إن كنت ما تعمل جميل اعمل كما يعمل معك * إذا أبغضك جارك حوّل باب دارك * إذا كان صاحبك عسل لا تلحسه كله * المستعجل والبطيء عند المعدية يلتقي * ألف ذقن ولا سلام عليكم * ألف ذقن ولا ذقني * إذا غاب عنك أصله كانت دلائل نسبته فعله *إذا وصلت وسلم الله بع بما قسم الله* إذا كنت أعمى وأطروش شم رائحة النقوش * إذا كان النبيذ وردي ، والعشيق كردي ، والبقل فول حار ، والعشاء بيسار ، أيش يكون الحال * إذا كان القطن أحمر والمغسل أعور ، والدكة مخلعة ، والنعش مكسر اعلم أن الميت من أهل سقر والوادي الأحمر * أيش ينفع الضراط عند طلوع الروح ، قال تقريف للحاضرين وتفريق للملائكة * القشر والنشر والعشا خبيزة * أكل الدقة والنوم في الأزقة ، ولا دجاجة محمرة يعقبها مشقة * أيش أنت في الحارة يا منخل بلا طارة * الرجم بالطوب ولا الهروب * إذا وقعت يا فصيح لا تصيح * أقرع يقول لأقرع * امش بنا نزرع في بركة القرعان أيش ما طلع يطلع ، النصف لي ، والربع لي ، والثمن لي ، والثمن الآخر لك ولي * العدو ما يبقى حبيب حتى يصير الحمار طبيب *أقعد يا حمار حتى ينبت لك الشعير * أي موضع راح الحزين يلقى جنازة *

قال الشاعر :إن دام هـذا السـير يـا مسعـود   لا جمـل يـبـقـى ولا قـعـود[1]

غيره : إذا لم تكن لي والـزمـان شـرم بـرم   فـلا خـير فيـك والـزمـان تـرلـلي

غيره : إذا اقبلت كـادت تقاد بشعـرة وإذا   أدبـرت كـادت تقـدّ السـلاسـلا

(حرف الباء الموحدة)

بينما يتروّى البخيل قضى الكريم حاجته * بينما يسعد المغتر فرغ عمره * بينما أصل قبره نسيت همه * بينما يعدل المعتر حاله جاء الموت شاله * بينما يخلص ربنا حقي اتفرقعت جوزة حلقي * بينما يقطع الجريد يفعل الله ما يريد * بينما يجيء الدرياق من العراق يكون الملسوع مات * بين حانه وبانه حلقت لحانه * بدوي مقروح لقي التمر مطروح ، أين يخلي ويروح * بدال لحمتك وقلقاسك هات لك شد على راسك * بدال اللحمة والباذنجان هات لك قميص يا عريان * بدال لحمتك التلاته هات لك شد يا شماته * بقى للكلب سرج وغاشية وغلمان وحاشية * بقي للخرا مرا ويحلف بالطلاق * بعد الجوع والقلة بقي لك حمار وبغلة * .

---

(١) القعود : صغير الجمل (الذكر).

(حرف التاء المثناة فوق)

تموت الحدادي وعينها في الصيد * تعالوا بنا نقتبح ونرجع غداً نصطلح * تدحرج الخرا لعند البعر قال له أيش أنت قال له بزم قردش * ترك الفضول من حزم العقول * تراب العمل ولا زعفران البطالة * تسكر وتخانق ما هو شيء موافق * تجارة الأحمق على أهل بيته * تضارب الريح مع الموج جا الهم على النواتية * تزاوروا ولا تجاوروا * تبات نار تصبح رماد لها رب يدبرها *

(حرف الثاء المثلثة)

ثوب العيرة ما يدفي * ثقيل واسمه صخر بن جبل * ثور علقوه أغمي عليه قال حتى يطلع شيء يرشوه عليه * ثور عاجز ما يدوّر ساقيه * ثقيل من أولاد الزنا مرّ العنا * ثوب عليه وثوب على الوتد ، قال : أنا اليوم أحسن من كل من في البلد *

(حرف الجيم)

جور القط ولا عد الفار * جمل موضع جمل يبرك * جهد المقل دموعه * جمل بحبه قال وأين المحبة * جيت اصطاد صادوني * جار له حق وجار ما له حق وجار لا صحبته عافية * جارك مرآك ان لم ينظر وجهك نظر قفاك * جا كتاب من عند خاله قال كل من هو في حاله * جاكتاب من عند عمه قال كل من هو ملهي بهمه * جاؤوا ينعلوا خيل الباشا مدت أم قويق رجلها * جوزوها له ما لها إلا له * جوزوا مشكاح لريمه ما على الاثنين قيمة *

(حرف الحاء المهملة)

حاجة لا تهمك وصي عليها زوج أمك * حول حبيبي ما عونه وقدرته مع كانونه * حمار حنكوه بالتوت على باب الغيط يموت * حلينا القلوع وأرسينا وأصبحنا على ما أمسينا * حب وواري واكره وداري * حدثتني ونصحتني عايرتني وفرحتني * حط فليساتك في كمك واشتر أبوك وأمك * حبة قرض تخرب أرض *

(حرف الخاء المعجمة)

خذيني وارغبي فيه أنا حصاد ملوخية ، وعند الخبز آكل ميه ، وعند الشغل ما لي نية * خبثت لي وصلحت لك * خذ ذا الصبي فوق صبيانك تمام لأحزانك * خزينة في جره وملحه في صرة * خبزه بلا أدام ويعزم على الجيران *

(حرف الدال المهملة)

دار الظالم خراب ولو بعد حين * درهم لك ودرهم عليك لا لك ولا عليك * دواء ما لا تشتهي النفوس تعجيل الفراق *

(حرف الذال المعجمة)

ذا درب ما يسد ريح * ذي ما هي رمانة الا قلوب ملانه * ذا لي وذا أيدي عليه * ذي مائدة ما يقعد عليها طفيلي * ذا الخبر ما هو من ذا العجين * الولد خرا من ظرفه كل من شال رجليه حك أنفه * ذكروا مصر القاهرة قامت باب اللوق بحشايشها * ذكروا المدن جاءت القرى تحجل *

(حرف الراء المهملة)

راح ذاك الزمان بناسه وجاه هذا الزمان بفاسه وكل من تكلم بالحق كسروا راسه * رأوا الحجّار راكب حيط ، قالوا إلى اين يا حجّار ، قال مسافر ، قالوا من كانت هذه المطية مطيته لا يشرق ولا يغرب * رأوا سكران يقرأ قالوا عن تشاكل روحك * رأوا شيخاً يتهجى قالوا يختم على الصراط * رأوا وردانه على سنداس ، قالوا ما لذي الفسقيه إلا ذي البلطية * رأوا على قبر مكتوب يا سعادة ساكنه قالوا أبصر من يزاحمه * راكب بلاش ويناغش مرات الريس * ركبتك وراي ، حطيت يدك في الخرج * راح الجندي وخلى خلقه عندي *رزق الكلاب على المجانين * راسين في عمامة ما يكون * راحت على جمل وجات على قطة قال : ما لذي الشيله إلا ذي الحطة * قال الشاعر :

راح الـذي كـنـا نـعـيـــ ـش بـفـضـلـه بـين الـورى
وبـقـي الـذيـن حـيـاتـهـم ووجـودهـم مـثـل الخـرا

(حرف الزاي المعجمة)

زقزوق على بركة يضحك وهو ضحكة * زاوية بلا عيش بنيت ليش * زوج القصيرة يحسبها صغيرة * زوجت بنتي أقعد في دارها جاتني وأربعة وراها * قال الشاعر :

زوّجـت بـنـتي تـنـستـر ويمـتـلي بـيـتي قـمـاش
جـاء غـزلهـا في أكـلـهـا ونـيـكـهـا طـلـع بـلاش

زنبور زن على حجر مسن ، قال : له أيش تريد ، قال : الحسك ، قال : أنا الحس البولاد * زنبور زن على فلس جحش ، قال له : أيش تطلب؟ قال له : عسل . قال له : قصدت معدن يا دندن *

(حرف السين المهملة)

سل المجرب ولا تنس الطبيب * سموك مسحر قال فرغ رمضان * سموك حبل قال وطولت * سموك راجح قال إن شاء الله تجي الحق * سبع وزر ولا استتر * قال الشاعر :

سـيـغـني الله عـن بـقـراط دن ويـأتي الله بـالـلـبـن والحـلـيـب
وقال آخر : سيـغـني الله عـن زيـد وعـمـرو ويـأتي الله بـالـفـرج الـقـريـب

(حرف الشين المعجمة)

شره ووضيع ويغضب سريع * شيء ما نابه وتقطعت ثيابه * شعر يحلق وشعر ما يحلق *شرب السموم القاتلة ولا الحاجة الى السفل * شمني ولا تدعكني * شيء ما يجي على القلب عنايته صعبة * شراء العبد ولا تربيته * شخت بغلة عامت زبلة * ركبت خنفسة زمر زنبور * قال ما ذا الجوق الجليل إلا لمقطعات النيل *

(حرف الصاد المهملة)

صام سنة وفطر على بصلة * صبري على الحبيب ولا فقده * صاحب يضر عدو مبين * صباح الفوال ولا

صباح العطار * صباحك يا أعور قال ذي خناقه بايتة * صباح الخير يا جاري أنت في دارك وأنا في داري *

(حرف الضاد المعجمة)

ضرب الحبيب كأكل الزبيب * ضربتين في الرأس تعمي * ضرب وبكى وسبق يشتكي * ضربة على كيس غيري كأنها في عدل حنا * ضمنوا حداية لغراب قال الكل يطيروا * ضربوا بياع الكسبرة خري بياع التوم قال ذي داهية جات على الخضرية *

(حرف الطاء المهملة)

طارت الطيور بأرزاقها * طفيلي ويجلس في الصدر * طفيلي ويقترح * طويل الكم خطار قليل الفرح في الدار * طبق وجارية على صحن بسارية * طلبوا جاكم عثمان يد من ورا ويد من قدام * طعامك ما جاني ودخانك عماني * طار طيرك وأخذه غيرك * طول ما أعيش يكفيني رعي الحشيش * طوّل الغيبة وجانا بالخيبة *

(حرف الظاء المعجمة)

ظهرك عندي نصف الليل *

(حرف العين المهملة)

عنقود مدلى في الهوا من لا يصل إليه يقول حامض ولا استوى * عشق بداله لا أباله * عاشق ما يسمع بكا صغير * عاشق ما يسمع كلام مفارق * عاشق مقل شيء ما زرع ايش جايستغل * عزومه حسبت عليك كل وبحلق عينك * عند المخاضة يبان القيليط * عند الطعان يبان الفارس من الجبان * عريان التينة وفي حزامه سكينة * عريان وفي كمه ميزان *

(حرف الغين المعجمة)

غابت السباع ولعبت الضباع * غربة وكربه ما يحمل الحال * غطاس وقلقاس نحسين في قدره * غالي السوق ولا رخيص البيت *

(حرف الفاء)

فرجة بلا كسر تعمي البصر * فقير ونقير وكلامه كثير ويقول هاتوا عشا من يخني * فوق الشر اطه ملخ أو دانه * فارس خرا ويسوق في الوحل * فارس خرا واسمه عنتر * فارس خرا ويسابق الخيل * فرد ضربة في الرأس تكفي * فصدوا قرد ضرط قالوا به دم زايد * فرغت الرعانة يا جانم *

(حرف القاف)

قالوا للأعمى زوّق عصاتك قال هو أنا محب فيها * قالوا للحمار اجتر قال مضغ المحال ما ينطلي * قالوا للقرد شب قال أيادي ملاح وتمسك الماصول * قالوا للقرد أطلب من ربك قال هو أنا عنده بوجه يبسط * قالوا للجمل زمر قال لا شفف ملمومة ولا أيادي مفرودة * قالوا للدبة طرّزي قالت ذي خفة أيادي * قالوا للكلاب

احرثوا قالوا ما جرت بهذا عادة * قالوا للغراب مالك تسرق الصابون قال الأذى طبعي * قالوا لبقر الديوان إذا متم يكفنوكم في حرير قالوا اشتهينا نروح بجلودنا * قالوا للغزالة ارحلي حركت ذنبها * قالوا للعرب ارحلوا حملوا المناسف *

(حرف الكاف)

كل من عوّدته بأكلك كلما نظرك جاع * كشكار دايم ولا علامة مقطوعة * كل كرهاً واشرب كرهاً ولا تعاشر كرهاً * كل هم كاوي عند همي ياوي * كل شيء لا يشبه قانيه حرام * كل مائة عصفور ما يجو حدايه * كل ألف مصة ما يجو بغصه * كل ألف بوسة ما يجو بعبوسة * كملت يا لحمان بالشعرة والصنان * كمل حبيبي كل المعاني أعرج وقيليط ومعجباني * كمل حبيبي وأكمل أعرج وقيليط وأحول وفيه عادة أخرى لمن يواصل يخرا * كأنه خان للفجر لا يوحشه من غاب ولا يؤانسه من حضر * كأنه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار * كأنه عصفور ينيك بلاش وَيأوي في الأعشاش *

(حرف اللام)

لولاك يا كمي ما أكلت يا فمي * لولاك يا لساني ما انكسيت يا قفاي * لولا الغيرة والحسد كانت عجوزة كفت بلد * لولا أختك ما صرت ابن عمتك * لو قليناها بليه ما جات هكذا * لو كان فيها خير ما رماها طير * لك وعليك ما يصعب عليك * لك أسوة بغيرك * لقمة بدقة ولا خروف بزقة * لقمة تحت حيطة ولا خروف بعيطة * لو سلم الكرم من حارسه طابت مغارسه * لو تقطع يده وتدليها من فيه صنعه ما يخليها * لو عمل لي من الذهب وليمة هو عندي بتلك العين القديمة * لو شال راسه الى السما كأنه عصيدة بما * لو نظر الجمل لسنمه كان كدمه * لولا الكشط والبراية ما كانت أولاد الخرا كتاب *

(حرف الميم)

محبة بلا حبة ما تساوي حبة * ما شلتك يا دمعتي إلا لشدتي * من عاشر غير جنسه دق الهم صدره * من قدم النحس تعب في تأخيره * من عاشر الحداد احترق بناره * من عاشر الزبداني فاجت عليه روايحه * من ركب في غير سرجه وغرزه دخل الهوا استه وهزه *من لايحط يده لزنده ما يعرف حره من برده *ما رأيتك يا نور حتى ابيضت العيون * ما لي على فراقكم جلد إلا هجاجي من البلد * ما كفانا همّ أبونا قام أبونا جاب أبوه قال خذوا جدكم ربوه * من عدم نابه ونصابه وثيابه وشبابه كان الموت أولى به * من يكلم القبح يروح عرضه وينفضح * ما تنقدوهم كلهم زغليه ما فيهم من يعجب النقاد *

(حرف النون)

نواية تسند الجرة قال وتستد الزير الكبير * نفسك أتلفت أي شيء أخلقت * نصف البلا ولا البلا كله * ناقص ونحاس * ناموسة باتت على شجرة أصبحت تقول خاطرك قالت لها وأنت كنت على أي ورقة * نيتك مطيتك * نسيت يا فلاح ما كنت فيه ، كعبك المشقق والوحل فيه * نيك حتى تبقى ديك *

(حرف الهاء)

هانت الزلابية حتى أكلها بنو وائل * هان المسك وانتثر * هدية تعر قومها تخليتها ولا لومها * هدية الاحباب

على ورق السداب * قال هو أعمى عن ورق الموز * هو عرس تأكل وتنسل * أهدوا هدية وأعينهم فيها يقولوا الله يردها * هاتوا ذا الغزل المخبل لذا القلب المدبل *

(حرف الواو)

واحد نتفه وآخر لقفه وقال آخر يا قريب الفرج * واحد بيخطبوا له وهو قائم عليه ، قال أنا في حاجتك * واحد جائز رأى قرد يجرش ترمس قال ما لذي الفاكهة البدرية إلّا ذي الصورة القمرية * واحد سموه عنبر وصنعته سرباتي قال الذي كسبه في الاسم خسره في الصنعة * وحش ويكش ويقعد في الوش ويغني بلينا بكم * وقت أكل الدجاج ما يفتكروني وفي وقت شيل التراب هات يدك *وإيش قام على تومة بفصل الحكومة * وقت الشوا أو اليخني ما قلت يا أخي الحقني * ووقت ضرب الدرة قلت اصفعوا واصفعني *

(حرف اللام ألف)

لا تعيرني ولا أعيرك الدهر حيرني وحيرك * لا أصل شريف ولا وجه ظريف * لا أخوك ولا ابن عمك تشق ثوبك على إيش * لا عاش بليق * لا حراس ولا دراس * لا عاش العار ولا بنى له دار * لا ربح ثوابه ولا خلاه لاصحابه * لا في الفراق نجد راحة ولا في الوصل * لا تشكرن فتى حتى تجربه * لا تفرح لمن يروح حتى تنظر من يجي * لا يضر السحاب نبح الكلاب * لا يغرك تظريفي الأصل في ريقي *

(حرف الياء)

يا شب مليح ما أحسن وصفك لا في يدك ولا في طرفك * يا ويل من ذاق الغنى بعد جوعه ، يموت وفي قلبه من الهم واجس * يا طارق الباب بعد العشي لا تطرق الباب ما تم شي * يا من ملنا ما كان حلنا لساما لنا في العشرة سنة * يهنيكم قدومه قد جاكم بشومه * يا ليتنا انكسرنا ولا بك انتصرنا * يا ويل من كان عشيه من بيت خيه * يا طالب الشر بلا أصل تعال للصائم بعد العصر .

(أمثال النساء)

(حرف الألف)

أحبك يا سواري.مثل معصمي ؟* الذي في قلب أم حنين تحلم به في الليل* إن كنت حرة لا تضيعي نقابك برة * إن لم تعملي وتفتخري وإلا اقعدي وانعفري * إن كانت الداية أحن من الوالدة قال ذي داهية عيارة * الكلام لك يا جارة إلا أنت حمارة * إيش تعمل الماشطة في الوجه المشؤوم * إيش قام على الحزينة بالنقش والزينة * إيش ينفع النفخ في الوجه الأصم * أرملة عدس ومتزوجة عدس اقعدي بعد سعي * اسم الزوج ولا طعم الترمل * العاقلة فينا تزني بيقطينا * إذا كان زوجي راضي إيش فضول القاضي * استعارت الرعنة شيء حسبته لها أخذت المقص ، دارته لها * اقعدي في عشك حتى يجي حد ينشك *

(حرف الباء الموحدة)

بعد أن كنتي لي وحدي بقيت اسمع أخبارك * بعد سنة وشهرين جابت بنت بشفرين * بعد أن كان زوجها

بقي طباخ في عرسها * بعد مشيك في الحلقة بقي لك سلالم وغرفة واسمك ستيتة * بعد أمي وأختي الكل جيراني * بينما تتنقب الحولة انصرف القاضي * بنت الخرا تزف لابن الخرا بدف *باتت ناموسة على جميزة قالت صبحك الله بالخير قالت من دري بك قبله * بدال ما تمشي وتهزي كتفك رقعي فردة خفك * بخرا وتزاحم بالبوس * بقي لأم سيسي برقع وللضفدعة زمارة * بعد مشيك في الحلافي لبستي الصافي * بعيد على الحزينة تستعمل الزينة *

(حرف التاء)

تابت القحبة يوم وليلة قالت ما بقي في البلد حكام * تضاربت المجنونة والحمقا حسبته الرعنة من حقا * تضارب وتتعرى وتصيح يا قلة رجالي * تأخذوا ابونا وتكابرونا * ترتانة وبيبانة ومفاتيح الخزانة * تباهت الرعنة بشعر بنت أختها * تخلوني وإلا استحل بجارنا قالت إذا كان ذا في قلبك خذيه بلا استحلال * تتغمى بالخرج ولا تخلي الغنج * تقعد عيوشة في ديارتها ما لأحد حاجة في زيارتها *

(حرف الثاء)

ثوب سيدي ، ثوب حبيبي ، ثوب ستي ، ثوب قحبه *

(حرف الجيم)

جارة بجارة والعداوة خسارة * جاني عذولي ورتالي ما هي محبة إلا شماتة لي * جارية وزبدية على باذنجانة مقلية * جاتنا العدوة مكحلة قطران لا غيره وقلبها فرحان * جاب ثيابه يغسلهم بلا صابونة معهم *

(حرف الحاء المهملة)

حولة وتتنقب بنخ * حزانى ما عندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق * حزانى ما عندهم خبز اشتروا لهم بعشرة ملوخية * حزينة وواعية * حبلة ومرضعة ، وعلى كتفها أربعة ، وطلعت الجبل تجيب دوا للحبل * حولة ونصرانية لا مليحة ولا أصل طيب * حزينة ما لها مملوك سمت زنبورها خوشكلدم * حزينة ما لها ملك اكترت لها بواب * حزينة ما لها كاملية طلبت لها خف وشعرية *

(حرف الخاء المعجمة)

خطبوها تعززت وكان زمان البوار * خلت زوجها مكروب وراحت تشوف المصلوب * خذي قطيفة ، واكتمي سري ، قالت ما يطاوعني قلبي ، خلت ما يعنيها واتبعت حك رجليها *

(حرف الدال المهملة)

درى زوجك بكتبتك تمي نهارك مع ليلتك * دق من أسفل ولا تطلع ما أنت على القلب *

(حرف الذال المعجمة)

ذكرت العجوز أطلالها *

(حرف الراء)

رقصتي ما أحسنتي كان قعادك أجمل * رعنا يضحكوا بها وهي تضحك تساعدهم * رأوا جاموسة منقبة بحصير قالوا ما لذا الشكل الوضيع إلا ذا القماش الرفيع * راحت تبيع ربعة غابت جمعة * راحت رجال الهيبة وبقيت رجال الخيبة * راحت رجال اللحم والقلقاس وبقيت رجال الخبز بالفسفاس * رأوا خنفسة على مكنسة قالوا ما لذي الصيفة إلا ذا الحمار الأزعر *

(حرف الزاي)

زمربالزميميرتبان لك العاقلة من المجينينة * زوجي ما حكم علي قام لي عشيقي بشمعة * زوجوا بنت نشادري لسربالي قالوا قليلات الخرا تتدحرج لبعضها *

(حرف السين المهملة)

سودا وتتنقش بسباخ * سودا منقبة قفل على خزانة * سألوها عن أبيها قالت جدي شعيب *

(حرف الشين المعجمة)

شدي قرطاسك من عند موسه قالوا داشي ما فرحتي به وإنني عروسه * شامتة ومعزية *

(حرف الصاد المهملة)

صارت القحبة واعظة *صارت القويقة شاعرة *

(حرف الضاد المعجمة)

ضحك ابن سنة غمي على أمه قالت ما أخف دمه *

(حرف الطاء المهملة)

طلعت ترحم نزلت تتوحم *

(حرف الظاء المعجمة)

ظريفة وعفيفة ولها نفس شريفة *

(حرف العين المهملة)

عميا تحفف مجنونة وتقول حواجبك سود مقرونة * عاقلة وجابت طفلة وجاتها خطار واشتروا لها قلقاس دكر وحطب أخضر في نهار مطر وقالوا لها اطبخي * على قدر لمحة تقع الصلحة * عجوزة وجابت غلام إذا جنت لا تلام * عجوزة وخرفانة دي داهية كمانه *

(حرف الغين المعجمة)

غيرك يقوم مقامك عليش قلبي أعذبه *

(حرف الفاء)

فرحت حزينة خربت مدينة *

(حرف القاف)

قالوا للمغاني اتزوقوا قلبوا عصايبهم * قحبة ما كنست بيتها كنست المسجد قالوا دي قحبة تطلب الثواب *

(حرف الكاف)

كل من تبعت هواها صارت سراويلها رداها * كبرتي يا برقوقة وبقي لك دبوقة * كانوا مغاني صاروا ملاهي * لا راحت ولا جات كما هي * كلي قليه وباتي هنيه * كأنها من الباسطية قماش على جريدة * كأنها حزمة فجل اصفر وعرقها أخضر * كأنها من عمايم اليهود صفرا طويلة رفيعة * كأنها من بيت الوالي ما يتحدث فيها سوى الحاشية * كأنها ضبة جعيدي مخلوعة ولا تأخذ شيء *

(حرف اللام)

لو كان ما ينقش إلا السمان بارت المواشط من زمان * للساعة ما حبلت جابت المرسين * لولا المعاير ما كانت الحرارير *

(حرف الميم)

ماشطة وتمشط بنتها * من افتكرنا بياسمينا ما نسينا *

(حرف النون)

نواية تسند الجرة وقال وتسند الزير الكبير .

(حرف الهاء)

هش يا دّبانة أنا حبلى من مولانا .

(حرف الواو)

وجه لا يرى بالذهب يشترى .

(حرف اللام ألف)

لا أنت مليحة ولا تغني بايش تدلى .

(حرف الياء)

يعيش المدلل بلا مكلل * يا غزالة الأقمار أين كنتي بالنهار * يا ما تحت النقاب والشعرية من كل بلية * يا من ملنا ما كان حلنا * للساعة ما لنا في العشرة سنة *

الباب السابع

في البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء

وفيه فصول

الفصل الأول

في البيان والبلاغة

أما البيان فقد قال الله تعالى : ﴿ **الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان** ﴾[1] وقال ﷺ : « إن من البيان لسحراً » قال ابن المعتز[2]: ترجمان القلوب وصيقل العقول . وأما حده فقد قال الجاحظ[3] : البيان اسم جامع لكل ما كشف لك من المعنى ، وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هي أن يقال : بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله ، قال الله تعالى : ﴿ **فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف** ﴾[4] وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ **أم لكم أيمان علينا بالغة** ﴾[5] أي وثيقة كأنها قد بلغت النهاية ، وقال اليوناني : البلاغة وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة . وقال الهندي : البلاغة تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام . وقال

---

(١) سورة الرحمن الآيات (١، ٢، ٣، ٤).

(٢) عبد الله بن المعتز شاعر عباسي بويع بالخلافة إلا أنه لم يستمر بها سوى أياماً قليلة . توفي سنة (٢٩٦هـ - ٩٠٨ م).

(٣) هو ابو عثمان الجاحظ امام المدرسة النثرية الثانية في الادب العربي . معتزلي له : « الحيوان » و« البخلاء » و« البيان والتبيين » توفي سنة (٢٥٤هـ - ٨٦٨ م).

(٤) سورة الطلاق الآية ٢ .

(٥) سورة القلم الآية ٣٩ .

الكندي[1] : يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ ، كثير المعاني . وقيل : إنْ معاوية سأل عمرو بن العاص :من أبلغ الناس ، فقال : أقلهم لفظاً ، وأسهلهم معنى ، وأحسنهم بديهة ، ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم ﷺ وافتخر به حيث يقول :«انصرفت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم»، وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة * وقيل : ثلاثة تدل على عقول أصحابها ، الرسول على عقل المرسل ، والهدية على عقل المهدي ، والكتاب على عقل الكاتب . وقال أبو عبد الله وزير المهدي : البلاغة ما فهمته العامة ، ورضيت به الخاصة . وقال البحتري[2] : خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل . وقالوا : البلاغة ميدان لا يقطع إلا بسوابق الأذهان ، ولا يسلك إلا ببصائر البيان.وقال الشاعر :

لك البلاغة ميدان نشأت به   وكلنا بقصور عنك نعترف
مهد لي العذر في نظم بعثت به   من عنده الدر لا يهدي له الصدف

وروي أن ليلى الإخيلية مدحت الحجاج فقال: يا غلام إذهب إلى فلان فقل له يقطع لسانها .قال: فطلب حجاماً فقالت:ثكلتك أمك إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة . فلولا تبصرها بأنحاء الكلام ، ومذاهب العرب ، والتوسعة في اللفظ ، ومعاني الخطاب لتم عليها جهل هذا الرجل . وقال الثعالبي[3]: البليغ من يحول الكلام على حسب الأمالي ، ويخيط الألفاظ على قدر المعاني ، والكلام البليغ ما كان لفظه فحلًا ، ومعناه بكراً . وقال الإمام فخر الدين الرازي[4] رحمه الله تعالى عليه في حد البلاغة أنها بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه ، مع الاحتراز عن الايجاز المخل ، والتطويل الممل ، ولهذه الأصول شعب وفصول لا يحتمل كشفها . هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر وبالله التوفيق إلى أقوم طريق .

---

(١) هو يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندي ـ ابو يوسف ـ فيلسوف العرب والاسلام في عصره ، وأحد أبناء الملوك من كندة . نشأ في البصرة ، وانتقل إلى بغداد ، فتعلم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقىٰ والهندسة والفلك وألف وترجم كتباً كثيرة يزيد عددها على ثلاثمائة . من كتبه « رسالة في التنجيم » و« اختيارات الايام » و« تحاويل السنين » و« إلهيات ارسطو » و« القول في النفس ». ونشر الدكتور ابو ريدة : « رسائل الكندي » في جزأين اشتملا على بعض رسائله . توفي الكندي نحو (٢٦٠هـ).

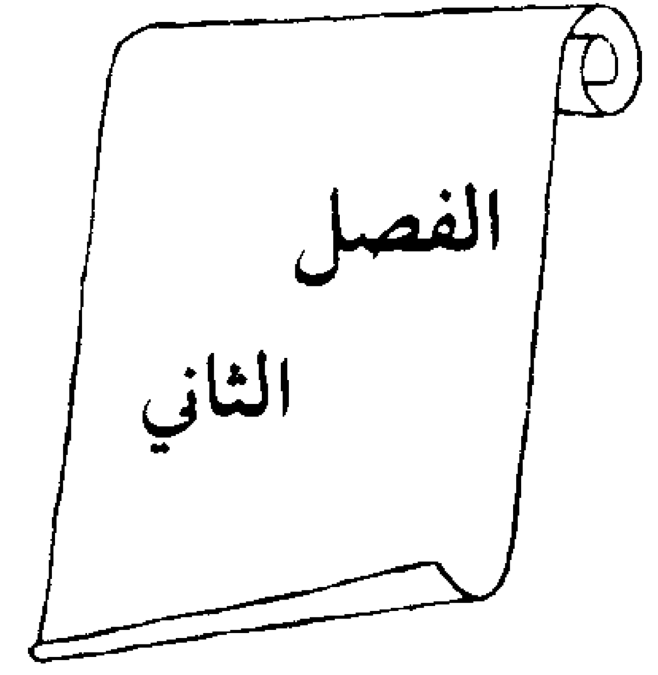
انظر طبقات الاطباء (١ : ٢٠٦ ـ ٢١٤). المقتطف (٥٧ : ١١). لسان الميزان (٦ : ٣٠٥).

(٢) البحتري ـ شاعر ـ ولد سنة : (٢٠٥هـ ـ ٨٢٠ م) في منبج ومدح الخلفاء واصبح شاعر المتوكل توفي سنة (٢٤٨ هـ ـ ٨٩٧ م).

(٣) هو عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ـ ابو مقصور الثعالبي ـ من أئمة اللغة والادب . من أهل نيسابور . كان فرّاءاً يخيط جلود الثعالب . فنسب إلى صناعته واشتغل بالادب والتاريخ ، فنبغ . وصنف الكتب الكثيرة منها : « يتيمة الدهر » أربعة أجزاء في تراجم شعراء عصره و« فقه اللغة » و« سحر البلاغة » و« لطائف المعارف » و« الاعجاز والايجاز » وغيرها. . . توفي سنة (٤٢٩ هـ ـ ١٠٣٨ م). انظر : معاهد التنصيص (٣ : ٢٦٦) مفتاح السعادة (١ : ١٨٧ و٢١٣).

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري ـ ابو عبد الله ـ فخر الدين الرازي امام مفسر . أصله من طبرستان وولد في الري سنة (٥٤٤هـ ـ ١١٥٠ م) وتوفي في هراة سنة (٦٠٦هـ ـ ١٢١٠ م) من كتبه « مفاتيح الغيب » ثماني مجلدات في تفسير القرآن الكريم . و« لوامع البينات في شرح اسماء الله تعالى والصفات » و« معالم أصول الدين » و« المباحث المشرقية » و« الاربعون في أصول الدين » و« مناقب الامام الشافعي » وغيرها .

انظر : مفتاح السعادة (١ : ٤٤٥). الوفيات (١ : ٤٧٤).



في الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى عليه : إعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد ، وأصلها من قولهم أفصح اللبن ، إذا أخذت عنه الرغوة ، وأكثر البلغاء لا يكادون بفرقون بين البلاغة ، والفصاحة بل يستعملونها استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد في تسوية الحكم بينهما ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني ، والفصاحة في الألفاظ ، ويستدل بقولهم معنى بليغ ، ولفظ فصيح وقال يحيى بن خالد : ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم ، فإن كان فصيحاً عظم في صدري ، وإن قصر سقط من عيني . وقد اختلف الناس في الفصاحة فمنهم من قال إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني ، ومنهم من قال إنها لا تخص إلا الألفاظ وحدها ، واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال : نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح ، وهذه الألفاظ فصيحة ، ولا نرى قائلاً يقول هذا معنى فصيح ، فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني ، وإن قلنا إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح وذلك غير مألوف في كلام الناس والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحاً حسناً * ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف ، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة والمعيب من ذلك كقول القائل :

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما   كنا وكنت ولكن ذاك لم يكن

وكقول بعضهم أيضاً :

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه   ولا ضعف الضعف بل مثله ألف

وكقول الآخر :

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

قيل إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث ثقلاً في النطق به . وقيل من عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار . وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر، وملك زمام الأمور، واطلعه ملكها على الخفي من أمره والمستور. قال الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ولم يبق إلا صورة اللحم والدم

وسمع النبي ﷺ من عمه العباس كلاماً فصيحاًفقال بارك الله لك يا عم في جمالك ، أي فصاحتك .

وعرضت على المتوكل جارية شاعرة فقال أبو العيناء[1] يستجيزها : أحمد الله كثيراً ، فقال : حيث أنشأك ضريراً . فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشترها . وقال فيلسوف: كما إن الآنية تمتحن بأطنانها ، فيعرف صحيحها من مكسورها ، فكذلك الإنسان يعرف حاله من منطقه .وقال المبرد[2] : قلت للمجنون أجزني هذا البيت .

أرى اليوم يوماً قد تكاثف غيمه وإبراقه فاليوم لا شك ماطر

فقال : وقد حجبت فيه السحائب شمسه كما حجبت ورد الخدود المحاجر

وقال عبد الملك لرجل : حدثني ، فقال يا أمير المؤمنين افتتح ، فإن الحديث يفتح بعضه بعضاً . وقال الهيثم ابن‌صالح لابنه : يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب ،قال :يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت .يعني كلاماً وصواباً ،قال: يا بني ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك . وقال الشعبي : كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة ،فأقول: أجزها أصلحك الله ، فإن الحديث من وراء ذلك .فيقول : والله لحديثك أحب إليّ منها ، وقال ابن عيينة: الصمت منام العلم ، والنطق يقظته ولا منام إلا بتيقظ ، ولا يقظة إلا بمنام . قال ابن المبارك[3] :

وهذا اللسان بريد الفؤاد يدل الرجال على عقله

ومر رجل بأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ومعه ثوب فقال له أبو بكر رضي الله عنه :أتبيعه؟فقال:لا رحمك الله ، فقال ابو بكر : لو تستقيمون لقومت ألسنتكم هلاّ قلت لا ورحمك الله . ومنه ما حكي أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شيء فقال:لا ، وأيد الله أمير المؤمنين .فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها .

---

(١) ابو العيناء : هو ابو محمد القاسم الهاشمي ولد سنة (١٩٠هـ - ٨٠٥ م) في الاهواز . اديب ، شاعر . تعلم على ابي عبيدة والاصمعي وابي زيد . توفي سنة (٢٨٣ هـ - ٨٩٦ م).

(٢) هو محمد بن يزيد بن عبد الاكبر الثمالي الازدي ، ابو العباس ، المعروف بالمبرد امام العربية ببغداد في زمنه ، واحد أئمة الادب . ولد بالبصرة سنة (٢١٠هـ - ٨٢٦).م وتوفي ببغداد سنة (٢٨٦هـ - ٨٩٩ م) من كتبه « الكامل » و« المقتضب » و« التعازي والمراثي » وغيرها . انظر : بغية الوعاة ١١٦ . وفيات الاعيان (١ : ٤٩٥).

(٣) أحد القراء الفصحاء مؤدب المأمون ، له « النوادر في اللغة » و« المقصور والممدود » توفي سنة (٢٠٣هـ - ٨١٨ م).

وكان الصاحب يقول هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ . ويقال اللسان سبع صغير الجرم . وقال بعضهم شعراً :

سحبان يقصر عن بحور بيانه عجزاً ويغرق منه تحت عباب
وكذاك قس ناطق بعكاظه يعيا لديه بحجة وجواب

وقيل : إنه حج مع ابن المنكدر شابان فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالا : قد أبرقنا وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يفطن فرأيا قبة فيها امرأة ، فقالا : بارقة.وكانت قبيحة فقال ابن المنكدر. بل صاعقة. وكان أصحاب أبي علي الثقفي إذا رأوا امرأة جميلة يقولون حجة ، فعرضت لهم قبيحة فقالوا داحضة . وكتب ابراهيم بن المهدي : إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة ، فإن ذلك العناء الأكبر ، وعليك بما سهل من تجنبك الألفاظ السفل . ويقال : القول على حسب همة القائل يقع، والسيف بقدر عضد الضارب يقطع .وقال الأحنف : سمعت كلام أبي بكر حتى مضى ، وكلام عمر حتى مضى ، وكلام عثمان حتى مضى ، وكلام علي حتى مضى رضي الله تعالى عنهم . لا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة. وقال معاوية رضي الله تعالى عنه : ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله تعالى عنها ، ما أغلقت باباً فأرادت فتحه إلا فتحته ، ولا فتحت باباً فأرادت إغلاقه إلا أغلقته . ومن غريب الكنايات الواردة على سبيل الرمز وهو من الذكاء ، والفصاحة ، ما حكي أن رجلاً كان أسيراً في بني بكر بن وائل[1]، وعزموا على غزو قومه ، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه ، فقالوا لا نرسله إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم ، فجاؤوا بعبد أسود فقال له :أتعقل ما أقوله لك؟ قال نعم : إني لعاقل ، فأشار بيده الى الليل فقال ما هذا قال الليل قال ما أراك إلا عاقلاً ، ثم ملأ كفيه من الرمل وقال كم هذا قال لا أدري وإنه لكثير ، فقال أيما أكثر النجوم أم النيران ، قال كل كثير فقال أبلغ قومي التحية ، وقل لهم يكرموا فلاناً يعني أسيراً كان في أيديهم من بني بكر بن وائل ، فإن قومه لي مكرمون ، وقل لهم أن العرفج قد دنا، وشكت النساء ، وأمرهم أن يعرّوا ناقتي الحمراء ، فقد أطالوا ركوبها ، وأن يركبوا جملي الاصهب ، بإمارة ما أكلت معكم حيساً[2]، واسألوا عن خبري أخي الحارث. فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا :لقد جن الأعور ، والله ما نعرف له ناقة حمراء ، ولا جملاً أصهب ، ثم دعوا بأخيه الحارث فقصوا عليه القصة فقال قد أنذركم ، أما قوله قد دنا العرفج ، يريد أن الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح ، وأما قوله شكت النساء ، أي أخذت الشكاء للسفر ، وأما قوله أعروا ناقتي الحمراء ، أي ارتحلوا عن الدهناء وأركبوا الجمل الأصهب ، أي الجبل ، وأما قوله أكلت معكم حيساً ، أي إن أخلاطاً من الناس قد عزموا على غزوكم ، لأن الحيس يجمع التمر والسمن والإقط ، فامتثلوا لأمره ، وعرفوا لحن الكلام ، وعملوا به فنجوا . وأسرت طيىء[3] غلاماً من العرب ، فقدم أبوه ليفديه ، فاشتطوا عليه ، فقال أبوه

---

(١) هو بكر بن وائل من القبيلة المشهورة التي قاتلت قبيلة تغلب في حرب البسوس بين القرنين الخامس والسادس الميلاديين .

(٢) الحوساء الناقة الكثيرة الاكل ، والحواسة ـ بالضم ـ الجماعة من الناس المختلطة ، والمقصود هنا جمع الاخلاط بعضها مع بعض .

(٣) هي قبيلة حاتم الطائي المشهور بالكرم . وكانت قد هاجرت من اليمن إلى شمال الجزيرة العربية بعد خراب سد مأرب .

والذي جعل الفرقدين[1] يمسيان ويصبحان على جبل طيىء ما عندي غير ما بذلته ، ثم انصرف وقال: لقد أعطيته كلاماً إن كان فيه خير فهمه ، فكأنه قال له إلزم الفرقدين ، يعني في هروبك على جبل طيىء ، ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجا * وكانت علية بنت المهدي تهوى غلاماً خادماً اسمه طل ، فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره في شعرها ، فاطلع الرشيد يوماً عليها وهي تقرأ في آخر سورة البقرة ﴿ **فإن لم يصبها وابل** ﴾[2] فالذي نهى عنه أمير المؤمنين . ومن ذلك قولهم تركت فلاناً يأمر وينهي وهو على شرف الموت ، أي يأمر بالوصية ، وينهى عن النوح . ويقال: ما رأيت فلاناً أي ما ضربته في رئته ولا كلمته ، أي ما جرحته ، فإن الكلوم الجراح ، وما رأيت ربيعاً ، فالربيع حظ الأرض من الماء ، والربيع النهر ، وما رأيت كافراً ولا فاسقاً فالكافر السحاب ، والفاسق الذي تجرد من ثيابه ، وما رأيت فلاناً راكعاً ولا ساجداً ولا مصلياً ، فالراكع العاثر الذي كبا لوجهه ، والساجد المدمن النظر ، والمصلي الذي يجيء بعد السابق ، وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجاً ، فالدجاجة الكبة من الغزل ، والفروجة الدراعة ، وما أخذت لفلان بقرة ولا ثوراً ، فالبقرة العيال الكثيرة ، يقال جاء فلان يسوق بقره أي عياله ، والثور القطعة الكبيرة من الإقط .

وحكي أن معاوية رضي الله تعالى عنه بينما هو جالس في بعض مجالسه وعنده وجوه الناس ، فيهم الأحنف بن قيس ، إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً ،وكان آخر كلامه أن لعن علياً رضي الله تعالى عنه ولعن لاعنه ، فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم ، فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك علياً رضي الله تعالى عنه ، فلقد لقي ربه ، وأفرد في قبره ، وخلا بعمله ، وكان والله المبرور سيفه ، الطاهر ثوبه ، العظيمة مصيبته . فقال معاوية: يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت ، وأيم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعاً أو كرهاً فقال له الأحنف : يا أمير المؤمنين إن تعفني فهو خير لك ، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري شفتاي به أبداً . فقال: قم فاصعد. قال: أماوالله لأنصفنك في القول والفعل. قال: وما أنت قائل إن انصفتني؟ قال: أصعد المنبر فأحمد الله وأثني عليه وأصلي على نبيه محمد ﷺ ثم أقول: أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علياً ألا وإن معاوية وعلياً اقتتلا فاختلفا فادعى كل واحد منهما أنه مبغيّ عليه ، وعلى فئته ، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله ، ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه ، والعن الفئة الباغية ، اللهم العنهم لعناً كثيراً أمنوا رحمكم الله يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب روحي . فقال معاوية : إذاً نعفيك يا أبا بحر . وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب : إن علياً قد قطعك ، وأنا وصلتك ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر قال : أفعل فصعد المنبر ثم قال : بعد أن حمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ : أيها الناس إن معاوية بن أبي سفيان قد أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب فالعنوه فعليه لعنة الله » ثم نزل فقال له معاوية : إنك لم تبين من لعنت منهما بينه ، فقال: والله لا زدت حرفاً ولا نقصت حرفاً ، والكلام إلى نية المتكلم . ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت : يا أمير

---

(١) مثنى فرقد وهو نجم قريب من القطب الشمالي يهتدى به وبجانبه نجم آخر اخفى منه . فهما فرقدان .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٥ . والوابل : المطر . وتمام الاية ﴿ **فإن لم يصبها وابل فطلٌ** ﴾

المؤمنين أقر الله عينك ، وفرحك بما أتاك ، وأتم سعدك ، لقد حكمت فقسطت . فقال لها من تكونين أيتها المرأة فقالت من آل برمك[1] ممن قتلت رجالهم ، وأخذت أموالهم ، وسلبت نوالهم ، فقال أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره ، وأما المال فمردود إليك ، ثم التفت الى الحاضرين من أصحابه فقال : أتدرون ما قالت هذه المرأة ، فقالوا :ما نراها قالت إلا خيراً . قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة ، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت ، وأما قولها وفرحك بما أتاك فأخذته من قوله تعالى حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر :

إذا تـم أمـر بـدا نـقـصـه ترقـب زوالاً إذا قـيـل

وأما قولها لقد حكمت فقسطت ، فأخذته من قوله تعالى : ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً** ﴾[2] . فتعجبوا من ذلك .

وحكي أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى فقال له أطال الله بقاءك ، وأقر عينك ، وجعل يومي قبل يومك ،والله إنه ليسرني ما يسرك ، فأحسن إليه وأجازه على دعائه وأمر له بصلة وكان ذلك دعاء عليه . لأن معنى قوله أطال الله بقاءك ، حصول منفعة المسلمين به في أداء الجزية ، وأما قوله وأقر عينك فمعناه سكن الله حركتها ، أى أعماها ، وأما قوله وجعل يومي قبل يومك ، أي جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنة ، قبل يومك الذي تدخل فيه النار ، وأما قوله : إنه ليسرني ما يسرك ، فان العافية تسره كما تسر الآخرة . فانظر إلى الإشتراك وفائدته . ولولا الاشتراك ما تهيأ لمتستر مراد ، ولا سلم له في التخلص قياد . وكان حماد الراوية[3] لا يقرأ القرآن فكلفه بعض الخلفاء القراءة في المصحف ، فصحف في نيف وعشرين موضعاً من جملتها قوله تعالى : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾[4] ، بالغين المعجمة والسين المهمة وقوله : ﴿ **وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه** ﴾[5] بالباء الموحدة ﴿**ليكون لهم عدوّاً وحزناً** ﴾[6] بالباء الموحدة. ﴿ **وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار**﴾[7] بالجيم والباء الموحدة. ﴿ **هم أحسن أثاثاً ورئياً** ﴾[8] بالزاي وترك الهمزة، ﴿**عذابي أصيب به من أشاء** ﴾ بالسين المهملة ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة** ﴾ بالنون والعين المهملة. ﴿ **سلام عليكم لا نبتغي** ﴾[9] بإسقاط التاء. ﴿ **بل الذين كفروا في عزة وشقاق**﴾ بالغين المعجمة ، والراء المهملة، قرن الشقاق بالغرة وهذا لا يقع إلا من الأذكياء .

(وحكي) أن المأمون ولى عاملاً على بلاد ، وكان يعرف منه الجور في حكمه ، فأرسل إليه رجلاً من أرباب دولتهليمتحنه، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه ، ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه ، فأكرم نزله ، وأحسن إليه ، وسأله أن يكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده

---

(١) هي عائلة من الفرس اسندت إليها الوزارة في العهد العباسي .
(٢) سورة الجن الآية ١٥ .
(٣) شاعر عباس من جماعة ابي نواس .
(٤) سورة النحل الآية ٦٨ .
(٥) سورة التوبة الآية ١١٤ .
(٦) سورة القصص الآية ٨.
(٧) سورة لقمان الآية ٣٢.
(٨) سورة مريم الآية ٧٤.
(٩) سورة القصص الآية ٥٥.
(١٠) سورة صّ الآية ٢.

ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة . فكتب كتاباً فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين ، أما بعد فقد قدمنا على فلان فوجدناه آخذاً بالعزم ، عاملاً بالحزم ، قد عدل بين رعيته ، وساوى في أقضيته ، أغنى القاصد ، وأرضى الوارد ، وأنزلهم منه منازل الأولاد . وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد ، وعمر منهم المساجد الداثرة ، وأفرغهم من عمل الدنيا ، وشغلهم بعمل الآخرة وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين ، يريدون النظر إلى وجهه والسلام .فكان معنى قوله آخذاً بالعزم أي إذا عزم على ظلم أو جور فعله في الحال ، وقوله قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته ، أي أخذ كل ما معهم ، حتى ساوى بين الغني والفقير ، وقوله عمر منهم المساجد الداثرة ، وأفرغهم من عمل الدنيا ، وشغلهم بعمل الآخرة ، يعني أن الكل صاروا فقراء ، لا يملكون شيئاً من الدنيا ، ومعنى قوله يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين ، أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم ، فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته وولى عليهم غيره .

ومن ذلك ما حكي : أن القاضي الفاضل[1] كان له صديق خصيص به ، وكان صديقه هذا قريباً من الملك الناصر صلاح الدين ، وكان فيه فضيلة تامة ، فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه وهم بقتله ، فتسحب إلى بلاد التتر ، وتوصل إلى أن صار وزيراً عندهم ، وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه ، فلما بلغه ذلك نفر منه ، وقال للفاضل اكتب إليه كتاباً عرفه فيه أنني أرضى عليه ، وأستعطفه غاية الاستعطاف ، إلى أن يحضر فإذا حضر قتلته واسترحت منه فتحير الفاضل بين الاثنين ، صديقه يعز عليه ، والملك لا يمكنه مخالفته ، فكتب إليه كتاباً واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك ، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي ﷺ، وكتب إن شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب ، فشدد إن ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه في غاية الكمال ، وما فهم إن ، وكان قصد الفاضل إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه ، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً ، فلما أراد أن ينهي الكتاب ويكتب إن شاء الله تعالى مد النون وجعل في آخرها ألفاً ، وأراد بذلك إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك .

وحكي : أن بعض الملوك طلع يوماً إلى أعلى قصره يتفرج فلاحت منه التفاتة فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراؤون أحسن منها ، فالتفت إلى بعض جواريه فقال لها : لمن هذه ، فقالت : يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز ، قال : فنزل الملك وقد خامره حبها ، وشغف بها فاستدعى بفيروز وقال له يا فيروز ، قال : لبيك يا مولاي قال: خذ هذا الكتاب وامض به إلى البلد الفلانية وأئتني بالجواب ، فأخذ فيروز الكتاب وتوجه إلى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه ، وجهز أمره وبات ليلته ، فلما أصبح ودع أهله وسار طالباً لحاجة الملك ، ولم يعلم بما قد دبره الملك ، وأما الملك فإنه لما توجه فيروز ، قام مسرعاً وتوجه مختفياً إلى دار فيروز فقرع الباب قرعاً خفيفاً ، فقالت امرأة فيروز من بالباب ، قال أنا الملك سيد زوجك ففتحت له فدخل وجلس فقالت له أرى مولانا اليوم عندنا فقال زائراً ، فقالت أعوذ

---

(١) من مشاهير وزراء صلاح الدين الايوبي ، تولىٰ عنه تدبير الدواوين . وهو صاحب المدرسة النثرية الثالثة في الادب العربي .

بالله من هذه الزيارة ، وما أظن فيها خيراً ، فقال لها ويحك إنني أنا الملك سيد زوجك وما أظنك عرفتني ، فقالت : بل عرفتك يا سولاي ولقد علمت أنك الملك ، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم :

سأترك ماءكم من غير ورد ... وذاك لكثرة الوراد فيه
إذا سقط الذباب على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب ولغن فيه
ويرتجع الكريم خميص بطن ... ولا يرضى مساهمة السفيه

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر :

قل للذي شفه الغرام بنا ... وصاحب الغدر غير مصحوب
والله لا قال قائل ابداً ... قد أكل الليث فضلة الذيب

ثم قالت : أيها الملك تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه . قال فاستحيا الملك من كلامها ، وخرج وتركها فنسي نعله في الدار ، هذا ما كان من الملك . وأما ما كان من فيروز فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب فلم يجده معه في رأسه فتذكر أنه نسيه تحت فراشه فرجع إلى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره فوجد نعل الملك في الدار فطاش عقله ، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله فسكت ولم يبد كلاماً وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الملك فقضاها ثم عاد إليه فأنعم عليه بمائة دينار . فمضى فيروز الى السوق واشترى ما يليق بالنساء وهيأ هدية حسنة وأتى إلى زوجته فسلم عليها وقال لها قومي إلى زيارة بيت أبيك ، قالت وما ذاك قال : إن الملك أنعم علينا وأريد أن تظهري لأهلك ذلك قالت حباً وكرامة . ثم قامت من ساعتها وتوجهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها ، فأقامت عند أهلها مدة شهر فلم يذكرها زوجها ، ولا ألمَّ بها فأتى إليه أخوها وقال له يا فيروز ، إمّا أن تخبرنا بسبب غضبك ، وإمّا أن تحاكمنا إلى الملك ، فقال إن شئتم الحكم فافعلوا فما تركت لها عليّ حقاً ، فطلبوه إلى الحكم فأتى معهم وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالساً إلى جانبه ، فقال أخو الصبية : أيد الله مولانا قاضي القضاة إني أجرت هذا الغلام بستاناً ، سالم الحيطان ، ببئر ماء معين عامرة ، وأشجار مثمرة ، فأكل ثمره وهدم حيطانه ، وأخرب بئره . فالتفت القاضي الى فيروز وقال له : ما تقول يا غلام ؟ فقال فيروز : أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان . فقال القاضي : هل سلم إليك البستان كما كان ، قال : نعم . ولكن أريد منه السبب لرده ، قال القاضي : ما قولك؟ قال : والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه ، وإنما جئت يوماً من الأيام ، فوجدت فيه أثر الاسد فخفت أن يغتالني فحرمت دخول البستان إكراماً للأسد ، قال وكان الملك متكئاً فاستوى جالساً وقال : يا فيروز إرجع إلى بستانك آمناً مطمئناً ، فوالله إن الأسد دخل البستان ، ولم يؤثر فيه أثراً ، ولا التمس منه ورقاً ، ولا ثمراً ، ولا شيئاً ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير بأس ، والله ما رأيت مثل بستانك ، ولا أشد احترازاً من حيطانه على شجره . قال فرجع فيروز إلى داره ورد زوجته ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك . والله أعلم .

وهذا كله مما يأتي به الإنسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز ، ومنه ما يجده

المتستر في أمره من الراحة في كتمان حاله مع لزوم الصدق ، ورضا الخصم بما وافق مراده لأن في المعاريض مندوحة عن الكذب . كما روي في غزوة بدر أن النبي ﷺ كان سائراً بأصحابه يقصد بدراً فلقيهم رجل من العرب فقال ممن القوم فقال له النبي ﷺ: من ماء ، فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول من ماء من ماء يرددها لينظر أي العرب يقال لهم ماء ، فسار النبي ﷺ بأصحابه وكان قصده أن يكتم أمره . وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله فان الله عز وجل قال : ﴿فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق﴾[1] وكما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال للكافر الذي سأله عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار وهو رجل يهديني السبيل ، وقد صدق فيما قال رضي الله عنه فقد هداه وهدانا السبيل ، ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام * وكما حكي عن الإمام الشافعي[2] رضي الله عنه أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد ما تقول في القرآن فقال الشافعي : إياي تعني ، قال نعم ، قال مخلوق ، فرضي خصمه منه بذلك ولم يرد الشافعي إلا نفسه ، وكما حكي عن ابن الجوزي[3] رحمه الله تعالى أنه سئل وهو على المنبر ، وتحته جماعة من مماليك الخليفة وخاصته وهم فريقان قوم سنية ، وقوم شيعة فقيل له : من أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، أم علي رضي الله عنهما ، فقال: أفضلهما بعده من كانت ابنته تحته فأرضى الفريقين ، ولم يرد إلا أبا بكر رضي الله عنه لأن الضمير في ابنته يعود إلى أبي بكر رضي الله عنه وهي عائشة رضي الله عنها وكانت تحت رسول الله ﷺ ، والشيعة ظنوا أن الضمير في ابنته يعود إلى رسول الله ﷺ وهي فاطمة رضي الله عنها ، وكانت تحت علي رضي الله عنه ، فهذه منه جيدة حسنة وكلمة باتت جفون الفريقين منها وسنة . والله أعلم .

---

(١) سورة الطارق الآية ٥ .

(٢) هو محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي .
ـ ابو عبد الله ـ أحد الائمة الاربعة عند أهل السنة . وإليه نسبة الشافعية كافة . ولد في غزة سنة (١٥٠هـ ـ ٧٦٧ م). وحمل الى مكة وهو ابن ست سنين وقصد مصر سنة ١٩٩ فتوفي بها سنة (٢٠٤هـ ـ ٨٢٠ م) أشهر كتبه : « الام » في الفقه سبع مجلدات و« المسند » في الحديث « واحكام القرآن » و« السنن » و« الرسالة » في أصول الفقه وغيرها .
انظر تذكرة الحفاظ (١ : ٣٢٩). تهذيب التهذيب (٩ : ٢٥ .

(٣) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ـ أبو الفرج ـ علامة عصره في التاريخ والحديث ولد ببغداد سنة (٥٠٨هـ ـ ١١١٤ م). له نحو ثلاث مئة مصنف منها : « تلقيح فهوم أهل الآثار ، في مختصر السير والاخبار » و« الاذكياء وأخبارهم » و« روح الارواح » و« المدهش » وغيرها . توفي سنة (٥٩٧هـ ـ ١٢٠١ م).



في ذكر الفصحاء من الرجال

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم ، فأحب الحسن أن يتكلم فزجره وقال يا صبي تتكلم في هذا المقام . فقال يا أمير المؤمنين إن كنت صبياً ، فلست بأصغر من هدهد سليمان ، ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال أحطت بما لم تحط به ، ثم قال ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى . ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز أتته الوفود ، فإذا فيهم وفد الحجاز فنظر إلى صبي صغير السن وقد أراد أن يتكلم فقال : ليتكلم من هو أسن منك ، فإنه أحق بالكلام منك . فقال الصبي : يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك ، قال صدقت فتكلم . فقال يا أمير المؤمنين إنا قدمنا عليك من بلد نحمد الله الذي مَنّ علينا بك ، ما قدمنا عليك رغبة منا ، ولا رهبة منك ، أما عدم الرغبة فقد أمنا بك في منازلنا ، وأما عدم الرهبة ، فقد أمنا جورك بعدلك . فنحن وفد الشكر والسلام . فقال له عمر رضي الله عنه . عظني يا غلام ، فقال : يا أمير المؤمنين إن أناساً غرهم حلم الله ، وثناء الناس عليهم ، فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه فتزل قدمك ، وتكون من الذين قال الله فيهم ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة فأنشدهم عمر رضي الله تعالى عنه :

تعلم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
فإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل

(وحكي) أن البادية قحطت في أيام هشام فقدمت عليه العرب ، فهابوا أن يكلموه ، وكان فيهم درواس بن حبيب ، وهو ابن ست عشرة سنة ، له ذؤابة وعليه شملتان فوقعت عليه عين هشام ، فقال لحاجبه : ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلاّ دخل حتى الصبيان ، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقاً ، فقال : يا أمير المؤمنين إن للكلام نشراً وطياً ، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته ، فأعجبه كلامه وقال له : انشره لله درك . فقال : يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث ، سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم ، وسنة دقت العظم ، وفي أيديكم فضول مال ، فإن كانت لله ففرقوها على عباده ، وإن كانت لهم ، فعلام تحبسونها عنهم ، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم ، فإن الله يجزي المتصدقين . فقال هشام : ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذراً فأمر للبوادي بمائة ألف دينار ، وله بمائة ألف درهم ، ثم قال له : ألك حاجة؟ قال : ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين فخرج من عنده وهو من أجل القوم .

(وقيل): إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره ، فبعث إليه يقول إن لك عندي ألف ناقة ، على أنك تدخل في طاعتي ، فوفد عليه وكان صغير الجثة فاقتحمته عينه وتنقصه فقال: مهلاً أيها الملك ، إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان ، وإن صال صال بجنان ، ثم انشأ يقول :

يا أيها الملك المرجو نائله إني لمن معشر شم الذرى زُهْر
فلا تغرنك الأجسام إن لنا أحلام عاد وإن كنا إلى قصر
فكم طويل إذا أبصرت جثته تقول هذا غداة الروع ذو ظفر
فإن ألمّ به أمر فأفظعه رأيته خاذلاً للأهل والزمر

فقال: صدقت فهل لك علم بالأمور ، قال: إني لأنقض منها المفتول ، وأبرم منها المحلول ، وأجيلها حتى تجول ، ثم أنظر فيها إلى ما تؤول ، وليس للدهر بصاحب ، من لا ينظر في العواقب . قال فتعجب النعمان من فصاحته وعقله ، ثم أمر له بألف ناقة . وقال له : يا سعد إن رحلت وصلناك ، فقال: قرب الملك أحب إليّ من الدنيا وما فيها . فأنعم عليه وأدناه وجعله من أخص ندمائه .

(وحكي أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يسأله عن الشيء ، ولا شيء ، وعن دين لا يقبل الله غيره ، وعن مفتاح الصلاة ، وعن غرس الجنة ، وعن صلاة كل شيء وعن أربعة فيهم الروح ، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وعن رجل لا أب له ، وعن رجل لا أم له ، وعن قبر جرى بصاحبه ، وعن قوس قزح ما هو ، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ، ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها ، وعن ظاعن ظعن مرة واحدة ، ولم يظعن قبلها ولا بعدها ، وعن شجرة نبتت من غير ماء ، وعن شيء تنفس ولا روح له ، وعن اليوم وأمس ، وغد وبعد غد ، وعن البرق والرعد وصوته ، وعن المحو الذي في القمر . فقيل لمعاوية لست هناك ، ومتى أخطأت في شيء من ذلك سقطت من عينه ، فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل ، فكتب إليه فأجابه : أما الشيء فالماء ، قال الله تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[1]، وأما لا شيء فإنها الدنيا ، تبيد وتفنى ، وأما دين لا يقبل الله غيره فلا إله إلا الله ، وأمَّا مفتاح الصلاة ، فالله أكبر ، وأما غرس الجنة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأما صلاة كل شيء ، فسبحان الله وبحمده ، وأما الأربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا في أصلاب الرجال ، وأرحام النساء، فآدم ، وحواء ، وناقة صالح ، وكبش اسماعيل ، وأما الرجل الذي لا أب له فالمسيح ، وأما الرجل الذي لا أم له فآدم عليه السلام . وأما القبر الذي جرى بصاحبه فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر ، وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق . وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة ، فبطن البحر حين انفلق لبني إسرائيل ، وأما الظاعن الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها ، فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال ، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين ، فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم ، وإلا ألقيته عليكم فأخذوا التوراة معذرين ، فرده

(١) سورة الانبياء الآية ٣٠ .

الله تعالى إلى موضعه فذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم** ﴾[١] الآية ، وأما الشجرة التي نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التي أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام ،وأما الشيء الذي تنفس بلا روح فالصبح قال الله تعالى : ﴿ **والصبح إذا تنفس** ﴾[٢] ، وأما اليوم فعمل ، وأمس فمثل ، وغد فأجل ، وبعد غد فأمل ، وأما البرق فمخاريق بأيدي الملائكة تضرب بها السحاب ، وأما الرعد فاسم الملك الذي يسوق السحاب وصوته زجره ، وأما المحو الذي في القمر فقول الله تعالى : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾[٣] ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ، ولا النهار من الليل . ودعا بعض البلغاء لصديق له فقال : تمم الله عليك ، ما أنت فيه وحقق ظنك فيما ترجوه وتفضل عليك بما لم تحتسبه .

(وحكى) أن الحجاج سأل يوماً الغضبان بن القبعثري عن مسائل يمتحنه فيها ، من جملتها أن قال له : من أكرم الناس ، قال: أفقههم في الدين ، وأصدقهم لليمين ، وأبذلهم للمسلمين وأكرمهم للمهانين ، وأطعمهم للمساكين ، قال: فمن ألأم الناس ؟، قال: المعطي على الهـوان ، المقتر على الاخوان ، الكثير الألوان . قال: فمن شر الناس ؟،قال: أطولهم جفوة ، وأدومهم صبوة ، وأكثرهم خلوة ، وأشدهم قسوة . قال: فمن أشجع الناس ؟، قال: أضربهم بالسيف ، وأقراهم للضيف ، وأتركهم للحيف . قال:فمن أجبن الناس ؟، قال: المتأخر عن الصفوف ، المنقبض عن الزحوف ، المرتعش عند الوقوف ، المحب ظلال السقوف ، الكاره لضرب السيوف . قال: فمن أثقل الناس ؟، قال: المتفنن في الملام ، الضنين بالسلام ، المهذار[٤] في الكلام ، المقبقب[٥] على الطعام ، . قال: فمن خير الناس؟، قال: أكثرهم إحساناً ، وأقومهم ميزاباً[٦] ، وأدومهم غفراناً ، وأوسعهم ميداناً ، قال: لله أبوك ، فكيف يعرف الرجل الغريب ، أحسيب هو ، أم غير حسيب ؟، قال: أصلح الله الأمير ، إن الرجل الحسيب يدلك أدبه ، وعقله ، وشمائله ، وعزة نفسه ، وكثرة احتماله ، وبشاشته ، وحسن مداراته على أصله ، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله ، والنذل الجاهل يجهله ، فمثله كمثل الدرة ، إذا وقعت عند من لا يعرفها ، ازدراها ، واذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها، فهي عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة ، فقال الحجاج: لله أبوك فما العاقل والجاهل؟. قال: أصلح الله الأمير العاقل الذي لا يتكلم هذراً ، ولا ينظر شزراً، ولا يضمر غدراً ، ولا يطلب عذراً ، والجاهل هو المهذار في كلامه ، المنان بطعامه ، الضنين[٧] بسلامه ، المتطاول على إمامه ، الفاحش على غلامه ، قال: لله أبوك فما الحازم الكيّس؟،

---

(١) سورة الاعراف الآية ١٧١ .

(٢) سورة التكوير الآية ١٨ .

(٣) سورة الاسراء الآية ١٢ .

(٤) من هذي يهذي هذياً وهذياناً : تكلم بغير معقول . ورجل هذّاء أي كثير الكلام .

(٥) المقبب : المجتمع فوق الطعام كالقبة ولا يسمح لاحد ان يشاركه الطعام.

(٦) الميزاب : كلمة فارسية تأتي بمعنىٰ قناة يجري فيها الماء .

(٧) أي بخيل .

قال: المقبل على شأنه التارك لما لا يعنيه، قال: فما العاجز؟ قال: المعجب بآرائه، الملتفت إلى ورائه، قال: هل عندك من النساء خبر. قال: أصلح الله الأمير إني بشأنهن خبير، إن شاء الله تعالى إن النساء من أمهات الاولاد بمنزلة الاضلاع، إن عدلتها انكسرت، ولهن جوهر لا يصلح إلا على المداراة، فمن داراهن انتفع بهن، وقرت عينه، ومن شاورهن، كدرن عيشه، وكدرت عليه حياته وتنغصت لذاته، فأكرمهن أعفهن، وأفخر أحسابهن العفة، فإذا زلن عنها، فهن أنتن من الجيفة. فقال له الحجاج: يا غضبان إني موجهك إلى ابن الأشعث وافداً فماذا أنت قائل له. قال: أصلح الله الأمير أقول ما يرديه ويؤذيه ويضنيه. فقال: إني أظنك لا تقول له ما قلت، وكأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، قال: كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لساني، وأجريه في ميداني، قال فعند ذلك أمره بالمسير الى كرمان. فلما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عيناً عليه، أي جاسوساً وكان يفعل ذلك مع جميع رسله، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث، قال له: إن الحجاج قد هَمّ بخلعك، وعزلك فخذ حذرك، وتغدى به، قبل أن يتعشى بك، فأخذ حذره عند ذلك، ثم أمر للغضبان بجائزة سنية، وخلع فاخرة، فأخذها وانصرف راجعاً فأتى الى رملة كرمان في شدة الحر والقيظ وهي رملة شديدة الرمضاء فضرب قبته فيها، وحط عن رواحله، فبينما هو كذلك إذا بأعرابي من بني بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصداً، نحوه وقد اشتد الحر، وحميت الغزالة وقت الظهيرة، وقد ظميء ظمأ شديداً فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال: الغضبان هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها، وخسر تاركها، ما حاجتك يا أعرابي؟ قال: أصابتني الرمضاء، وشدة الحر والظمأ، فتيممت قبتك أرجو بركتها. قال: الغضبان فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم، قال: أيتهن تعني قال: قبة الأمير بن الأشعث، قال: تلك لا يوصل إليها، قال: إن هذه أمنع منها، فقال الاعرابي: ما اسمك يا عبد الله؟ قال: آخذ. فقال: وما تعطي. قال: أكره أن يكون لي اسمان، قال: بالله من أين أنت قال: من الأرض، قال: فأين تريد. قال: أمشي في مناكبها. فقال الاعرابي: وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر أتقرض الشعر. قال: إنما يقرض الفأر. فقال: أفتسجع. قال: إنما تسجع الحمامة. فقال يا هذا إئذن لي أن أدخل قبتك. قال: خلفك أوسع لك. فقال: قد أحرقني حر الشمس. قال ما لي عليها من سلطان. فقال: الرمضاء أحرقت قدمي. قال: بل عليها تبرد. فقال إني لا أريد طعامك ولا شرابك. قال: لا تتعرض لما لا تصل إليه ولو تلفت روحك. فقال الاعرابي: سبحان الله. قال: نعم من قبل أن تطلع أضراسك. فقال الاعرابي: ما عندك غير هذا. فقال: بلى هراوة أضرب بها رأسك. فاستغاث الاعرابي يا جار بني كعب. قال الغضبان: بئس الشيخ أنت فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث. فقال الاعرابي: ما رأيت رجلاً أقسى منك، أتيتك مستغيثاً فحجبتني وطردتني هلاّ أدخلتني قبتك وطارحتني القريض. قال: ما لي بمحادثتك من حاجة. فقال الاعرابي: بالله ما اسمك ومن أنت؟ فقال: أنا الغضبان بن القبعثري. فقال: اسمان منكران خلقا من غضب. قال: قف متوكئاً على باب قبتي برجلك هذه العوجاء. فقال: قطعها الله إن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشنعاء. قال الغضبان: لو كنت حاكماً لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة، ورجلك في الرمضاء قائمة. فقال الاعرابي: إني لا أظنك حرورياً. قال: اللهم إجعلني ممن يتحرى الخير ويريده. فقال: إني لأظن عنصرك فاسداً. قال: ما اقدرني على إصلاحه. فقال الاعرابي: لا أرضاك الله ولا حياك ثم ولى وهو يقول:

لا بارك الله في قوم تسودهم إني أظنك والرحمن شيطانا
أتيت قبته أرجو ضيافته فأظهر الشيخ ذو القرنين حرمانا

فلما قدم الغضبان على الحجاج[1] وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الاعرابي . قال له الحجاج : يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان ؟**قال**: أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش بها ضعاف هزلاء إن كثروا جاعوا ، وإن قلوا ضاعوا . فقال له الحجاج : ألست صاحب الكلمة التي بلغتني أنك قلت لابن الأشعث تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك ، فوالله لاحبسنك عن الوساد ولأنزلنك عن الجياد ، ولأشهرنك في البلاد .قال: الأمان أيها الأمير فوالله ما ضرت من قيلت فيه ، ولا نفعت من قيلت له . فقال له : ألم أقل كأني بصوت جلالك تجلجل في قصري هذا ، اذهبوا به إلى السجن. فذهبوا به فقيد وسجن فمكث ما شاء الله ، ثم إن الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فأعجب بها ،فقال لمن حوله: كيف ترون قبتي هذه وبناءها . **فقالوا**: أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة نضرة بهجة ، قليل عيبها كثير خيرها .**قال**: لم لم تخبروني بنصح .**قالوا**: لا يصفها لك إلا الغضبان .فبعث إلى الغضبان فأحضره ، وقال له: كيف ترى قبتي هذه وبناءها .**قال**: أصلح الله الأمير بنيتها في غير بلدك ، لا لك ولا لولدك ، لا تدوم لك ، ولا يسكنها وارثك ولا تبقى لك وما أنت لها بباق .فقال **الحجاج**: قد صدق الغضبان ردوه الى السجن ، فلما حملوه قال: **﴿سبحان من سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾**[2] **فقال**: أنزلوه. **قال**: **﴿رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾**[3] .قال: قال اضربوا به الأرض فلما ضربوا به الأرض ،**قال**: **﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾**[4] .**فقال**: جروه فأقبلوا يجرونه وهو يقول : **﴿ بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾**[5] فقال **الحجاج**: ويلكم اتركوه فقد غلبني : دهاء وخبثاً، ثم عفا عنه وأنعم عليه وخلى سبيله .

وحدث الزبير قال دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون وقد كانت ضياعهم أخذت .**فقال**: السلام عليك يا أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الملك بين يديك ، سليل نعمتك ، وغصن من أغصان دوحتك ، أتأذن له في الكلام . **فقال**: تكلم فقال : الحمد لله رب العالمين ولا إله إلا الله رب العرش العظيم ، وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين ونستمتع الله لحياطة ديننا ودنيانا ، ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك يا أمير المؤمنين ، ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا ، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، فإن الحق لا تعفو آثاره ، ولا ينهدم مناره ، ولا ينبت حبله ولا يزول ما دمت بين الله وبين عباده والأمين على بلاده يا أمير المؤمنين، هذا المقام مقام العائذ بظلك ، الهارب إلى كنفك ، الفقير إلى رحمتك وعدلك ، من تعاود النوائب ، وسهام المصائب ، وكلب الدهر وذهاب النعمة ، وفي نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب ، ويبرد غليل القلوب ، وقد نفذ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفاد منها نعم آبائه الطيبين ، ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين ، وقد قمت مقامي هذا متوسلاً إليك بآبائك الطيبين ، وبالرشيد خير الهداة الراشدين ، والمهدي ناصر المسلمين ، والمنصور منكل

---

(١) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي ، ابو محمد ، قائد ، داهية ، سفاك ، خطيب ولد بالطائف سنة (٤٠هـ ـ ٦٦٠ م) كان في شرطة عبد الملك بن مروان . ثم قلد أمر العسكر في ولاية عبد الملك لاخضاع العراق والحجاز ، فقمع الثورة وثبت له الامارة عشرين سنة ، وبنىٰ مدينة واسط (بين الكوفة والبصرة) توفي سنة (٩٥هـ ـ ٧١٤).

(٢) سورة الزخرف الآية ١٣ .

(٣) سورة المؤمنين الآية ٢٩ .

(٤) سورة طه الآية ٥٥.

(٥) سورة هود الآية ٤١ .

الظالمين ، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفاً[1] إليك بالطاعة التي أفرغ عليها غُصني واحتنكت[2] بها سني ، وريش بها جناحي متعوذاً من شماتة الاعداء وحلول البلاء ومقارفة الشدة بعد الرخاء يا أمير المؤمنين ، قد مضى جدك المنصور ، وعمك صالح بن علي جدي وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين ، أن الدهر ذو اغتيال قد يقلب حالاً بعد حال ، فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار والعجائز الكبار الذين سقاهم الدهر كدراً بعد صفو ، ومراً بعد حلو ، وهبنا نعم آبائك اللاتي غذتنا صغاراً ، وكباراً ، وشباباً ، وأشياخاً ، وأمشاجاً في الأصلاب ، ونطفاً في الأرحام ، وقدمنا في القرابة ، حيث قدمنا الله منك في الرحم ، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك ووجوهنا قد عنت لطاعتك فأقلنا عثرتنا يا أمير المؤمنين ، إن الله قد سهل بك الوعور ، وجلا بك الديجور[3] وملأ من خوفك القلوب والصدور ، بل يردع الفاسق ، ويقمع بك المنافق ، فارتبط نعم الله عندك بالعفو والإحسان ، فإن كل راع مسؤول عن رعيته ، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها ، يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر ، وقد قال الله جل ثناؤه وتعالت قدرته : ﴿ **وليعفوا وليفصحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم** ﴾[4] أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافي ، ومنعه الكافي ثم أنشد يقول :

أمير المؤمنين أتاك ركب ... لهم قزبي وليس لهم تلاد
هم الصدر المقدم من قريش ... وأنت الرأس تتبعك العباد
لقد طابت بك الدنيا ولذت ... وأرجو أن يطيب بك المعاد
فكيف تنالكم لحظات عين ... وكيف يقل سؤددك البلاد

قال فاستحسن المأمون كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة ، والجوائز السنية ، وأمر برد ضياعه ، وقرب منزلته وأدناه ودفع إليه من المال ما أغناه .

ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء : ما حكي أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته فقال : أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه ، وله عليّ ما يتمناه ، فقام إليه سويد بن غفلة **فقال** : أنا لها يا أمير المؤمنين قال : هات. **فقال**: نعم يا أمير المؤمنين أنف * بطن * ترقوة * ثغر * جمجمة * حلق * خد * دماغ * * رقبة * زند * ساق *شفة * صدر *ضلع * طحال * ظهر * عين * غبب * فم * قفا * كف * لسان *منخر* نغنوغ * هامة * وجه * يد * وهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين . فقام بعض أصحاب عبد الملك**وقال** :يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين . فضحك عبد الملك وقال لسويد أسمعت ما قال ؟ **قال** : أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثاً. **فقال**:هات ولك ما تتمناه. فابتدأ يقول: أنف * أسنان * أذن * بطن ، بنصر ، بزة * ترقوة ، تمرة ، تينة * ثغر، ثنايا ، ثدي * جمجمة ، جنب ، جبهة * حلق ، حنك ، حاجبٌ * خد ، خنصر ، خاصرة * دبر ، دماغ ، دراديرِ * ذقن ، ذكر ، ذراع * رقبة ، رأس ،

---

(١) أي متقرباً .
(٢) من الحنكة والذكاء .
(٣) أي الظلمة .
(٤) سورة النور الآية ٢٢ .

ركبة * زند ، زردمة ، زب *-فهنالك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه - ساق ، سرة ، سبابة * شفة ، شفر ، شارب * صدر ، صدغ ، صلعة * ضلع ، ضفيرة ، ضرس * طحال ، طرة ، طرف *ظهر ، ظفر ، ظلم * عين ، عنق ، عاتق * غبب ، غلصمة ، غنة * فم ، فك ، فؤاد * قلب ، قفا ، قدم *كف ، كتف ، كعب * لسان ، لحية ، لوح * منخر ، مرفق ، منكب * نغنوغ ، ناب ، نن * هامة ، هيئة ، هيف * وجه ، وجنة ، ورك * يمين ، يسار ، يافوخ * ثم نهض مسرعاً فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال: فعندها ضحك عبد الملك وقال : والله ما تزيدنا عليها شيئاً أعطوه ما يتمناه ، ثم أجازه وأنعم عليه وبالغ في الإحسان اليه .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء وكان على عتوّه وإسرافه جواداً ، وكان إذا ضحك واستغرق في الضحك اتبع ذلك بالاستغفار مرات ، وكان يطعم على ألف خوان[1] وكان يطوف على الموائد ، ويقول يا أهل الشام مزقوا الخبز لئلا يعود إليكم ثانياً ، وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال وذلك في كل يوم ، وكان يقول أرى الناس يتخلفون عن طعامي ، فقيل له إنهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا ، فقال قد جعلت رسولي إليهم كل يوم : الشمس إذا طلعت ، وعند المساء إذا غربت .

وحكي عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته ، وأولي النجدة من جنده ، وقال: أيها الناس إن العراق كدر ماؤها ، وكثر غوغاؤها ، واملولح عذبها[1] ، وعظم خطبها ، وظهر صرامها ، وعسر إخماد نيرانها ، فهل من ممهد لهم بسيف قاطع ، وذهن جامع[2]، وقلب ذكي ، وأنف حمي ، فيخمد نيرانها ، ويردع غيلانها ، وينصف مظلومها ويداري الجرح حتى يندمل فتصفوا البلاد ، وتأمن العباد فسكت القوم ولم يتكلم أحد ، فقام الحجاج وقال: يا أمير المؤمنين أنا للعراق . قال: ومن أنت لله أبوك، قال: أنا الليث الضمضام ، والهزبر الهشام ، أنا الحجاج بن يوسف ،قال: ومن أين ؟قال: من ثقيف كهوف الضيوف ، ومستعمل السيوف . قال: اجلس لا أم لك فلست هناك ، ثم قال: ما لي أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة ، فلم يجبه أحد . فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجندل الفساق ومطفىء نار النفاق ، قال: ومن أنت؟قال: أنا قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف ، معدن العفو والعقوبة ، وآفة الكفر والريبة . قال: إليك عني، وذاك فلست هناك ، ثم قال: من للعراق فسكت القوم وقام الحجاج ، وقال أنا للعراق . فقال إذن أظنك صاحبها ، والظافر بغنائمها ، وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية ، وعلامة ،فما آيتك وماعلامتك. قال: العقوبة والعفو ، والاقتدار والبسط ، والازورار ، والأدناء والأبعاد ، والجفاء والبر ، والتأهب والحزم ، وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب ، فمن جادلني قطعته ، ومن نازعني قصمته ، ومن خالفني نزعته ، ومن دنا مني أكرمته ، ومن طلب الأمان اعطيته ، ومن سارع إلى الطاعة بجلته ، فهذه آيتي وعلامتي ، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلوني ، فإن كنت للأعناق قطاعاً ، وللأموال جماعاً ، وللأرواح نزاعاً ، ولك في الأشياء نفاعاً ، وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين ، فإن الناس كثير ، ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل ، فقال عبد الملك : أنت لها فما الذي تحتاج إليه ، قال : قليل من الجند والمال . فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال : هيء له من الجند شهوته ،

---

(١) جمع أخونة وهو ما يوضع عليه الطعام (كلمة فارسية) .

(٢) املولح عذبها : أي تكدر .

وألزمهم طاعته ، وحذرهم مخالفته ، ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك . فخرج الحجاج قاصداً نحو العراق . قال عبد الملك بن عمير: فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، إذا أتانا آت ، فقال: هذا الحجاج قدم أميراً على العراق فتطاولت الأعناق نحوه ، وأفرجوا له عن صحن المسجد ، فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء ، متلثماً بها ، ثم صعد المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة ، ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة ، وهيئة جميلة ، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ، ومواليه وأتباعه عليهم الخز ، والديباج . قال: وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابىء التميمي فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له: أسبه لكم؟ قال: أكفف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن صابىء وقال: لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق ، وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها ، فوالله لو دام هذا أميراً كما هو ما كان بشيء . والحجاج ساكت ينظر يميناً وشمالاً فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحد شيئاً ، فقال : إني لا أعرف قدر اجتماعكم فهل اجتمعتم ؟ فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأمير . فكشف عن لثامه ونهض قائماً ، فكان أول شيء نطق به أن قال : والله إني لأرى رؤوساً اينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها ، وإني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى ، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها ، فوجدني أمرّها عوداً ، وأصلبها مكسراً فرماكم بي ، لأنكم طالما أثرتم الفتنة ، واضطجعتم في مراقد الضلال ، والله لأنكلن بكم في البلاد ، ولأجعلنكم مثلاً في كل واد ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت ، ولا أعزم إلا أمضيت ، فإياي وهذه الزرافات والجماعات ، وقيل وقال ، وكان ويكون . يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها غداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها ، فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا ، واجتمعوا ، واستمعوا ، فليس مني الإهدار والإكثار ، إنما هو هذا السيف ، ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم ، ويقيم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ، ووجدت البر في الجنة ، ووجدت الكذب مع الفجور ، ووجدت الفجور في النار ، وقد وجهني أمير المؤمنين بعد إليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة[1] ، وإني لأقسم بالله لا أجد رجلاً يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه . يا غلام إقرأ كتاب أمير المؤمنين . فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يرد أحد شيئاً ، فقال الحجاج: أكفف يا غلام ، ثم أقبل على الناس فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئاً عليه ، هذا أدبكم الذي تأدبتم به ، وأما والله لأؤدبنكم أدباً غير هذا الأدب ، إقرأ يا غلام . فقرأ حتى بلغ قوله سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال وعلى أمير المؤمنين السلام ، ثم نزل بعد ما فرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم ، فجعلوا يأخذونها ، حتى أتاه شيخ يرعش فقال أيها الأمير : إني على الضعف كما ترى ، ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار ، أفتقبله بديلاً مني ؟

---

(١) هو المهلب بن ابي صفرة ـ أبو سعيد ـ أمير ، بطاش ، جواد ، قال فيه عبد الله بن الزبير ، هذا سيد أهل العراق . ولد في دبا سنة (٧هـ ـ ٦٢٨ م) ونشأ بالبصرة ، وقدم المدينة مع أبيه في أيام عمر ، وولي امارة البصرة . انتدب لقتال الازارقة توفي سنة (٨٣هـ ـ ٧٠٢ م).
انظر الاصابة ت : ٨٦٣٥. الوفيات (٢ : ١٤٥).

فقال : نقبله أيها الشيخ . فلما ولى قال له قائل : أتدري من هذا أيها الأمير ؟ قال :لا . قال : هذا عمير ابن صابىء الذي يقول :

همـمت ولم أفعـل وكـدت وليتني ... تـركت على عثمـان تبكي حلائله .

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضي الله عنه وهو مقتول فوطىء في بطنه ، فكسر ضلعين من أضلاعه . فقال الحجاج :ردوه ، فلما ردوه قال له الحجاج .أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار ، إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحاً للمسلمين ، يا سياف أضرب عنقه ، فضرب عنقه وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر .

ومن حكايات الحجاج : ما حكي أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم، وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه وكتب إليه: أما بعد ، فقد بلغني عنك إسراف في الدماء ، وتبذير في العطاء ، وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية ، وفي العمد بالقود ، وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها ، ثم تعمل فيها برأيي ، فإنما هو مال الله تعالى ونحن أمناؤه ، فإن كنت أردت الناس لي فما أغناني عنهم ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم ، وسيأتيك عنى أمران ، لين وشدة فلا يؤمننك إلا الطاعة ، ولا يوحشنك إلا المعصية ، وإذا أعطاك الله عز وجل الظفر ، فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً وكتب في أسفل الكتاب :

إذا أنت لم تتـرك أموراً كـرهتهـا ... وتـطلب رضائي بـالذي أنـا طـالبـه
فـإن تـرمـني غـفـلة قـرشـيـة ... فيـا ربمـا قـد غص بـالمـاء شـاربـه
وإن تـرمـني وثـبـة أمـويـة ... فهـذا وهـذا كـل ذا أنـا صـاحبـه
فـلا تـأمـنـني والحـوادث جمـة ... فـإنك تجزي بـالـذي أنت كـاسبـه
فـلا تعد مـا يأتيـك مني وإن تعـد ... يقمن بـه يـومـاً عليـك نـوادبـه
فـلا تمنعـن النـاس حقاً عـلمتـه ... ولا تعـطين ما ليس للنـاس واجبـه
فـإنـك إن تعـطي الحقـوق فـإنمـا ... النـوافـل شيء لا يثيبـك واهبـه

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين : أما بعد فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال ، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة ، فإن كان قتلي العصاة إسرافاً ، وإعطائي المطيعين تبذيراً ، فليضمن لي أمير المؤمنين ما سلف . والله ما أصبت القوم خطأ فأديهم ، ولا ظلمتهم عمداً فأقاد بهم ، ولا قتلت إلا لك ، ولا أعطيت إلا فيك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب في أسفل الكتاب :

إذا أنـا لا أبـغي رضـاك وأتـقي ... اذاك فـليـلي لا تـوارى كـواكبـه
ومـا لامـرىء بعـد الخليفـة جنـة ... تقيـه من الأمر الـذي هـو راكبـه
إذا قـارف الحجـاج فيـك خـطيئـة ... لقـامت عليـه بـالصياح نـوادبـه
إذا أنـا لم أدن الشفـيق لـنصحـه ... واقص الـذي تسري إليّ عقـاربـه
وأعط المـواسي في اللبـلاء عـطيـة ... لـرد الـذي ضـاقت عليّ مـذاهبـه
فمن يتقي بؤسي ويـرجـو مـودتي ... ويخشى غـدا والـدهـر جم نـوائبـه

وأمري إليك اليوم ما قلت قلته ... وما لم تقله لم أقل ما يقاربه
ومهما أردت اليوم مني أردته ... وما لم ترده اليوم إني مجانبه
وقف بي على حد الرضا لا أجوزه ... مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه
وإلا فدعني والأمور فإنني ... شفيق رفيق أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك . قال : خاف أبو محمد صولتي ولن يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى ، فمن يلومني على محبته . يا غلام أكتب إليه : الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عيناً بما هناك . وفي مروج الذهب للمسعودي : أن أم الحجاج وهي الفارعة بنت همام ولدته مشوهاً لا دبر له ، فثقب له دبر ، وأبى أن يقبل الثدي ، وأعياهم أمره فيقال إن الشيطان تصور له في صورة الحارث بن كلدة[1] حكيم العرب ، فسألهم عن ذلك فأخبره مخبر من أهله . فقال لهم : إذبحوا له تيساً ، وألعقوه من دمه وأولغوه فيه ثم أطلوا به وجهه ، ففعلوا ذلك ، فقبل الثدي ، فلأجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدماء ، وكان يخبر عن نفسه ، أن أكبر لذاته سفك الدماء ، وارتكاب أمور لا يقدر غيرهُ عليها ، وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحارث بن كلدة ، فدخل عليها يوماً في السحر فوجدها تخلل أسنانها ، فطلقها فسألته لم فعل . فقال لها : ان كنت باكرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كان بقايا طعام بفيك فأنت قذرة . فقالت : كل ذلك لم يكن ، وإنما تخللت من شظايا السواك . فقال : قضي الأمر . فتزوجها بعده يوسف ابن عقيل الثقفي فأولدها الحجاج . وقيل إن الحجاج تقلد الإمارة وهو ابن عشرين سنة ، ومات وله ثلاث وخمسون سنة وكان من عنف السياسة ، وثقل الوطأة ، وظلم الرعية ، والإسراف في القتل ، على ما لا يبلغه وصف . أحصي من قتله الحجاج بأمره ، سوى من قتله في حروبه ، فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً ، ووجد في سجنه خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل ، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد ، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد . وقيل للشعبي : أكان الحجاج مؤمناً ؟ قال : نعم بالطاغوت . وقال : لو جاءت كل أمة بخبيثها ، وفاسقها ، وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله اعلم .

وقد مضى القول في ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم ، وما أعان الله تعالى عليه واستحضرته من أخبارهم ، وأنا قائل ، إن شاء الله تعالى ما استحضرته من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن والله المستعان .

ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن

(حكي) عن أبي عبد الله النميري أنه قال كنت يوماً مع المأمون وكان بالكوفة فركب للصيد ومعه سرية من العسكر ، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة ، فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل ، فأشرف على نهر ماء الفرات ، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد ، قاعدة النهد كأنها القمر ليلة تمامه ، وبيدها قربة قد ملأتها ماء وحملتها على كتفها وصعدت من حافة النهر ، فانحل وكاؤها[2] فصاحت برفيع صوتها : يا أبت أدرك فاها ، قد غلبني فوها ، لا طاقة لي بفيها ، قال فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها . فقال لها المأمون :

---

(١) الحارث بن كلدة : طبيب ، عاش في الجاهلية . كان الجوع عنده أحسن دواء لكل داء .
(٢) الوكاء : رباط القربة ونحوه .

يا جارية من أي العرب أنت .قالت: أنا من بني كلاب .قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب . فقالت: والله لست من الكلاب، وإنما أنا من قوم كرام، غير لئام يقرون الضيف، ويضربون بالسيف. ثم قالت: يا فتى من أي الناس أنت .فقال: أوعندك علم بالأنساب . قالت نعم ، قال لها أنا من مضر الحمراء . قالت: من أي مضر . قال : من أكرمها نسباً ، وأعظمها حسباً ، وخيرها أماً وأباً ، ممن تهابه مضر كلها .قالت: أظنك من كنانة .قال: أنا من كنانة .قالت: فمن أي كنانة .قال: من أكرمها مولداً وأشرفها محتداً ، وأطولها في المكرمات يداً ممن تهابه كنانة وتخافه .فقالت: إذن أنت من قريش .قال: أنا من قريش .قالت: من أي قريش . قال من أجملها ذكراً وأعظمها فخراً ، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه ،قالت: أنت والله من بني هاشم ،قال: أنا من بني هاشم . قالت : من أي هاشم ،قال: من أعلاها منزلة ، وأشرفها قبيلة ، ممن تهابه هاشم وتخافه قال: فعند ذلك قبلت الأرض وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، وخليفة رب العالمين . قال فعجب المأمون وطرب طرباً عظيماً ،وقال: والله لاتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاقته العساكر فنزل هناك وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه فزوجه بها ، وأخذها وعاد مسروراً . وهي والدة ولده العباس والله أعلم .

وحكي أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها فوصف للحجاج حسنُها فأنفذ إليها يخطبها وبذل لها مالا جزيلا وتزوج بها ، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم ، ودخل بها ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة ، وكانت هند فصيحة أديبة فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة ، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله ، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرآة وتقول :

وما هند إلا مهرة عربية سليلة أفراس تحللها بغل
فإن ولدت فحلا فلله درها وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها ، ولم تكن علمت به . فأراد الحجاج طلاقها فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر ، وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم ، وهي التي كانت لها عليه .وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزد عليها . فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج: كنت فبنت وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله . فقالت : اعلم يا ابن طاهر ، إنا والله كنا فما حمدنا ، وبِنّا ، فما ندمنا ، وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها ، بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف . ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف له جمالها ، فأرسل إليها يخطبها فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه: إعلم يا أمير المؤمنين إن الإناء ولغ فيه الكلب ، فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها وكتب إليها يقول : إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً ، إحداهن بالتراب فاغسلي الإناء يحل الاستعمال ، فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة ، فكتبت إليه بعد الثناء عليه: يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد إلا بشرط فإن قلت ما هو الشرط قلت أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها ، ويكون ماشياً حافياً بحليته التي كان فيها أوّلاً ، فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكاً شديداً ، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك ، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب ، وامتثل الأمر ولم يخالف ، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز ، فتجهزت وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند فركبت هند في محمل الزفاف ، وركب حولها جواريها وخدمها ، وأخذ الحجاج بزمام

البعير يقوده ويشير بها ، فجعلت هند تتواغد عليه ، وتضحك مع الهيفاء دايتها ، ثم إنها قالت للهيفاء : يا داية اكشفي لي سجف[1] المحمل[2] فكشفته فوقع وجهها في وجه الحجاج فضحكت عليه فأنشأ يقول :

فإن تضحكي مني فيا طول ليلة   تركتك فيها كالقباء المفرج

فأجابته هند تقول :

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت   بما فقدناه من مال ومن نشب
فالمال مكتسب والعز مرتجع   إذا النفوس وقاها الله من عطب

لم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة . فرمت بدينار على الأرض ،ونادت : يا جمال إنه قد سقط منا درهم فارفعه إلينا ، فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلا ديناراً ،فقال : إنما هو دينار ،فقالت : بل هو درهم ،قال : بل دينار ،فقالت : الحمد لله سقط منا درهم ، فعوضنا الله ديناراً ، فخجل الحجاج وسكت ، ولم يرد جواباً ، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها ، وكان من أمرها ما كان ، وقد وجدت في بعض النسخ ما هو أوسع من هذا ، ولكن اقتصرت على القليل منه ، إذ فيه الغرض والله أعلم .

وقيل إن جارية عرضت على الرشيد ليشتريها فتأملها وقال لمولاها ، خذ جاريتك فلولا كلف بوجهها ، وخنس بأنفها لاشتريتها فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة : يا أمير المؤمنين إسمع مني ما أقول . فقال : قولي فأنشدت تقول :

ما سلم الظبي على حسنه   كلا ولا البدر الذي يوصف
الظبي فيه خنس بيّن   والبدر فيه كلف يعرف

قال فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها .

وقيل عرضت على المأمون جارية بارعة في الجمال ، فائقة في الكمال غير أنها كانت تعرج برجلها ، فقال لمولاه : خذ بيدها وأرجع، فلولا عرج بها لاشتريتها . فقالت الجارية : يا أمير المؤمنين ، إنه في وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه ، فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها .

(ومن ذلك) ما حكي أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب فعبر يوماً تحت جوسق ببستان ، فرأى جارية ذات وجه زاهر ، وكمال باهر ، لا يستطيع أحد وصفها فلما نظر إليها ذهل عقله ، وطار لبه ، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه ، وكانت الجارية عزباء وكتب إليها رقعة يعرض إليها بالزيارة في جوسقها فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية ، ثم أرسلت إليه مع العجوز عنبراً، وجعلت فيه زرذهب ، وربطت ذلك على منديل وقالت للعجوز : هذا جواب رقعته ، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه وتحير في أمره ، وكانت له ابنة صغيرة السن ، فلما رأت أباها متحيراً في ذلك . قالت له : يا أبت أنا علمت معناه قال، ما هو لله درك قالت :

أهدت لك العنبر في جوفه   زرّ من التبر خفي اللحام
فالزر والعنبر معناهما   زر هكذا مختفياً في الظلام

---

(١) السجف : الطرف . وسجف الثوب ذيله .

(٢) المحمل : الهودج أو السرير الذي يحمل على ظهر البعير .

(وحكي) إن طائفة من بني تميم كانوا يكسرون أول الفعل ، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة فناداها شخص منهم وأراد أن يوقعها فيما ينسب إليهم من كسر الفعل . فقال لأي شيء يا بني تميم ما تكتنون . فقالت ولم لا نكتني وكسرت الفعل فضحك عليها وقال : أفعل إن شاء الله : فخجلت من قوله ، وتغير وجهها ، وأرادت أن توقعه كما أوقعها فقالت له : هل تحسن شيئاًمن العروض . قال نعم . قالت قطع لي :

حولوا عنّا كنيستكم يا بني حمالة الحطب

فقطعه فوقف على عن، ثم ابتدأ بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه وأضحكت أصحابه فقال : ويحك لم تبرحي حتى أخذت بثأرك .

(وحكي) أن شاعراً كان له عدو ، فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق ، إذا هو بعدوه ، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة ، فقال له : يا هذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت ، ولكن سألتك الله إذا قتلتني امض الى داري وقف بالباب وقل: ألا أيها البنتان أن أباكما . فقال سمعاً وطاعة ثم إنه قتله ، فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ووقف بالباب وقال: ألا أيها البنتان إن أباكما. وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل: ألا أيها البنتان أن أباكما . أجابتاه بفم واحد ، قتيل خذا بالثأر ممن آتاكما . ثم تعلقتا بالرجل ورفعتاه إلى الحاكم فاستقرره ، فأقر بقتله ، فقتله والله أعلم .

وقيل بينما كثير[1] عزة ماراً بالطريق يوماً ، إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي ، فقال لها تنحي عن الطريق . فقالت له ويحك، ومن تكون ؟ قال أنا كثير عزة ، قالت قبحك الله ، وهل مثلك يتنحى له عن الطريق ، قال ولم ، قالت ألست القائل :

وما روضة بالحسن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من أراد أن عزة موهنا إذا أوقدت بالمجمر اللدن نارها

ويحك يا هذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحها . لمَ لا قلت مثل سيدك امرىء القيس :

وكنت إذا جئت بالليل طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطب

فقطعته ولم يرد جواباً .

وقيل أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فقال لأصحابه ما تقولون فيها . قالوا : عاجلها بالقتل أيها الأمير . فقالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك يا حجاج . قال ومن هو صاحبي . قالت فرعون، استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا ارجئه وأخاه . وأتى بأخرى من الخوارج فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه ، فقيل لها الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين إليه . فقالت : إني لأستحي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه .

(وحكي) ابن الجوزي في كتابه المنتظم في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما ولي عمر رضي

---

(١) كثير عزة شاعر أقام في المدينة ، وغالىٰ في تشيعه . تغزل بعزة فسمي بها توفي سنة (١٠٥هـ - ٧٢٣ م) .

الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقه[1] أزواج النبي ﷺ خمسمائة درهم ، وأن فاطمة رضي الله عنه كان صداقها على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أربعمائة درهم . فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن لا يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة رضي الله عنها. فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : أيها الناس لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمائة درهم ،فمن زاد ألقيت في زيادته في بيت مال المسلمين . فهاب الناس أن يكلموه ، فقامت امرأة في يدها طول فقالت له : كيف يحل لك هذا والله تعالى يقول : ﴿ **وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً** ﴾[2] فقال عمر رضي الله عنه: امرأة أصابت ورجل أخطأ . وقيل جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقالت يا أمير المؤمنين : إن زوجي يصوم النهار ، ويقوم الليل فقال لها : نعم الرجل زوجك ، وكان في مجلسه رجل يسمى كعباً فقال يا أمير المؤمنين إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباعدته إياها عن فراشه ، فقال له : كما فهمت كلامها أحكم بينهما . فقال كعب عليّ بزوجها فأحضر ، فقال له : إن هذه المرأة تشكوك قال أفي أمر طعام أم شراب . قال بل في أمر مباعدتك إياها عن فراشك فأنشأت المرأة تقول :

يا أيها القاضي الحكيم أنشده ألهى خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله لا يرقده فلست في أمر النساء أحمده

فأنشأ الزوج يقول :

زهدني في فرشها وفي الحلل أني أمرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطول وفي كتاب الله تخويف يجل

فقال له القاضي :

إن لها عليك حقاً لم يزل في أربع نصيبها لمن عقل
فعاطها ذاك ودع عنك العلل .

ثم قال : إن الله تعالى احل لك من النساء مثنى ، وثلاث ، ورباع أفلك ثلاثة أيام بلياليهن ، ولها يوم وليلة . فقال عمر رضي الله عنه لا أدري من أيكم أعجب ، أمن كلامها أم من حكمك بينهما . إذهب فقد وليتك البصرة .

(حكاية المتكلمة بالقرآن) قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى : خرجت حاجاً الى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، فبينما أنا في بعض الطريق ، إذا أنا بسواد على الطريق فتميزت ذاك فإذا هي عجوز عليها درع من صوف ، وخمار من صوف ، فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقالت : ﴿ **سلام قولاً من رب حكيم** ﴾[3] قال فقلت لها : يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان . قالت : ﴿ **ومن يضلل الله فلا هادي له** ﴾ فعلمت أنها ضالة عن الطريق . فقلت لها أين تريدين ؟ قالت : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام ،إلى المسجد الأقصى** ﴾[4] فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس . فقلت لها أنت منذ كم في هذا الموضع . قالت :﴿ **ثلاث ليال سوياً** ﴾[5] فقلت ما أرى معك طعاماً تأكلين . قالت : ﴿ **هو يطعمني**

(١) جمع صداق وهو ما يدفع كمقدم من المهر .
(٢) سورة النساء الآية ٢٠ .
(٣) سورة يس الآية ٥٨ .
(٤) سورة الاسراء الآية ١ .
(٥) سورة مريم : الآية ١٠ .

ويسقين ﴾[1] فقلت فبأي شيء تتوضئين. قالت: ﴿**فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً**﴾[2] فقلت لها إن معي طعاماً فهل لك في الأكل ؟ قالت :﴿ **ثم أتموا الصيام إلى الليل**﴾[3] فقلت ليس هذا شهر رمضان قالت : ﴿ **من تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم** ﴾ فقلت قد أبيح لنا الإفطار في السفر . قالت : ﴿ **وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾[4] فقلت لم لا تكلميني مثل ما أكلمك. قالت :﴿**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾[5] أي الناس أنت ؟ قالت : ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**﴾[6] **فقلت قد** أخطأت فاجعليني في حل . قالت : ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم** ﴾ فقلت فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة . قالت :﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمه الله** ﴾[7] قال فأنخت ناقتي . قالت : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** ﴾[8] فغضضت بصري عنها وقلت لها اركبي، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت :﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**﴾[9] فقلت لها اصبري حتى أعقلها . قالت : ﴿ **ففهمناها سليمان** ﴾ فعقلت الناقة وقلت لها اركبي فلما ركبت . قالت : ﴿ **سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون**﴾[10] قال فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح. فقالت: ﴿**واقصد في مشيك واغضض من صوتك**﴾[11] فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر فقالت :﴿ **فاقرؤوا ما تيسر من القرآن**﴾[12] فقلت لها لقد : ﴿**أوتيم خيراً كثيراً** ﴾ ﴿**وما يذكر إلا أولو الألباب**﴾[13] فلما مشيت بها قليلاً قلت ألك زوج قالت : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم**﴾[14] فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها فقالت:﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا**﴾[15] فعلمت أن لها أولاداً فقلت وما شأنهم في الحج فقالت :﴿ **وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾[16] فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب ، والعمارات فقلت هذه القباب فمن لك فيها ، قالت : ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، وكلم الله موسى تكليماً ، يا يحيى خذ الكتاب بقوة**﴾[17] فناديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا ، فلما استقر بهم الجلوس قالت : ﴿**فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه**﴾[18] فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يديّ فقالت: ﴿**كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية**﴾[19] فقلت الآن طعامكم عليّ حرام حتى تخبروني بأمرها . فقالوا : هذه أمنا، لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على ما يشاء . فقلت :﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾[20] والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة الشعراء الآية ٧٩.
(٢) سورة النساء الآية ٤٣.
(٣) سورة البقرة الآية ٤٣.
(٤) سورة البقرة الآية ١٨٤.
(٥) سورة ق الآية ١٨.
(٦) سورة الاسراء الآية ٣٦.
(٧) سورة البقرة الآية ١٩٧.
(٨) سورة النور الآية ٣٠.
(٩) سورة الشورى الآية ٣٠.
(١٠) سورة الزخرف الآية ١٣ و١٤.
(١١) سورة لقمان الآية ١٩.
(١٢) سورة المزمل الآية ٢٠.
(١٣) سورة البقرة الآية ٢٦٩.
(١٤) سورة المائدة الآية ١٠١.
(١٥) سورة الكهف الآية ٤٦.
(١٦) سورة النحل الآية ١٦.
(١٧) سورة النساء الآية ١٦٤.
(١٨) سورة الكهف الآية ١٨.
(١٩) سورة الحاقة الآية ٢٤.
(٢٠) سورة الجمعة الآية ٤.

الباب الثامن

في الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك

(قيل) إن معن بن زائدة(1) دخل على المنصور فقال له هيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة(2) مائة ألف على قوله :

معن بن زائدة الذي زادت به　　شرفاً على شرف بنو شيبان

فقال كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله :

ما زلت يوم الهاشمية معلناً　　بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه　　من وقع كل مهند وسنان

فقال أحسنت والله يا معن ، وأمر له بالجوائز والخلع . ووفد ابن أبي محجن(3) على معاوية فقام خطيباً فأحسن ، فحسده معاوية وأراد أن يوقعه فقال له : أنت الذي أوصاك أبوك بقوله :

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة　　تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فإنني　　أخاف إذا ما متّ أن لا أذوقها

قال بل أنا الذي يقول أبي :

لا تسأل الناس ما مالي وكثرته　　وسائل الناس ما جودي وما خلقي

---

(1) هو معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيباني ـ ابو الوليد ـ من أشهر أجواد العرب ، وأحد الشجعان الفصحاء أدرك العصرين الاموي والعباسي . ولي سجستان واقام فيها مدة . قتل غيلة سنة : (١٥١هـ ـ ٧٦٨ م).
انظر وفيات الاعيان (٢ : ١٠٨) تاريخ بغداد (١٣ : ٢٣٥).

(2) مروان بن أبي حفصة : شاعر يهودي الاصل (من شعراء بغداد) توفي سنة (١٨٢هـ ـ ٧٩٨ م).

(3) أبو محجن الثقفي : شاعر ، ادرك الاسلام فاسلم توفي سنة : (٣٠هـ ـ ٦٥٠ م). وابن ابي محجن ولده .

أعـطي الحسام غـداة الروع حصتـه وعـامـل الـرمـح أرويـه من العلق
وأطعن الـطعنة النجـلاء عن عرض وأكتم الســر فيـه ضـربـة العنق
ويـعلم الـنــاس أني من ســراتهـم إذا سـما بصـر الـرعـديـد بـالفـرق

فقال له معاوية : أحسنت والله يا ابن أبي محجن ، وأمر له بصلة وجائزة .

(وقيل) أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثي فقال له ألست القائل :

ومـنــا شــريــد والبـطين وقـعنب ومـنــا أمــير المـؤمــنـين شـبـيـب

فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما قلت ومنّا أمير المؤمنين شبيب ، وأردت بذلك مناداة لك فكان ذلك سبباً لنجاته . ودخل شريك ابن الأعور على معاوية وكان دميماً فقال له معاوية : إنك الدميم ، والجميل خير من الدميم ، وإنك لشريك وما لله من شريك ، وإن أباك لأعور ، والصحيح خير من الأعور ، فكيف سدت قومك ؟ فقال له : إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت ، فاستعوت الكلاب ، وإنك لابن صخر ، والسهل خير من الصخر ، وإنك لابن حرب ، والسلام خير من الحرب ، وإنك لابن أمية ، وما أمية إلا أمة صغرت ، فكيف صرت أمير المؤمنين ثم خرج وهو يقول :

أيـشـتـمـني مـعـاويـة بـن حــرب وسـيـفـي صـارم ومـعـي لـســاني
وحــولي مــن ذوي يـزن لـيـوث ضـراغــمــة تهش إلى الـطـعــان
يـعــير بـالــدمــامــة مـن سـفــاه وربــات الحجــال[1] من الـغــواني

ودخل يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج ، على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج . فقال له سليمان : قبح الله رجلاً أجرك رسنه ، وأولاك أمانته . فقال : يا أمير المؤمنين رأيتني ، والأمر لك ، وهو عني مدبر . فلو رأيتني وهو عليّ مقبل ، لاستكبرت مني ما استصغرت ، واستعظمت مني ما استحقرت . فقال سليمان أترى الحجاج استقر في جهنم . فقال : يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك ، فإن الحجاج وطأ لكم المنابر ، وأذل لكم الجبابرة ، وهو يجيء يوم القيامة عن يمين أبيك ، وشمال أخيك ، فحيثما كانا كان .

وقال يهودي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلا خمس عشرة سنة حتى تقاتلتم . فقال علي كرم الله وجهه : ولم أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم يا موسى إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . ووجد الحجاج على منبره مكتوباً :﴿ **قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار** ﴾[2] فكتب تحته :﴿ **قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور** ﴾[3] ودخل عقيل[4] على معاوية وقد كف بصره فأجلسه معه على سريره ثم قال

---

(١) ربات الحجال : العفيفات من النساء .
(٢) سورة الزمر الآية ٨.
(٣) سورة آل عمران الآية ١١٩ .
(٤) هو عقيل بن ابي طالب حارب في بدر مع أهل مكة ثم اسلم ونزل المدينة ، ناصر معاوية على الامام علي في معركة صفين . كان خبيراً بالانساب توفي سنة : (٤٤هـ - ٦٦٤ م).

له : أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم فقال له عقيل : وأنتم معشر بني أمية تصابون في بصائركم . وقيل اجتمعت بنو هاشم يوماً عند معاوية فأقبل عليهم وقال يا بني هاشم : إن خيري لكم لممنوح ، وإن بابي لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيري عنكم ، ولا يرد بابي دونكم ، ولما نظرت في أمري وأمركم ، رأيت أمراً مختلفاً ، إنكم ترون أنكم أحق بما في يدي مني ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم ، قلتم أعطانا دون حقنا ، وقصّربنا ، عن قدرنا . فصرت كالمسلوب ، والمسلوب لا حمد له ، هذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم . قال فأقبل عليه ابن عباس رضي الله عنهما ، فقال : والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه ، ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك ، فخير الله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا باباً لنكفن أنفسنا عنك ، وأما هذا المال ، فليس لك منه إلّا للرجل من المسلمين ، ولو لاحقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خف ، ولا حافر ، أكفاك أم أزيدك ؟ قال كفاني يا ابن عباس . وقال معاوية يوماً أيها الناس إن الله حبا قريشاً بثلاث فقال لنبيه ﷺ ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[1] ونحن عشرته الأقربون . وقال تعالى : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك** ﴾[2] ونحن قومه . وقال تعالى : ﴿ **لإيلاف قريش إيلافهم** ﴾[3] ونحن قريش . فأجابه رجل من الأنصار فقال : على رسلك يا معاوية فإن الله تعالى يقول : ﴿ **وكذب به قومك وهو الحق** ﴾[4] وانتم قومه . وقال تعالى : ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون** ﴾[5] وأنتم قومه . وقال تعالى : ﴿ **وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً** ﴾[6] وأنتم قومه ، ثلاثة بثلاثة ولو زدتنا لزدناك . وقال معاوية أيضاً لرجل من اليمن ، ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ، فقال أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾[7] ولم يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه . وقال يوماً لجارية بن قدامة ما كان أهونك على قومك إذ سموك جارية . فقالت : ما كان أهونك على قومك إذ سموك معاوية ، وهي الأنثى من الكلاب . قالت : أم لي ولدتني ، أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها لفي أيدينا ، وإنك لم تهلكنا قسوة ، ولم تملكنا عنوة ، ولكنك أعطيتنا عهداً وميثاقاً ، وأعطيناك سمعاً وطاعة ، فإن وفيت لنا ، وفينا لك ، وإن نزعت إلى غير ذلك ، ﴿ **فإنا تركنا وراءنا رجالاً شداداً ، وأسنة حداداً** ﴾[8] فقال معاوية : لا أكثر الله في الناس مثلك يا جارية . فقالت له : قل معروفاً فإن شر الدعاء محيط بأهله . وخطب معاوية : يوماً فقال : إن الله تعالى يقول : ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزِّله إلا بقدر معلوم** ﴾[9] فعلام تلومونني إذا قصرت في

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤ .
(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤ .
(٣) سورة قريش الآية (١ -٢).
(٤) سورة الانعام الآية ٦٦ .
(٥) سورة الزخرف الآية ٥٧ .
(٦) سورة الفرقان الآية ٣٠ .
(٧) سورة الانفال الآية ٣٢.
(٨) اسنة حداداً : رماح قاطعة.
(٩) سورة الحجر الآية ٢١ .

عطاياكم . فقال له الأحنف[1] : وإنا والله لا نلومك على ما في خزائن الله ، ولكن على ما أنزله الله لنا من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلت بيننا وبينه . وقيل دخل مجنون الطاق يوماً إلى الحمام وكان بغيرمئزر،فرآه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه ، وكان في الحمام فغمض عينيه فقال له المجنون : متى أعماك الله ؟ قال : حين هتك سترك .

(ومن ذلك) ما حكي أن الحجاج خرج يوماً متنزهاً فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه فإذا هو بشيخ من بني عجل[2] فقال له من أين أيها الشيخ ؟ قال من هذه القرية . قال : كيف ترون عمالكم . قال : شر عمال ، يظلمون الناس ، ويستحلون أموالهم . قال فكيف قولك في الحجاج ؟ قال ذاك ما ولي العراق شرّ منه ، قبحه الله ، وقبح من استعمله . قال أتعرف من أنا قال لا ، قال أنا الحجاج . قال جعلت فداك ، أوتعرف من أنا ، قال لا ، قال أنا فلان بن فلان من بني عجل، أصرع في كل يوم مرتين ، قال فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة. وقال رجل لصاحب منزل ، أصلح خشب هذا السقف فإنه يقرقع قال لا تخف فانه يسبح . قال إني أخاف أن تدركه رقة فيسجد . وقالت عجوز لزوجها أما تستحي أن تزني ولك حلال طيب . قال أما حلال فنعم ، وأما طيب فلا . وقال ملك لوزيره ما خير ما يرزقه العبد . قال عقل يعيش به . قال فإن عدمه. قال أدب يتحلى به ، قال فإن عدمه ، قال مال يستره ، قال فإن عدمه ، قال فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد . وتنبأ رجل في زمن المنصور . فقال له المنصور أنت نبي سفلة ، فقال جعلت فداك كل نبي يبعث إلى شكله . (ومن الأجوبة المسكتة المتحسنة) ما ذكر أن إبراهيم مغني الرشيد غنى يوماً بين يديه فقال له : أحسنت أحسن الله إليك ، فقال له يا أمير المؤمنين : إنما يحسن الله إليّ بك فأمر له بمائة ألف درهم . وقال رجل لبعض العلوية أنت بستان فقال العلوي وأنت النهر الذي يسقى منه البستان . وذبحت عائشة رضي الله عنها شاة وتصدقت بها وأفضلت منها كتفاً فقال لها النبي ﷺ : « ما عندك منها » فقالت : ما بقي منها إلا كتف ، فقال : « كلها بقي إلا كتفاً . وقال عبد الله بن يحيى لأبي العيناء ، كيف الحال ؟ قال أنت الحال ، فانظر كيف أنت لنا : فأمر له بمال جزيل ، وأحسن صلته . وكان عمرو بن سعد بن سالم في حرس المأمون فخرج المأمون ليلة ، يتفقد الحرس .فقال لعمرو : من أنت ؟ قال عمرو عمرك الله بن سعد ، أسعدك الله ابن سالم سلمك الله . قال أنت تكلؤنا الليلة ،قال الله يكلؤك يا أمير المؤمنين وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين فقال المأمون :

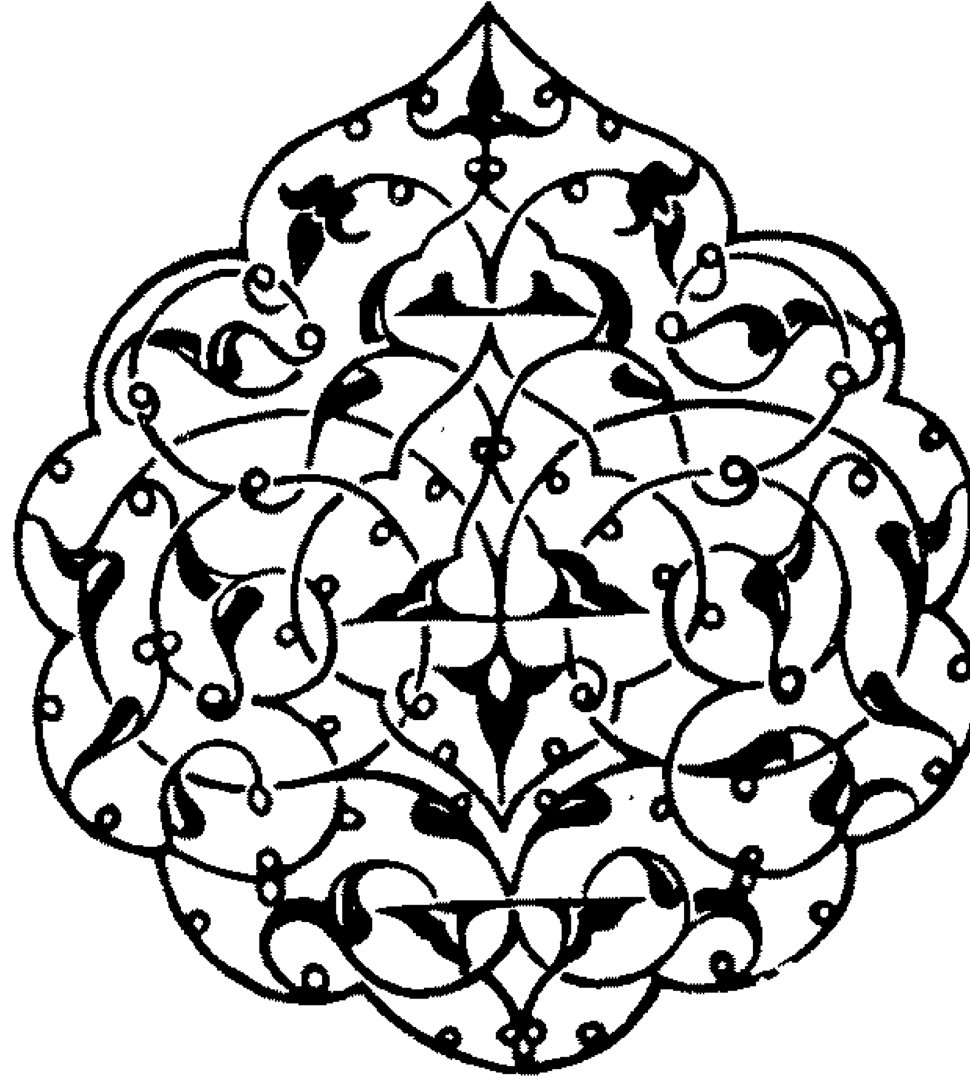
إن أخا الهيجاء من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا رَيبُ الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار؟وقال عمرو وددت لو أن الأبيات طالت . قال: المعتصم للفتح بن خاقان[3] وهو صبي صغير:أرأيت يا فتح أحسن من هذا الفص ، لفص كان في يده . قال : نعم يا أمير المؤمنين اليد التي هو

---

(١) هو من أنصار الامام علي كرم الله وجهه في وقعة صفين .
(٢) عجل : بنو قبيلة في شمالي جزيرة العرب . وهم من بكر وائل سكنوا اليمامة الواقعة بين الكوفة والبصرة . ناصروا بكراً على تميم واشتركوا في وقعة ذي قار .
(٣) الفتح بن خقان : وزير المتوكل .

فيها أحسن منه . فأعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة .وقيل : إن رجلاً سأل العباس رضي الله عنه أأنت أكبر أمم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله ﷺ أكبر وأنا ولدت قبله . وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندي ، أأنت سعيد ؟ قال أمير المؤمنين السعيد ، وأنا ابن مرة . وقال المأمون للسيد بن أنس ، أأنت السيد ؟ قال أمير المؤمنين السيد ، وأنا ابن أنس . وقال الحجاج للمهلب ، وهو يماشيه ، أأنا أطول ، أم أنت ؟ قال الأمير أطول ، وأنا أبسط قامة ، أراد الطول ، وهو الفضل . والأجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعتها لعجزت عنها ، ولكني اقتصرت على هذا ، وأوجزت ، وفيها ذكرته من ذلك كفاية وأسأل الله تعالى العون والعناية .



الباب التاسع

في ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قيل خطب المأمون فقال : اتقوا الله عباد الله ، وأنتم في مهل بادروا الأجل ، ولا يغرنكم الأمل ، فكأني بالموت قد نزل فشغلت المرء شواغله ، وتولت عنه فواصله ، وهيئت أكفانه ، وبكاه جيرانه ، وصار إلى التراب الخالي ، بجسده البالي ، فهو في التراب عفير ، وإلى ما قدم فقير . وقال الشعبي[1] ما سمعت أحداً يخطىء إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطىء ، ما خلا زياد فإنه لا يزداد إكثاراً إلا إزداد إحساناً .

(وخطب) علي رضي الله عنه فقال في خطبته : عباد الله الموت الموت ليس منه فوت ، إن أقمتم أخذكم ، وإن فررتم منه أدرككم ، الموت معقود بنواصيكم فالنجا النجا والوحا الوحا فإن وراءكم طالباً حثيثاً وهو القبر ، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث كلمات فيقول : أنا بيت الظلمة ، أنا بيت الوحشة ، أنا بيت الديدان ، ألا وإن وراء ذلك اليوم ، يوماً أشد منه ، يوماً يشيب فيه الصغير ، ويسكر فيه الكبير ، ﴿ **تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾[2] ألا وإن وراء ذلك اليوم يوماً أشد منه ، فيه نار تتسعر ، حرها شديد ، وقعرها بعيد ، وحليها حديد ، وماؤها صديد ، ليس لله فيها زحمة . قال فبكي المسلمون بكاءاً شديداً . ثم قال ألا وإن وراء ذلك اليوم ﴿ **جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾[3] أدخلنا الله وإياكم دار النعيم ، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم .

(وخطب) الحجاج بن يوسف فقال في بعض خطبه : إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رضي الله عنه خطب بالبصرة فقال : أيها الناس كل كلام في غير ذكر فهو لغو ، وكل صمت في غير فكر فهوسهو، والدنيا حلم ،

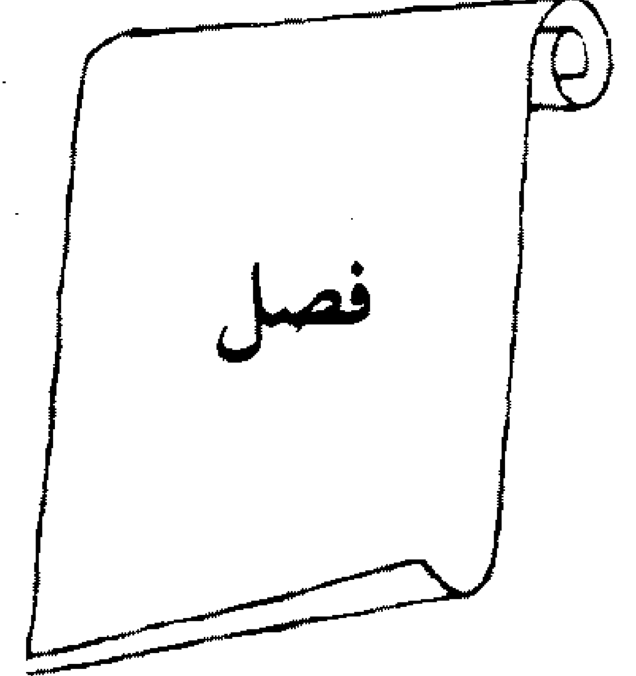
---

(١) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري ـ ابو عمرو ـ راوية من التابعين ، يضرب المثل بحفظه . ولد بالكوفة سنة (١٩هـ ـ ٦٤٠ م) من رجال الحديث الثقات . انظر تهذيب التهذيب (٥ : ٦٥) . حلية الاولياء (٤ : ٣١٠) .

(٢) سورة الحج الآية ٢ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٣٣ .

والآخرة يقظة ، والموت متوسط بينهما ، ونحن في أضغاث أحلام . قيل اجتمع الناس عند معاوية ، وقام الخطباء لبيعة يزيد ، وأظهر قوم الكراهة ، فقام رجل من الخطباء من عذرة[1] يقال له يزيد بن المقنع ، فاخترط من سيفه شبراً ، ثم قال : أمير المؤمنين هذا؟ وأشار إلى معاوية ، ثم قال : فإن يهلك فهذا ، وأشار إلى يزيد ، ثم قال : فمن أبى فهذا ، وأشار إلى سيفه ، فقال له معاوية أنت سيد الخطباء .



في ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم

قيل ما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجاري ، والشرف العالي ، والمكان الخضر الخالي ، وقيل أمسك على النابغة الجعدي[2] أربعين يوماً ، فلم ينطق بالشعر ثم إن بني جعدة غزوا فظفروا ، فاستخفه الطرب والفرح ، فرام الشعر فذل له ما استصعب عليه فقال له قومه : والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أسرّ منا بالظفر بعدونا . وقال أبو نواس ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء ، وليلى ، فما ظنك بالرجال . وقال الخليل : الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاؤوا ، جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده . وقيل وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له أقرأت القرآن . قال نعم ، قال أقرضت القريض . قال نعم . قال أرويت الشعر ؟ قال لا . فكتب إلى عبد الله : أبا زياد بارك الله لك في ابنك ، فأروه الشعر ؟ فقد وجدته كاملاً . واني سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : أرووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق ، ويقي مساويها وتعلموا الأنساب ، فرب رحم مجهولة قد وصفت بعرفان النسب ، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم في البر والبحر ، ولقد هممت بالهرب يوم صفين فما ثبتني إلا قول القائل :

أقول لها إذا جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

---

(۱) عذرة : قبيلة موطنها الحجاز عرفت بالحب الطاهر واليها ينسب الحب العذري .

(۲) هو قيس بن عبد الله بن عُدَس ابن ربيعة الجعدي العامري - ابو ليلى - شاعر ، صحابي ، من المعمرين . اشتهر في الجاهلية وسمي « النابغة » لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله . وكان ممن هجر الاوثان ، ونهى عن الخمر . وفد على النبي ﷺ فأسلم له « ديوان » توفي سنة (٥٠ هـ).

وقيل لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر[1]، وكان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء ، فلا يتميز عن مقولهم ، ثم تنسك فكان يختم القرآن كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك مالاً جزيلاً ، على أن يتكلم في بيت من الشعر شكوا فيه فأبى . وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يعطي الشعراء ، فقيل له في ذلك . فقال : خير ما لك ما وقيت به عرضك . وقال أبو الزناد ما رأيت أروى للشعر من عروة ، قلت له : ما أرواك يا أبا عبد الله ، فقال : وما روايتي مع رواية عائشة رضي الله عنها ، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً ، وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القائل. كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً . ولم ينطق به موزوناً . فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه أشهد أنك رسول الله حقاً . وتلا قوله تعالى : ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾[2] (ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم) فمن ذلك قول قيس بن الحطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها :

وما المال والأخلاق إلا معارة　　فما اسطعت من معروفها فتزوّد

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتهار قصيدة طرفة بن العبد وهي معلقة على الكعبة يقول فيها :

لعمرك ما الأيام إلا معارة　　فما اسطعت من معروفها فتزوّد

(ومن ذلك) قول عبدة بن الطيب :

فما كان قيس هلكه هلك واحد　　ولكنه بنيان قوم تهدما

أخذه من قول امرىء القيس :

فلو أنها نفسي تموت شريتها　　ولكنها نفس تساقط أنفسا

ويقال من سرق شيئاً واسترقه فقد استحقه ، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ . فمن السرقة الفاحشة قول كثير في عبد الملك بن مروان :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه　　حصان عليها عقد دبّر يزينها

أخذه من قول الحطيئة ، ولم يغير سوى الروي :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه　　حصان عليها لؤلؤ وشنوف

---

(١) هو خلف بن حيان ـ ابو محرز ـ المعروف بالاحمر . راوية ، عالم بالادب ، شاعر ، من أهل البصرة . له « ديوان شعر » وكتاب « جبال العرب » و« مقدمة في النحو » .
انظر : ارشاد الاريب (٤ : ١٧٩). مراتب النحويين (٤٦).

(٢) سورة يس الآية ٦٩.

وجرير[1] على سعة تبحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله :

فلو كان الخلود بفضل قوم　　على قوم لكان لنا الخلود

من قول زهير[2] وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النسوان وهو :

فلو كان حمد يخلد المرء لم يمت　　ولكن حمد المرء غير مخلد

وقد قال الشماخ :

وأمر ترجى النفس ليس بنافع　　وآخر تخشى ضيره لا يضيرها

وهو مأخوذ من قول الآخر :

ترجي النفوس الشيء لا تستطيعه　　وتخشى من الأشياء ما لا يضيرها

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول :

وأحسن من نور نفحته الصبا　　بياض العطايا في سواد المطالب

أخذه من قول الأخطل :

رأيت بياضاً في سواد كأنه　　بياض العطايا في سواد المطالب

(ومن سقطات الشعراء) ما قيل : أن أبا العتاهية[3] كان مع تقدمه في الشعر كثير السقط . روي أنه لقي محمد بن مبادر بمكة فمازحه وضاحكه ، ثم إنه دخل على الرشيد فقال يا أمير المؤمنين : هذا شاعر البصرة يقول

---

(١) هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي ، من تميم ولد في اليمامة سنة (٢٨هـ - ٦٤٠ م). وعاش عمره يناضل شعراء زمنه ويساجلهم - وكان هجَّاءاً مرّاً - لم يثبت امامه إلا الفرزدق والاخطل . وقد جمعت « نقائضه مع الفرزدق » في ثلاثة أجزاء و« ديوان شعره » في جزأين . كان يكنىٰ بأبي حزرة . توفي سنة (١١٠هـ - ٧٢٨ م). انظر الاغاني (مطلع المجلد الثامن). وفيات الاعيان (١ : ١٠٢).

(٢) هو زهير بن أبي سلمىٰ - من مضر - حكيم الشعراء في الجاهلية ، قال ابن الاعرابي : « كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره » وكان أبوه شاعراً ، وخاله شاعراً ، واخته سلمىٰ شاعرة ، وابناه كعب وبجير شاعرين وأخته الخنساء شاعرة كانت قصائده تسمىٰ « الحوليات » أشهر شعره معلقته التي مطلعها :

« امن ام أوفىٰ ومنة لم تكلم . . » له « ديوان » توفي سنة (١٣ق .هـ - ٦٠٩ م)

انظر : معاهد التنصيص (١ : ٣٢٧) آداب اللغة (١ : ١٠٥).

(٣) أبو العتاهية : هو اسماعيل بن القاسم ابن سويد العيني العنزي (من قبيلة عنزة) - ابو اسحاق - الشهير بأبي العتاهية . شاعر مكثر ، سريع الخاطر ، في شعره ابداع ، كان ينظم المئة والمئة والخمسين بيتاً في اليوم . جمع الامام يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي ما وجد من « زهدياته » وشعره في الحكمة والعظة ، وما جرى مجرىٰ الامثال ، في مجلد منه مخطوطة حديثة في دار الكتب بمصر ، اطلع عليها أحد الآباء اليسوعيين فنسخها ورتبها على الحروف وشرح بعض مفرداتها ، وسماها : « الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية » وللكاتب المعاصر محمد احمد برانق : « ابو العتاهية ». توفي سنة (٢١١هـ - ٨٢٦ م). انظر ابن خلكان (١ : ٧١) لسان الميزان (١ : ٤٢٦).

قصيدة في كل سنة ، وأنا أقول في كل سنة مائتي قصيدة ، فأدخله الرشيد إليه وقال : ما هذا الذي يقول أبو العتاهية . فقال يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول :

ألا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

لقلت كثيراً ولكني أقول :

ابن عبد الحميد يوم توفى هَدَّ ركناً ما كان بالمهدود
ما درى نعشه ولا حاملوه ما على النعش من عفاف وجود

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم . فكاد أبو العتاهية يموت غماً وأسفاً . وكان بشار بن برد يسمونه أبا المحدثين ، ويسلمون إليه في الفضيلة والسبق بعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال :

إنما عظم سليمى حبتي قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصلاً غلب المسك على ريح البصل

هذا مع قوله :

إذا قامت لمشيتها تثنت كأن عظامها من خيزران

ومع قوله في الفخر :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومع قوله أيضاً :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وأبو الطيب المتنبي في فضله المشهور ، وأخذه بزمام الكلام ، وقوته على رقائق المعاني ، وعلى ما في شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

وغير شيء معناه المعدوم ، والمعدوم لا يرى فهذا سقط فاحش . ومما يستهجن من قوله ويكاد أن تمجه الأسماع قوله :

تقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل عيش كلهن قلاقل

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى :

إن كان مثلك كان ، أو هو كائن ... فبرئت حينئذ من الإسلام

ومن معانيه المسروقة قوله :

ونهب نفوس أهل النهب أولى ... بأهل المجد من نهب القماش

أخذه من قول أبي تمام :

إن الأسود أسود الغاب همتها ... يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

قال أبو عبد الله الزبيري : اجتمع راوية جرير ، وراوية كثير ، وراوية جميل ، وراوية الأحوص ، وراوية نصيب ، فافتخر كل منهم وقال صاحبي أشعر ،فحكموا السيدة سكينة بنت الحسين ،رضي الله تعالى عنهما، بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر ، فخرجوا حتى استأذنوا عليها وذكروا لها أمرهم . فقالت : لراوية جرير أليس صاحبك الذي يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

وأي ساعة أحلى من الزيارة بالطروق ، قبح الله صاحبك وقبح شعره ، فهلاّ قال فادخلي بسلام . ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذي يقول :

يقر بعيني ما يقرّ بعينها ... وأحسن شيء ما به العين قرت

وليس شيء أقر بعينها من النكاح أيحب صاحبك أن ينكح ، قبح الله صاحبك وقبح شعره ، ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذي يقول :

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ... ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما أراه هوى ، وإنما طلب عقله ، قبح الله صاحبك وقبح شعره . ثم قالت لراوية نصيب أليس صاحبك الذي يقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت ... فواحزني من ذا يهيم بها بعدي

فما له همة إلا من يتعشقها بعده ، قبحه الله وقبح شعره . هلاّ قال :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت ... فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذي يقول :

من عاشقين تواعدا وتراسلا ... ليلاً إذا نجم الثريا حلقا
باتا بأنعم ليلة وألذها ... حتى إذا وضح الصباح تفرقا

قبحه الله وقبح شعره . هلاّ قال تعانقا . فلم تثن على واحد منهم ،وأحجم رواتهم عن جوابها، رضي الله عنها .

(وروى) ابن الكلبي[1] قال لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ، وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله ، فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم في الدخول ،حتى قدم عدي بن أرطاة عليه ، وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال :

يا أيها الرجل المزجي مطيته … هذا زمانك إني قد خلا زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه … أني لدى الباب كالمشدود في قرن
لا تنس حاجتنا لاقيت مغفرة … قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

فقال نعم يا أبا عبد الله . فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال :يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وألسنتهم مسمومة ، وسهامهم صائبة . فقال عمر رضي الله عنه : ما لي وللشعراء . فقال يا أمير المؤمنين : إن رسول الله ﷺ مدح فأعطى ، وفيه أسوة لكل مسلم . قال صدقت فمن بالباب منهم قال ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي[2]، قال لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه أليس هو القائل :

ألا ليتني في يوم تدنو منيتي … شممت الذي ما بين عينيك والفم
وليت طهوري كان ريقك كله … وليت حنوطي من مشاشك[3] والدم
ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي … هنالك أو في جنة أو أهنم

فليته عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ، ثم يعمل عملاً صالحاً ، والله لا يدخل عليّ أبداً ، فمن بالباب غيره ممن ذكرت . قال : جميل بن معمر العذري ، قال أليس هو القائل :

ألا ليتنا نحيا جميعاً فإن نمت … يوافي لدى الموت ضريحي ضريحها
فما أنا في طول الحياة براغب … إذا قيل قد سوى عليها صفيحها[4]
أظل نهاري لا أراها وتلتقي … مع الليل روحي في المنام روحها

والله لا يدخل عليّ أبداً ، فمن بالباب غيره ممن ذكرت . قال كثير عزة قال،أليس هو القائل :

---

(١) ابن الكلبي : هو هشام بن محمد أبي النضر ابن السائب بن بشر الكلبي - ابو المنذر - مؤرخ ، عالم بالانساب وأخبار العرب وأيامها ، كأبيه . له كتب كثيرة نذكر منها : « جمهرة الانساب » و« الاصنام » و« نسب الخيل » و« بيوتات قريش » و« الكنى » و« ألقاب قريش » وغيرها توفي سنة (٢٠٤هـ - ٨١٩ م). انظر : ابن النديم (١ : ٩٥). ابن خلدون (٢ : ٢٦٢).

(٢) هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي - ابو الخطاب - ارق شعراء عصره ، من طبقة جرير والفرزدق . ولم يكن في قريش أشعر منه ولد سنة (٢٣هـ - ٦٤٤ م) قال ابن خلكان : « لم يستقص أحد في بابه ابلغ منه » توفي سنة (٩٣هـ - ٧١٢ م).

انظر : وفيات الاعيان (١ : ٣٥٣ و٣٧٨). خزانة البغدادي (١ : ٢٤٠).

(٣) هو رأس العظم اللين . يريد الشاعر انه لو يحنط عند دفنه بدمها وعظامها .

(٤) الصفيح : يقصد الحجارة التي توضع على قبر الميت .

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر الفراق قعودا
ويسمون كما سمعت حديثها خروا لعزة ركعا وسجودا

أبعده الله ، فوالله لا يدخل عليّ أبداً ، فمن بالباب غيره ممن ذكرت ، قال الأحوص الأنصاري ،قال أبعده الله ، والله لا دخل عليّ أبداً ، أليس هو القائل ، وقد أفسد علي رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه .

الله بيني وبين سيدها يفر مني بها وأتبعه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت . قال : همام بن غالب الفرزدق . قال : أليس هو القائل يفتخر بالزنا في قوله :

هما دلياني من ثمانين قامة كما انقض بازلين الريش كاسره
فلما استوت رجلات في الأرض قالتا أحيٌّ ، فيرجى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الأحراس لا يفطنوا بنا ووليت في أعقاب ليل أبادره

والله لا يدخل عليّ أبداً ، فمن بالباب غيره ، ممن ذكرت . قال الأخطل التغلبي قال أليس هو القائل :

ولست بصائم رمضان عمري ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بزاجر عيسا بكوراً إلى أطلال مكة بالنجاح
ولست بقائم كالعبد يدعو قبيل الصبح حيّ على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً وأسجد عند منبلج الصباح

أبعده الله عني ، فوالله لا دخل عليّ أبداً ، ولا وطىء لي بساطاً ، وهو كافر . فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت . قال : جرير قال أليس هو القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإن كان ولا بد فهذا ، فأذن له . قال عدي بن أرطأة فخرجت فقلت أدخل يا جرير فدخل وهو يقول :

إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة في الإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووقاره حتى ارعووا وأقام ميل المائل
إني لأرجو منه نفعاً عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

فلما مثل بين يديه ، قال : يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقفا فأنشأ يقول :

كم باليمامة من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممن يعد لك يكفي فقد والده كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر
أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت أم قد كفاني ما بلغت من خبري
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
إن الخلافة جاءته على قدر كما أتى ربه موسى على قدر

هـذي الأرامل قـد قضيت حاجتهـا فمن لحـاجـة هـذا الأرمـل الـذكـر
الخـير مـا دمت حيـاً لا يفـارقنـا بوركت يا عمـر الخيرات من عمـر

ال : والله يا جرير لقد وافيت الأمر ، ولا أملك إلا ثلاثين ديناراً فعشرة أخذها عبد الله ابني ، وعشرة أخذتها أم عبد الله ، ثم قال لخادمه : إدفع إليه العشرة الثالثة ، فقال والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال اكتسبته ، ثم خرج فقال له الشعراء: وما وراءك يا جرير ؟ فقال ورائي ما يسوءكم ، خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ، ويمنع الشعراء وإنني عنه لراض ، ثم أنشأ يقول :

رأيت رقـيّ الجـب لا يـسـتـفـزه وقـد كـان شيـطاني من الجن راقيـاً

ومما جاء في كبوات الجياد وهفوات الامجاد :

قال الأحنف : الشريف من عدت سقطاته وقلت عثراته : وقالوا : كل صارم ينبو ، وكل جواد يكبو . وكان الاحنف بن قيس حليماً سيداً يضرب به المثل ، وقد عدت له سقطة . وهو أن عمرو بن الأهتم دس إليه رجلاً يسفهه، فقال يا أبا بحر ، ما كان أبوك في قومه ، قال كان أوسطهم وسيدهم ، ولم يتخلف عنهم . فرجع إليه ثانياً ففطن أنه من قبل عمرو بن الاهتم ،فقال ما كان أبوك قال : كانت له فتوة ، ومروءة ، ومكارم أخلاق ، ولم يكن أهتم سلاجاً[١] . وقال سعيد بن المسيب :ما فاتني الأذان في مسجد رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة ، ثم قام يريد الصلاة ، فوجد الناس قد خرجوا من المسجد . وقال قتادة ما نسيت شيئاً قط ثم قال يا غلام ناولني نعلي ، قال النعل في رجلك . وكان هشام بن عبد الملك من رجال بني أمية ودهاتهم وقد عدت له سقطات منها أن الحادي[٢] حدا به يوماً فقال :

إني عـلـيـك أيهـا الـنـجـيّ أكـرم مـن يمـشـي بـه المـطي

فقال هشام صدقت . وذكر عنده سليمان ، وأخوه فقال : والله لأشكونه يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك ، ولما ولي الخلافة قال:الحمد لله الذي أنقذني من النار بهذا المقام . قال النابغة أي الرجال المهذب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) سلج اللقمة سلجاً : بلعها . وسلج الفصيل الناقة رضعها . واستلجه : ألحّ في شربه .
(٢) الحادي : الذي يحدو وهو يسوق الابل .

الباب العاشر

في التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك .

(وفيه فصول)

الفصل الاول :

في التوكل على الله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ **وتوكل على الحي الذي لا يموت**[١]﴾ وقال تعالى : ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿**و من يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾[٣] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيﷺ قال : « يدخل الجنة أقوام افئدتهم مثل افئدة الطير » رواه مسلم قيل معناه متوكلون ، وقيل قلوبهم رقيقة وعن البراء بن عازب رضي الله عنه ، أن رسول اللهﷺ قال : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتعود بطاناً » وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ﴿ **يا داود من دعاني أجبته ، ومن استغاثني أغثته ، ومن استنصرني نصرته ، ومن توكل عليّ كفيته ، فأنا كافي المتوكلين ، وناصر المستنصرين ، وغياث المستغيثين ومجيب الداعين** ﴾ .

(حكي) أنه كان في زمن هارون الرشيد ،قد حصل للناس غلاء سعر وضيق حال ،حتى اشتد الكرب على الناس اشتداداً عظيماً ، فأمر الخليفة هرون الرشيد الناس بكثرة الدعاء ، والبكاء ، وأمر بكسر آلات الطرب . ففي بعض الأيام رؤي عبد يصفق ويرقص ويغني ، فحمل إلى الخليفة هارون الرشيد ، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس فقال : إن سيدي عنده خزانة بُرّ وأنا متوكل عليه أن يطعمني منها ، فلهذا أنا إذاً لا أبالي ، فأنا أرقص

(١) سورة الفرقان الآية ٥٨ .
(٢) سورة الانفال الآية ٢ .
(٣) سورة الطلاق الآية ٣.

وأفرح ، فعند ذلك قال الخليفة : إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله فالتوكل على الله أولى ، فسلم للناس أحوالهم وأمرهم بالتوكل على الله تعالى .

(وحكي) أن حاتماً الأصم كان رجلاً كثير العيال ، وكان له أولاد ذكور وأناث ، ولم يكن يملك حبة واحدة ، وكان قدمه التوكل : فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم فتعرضوا لذكر الحج ، فداخل الشوق قلبه ، ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم ، ثم قال لهم لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجاً ، ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم ، فقالت زوجته وأولاده أنت على هذه الحالة لا تملك شيئاً ، ونحن على ما ترى من الفاقة ، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة . وكان له ابنة صغيرة فقالت ، ماذا عليكم لو أذنتم له ، ولا يهمكم ذلك ، دعوه يذهب حيث شاء فإنه مناول الرزق ، وليس برزاق ، فذكرتهم ذلك ، فقالوا صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا ، انطلق حيث أحببت ، فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج ، وخرج مسافراً وأضبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم ، كيف أذنوا له بالحج ، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه ، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ، ويقولون لو سكت ما تكلمنا . فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت : إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك ، وأنك لا تضيعهم ، فلا تخيبهم ولا تخجلني معهم ، فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيداً فانقطع عن عسكره وأصحابه ، فحصل له عطش شديد فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم[1] فاستسقى منهم ماء ، وقرع الباب فقالوا : من أنت قال الأمير ببابكم يستسقيكم ، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت : إلهي وسيدي سبحانك ، البارحة بتنا جياعاً ، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا ، ثم انها أخذت كوزاً[2] جديداً وملأته ماء ، وقالت للمتناول منها : اعذرونا ، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال : هذه الدار لأمير ، فقالوا لا والله ، بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم . فقال الأمير : لقد سمعت به . فقال الوزير : يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئاً ، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعاً . فقال الأمير ونحن أيضاً قد ثقلنا عليهم اليوم ، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم ، ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار ، ثم قال لأصحابه من أحبني فليلق منطقته ، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم ثم انصرفوا . فقال الوزير السلام عليكم أهل البيت لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق ، فلما نزل الأمير رجع إليهم الوزير ، ودفع إليهم ثمن المناطق مالاً جزيلاً ، واستردها منهم . فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديداً فقالوا لها : ما هذا البكاء إنما يجب أن تفرحي ، فإن الله وسع علينا . فقالت يا أم ، والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعاً ، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة ، فأغنانا بعد فقرنا ، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين ، اللهم انظر إلى أبينا ودبره بأحسن التدبير . هذا ما كان من أمرهم . وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم فإنه لما خرج محرماً ، ولحق بالقوم توجع أمير الركب ، فطلبوا له طبيباً فلم يجدوا فقال هل من عبد صالح فدلّ على حاتم ، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته ، فأمر له بما يركب ، وما يأكل ، وما يشرب فنام تلك الليلة مفكراً في أمر عياله ، فقيل له في منامه يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه ، ثم أخبر بما كان من أمر عياله ، فأكثر الثناء على الله تعالى ،

---

(١) حاتم الاصم : هو عبد الرحمن بن علوان من مشايخ خراسان توفي سنة : (٢٣٨هـ ـ ٨٥٢ م) .
(٢) الكوز : وعاء للشرب كالابريق لكنه أصغر منه .

فلما قضى حجه ورجع تلقاه أولاده فعانق الصبية الصغيرة وبكى ثم قال : صغار قوم كبار قوم آخرين وان الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به فعليكم بمعرفته والاتكال عليه ، فانه من توكل على الله فهو حسبه . ومن كلام الحكماء من أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة ، ومن علم أن الذي قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع ، ومن علم أن مولاه خير له من العباد فقصده كفاه همه ، وجمع شمله . وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت عند النبيﷺ يوماً فقال : « يا غلام اني أعلمك كلمات أحفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفعك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن تضرك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، ورفعت الأقلام وجفت الصحف » .

(ورفع) إلى الرشيد أن بدمشق رجلاً من بني أمية ، عظيم المال والجاه ، كثير الخيل والجند ، يخشى على المملكة منه ، وكان الرشيد يومئذ بالكوفة ، قال منارة خادم الرشيد،فاستدعاني الرشيد وقال : اركب الساعة الى دمشق وخذ معك مائة غلام ، وائتني بفلان الاموي ، وهذا كتابي إلى العامل لا توصله له إلا اذا امتنع عليك فإذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه ، وما يتكلم به ، واذكر لي حاله ومآله ،وقد أجلتك لذهابك ستاً ، ولمجيئك ستاً ، ولاقامتك يوماً أفهمت. قلت : نعم ، قال : فسر على بركة الله. فخرجت أطوي المنازل ليلاً ونهاراً ، لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق ، فلما فتح الباب دخلت قاصداً نحو دار الأموي ،فإذا هي دار عظيمة هائلة، ونعمة طائلة ، وخدم وحشم وهيبة ظاهرة ، وحشمة وافرة ، ومصاطب متسعة وغلمان فيها جلوس ، فهجمت على الدار بغير إذن فبهتوا وسألوا عني ، فقيل لهم إن هذا رسول أمير المؤمنين ، فلما صرت في وسط الدار رأيت أقواماً محتشمين فظننت أن المطلوب فيهم . فسألت عنه ، فقيل لي هو في الحمام ، فأكرموني وأجلسوني وأمروا بمن معي ومن صحبني إلى مكان آخر ، وأنا أنتقد الدار ، وأتأمل الأحوال حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان ، وحفدة وغلمان ، فسلم عليّ وسألني عن أمير المؤمنين ، فأخبرته أنه بعافية فحمد الله تعالى ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال : تقدم يا منارة كُلْ معنا فتأملت تأملاً كثيراً ، إذ لم يكنني فقلت : ما آكل ، فلم يعاودني ورأيت ما لم أره إلا في دار الخلافة ، ثم قدم الطعام فوالله ما رأيت أحسن ترتيباً ولا أعطر رائحة ، ولا أكثر آنية منه ، فقال : تقدم يا منارة فكُلْ ، قلت :ليس لي به حاجة ، فلم يعاودني ، ونظرت الى أصحابي فلم أجد أحداً منهم عندي فحرت لكثرة حفدته ، وعدم من عندي . فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر ثم قام فصلى الظهر ، فأتم الركوع والسجود ، وأكثر من الركوع بعدها ، فلما فرغ استقبلني وقال : ما أقدمك يا منارة ، فناولته كتاب أمير المؤمنين فقبله ووضعه على رأسه ثم فضه وقرأه. فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه ، وسائر عياله ، فضاقت الدار بهم على سعتها ، فطار عقلي وما شككت أنه يريد القبض عليّ . فقال : الطلاق يلزمه ، والحج ، والعتق ، والصدقة ، وسائر أيمان البيعة ، لا يجتمع منكم اثنان في مكان واحد حتى ينكشف أمره ، ثم أوصاهم على الحريم ، ثم استقبلني وقدم رجليه ، وقال : هات يا منارة قيودك ، فدعوت الحداد فقيده ، وحمل حتى وضع في المحمل ، وركبت معه في المحمل وسرنا فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتدأ يحدثني بانبساط ويقول : هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا ، وهذا البستان لي وفيه من غرائب الأشجار ، وطيب أثمار كذا وكذا ، وهذه المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا ، فقلت يا هذا ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك وأنت

ذاهب إليه ما تدري ما تقدم عليه وقد أخرجتك من منزلك ، ومن بين أهلك ، ونعمتك وحيداً فريداً ، وأنت تحدثني حديثاً غير مفيد ولا نافع لك ، ولا سألتك عنه ، وكان شغلك بنفسك أولى بك . فقال إنا لله وإنا إليه راجعون لقد أخطأت فراستي فيك ، يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة ، إلا لوفور عقلك ، فإذا أنت جاهل عامي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء ، أما خروجي على ما ذكرت فإني على ثقة من ربي ، الذي بيده ناصيتي ، وناصية أمير المؤمنين ، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى ، فإن كان قد قضى عليّ بأمر فلا حيلة لي بدفعه ، ولا قدرة لي على منعه ، وإن لم يكن قد قدر علي بشيء ، فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله تعالى ، وما لي ذنب فأخاف ، وإنما هذا واش وشي عند أمير المؤمنين ببهتان ، وأمير المؤمنين كامل العقل ، فإذا أطلع على براءتي فهو لا يستحل مضرتي ، وعليّ عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جواباً ، ثم اعرض عني وأقبل عليّ التلاوة ، وما زال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر ، فإذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا ، فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض . فقال : هات يا منارة ، أخبرني من يوم خروجك عني إلى يوم قدومك علي ، فابتدأت أحدثه بأموري كلها مفصلة ، والغضب يظهر في وجهه ، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه وخواصه وضيق الدار بهم ، وتفقدي لأصحابي ، فلم أجد منهم أحداً اسود وجهه ، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الايمان المغلظة تهلل وجهه ، فلما قلت انه قدم رجليه ، اسفر وجههواستبشر ، فلما أخبرته بحديثي معه في ضياعه وبساتينه وما قلت له وما قال لي قال : هذا رجل محسود عليّ نعمته ، ومكذوب عليه . وقد أزعجناه وأرعبناه ، وشوّشنا عليه ، وعلى أولاده وأهله ، أخرج إليه وانزع قيوده ، وفكه وادخله عليّ مكرماً . ففعلت فلما دخل قبّل الأرض فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه واعتذر إليه فتكلم بكلام فصيح فقال له أمير المؤمنين : سل حوائجك ، فقال : سرعة رجوعي إلى بلدي وجمع شملي بأهلي وولدي ، قال هذا كائن فسل غيره . قال : عدل أمير المؤمنين في عماله ، ما أحوجني إلى سؤال ، قال فخلع عليه أمير المؤمنين ، ثم قال : يا منارة اركب الساعة معه حتى ترده الى المكان الذي أخذته منه قم في حفظ الله ، وودائعه ورعايته ، ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك . فانظر إلى حسن توكله على خالقه ، فإنه من توكل عليه كفاه ، ومن دعاه لبّاه ، ومن سأله أعطاه ما تمناه . وروي أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار[1] مكتوبة في التوراة فكتبها وهي : يا ابن آدم لا تخافن من ذي سلطان ما دام سلطاني باقياً ، وسلطاني لا ينفد أبداً ، يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق ما دامت خزائني ملآنة وخزائني لا تنفد أبداً ، يا ابن آدم لا تأنس بغيري وأنا لك ، فإن طلبتني وجدتني ، وإن أنست بغيري فتك ، وفاتك الخير كله . يا ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وقسمت رزقك فلا تتعب وفي أكثر منه فلا تطمع ومن أقل منه لا تجزع فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك وكنت عندي محموداً وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البر ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك ، وكنت عندي مذموماً ، يا ابن آدم خلقت السموات السبع ،

---

(١) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري ـ أبو اسحاق ـ تابعي . كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن ، واسلم في زمن أبي بكر ، وقدم المدينة في دولة عمر ، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الامم الغابرة ، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة .

خرج إلى الشام ، فسكن حمص ، وتوفي فيها ، عن مئة وأربع سنين . توفي سنة (٣٢هـ ـ ٦٥٢ م) .

أنظر : تذكرة الحفاظ (١ : ٤٩) . حلية الاولياء (٥ : ٣٦٤) .

والأرضين السبع ، ولم أع بخلقهن ، أيعيبني رغيف أسوقه لك من غير تعب ، يا ابن آدم أنا لك محب فبحقي عليك كن لي محباً يا ابن آدم لا تطالبني برزق غد ، كما لا أطالبك بعمل غد ، فإني لم أنس من عصاني ، فكيف من أطاعني ، وأنا على كل شيء قدير وبكل شيء محيط . قال الشاعر :

وما ثم إلا الله في كل حالة   فلا تتكل يوماً على غير لطفه
فكم حالة تأتي ويكرهها الفتى   وخيرته فيها على رغم أنفه

ولمؤلفه رحمه الله تعالى :

توكل على الرحمن في الأمر كله   فما خاب حقاً من عليه توكلا
وكن واثقاً بالله واصبر لحكمه   تفز بالذي ترجوه منه تفضلاً



في القناعة والرضا بما قسم الله تعالى

جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾[1] إن المراد بها القناعة . وقالﷺ « القناعة مال لا ينفد » . وقيل يا رسول اللهﷺ ما القناعة ، قال : « الاياس مما في أيدي الناس ». « وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر » وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، من القناعة بالجانب الأوفر ، وانه كان يشتهي الشيء فيدافعه سنة . قال الكندي :

العبد حر ما قنع   والحر عبد ما طمع

وقال بشر بن الحرث : خرج فتى في طلب الرزق فبينما هو يمشي فأعيا ، فأوى إلى خراب يسريح فيه ، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط فتأملها فإذا هي :

إني رأيتك قاعداً مستقبلي   فعلمت أنك للهموم قرين
هون عليك وكن بربك واثقاً   فأخو التوكل شأنه التهوين
طرح الأذى عن نفسه في رزقه   لما تيقن أنه مضمون

قال : فرجع الفتى إلى بيته ولزم التوكل . وقال : اللهم أدبنا أنت . قال الجاحظ إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم في مصالحهم ، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك ، والسياسة ، والتجارة ، والفلاحة ،

(١) سورة النحل الآية ٩٧.

وفي ذلك بطلان المصالح ، وذهاب المعايش . فكل صنف من الناس مزين لهم ما هم فيه ، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيراً أو خلفاً ، قال : ويلك يا حجام ، والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال • ويلك يا حائك ، فجعل الله تعالى الاختلاف سبيلاً للائتلاف ، فسبحانه من مدبر قادر حكيم ألا ترى إلى البدوي في بيت من قطعة خيش معمد بعظام الجيف ، كلبه معه في بيته ، لباسه شملة من وبر أو شعر ، ودواؤه بعر الابل ، وطيبه القطران وبعر الظباء ، وحلي زوجته الودع ، وثماره المقل ، وصيد اليربوع[1] وهو في مفازة لا يسمع فيها إلا صوت بومة وعواء ذئب ، وهو قانع بذلك ، مفتخر به ، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه : يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة فإنها مال لا ينفد ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر ، وعليك باليأس ، فإنك لم تيأس من شيء إلا أغناك الله عنه . وأصاب داود الطائي فاقة كبيرة، فجاءه حماد بن أبي حنيفة رضي الله عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه ، وقال : هي من مال رجل ما أقدّم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه . فقال : لو كنت أقبل من أحد شيئاً لقبلتها تعظيماً للميت ، وإكراماً للحي ، ولكني أحب أن أعيش في عز القناعة . وقال عيسى عليه الصلاة والسلام :اتخذوا البيوت منازل ، والمساجد مساكن ، وكلوا من بقل البرية ، واشربوا من الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا بسلام وأنشد المبرد :

إن ضن زيد بما في بطن راحته   فالأرض واسعة والرزق مبسوط
ان الذي قدر الاشياء بحكمته   لم ينسن قاعداً والرحل محطوط

قال عبد الواحد بن زيد : ما أحسب أن شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا ، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا ، وهورأس المحبة. قيل له متى يكون العبد راضياً عن ربه . قال :إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة. وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدي ، فسكر يوماً ففاتته الصلاة ، فجاءته جارية له بجمرة فوضعتها على رجله فانتبه مذعوراً . فقالت له : إذا لم تصبر على نار الدنيا ، فكيف تصبر على نار الآخرة ، فقام فصلى الصلوات وتصدق بما يملكه . وذهب يبيع البقل فدخل عليه فضيل وابن عيينة فإذا تحت رأسه لبنة وما تحت جنبه شيء ، فقالا له انه لم يدع أحد شيئاً لله إلا عوضه الله منه بديلاً فما عوضك عما تركت له ، قال الرضا : بما أنا فيه . وقال الثوري ما وضع أحد يده في قصعة غيره إلا ذُلّ له . وقال الفضيل من رضي بما قسم الله له بارك الله له فيه . وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول : الشمس في الشتاء جلالي ، ونور القمر سراجي ، وبقل البرية فاكهتي ، وشعر الغنم لباسي ، أبيت حيث يدركني الليل ، ليس لي ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، أنا الذي كببت الدنيا على وجهها :

ان القناعة من يحلل بساحتها   لم يلق في ظلها هما يؤرقه

(وقال) عيسى عليه الصلاة والسلام : انظروا إلى الطير تغدو وتروح ، ليس معها شيء من أرزاقها لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها . فإن زعمتم أنكم أكبر بطوناً من الطير ، فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها . اوقيل وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا إليه خلته فقال له ألست القائل :

لقد علمت وما الاسراف من خلقي   إن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيعييني تطلبه   ولو قعدت أتاني ليس يعييني

---

(١) اليربوع : نوع من القواضم يشبه الفأر قصير اليدين ، طويل الرجلين ، له ذنب طويل .

وقد جئت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق . فقال يا أمير المؤمنين لقد وعظت فابلغت . وخرج فركب ناقته وكرّ إلى الحجاز راجعاً . فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال في نفسه : رجل من قريش قال حكمة ووفد عليّ فجبهته ورددته خائباً ، فلما أصبح وجّه إليه بألفي دينار ، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة وأعطاه المال . فقال أبلغ أمير المؤمنين مني السلام ، وقل له كيف رأيت قولي : سعيت فأكديت فرجعت . فأتاني رزقي في منزلي . ولما ولي عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له : أنصاري ، وسقفي . فلما سارا تخلف الأنصاري وقال : الذي أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطيني ، فوقد الثقفي وقال أحوز الحظين فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له : ما فعل زميلك الأنصاري قال : رجع إلى أهله فأمر الثقفي بأربعة آلاف دينار وبعث إلى الأنصاري ، بثمانية آلاف دينار فخرج الثقفي وهو يقول :

فوالله ما حرص الحريص بنافع ... فيغني ولا زهد القنوع بضائر
خرجنا جميعاً من مساقط روسنا ... على ثقة منا بجود ابن عامر
فلما أنخنا الناجعات ببابه ... تخلف عني اليثربي ابن جابر
وقال ستكفيني عطية قادر ... على ما يشاء اليوم للخلق قاهر
فإن الذي أعطى العراق ابن عامر ... لربي الذي أرجو لسد مفاقري
فقلت خلا لي وجهه ولعله ... سيجعل لي حظ الفتى المتزاور
فلما رآني سأل عنه صبابة ... إليه كما حنت ظؤار الأباعر(١)
فأبت وقد أيقنت أن ليس نافعاً ... ولا ضائراً شيء خلاف المقادر

قيل : أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه . أتدري لما رزقت الأحمق قال : لا يا رب قال ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال . ولبعض العرب :

ولا تجزع إذا أعسرت يوماً ... فقد أيسرت في الزمن الطويل
ولا تظنن بربك ظن سوء ... فإن الله أولى بالجميل
وإن العسر يتبعه يسار ... وقول الله أصدق كل قيل
فلو أن العقول تسوق رزقاً ... لكان المال عندي ذوي العقول

وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام : أنظر إلى الأرض . فنظر إليها فانفجرت فرأى دودة على صخرة ومعها الطعام . فقال له أتراني لم أغفل عنها ، وأغفل عنك وأنت نبيّ ، وابن نبيّ . ودخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه المسجد وقال لرجل كان واقفاً على باب المسجد أمسك عليّ بغلتي . فأخذ الرجل لجامها ومضى ، وترك البغلة ، فخرج علي وفي يده درهمان ليكافىء بهما الرجل على إمساكه بغلته فوجد البغلة واقفة بغير لجام ، فركبها ومضى ودفع لغلامه درهمين يشتري بهما لجاماً ، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين ، فقال علي رضي الله عنه إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ، ولا يزداد على ما قدّر له .

---

(١) الظِّئْرُ : العاطفة على ولد غير المرضعة له . وظأرت : اتخذت ولداً ترضعه . أي عطفت عليه .

وقيل لراهب من أين نأكل فأشار إلى فيه ، وقال الذي خلق هذه الرحى يأتيها بالطحين . وقال سليم ابن المهاجر الجيلي :

كسوت جميل الصبر وجهي فصانه به الله عن غشيان كل بخيل
فما عشت لم آت البخيل ولم أقم على بابه يوماً مقام ذليل
وإن قليلاً يستر الوجه أن يرى إلى الناس مبذولاً لغير قليل

وصلّ معروف الكرخي خلف إمام ، فلما فرغ من صلاته قال الامام لمعروف : من أين تأكل . قال اصبر حتى أعيد صلاتي التي صليتها خلفك . قال ولِمَ قال : لأن من شك في رزقه ، شك في خالقه . وقال أبو حازم : ما لم يكتب لي ، لو ركبت الريح ما أدركته . وقال عمر بن أبي عمر اليوناني :

غلا السعر في بغداد من بعد رخصه واني في الحالين بالله واثق
فلست أخاف الضيق والله واسع غناه ، ولا الحرمان والله رازق

وقال القهستاني :

غنى بلا دنيا عن الخلق كلهم وان الغني الأعلى عن الشيء لا به

وقال منصور الفقيه :

الموت أسهل عندي بين القنا والأسنة
والخيل تجري سراعاً مقطعات الأعنة
من أن يكون لنذل عليّ فضل ومنّة

وأنشد أعرابي :

أيا مالك لا تسأل الناس والتمس بكفيك فضل الله ، فالله أوسع
ولو تسأل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

وقا رجل لرسول الله ﷺ أوصني ، قال : «عليك باليأس مما في أيدي الناس ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر . وقيل إذا وجدت الشيء في السوق فلا تطلبه من صديقك . وقيل لأعرابية من أين معاشكم ؟ قالت : لو لم نعش إلّا من حيث نعلم ، لم نعش . وقال أعرابي أحسن الأحوال حال يغبطك بها مَنْ دونك ، ولا يحقرك معها مَنْ فوقك . وقال المعري :

إذا كنت تبغي العيش فابغ توسطا فعند التناهي يقصر المتطاول
توقى البدور النقص وهي أهلة ويدركها النقصان وهي كوامل

وقال آخر :

اقنع بأيسر رزق أنت نائله واحذر ولا تتعرض للارادات
فما صفا البحر إلا وهو منتقص ولا تعكر إلا في الزيادات

وقال أعرابي : استظهر على الدهر بخفة الظهر . قال هشام بن إبراهيم البصري :

ولي في غنى نفسي مـراد ومـذهب　　إذا انصـرفت عني وجـوه المـذاهب

وقيل : ينبغي أن يكون المرء في دنياه كالمدعو إلى الوليمة إن أتته صحفة تناولها ، وإن لم تأته لم يرصدها ، ولم يطلبها . وقال شقيق بن إبراهيم البلخي . قال لي ابراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى : أخبرني عما أنت عليه . قلت : إن رزقت أكلت ، وإن منعت صبرت ، قال : هكذا تعمل كلاب بلخ . فقلت : كيف تعمل أنت . قال : إن رزقت آثرت ، وإن منعت شكرت . وقال بعضهم :

هي القناعة فالـزمها تعش ملكاً　　لـو لم يكن منها إلا راحـة البـدن
وانـظر لمن ملك الـدنيـا بـأجمعهـا　　هـل راح منها بغـير القطن والكفن

وقال آخر :

وإن الـقـنـاعـة كـنـز الـغـنى　　فـصـرت بـأذيـالهـا ممـتـسـك
فـلا ذا يـراني عـلى بـابـه　　ولا ذا يـراني لـه مـنـهـمـك
فـصـرت غـنـيـاً بـلا درهـم　　أمـرّ عـلى الـنـاس شبـه الملك

جاء فتح الموصلي إلى أهله بعد العتمة ، فلم يجد عندهم شيئاً للعشاء ، ووجدهم بغير سراج فجلس ليلته يبكي من الفرح ويقول : بأي يد كانت مني ، تركت مثلي على هذه الحالة . والله تعالى أعلم .



في ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله تعالى : ﴿ **ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر** ﴾[1] وروي أن النبي ﷺ قرأ الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر . قال : يقول ابن آدم مالي ، مالي ، وهل لك من مالك ! إلا ما أكلت فأفنيت . ولبست فأبليت . وتصدقت فأمضيت . وروى عروة ابن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « يا عائشة إن أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلفي ثوباً حتى ترقعيه » . وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « صلاح أوّل هذه الأمة بالزهد واليقين ، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخيل ، والأمل » . وقيل الحرص من ينقص قدر الإنسان ، ولا يزيد في رزقه . وقيل لحكيم ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب . قال : لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب . وما أحسن ما قال بعضهم

(١) سورة التكاثر الآيات (١ ـ ٢).

إذا طاوعت حرصك كنت عبداً   لكل دنيئة تدعى إليها

وقال آخر وأجاد :

قد شاب رأسي ورأس الدهر لم يشب   إن الحريص على الدنيا لفي تعب

وقيل للاسكندر : ما سرّ الدنيا ، قال الرضا بما رزقت منها . قيل : فما غمّها . قال : الحرص عليها . وقال الحسن : لو رأيت الأجل ومروره ، لنسيت الأمل وغروره . وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر ، ان أسامة لطويل الأمل » وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان نبي الله ﷺ يخرج فيبول ، ثم يمسح بالتراب . فأقول إن الماء منك قريب . فيقول ما يدريني لعلي ما أبلغه . وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه « لا يزال الكبير شاباً في اثنين حب المال وطول الأمل » . وقيل لمحمد بن واسع . كيف تجدك ؟ قال : قصير الاجل، طويل الأمل ، مسيء العمل ، وقيل : من جرى في عنان أمله كان عاثراً بأجله ، لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال . ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان في قوله :

وذي حرص تراه يلم وفراً   لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاو   فريسته ليأكلها سواه

ولقد أحسن من قال في الجناس الحقيقي :

إذا ما نازعتك النفس حرصاً   فأمسكها عن الشهوات أمسك
ولا تحرص ليوم أنت فيه   وعدّ فرزق يومك رزق أمسك(٢)

ومن كلام الحكماء : إياكم وطول الأمل ، فإن من ألهاه أمله أخزاه عمله ، قال عبد الصمد بن المعذل :

ولي أمل قطعت به الليالي   أراني قد فنيت به وداما

قال الحسن : إياكم وهذه الأماني فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيراً قط في الدنيا ، ولا في الآخرة . (قال قس بن ساعدة :)

وما قد تولى فهو لا شك فائت   فهل ينفعني ليتني ولعلني

وقال آخر :

ولا تتعلل بالأماني فإنها   عطايا أحاديث النفوس الكواذب

وقال آخر وأجاد :

الله أصدق ، والآمال كاذبة   وجل هذي المنى في الصدر وسواس

وقال آخر :

شط المزار بسعدى وانتهى الأمل   فلا خيال ، ولا رسم، ولا طلل
إلّا رجاء فما ندري أندركه   أم يستمر فيأتي دونه الأجل

وقال أبو العتاهية :

لقد لعبت وجدّ الموت في طلبي — وان في الموت لي شغلاً عن اللعب
لو شمرت فكرتي فيما خلقت له — ما اشتد حرصي على الدنيا ولا طلبي

وله ايضاً :

تعالى الله يا سلم بن عمرو — أذلّ الحرصُ أعناق الرجال
هب الدنيا تقاد إليك عفواً — أليس مصير ذلك للزوال

وقد ضمنت البيت الأخير فقلت :

أيا من عاش في الدنيا طويلاً — وأفنى العمر في قيل وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى — وجمع من حرام أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفواً — أليس مصير ذلك للزوال

(ومما جاء في الطمع وذمه) قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع . وقال رضي الله عنه : ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع . وفي الحديث : « إياك والطمع ، فإنه الفقر الحاضر . وقال فيلسوف : العبيد ثلاثة : عبد رق ، وعبد شهوة ، وعبد طمع * وقال بعضهم : من أراد أن يعيش حراً أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع * وقيل اجتمع كعب وعبد الله بن سلام فقال له كعب : يا ابن سلام مَنْ أرباب العلم ؟ قال الذين يعملون به . قال : فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه قال الطمع ، وشره النفس ، وطلب الحوايج إلى الناس . واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعي،فتواصوا ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال : الحلم عند الغضب ، والصبر عند الطمع . وقيل لما خلق الله آدم عليه السلام . عجن بطينته ثلاثة أشياء ، الحرص ، والطمع ، والحسد . فهي تجري في أولاده إلى يوم القيامة فالعاقل يخفيها ، والجاهل يبديها . ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه قال اسماعيل بن قطري القراطيسي :

حسبي بعلمي إن نفع — ما الذلُّ إلا في الطمع
من راقب الله نزع — عن سوء ما كان صنع
ما طار طير وارتفع — إلا كما طار وقع

وقال سابق البربري :

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى — سفاها وريب الدهر عنها يخادعه
ويطمع في سوف ويهلك دونها — وكم من حريص أهلكته مطامعه

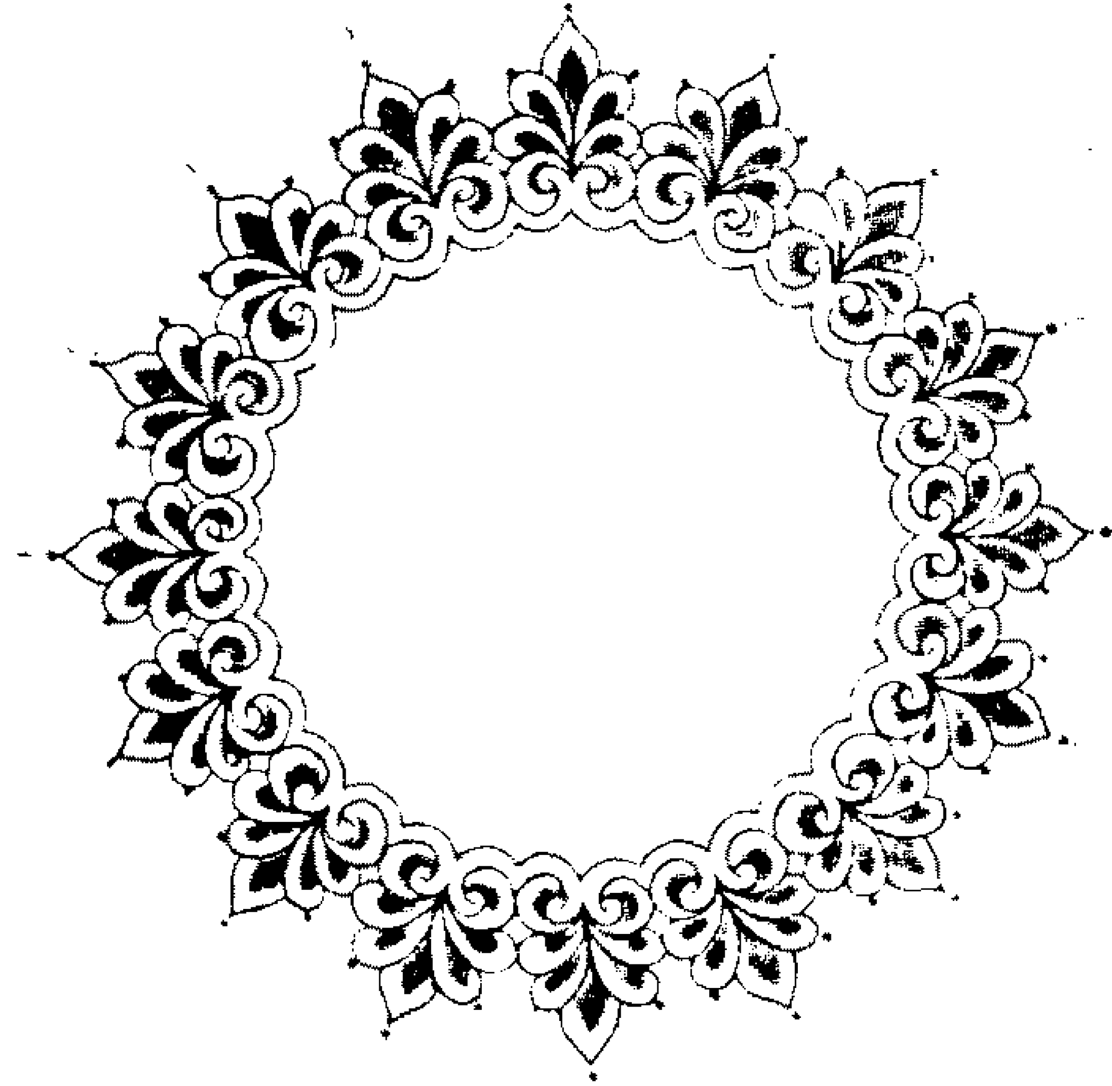
وقيل لأشعب[1] : ما بلغ من طمعك : قال : أرى دخان جاري ، فأفت خبزي . وقال أيضاً : ما رأيت

(١) هو أشعب بن جبير ، المعروف بالطامع ، ويقال له ابن أم حميدة ، ويكنى أبا العلاء وأبا القاسم . من أهل المدينة ، كان مولى لعبد الله بن الزبير ، تأدب وروى الحديث ، وكان يجيد الغناء ، يضرب المثل بطمعه ، وأخباره كثيرة ومتفرقة في كتب الادب . عاش عمراً طويلاً . أدرك عثمان بن عفان رضي الله عنه وسكن المدينة في أيامه ، وقدم بغداد في

رجلين يتسارّان في جنازة إلا قدرت أن الميت أوصى لي بشيء من ماله . وما زفت عروس إلا كنست بيتي رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إليّ . قال بعضهم :

لا تـغـضـبـن عـلى امـرىء لـك مـانـع مـا في يـديـه
واغضب عـلى الطمـع الـذي استـد عـــاك تـطلب مـا لـديـه

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .



= أيام المنصور العباسي . توفي بالمدينة سنة (١٥٤ هـ ـ ٧٧١ م) .
أنظر : تهذيب ابن عساكر (٣ : ٧٥) . فوات الوفيات (١ : ٢٢) .

الباب الحادي عشر

في المشورة والنَّصيحة والتجارب والنظر في العواقب

قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾[1] واختلف أهل التأويل في أمره بالمشاورة مع ما أمده الله تعالى من التوفيق على ثلاثة أوجه ، أحدها : إنه أمره بها في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح فيعمل عليه . وهذا قول الحسن . ثانيها : أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل . وهذا قول الضحاك : ثالثها : أنه أمره بمشاورتهم ليستن[2] به المسلمون وإن كان في غنية عن مشورتهم . وهذا قول سفيان . وقال ابن عيينة : كان رسول الله ﷺ إذا أراد شاور فيه الرجال ، وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوقين والخالق مدبر أمره ، ولكنه تعليم منه ، ليشاور الرجل الناس ، وان كان عالماً . وقال ﷺ « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار ، ولا افتقر من اقتصد » وقال ﷺ : « من أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل » . وكان يقال ما استنبط الصواب بمثل المشاورة . وقال حكيم : المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأي . وقال الحسن الناس ثلاثة : فرجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل . فأما الرجل الرجل فذو الرأي والمشورة . وأما الرجل الذي هو نصف رجل فالذي له رأي ، ولا يشاور . وأماالرجل الذي ليس برجل فالذي ليس له رأي ولا يشاور . وقال المنصور لولده : خذْ عني اثنتين : لا تقل في غير تفكير ، ولا تعمل بغير تدبير . وقال الفضل : المشورة فيها بركة واني لأستشير حتى هذه الحبشية الأعجمية . وقال اعرابي : لا مال أوفر من العقل ، ولا فقر أعظم من الجهل ، ولا ظهر أقوى من المشورة . وقيل من بدأ بالاستخارة وثنى بالاستشارة فحقيق أن لا يخيب رأيه . وقيل الرأي السديد احمى من البطل الشديد . قال ابو القاسم النهروندي :

وما ألف مطرور السنان مسدد ... يعارض يوم الروع رأياً مسددا

وقال عليّ رضي الله عنه : خاطر من استغنى برأيه . وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن يترددا

فأضاف إليه قوله :

وإن كنت ذا عزم فأنفذه عاجلاً ... فإن فساد العزم أن يتقيدا

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

(٢) ليستن : أي ليتبعه المسلمون في سيرته .

ولمحمد بن ادريس الطائي :

ذهب الصواب برأيه فكأنما آراؤه اشتقت من التأييد
فإذا دجا خطب تبلج رأيه صبحا من التوفيق والتسديد

ولمحمد الوراق :

ان اللبيب إذا تفرق أمره فتَقَ الأمور مناظرا ومشاورا
وأخو الجهالة يستبد برأيه فتراه يعتسف الأمور مخاطرا

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الأمين على المأمون في العهد :

لقد بان وجه الرأي لي غير أنني عدلت عن الأمر الذي كان أحزما
فكيف يُردُّ الدّار في الضرع بعدما توزع حتى صار نهباً مقسماً
أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذي كان ابرما

وقال آخر :

خليلي ليس الرأي في جنب واحد أشيرا عليّ اليوم ما تريان

ووصف رجل عضد الدولة فقال له : وجه فيه ألف عين وفم ، فيه ألف لسان ، وصدر فيه ألف قلب . وقال اردشير بن بابك : أربعة تحتاج إلى أربعة ، الحسب إلى الأدب ، والسرور إلى الامن ، والقرابة الى المودة ، والعقل الى التجربة . وقال لا تستحقر الرأي الجزيل من الرجل الحقير ، فإن الدرّة لا يستهان بها لهوان غائصها . وقال جعفر بن محمد : لا تكونن أول مشير ، وإياك والرأي الخطير ، وتجنب ارتجال الكلام ، ولا تشيرن على مستبد برأيه ، ولا على متلون ، ولا على لجوج . وقيل ينبغي أن يكون المستشار صحيح العلم ، مهذب الرأي ، فليس كل عالم يعرف الرأي الصائب ، وكم ناقد في شيء ضعيف في غيره . قال أبو الأسود الدؤلي :

وما كل ذي نصح بمؤتيك نصحه وما كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب

وكان اليونان ، والفرس لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه ، وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به لمعان شتى ، منها لئلا يقع بين المستشارين منافسة ، فتذهب إصابة الرأي ، لأن من طباع المشتركين في الأمر التنافس والطعن من بعضهم في بعض ، وربما سبق أحدهم بالرأي الصواب فحسدوه وعارضوه . وفي اجتماعهم أيضاً للمشورة تعريض السر للاذاعة ، فإذا كان كذلك وأذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه للأبهام ، فإن عاقب الكل عاقبهم بذنب واحد ، وان عفا عنهم ألحق الجاني بمن لا ذنب له . وقيل إذا أشار عليك صاحبك برأي ولم تحمد عاقبته ، فلا تجعلن ذلك عليه لوماً وعتاباً بأن تقول أنت فعلت ، وأنت أمرتني ، ولولا أنت . فهذا كله ضجر ولوم وخفة . وقال أفلاطون : إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة ، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى موالاتك . وقيل من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره ، فهو كمن بذر في السباخ . قال الشاعر يمدح من له رأي وبصيرة :

بصير بأعقاب الأمور كأنما يخاطبه من كل أمر عواقبه

وقال ابن المعتز : المشورة راحة لك ، وتعب على غيرك . وقال الأحنف : لا تشاور الجائع حتى يشبع ، ولا العطشان حتى يروي ، ولا الأسير حتى يطلق ، ولا المقل حتى يجد *

ولما أراد نوح بن مريم قاضي مرو أن يزوج ابنته استشار جاراً له مجوسياً . فقال سبحان الله الناس يستفتونك ، وأنت تستفتيني . قال لا بد أن تشير عليّ ، قال : إن رئيس الفرس كسرى كان يختار المال ، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال ، ورئيس العرب كان يختار الحسب ، ورئيسك محمد كان يختار الدين ، فانظر لنفسك بمن تقتدي ، وكان يقال من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً . من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب . وقال إذا استخار الرجل ربه ، واستشار صحبه ، وأجهد رأيه فقد قضى ما عليه ، ويقضي الله تعالى في أمره ما يحب . وقال بعضهم : خمير الرأي خير من فطيره ، وتقديمه خير من تأخيره . وقالت الحكماء : لا تشاور معلماً ، ولا راعي غنم ، ولا كثير القعود مع النساء ، ولا صاحب حاجة يريد قضاءها ، ولا خائفاً ولا حاقناً . وقيل سبعة لا ينبغي لصاحب لب أن يشاورهم : جاهل ، وعدو ، وحسود ، ومراء ، وجبان ، وبخيل ، وذو هوى . فإن الجاهل يضل ، والعدو يريد الهلاك ، والحسود يتمنى زوال النعمة ، والمرائي واقف مع رضا الناس ، والجبان من رأيه الهرب . والبخيل حريص على جمع المال ، فلا رأي له في غيره ، وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته .

وحكي أن رجلاً من أهل يثرب يعرف بالأسلمي قال : ركبني دين أثقل كاهلي ، وطالبني به مستحقوه ، واشتدت حاجتي إلى ما لا بد منه ، وضاقت عليّ الأرض ولم أهتد إلى ما أصنع ، فشاورت من أثق به ذوي المودة والرأي فأشار عليّ بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق . فقلت له : تمنعني المشقة وبعد الشقة ، وتيه المهلب . ثم اني عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره فلا والله ما زادني على ما ذكره الصديق الأول ، فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها . فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق وقصدت العراق ، فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه وقلت له : أصلح الله الأمير إني قطعت إليك الدهناء[1] ، وضربت أكباد الابل من يثرب فإنه أشار عليّ بعض ذوي الحجى[2] والرأي بقصدك لقضاء حاجتي فقال : هل أتيتنا بوسيلة ، أو بقرابة وعشيرة . فقلت : لا ولكني رأيتك أهلاً لقضاء حاجتي فإن قمت بها فأهل لذلك أنت ، وإن يحل دونها حائل ، لم أذم يومك ، ولم أيأس من غدك . فقال المهلب لحاجبه اذهب به وادفع إليه ما في خزانة مالنا الساعة ، فأخذني معه فوجدت في خزانته ثمانين ألف درهم فدفعها إليّ فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحاً وسروراً ، ثم عاد الحاجب بي إليه مسرعاً فقال : هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك فقلت نعم أيها الأمير وزيادة . فقال الحمد لله على نجح سعيك واجتنابك جني مشورتك ، وتحقق ظن من أشار عليك بقصدنا . قال الأسلمي : فلما سمعت كلامه ، وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه :

يا من على الجود صاغ الله راحته	فليس يحسن غير البذل والجود
عمت عطاياك أهل الأرض قاطبة	فأنت والجود منحوتان من عود
من استشار فباب النجح منفتح	لديه فيما ابتغاه غير مردود

---

(١) الدهناء : الصحراء .

(٢) أصحاب القول الراجحة والآراء السديدة .

ثم عدت إلى المدينة فقضيت ديني ، ووسعت على أهلي ، وجازيت المشير عليّ ، وعاهدت الله تعالى ألا أترك الاستشارة في جميع أموري ما عشت .

وحكي عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة ، ولا تتجاوز عنها سياسة الملك فحبسه عنده . ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن علي ، وكان والياً على الكوفة ما أفسد عقيدته فيه ، وأوحشه منه . وصرف وجه ميله إليه عنه . فتألم المنصور من ذلك ، وساء ظنه ، وتأرق جفنه ، وقل أمنه ، وتزايد خوفه وحزنه ، فأدّته فكرته إلى أمر دبّره وكتمه عن جميع حاشيته وستره . واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى وأجراه على عادة إكرامه ، ثم أخرج من كان بحضرته ، وأقبل على عيسى وقال : يا ابن العم اني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ، ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله ، فهل أنت في موضع ظني بك ، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي . فقال له عيسى بن موسى أنا عبد أمير المؤمنين ، ونفسي طوع أمره ونهيه ، فقال : إن عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته ، واعتمد على ما بعضه يبيح دمه ، وفي قتله صلاح ملكنا ، فخذه إليك واقتله سراً ، ثم سلّمه إليه . وعزم المنصور على الحج مضمراً أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص ، وسلمه إلى أعمامه ، أخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصاً ، فيكون قد استراح من الاثنين ، عبد الله وعيسى . قال عيسى فلما أخذت عمي وفكرت في قتله رأيت من الرأي أن أشاور في قضيته من له رأي عسى أن أصيب الصواب في ذلك ، فأحضرت يونس بن قرة الكاتب ، وكان لي حسن ظن في رأيه ، وعقيدة صالحة في معرفته ، فقلت له : إن أمير المؤمنين دفع إليّ عمه عبد الله وأمرني بقتله ، وإخفاء أمره ، فما رأيك في ذلك وما تشير به . فقال لي يونس أيها الأمير احفظ نفسك ، بحفظ عمك ، وعم أمير المؤمنين ، فإني أرى لك أن تدخله في مكان داخل دارك ، وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك ، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه ، وتجعل دونه مغالق وأبواباً ، وأظهر لأمير المؤمنين أنك قتلته ، وأنفذت أمره فيه ، وانتهيت إلى العمل بطاعته ، فكأني به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به ، وقتلت عمه أمرك باحضاره على رؤوس الاشهاد ، فإن اعترفت أنك قتلته بأمره ، أنكر أمره لك ، وآخذك بقتله ، وقتلك . قال عيسى بن موسى : فقبلت مشورة يونس وعملت بها وأظهرت لأمير المؤمنين اني أنفذت أمره ، ثم حج المنصور ، فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه أنني قد قتلت عمّه عبد الله ، دس إلى عمومته أخوة عبد الله وحثهم على أن يسألوه في أخيهم ، ويستوهبوه منه فجاؤوا إليه وقد جلس ، والناس بين يديه على مراتبهم . فسألوه في عبد الله . فقال نعم إن حقوقكم تقتضي إسعافكم بحاجتكم ، كيف وفيها صلة رحم ،وإحسان إلى من هو في مقام الوالد ، ثم أمر باحضار عيسى بن موسى فأحضر لوقته فقال يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجي إلى الحج عمي عبد الله ليكون عندك في منزلك إلى حين رجوعي . فقال عيسى قد فعلت يا أمير المؤمنين ، فقال المنصور : قد سألني فيه عمومتك ، وقد رأيت الصفح عنه ، وقضاء حاجتهم ، وصلة الرحم بإجابة سؤالهم فيه ، فائتنا به الساعة . قال عيسى : فقلت يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله والمبادرة إلى ذلك ؟ قال كذبت لم آمرك بذلك ولو أردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك . ثم أظهر الغيظ وقال لعمومته قد أقر بقتل أخيكم ، مدعياً أنني أمرته بقتله ، وقد كذب عليّ . قالوا يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به ، ونقتص منه . فقال شأنكم به . قال عيسى : فأخذوني إلى الرحبة واجتمع الناس عليّ ، فقام واحد من عمومتي إليّ وسل سيفه ليضربني به فقلت له : يا عم أفاعل أنت ؟ قال إي والله كيف لا أقتلك وقد قتلت أخي . فقال لهم : لا تعجلوا وردوني إلى أمير المؤمنين فردوني إليه فقلت يا أمير

المؤمنين إنما أردت قتلي بقتله ، والذي دبرته عليّ ، عصمني الله تعالى من فعله ، وهذا عمك باق حي ، فإن أمرتني بدفعه إليهم دفعته الساعة . فأطرق المنصور وعلم أن ريح فكره صادفت إعصاراً ، وأن انفراده بتدبيره قارف خسارا ، ثم رفع رأسه وقال ائتنا به . فمضى عيسى وأحضر عبد الله فلما رآه المنصور قال لعمومته أتركوه عندي ، وانصرفوا حتى أرى فيه رأياً . قال عيسى : فتركته وانصرفت وانصرف اخوته فسلمت روحي ، وزالت كربتي ، وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته ، والعمل بها . ثم ان المنصور أسكن عبد الله في بيت أساسه قد بني على الملح ، ثم أرسل الماء حوله ليلاً فذاب الملح وسقط البيت فمات عبد الله ودفن بمقابر باب الشام ، وسلم عيسى من هذه المكيدة ، ومن سهام مراميها البعيدة .

ومما جاء في النصحية : اعلموا أن النصيحة للمسلمين ، وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين . قال الله تعالى إخباراً عن نوح عليه الصلاة والسلام . ﴿ **ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون** ﴾[1] وقال شعيب عليه السلام : ﴿ **ونصحت لكم فكيف آسي على قوم كافرين**﴾[2] . وقال صالح عليه السلام : ﴿ **ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾[3] وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الدين النصحية ، إن الدين النصيحة ، إن الدين النصحية » . قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله . ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، ولعامتهم . فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتنزيهه عمّا ليس له بأهل والقيام بتعظيمه ، والخضوع له ظاهراً ، وباطناً ، والرغبة في محابه ، والبعد عن مساخطه ، وموالاة من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، والجهاد في رد العصاة إلى طاعته ، قولاً وفعلاً . والنصيحة لكتابه إقامته في التلاوة ،وتحسينه عند القراءة ، وتفهم ما فيه ، والذي عنه من تأويل المحدثين ، وطعن الطاعنين وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين . قال الله تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب**﴾.[4] والنصيحة للرسول عليه السلام إحياء سنته بالطلب لها ، وإحياء طريقته في بث الدعوة ، وتأليف الكلمة ، والتخلق بالأخلاق الطاهرة . والنصيحة للأئمة معاونتهم على ما كلفوا القيام به بتنبيههم عند الغفلة ، وإرشادهم عند الهفوة ، وتعلميهم ما جهلوا ، وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء ، وإعلامهم بأخلاق عمالهم ، وسيرتهم في الرعية ، وسد خلتهم عند الحاجة ، ورد القلوب النافرة إليهم . والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم ، وتوقير كبيرهم ، والرحمة لصغيرهم ، وتفريج كربهم ، وتوقي ما يشغل خواطرهم ، ويفتح باب الوسواس عليهم .

وأعلم أن جرعة النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولو العزم . وقال ميمون بن مهران : قال لي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : قل لي في وجهي ما أكره ، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره . وفي منثور الحكم . ودّك من نصحك ، وقلاك من مشي في هواك . وقال أبو الدرداء[5] رضي الله عنه : إن شئتم

---

(١) سورة هود الآية ٣٤ .
(٢) سورة الاعراف الآية ٩٣.
(٣) سورة الاعراف الآية ٧٩ .
(٤) سورة ص الآية ٢٩ .
(٥) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الانصاري الخزرجي ـ أبو الدرداء ـ صحابي ، من الحكماء الفرسان القضاة كان قبل البعثة تاجراً في المدينة ، ثم انقطع للعبادة . ولما ظهر الاسلام اشتهر بالشجاعة والنسك . وفي الحديث : « عويمر =

لأنصحن لكم ، ان أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله تعالى إلى عباده ، ويعملون في الأرض نصحاً . ولورقة بن نوفل[(١)] :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم إني النذير فلا يغرركم أحد
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته إلا الإله ويردى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً ذخائره والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد : إني قد أعددتك لأمر . قال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قد أعد لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك ، ويداً مبسوطة لطاعتك ، وسيفاً مجرداً على عدوك . وأنشد الأصمعي :

النصيح أرخص ما باح الرجال فلا تردد على ناصح نصحاً ولا تلم
ان النصائح لا تخفي مناهلها على الرجال ذوي الألباب والفهم

ولمعاذ بن مسلم :

نصحتُك والنصيحة أن تعدت هوى المنصوح عزلها القبول
فخالفت الذي لك فيه حظ فنالك دون ما أملت غول

وقيل أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب[(٢)] أن لا يضع يده في يد الحجاج ، فلم يقبل منه وسار إليه فحبسه وحبس أهله فقال فيروز :

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني فأصبحت مسلوب الامارة نادما
أمرتك بالحجاج إذ أنت قادر فنفسك أولى اللوم إن كنت لائماً
فما أنا بالباكي عليك صبابة وما أنا بالداعي لترجع سالما

= حكيم امتي » و« نعم الفارس عويمر » . ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر من عمر بن الخطاب .
قال ابن الجزري : (كان من العلماء الحكماء) وهو أحد الذين جمعوا القرآن ، حفظاً ، على عهد النبي ﷺ بلا خلاف مات بالشام سنة (٣٢هـ - ٦٥٢ م) . وروى عنه أهل الحديث ١٧٩ حديثاً .
انظر : حلية الاولياء (١ : ٢٠٨) . وغاية النهاية (١ : ٦٠٦) .

(١) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى من قريش ، حكيم جاهلي ، اعتزل الاوثان ، وامتنع عن اكل ذبائحها ، وتنصر ، وقرأ كتب الاديان . وكان يكتب اللغة العربية بالحرف العبراني . أدرك أوائل عصر النبوة ، ولم يدرك الدعوة .
وعن أسماء بنت أبي بكر ان النبي ﷺ سئل عن ورقة ، فقال : يُبعث يوم القيامة أمة وحده .
أنظر صحيح البخاري (١ : ٤ ، ٥) . تاريخ الاسلام (١ : ٦٨) مجمع الزوائد (٩ : ٤١٦) .

(٢) هو يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الازدي - ابو خالد - أمير ، من القادة الشجعان الاجواد ولي خراسان بعد وفاة ابيه (سنة ٨٣هـ) فمكث نحواً من ست سنين ، وعزله عبد الملك ابن مروان برأي الحجاج (أمير العراقيين في ذلك العهد) . وولي العراق مدةً ، ثم ولي البصرة . وقتل في حرب نشبت بينه وبين أمير العراقيين مسلمة بن عبد الملك سنة (١٠٢هـ - ٧٢٠ م) .
أنظر : ابن خلدون (٣ : ٦٤) . الطبري (٨ : ١٥١) .

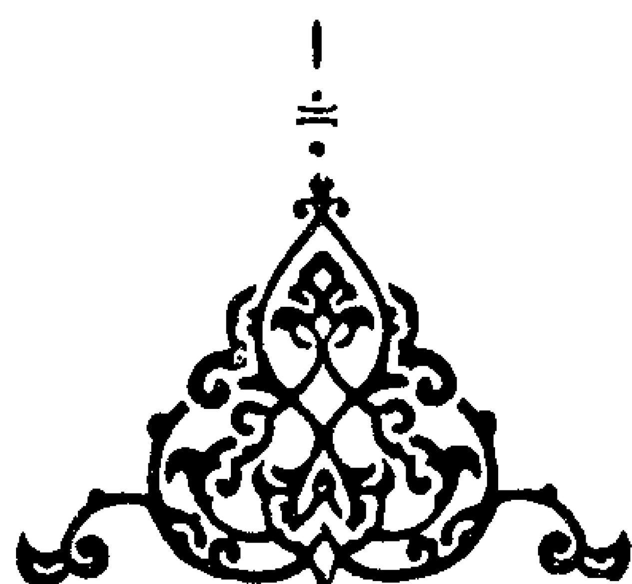
ويقال من اصفر وجهه من النصيحة اسود لونه من الفضيحة وقال طرفة[1] :

ولا تـرفـدن النصـح من ليس أهله وكن حـين تستغني بـرأيـك غـانيـا
وإن امــرأ يــومــاً تــولى بــرأيــه فدعه يصيب الرشد أو يـك غاويـا

وفي مثله قال بعضهم :

من الناس من إن يستشرك فتجتهد لـه الرأي يستغششـك ما لم تتـابعه
فــلا تمنحن الــرأي من ليس أهله فـلا أنت محمود ولا الـرأي نـافعه

والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي ـ أبو عمرو ـ شاعر جاهلي من الطبقة الاولىٰ . ولد في بادية البحرين سنة (٨٦ق . هـ ـ ٥٣٨ م) وتنقل في بقاع نجد واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه . ثم ارسله بكتاب إلى المكعبر (عامله علىٰ البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله لأبيات بلغ الملك ان طرفة هجاه بها فقتله المكعبر في « هجر » أشهر شعره معلقته ، ومطلعها :
« لخولة أطلال ببرقة تهمد » وقد شرحها كثير من الادباء . وجمع المحفوظ من شعره في « ديوان » وترجم إلى الفرنسية .
أنظر : شرح شواهد المغني (٢٧٢). الشعر والشعراء (٤٩). خزانة البغدادي (١ : ٤١٤ ـ ٤١٧).

الباب الثاني عشر

في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك

قال الله تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾[1] . وقال الله تعالى : ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[4] ﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات ﴾[5] والآيات في ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمة منشورة . وروينا في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » . وقال شيخنا محيي الدين النووي[6] رحمه الله تعالى عليه

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٢) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

(٤) سورة التوبة الآية ٧١ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١١٤ .

(٦) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي ، الحوراني ، النووي ، الشافعي . ـ أبو زكريا ـ محي الدين ، علامة بالفقه والحديث ، ولد في نوا (من قرى حوران بسورية) سنة (٦٣١هـ ـ ١٢٣٣ م) . وإليها نسبته . تعلم في دمشق وأقام فيها زمناً طويلاً . من كتبه « تهذيب الاسماء واللغات » و« منهاج الطالبين » و« الدقائق » و« المنهاج » في شرح صحيح مسلم خمس مجلدات و« حلية الابرار ـ المعروف بالاذكار » و« رياض الصالحين » و« شرح المهذب » وغيرها توفي رحمه الله سنة (٦٧٦هـ ـ ١٢٧٧ م) .

انظر : طبقات الشافعية للسبكي (٥ : ١٦٥) . النجوم الزاهرة (١ : ٢٤) .

في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**[١] ﴾ ان هذه الآية الكريمة مما يغتبر بها أكثر الجاهلين ، ويحملونها على غير وجهها ، بل الصواب في معناها أنكم إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالة من ضل . ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والآية مرتبة في المعنى على قوله تعالى : ﴿ **ما على الرسول إلا البلاغ** ﴾ [٢] . وقال محمد بن تمام : الموعظة جند من جنود الله تعالى ، ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط ان استمسك نفع وان وقع أثر . ومن كلام علي رضي الله تعالى عنه : لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة ، إلا إذا بالغت في إيلامه ، فإن العاقل يعظ بالأدب ، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب ، وأنشد الجاحظ :

وليس يزجركم ما توعظون به والبهم يزجرها الراعي فتنزجر

وكتب رجل إلى صديق له : أما بعد فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك ، واستح من الله بقدر قربه منك ، وخفه بقدرته عليك . والسلام . وقيل : من كان له من نفسه واعظ ، كان له من الله حافظ . وقال لقمان : الموعظة تشق على السفيه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير . قيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : « إنك ان أتيتني بعبد آبق كتبتك عندي حميداً ، ومن كتبته عندي حميداً لم أعذبه بعدها أبداً » . وقال الرشيد لمنصور بن عمار : عظني وأوجز ، فقال يا أمير المؤمنين : هل أحد أحب إليك من نفسك ؟ قال :

ان أردت أن لا تسيء إلى من تحب فافعل . وقال النبي ﷺ في بعض خطبه : « أيها الناس الأيام تطوى ، والأعمار تفنى ، والأبدان في الثرى تبلى ، وان الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد ، ويقربان كل بعيد ، ويخلقان كل جديد . في ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ، ورغب في الباقيات الصالحات » . ولما لقي ميمون بن مهران الحسن البصري قال له : لقد كنت أحب أن ألقاك فعظني . فقرأ الحسن البصري : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾[٣] **أفرأيت أن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون** ﴾[٤]. فقال عليك السلام أبا سعيد : لقد وعظتني أحسن موعظة . ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله علياً رضي الله عنه دخل منزله فاعترته غشية ، ثم أفاق فدعا الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما وقال : أوصيكما بتقوى الله تعالى والرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا ولا تأسفا على شيء فاتكما منها ، فإنكما عنها راحلان ، افعلا الخير وكونا للظالم خصماً ، وللمظلوم عوناً . ثم دعا محمداً ولده وقال له : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ، قال بلى قال : فإني أوصيك به

---

(١) سورة المائدة الآية ١٠٥ .

(٢) سورة المائدة الآية ٩٩.

(٣) سورة الجاثية الآية ٣.

(٤) سورة الشعراء الآيات : ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٧ .

وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ، ومعرفة فضلهما . ولا تقطع امرأً دونهما ، ثم أقبل عليهما وقال : أوصيكما به خيراً فإنه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه فأحباه ، ثم قال : يا بنيّ أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الصديق والعدو ، والعمل في النشاط والكسل ، والرضا لله في الشدة والرخاء . يا بنيّ من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ، ومن رضي بما قسم الله لم يحزن على ما فاته ومن سل سيف البغي قتل به ، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها ، ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بنيه ، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره ، ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ، ومن خالط الأنذال احتقر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومن جالس العلماء وُقر ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار . يا بنيّ ، الأدب ميزان الرجل وحسن الخلق خير قرين ، يا بنيّ العافية عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالى وواحد في ترك مجالسة السفهاء . يا بنيّ زينة الفقر الصبر ، وزينة الغنى الشكر ، يا بنيّ لا شرف أعلى من الاسلام ، ولا كرم أعز من التقوى ، ولا شفيع أنجح من التوبة ، ولا لباس أجمل من العافية . يا بني الحرص مفتاح التعب ومطية النصب .

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلى أهله يبكون حوله فقال : جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكاء ، وترك لكم جميع ما جمع ، وتركتم عليه ما حمل ، ما أعظم منقلب هشام ان لم يغفر الله له . وقال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه : يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد : ما هذه الجريدة التي بيدك اقذفها ، لا تملأ قلوبهم رعباً ، فكيف بمن سفك دماء المسلمين ، وانتهب أموالهم يا أمير المؤمنين . إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً من غير تعمد . يا أمير المؤمنين لو أن ذنباً من النار صب ووضع على الأرض لأحرقها ، فكيف بمن يتجرعه ، ولو أن ثوباً من النار وضع على الأرض لأحرقها . فكيف بمن يتقمصه ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب ، فكيف بمن يتسلسل بها ويرد فضلها على عاتقه . وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال : قلت لجعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وكان والي المدينة : احذر أن يأتي رجل غداً ليس له في الاسلام نسب ، ولا أب ولا جد ، فيكون أولى برسول الله ﷺ منك ، كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى ، وكما كانت امرأة نوح وامرأة لوط أولى بفرعون ، ومن أخطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، ومن أسرع به عمله لم يبطىء به نسبه . وروى زياد عن مالك بن انس رضي الله تعالى عنه قال : لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس ، وابن طاوس قال : دخلنا عليه وهو جالس على فرش وبين يديه أنطاع قد بسطت ، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق ، فأومأ إلينا ان اجلسا فجلسنا فأطرق زماناً طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال : حدثني عن أبيك قال : سمعت أبي يقول : قال رسول الله ﷺ « ان أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في ملكه ، فأدخل عليه الجور في حكمه » فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه . قال مالك فضممت ثيابي مخافة أن ينالها شيء من دم ابن طاوس . ثم قال يا بن طاوس : ناولني هذه الدواة فامسك عنه . فقال ما يمنعك أن تناولنيها ، قال : أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها . فلما سمع ذلك قال: قوما عني . فقال ابن طاوس ذلك ما كنا نبغي . قال مالك فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم .

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار : يا كعب خوفنا قال أو ليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ قال : بلى يا كعب ، ولكن خوفنا فقال يا أمير المؤمنين : اعمل فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبياً لازدريت عملهم مما ترى . فنكس عمر رضي الله عنه رأسه وأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال يا كعب خوفنا . فقال يا أمير المؤمنين ، لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها . فنكس عمر ثم أفاق فقال يا كعب زدنا . فقال يا أمير المؤمنين : ان جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب ، ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه ، يقول يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي . وقال سيدي الشيخ أبو بكر الطرطوشي[1] رحمة الله تعالى عليه ، دخلت على الأفضل بن أمير الجيوش ، وهو أمير على مصر فقلت السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً ، وأكرمني اكراماً جزيلاً ، أمرني بدخول مجلسه وأمرني بالجلوس فيه . فقلت أيها الملك ان الله تعالى قد أحلك محلاً علياً شامخاً ، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً ، وملكك طائفة من ملكه ، وأشركك في حكمه ، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك . فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك ، وليس الشكر باللسان وإنما هو بالفعال والاحسان ، قال الله تعالى : ﴿ **اعملوا آل داود شكراً** ﴾[2] واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فإن الله تعالى سائلك عن الفتيل ، والنقير والقطمير[3] ، قال الله تعالى :﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين* عما كانوا يعملون** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾[5] واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام ، فسخر له الأنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع . فقال له : ﴿ **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** ﴾[6] فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها ، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها ، بل خاف أن تكون استدراجاً من الله تعالى ومكراً به فقال: ﴿ هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ﴾[7] فافتح الباب، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم وأغث الملهوم أعانك الله على نصر المظلوم ، وجعلك كهفاً للملهوف ، وأماناً للخائف ، ثم أتممت المجلس بأن قلت قد جبت البلاد شرقاً وغرباً فما اخترت مملكة وارتحت إليها ، ولذت لي الاقامة فيها غير هذه المملكة ثم أنشدته :

والناس أكيس من أن يحمدوا رجلاً   حتى يـروا عنـده آثـار إحسـان

---

(١) هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الاندلسي - ابو بكر - الطرطوشي . ويقال له ابن أبي رندقة : أديب ، من فقهاء المالكية ، الحفاظ . من أهل طرطوشة بشرقي الاندلس . رحل إلى المشرق سنة (٤٧٦هـ) من كتبه : « سراج الملوك » و« الفتن » و« الحوادث والبدع » وغيرها . توفي سنة : (٥٢٠هـ - ١١٢٦ م).
أنظر : وفيات الاعيان (١ : ٤٧٩).

(٢) سورة سبأ الآية ١٣ .

(٣) القطمير والقطمار - بكسر القاف - هو شق النواة ، أو القشرة التي فيها ، أو القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة ، أو النكتة البيضاء في ظهرها . والنقير ما نقر في الخشب والشجر ونحوه .

(٤) سورة الحجر الآية ٩٢، ٩٣.

(٥) سورة الانبياء الآية ٤٧ .

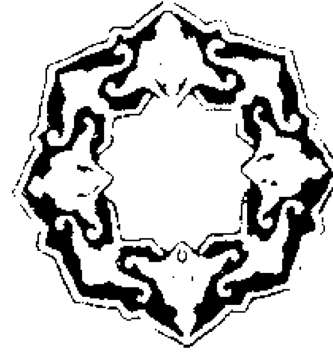
(٦) سورة ص الآية ٣٩ .

(٧) سورة النمل الآية ٤٠ .

وقال الفضل بن الربيع : حج هارون الرشيد سنة من السنين فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب فقلت من هذا ؟ قال : أجب أمير المؤمنين فخرجت مسرعاً . فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك . فقال : ويحك قد حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم فانظر لي رجلاً اسأله عنه . فقلت ههنا سفيان بن عيينة . فقال امض بنا إليه فأتيناه، فقرعت عليه الباب فقال من هذا؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين . فخرج مسرعاً فقال :يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك . فقال جد لما جئنا له فحادثه ساعة ، ثم قال له أعليك دين قال نعم ، فقال يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا . فقال ما أغنى عني صاحبك شيئاً ، فانظر لي رجلاً أسأله فقلت ههنا عبد الرزاق بن همام . فقال: امض بنا إليه ، فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا ؟ قلت أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك . فقال جد لما جئنا به فحادثه ساعة ثم قال له أعليك دين قال : نعم فقال : يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا فقال : ما أغني عني صاحبك شيئاً ،فانظر لي رجلاً أسأله. فقلت ههنا الفضيل بن عياض . فقال امض بنا إليه فأتيناه فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها ، فقرعت عليه الباب فقال : من هذا؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين فقال ما لي ولأمير المؤمنين . فقلت سبحان الله أما تجب عليك طاعته ففتح الباب ثم أرتقى إلى أعلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة **فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفي إليه** ، فقال أوّاه من كف ما ألينها ان نجت غداً من عذاب الله تعالى . فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي فقال جد لما جئنا له رحمك الله تعالى فقال: وفيم جئت حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك ، حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شقصا من ذنب ما فعلوا ، ولكان أشدهم حباً لك ، أشدهم هرباً منك . ثم قال ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرظي ، ورجاء بن حيوة فقال لهم : إني قد ابتليت بهذا البلاء فاشيروا عليّ . فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة . فقال سالم بن عبد الله : أن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا ، وليكن افطارك فيها على الموت . وقال محمد بن كعب ان أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى فليكن كبير المسلمين عندك أباً . وأوسطهم عندك أخاً . وأصغرهم عندك ولداً . فبر أباك . وارحم أخاك . وتحنن على ولدك . قال رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك . واكره لهم ما تكره لنفسك . ثم متى شئت مت . واني لأقول هذا . واني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا . فبكى هارون الرشيد بكاءاً شديداً حتى غشي عليه فقلت له : أرفق بأمير المؤمنين فقال :يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك وارفق به أنا . ثم أفاق هارون الرشيد فقال : زدني فقال : يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شكا إليه سهراً . فكتب له عمر يقول يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار . وخلود الأبدان . فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً ويقظان ، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ، ومنقطع الرجاء منك ، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه . فقال له عمر ما أقدمك ؟ فقال له لقد خلعت قلبي بكتابك ، ولا وليت ولاية أبداً حتى ألقى الله عز وجل . فبكى هارون بكاءً شديداً ، ثم قال زدني قال يا أمير المؤمنين ان العباس عم النبي ﷺ جاء إليه فقال يا رسول الله : أمرني امارة . فقال له النبي ﷺ : يا عباس نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها ، ان الامارة حسرة وندامة يوم االقيامة . فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل ، فبكى هارون الرشيد بكاءاً شديداً . ثم قال زدني يرحمك الله فقال يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن

تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك ، فإن النبي ﷺ قال : « من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة » فبكى هارون الرشيد بكاءاً شديداً ، ثم قال له أعليك دين قال : نعم دين لربي يحاسبني عليه ، فالويل لي إن ناقشني ، والويل لي إن سألني ، والويل لي ان لم يلهمني حجتي . قال هارون : إنما أعني دين العباد . قال : ان ربي لم يأمرني بهذا ، وإنما أمرني أن أصدق وعده ، وأطيع أمره ، قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾[1] . فقال له هارون هذه ألف دينار فخذها وأنفقها على عيالك ، وتقوّبها على عبادة ربك . فقال سبحان الله انا دللتك على سبيل الرشاد تكافئني أنت بمثل هذا ، سلمك الله ووفقك . ثم صمت فلم يكلمنا . فخرجنا من عنده . فقال لي هارون إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا فإن هذا سيد المسلكين اليوم .

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروط وصفات . قال سليمان الخواص : من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ، ومن وعظه على رؤوس الاشهاد فإنما بكته[2] . وقالت أم الدرداء رضي الله تعالى عنها : من وعظ أخاه سراً فقد سره وزانه ، ومن وعظه علانية فقد ساءه وشانه . ويقال من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وسره ، ومن وعظه جهراً فقد فضحه وضره . عن عبد العزيز بن أبي روّاد قال : كان الرجل إذا رأى من أخيه شيئاً أمره في ستر ، ونهاه في ستر ، فيؤجر في ستره ويؤجر في أمره ، ويؤجر في نهيه . وعن عمر رضي الله تعالى عنه : إذا رأيتم أخاكم ذا زلة فقوموه ، وسددوه ، وادعوا الله أن يرجع به إلى التوبة فيتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم . وبالله التوفيق إلى أقوم طريق ، وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) سورة الذاريات الآية ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) من التبكيت : وهو ـ تأنيب الضمير .

الباب الثالث عشر

في الصمت وصون اللسان والنهي عن الغيبة والسعي بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة

وفيه فصول

الفصل الأول :

في الصمت وصون اللسان

قال الله تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾[2] واعلم أنه ينبغي للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه ، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الامساك عنه ، لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه ، بل هذا كثير وغالب في العادة والسلامة لا يعادلها شيء . وروينا في صحيحيّ البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » . قال الشافعي رضي الله تعالى عنه : في الأم إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر في كلامه فإن ظهرت المصلحة تكلم ، وإن شك لم يتكلم حتى تظهر . وروينا في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري[3] رضي الله تعالى عنه قال : قلت يا رسول الله أي

---

(١) سورة ق الآية ١٨ .

(٢) سورة الفجر الآية ١٤ .

(٣) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار ابن حرب ـ أبو موسى ـ من بني الاشعر من قحطان ، صحابي ، من الشجعان الولاة الفاتحين . وأحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين . ولد في زبيد (باليمن) سنة (٢١ق .هـ ـ ٦٠٢ م) . وقدم مكة عند ظهور الاسلام فأسلم ، وهاجر إلى أرض الحبشة ، ثم استعمله رسول الله ﷺ على زبيد وعدن . وولاه عمر بن الخطاب البصرة سنة (١٧هـ) . افتتح اصبهان والاهواز ، ولما ولي عثمان أقره عليها . كان ممن أمر الناس بعدم الاشتراك في معركة الجمل وعدم اثارة الفتنة . توفي سنة (٤٤هـ ـ ٦٦٥ م) . وله ٣٥٥ حديثاً .

أنظر طبقات ابن سعد (٤ : ٧٩) . حلية الاولياء (١ : ٢٥٦) .

المسلمين أفضل ؟ قال : « من سلم الناس من لسانه ويده » ﷺروينا في كتاب الترمذي عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال : قلت يا رسول الله ما النجاة قال : « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وأبك على خطيئتك » قال الترمذي : حديث حسن وروينا في كتاب الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وفقه الله تعالى .

أما الآثار عن السلف وغيرهم في هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن ننبه على شيء منها . فما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة[1] وأكثم بن صيفي اجتمعا فقال : أحدهما لصاحبه . كم وجدت في ابن آدم من العيوب . فقال : هي أكثر من أن تحصر . وقد وجدت خصلة إن استعملها الانسان سترت العيوب كلها . قال :وما هيقال : حفظ اللسان . وقال الامام الشافعي رضي الله عنه لصاحبه الربيع : يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها . وقال بعضهم مثل اللسان مثل السبع ان لم توثقه عدا عليك ولحقك شره . ومما أنشدوه في هذا الباب :

احفظ لسانك أيها الانسان لا يلدغنك انه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقال الفارسي :

لعمرك ان في ذنبي لشغلا لنفسي عن ذنوب بني أمية
على ربي حسابهم إليه تناهى علم ذلك لا إليه

وقال علي رضي الله عنه : إذا تم العقل نقص الكلام . وقال اعرابي : رب منطق صدع جمعاً ، وسكوت شعب صدعاً . وقال وهب بن الورد : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس . وقال علي بن هشام رحمه الله تعالى عليه :

لعمرك ان الحلم زين لأهله وما الحلم إلا عادة وتحلم
إذا لم يكن صمت الفتى عن ندامة وعيّ فإن الصمت أولى وأسلم

وقال ابن عيينة : من حرم الخير فليصمت . فإن حرمه فالموت خير له .عن رسول اللهﷺ أنه قال لأبي ذر[2] رضي الله عنه « عليك بالصمت إلا من خير فإنه مطردة للشيطان ، وعون على أمر دينك » . ومن كلام الحكماء : من نطق في غير خير فقد لغا ، ومن نظر في غير اعتبار فقدسها ، ومن سكت في غير فكر فقد لها ، وقيل لو قرأت صحيفتك لأغمدت صفيحتك ، ولو رأيت ما في ميزانك لختمت على لسانك . ولما خرج يونس عليه السلام من

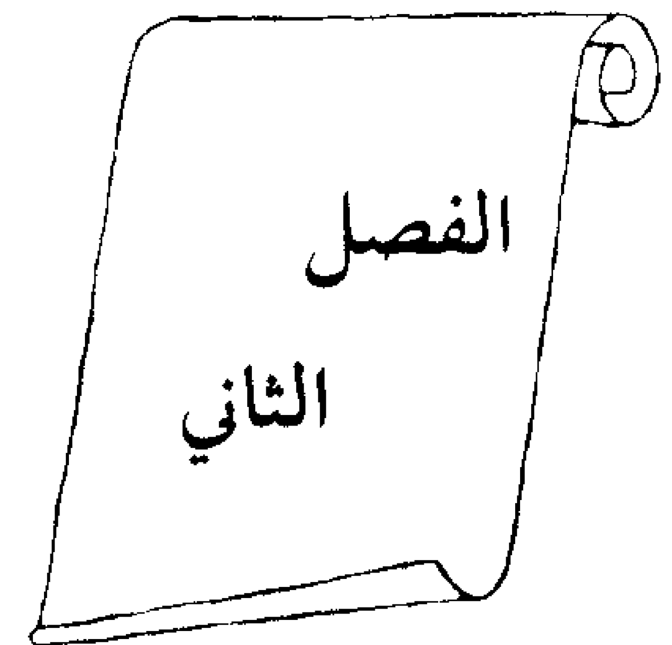
---

(١) هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي ابن مالك ـ من بني اياد ـ أحد حكماء العرب ، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية كان اسقف نجران ، ويقال : أنه أول عربي خطب متوكئاً على سيف أو عصا ، وأول من قال في كلامه « أما بعد » وكان يفد على قيصر الروم ، زائراً ، فيكرمه ويعظمه . سئل عنه ﷺ فقال : « يحشر أمة وحده » .
أنظر : الاغاني (١٤ : ٤٠) . عيون الاثر (١ : ٦٨) .

(٢) ابو ذر الغفاري، صحابي أشتهر بورعه وبفصاحة لسانه، يعتبر من أعظم المحدثين. توفي (٣٣هـ ـ ٦٥٣ م) .

بطن الحوت طال صمته فقيل له ألا تتكلم . فقال : الكلام صيرني في بطن الحوت . وقال حكيم إذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلم . وكان يقال : من السكوت ما هو أبلغ من الكلام ، لأن السفيه إذا سكت عنه كان في اغتنام . وقيل لرجل بم سادكم الأخنف فوالله ما كان بأكبركم سناً ، ولا بأكثركم مالاً . فقال : بقوة سلطانه على لسانه . وقيل الكلمة أسيرة في وثاق الرجل ، فإذا تكلم بها صار في وثاقها . وقيل اجتمع أربعة ملوك فتكلموا ، فقال ملك الفرس : ما ندمت على ما لم أقل مرة ، وندمت على ما قلت مراراً . وقال قيصر : انا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت . وقال ملك الصين ما لم أتكلم بكلمة ملكتها ، فإذا تكلمت بها ملكتني . وقال ملك الهند : العجب بمن يتكلم بكلمة ان رفعت ضرت ، وإن لم ترفع لم تنفع . وكان بهرام جالساً ذات ليلة تحت شجرة فسمع منها صوت طائر فرماه فأصابه ، فقال : ما أحسن حفظ اللسان بالطائر ، والانسان لو حفظ لسانه ما هلك . وقال علي رضي الله تعالى عنه : بكثرة الصمت تكون الهيبة . وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : الكلام كالدواء ان أقللت منه نفع . وإن أكثرت منه قتل . وقال لقمان لولده :يا بني إذا افتخر الناس بحسن كلامهم ، فافتخر أنت بحسن صمتك . يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح كيف أنتن فيقلن بخير ان تركتنا . قال الشاعر :

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى ... ان البلاء موكل بالمنطق



في تحريم الغيبة

اعلم أن الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشاراً في الناس حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس ، وهي ذكرك الانسان بما يكره ولو بما فيه ، سواء كان في دينه أو بدنه أو نفسه أو خَلقه أو خُلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه ، أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك ، أو بكتابك أو رمزت إليه بعينك ، أو يدك ، أو رأسك ، أو نحو ذلك ، فأما الدين فكقولك سارق ، خائن ، ظالم ، متهاون بالصلاة ، متساهل في النجاسات ، ليس باراً بوالديه، قليل الأدب ، لا يضع الزكاة مواضعها ، لا يجتنب الغيبة . وأما البدن فكقولك أعمى أو أعرج ، أو أعمش أو قصير ، أو طويل ، أو أسود ، أو أصفر ، وأما غيرهما فكقولك فلان قليل الأدب ، متهاون بالناس ، لا يرى لأحد عليه حقاً ، كثير النوم كثير الأكل ، وما أشبه ذلك ، أو كقولك فلان أبوه نجار أو اسكاف ، أو حداد ، أو حائك ، تريد تنقيصه بذلك ، أو فلان سيء الخلق متكبر مراء معجب ، عجول ، جبار ونحو ذلك ، أو فلان واسع الكم ، طويل الذيل ، وسخ الثوب ، ونحو ذلك . وقد روينا في صحيح مسلم وسنن أبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : «« أتدرون ما الغيبة؟ قالوا : الله ورسوله اعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل وان كان في أخي ما أقول ، قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإنوإن لم يكن فيه فقد بهته » .

قال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وروينا في سنن أبي داود ، والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي ﷺ حسبك من صفية كذا وكذا . قال بعض الرواة ، تعني قصيرة . فقال : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته أي خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة نتنها . وروينا في سنن أبي داود عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بي إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم » ، وروي عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا » . ثم قال رسول الله ﷺ : « ان الرجل ليزني فيتوب ، فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لم يغفر له حتى يغفر له صاحبها » . وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : « من اغتاب المسلمين ، وأكل لحومهم بغير حق وسعى بهم إلى السلطان جيء به يوم القيامة ، مزرقة عيناه ، ينادي بالويل والثبور ، يعرف أهله ولا يعرفونه » وقال معاوية بن قرة : أفضل الناس عندالله أسلمهم صدراً ، وأقلهم غيبة . وقال الأحنف في خصلتين لا أغتاب جليسي : إذا غاب عني ، ولا أدخل في أمر قوم لا يدخلونني فيه . وقيل للربيع بن خيثم ما نراك تعيب أحداً فقال : لست عن نفسي راضياً فأتفرغ لذم الناس وأنشد :

لنفسي أبكي لست لغيرها لنفسي من نفسي عن الناس شاغل

وقال كثير عزة :

وسعى إليّ بعيب عزة نسوة جعل الاله خدودهن نعالها

وقال محمد بن حزم : أول من عمل الصابون سليمان . وأول من عمل السويق ذو القرنين . وأول من عمل الحيس يوسف . وأول من عمل خبز الجرداق نمروذ . وأول من كتب في القراطيس الحجاج . وأول من اغتاب ابليس لعنه الله اغتاب آدم عليه السلام . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام ان المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة ، وان أصر ، فهو أول من يدخل النار . ويقال لا تأمن من كذّب لك أن يكذب عليك ، ومن اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك . وقيل للحسن البصري رضي الله تعالى عنه : إن فلاناً اغتابك ، فأهدى إليه طبقاً من رطب . فأتاه الرجل وقال له : اغتبتك فأهديت إليّ فقال الحسن أهديت إلى حسناتك فأردت أن أكافئك . وعن ابن المبارك رحمه الله تعالى قال : لو كنت مغتاباً أحداً ، لاغتبت والديّ ، لأنهما أحق بحسناتي ، وإذا حاكى إنسان إنساناً بأن يمشي متعارجاً ، أو متطأطئاً أو غير ذلك من الهيئات يريد تنقيصه بذلك فهو حرام . وبعض المتفقهين والمتعبدين يعرضون بالغيبة تعريضاً ، تفهم به كما تفهم بالتصريح ، فيقال لأحدهم كيف حال فلان فيقول : الله يصلحنا . الله يغفر لنا . الله يصلحه . نسأل الله العافية . نحمد الله الذي لم يبتلينا بالدخول على الظلمة نعوذ بالله من الكبر . يعافينا الله من قلة الحياء . الله يتوب علينا . وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه فكل ذلك غيبة محرمة .

واعلم انه كان يحرم على المغتاب ذكر الغيبة ، كذلك يحرم على السامع استماعها . فيجب على من يستمع انساناً يبتدىء بغيبة أن ينهاه ، إن لم يخف ضرراً ، فإن خافه وجب عليه الانكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته ، فإن قال بلسانه أسكت وقلبه يشتهي سماع ذلك ، قال بعض العلماء ان ذلك نفاق . قال

الله تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾[1] ومما أنشدوه في هذا المعنى :

وسمعك صن عن سماع القبيح ... كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند سماع القبيح ... شريك لقائله فانتبه
وكم أزعج الحرص من طالب ... فوافى المنية في مطلبه



في تحريم السعاية بالنميمة

قال الله تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم ﴾[2] الآية وحسبك بالنمام خسة ورذيلة ، سقوطه وضعته ، والهماز المغتاب الذي يأكل لحوم الناس ، الطاعن فيهم . وقال الحسن البصري : هو الذي يغمز بأخيه في المجلس ، وهو الهمزة اللمزة وقال علي والحسن البصري رضي الله عنهما : العتل الفاحش السيء الخلق . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : العتل الفاتك الشديد المنافق . وقال عبيد بن عمير العتل الأكول الشروب القوي الشديد ، يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة . وقال الكلبي هو الشديد في كفره ، وقيل العتل الشديد الخصومة بالباطل ، والزنيم هو الذي لا يعرف مَنْ أبوه قال الشاعر :

زنيم ليس يعرف من أبوه ... بغيّ الأم ذو حسب لئيم

وروينا في صحيحيّ البخاري ومسلم عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لا يدخل الجنة نمام » ، وروى أن النبي ﷺ مرّ بقبرين فقال : انهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله . قال الامام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى عليه : النميمة إنما تطلق في الغالب على من ينم قول الغير إلى المقول فيه ، كقوله فلان يقول فيك كذا ، فينبغي للانسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس ، إلا ما في حكايته فائدة لمسلم ، أو دفع معصية ، وينبغي لمن حملت إليه النميمة وقيل له قال فيك فلان كذا ، أن لا يصدق من نم إليه ، لأن النمام فاسق وهو مردود الخبر ، وأن ينهاه عن ذلك وينصحه ، ويقبح فعله ، ويبغضه في الله تعالى ، فإنه بغيض عند الله ، والبغض في الله واجب وان لا يظن بالمنقول عنه السوء لقول الله تعالى : ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ﴾[3]. وسعى رجل إلى بلال بن أبي

(١) سورة الانعام الآية ٦٨.
(٢) سورة القلم الآية ١٠ و١١.
(٣) سورة الحجرات الآية ١٢ .

بردة برجل وكان أمير البصرة فقال له : انصرف حتى أكشف عنك. فكشف عنه فإذا هو ابن بغي ، يعني ولد زنا ، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : لا ينم على الناس إلا ولد بغي . وروي أن النبي ﷺ قال: « ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله ﷺ قال شراركم المشاؤون بالنيمة المفسدون بين الأحبة الباغون العيوب ». وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ملعون ذو الوجهين ، ملعون ذو اللسانين ، ملعون كل شغاز[١]، ملعون كل قتات[٢]،ملعون كل نمام،ملعون كل منان[٣] والشغاز المحرش بين الناس يلقي بينهم العداوة ، والقتات النمام ، والمنان الذي يعمل الخير ويمن به ، وأما السعاية إلى السلطان وإلى كل ذي قدرة فهي المهلكة ، والحالقة لأنها تجمع الخصال الذميمة من الغيبة ، وشؤوم النميمة ، والتغرير بالنفوس ، والأموال في النوازل ، والأحوال ، وتسلب العزيز عزه ، وتحط المكين عن مكانته ، والسيد عن مرتبته ، فكم دم أراقه سعي ساع ، وكم حريم استبيح بنميمة نمام . وكم من صفيين تباعدا وكم من متواصلين تقاطعا من محبين افترقا ، وكم من إلفين تهاجرا ، وكم من زوجين تطالقا . فليتق الله ربه عز وجل رجل ساعدته الأيام وتراخت عنه الأقدار ، أن يصغي لساع أو يستمع لنمام .ووجد في حكم القدماء أبغض الناس إلى الله المثلث. قال الأصمعي: هو الرجل يسعى بأخيه إلى الأمام فيهلك نفسه ، وأخاه ، وإمامه . وقال بعض الحكماء : احذروا أعداء العقول ، ولصوص المودات ، وهم السعاة والنمامون ، إذا سرق اللصوص المتاع ، سرقوا المودات . وفي المثل السائر : من أطاع الواشي ضيع الصديق. وقد تقطع الشجرة فتنبت ، ويقطع اللحم السيف فيندمل ، واللسان لا يندمل جرحه . ودفع إنسان رقعة إلى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم ، وكان مالاً كثيراً فكتب إليه على ظهرها :النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة ، والميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والساعي لعنه الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . وروينا في كتاب أبي داود الترمذي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر ، ومن الناس من يتلون ألواناً ، ويكون بوجهين ولسانين فيأتي هؤلاء بوجه ، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً » . قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى :

قـل للذي لست أدري من تلونـه ... أنـاصـح أم عـلى غش يناجيني
اني لأكـثر ممـا سمـتني عـجـبـا ... يـد تشج وأخرى منك تـأسوني
تـغتـابـني عنـد أقـوام وتمـدحـني ... في آخـرين وكـل عنـك يـأتيني
هـذان شيئـان قـد نـافيت بينهـما ... فـاكفف لسانـك عن شتمي وتزييني

وقيل لألف لحوح جموح ، خير من واحد متلون ، وكان يشبه المتلون بأبي براقش ، وأبي قلمون . فأبو براقش طائر منقط بألوان النقوش يتلون في اليوم ألواناً ، وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألواناً ، ويقال للطائش الذي لا ثبات معه أبو رياح تشبيهاً بمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة بباب الجامع يدور مع الريح ، ويمناه ممدودة وأصابعها مضمومة إلا السبابة فإذا أشكل عليهم مهب الريح

---

(١) شغاز : متطاول.
(٢) القتات : الذي يمشي بالنميمة بين الناس .
(٣) المنّان الذي يذكّر مراراً بفعله للخير.

عرفوه به . فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه ، والذي يعمله الصبيان من قرطاس على قصبة يسمى أبا رياح أيضاً . ويقال أخلاق الملوك مثل في المتلون قال بعضهم :

ويـوم كـأخـلاق المـلوك تـلوناً فـصحـو وتـغـيـيـم وطل[1] ووابل[2]
أشـبهـه إيـاك يـا مـن صفـاتـه دنـو ، واعـراض، ومنـع ، ونائل[3]

وكلم معاوية الأحنف في شيء بلغه عنه فأنكره الأحنف . فقال له معاوية بلغني عنك الثقة فقال له الأحنف : إن الثقة لا يبلغ مكروهاً . وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية[4] وإذا أتاه ساع يقول له ان صدقتنا أبغضناك ، وان كذبتنا عاقبناك ، وان استقلتنا أقلناك . وكتب في جواب كتاب ساع : نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء ، وأخبر به كمن قبله وأجازه فاتقوا الساعي فإنه لو كان في سعايته صادقاً ، لكان في صدقه لئيماً ، إذ لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة . وقيل من سعى بالنميمة حذره الغريب ، ومقته القريب . وقال المأمون : النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها ، ولا عداوة إلا جددتها ، ولا جماعة إلا بددتها . ثم لا بد لمن عرف بها ونسب إليها أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه وأنشد بعضهم :

من نم في النـاس لم تؤمن عقاربـه عـلى الصـديق ولم تؤمن أفـاعيـه
كالسيل بـالليل لا يـدري به أحـد من أين جـاء ولا من أين يـأتيـه
الـويـل للعهـد منـه كيف ينقضـه والـويـل للودّ منـه كيف يـفنيـه

وقال آخر :

يسعى عليك كما يسعى إليك فلا تـأمن غـوائـل ذي وجهـين كيـاد

وقال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى :

مـن يخـبـرك بـشـتـم عـن أخ فـهـو الشـاتـم لا مـن شـتـمـك
ذاك شـيء لم يـواجـهـك بـه إنمـا الـلوم عـلى مـن أعـلمـك

وقال آخر :

إن يعلموا الخير أخفوه وان علموا شراً اذاعوا وان لم يعلموا كذبوا

وقال آخر :

إن يسمعـوا ريبة طـاروا بها فـرحـاً مني ومـا سمعوا من صـالح دفنـوا
صم إذا سمعـوا خيـراً ذكـرت بـه وإن ذكـرت بسـوء عنـدهم أذنـوا

وقال الحسن ستر ما عاينت ، أحسن من إشاعة ما ظننت . وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذي أتاها .

---

(١) طل : المطر الخفيف . (٣) نائل : كريم . يريد ان يقول : أنّه متقلب.
(٢) وابل : المطر الشديد. (٤) السعاية : النميمة.

ومما جاء في النهي عن اللعن، ما رويناه في صحيح البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن المؤمن كقتله». وروينا في صحيح مسلم أيضاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « لا يكون اللعانون شفعاء ، ولا شهداء يوم القيامة » ، وروينا في سنن أبي داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء ، فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يميناً وشمالاً ، فإذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لعن ، إن كان أهلاً لذلك ، وإلا رجعت إلى قائلها » ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة على العموم كقوله : لعن الله الظالمين ، لعن الله الكافرين ، لعن الله اليهود والنصارى ، لعن الله الفاسقين ، لعن الله المصورين ونحو ذلك .

وثبت في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ لعن الواصلة، والمستوصلة[1] وانه قال : « لعن الله آكل الربا . وأنه قال : لعن الله المصورين . وأنه قال لعن الله من لعن والديه ، وأنه قال لعن الله من ذبح لغير الله . وأنه قال لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . وأنه قال لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال . وجميع هذه الألفاظ في البخاري ومسلم بعضها فيهما وبعضها في أحدهما والله أعلم .

ومما جاء في العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة :

قال رسول الله ﷺ : « الخمول نعمة وكل يتبرأ ، والظهور نقمة وكل يتمنى » . وقال بعضهم :

تلحف بالخمول تعش سليماً وجالس كل ذي أدب كريم

وقال جعفر بن الفراء :

من أخمل النفس أحياها وروّحها ولم يبت طاوياً منها على ضجر
ان الرياح إذا اشتدت عواصفها فليس ترمي سوى العالي من الشجر

وقال اعرابي : رب وحدة أنفع من جليس ، ووحشة أنفع من أنيس . وكان أبو معاوية الضرير يقول فيّ خصلتان : ما يسرني بهما رد بصري ، قلة الاعجاب بنفسي ، وخلو قلبي من اجتماع الناس إليّ . وقال عمر رضي الله عنه : خذوا حظكم من العزلة . وصعد حسان على أطم[2] من آطام المدينة ونادى بأعلى صوته يا صباحاه فاجتمعت الخزرج فقالوا ما عندك قال : قلت بيت شعر فأحببت أن تسمعوه قالوا هات يا حسان فقال :

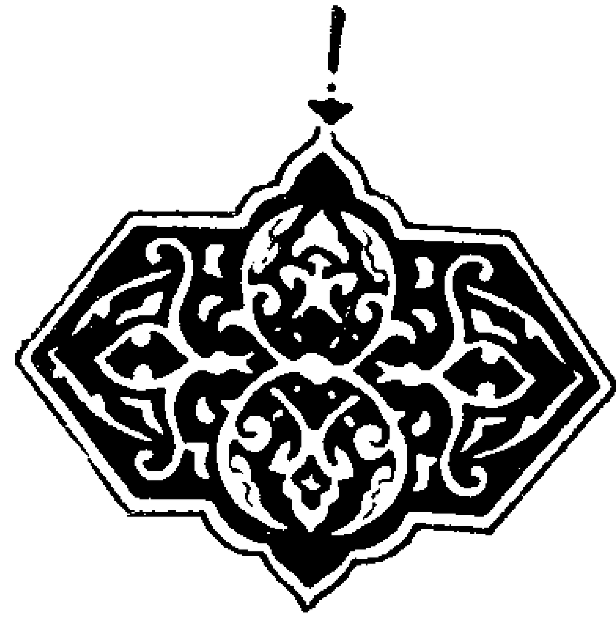
وان امرأ أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد

ولما بنى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه منزله بالعقيق قيل له : تركت منازل اخوانك ، وأسواق الناس ونزلت بالعقيق[3] . فقال : رأيت أسواقهم لاغية ، ومجالسهم لاهية ، فوجدت الاعتزال فيها هنالك عافية . وقيل

---

(١) الواصلة والمستوصلة من النساء، الطالبة ان تصل شعرها بشعر غيرها. . .
(٢) الأطُمُ : القصر . وكل حصن مبني من الحجارة ، وكل بيت مربع مسطح وجمعها : اطام ، وأطوم .
(٣) واد بالقرب من المدينة المنورة . أكثر الشعراء الاقدمون من ذكره.

لعروة ، أخي مرداس لم لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم . فقال : أكره أن يميل قلبي باجتماعكم إلى حب الرياسة ، فأخسر الدارين . وقال سفيان ابن عيينة دخلنا على الفضل في مرضه نعوده فقال :ما جاء بكم؟ والله لو لم تجيئوا لكان أحب إليّ. ثم قال : نعم الشيء المرض ،لولاالعيادة. وقيل للفضل[1] ان ابنك يقول وددت لو أني بالمكان الذي أرى الناس فيه ، ولا يروني . فقال : ويح ابني لم لا أتمها فقال : لا أراهم ولا يروني . وقال علي رضي الله تعالى عنه ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس،وطوبى[2]لمن لزم بيته، وأكل قوته واشتغل بطاعته ، وبكى على خطيئته ، فكان من نفسه في شغل ، والناس منه في راحة . وقال سفيان : الزهد في الدنيا ، هو الزهد في الناس . وقيل لراهب في صومعته ألا تنزل ، فقال : من مشى على وجه الأرض عثر . والكلام في مثل هذا كثير وقد اكتفينا بهذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) الفضل بن الربيع (توفي سنة ٢٠٨هـ - ٨٢٤ م) حاجب المنصور ، ووزير الرشيد، ثم وزير الأمين .
(٢) طوبى : قيل شجرة في الجنة ، طوبى لهم : الحُسْنى لهم .

الباب الرابع عشر

في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الاسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه

روي عن الحسن أنه قال للحجاج : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ : « وقّروا السلاطين وبجلوهم ، فإنهم عز الله وظله في الأرض إذا كانوا عدولا » فقال الحجاج : ألم تكن فيهم إذا كانوا عدولا ، قال قلت بلى . وعن عمر رضي الله عنه ، قال : قلت للنبي ﷺ : « اخبرني عن هذا السلطان الذي ذلت له الرقاب ، وخضعت له الأجساد ما هو » ، قال : « ظل الله على الأرض ، فإذا أحسن فله الأجر ، وعليكم الشكر ،وإذا أساء فعليه الأصر[1]، وعليكم الصبر » ، وعنه عليه الصلاة والسلام : « أيما راح استرعى رعيته ولم يحطها بالأمانة والنصيحة من ورائها إلا ضاقت عليه رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء » وقال مالك بن دينار رضي الله عنه : وجدت في بعض الكتب يقول الله تعالى :أنا ملك الملوك، رقاب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، لا تشغلوا ألسنتكم بسب الملوك ، ولكن توبوا إلى الله يعطفهم عليكم . وقال جعفر بن محمد رحمه الله تعالى : كفارة عمل السلطان الاحسان إلى الاخوان . وقال كسرى لسيرين : ما أحسن هذا الملك لو دام . فقال : لو دام لأحد ما انتقل إلينا . ومر طارق الشرطي بابن شبرمة في موكبه فقال :

أراهـا وان كـانـت تحـب فـإنها سحـابة صيف عن قليـل تقشع

وجلس الاسكندر يوماً فما رفع إليه حاجة فقال : لا أعد هذا اليوم من أيام ملكي . وقال الجاحظ : ليس شيء ألذ ، ولا أسر من عز الأمر والنهي ، ومن الظفر بالأعداء ، ومن تقليد المنن أعناق الرجال .لأن هذه الأمور تصيب الروح ، وحظ الذهن ، وقسمة النفس . وقيل الملك خليفة الله في عباده ولن يستقيم أمر خلافته مع مخالفته . وقال الحجاج سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها . وقال اردشير لابنه : يا بني الملك والدين اخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فالدين أس ، والملك حارس ، ومن لم يكن له أس فمهدوم ، ومن لم يكن له حارس فضائع . قيل لما دنت وفاة هرمز وامرأته حامل عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى ولد له ولد .

---

(١)الإصر : العهد، الذنب ، الثقل.

فتملك وأغار العرب على نواحي فارس في صباه . فلما أدرك ركب وانتخب من أهل النجدة فرساناً ، وأغار على العرب فانتهكهم بالقتل ، ثم خلع أكتاف سبعين ألفاً ، فقيل له ذو الأكتاف . وأمر العرب حينئذ بإرخاء الشعور ، ونبس المصبغات وأن يسكنوا بيوت الشعر ، وأن لا يركبوا الخيل إلا عراة .

وقيل : من أخلاق الملوك حب التفرد ، كان اردشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان ، وإذا لبس حلة لم ير على أحد مثلها ، وإذا تختم بخاتم كان حراماً على أهل المملكة أن يتختموا بمثله . وكان سعيد بن العاص بمكة إذا اعتم ، لم يعتم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه ، وكان الحجاج إذا وضع على رأسه عمامة لم يجترىء أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلها . وكان عبد الملك إذا لبس الخف الأصفر ، لم يلبس أحد مثله حتى ينزعه . وأخبرني من سافر إلى اليمن أنه لا يأكل الأوز بها أحد غير الملك . وقيل من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضعة عن ابنها . وكان أردشير متى شاء قال لأرفع أهل مملكته ، وأوضعهم كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت . حتى كان يقال يأتيه ملك من السماء وما ذاك إلا بتنصحه وتيقظه . وكان علم عمر رضي الله عنه بمن نأى عنه ، كعلمه بمن بات معه على وساد واحد . ولقد اقتفى معاوية أثره . وتعرف إلى زياد رجل فقال ، أتتعرف إليّ وأنا أعرف من أبيك وأمك ، وأعرف هذا البرد الذي عليك . ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه . وعن بعض العباسيين قال كلمت المأمون رحمه الله تعالى في امرأة خطبتها ، وسألته النظر إليها فقال : يا أبا فلان من قصتها وحليتها ، وفعلها وشأنها كيت وكيت فوالله ما زال يصفها ويصف أحوالها حتى ابهتني[١] .

ومما جاء في طاعة ولاة أمور الاسلام : أمر الله تعالى بذلك في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾[٢] وروينا في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله الانصاري رضي الله عنهما قال : بايعت رسول الله ﷺ على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم . وسئل كعب الأحبار عن السلطان ، فقال : ظل الله في أرضه من نصحه اهتدى ومن غشه ضل . وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : لا تسبوا السلطان فإنه ظل الله في الأرض ، به يقوم الحق ، ويظهر الدين وبه يدفع الله الظلم ، ويهلك الفاسقين . وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه : كيف كانت طاعتي لك ؟ قال : أحسن طاعة . قال فأطعني كما كنت أطيعك خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك ،ومن ثوبك حتى تبدوعقباك[٣] .وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أمري فقد أطاعني ، ومن عصى أمري فقد عصاني »، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ أمر بالسمع والطاعة لولي الأمر ، ومناصحته ومحبته والدعاء له . ولو تتبعت ذلك لطال الكلام . لكن أعلم ارشدني الله وإياك إلى الأتباع ، وجنبنا الزيغ والأتباع ، ان من قواعد الشريعة المطهرة والملة الحنيفية المحررة أن طاعة الأئمة فرض على كل الرعية ، وان طاعة السلطان

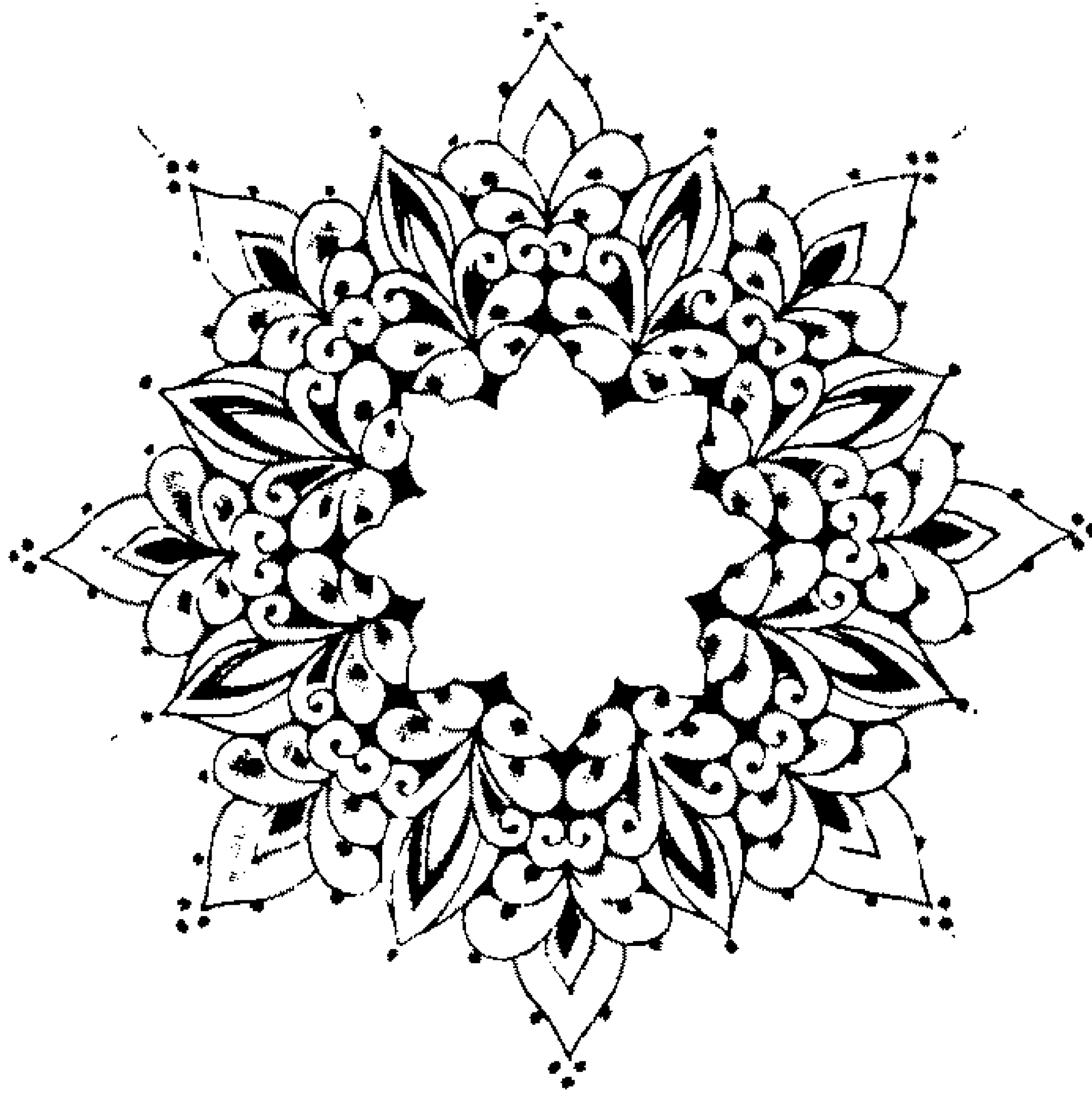
---

(١) بهت ابهتاً : اخذه بغتة . دُهِش .

(٢) سورة النساء الآية ٥٩.

(٣) العقب جمعها أعقاب : مؤخر القدم.

تؤلف شمل الدين ، وتنظيم أمور المسلمين . وان عصيان السلطان يهدم أركان الملة ، وان أرفع منازل السعادة طاعة السلطان ، وان طاعته عصمة من كل فتنة ، وبطاعة السلطان تقام الحدود ، وتؤدى الفروض ، وتحقن الدماء ، وتؤمن السبل . وما أحسن ما قالت العلماء ان طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها ، وان الخارج عن طاعة السلطان منقطع العصمة بريء من الذمة . وإن طاعة السلطان حبل الله المتين ودينه القويم ، وأن الخروج منها خروج من أنس الطاعة . إلى وحشة المعصية ، ومن غش السلطان ضل وزل ، ومن أخلص له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا في أرفع محل . وان طاعة السلطان واجبة ، أمر الله تعالى بها في كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم ، وقد اقتصرنا في ذلك على ما أوردناه واكتفينا بما بيّناه ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا ، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، وأن يصلح شأننا إنه قريب مجيب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



الباب الخامس عشر

فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته

أما صحبة السلطان : فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ، قال لي أبي : يا بني إني أرى أمير المؤمنين يستخليك[1] هويستشيرك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ وإني أوصيك بخلال ثلاث : لا تفشين له سراً ، ولا تجرين عليه كذباً ، ولا تغتابن عنده أحداً . قال الشعبي رحمه الله تعالى : قلت لابن عباس كل واحدة منهن خير من ألف فقال إي والله ومن عشرة آلاف . وقال بعض الحكماء : إذا زادك السلطان تأنيساً ، فزده إجلالاً ، وإذا جعلك أخاً ، فاجعله أباً ، وإذا زادك احساناً ، فزده فعل العبد مع سيده ، وإذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس ، فأخذوا في الثناء عليه ، فعليك بالدعاء له ولا تكثر في الدعاء له عند كل كلمة فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة . وقال مسلم بن عمر لمن خدم السلطان : لا تغتر بالسلطان إذا أدناك ، ولا تتغير منه إذا أقصاك . وروي أن بعض الملوك استصحب حكيماً فقال له : أصحبك على ثلاث خصال : قال وما هنّ . قال : لا تهتك لي ستراً ، ولا تشتم لي عرضاً ، ولا تقبل في قول قائل حتى تستشيرني . قال : هذا لك ، فما ذا لي عليك . قال لا أفشي لك سراً ، ولا أدخر عنك نصيحة ، ولا أؤثر عليك أحداً . قال : نعم الصاحب للمستصحب أنت . وقال بزرجمهر : إذا خدمت ملكاً من الملوك فلا تطعه في معصية خالقك ، فإن إحسانه إليك فوق احسان الملك ، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه . وقالوا : اصحب الملوك بالهيبة لهم ، والوقار ، لأنهم انما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة ، وإن طال أنسك بهم تزدد غماً . وقالوا : علّم السلطان ، وكأنك تتعلم منه ، وأشر عليه وكأنك تستشيره ، وإذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ، ويثق بك ، فإياك والدخول بينه وبين بطانته فإنك لا تدري متى يتغير منك ، فيكونوا عوناً عليك . وإياك أن تعادي من إذا شاء أن يطرح ثيابه ويدخل مع الملك في ثيابه فعل . وفي الأمثال القديمة :احذروا زمارة المخدرة ، وفيه قيل :

ليس الشفيع الذي يأتيك متزراً ... مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

وقال يحيى بن خالد : إذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق .

---

(١) استخلى : طلب ان يختلي به .

وأما ما جاء في التحذير من صحبة السلطان : فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهي عن صحبة السلطان . قال في كتاب كليلة ودمنة : ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل : صحبة السلطان ، وائتمان النساء على الأسرار ، وشرب السم على التجربة . وكان يقال قد خاطر بنفسه من ركب البحر ، وأعظم منه خطراً من صحب السلطان . وكان بعض الحكماء يقول أحق الأمور بالتثبت فيها أمور السلطان ، فإن من صحب السلطان بغير عقل ، فقد لبس شعار الغرور . وفي حكم الهند صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر . وقيل للعتابي[1] : لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب. قال : لأني رأيته يعطي عشرة آلاف في غير شيء ، ويرمي من السور في غير شيء ، ولا أدري أي الرجلين أكون . وقال معاوية لرجل من قريش : إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبي ويبطش بطش الأسد . وقال ميمون بن مهران : قال لي عمر بن عبد العزيز يا ميمون احفظ عني أربعاً : لا تصحبن السلطان ، وان أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر ، ولا تخلون بامرأة وإن أقرأتها القرآن ، ولا تصل من قطع رحمه فإنه لك أقطع ، ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غداً ، وكم رأينا وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل ، والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به فكان كما قيل :

عدوى البليد إلى الجليد سريعة   والجمر يوضع في الرماد فيخمد

ومثل من صحب السلطان ، ليصلحه مثل من ذهب ليقيم حائطاً مائلاً ، فاعتمد عليه ليقيمه فخر الحائط عليه فأهلكه، قال الشاعر :

ومعاشر السلطان شبه سفينة   في البحر ترجف دائماً من خوفه
ان أدخلت من مائه في جوفها   يغتالها مع مائها في جوفه

وفي كتاب كليلة ودمنة لا يسعد من ابتلى بصحبة الملوك ، فإنهم لا عهد لهم ، ولا وفاء ولا قريب ، ولا حميم ، ولا يرغبون فيك ، إلا أن يطمعوا فيما عندك فيقربوك عند ذلك ، فإذا قضوا حاجاتهم منك تركوك ورفضوك ولا ود للسلطان ، ولا إخاء ، والذنب عنده لا يغفر. وقالت الحكماء : صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف. وقال محمد بن واسع : والله لسف التراب ، ولقدم العظم خير من الدنو من أبواب السلاطين. وقال محمد بن السماك : الذباب على العذرة خير من العابر على أبواب الملوك . وقيل : من صحب السلطان قبل أن يتأدب فقد غرر بنفسه . وقال ابن المعتز : من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة ، وعنه إذا زادك السلطان تأنيساً وإكراماً فزده تهيباً واحتشاماً . وقال ابو على الصغاني : إياك والملوك فإن من والاهم أخذوا ماله ، ومن عاداهم أخذوا رأسه . وقيل مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار : أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة : عقل ، وصبر ، ومال . وتحته مكتوب ، كذب عدوّ الله من كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان ـ وقال حسان بن ربيع الحميري : لا تثقن بالملك فإنه ملول ، ولا بالمرأة فإنها خئون ، ولا بالدابة فإنها

---

(١) العتابي هو كلثوم بن عمرو التغلبي. كاتب حسن الترسل، وشاعر، يسلك طريقة النابعة . رمي بالزندقة، فطلبه الرشيد فهرب إلى اليمن ، فسعى الفضل البرمكي يأخذ الامان له من الرشيد، فأمنه وعاد. صنف: « فنون الحكم » و« الآداب » و« الخيل » و« الاجواد » و« الالفاظ ». انظر : ارشاد الاريب (٦ : ٢١٢). تاريخ بغداد (١٢ : ٤٨٨).

شرود . وقال عبيد بن عمير ، ما ازداد رجل من السلطان قرباً ، إلا ازداد من الله بعداً ، ولا كثرت أتباعه ، إلا كثرت شياطينه ، ولا كثر ماله إلا كثر حسابه . وقال ابن المبارك رحمه الله :

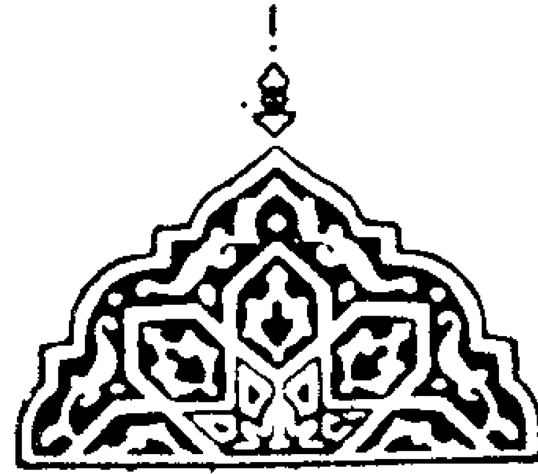
أرى الملوك بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استـ ـغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال بعضهم في ولاة بني مروان :

إذا ما قطعتم ليلكم بمدامكم وأفنيتمو أيامكم بمنام
فمن ذا الذي يغشاكم في ملمة ومن ذا الذي يفشاكم بسلام

رضيتم من الدنيا بأيسر بلغة[1] بلثم غلام ، أو بشرب مدام
ولم تعلموا أن اللسان موكل بمدح كرام أو بذم لئام

نهت الحكماء عن خدمة الملوك فقالوا : إن الملوك يستعظمون في الثواب رد الجواب ، ويستقلون في العقاب ضرب الرقاب . وقيل شر الملوك من أمّنه الجريء ، وخافه البريء . والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ، ونعم النصير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) بَلْغَةٌ : أي النهاية في الحُمقِ.

الباب السادس عشر

في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك

قال الله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ **واجعل لي وزيراً من أهلي** ﴾[١] فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام ثم ذكر حكمة الوزارة فقال : أشدد به أزري ، واشركه في أمري دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة ، وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة · ثم قال كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً . دلت هذه الآية على أن بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة تنتظم أمور الدنيا والآخرة ، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح ، وأفره الخيل[٢] إلى السوط ،وأحد الشفار[٣] إلى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير . وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : ما بعث الله من بني ،ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان[٤] :بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله . وقال وهب بن منبه : قال موسى لفرعون آمن ولك الجنة ، ولك ملكك.قال: حتى أشاور هامان[٥] فشاوره في ذلك فقال له هامان : بينما أنت إله تُعبد ، إذ صرت تعبد ، فأنف واستكبر ، وكان من أمره ما كان . وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد ابن مسلم لا يألوه خبالاً ، ولبئس القرناء ، شر قرين لشر خدين . وأشرف منازل الآدميين النبوة ، ثم الخلافة ، ثم الوزارة . وفي الأمثال نعم الظهير الوزير ، وأول ما يظهر نبل السلطان ، وقوة تمييزه ، وجودة عقله ، في انتخاب الوزراء ، واستنقاء الجلساء ، ومحادثة العقلاء ، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله ، وبهذه الخلال يجمل في الخلق ذكره ، وترسخ في النفوس عظمته ، والمرء موسوم بقرينه . وكان يقال حلية الملوك ، وزينتهم وزراؤهم . وفي كتاب كليلة ودمنة لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان . وقال شريح بن عبيد لم يكن في بني اسرائيل

---

(١) سورة طه الآية ٢٩ .

(٢) الخيل الفارهة : الجارية المليحة الفتية . والشديدة الاكل .

(٣) الشفار : حدّ السيف،

(٤) البطانة : الحاشية.

(٥) هامان : وزير فرعون، ذكر في القرآن الكريم.

ملك إلا ومعه رجل حكيم ، إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف ، في كل صحيفة ارحم المسكين ، واخش الموت ، واذكر الآخرة . فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه . ومثل الملك الخير ، والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه ، كالماء الصافي فيه التمساح ، فلا يستطيع المرء دخوله ، وان كان سابحاً ، وإلى الماء محتاجاً . ومثل السلطان كمثل الطبيب ، ومثل الرعية كمثل المرضى ، ومثل الوزير كمثل السفر بين المرضى والأطباء ، فإذا كذب السفير بطل التدبير ، وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحداً من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه ، فإذا سقاه الطبيب على وصفة السفير هلك العليل . كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك ، فمن ههنا شرط في الوزير أن يكون صدوقاً في لسانه ، عدلاً في دينه ، مأموناً في أخلاقه ، بصيراً بأمور الرعية ، وتكون بطانة الوزير أيضاً من أهل الأمانة والبصيرة . وليحذر الملك أن يولي الوزارة لئيماً ، فاللئيم إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخف بالأشراف ، وتكبر على ذوي الفضل . ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء ، وكان الوزير من أهل العقل والأدب فوجد عنده رجلاً ذمياً .

يـا مـلـكـاً طـاعـتـه لازمـة   وحـبـه مـفـتـرض واجـب
ان الـذي شـرفـت مـن أجـلـه   يـزعـم هـذا أنّـه كـاذب

وأشار إلى الذمي[1]،فاسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك ، فسأله فلم يجد بداً أن يقول هو صادق ، فاعترف بالإسلام . وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع ، وقال لوزيره : إذا رأيتني غضبان ، فادفع إليّ رقعة بعد رقعة ، وكان في الأولى : انك لست باله وانك ستموت وتعود إلى التراب فيأكل بعضك بعضاً ، وفي الثانية : ارحم من الأرض يرحمك من في السماء . وفي الثالثة : أقض بين الناس بحكم الله فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك . ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء ، وأزمة الملوك في أكف الوزراء ، سبق فيهم من العقلاء المثل السائر ، فقالوا : لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير ، وإذا أحبك الوزير فنم ولا تخش الأمير . ومثل السلطان كالدار ، والوزير بابها فمن أتي الدار من بابها ولج ، ومن أتاها من غير بابها انزعج ، وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من البصر ، فكما أن من لم ينظر في المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه ، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير : لا يعلم محاسن دولته وعيوبها . ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رؤوفاً بهم .

واعلم : أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة وان استقلها ، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس ، وكما أن المرآة لاتريك وجهها إلا بصفاء جوهرها، وجودة صقلها ونقائها من الصدأ ، كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير ، وصحة فهمه ، ونقاء قلبه ، والله تعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

---

(١) الذميّ : الذي أعطي الذمّة، أي الأمان ، يعني الذي أُمّن على ماله وعرضه ودمه فاعطى الجزية، وهو كل رجل من أهل الكتاب خاضع للحكم الاسلامي.

الباب السابع عشر

في ذكر الحجّاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر

أما الحجّاب : فقد قيل لا شيء أضيع للمملكة، وأهلك للرعية من شدة الحجّاب . وقيل إذا سهل الحجّاب أحجمت الرعية عن الظلم ، وإذا عظم الحجّاب هجمت على الظلم . وقال ميمون بن مهران : كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبه من بالباب ، فقال : رجل أناخ ناقته الآن ، يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ فأذن له أن يدخل . فلما دخل . قال : حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من ولي شيئاً من أمور المسلمين ، ثم حجب عنه ، حجبه الله عن يوم القيامة » . فقال عمر لحاجبه : الزم بيتك ، فما رؤي على بابه بعد ذلك حاجب . وكان خالد بن عبد الله القشيري[1] يقول لحاجبه : إذا أخذت مجلسي فلا تحجبن عني أحداً ، فإن الوالي لا يحتجب إلا لثلاث : عيب يكره أن يطلع عليه أحد . أو ريبة يخاف منها أن تظهر . أو بخل يكره معه أن يسأل شيئاً . وكانت العجم تقول لا شيء أضيع للمملكة من شدّة حجّاب الملك ، ولا شيء أهيب للرعية . وأكف لهم عن الظلم من سهولتهم . وقيل لبعض الحكماء : ما الجرح الذي لا يندمل . قال : حاجة الكريم إلى اللئيم ، ثم يرده بغير قضائها . قيل : فما الذي هو أشد منه ، قال : وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يؤذن له . ووقف عبد الله بن العباس بن الحسن العلوي على باب المأمون يوماً ، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق . فقال عبد الله لقوم معه : إنه لو أذن لنا لدخلنا ، ولو صرفنا لانصرفنا ، ولو اعتذر إلينا لقبلنا ، وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرّف فلا أفهم معناه ثم تمثل بهذا البيت :

وما عن رضى كان الحمار مطيتي ... ولكن من يمشي سيرضى بما ركب

ثم انصرف فبلغ ذلك المأمون فضرب الحاجب ضرباً شديداً ، وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب .
قال الشاعر :

رأيت أناساً يسرعون تبادراً ... إذا فتح البوّاب بابك أصبعا
ونحن جلوس ساكتون رزانة ... وحلماً إلى أن يفتح الباب أجمعا

ووقف رجل خرساني بباب أبي دلف العجلي حيناً فلم يؤذن له ، فكتب رقعة وتلطف في وصولها إليه وفيها :

---

(١) قشير : بطن من قبيلة بني عامر بن صعصعة . كانوا ممن انضم إلى الاسلام في بداية ظهوره .

إذا كان الكريم له حجاب ... فما فضل الكريم على اللئيم

فأجابه أبو دلف بقوله :

إذا كان الكريم قليل مال ... ولم يعذر تعلل بالحجاب
وأبواب الملوك محجبات ... فلا تستنكرن حجاب بابي

ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم :

سأهجركم حتى يلين حجابكم ... على أنه لا بد سوف يلين
خذوا حذركم من صفوة الدهر إنها ... وإن لم تكن خانت فسوف تخون

وقال آخر :

ماذا على بواب داركم الذي ... لم يعطنا إذناً ولا يستأذن
لو ردّنا ردّاً جميلاً عنكم ... أو كان يدفع بالتي هي أحسن

وقال آخر :

أمرت بالتسهيل في الأذن لي ... ولم ير الحاجب أن يأذنا
فلن تراني بعدها عائداً ... ولن تراه بعد مستأذنا

وقال آخر :

ولقد رأيت بباب دارك جفوة ... فيها لحسن صنيعك التكدير
ما بال دارك حين تدخل جنة، ... وبباب دارك منكر ونكير

وقال آخر:

إذا جئت ألقى عند بابك حاجباً ... محياه من فرط الجهالة حالك
ومن عجب مغناك جنة قاصد ... وحاجبها من دون رضوان مالك

وقال آخر :

سأترك باباً أنت تملك إذنه ... ولو كنت أعمى عن جميع المسالك
فلو كنت بوّاب الجنان تركتها ... وحولت رجلي مسرعاً نحو مالك

وقال آخر :

ماذا يفيدك أن تكون محجباً ... والعبد بالباب الكريم يلوذ
ما أنت إلا في الحصار معي فلا ... تتعب فكل محاصر مأخوذ

وقال أبو تمام :

سأترك هذا الباب ما دام اذنه ... على ما أرى حتى يلين قليلا

فـما خـاب من لم يـأتـه متعمـداً ولا فـاز من قـد نـال منـه وصـولا
إذا لم نجـد للاذن عنـدك مـوضعـاً وجـدنـا إلى تـرك المجيء سبيـلا

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب : قل له ان الكرى[1]، قد خطب إليّ نفسي ، وإنما هي هجعة[2] واهب[3] فخرج الحاجب فقال له الرجل : ما الذي قال لك . قال : قال كلاماً لا أفهمه وهو يريد أن يأذن لك .
وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية لسهولة اذنه ، وبذل طعامه .
وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من أمير يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسألة إلا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسألته » * وجاء النامي الشاعر لبعض الأمراء فحجبه فقال :

سأصبر إن جفوت فكم صبرنـا لمثـلك مـن أمـير أو وزيـر
رجـونـاهـم فـلما أخـلفـونـا تمـادت فـيـهـم غـيرَ الدهور[4]
فبتنـا بـالسـلامـة وهي غـنـم وبـاتـوا في المحـابس والقـبـور
ولمـا لم نـنـل مـنـهـم سـروراً رأيـنـا فـيـهـم كـل السـرور

وأنشدوا في ذلك أيضاً :

قـل لـلذين تحـجبـوا عـن راغـب بمـنـازل مـن دونها الحـجـاب
ان حـال عـن لقـيـاكم بـوّابكـم فـالله لـيـس لـبـابـه بـوّاب

واستأذن سعد بن مالك على معاوية فحجبه ، فهتف بالبكاء . فأتى إليه الناس وفيهم كعب . فقال : وما يبكيك يا سعد ؟ فقال وما لي لا أبكي وقد ذهب الاعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة . فقال كعب : لا تبك فإن في الجنة قصراً من ذهب يقال له عدن ، أهله الصدّيقون والشهداء ، وأنا أرجو أن تكون من أهله . استأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم فحجبه فقال :

في كـل يـوم لي ببـابـك وقفـة أطـوي إلـيـه سـائـر الأبـواب
وإذا حضـرت رغبت عنـك فـإنـه ذنـب عـقـوبـتـه عـلى الأبـواب

وأما ذكر الولايات وما فيها من الخطر العظيم . فقد قال الله تعالى لداود عليه السلام : ﴿ **يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾[5] جاء في التفسير أن مع أتباع الهوى أن يحضر الخصمان بين

---

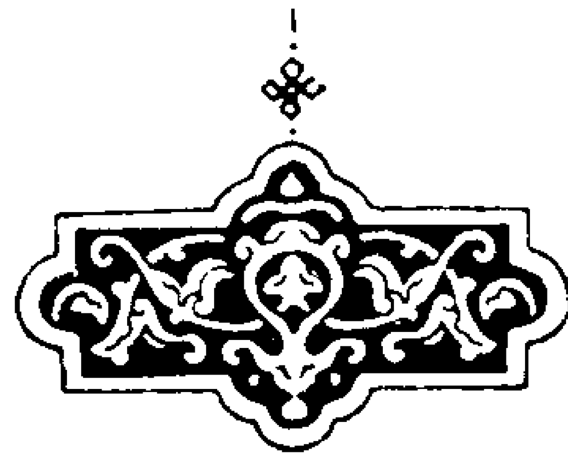
(١) الكرى : النعاس.
(٢) هجعة : رقدة.
(٣) أهبّ : هبَّ : نهض واستيقظ.
(٤) الغير : المصائب.
(٥) سورة ص الآية ٢٦.

يديك فتودّ أن يكون الحق للذي في قلبك حبه خاصة ، وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه . قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان الذي أصاب سليمان بن داود عليهما السلام ، أن ناساً من أهل جرادة امرأته ، وكانت من أكرم نسائه عليه ، تحاكموا إليه مع غيرهم ، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضي لهم ، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحداً . وروي عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ « يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ، فانك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وان أعطيتها عن مسألة وكلت إليها . وقال معقل بن يسار رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول : « ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة » . وفي الحديث من ولي من أمور المسلمين شيئاً ، ثم لم يحطهم بنصيحته كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار . وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة فأبى . وقال سمعت رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالي فيقف على جسر جهنم فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض فيزول كل عضو منه عن مكانه ثم يأمر الله تعالى بالعظام فترجع إلى أماكنها فإن كان لله مطيعاً أخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته ، وإن كان لله عاصياً انخرق به الجسر فهوى به في نار جهنم مقدار سبعين خريفاً » فقال عمر رضي الله عنه : سمعت من النبي ﷺ ما لم أسمع ، قال نعم . وكان سلمان وأبو ذر حاضرين فقال سلمان :إي والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفاً في واد يلتهب التهاباً ، فضرب عمر رضي الله عنه بيده على جبهته وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون من يأخذها بما فيها . فقال سلمان من أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض . وروى أبو داود في السنن قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن أبي عريف على الماء ، وإني أسألك أن تجعل لي العرافة من بعده . فقال النبي ﷺ : العرفاء في النار . وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الامام الجائر » . وقالت عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتي بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين في ثمرة . وقال الحسن البصري : إن النبي ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله فقال : يا رسول الله خرّ لي ، فقال اقعد في بيتك . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جيء به يوم القيامة مغلولاً أنجاه عمله ، أو أهلكه . وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك : هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذاباً يوم القيامة . قال سليمان قل : فقال طاوس أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه ، فجار في حكمه . فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي ، فما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه . وقال ابن سيرين : جاء صبيان إلى أبي عبيدة السلماني يتخيرون إليه في ألواحهم ، فلم ينظر إليها وقال : هذا حكم لا أتولى حكماً أبداً . وقال أبو بكر بن أبي مريم : حج قوم فمات صاحب لهم بأرض فلاة فلم يجدوا ماء فأتاهم رجل فقالوا له : دلنا على الماء ، فقال احلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يميناً أنه لم يكن صرافاً ، ولا مكاثاً ، ولا عريفاً ، ويروي ولا عرافاً ولا بريداً ، وأنا أدلكم على الماء فحلفوا له ثلاثاً وثلاثين يميناً كما قال فدلهم على الماء . فقالوا له أعنا على غسله فقال لا حتى تحلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يميناً كما تقدم فحلفوا له فأعانهم على غسله . ثم قالوا له تقدم فصل عليه . فقال لا حتى تحلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يميناً كما تقدم فحلفوا له فصلى عليه ثم التفتوا فلم يجدوا أحداً فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام . وقال أبو ذر رضي الله عنه : قال لي رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسي وإني أراك ضعيفاً فلا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم » .

ومن غريب ما اتفق وعجيب ما سبق ما حكي أن ملكاً من ملوك الفرس . يقال له أردشير وكان ذا مملكة

متسعة ، وجند كثير وكان ذا بأس شديد قد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع ، وأن هذه البنت بكر ذات خدر ، فسير أردشدير من يخطبها من أبيها فامتنع من إجابته ولم يرض بذلك ، فعظم ذلك على أردشير وأقسم الإيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت وليقتلنه هو وابنته شر قتلة ، وليمثلن بهما أخبث مثلة . فسار إليه أردشير في جيوشه فقاتله فقتله أردشير وقتل سائر خواصه ، ثم سأل عن ابنته المخطوبة فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسناً وجمالاً وقداً واعتدالاً فبهت أرشدير من رؤيته إياها فقالت له :أيها الملك انني ابنة الملك الفلاني ، ملك المدينة الفلانية ، وان الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه ، قبل أن تقتله أنت ، وأنه أسرني في جملة الأسرى وأتى بي في هذا القصر فلما رآتني ابنته التي أرسلت تخطبها أحبتني وسألت أباها أن يتركني عندها لتأنس بي ، فتركني لها فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحد ، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك . فقال أردشير وددت لو أني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة ، ثم إنه تأمل الجارية فرآها فائقة في الجمال فمالت نفسه إليها فأخذها للتسري . وقال : هذه أجنبية من الملك ولا أحنث في يميني بأخذها ، ثم انه واقعها وأزال بكارتها فحملت منه فلما ظهر عليها الحمل اتفق انها تحدثت معه يوماً ،وقد رأته منشرح الصدر فقالت له : أنت غلبت أبي وأنا غلبتك . فقال لها ومن أبوك ؟ فقالت له هو ملك من بحر الأردن وأنا ابنته التي خطبتها منه ، وانني سمعت أنك أقسمت لتقتلني فتحيلت عليك بما سمعت ، والآن هذا ولدك في بطني فلا يتهيأ لك قتلي . فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه فانتهرها وخرج من عندها مغضباً وعوّل على قتلها . ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها ، فلما رأى الوزير عزمه قوياً على قتلها خشي أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا ، وانه لا يقبل فيها شفاعة شافع . فقال أيها الملك : ان الرأي هو الذي خطر لك ، والمصلحة هي التي رأيتها أنت ، وقتل هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب ، لأنه أحق من أن يقال ان امرأة قهرت رأي الملك وحنثته في يمينه لأجل شهوة النفس . ثم قال أيها الملك ان صورتها مرحومة، وحمل الملك معها وهي أولى بالستر ، ولا أرى في قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق . فقال له الملك : نعم البحر أوهم من كان معه أنها الجارية ، ثم إنه أخفاها عنده فلما أصبح جاء إلى الملك فأخبره أنه غرّقها فشكره على ما فعل ، ثم ان الوزير ناول الملك حقاً مختوماً . وقال أيها الملك : اني نظرت مولدي فرأيت أجلي قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس في النجوم ، وان لي أولاداً ، وعندي مال قد ادخرته من نعمتك فخذه إذا أنامت ان رأيت ، وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادي بالسوية فإنه ارثي الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء اكتسبته منه إلا هذا الجوهر . فقال له الملك يطوّل الرب في عمرك وما لك لك ، ولأولادك سواء كنت حياً أو ميتاً فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة . فأخذه الملك وأودعه عنده في صندوق ثم مضت أشهر الجارية فوضعت ولداً ذكراً جميلاً حسن الخلقة مثل فلقة القمر فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته ، فرأى أنه إن اخترع له اسماً وسماه به وظهر لوالده بعد ذلك فيكون قد أساء الأدب ،وإن هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك فسماه (شاه بور) ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك فإن شاه ملك وبور ابن ، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم ، وتقديم المتأخر وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة ، ولم يزل الوزير يلاظف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الخط ، والحكمة ، والفروسية وهو يوهم انه مملوك له اسمه شاه بور إلى أن راهق البلوغ ، هذا كله وأردشير ليس له ولد وقد طعن في السن وأقعده هرم فمرض وأشرف على الموت فقال للوزير : لو شاء أن يكون للملك ولد كان قد ولي بعده الملك ثم ذكره بأمر

بنت ملك بحر الأردن وبحملها . فقال الملك : لقد ندمت على تغريقها ولو كنت أبقيتها حتى تضع فلعل حملها يكون ذكراً ، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا قال : أيها الملك إنها عندي حيّة ولقد وضعت ولداً ذكراً من أحسن الغلمان خلقاً وخلقاً فقال الملك : أحق ما تقول . فأقسم الوزير أن نعم ثم قال : أيها الملك ان في الولد روحانية تشهد بأبوة الأب ، وفي الوالد روحانية تشهد ببنوة الابن ، لا يكاد ذلك ينخرم أبداً ، وانني سآتي بهذا الغلام بين عشرين غلاماً في سنه وهيئته ولباسه ، وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو ، وإني سأعطي كل واحد منهم صولجاناً وكرة وآمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا ، ويتأمل الملك صورهم ، وخلقتهم ، وشمائلهم فكل من مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو . فقال الملك نعم التدبير الذي قلت . فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ، ولعبوا بين يديّ الملك فكان الصبي منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور فإنه كان إذا ضربها وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ولا تأخذه الهيبة منه . فلاحظ أردشير ذلك منه مراراً فقال له : أيها الغلام ما اسمك قال شاه بور ، فقال له : صدقت ، أنت ابني حقاً ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه . فقال له الوزير هذا هو ابنك أيها الملك ، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والداً بحضرة الملك فتحقق الصدق في ذلك . ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها فقبلت يد الملك فرضي عنها . فقال الوزير : أيها الملك قد دعت الضرورة في هذا الوقت إلى احضار الحق المختوم . فأمر الملك بإحضاره ثم أخذه الوزير ، وفك ختمه وفتحه فإذا فيه ذكر الوزير وأنثياه مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك وأحضر عدولاً من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة . قال فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في الخدمة ، وشدة مناصحته فزاد سروره ، وتضاعف فرحه لصيانة الجارية ، وإثبات نسب الولد ولحوقه به ، ثم ان الملك عوفي من مرضه الذي كان به ،وصح جسمه . ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة ورجع المُلك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه ، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير ، وشاه بور يحفظ مقامه ، ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى . والله تعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .



الباب الثامن عشر

فيما جاء في القضاء ، وذكر القضاة ، وقبول الرشوة والهدية على الحكم ، وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة

وفيه فصول

الفصل الأول فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم قال الله تعالى : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتّبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾[١] وقال تعالى ﴿ **فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط** ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾[٣] وقال رسول الله ﷺ : « من حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضياه فلم يقض بينهما بالحق ، فعليه لعنة الله » وعن أبي حازم قال : دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما فسلم عليه فلم يرد عليه . فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف أخاف أن يكون وجد عليّ خليفة رسول الله ﷺ . فكلم عبد الرحمن أبا بكر فقال : أتاني ، وبين يديّ خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري ، وعلمت أن الله سائلي عنهما ، وعمّا قالا . وقلت وادعى رجل على عليّ عند عمر رضي الله عنهما وعليّ جالس ، فالتفت عمر إليه قوال : يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك فتناظرا ، وانصرف الرجل ورجع عليّ إلى مجلسه ، فتبين لعمر التغير في وجه علي . فقال يا أبا الحسن مالي أراك متغيراً أكرهت ما كان . قال نعم . قال : وما ذاك ، قال كنيتني بحضرة خصمي هلّا قلت يا علي قم فاجلس مع خصمك . فأخذ عمر برأس علي رضي الله عنهما فقبله بين عينيه ثم قال بأبي أنتم بكم هدانا الله ، وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور . وعن أبي حنيفة رضي الله عنه : القاضي كالغريق في البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابحاً . وأراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء فأبى فحلف ليضربنه بالسياط وليسجننه فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب . فقال : الضرب بالسياط في الدنيا أهون عليّ من الضرب بمقامع[٤]، الحديد في الآخرة . وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال : أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فكشف عن باب مغلق ، فظنناه كنزاً

---

(١) سورة ص الآية ٢٦ .

(٢) سورة ص الآية ٢٢ .

(٣) سورة المائدة الآية ٤٧ .

(٤) المقمعة : العمود من حديد ، أو كالمحجن يضرب به رأس الفيل ، وخشبة يضرب بها الانسان على رأسه وجمعها : مقامع .

فكتبنا إلى أبي بكر رضي الله عنه فكتب إلينا لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي ، ثم فتح فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب ، وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان :

إذا خـان الأمـير وكـاتـبـاه   وقـاضي الأرض داهن في القضاء
فـويـل ثـم ويـل ثـم ويـل   لقـاضي الأرض من قـاضي السماء

وإذا عند رأسه سيف ، أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه:هذا سيف عاد بن إرم . عن ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله مع القاضي ما لم يجر ، فإذا جار ، بريء الله منه ، ولزمه الشيطان » . وقال محمد بن حريث : بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة واجتمع الناس إليه فكان لا يجيبهم ، فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال : اللّهم إن كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره فاقبضني إليك فقبض . وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ « القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة » . وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء : لعلك تريد أن تكون قاضياً لأن يدخل الرجل أصبعه في عينيه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضياً . وقيل أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبي برده بن أبي موسى الأشعري كان أمير البصرة وقاضياً فيها ، وكان يقول : إن الرجلين يتقدمان إليّ ، فأجد أحدهما أخف على قلبي من الآخر فأقضي له . وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيى بن أكثم مع رجل أدعى عليه بثلاثين ألف دينار فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه ، فقال له يحيى لا تأخذ على خصمك شرف الملجس ، ولم يكن للرجل بيّنة ، فأراد أن يحلف المأمون ، فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال : والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة إني تناولتك من جهة القدرة ، ثم أمر ليحيى بمال وأجزل عطاءه . وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فأرتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل . فقال أبو يوسف ، قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع يا غلام ائتني بعمرو بن أبي عمرو النخاس ، فإنه ان قدم عليّ الساعة أمرته ببيع هذا العبد ، وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين . ثم ان الحاجب أخذه بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه ، فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال له :لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم ، فإن ذلك عمود السلطان ، وقوام الأديان . والله تعالى أعلم . (وقال): الأبرش العكلي يمدح بعض القضاة :

رفضت وعـطلت الحكـومـة قبله   في آخـريـن وملها روّاضـهـا
حـتى إذا مـا قـام ألف بـينهـا   بـالحق حتى جمعت أوفـاضـهـا

وفي ضد ذلك قول بعضهم :

أبـكـي وأنـدب مـلة الاسـلام   إذا صـرت تقعـد مقعـد الحكـام
إن الحـوادث مـا علمت كثيـرة   وأراك بـعض حـوادث الأيـام

وتقدمت امرأة إلى قاض ،فقال لها جاء معك شهودك فسكتت . فقال كاتبه إن القاضي يقول لك جاء شهودك معك . قالت : نعم هلاّ قلت مثل ما قال كاتبك ، كبر سنك ، وقلّ عقلك ، وعظمت لحيتك حتى غطت على لبك ، ما رأيت ميتاً يقضي بين الأحياء غيرك . وقيل المضروب بهم المثل في الجهل ، وتحريف الأحكام قاضي

منى ، وقاضي كسكر ، وقاضي أيدج[1]، وهو الذي قال فيه أبو اسحاق الصابي :

يا رب علج[2] أعلج مثل البعير الأهوج
رأيته مطلعاً خلف باب مرتج
وخلفه عذيبة تذهب طوراً وتجي
فقلت من هذا ترى فقيل قاضي أيدج

وقاضي شلبة[3] وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري :

رأيت رأساً كدبه ولحية كالمذبة[4]
فقلت من أنت قل لي فقال قاضي شلبة

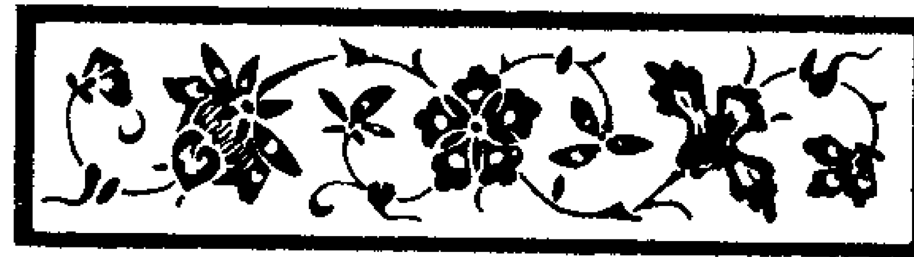
وتقدمت امرأة جميلة إلى الشعبي فادعت عنده فقضى لها فقال هذيل الأشجعي :

فتن الشعبي لما رفع الطرف إليها
فتنته ببنان كيف لو رأى معصميها
ومشت مشياً رويداً ثم هزت منكبيها
فقضى جوراً على الخصـ ـم ولم يقض عليها

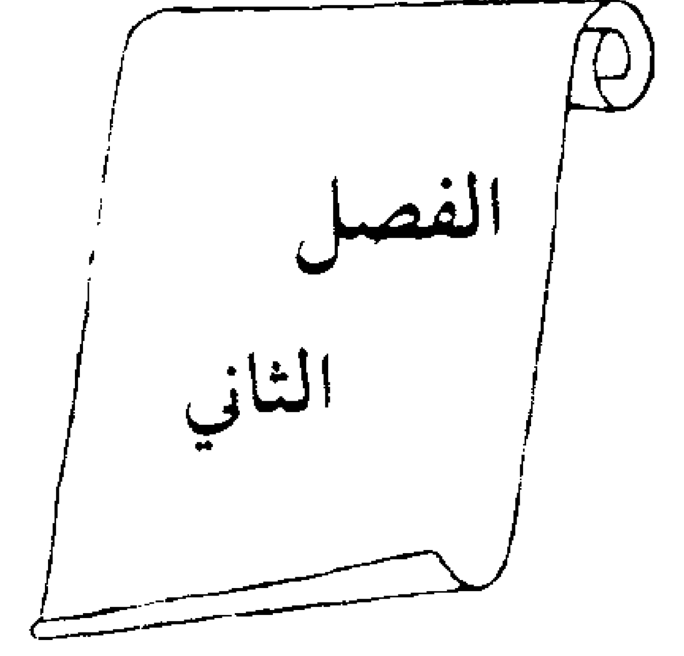
فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي فضرب الأشجعي ثلاثين سوطاً .

وحكى ابن أبي ليلى قال : انصرف الشعبي يوماً من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهي تقول : فتن الشعبي لما فتن الشعبي لما . ولم تعرف بقية البيت فلقنها الشعبي وقال رفع الطرف إليها . ثم قال أبعده الله أما أنا فما قضيت إلا بالحق . وأنشد بعضهم في أمين الحكم :

تتماوتن إذا مشيت تخشعا حتى تصيب وديعة ليتيم



(١) اسماء ثلاث بلدات.
(٢) العلج ـ بالكسر ـ العير ، والحمار ، وحمار الوحش السمين القوي . ورجل عِلجٌ : شديد صريع ، معالج للامور .
(٣) اسم بلدة .
(٤) المذبة : ذبَّ : دفع ، ومنع . والمِذبة : ما يذب به الذباب وغيره .



في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الديون

أما الرشوة فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « لعن الله الراشي والمرتشي » . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا تولوا اليهود ، ولا النصارى فإنهم يقبلون الرشا ، ولا يحل في دين الله الرشا . قال الشهيدي وأصحابنا اليوم اقبل للرشا منهم . وفي نوابغ الحكم أن البراطيل تنصر الأباطيل . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : من شفع شفاعة ليرد بها حقاً ، أو يدفع بها ظلماً فأهدي له فقبل ، فذلك السحت[1] . فقيل له ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم . قال الآخذ على الحكم كفر ، وانشد المبرد رحمه الله تعالى :

وكنت إذا خاصمت خصماً كببته على الوجه حتى خاصمتني الدراهم
فلما تنازعنا الحكومة غلبت عليّ وقالت قم فإنك ظالم

وأما الدين وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدّين وقهر الرجال :

فقد روي عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من داين بدين وفي نفسه وفاؤه ، ثم مات تجاوز الله عنه وأوصى غريمه بما شاء . ومن تداين بدين وليس في نفسه وفاؤه ، ثم مات اقتص الله لغريمه منه يوم القيامة » . وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى له بجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل ، ويسأل عن دينه فإن قيل عليه دين كف عن الصلاة عليه ، وإن قيل ليس عليه دين صلى عليه فؤتي بجنازة فلما قام ليكبر سأل ﷺ هل على صاحبكم من دين فقالوا ديناران يا رسول الله فعدل النبي ﷺ عنه ، وقال صلوا على صاحبكم . فقال علي كرم الله وجهه هما عليّ يا رسول الله وهو بريء منهما . فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ، ثم قال لعلي رضي الله عنه جزاك الله عنه خيراً ، فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك ، انه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا ومرتهن بدينه ، ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة . وقال بعض الحكما : الدين همّ بالليل ، وذلّ بالنهار ، وهو غل جعله الله في أرضه ، فإذا أراد الله أن يذل عبداً جعله طوقاً في عنقه . وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يتقاضى ديناً له على رجل فقالوا اخرج إلى الغزو . فقال أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيي ، ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضي دينه » وعن

---

(١) السحت : الحرام .

الزهري[1] قال لم يكن رسول الله ﷺ يصلي على أحد عليه دين ، ثم قال بعد ، أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، من مات وعليه دين فعليّ قضاؤه ثم صلى عليهم . وعن جابر لا هَمّ إلا هم الدين ، ولا وجع إلا وجع العين . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من تزوج امرأة بصداق ينوي أن لا يؤديه إليها فهو زان ، ومن استدان ديناً ينوي أن لا يقضيه ، فهو سارق » . وقال حبيب بن ثابت : ما احتجت إلى شيء استقرضه إلا استقرضته من نفسي . أراد أنه يصبر إلى أن تمكن الميسرة . ونظيره قول القائل :

وإذا غلى شيء عليّ تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم أيضاً :

لقد كان القريض[2] سمير قلبي فألهتني القروض عن القريض

وقال غيلان بن مردة التميمي :

وإني لأقضي الدين بالدين بعدما يرى طالبي بالدين أن لست قاضياً

فأجابه ثعلبة بن عمير :

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

واستقرض من الأصمعي خليل له فقال : حباً وكرامة ، ولكن سكن قلبي برهن يساوي ضعف ما تطلبه . فقال : يا أبا سعيد أما تثق بي . قال بلى وإن خليل الله[3] كان واثقاً بربه ، وقد قال له . ولكن ليطمئن قلبي .

اللهم أوفِ عنّا دين الدنيا بالميسرة ، ودين الآخرة بالمغفرة برحمتك يا أرحم الراحمين .



(١) هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري من بني زهرة بن كلاب ، من قريش ـ أبو بكر ـ أول من دوّن الحديث ، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء . تابعي ، من أهل المدينة . كان يحفظ الفين ومئتي حديث ، نصفها مسند . توفي سنة (١٢٤هـ ـ ٧٤٢ م).
أنظر تذكرة الحفاظ (١ : ١٠٢) وفيات الاعيان (١ : ٤٥١).

(٢) القريض الشعر .

(٣) خليل الله : المقصود سيدنا ابراهيم أبو الانبياء . عليه السلام .



في ذكر القصاص، والمتصوفة[1] وما جاء في الرياء ونحو ذلك

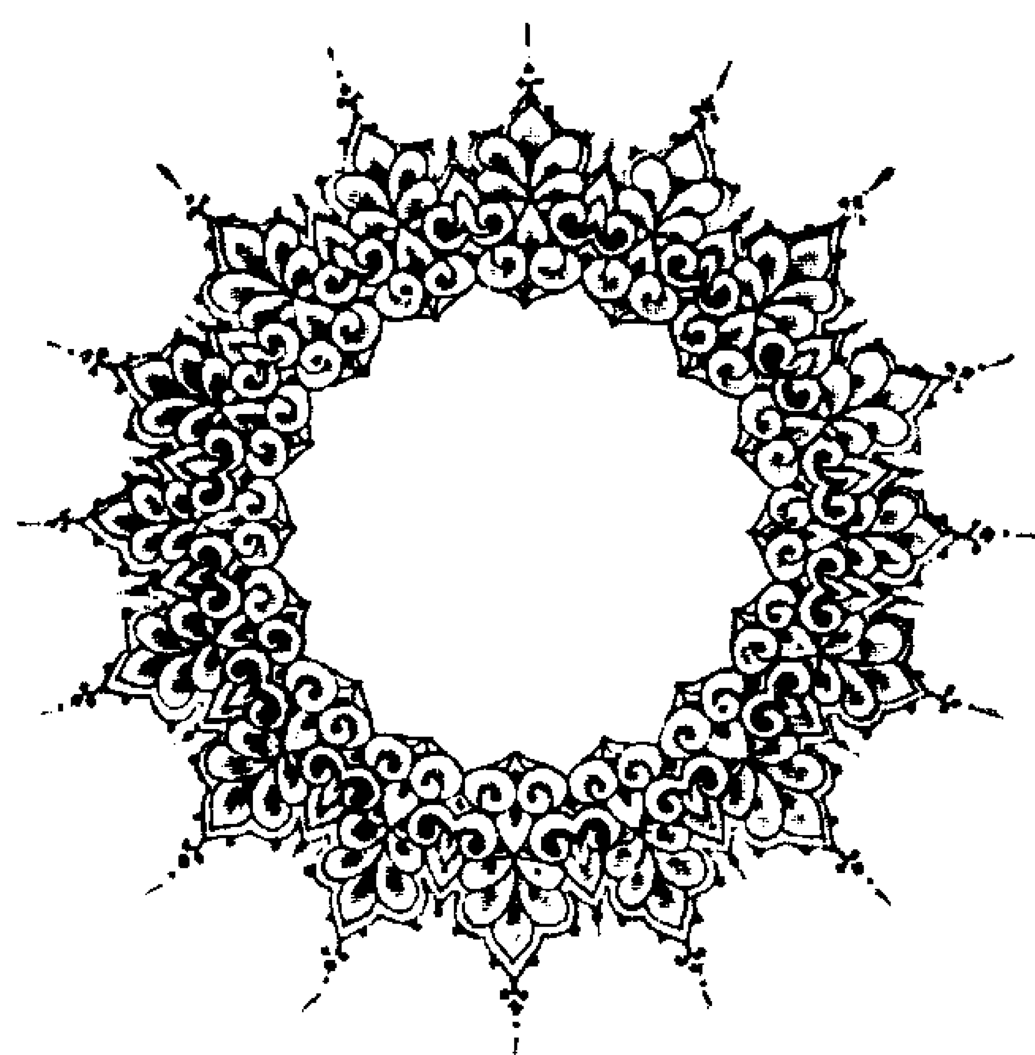
أما ما جاء في ذكر القصاص والمتصوّفة : فقد روي عن خباب بن الأرث قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بني اسرائيل لما قصوا هلكوا » وروي أن كعباً كان يقص فلما سمع الحديث ترك القصص . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وإنما كان القصص حين كانت الفتنة . وقال ابن المبارك سألت الثوري من الناس ؟ قال العلماء . قلت فمن الأشراف ؟ قال المتقون . قلت : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قلت : من الغوغاء؟ قال : القصاص الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام . قلت فمن السفهاء ؟ قال : الظلمة ؟ قيل : وهب رجل لقاض خاتماً بلا فص . فقال : وهب الله لك في الجنة غرفة بلا سقف ؟ وقال قيس بن جبير النهشلي : الصعقة التي عند القصاص من الشيطان . وقيل لعائشة رضي الله عنها : إن أقواماً إذا سمعوا القرآن صعقوا . فقالت : القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال . وسئل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن فقال : ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره ، فإن صعقوا فهو كما قالوا . وكان بمرو[2] قاض يبكي بمواعظه فإذا أطال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبوراً صغيراً فيحركه ، ويقول مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة . وقال بعضهم : قلت لصوفي بعني جبتك ؟ فقال : إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصيد. وسئل بعض العلماء عن المتصوفة فقال أكلة رقصة. وعظ عيسى عليه السلام بني اسرائيل فأقبلوا يمزقون الثياب فقال ما ذنب الثياب أقبلوا على القلوب فعاتبوها .

وأما ما جاء في الرياء : فقد قال الله تعالى : ﴿ **يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً** ﴾[3] وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا معاذ أحذر أن يرى عليك آثار المحسنين وأنت تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين » . وقيل لو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه فهو من أقبح الرياء . وقيل كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه ، غير الله فليس من الله في شيء. وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا

---

(١) المتصوفة جماعة من المسلمين لبسوا الصوف تنسكاً وزهداً لهم نظرة في الحياة منهم الحلاج وابن الفارض.
(٢) مدينة في بلاد فارس . جعلها المأمون عاصمة له فترة من الزمن .
(٣) سورة النساء الآية ١٤٢.

رسول الله . قال : الرياء . وقيل بينما عابد يمشي ومعه غمامة على رأسه تظله فجاء رجل يريد أن يستظل معه فمنعه ، وقال إن أقمت معي لم يعلم الناس أن الغمامة تظلني ، فقال له الرجل : قد علم الناس أني لست ممن تظله الغمامة فحولها الله تعالى إلى ذلك الرجل . وقال عبد الأعلى السلمي يوماً : الناس يزعمون أني مراء ، وكنت أمس والله صائماً ، ولا أخبرت بذلك أحداً . اللهم اصلح فساد قلوبنا واستر فضائحنا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب التاسع عشر

في العدل والاحسان والانصاف وغير ذلك

اعلم : أرشدك الله ، أن الله تعالى أمر بالعدل ، ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل ، بل تطلب الاحسان ، وهو فوق العدل . فقال تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى** ﴾[1] الآية فلو وسع الخلائق العدل ما قرن الله به الاحسان ، والعدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي ، والمحق من المبطل . واعلم أن عدل الملك يوجب محبته ، وجوره يوجب الافتراق عنه . وأفضل الأزمنة ثواباً أيام العدل . وروينا من طريق أبي نعيم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لعمل الامام العادل في رعيته يوماً واحداً ، أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام أو خمسين عاماً » وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » . وروينا في سنن أبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الامام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء » . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لكعب الأحبار : أخبرني عن جنة عدن . قال : يا أمير المؤمنين : لا يسكنها إلا نبي ، أو صديق ، أو شهيد ، أو إمام عادل . فقال عمر : والله ما أنا نبي وقد صدقت رسول الله ﷺ ، وأما الامام العادل فإني أرجو أن لا أجور ، وأما الشهادة فإني لي بها . قال الحسن فجعله الله صديقاً شهيداً . حكماً عدلاً . وسأل الاسكندر حكماء أهل بابل[2] أيما أبلغ عندكم الشجاعة ، أو العدل . قالوا : إذا استعملنا العدل ، استغنينا به عن الشجاعة . ويقال عدل السلطان أنفع من خصب الزمان . وقيل إذا رغب السلطان عن العدل رغبت الرعية عن طاعته . وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته ، ويسأله مالا يرممها به . فكتب إليه عمر قد فهمت كتابك ، فإذا قرأت كتابي فحصن مدينتك بالعدل ، ونق طرقها من الظلم فإنه مرمتها والسلام . ويقال ان الحاصل من خراج سواد العراق في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف فلم يزل يتناقص حتى صار في زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف . فلما ولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ارتفع في

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٢) بابل : مدينة قديمة على نهر الفرات في بلاد العراق ، قرب مدينة الحلة . فيها برج مشهور يدعى برج بابل ويقال ان من بناه هم أبناء نوح عليه السلام حيث تبلبلت ألسنتهم وتفرقوا في البلاد .

السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف ، وفي الثانية إلى ستين ألف ألف وقيل أكثر . وقال ان عشت لابلغنه إلى ما كان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فمات في تلك السنة . ومن كلام كسرى : لا ملك إلا بالجند ، ولا جند إلا بالمال ، ولا مال إلا بالبلاد ، ولا بلاد إلا بالرعايا ، ولا رعايا إلا بالعدل .

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون الناس ، ولأمير المؤمنين المنصور . فكتب المنصور لعامله :استوف لأمير المؤمنين حقه ، وفرق ما بقي بين الغرماء ، فلم يلتفت إلى كتابه وضرب للمنصور بسهم من المال ، كما ضرب لأحد الغرماء . ثم كتب للمنصور اني رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء . فكتب إليه المنصور مُلئت الأرض بك عدلاً . وكان أحمد بن طولون والي مصر متحلياً بالعدل مع تجبره ، وسفكه للدماء ، وكان يجلس للمظالم ، وينصف المظلوم من الظالم .

حكي أن ولده العباس استدعى بمغنية ، وهو يصطبح يوماً فلقيها بعض صالحي مصر ومعها غلام يحمل عوده فكسره فدخل العباس إليه وأخبره بذلك . فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح فلما أحضر إليه قال : أنت الذي كسرت العود . قال : نعم . قال :افعلمت لمن هو ؟ قال : نعم هو لابنك العباس ، قال : أفما أكرمته لي ؟ قال : أكرمه لك بمعصية الله عز وجل ، والله تعالى يقول : ﴿**والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾(١) ، ورسول الله ﷺ يقول : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » فاطرق أحمد بن طولون عند ذلك ثم قال : كل منكر تراه فغيّره وأنا من ورائك . ووقف يهودي لعبد الملك بن مروان فقال : يا أمير المؤمنين ان بعض خاصتك ظلمني فانصفني منه ، وأذقني حلاوة العدل ، فأعرض عنه . فوقف له ثانياً فلم يلتفت إليه ، فوقف له مرة ثالثة وقال : يا أمير المؤمنين أنا نجد في التوراة المنزلة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه، ان الامام لا يكون شريكاً في ظلم أحد حتى يرفع إليه فإذا رفع إليه ذلك ولم يزله فقد شاركه في الظلم والجور . فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث في الحال إلى من ظلمه فعزله وأخذ لليهودي حقه منه .

وروي أن رجلاً من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له فأتى إلى المنصور فقال له : أصلحك الله يا أمير المؤمنين ، أأذكر حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلاً . فقال : بل اضرب المثل . فقال : إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفزع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها ، وظناً منه أن لا ناصر له غيرها ، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه ، فإذا بلغ وصار رجلاً وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه ، فإذا زاد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان . وقد نزلت بي نازلة ، وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله تعالى فإن أنصفتني ، وإلا رفعت أمري إلى الله تعالى في الموسم فإني متوجه إلى بيته وحرمه . فقال المنصور : بل ننصفك وأمر أن يكتب إلى واليه برد ضيعته إليه . وكان الاسكندر يقول : يا عباد الله إنما إلهكم الله الذي في السماء الذي نصر نوحاً بعدحين ، الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة ، وإليه مفزعكم عند الكرب ، والله لا يبلغني ان الله تعالى أحب شيئاً إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلي ، ولا أبغض شيئاً إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي ، وقد أنبئت إن الله تعالى يحب العدل في عباده ، ويبغض الجور من بعضهم على بعض ، فويل للظالم من سيفي وسوطي ، ومن ظهر منه العدل من عمالي فليتكىء في مجلسي كيف شاء ،

---

(١) سورة التوبة الآية ٧١.

وليتمن عليّ ما شاء ، فلن تخطئه أمنيته والله تعالى المجازي كلا بعمله . ويقال إذا لم يعمر الملك ملكه بالانصاف خرب ملكه بالعصيان .

وقيل : مات بعض الاكاسرة فوجدوا له سفطاً ففتح فوجد فيه حبة رمان كأكبر ما يكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها ، هذه من حب رمان عمل في خراجه بالعدل .

وقيل : تظلم أهل الكوفة من واليهم فشكوه إلى المأمون فقال : ما علمت في عمالي أعدل ، ولا أقول بأمر الرعية ، وأعود بالرفق عليهم منه . فقال رجل منهم يا أمير المؤمنين ما أجد أولى بالعدل والانصاف منك ، فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلداً بلداً ، حتى يلحق كل بلد من عدله مثل الذي لحقنا ، ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا ، وإذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين . فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم . وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة فنزل بواصل بن عطاء[1] وقال : بلغني أبيات عن سليم بن يزيد العدوي في العدل ، فقم بنا إليه . فأشرف عليهم من غرفة فقال لواصل من هذا الذي معك ، قال عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم . فقال رحب على رحب ، وقرب على قرب فقال : إنه يحب أن يسمع أبياتك في العدل فقال : سمعاً وطاعة وأنشد يقول :

حتى متى لا نرى عدلاً نسر به ... ولا نرى لولاة الحق أعوانا
مستمسكين بحق قائمين به ... إذا تلوّن أهل الجور ألوانا
يا للرجال لداء لا دواء له ... وقائد ذي عمى يقتاد عميانا

فقال المنصور : وددت لو أني رأيت يوم عدل ، ثم مت . وقيل : لما ولى عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم فابتدأ بأهل بيته فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه فقال لها ان رسول الله ﷺ سلك طريقاً ، فلما قبض سلك أصحابه به ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ، فلما أفضى الأمر إلى معاوية جره يميناً وشمالاً ، وأيم الله لئن مدّ في عمري لأردنه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ، وأصحابه . فقالت له : يا ابن أخي إني أخاف عليك منهم يوماً عصياً . فقال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا أمننيه الله . وقال وهب بن منبه : إذا همّ الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق ، والزروع ، والضروع ، وكل شيء ، وإذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك . وقال الوليد بن هشام : إن الرعية لتصلح بصلاح الوالي ، وتفسد بفساده . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أن ملكاً من الملوك خرج يسير في مملكته متنكراً فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه بأخذها فلما

---

(١) هو واصل بن عطاء الغزال ، أبو حنيفة من موالي بني ضبة أو بني مخزوم ، رأس المعتزلة ، ومن أئمة البلغاء والمتكلمين . سمي اصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري . ومنهم طائفة تنسب إليه ، تسمى « الواصلية ». وهو الذي نشر مذهب « الاعتزال » في الآفاق. حيث ارسل من أصحابه عبد الله بن الحارث إلى المغرب ، وحفص بن سالم إلى خراسان ، والقاسم إلى اليمن ، وأيوب إلى الجزيرة ، والحسن بن زكوان إلى الكوفة ، وعثمان الطويل إلى ارمينية . توفي سنة (١٣١هـ - ٧٤٨ م). وله تصانيف منها : « أصناف المرجئة » و« معاني القرآن » و« السبيل إلى معرفة الحق » و« التوبة ».
انظر : وفيات الاعيان (٢ : ١٧٠) النجوم الزاهرة (١ : ٣١٣ - ٣١٤).

كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالأمس فقال له الملك : ما بال حلبها نقص أرعت في غير مرعاها بالأمس . فقال : لا ، ولكن أظن أن ملكنا رآها أو وصله خبرها فهم بأخذها فنقص لبنها ، فإن الملك إذا ظلم أو همّ بالظلم ذهبت البركة ، فتاب الملك وعاهد ربه في نفسه أن لا يأخذها ، ولا يحسد أحداً من الرعية ، فلما كان من الغد حلبت كعادتها . ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو ، وان كل قصبة منها تعصر قدحاً ، فعزم الملك على أخذها منها ثم أتاها وسألها عن ذلك . فقالت : نعم ثم إنها عصرت قصبة فلم يخرج منها نصف قدح ، فقال لها أين الذي كان يقال . فقالت : هو الذي بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني فارتفعت البركة منها . فتاب الملك وأخلص لله النية وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبداً ، ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح .

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمه الله في كتابه سراج الملوك قال : حدثني بعض الشيوخ ممن كان يروي الأخبار بمصر قال : كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب[1] ولم يكن في ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فغصبها السلطان فلم تحمل شيئاً في ذلك العام ، ولا تمرة واحدة . وقال لي شيخ من أشياخ الصعيد أعرف هذه النخلة وقد شاهدتها وهي تحمل عشرة أرادب ستين ويبة ، وكان صاحبها يبيعها في سني الغلاء كل ويبة بدينار .

وحكى أيضاً رحمه الله تعالى قال : شهدت في الاسكندرية والصيد مطلق للرعية ، السمك يطفو على الماء لكثرته ، وكانت الأطفال تصيده بالخرق من جانب البحر ، ثم حجزه الوالي ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا ، وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية ، إن خيراً فخير وان شراً فشر . وروى أصحاب التواريخ في كتبهم قالوا : كان الناس إذا أصبحوا في زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا من قتل البارحة ، ومن صلب ، ومن جلد ، ومن قطع ، وما أشبه ذلك . وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع ، فكان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان ، والمصانع والضياع ، وشق الأنهار ، وغرس الأشجار . ولما ولي سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح ، كان الناس يتحدثون ويتساءلون في الأطعمة الرفيعة ، ويتغالون في المناكح والسراري ، ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك . ولما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن ، وكم وردك كل ليلة ، وكم يحفظ فلان ، وكم يختم ، وكم يصوم من الشهر وما أشبه ذلك . فينبغي للامام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضي الله عنهم ويقتدي بهم في الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محالة هالك . وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبي مرسل أو ملك مقرب . وقد قيل إن مثله كمثل الرياح التي يرسلها الله تعالى بشراً بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحاً للثمرات ، وروحاً للعباد ، ولو تتبعت ما جاء في العدل والانصاف وفضل الامام العادل لألفت في ذلك مجموعاً جامعاً لهذا المعنى ، ولكن اقتصرت على ما ذكرته مخافة أن يمله الناظر ويسأمه السامع ، وبالله التوفيق إلى أقوم طريق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) الإردب : مكيال ضخم بمصر يساوي : اربعة وعشرين صاعاً .

الباب العشرون

في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك

قال الله تعالى : ﴿ **ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون** ﴾[2] قيل هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم وقال تعالى : ﴿ **إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها**[3]﴾ وقال تعالى : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون** ﴾[4] وقال رسول الله ﷺ : « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الاسلام » . وقال أيضاً ﷺ : « رحم الله عبداً كان لأخيه قبله مظلمة في عرض أو مال فأتاه فتحلله منها قبل أن يأتي يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم » . وقال أيضاً ﷺ : « من اقتطع حق امرىء مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال له رجل : يا رسول الله ولو كان شيئاً يسيراً قال ولو كان قضيباً من أراك » وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أوحى الله تعالى إليّ يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتاً من بيوتي ، ولا أحد من عبادي عند أحد منهم مظلمة ، فإني ألعنه ما دام قائماً يصلي بين يديّ حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويكون من أوليائي وأصفيائي ، ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنة » . وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إياك ودعوة المظلوم فإنما يسأل الله تعالى حقه » . وعنه ﷺ أنه قال : « ما من عبد ظُلم فشخص ببصره إلى السماء إلا قال الله عز وجل لبيك عبدي حقاً لأنصرنك ولو بعد حين » . وعنه أيضاً أنه قال : « إلا أن الظلم ثلاثة ، فظلم لا يغفر ، وظلم لا يترك ، وظلم مغفور لا يطلب . فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله والعياذ بالله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[5] وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً ، وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب فظلم العبد نفسه . ومر رجل

---

(١) سورة الاعراف الآية ٤٣ .

(٢) سورة ابراهيم الآية ٤٢ .

(٣) سورة الكهف الآية ٢٩ .

(٤) السورة الشعراء الآية ٢٢٧ .

(٥) سورة النساء الآية ٤٨.

برجل قد صلبه الحجاج فقال : يا رب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين . فنام تلك الليلة فرأى في منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة فرأى ذلك المصلوب في أعلى عليين ، وإذا مناد ينادي :حلمي على الظالمين أحل المظلومين في أعلى عليين . وقيل من سلب نعمة غيره ، سلب نعمته غيره ، وسمع مسلم بن بشار رجلاً يدعو على من ظلمه ، فقال له : كل الظالم إلى ظلمة فهو أسرع فيه من دعائك . ويقال : من طال عدوانه زال سلطانه . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم . ورؤي لوح في أفق السماء مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحته هذا البيت :

فلم أر مثل العدل للمرء رافعاً ولم أر مثل الجور للمرء واضعا

وقال الشاعر :

كنت الصحيح وكنا منك في سقم فإن سقمت فأنا السالمون غدا
دعت عليك أكفُ طالما ظُلمت ولن تردّ يد مظلومة أبداً

وكان معاوية يقول : إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصراً إلا الله . وقال أبو العيناء كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود ، وقلت قد تضافروا عليّ وصاروا يداً واحدة . فقال : يد الله فوق أيديهم . فقلت له ان لهم مكراً ، فقال ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . قلت : هم فئة كثيرة . فقال : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . وقال يوسف بن أسباط من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله في أرضه . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال أبو القاسم ﷺ: « من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه » . وقال مجاهد يسلط الله على أهل النار الجرب فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام ، فيقال لهم : هل يؤذيكم هذا فيقولون أي والله ، فيقال لهم : هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لما كشف العذاب عن قوم يونس عليه السلام ترادوا المظالم بينهم ، حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه . وقال أبو ثور بن يزيد : الحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه . وقال غيره : لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب . وقال بعض الحكماء : اذكر عند الظلم عدل الله فيك ، وعند القدرة قدرة الله عليك ، لا يعجبك رحب الذراعين سفاك الدماء فإن له قاتلاً لا يموت . وقال سحنون بن سعيد : كان يزيد بن حاتم يقول : ما هبت[1] شيئاً قط هيبتي من رجل ظلمته ، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله ، فيقول حسبك الله ، الله بيني وبينك . وقال بلال بن مسعود : اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله . وبكى علي بن الفضل يوماً فقيل له ما يبكيك . قال أبكي على من ظلمني إذا وقف غدا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة . وروي أن النبي ﷺ قال : « يقول الله تعالى اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيري . » ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر : يا سليمان اذكر يوم الاذان فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل ، فقال له ما يوم الآذان فقال : قال الله تعالى : ﴿ فأذن مؤذن بينهم أن لعنةُ الله على الظالمين ﴾[2] ، قال : ففما ظلامتك قال :

---

(١) سورة الاعراف الآية ٤٣ .

أرض لي مكان كذا وكذا أخذها وكيلك ، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضاً مع أرضه · وروي أن كسرى أنو شروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق في العلوم ، فضربه المعلم يوماً من غير ذنب ، فأوجعه فحقد أنو شروان عليه ، فلما ولي الملك قال للمعلم ما حملك على ضربي يوم كذا وكذا ظلماً فقال له : لما رأيتك ترغب في العلم ، رجوت لك الملك بعد أبيك فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم . فقال أنو شروان زه زه[1]. وقال محمد بن سويد وزير المأمون :

فلا تأمنن الدهر حراً ظلمته ... فما ليل حر إن ظلمت بنائم

وروي أن بعض الملوك رقم على بساطه :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم مصدره يفضي إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

وما أحسن ما قال الآخر :

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما تدري بما صنع الدعاء
سهام الليل نافذة ولكن ... لها أمد وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربي ... ويرسلها إذا نفذ القضاء

وقال أبو الدرداء : إياك ودمعة اليتيم ، ودعوة المظلوم فإنها تسري بالليل والناس نيام . وقال الهيثم بن فراس السامي من بني سامة بن لؤي في الفضل بن مروان :

تجبرت يا فضل بن مروان فاعتبر ... فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم ... أبادهم الموت المشتت والقتل

يريد الفضل بن الربيع ، والفضل بن يحيى ، والفضل بن سعد · ووجدت تحت فراش يحيى بن خالد البرمكي رقعة مكتوب فيها :

وحق الله إن الظلم لؤم ... وإن الظلم مرتعه وخيم
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

ووجد القاسم بن عبيد الله وزير المكتفي في مصلاه رقعة مكتوب فيها :

بغى وللبغي سهام تنتظر ... أنفذ في الأحشاء من وخز الأبر
سهام أيدي القانتين في السحر

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء : ما كنت لألي هذا بعدما حدثني ابراهيم . قال : وما حدثك ابراهيم ، قال : حدثني عن علقمة عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم

---

(١) لفظة استحسان كما تقول : أحسنت . وقد تستعمل في التهكم أيضاً .

القيامة نادى مناد أين الظلمة ، وأعوان الظلمة ، وأشياع الظلمة حتى من برى لهم قلماً أو لاق لهم دواة فيجمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في نار جهنم » . وروى هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال : جلس أبي للمظالم يوماً فلما انقضى المجلس رأى رجلاً جالساً ، فقال له ألك حاجة ؟ قال : نعم أدنني إليك فإني مظلوم ، وقد أعوزني العدل والانصاف . قال : ومن ظلمك قال أنت ولست أصل إليك ، فأذكر حاجتي . قال وما يحجبك وقد ترى مجلسي مبذولاً ، قال : يحجبني عنك هيبتك ، وطول لسانك ،وفصاحتك. قال : ففيم ظلمتك ، قال : في ضيعتي الفلانية أخذها وكيلك غصباً مني بغير ثمن ، فإذا وجب عليها خراج أديته باسمي لئلا يثبت لك اسم في ملكها فيبطل ملكي . فوكيلك يأخذ غلتها ، وأنا أؤدي خراجها ، وهذا لم يسمع بمثله في المظالم . فقال له محمد : هذا قول تحتاج معه إلى بيّنة وشهود وأشياء ، فقال له الرجل : أيؤمنني الوزير من غضبه حتى أجيب . قال : نعم قد أمنتك . قال : البيّنة هم الشهود ، وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شيء آخر . فما معنى قوله بيّنة وشهود وأشياء ، وأي شيء هذه الأشياء ، إن هي إلا الجور وعدولك عن العدل ، فضحك محمد وقال : صدقت والبلاء موكل بالمنطق ، وإني لأرى فيك مصطنعاً ، ثم وقع له بردّ ضيعته ، وأن يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من أصحابه ، فكان قبل أن يتوصل إلى الانصاف وإعادة ضيعته له يقال له : يا فلان كيف الناس فيقول : بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر ، فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك وردّ عليه ضيعته وأنصفه قال له ليلة : كيف الناس الآن ؟ قال بخير قد اعتمدت معهم الانصاف ورفعت عنهم الاجحاف ، ورددت عليهم الغصوب ، وكشفت عنهم الكروب وأنا أرجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب ، والفوز بكل مطلوب .

ومما نقل في الآثار الاسرائيلية في زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلاً من ضعفاء بني اسرائيل كان له عائلة ، وكان صياداً يصطاد السمك ويقوّت منه أطفاله وزوجته . فخرج يوماً للصيد فوقع في شبكته سمكة كبيرة ففرح بها ثم أخذها ومضى إلى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها في مصالح عياله ، فلقيه بعض العوانية فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد فرفع العواني خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصباً بلا ثمن فدعا الصياد عليه وقال : إلهي جعلتني ضعيفاً ، وجعلته قوياً عنيفاً ، فخذْ لي بحقي منه عاجلاً ، فقد ظلمني ولا صبر لي إلى الآخرة . ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها ، فلما شوتها قدمتها له ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فاها ونكزته في أصبع يده نكزة طار بها عقله ، وصار لا يقربها قراره فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل بها فلما رآها قال له إن دواءها أن تقطع الأصبع لئلا يسري الألم إلى بقية الكف . فقطع اصبعه فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد ، وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائصه فقال له الطبيب : ينبغي أن تقطع اليد إلى المعصم لئلا يسري الألم إلى الساعد فقطعها ، فانتقل الألم إلى الساعد ،فما زال هكذا كلما قطع عضواً انتقل الألم إلى العضو الآخر الذي يليه ،حتى خرج هائماً على وجهه مستغيثاً إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به . فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها فنام فرأى في منامه قائلاً يقول: يا مسكين إلى كم تقطع أعضاءك ، أمض إلى خصمك الذي ظلمته فارضه . فانتبه من النوم وفكّر في أمره فعلم أن الذي أصابه من جهة الصياد ، فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى إليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه وطلب منه الإقالة مما جناه ، ودفع إليه شيئاً من ماله وتاب من فعله فرضي عنه خصمه الصياد فسكن في الحال ألمه.وبات تلك الليلة ، فرد الله تعالى عليه يده كما كانت ونزل الوحي على موسى عليه السلام : يا موسى وعزتي وجلالي لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته .

(ومما تضمنته أخبار الأخيار) ما رواه أنس رضي الله عنه قال : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك . فقال عمر رضي الله عنه : لقد عذت بمجير فما شأنك ، فقال : سابقت بفرسي ابناً لعمرو بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقنعني بسوطه ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فبلغ ذلك عمراً أباه فخشى أن آتيك فحبسني في السجن فانفلتُ منه فهذا الحين أتيتك . فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان . وقال للمصري : أقم حتى يأتيك . فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضي عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه الى جانبه قام المصري فرمى إليه عمر رضي الله عنه بالدّرة ، قال أنس رضي الله عنه فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين : قال : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت قال ضعها على ضلع عمرو فقال : يا أمير المؤمنين لقد ضربت الذي ضربني ، قال أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع. ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال : يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول : إني لم أشعر بهذا * وقيل لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه ، وتوجهوا إلى السيدة نفيسة[1] يشكونه إليها فقالت لهم: متى يركب.قالوا : في غد . فكتبت رقعة وقفت بها في طريقه وقالت : يا أحمد ، يا بن طولون ، فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه ، وأخذ منها الرقعة وقرأها ، فإذافيها: ملكتم فأسرتم ، وقدتم فقهرتم ، وخوّلتم فعسفتم ، ووردت إليكم الأرزاق فقطعتم . هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموها ، وأكباد جوعتموها ، وأجساد عريتموها . فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم ، اعملوا ما شئتم فإنا صابرون وجوروا فإنا إلى الله مستجيرون ، واظلموا فإنا بالله متظلمون ، ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾[2] . قال : فعدل لوقته .

وحكي أن الحجاج حبس رجلاً في حبسه ظلماً فكتب إليه رقعة فيها ، قد مضى من بؤسنا أيام ، ومن نعيمك أيام ، والموعد القيامة ، والسجن جهنم ، والحاكم لا يحتاج إلى بيّنة وكتب في آخرها :

ستعلم يا نؤوم إذا التقينا غداً عند الاله مَنْ الظلوم
أما والله ان الظلم لؤم وما زال الظلوم هو الملوم
سينقطع التلذذ عن أناس أداموه وينقطع النعيم
إلى ديّان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

وحكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحي قال : كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار، فنام بعد أن أكل ، فانتبه منزعجاً وقال : يا خدم . فأسرعنا الجواب فقال : ويلكم أعينوني والحقوا بالشط بأول

(١) هي نفسية بنت الحسن بن يزيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب . عالمة بالحديث والتفسير ، ولدت بمكة سنة (١٤٥هـ - ٧٦٢ م). ونشأت في المدينة ، وتزوجت اسحاق المؤتمن ابن جعفر الصادق وانتقلت إلى القاهرة وتوفيت فيها سنة (٢٠٨هـ - ٨٢٤ م).

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٢٧.

ملاح ترونه منحدراً في سفينة فارغة فاقبضوا عليه وائتوني به ، ووكلوا بالسفينة من يحفظها . فأسرعنا فوجدنا ملاحاً في سفينة فارغة فقبضنا عليه ، ووكلنا بها من يحفظها ، وصعدنا به إلى المعتضد . فلما رآه الملاح كاد يتلف ، فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال : أصدقني يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التي قتلتها اليوم ، وإلا ضربت عنقك . فتلعثم وقال : نعم كنت سحراً في المشرعة الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها ، عليها ثياب فاخرة ، وحليّ كثيرة ، وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سددت فمها وأغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها ، ثم طرحتها في الماء ، ولم أجسر على حمل سلبها إلى داري لئلا يفشوا الخبر عليّ فعوّلت على الهرب والانحدار إلى واسط[1] فصبرت إلى أن خلا الشط في هذه الساعة من الملاحين وأخذت في الانحدار فتعلق بي هؤلاء القوم فحملوني إليك . فقال : وأين الحليّ والسلب قال في صدر السفينة تحت البواري . قال المعتضد عليّ به الساعة فحضروا به فأمر بتغريق الملاح ، ثم أمر أن ينادي ببغداد من خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سحراً ، وعليها ثياب فاخرة ، وحليّ فليحضر . فحضر في اليوم الثاني ثلاثة من أهلها وأعطوا صفتها ، وصفة ما كان عليها فسلم ذلك إليهم . قال : فقلت يا مولاي من أعلمك ، أو أوحي إليك بهذه الحالة ، وأمر هذه الصبيّة فقال : بل رأيت في منامي رجلاً شيخاً أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التي قتلها اليوم ظلماً ، وسلبها ثيابها ، وأقم عليه الحد ولا يفتك ، فكان ما شاهدتم . فيتعين على كل ولي أمر أن يعدل في الأحكام ، وأن يتبصر في رعيته ، وعلى كل عاقل أن يكف يده عن الظلم ، ويسلك سنن العدل ، ويعامل بالنصفة ويراقب الله في السر والعلانية ، ويعلم أن الله يجازي على الخير والشر ، ويعاقب الظالم على ظلمه ، وينتصر للمظلوم ، ويأخذ له حقه ممن ظلمه ، وإذا أخذ الظالم لم يفلته . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .



---

(١) مدينة في بلاد العراق تقع بين البصرة والكوفة .

الباب الحادي والعشرون

في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال وسيرة السلطان في استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة

وفيه فصلان

الفصل الأول

في سيرة السلطان في اسجباء الخراج والانفاق من بيت المال وسيرة العمال

قال جعفر بن يحيى : الخراج عماد الملوك وما استعزوا بمثل العدل ، وما استنذروا بمثل الظلم ، وأسرع الأمور في خراب البلاد ، تعطيل الأرضين ،وهلاك الرعية ، وانكسار الخراج من الجور. ومثل السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع . فهو ان شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى ، وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع . ومثل من كلّف الرعية فوق طاقتهم كالذي يطين سطحه بتراب أساس بيته ، وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين ، فيتركونها فتخرب الأرض ، ويهرب المزارعون ، فتضعف العمارة ، ويضعف الخراج ، وينتج من ذلك ضعف الأجناد ، وإذا ضعف الجند طمع الأعداء في السلطان .

وروي : أن المأمون أرق ذات ليلة فاستدعى سميراً يحدثه فقال : يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة ، وبالبصرة بومة فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها فقالت بومة البصرة: لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعلي في صداق ابنتي مائة ضيعة خربة . فقالت بومة الموصل : لا أقدر عليها ، لكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك . قال فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض ، وتفقد أمور الولاة والعمال والرعية . وقال أبو الحسن بن علي الأسدي أخبرني أبي قال : وجدت في كتاب قبطي باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون في زمن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه، من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين (أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة دينار) من ذلك ما ينصرف

في عمارة البلاد كحفر الخلجان ، والانفاق على الجسور ، وسد الترع ، وتقوية من يحتاج إلى التقوية ، من غير رجوع عليه بها لاقامة العوامل والتوسعة في البلدان وغير ذلك من الآلات . وأجرة من يستعان به لحمل البذر ، وسائر نفقات تطبيق الأرض (ثمانمائة ألف دينار) ولما ينصرف للأرامل والأيتام ، وإن كانوا غير محتاجين ، حتى لا يخلوا أمثالهم من برّ فرعون (أربعمائة ألف دينار) ولما ينصرف لكهنتهم ، وبيوت صلاتهم (مائتا ألف دينار) ولما ينصرف في الصدقات مما يصب صبا ، وينادي عليه برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر ، فيحضر لذلك جمع كثير (مائتا ألف دينار) فإذا فرقت الأموال على أربابها دخل أمناء فرعون إليه وهنؤوه بتفرقة الأموال ، ودعوا له بطول البقاء ، ودوام الغز والنعماء والسلامة وأنهوا إليه حال الفقراء ، فيأمر بإحضارهم وتغيير شعثهم[1] ويمد لهم السماط[2] فيأكلون بين يديه ، ويشربون ويستفهم من كل واحد منهم عن سبب فاقته فإن كان ذلك من آفة الزمان زاد عليه مثل الذي كان له . ولما ينصرف في نفقات فرعون الراتبة في كل سنة (مائتا ألف دينار) ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك ، ويجعله في بيت المال لنوائب الزمان (أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار) وقال أبو رهم : كانت أرض مصر أرضاً مدبرة حتى ان الماء ليجري تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه حيث شاؤوا ، ويرسلونه حيث شاؤوا ، وذلك قول فرعون : **﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾** [3] الآية وكان ملك مصر عظيماً لم يكن في الأرض أعظم منه ملكا ، وكانت الجنان بحافتيّ النيل متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء ، والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد ، وكانت أرض مصر كلها تروي من ستة عشر ذراعاً لما دبروا من جسورها ، وحافاتها . والزروع ما بين الجبلين من أولها إلى آخرها وذلك قوله تعالى : **﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم ﴾**[4] ، وقال : عبد الله بن عمر رضي الله عنهما استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ في حفره وتدبيره . فجعل أهل القرى يسألونه أن يجري لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالاً فكان يذهب به من قرية إلى قرية من المشرق إلى المغرب ، ومن الشمال إلى القبلة ، ويسوقه كيف أرادوا إلى حيث قصد فليس خليج بمصر أكثر عطوفاً منه . فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة ، فحملها إلى فرعون وأخبره بالخبر فقال له فرعون انه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده ، ويفيض عليهم من خزائنه ، وذخائره ، ولا يرغب فيما بأيديهم . ردّ على أهل القرى أموالهم فرد عليهم ما أخذه منهم . فإذا كانت هذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه ، ولا يخاف عذابه ، ولا يؤمن بيوم الحساب ، فكيف تكون سيرة من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ويوقن بالحساب ، والثواب والعقاب . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : **﴿ اجعلني على خزائن الارض ﴾**[5] قال هي خزائن مصر ، ولما استوثق أمر مصر ليوسف عليه السلام وكمل وصارت الأشياء إليه وأراد الله تعالى أن يعوضه على صبره ، لما لم يرتكب محارمه ، وكانت مصر أربعين فرسخاً في مثلها ، وما أطاع يوسف فرعون وهو الريان بن مصعب ، وناب عنه إلا بعد أن دعاه إلى الاسلام فأسلم . وكانت السنون التي حصل فيها الغلاء والجوع . مات العزيز وتملك يوسف ، وافتقرت زليخا[6] وعمي بصرها فجعلت تتكفف

---

(١) الشعث : تلبد الشعر ، والاشعث : مغبر الشعر ، والتشعث : التفرق .

(٢) ما يوضع عليه الطعام .

(٣) سورة الزخرف الآية ٥١ .

(٤) سورة الدخان الآية ٢٥، ٢٦ .

(٥) سورة يوسف الآية ٥٥ .

(٦) زليخا زوجة العزيز التي راودت يوسف عن نفسه . أنظر سورة يوسف الآية ٢٣ .

الناس ، فقيل لها لو تعرضت للملك ربما يرحمك ويعينك ويغنيك فطالما كنت تحفظينه وتكرمينه . ثم قيل لها لا تفعلي لأنه ربما يتذكر ما كان منك إليه من المراودة والحبس فيسيء إليك ويكافئك على ما سبق منك إليه . فقالت أنا أعلم بحلمه وكرمه فجلست له على رابية في طريقه يوم خروجه ، وكان يركب في زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته فلما أحست به قامت ونادت سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم ، والعبيد ملوكاً بطاعتهم . فقال يوسف عليه السلام من أنت ؟ فقالت أنا التي كنت أخدمك بنفسي ، وأرجل شعرك بيدي ، وأكرم مثواك بجهدي ، وكان مني ما كان وقد ذقت وبال أمري ، وذهبت قوتي ، وتلف مالي ، وعمي بصري ، وصرت أسأل الناس فمنهم من يرحمني ، ومنهم من لا يرحمني . وبعدما كنت مغبوطة أهل مصر كلها ، صرت مرحومتهم بل محرومتهم وهذا جزاء المفسدين . فبكى يوسف عليه السلام بكاءاً شديداً وقال لها : هل في قلبك من حبك إياي شيء ؟ قالت نعم والذي اتخذ ابراهيم خليلاً لنظرة إليك أحب إليّ من ملء الأرض ذهباً وفضة ، فمضى يوسف وأرسل إليها يقول إن كنت أيما تزوّجناك ، وإن كنت ذات بعل أغنيناك . فقالت لرسول الملك أنا أعرف أنه يستهزىء بي ، هو لم يردني في أيام شبابي وجمالي ، فكيف يقبلني وأنا عجوز عمياء فقيرة . فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت وتزوّج بها . وأدخلت عليه فصف يوسف عليه السلام قدميه وقام يصلي ، ودعا الله تعالى باسمه العظيم الأعظم فرد الله عليها حسنها ، وجمالها ، وشبابها ، وبصرها كهيئتها يوم راودته.فواقعها فإذا هي بكر فولدت له أفراثيم بن يوسف ، ومنشا بن يوسف وطاب في الاسلام عيشهما حتى فرق الموت بينهما . فينبغي للقوي أن لا ينسى الضعيف ، وللغني أن لا ينسى الفقير فرب مطلوب يصير طالباً ، ومرغوب فيه يصير راغباً ، ومسؤول يصير سائلاً ، وراحم يصير مرحوماً ، فنسأل الله تعالى أن يرحمنا برحمته ، ويغنينا بفضله . ولما ملك يوسف عليه السلام خزائن الأرض كان يجوع ويأكل من خبز الشعير . فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض ، فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع .

ومن حسن سيرة العمال ما روي أن عمر رضي الله عنه استعمل على حمص رجلاً يقال له عمير بن سعد ، فلما مضت السنة كتب إليه عمر رضي الله عنه ان أقدم علينا . فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه ماشياً حافياً ، عكازته بيده ، وأدواته ومزوده وقصعته على ظهره . فلما نظر إليه عمر قال له يا عمير أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء ؟ فقال يا أمير المؤمنين : أما نهاك الله أن تجهر بالسوء ، وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدنيا أجرّها بقرابها . فقال له وما معك من الدنيا قال عكازة أتوكأ عليها ، وأدفع بها عدواً إن لقيته ، ومزود أحمل فيه طعامي ، وإدواة(1) أحمل فيها ماء لشربي ولطهوري. وقصعة أتوضأ فيها ، وأغسل فيها رأسي وآكل فيها طعامي ، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معي . قال فقام عمر رضي الله عنه من مجلسه إلى قبر رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه فبكى بكاء شديداً ، ثم قال اللهم ألحقني بصاحبيّ غير مفتضح ولا مبدل . ثم عاد إلى مجلسه فقال ما صنعت في عملك يا عمير؟ فقال : أخذت الابل من أهل الابل ، والجزية من أهل الذمة ، عن يد وهم صاغرون . ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به . فقال عمر عد إلى عملك يا عمير . قال : أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تردني إلى أهلي ، فأذن له فأتى أهله ، فبعث عمر رجلاً يقال له حبيب بمائة دينار وقال له اختبر لي عميراً . وأنزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله ، هل هو في سعة أم ضيق ، فإن كان في ضيق فادفع إليه المائة دينار ، فأتاه حبيب فنزل به ثلاثاً ، فلم ير له عيشاً إلا الشعير

(1) الاداوة : إناء صغير من الجلد يتخذ للماء.

والزيت . فلما مضت ثلاثة أيام قال يا حبيب ان رأيت أن تتحول إلى جيراننا ، فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشاً منا ، فإننا والله وتالله لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به . قال فدفع إليه المائة دينار ، وقال قد بعث بها أمير المؤمنين إليك فدعا بفر وخلق لأمرأته فجعل يضر منها الخمسة دنانير ، والستة ، والسبعة ، ويبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفذها . فقدم حبيب على عمر وقال جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهد الناس ، وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير . فأمر له عمر بوسقين[1] من طعام ، وثوبين . فقال يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما ، وأما الوسقان فلا حاجة لي بهما ، عند أهلي صاع من برّ هو كافيهم حتى أرجع إليهم .

وروي : أن عمر رضي الله عنه صرّ أربعمائة دينار ، وقال للغلام اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح[2] ثم تربص عنده في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع بها فذهب بها الغلام إليه وقال له يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اجعل هذه في بعض حوائجك قال وصله الله ورحمه ثم دعا بجاريته وقال لها اذهبي بهذه السبعة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد عد مثلها لمعاذ بن جبل فقال له انطلق بها إلى معاذ بن جبل وانظر ما يكون من أمره فمضى إليه وقال له كما قال لأبي عبيدة بن الجراح ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة ، فرجع الغلام فأخبره عمر ، فقال انهم اخوة بعضهم من بعض رضي الله تعالى عنهم أجمعين .



في أحكام أهل الذمة

روي عن عبد الرحمن بن غنم قال كتبنا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام . بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من نصارى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا ، وذرارينا ، وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حواليها كنيسة ، ولا ديراً ، ولا قلية[3] ولا صومعة راهب . ولا نجدد ما خرّب منها ولا ما كان مختطاً منها في خطط المسلمين في ليل ولا في نهار وأن نوسع أبوابها للمار ، وابن السبيل ، وأن ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤدي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتمه عن المسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا

---

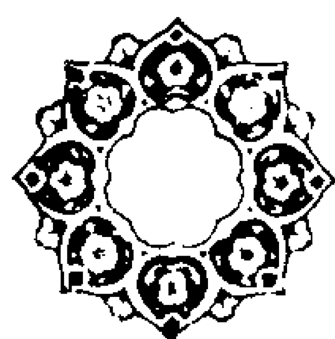
(١) الوسق : ستون صاعاً ، أو حمل بعير . ووسق الحنطة توسيقاً : جعلها وسقاً وسقاً ، وأوسق البعير : حمّله حمله .
(٢) هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي . أمير ، قائد ، فاتح الديار الشامية . صحابي ، واحد العشرة المبشرين بالجنة . قال ابن عساكر : داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة . وكان لقبه امين الامة . ولد بمكة سنة (٤٠ق .هـ ـ ٥٨٤ م) وهو من السابقين إلى الاسلام ، وشهر المشاهد كلها ، وولاه عمر بن الخطاب قيادة الجيش الزاحف إلى الشام ، بعد خالد بن الوليد ، فتم له فتح الديار الشامية . توفي سنة (١٨هـ ـ ٦٣٩ م) .
أنظر : ابن عساكر (٧ : ١٥٧) . صفوة الصفوة (١ : ١٤٢) .
(٣) القلية : كلمة يونانية ، هي حجرة الناسك .

نظهر شرعنا ، ولا ندعو إليه أحد ، ولا نمنع أحداً من ذوي قراباتنا الدخول في دين الاسلام ان أراده ، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا . إذا أرادوا الجلوس وأن لا نتشبه بالمسلمين في شيء من ملابسهم من قلنسوة ، ولا عمامة ولا نعلين ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب في السروج ، ولا نتقلد بالسيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا . ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمر وأن نجزّ مقادم رؤوسنا ، ونلزم زيّنا حيثما كنا . وأن نشد الزنار على أوساطنا ، ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا في شيء من أسواق المسلمين وطرقهم ، ولا نضرب بالنواقيس في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً . ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ، ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، ولا نتطلع على منازلهم . وقد شرطنا ذلك على أنفسنا وعلى أهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان . فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حل بنا ما يحل بأهل المعاندة والشقاق . فكتب إليه عمر رضي الله عنه أن أمض ما سألوه والحق فيه حرفين واشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم . أن لا يشتروا شيئاً من سبايا المسلمين ، ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده . وروي أن بني ثعلبة دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين : أنّا قوم من العرب أفرض لنا . قال نصارى ؟ قالوا نصارى . قال ادعوا إليّ حجاماً ففعلوا ، فجزّ نواصيهم ، وشق من أرديتهم حزماً يحتزمون بها ، وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج ، وأن يركبوا على الأكف من شق واحد . وروي أن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل أقصى اليهود والنصارى ، ولم يستعملهم وأذلهم وأبعدهم وخالف بين زيهم ، وزي المسلمين وقرب منه أهل الحق وأبعد عنه أهل الباطل ، فأحيا الله به الحق ، وأمات به الباطل ، فهو يذكر بذلك ويترحم عليه ما دامت الدنيا . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لا تستعملوا اليهود والنصارى فإنهم أهل رضا في دينهم ، ولا يحل في دين الله الرشا . ولما استقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه،أبا موسى الأشعري رضي الله عنه،من البصرة وكان عاملاً عليها للحساب دخل على عمر وهو في المسجد فاستأذن لكاتبه ، وكان نصرانياً فقال عمر قاتلك الله وضرب بيده على فخذه وليت ذمياً على المسلمين . أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض** ﴾[1] الآية ، هلا اتخذت حنيفاً فقال يا أمير المؤمنين لي كتابته ، وله دينه فقال لا أكرمهم ، إذا أهانهم الله ، ولا أعزهم إذ أذلهم الله ، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله . وكتب بعض العمال إلى عمر رضي الله عنه إن العدو قد كثر، وإن الجزية قد كثرت أفنستعين بالأعاجم؟ فكتب إليه أنهم أعداء الله ، وانهم لنا غششة فأنزلوهم حيث أنزلهم الله . لما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرة ، فقال : اني أريد أن أتبعك ، وأصيب معك . قال أتؤمن بالله ورسوله قال لا . قال ارجع فلن نستعين بمشرك . ثم لحقه عند الشجرة فقال جئتك لأتبعك وأصيب معك . قال أتؤمن بالله ورسوله قال لا قال فارجع فلن نستعين بمشرك . ثم لحقه عند ظهر البيداء فقال له مثل ذلك فأجابه بمثل الأول فقال نعم . فخرج به وفرح المسلمون وكان له قوة وجلد . وهذا أصل عظيم في أن لا يستعان بكافر . هذا ، وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي ﷺ، ويراق دمه فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه إلى عماله أن لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن . فكتبوا إليه انا قد وجدنا فيهم خيانة ، فكتب إليهم ان لم يكن في أهل القرآن خير ، فأجدر أن لا

---

(١) سورة المائدة الآية ٥١.

يكون في غيرهم . قال أصحاب الشافعي :ويلزمهم أن يتميزوا في اللباس عن المسلمين وأن يلبسوا قلانس ، يميزونها عن قلانس المسلمين بالحمرة ، ويشدوا الزنانير على أوساطهم ، ويكون في رقابهم خاتم من نحاس ، أو رصاص ، أو جرس يدخلون به الحمام وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات (١) وأما المرأة فإنها تشد الزنار تحت الأزار ، وقيل فوق الأزار وهو الأولى . ويكون في عنقها خاتم تدخل به الحمام . ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض . ولا يركبون الخيل ، ولا البغال ولا الحمير ، إلا بالأكف عرضاً ، ولا يركبون بالسروج . ولا يتصدرون في المجالس ، ولا يبدأون بالسلام ، ويلجأون إلى أضيق الطرق ويمنعون أن يتطاولوا على المسلمين في البناء وتجوز المساواة ، وقيل لا تجوز . وإن تملكوا داراً عالية أقروا عليها ، ويمنعون من إظهار المنكر ، كالخمر ، والخنزير ، والناقوس ، والجهر بالتوراة ، والانجيل . ويمنعون من المقام في أرض الحجاز ، وهي مكة والمدينة واليمامة ، وان امتنعوا من أداء الجزية ، والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم . وإن زنى أحد منهم بمسلمة ، أو أصابها بنكاح ، أو آوى عيناً للكفار ، أو دل على عورة المسلمين ، أو فتن مسلماً عن دينه ، أو قتله ، أو قطع عليه الطريق ، تنتقض ذمته . وفي تقدير الجزية اختلاف بين العلماء فمنهم من قال إنها مقدرة الأقل ، والأكثر على ما كتب به عمر رضي الله عنه إلى عثمان بن حنيف بالكوفة ، فوضع على الغني ثمانية وأربعين درهماً ، وعلى من دونه أربعة وعشرين درهماً ، وعلى من دونه اثني عشر درهماً . وذلك بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، ولم يخالفه أحد ، وكان الصرف اثنا عشر بدينار وهذا مذهب أبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، وأحد قوليّ الشافعي . ويجوز للامام أن يزيد على ما قدره عمر ، ولا يجوز أن ينقص عنه ، ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين . وأما الكنائس فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تهدم كل كنيسة بعد الاسلام ، ومنع أن تجدد كنيسة وأمر أن لا تظهر عليه خارجة من كنيسة . ولا يظهر صليب خارج من كنيسة ، إلا كسر على رأس صاحبه ، وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء . وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين وشدّد في ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر أن لا يترك في دار الاسلام بيعة ، ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة . والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) الطيلسان : الاسود والطيلسان أيضاً : الاعجمي . والمقصود هنا كساء أخضر يلبسه المشايخ والعلماء وهو مأخوذ من لباس العجم .

الباب الثاني والعشرون

في اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم

قال الله تعالى : ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم**[1] ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى**[2] ﴾ وقال رسول الله ﷺ : « من مشى في عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين في سبيل الله » وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الخلق كلهم عيال الله ، فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله » . رواه البزار ، والطبراني في معجمه . ومعنى عيال الله فقراء الله تعالى ، والخلق كلهم فقراء الله تعالى ، وهو يعولهم . وروينا في مسند الشهاب عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « خير الناس أنفعهم للناس » . وعن كثير بن عبيد بن عمر وابن عوف المزني عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ان لله خلقاً خلقهم لقضاء حوائج الناس آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار ، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى والناس في الحساب » . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من سعى لأخيه المسلم في حاجة فقضيت له أو لم تقض غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكتب له براءتان : براءة من النار ، وبراءة من النفاق » . وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفاً عند ميزانه ، فإن رجح ، وإلا شفعت له » . رواه أبو نعيم في الحلية وروينا في مكارم الأخلاق لأبي بكر الخرائطي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة ، وكفر عنه سبعين سيئة ، فإن قضيت حاجته على يده خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . فإن مات في خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب » . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من مشى مع أخيه في حاجة فناصحه فيها جعل الله بينه وبين النار سبع خنادق ، ما بين الخندق والخندق ، كما بين السماء والأرض » . رواه أبو نعيم وابن أبي الدنيا . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ان لله عند أقوام نعماً يقرها عندهم ما داموا في حوائج الناس ما لم يملوا ، فإذا ملوا نقلها الله إلى غيرهم » . رواه الطبراني . وروينا من طريق الطبراني باسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل حوائج الناس إليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال » . وعن

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٧ .

(٢) سورة المائدة الآية ٢ .

أنس بن مالك رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ : «أتدرون ما يقول الأسد في زئيره. قالوا الله ورسوله أعلم قال : يقول اللهم لا تسلطني على أحد من أهل المعروف ». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قيل يا رسول الله أي الناس أحب إليك ، قال أنفع الناس للناس . قيل يا رسول الله فأي الأعمال أفضل ، قال: ادخال السرور على المؤمن . قيل وما سرور المؤمن قال اشباع جوعته ، وتنفيس كربته ، وقضاء دينه . ومن مشى مع أخيه في حاجة كان كصيام شهر واعتكافه ، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام ، ومن كف غضبه ستر الله عورته ، وان الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل . وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من لقي أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك ، سره الله يوم القيامة ». رواه الطبراني في الصغير باسناد حسن . وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أدخل على أهل بيت من المسلمين سروراً لم يرض الله له سروراً دون الجنة . رواه الطبراني . وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أدخل رجل على مؤمن من سرور إلا خلق الله من ذلك السرور ملكاً يعبد الله تعالى ، ويوحد . فإذا صار العبد في قبره أتاه ذلك السرور فيقول له أما تعرفني فيقول له من أنت ؟ فيقول أنا السرور الذي أدخلتني على فلان ، أنا اليوم أؤانس وحشتك ، وألقنك حجتك ، وأثبتك بالقول الثابت وأشهد مشاهدك يوم القيامة ، وأشفع لك إلى ربك . وأريك منزلك في الجنة ». رواه ابن أبي الدنيا. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يرفعه إذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران ، وآية الكرسي . وإنا أنزلناه في ليلة القدر ، وأم الكتاب فإن فيها حوائج الدنيا والآخرة وهو حديث مرفوع . ومن كلام الحكماء : إذا سألت كريماً حاجة فدعه يفكر ، فإنه لا يفكر إلا في خير . وإذا سألت لئيماً حاجة فعالجه لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل . وسأل رجل رجلاً حاجة ثم توانى عن طلبها ، فقال له المسؤول أنمت عن حاجتك فقال ما نام عن حاجته من أسهرك لها ، ولا عدل بها عن محجة النجح من قصدك بها فعجب من فصاحته ، وقضى حاجته وأمر له بمال جزيل . وقال مسلمة لنصيب سلني . فقال : كفك بالعطية أبسط من لساني بالمسألة فأمر له بألف دينار . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها . وعنه أيضاً قال لا تكثر على أخيك الحوائج فان العجل إذا أفرط في مص ثدي أمه نطحته . وقال ذو الرياستين لثمامة بن أشرس : ما أدرى ما أصنع بكثرة الطلاب . فقال : زل عن موضعك وعليّ أن لا يلقاك منه أحد . فقال له صدقت وجلس لهم في قضاء حوائجهم . وحدث أبو جعفر بن محمد بن القاسم الكرخي قال عرضت على أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات[1] رقعة في حاجة لي فقرأها ووضعها في يده ولم يوقع فيها بشيء ، فأخذتها وقمت وأنا أقول متمثلاً من حيث يسمع هذين البيتين :

وإذا خطبت إلى كريم حاجة ... وأبى فلا تقعد عليه بحاجب
فلربما منع الكريم وما به ... بخل ولكن سوء حظ الطالب

---

(١) الفرات : اسرة وزراء وكتاب عباسيين.

فقال : وقد سمع ما قلت ، ارجع يا أبا جعفر بغير سوء حظ الطالب ، ولكن إذا سألتمونا الحاجة فعاودونا فإن القلوب بيد الله تعالى. فأخذ الرقعة ووقع فيها بما أردت · وسأل اسحاق بن ربيعي اسحاق بن ابراهيم المصعبي أن يوصل له رقعة إلى المأمون فقال لكاتبه ضمها إلى رقعة فلان فقال :

تـأن لحـاجـتي واشـدد عـراهـا ... فـقـد أضحت بمنـزلـة الضيـاع
إذا شـاركـتـهـا بـلـبـان أخـرى ... أضـرّ بهـا مـشـاركـة الـرضـاع

(وقال أبو دقاقة البصري) :

أضحت حـوائجنا إلـيـك مناخـة ... معقـولـة بـرحـابـك الـوصـال
أطلق فـديتـك بـالنجاح عقـالها ... حتى تثـور معـاً بـغـير عـقـال

(وقال سلم الخاسر) :

إذا أذن الله في حـاجـة ... أتـاك الـنـجـاح عـلى رسـلـه
فـلا تسـأل النـاس من فضلهم ... ولـكـن سـل الله مـن فـضـلـه

(ولله درّ القائل حيث قال) :

أيهـا المـادح الـعـبـاد لـيـعـطي ... ان لله مـا بـأيـدي الـعـبـاد
فـأسـأل الله مـا طـلبت إلـيـهـم ... وارج فـرض المـقـسـم الجـوّاد

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضي الله تعالى عنهم قال :أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجة ، فقال إذا كانت لك حاجة إليّ فارسل إليّ رسولاً ، أو أكتب لي كتاباً ، فإني لأستحي من الله أن يراك ببابي . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : الذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً ، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الابل . وقال لجابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما : يا جابر من كثرت نعم الله عليه ، كثرت حوائج الناس إليه ، فإن قام بما يجب لله فيها عرضها للدوام والبقاء ، وإن لم يقم فيها بما يجب لله ، عرضها للزوال . نعوذ بالله من زوال النعمة ، ونسأله التوفيق والعصمة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .



الباب الثالث والعشرون

في محاسن الأخلاق ومساويها

قال الله تعالى لنبيه ﷺ :﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[1]، فخص الله تعالى نبيه ﷺ من كريم الطباع ، ومحاسن الأخلاق ، من الحياء ، والكرم ، والصفح ، وحسن العهد ، بما لم يؤته غيره . ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشيء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق فقال تعالى : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾[1] قالت عائشة رضي الله عنها كان خلقه القرآن ، يغضب لغضبه ، ويرضى لرضاه . وكان الحسن رضي الله عنه إذا ذكر رسول الله ﷺ قال :أكرم‌ولد آدم على الله عزّ وجل ، أعظم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزلة عند الله . أتى بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند الله تعالى ، وكان يأكل على الأرض ، ويجلس على الأرض ، ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد ، ولا يأكل متكئاً ، ولا على خوان ، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ، وكان يأكل القثاء بالرطب . ويقول برد هذا يطفيء حر هذا ، وكان أحب الطعام إليه اللحم ويقول هذا يزيد في السمع ، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل.وكان يحب الدباء[1] ويقول يا عائشة إذا طبختم قدراً فأكثروا فيه من الدباء[2]، فإنها تشد قلب الحزين . وكان يقول إذا طبختم الدبّاء فأكثروا من مرقها ، وكان يكتحل بالاثمد [3]. ولا يفارقه في سفره قارورة الدهن والكحل والمرآة والمشط والابرة يخيط ثوبه بيده ، وكان يضحك من غير قهقهة ، ويرى اللعب المباح ولا ينكره ، وكان يسابق أهله . قالت عائشة رضي الله عنها سابقته فسبقته ، فلما كثر لحمي سابقته فسبقني فضرب بكتفي . وقال هذه بتلك . وكان له عبيد وإماء لا يرتفع على أحد منهم في مأكل ولا مشرب ، ولا ملبس ، وهو أميّ لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ في بلاد الجهل والصحارى يتيماً لا أب له ولا أم . فعّلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق ، وكان أفصح الناس منطقاً ، وأحلاهم كلاماً ، وكان يقول أنا أفصح العرب وقال أنس رضي الله عنه والذي بعثه بالحق نبياً ما قال لي في شيء قطكرهه ،لم فعلته؟ ،ولا في شيء لم أفعله لم لا فعلته . ولا لامني أحد من أهله إلا قال دعوه إنما كان هذا بقضاء وقدر . وقال بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى لا مانع من أن

---

(١) سورة ن الآية ٤ .

(٢) الدباء : مفردها دبّاءة وهي القرع .

(٣) الاثمد : ـ بالكسر ـ حجر للكحل .

النبي ﷺ إذا هضم نفسه وتواضع لا يمنع من المرتبة التي هي أعلى مرتبة من العبودية . فالنبي ﷺ أعطاه الله تعالى مرتبة الملك مع كونه عبداً له متواضعاً . فحاز المرتبتين : مرتبة العبودية ومرتبة الملكية ومع ذلك كان يلبس المرقع والصوف ، ويرقع ثوبه ، ويخصف[1] نعله ، ويركب الحمار بلا أكاف ، ويردف خلفه . ويأكل الخشن من الطعام وما شبع قط من خبز ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى من دعا لبّاه . ومن صافحه لم يرفع يده ، حتى يكون هو الذي يرفعها ، يعود المريض ، ويتبع الجنائز ، ويجالس الفقراء ، أعظم الناس من الله مخافة ، وأتعبهم لله عز وجل بدناً ، وأجدهم في أمر الله لا تأخذه في الله لومة لائم ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . أما والله ما كان تغلق من دونه الأبواب ، ولا كان دونه حجاب ﷺ . وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة قط ولا خادماً له ، ولا ضرب بيده شيئاً إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خيّر بين أمرين إلا واختار أيسرهما ، إلا أن يكون آثماً أو قطيعة رحم ، فيكون أبعد الناس منه . وقال ابراهيم بن عباس : لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ بمحاسن الناس لرجحت وهي قوله عليه الصلاة والسلام : « انكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم بأخلاقكم ». وفي رواية أخرى فسعوهم ببسط الوجه والخلق الحسن . وعنه ﷺ « حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في أنف صاحبه ، والزمام بيد الملك ، والملك يجره إلى الخير ، والخير يجره إلى الجنة . وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه ، والزمام بيد الشيطان ، والشيطان يجره إلى الشر ، والشر يجره إلى النار ». وقال بعض السلف الحسن ، الخلق ذو قرابة عند الأجانب ، والسيء الخلق أجنبي عند أهله . وقال الفضيل لأن يصحبني فاجر حسن الخلق ، أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق ، لأن الفاجر إذا حسن خلقه خف على الناس وأحبوه ، والعابد إذا ساء خلقه مقتوه .

إذا رام التخلق جاذبته خلائقه إلى الطبع القديم

قيل : أبى الله لسيء الخلق التوبة ، لأنه لا يخرج من ذنب ، إلا دخل في ذنب آخر لسوء خلقه . وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ : إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان ، ولكن يقول ما بال أقوام يقولون ، حتى لا يفضح أحداً . وعنه صلى الله عليه وسلّم ما شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق . وعنه أيضاً ﷺ قال : « ثلاث من كنّ فيه ، كنّ له ، من صدق لسانه ، زكا عمله ، ومن حسنت نيته زيد في رزقه ، ومن حسن بره لأهل بيته زيد له في عمره ». ثم قال وحسن الخلق ، وكف الأذى يزيدان في الرزق . وقيل سوء الخلق يعدي ، لأنه يدعو إلى أن يقابل بمثله . وكتب الحسن بن علي إلى أخيه الحسين رضي الله عنهم في إعطائه الشعراء . فكتب إليه الحسين أنت أعلم مني بأن خير المال ما وقى به العرض . فانظر إلى شرف أدبه ، وحسن خلقه ، كيف ابتدأ كتابه بأنت ، أعلم مني ، وكان بينه وبين أخيه كلام ، فقيل له أدخل على أخيك ، فهو أكبر منك فقال اني سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول : « ايما اثنين بينهما كلام فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة » وأنا أكره أن أسبق أخي الأكبر إلى الجنة . فبلغ ذلك الحسن فجاء عاجلاً رضي الله عنهما وأنشد في المعنى :

واني لألقى المرء أعلم أنه عدوّ وفي أحشائه الضغن كامن
فأمنحه بشراً فيرجع قلبه سليماً وقد ماتت لديه الضغائن[2]

---

(١) خصف النعل يخصفها : خرزها .

(٢) الضغائن مفردها ضغينة ، الحقد.

وسرق بعض حاشية جعفر بن سليمان، جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل فأنفذ إلى الجوهريين بصفتها. فقالوا باعها فلان من مدة، ثم ان ذلك الرجل الذي سرقها قبض عليه وأحضر بين يدي جعفر. فلما رأى ما ظهر عليه قال له: أراك قد تغيرلونك،ألست يوم كذا طلبت مني هذه الجوهرة فوهبتها لك. وأقسم بالله لقد أنسيت هذا، ثم أمر للجوهري بثمنها. وقال للرجل خذها الآن حلالاً طيباً وبعها بالثمن الذي يطيب خاطرك به، لا تبع بيع خائف. ودخل محمد بن عباد على المأمون فجعل يعممه بيده وجارية على رأسه تبتسم. فقال لها المأمون: مم تضحكين. فقال ابن عباد أنا أخبرك يا أمير المؤمنين: تتعجب من قبحي، وإكرامك إياي. فقال لا تعجبي، فإن تحت هذه العمامة كرماً ومجداً قال الشاعر:

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم إذا كان الأعراض غير حسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى فما كل مصقول الحديد يماني

(وحكي) أن بهرام الملك خرج يوماًللصيد فانفرد عن أصحابه فرأى صيداً، فتبعه طامعاً في لحاقه حتى بعد عن عسكره، فنظر إلى راع تحت شجرة فنزل عن فرسه ليبول وقال للراعي: احفظ عليّ فرسي حتى أبول. فعمد الراعي إلى العنان وكان ملبساً ذهباً كثيراً، فاستغفل بهرام، وأخرج سكيناً فقطع أطراف اللجام، وأخذ الذهب الذي عليه، فرفع بهرام نظره إليه فرآه فغض بصره وأطرق برأسه إلى الأرض، وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته. ثم قام بهرام فوضع يده على عينيه وقال للراعي قدّم إليّ فرسي فإنه قد دخل في عيني من سافي [1] الريح فلا أقدر على فتحهما، فقدمه إليه فركبه وسار إلى أن وصل إلى عسكره فقال لصاحب مراكبه أن أطراف اللجام قد وهبتها فلا تتهمن بها أحداً.

وذكر أن أنوشروان وضع الموائد للناس في يوم نيروز وجلس ودخل وجوه أهل مملكته في الايوان، فلما فرغوا من الطعام جاؤوا بالشراب، واحضرت الفواكه، والمشموم في آنية الذهب والفضة، فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال وخبأه تحت ثيابه، وأنو شروان يراه، فلما فقده الشرابي صاح بصوت عال لا يخرجن أحد حتى يفتش. فقال كسرى ولمَ؟ فأخبره بالقضية فقال قد أخذه من لا يرده، ورآه من لا ينم عليه، فلا تفتش أحداً. فأخذ الرجل الجام، ومضى، فكسره وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه، وجدد له كسوة جميلة، فلما كان في مثل ذلك اليوم جلس الملك، ودخل ذلك الزجل بتلك الحلية فدعاه كسرى وقال له: هذا من ذاك،فقبل الأرض وقال نعم أصلحك الله. وقال عبد الله بن طاهر كنت عند المأمون يوماً فنادى بالخادم: يا غلام، فلم يجبه أحد ثم نادى ثانياً وصاح يا غلام، فدخل غلام تركي وهو يقول ما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب. كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام إليّ، كم يا غلام فنكس المأمون رأسه طويلاً فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليّ. فقال يا عبد الله ان الرجل إذا حسنت أخلاقه، ساءت أخلاق خدمه، وإذا ساءت أخلاقه، حسنت أخلاق خدمه، وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة والياً وكأن وجهه ورقة من ورق المصحف، فوالله ما ترك فينا فقيراً، إلا أغناه، ولا مديوناً إلا أدّى عنه دينه، وكان ينظر إلينا بعين أرق من الماء، ويكلمنا

---

(١) السفيف: نبت. واسم لابليس. وحزام الرجل. وسفّ الطائر: مر على وجه الأرض.

بكلام أحلى من الجنى ، ولقد شهدت منه مشهداً لو كان من معاوية لذكرته . تغدينا يوماً عنده فأقبل الفراش بصحفه فعثر في وسادة فوقعت الصحفة من يده فوالله ما ردها الا ذقن الوليد وانكب جميع ما فيها في حجره . فبقي الغلام متمثلاً واقفاً ما معه من روحه إلا ما يقيم رجليه ، فقام الوليد فدخل فغير ثيابه ، وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته ، فأقبل على الفراش ، وقال يا بائس ما أرانا إلا روعناك اذهب فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى . ومرض أحمد بن أبي داود فعاده المعتصم وقال : نذرت إن عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار . فقال له أحمد : يا أمير المؤمنين فاجعلها في أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة . فقال نويت أن أتصدق بها على من ههنا ، وأطلق لأهل الحرمين مثلها ، فقال أحمد متع الله الاسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين ، فإنك كما قال النميري لأبيك الرشيد رحمه الله تعالى عليه :

إن المكارم والمعروف أودية ... أحلك الله منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين الله معتصماً ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع

وقيل للأحنف بن قيس[1] : ممن تعلمت حسن الخلق فقال من قيس بن عاصم ، بينما هو ذات يوم جالس في داره إذ جاءته خادم له بسفود[2] عليه شواء حار ، فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له فقتله لوقته فدهشت الجارية فقال :لا روع عليك، أنت حرة لوجه الله تعالى . وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا رأى أحداً من عبيده يحسن صلاته يعتقه فعرفوا ذلك من خلقه فكانوا يحسنون الصلاة مرآة له فكان يعتقهم فقيل له في ذلك : فقال من خدعنا في الله انخدعنا له . وروي أن أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع في وقت الهاجرة فألقي عليه من فوق سطح طست رماد فتغير أصحابه وبسطوا ألسنتهم في الملقي للرماد . فقال أبو عثمان لا تقولوا شيئاً فإن من استحق أن يصب عليه النار ، صولح بالرماد ، لم يجز له أن يغضب . وقيل لابراهيم بن أدهم تغمده الله تعالى برحمته ، هل فرحت في الدنيا قط : فقال : نعم مرتين : إحداهما أني كنت قاعداً ذات يوم فجاء انسان فبال عليّ ، والثانية كنت جالساً فجاء إنسان فصفعني . وروي أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه دعا غلاماً له فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فرآه مضطجعاً فقال : أما تسمع يا غلام ؟ قل نعم . قال فما حملك على ترك جوابي ؟ قال أمنت عقوبتك فتكاسلت . فقال اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى .

(وحكي) ان أبا عثمان الحيري دعاه إنسان إلى ضيافة فلما وافى باب الدار قال له الرجل : يا أستاذ ليس لي وجه في دخولك فانصرف رحمك الله . فانصرف أبو عثمان ، فلما وافى منزله عاد الرجل إليه وقال يا أستاذ ندمت ، وأخذ يعتذر له ، وقال احضر الساعة فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال في الأولى : ثم فعل به ذلك أربع

---

(١) الاحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي - ابو بحر - واحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين . يضرب به المثل في الحلم . ولد في البصرة سنة (٣ ق . هـ - ٦١٩ م) ادرك النبي ﷺ ولم يره . ووفد على عمر حين آلت إليه الخلافة في المدينة ، فاستبقاه عمر ، فمكث عاماً ، وأذن له فعاد إلى البصرة . شهد الفتوح ، واعتزل الفتنة يوم الجمل . توفي سنة (٧٢هـ - ٦٩١ م).
أنظر طبقات ابن سعد (٧ : ٦٦) ابن خلكان (١ : ٢٣٠).

(٢) السفور : حديدة يشوى بها ، وتسفيد اللحم : نظمه في السفود .

مرات ، وأبو عثمان ينصرف ويحضر ثم قال له يا أستاذ إنما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك ، ثم جعل يعتذر له ويمدحه . فقال أبو عثمان : لا تمدحني على خلق تجده في الكلاب فإن الكلب إذا دعي حضر وإذا ذجر انزجر . وقال الحرث بن قصي يعجبني من القراء كل فصيح مضحاك ، فأما الذي تلقاه ببشر ، ويلقاك بوجه عبوس ، فلا كثر الله في المسلمين مثله (ومن محاسن الأخلاق) ما حكي عن القاضي يحيى بن أكثم[1] قال : كنت نائماً ذات ليلة عند المأمون فعطش، فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فينغص عليّ نومي فرأيته وقد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيهالكيزان،نحو من ثلثمائة خطوة فأخذ منها كوزاً فشرب . ثم رجع يمشي على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه فخطا خطوات خائف لئلا ينبهني حتى صار إلى فراشه . ثم رأيته آخر الليل قام يبول وكان يقوم في أول الليل وآخره فقعد طويلاً يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام ، فلما تحركت وثب قائماً وصاح يا غلام وتأهب للصلاة ، ثم جاءني فقال لي كيف أصبحت يا أبا محمد ، وكيف كان مبيتك قلت خير مبيت جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين . قال لقد استيقظت للصلاة فكرهت أن أصيح بالغلام فأزعجك . فقلت : يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء ، وأحب لك سيرتهم فهنأك الله بهذه النعمة وأتمها عليك . فأمر لي بألف دينار فأخذتها وانصرفت . قال وبت عنده ذات ليلة فانتبه وقد عرض له السعال فجعلت أرمقه وهو يحشو فمه بكم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه فسعل ، وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته فانتبه . قال يحيى وكنت معه يوماً في بستان ندور فيه فجعلنا نمر بالريحان فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ، ويقول لقيّم البستان أصلح هذا الحوض ، ولا تغرس في هذا الحوض شيئاً من البقول . قال يحيى ومشينا في البستان من أوله إلى آخره وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل ، فكان يجذبني أن أتحول أنا في الظل ، ويكون هو في الشمس فأمتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان ، فلما رجعنا قال : يا يحيى والله لتكونن في مكاني ، ولأكونن في مكانك ، حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك ، وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي . فقلت : والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسي لفعلت . فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل ، وتحول هو إلى الشمس ، ووضع يده على عاتقي ، وقال بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف . فانظر إلى أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم ما أحسنها وإلى أفعالهم ما أزينها . نسأل الله تعالى أن يحسن أخلاقنا وأن يبارك لنا في أرزاقنا انه على ما يشاء قدير ، وبالاجابة جدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) هو يحيىٰ بن اكثم بن محمد بن قطن التميمي الاسيدي المروزي ـ أبو محمد ـ قاض ، عالي الشهرة ، من نبلاء الفقهاء ، يتصل نسبه بأكثم ابن صفي حكيم العرب ، ولد بمرو سنة (١٥٩هـ ـ ٧٧٥ م) واتصل بالمأمون أيام مقامه بها ، فولاه قضاء البصرة (سنة ٢٠٢هـ) ثم قضاء القضاء ببغداد ، وأضاف إليه تدبير المملكة ، فكان وزراء الدولة لا يقدمون ولا يؤخرون في شيء إلا بعد عرضه عليه . توفي سنة (٢٤٢هـ ـ ٨٥٧ م) .
أنظر أخباره في : وفيات الاعيان (٢ : ٢١٧) وطبقات الحنابلة (١ : ٤١٠) .

الباب الرابع والعشرون

في حسن المعاشرة والمودة، والأخوة ، والزيارة وما أشبه ذلك

اعلم أن المودة والأخوة والزيارة سبب التألف ، والتألف سبب القوة ، والقوة سبب التقوى ، والتقوى حصن منيع ، وركن شديد ، بها يمنع الضيم ، وتنال الرغائب ، وتنجح المقاصد . وقد منّ الله تعالى على قوم وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء ، وردها بعد الفرقة إلى الالفة والاخاء فقال تعالى : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً** ﴾[١]، ووصف نعيم الجنة وما أعد فيها لأوليائه من الكرامة إذ جعلهم إخواناً على سرر متقابلين ، وقد سنّ رسول الله ﷺ : الاخاء ، وندب إليه ، وآخى بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين . وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم وما يلقون فيها من الألم ، إذ يقولون فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه : الرجل بلا أخ كشمال . بلا يمين ، وأنشدوا في ذلك :

وما المرء إلا باخوانه   كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة   ولا خير في الساعد الأجذم[٢]

وقال زياد : خير ما اكتسب المرء الاخوان ، فإنهم معونة على حوادث الزمان ، ونوائب الحدثان وعون في السراء والضراء . ومن كلام علي رضي الله عنه وكرم وجهه :

عليك باخوان الصفاء فإنهم   عماد إذا استنجدتهم وظهور
وان قليلاً ألف خل وصاحب   وان عدوا واحداً لكثير

وقال الأوزاعي : الصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب ، ان لم تكن مثله شانته . وقال عبد الله بن طاهر : المال غاد . ورائح ، والسلطان ظل زائل ، والاخوان كنوز وافرة . وقال المأمون للحسن بن سهل: نظرت في اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة . قال وما السبعة يا أمير المؤمنين . قال : خبز الحنطة ، ولحم الغنم ،

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .
(٢) الاجذم : المقطوع اليد او الذاهب الانامل ويقال : جذمت يده : أي قطعت .

والماء البارد ، والثوب الناعم ، والرائحة الطيبة ، والفراش الوطيء ، والنظر إلى الحسن من كل شيء . قال فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال ، قال صدقت وهي أولاهن . وقال سليمان بن عبد الملك أكلت الطيب ، ولبست اللين ، وركبت الفارة ، وافتضضت العذراء فلم يبق من لذاتي إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ . وكذلك قال معاوية رضي الله عنه : نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط ،وأكلت الطعام حتى لا أجد ما أستمرؤه، وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء ، وركبت المطايا ، حتى اخترت نعلي ، ولبست الثياب حتى اخترت البياض فما بقي من اللذات ما تتوق إليه نفسي إلا محادثة أخ كريم. وأنشدوا في معنى ذلك :

وما بقيت من اللذات إلا   محادثة الرجال ذوي العقول
وقد كنا نعدهم قليلاً   فقد صاروا أقل من القليل

وقال لبيد :

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقال اخر :

إذا ما أتت من صاحب لك زلة   فكن أنت محتالاً لزلته عذرا

وقيل لابن السماك : أي الاخوان أحق ببقاء المودة . قال : الوافر دينه ، الوافي عقله ، الذي لا يملك على القرب ، ولا ينساك على البعد ، إن دنوت منه داناك ، وإن بعدت عنه راعاك ، وإن استعنت به عضدك وإن احتجت إليه رفدك ، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله. وأنشدوا في المعنى :

ان أخاك الصديق من يسعى معك   ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك   شتت فيك شمله ليجمعك

وقال غيره :

وليس أخي من ودني بلسانه   ولكن أخي من ودني وهو غائب
ومن ماله مالي إذا كنت معدماً   ومالي له ان أعوزته النوائب

وقال أبو تمام :

من لي بإنسان إذا اغضبته   وجهلت كان الحلم رد جوابه
وإذا صبوْت إلى المدام شربت من   أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بطرفه   وبقلبه ولعله أدرى به

وقيل لخالد بن صفوان ، أي اخوانك أحب إليك . قال الذي يسد خلتي ، ويغفر زلتي ، ويقيل عثرتي . وقيل من لا يؤاخي إلا مَنْ لا عيب فيه قل صديقه ، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه ، ومن عاتب على كل ذنب ، ضاع عتبه وكثر تعبه قال الشاعر :

ومن لم يغمض عينه عن صديقه   وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

وقال آخر :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي تعاتبه
وان أنت لم تشرب مراراً على الأذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وقالوا إذا رأيت من أخيك أمراً تكرهه ، أو خلة لا تحبها ، فلا تقطع حبله ولا ، تصرم[١] وده ولكن داو كلّمته ، واستر عورته وابقه وابرأ من عمله . قال الله تعالى : ﴿ **فإن عصوك فقل اني بريء مما تعملون** ﴾[٢] ، فلم يأمره بقطعهم وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيء . وقال ﷺ : « الأرواح أجناد مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ان روحيّ المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه » . وفي ذلك قال بعضهم :

هـويتكم بـالسمـع قبـل لقـائكم وسمـع الفتى يهوى لعمـري كطرفـه
وخبـرت عنكم كـل جـود ورفعـة فلما التقينـا كنتـم فـوق وصفـه

وقال آخر :

تبسم الثغر عن أوصافكم فغدا من طيب ذكركم نشراً فأحيانا
فمن هناك عشقناكم ، ولم نركم والاذن تعشق قبل العين أحيانا

ما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما عند الله أشدهما حباً لصاحبه . ما زار أخ أخاً في الله شوقاً إليه ، ورغبة في لقائه ، إلا نادته ملائكة من ورائه طبت وطابت له الجنة . وقالوا ليس سرور يعدل لقاء الاخوان ، ولا غم يعدل فراقهم ، وقالوا شر الاخوان الواصل في الرخاء الخاذل عند الشدة . وقالوا ان من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقاً ، ولعدو صديقك عدواً . وقالوا أعجب الأشياء ود من يهودي ، وحفظ من نصراني ، ورياضة من دهري[٣] وكرم من أعجمي ، والحذر من الكريم إذا أهنته ، واللئيم إذا أكرمته ، والعاقل إذا أحرجته ، والأحمق إذا مازحته ، والفاجر إذا عاشرته . وقالوا اصحب من الاخوان ، من أولادك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنسى جمائله ، وبقي شاكراً ناشراً لجميلتك ، يوليك عليها الاحسان الكثير الجزيل ، ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل . وقال ابن عائشة : لقاء الخليل ، شفاء الغليل . وقال بعض الحكماء : إذا وقع بصرك على شخص فكرهته فاحذره جهدك . قال عبد الله بن طاهر :

خـليـليّ للبغضـاء حـال مبينـة ولـلحب آثـار تـرى ومـعـارف
فـما تنكـر العينـان فـالقلب منكـر ومـا تعرف العينـان فالقلب عـارف

---

(١) تصرم : تجلد وتقطع وتصرم وده : انقطع انتماؤه وولاؤه .
(٢) سورة الشعراء الآية ٢١٦ .
(٣) الدهري : من الدهر . كناية عن طول العمر والدهريون : القائلون بأن العالم موجود ازلياً ولا صانع له .

وقال آخر :

وكنت إذا الصديق أراد غيظي وشرّقني على ظمأ بريقي
غفرت ذنوبه وكظمت غيظي مخافة أن أعيش بلا صديق

وليس فتى الفتيان من جل همه صبوح وان أمسى ففضل غبوق
ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا لضرّ عدوّ أو لنفع صديق

وأما آداب المعاشرة فالبشاشة ، والبشر ، وحسن الخلق ، والأدب . فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراءوا ، والمصافحة إذا تلاقوا » . كان القعقاع بن شور الهذلي إذا جالسه رجل يجعل له نصيباً من ماله ، ويعينه على حوائجه ، ودخل يوماً على معاوية فأمر له بألف دينار وكان هناك رجل قد فسح له في المجلس فدفعها للذي فسح له فقال :

وكنت جليس قعقاع بن شور وما يشقى بقعقاع جليس
ضحوك السن إن نطقوا بخير وعند الشر مطراق عبوس

وقال ابن عباس رضي الله عنهما لجليسي عليّ ثلاث : أن أرمقه بطرفي إذا أقبل ، وأوسع له إذا جلس ، وأصغي له إذا حدّث . ويقال لكل شيء محل ، ومحل العقل مجالسة الناس ، ومثل الجليس الحسن كالعطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته . ومثل الجليس السوء مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك بناره آذاك بدخانه . وكانت تحية العرب صبحتك الأنعمة ، وطيب الأطعمة . وتقول أيضاً صبحتك الأفالح وكل طير صالح . ووصف المأمون ثمامة بحسن المعاشرة فقال : انه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب . وقيل أول ما يتعين على الجليس الانصاف في المجالسة بأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه ، فيكون كل منهما في محله . وقال ﷺ : « ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل » . وقال جعفر الصادق[1] رضي الله عنه : إذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس في الصدر . وينبغي للانسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه . فقد قيل ان نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع ، ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله ، ولا يبتدع كلاماً لا يليق بالمجلس ، فقد قيل لكل مقام مقال . وخير القول ما وافق الحال . وأوجبوا على المستمع أنه إذا ورد عليه من المتكلم ما كان مرّ بسمعه أوّلاً أن لا يقطع عليه ما يقوله ، بل يسكت إلى أن يستوعب منه القول ، وعدوا ذلك من باب الأدب ، ولعله إذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه . وقيل ثمانية إن أهينوا فلا

---

(١) جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن زين العابدين بن الحسين السبط ، الهاشمي القرشي ـ ابو عبد الله ـ الملقب بالصادق سادس الائمة الاثني عشر عند الامامية كان من أجلاء التابعين . وله منزلة رفيعة في العلم أخذ عنه جماعة منهم الامامان أبو حنيفة ومالك . ولقب بالصادق لانه لم يعرف عنه الكذب قط . له « رسائل » توفي بالمدينة سنة (١٤٨هـ ـ ٧٦٥ م) .
أنظر : وفيات الاعيان (١ : ١٠٥) . وصفه الصفوة (٢ : ٩٤) . وحلية الاولياء (٣ : ١٩٢) .

يلوموا إلا أنفسهم : الجالس في مجلس ليس له بأهل ، والمقبل بحديثه على من لا يسمعه ، والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يدخلاه فيه ، والمتعرض لما لا يعنيه ، والمتآمر على رب البيت في بيته ، والآتي إلى مائدة بلا دعوة ، وطالب الخير من أعدائه ، والمستخف بقدر السلطان . ويتعين على الجليس أن يراعي ألفاظه ، ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصاً إذا كان جليسه ذا هيبة ، فقد قيل رب كلمة سلبت نعمة . وقال أبو العباس السفاح : ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي لم يعد عليّ ، حديثاً قط . وقيل ان أبا العباس كان يحدثه يوماً إذا عصفت الريح فأرمت طستاً من سطح إلى المجلس فارتاع من حضر ، ولم يتحرك الهذلي ، ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح ، فقال ما أعجب شأنك يا هذلي . فقال ان الله يقول : ﴿**ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه**﴾[1] وإنما لي قلب واحد فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال ، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها ، ولا وجمت لها . فقال السفاح لئن بقيت لك لأرفعن مكانك ، ثم أمر له بمال جزيل ، وصلة كبيرة . وكان ابن خارجة يقول : ما غلبني أحد قط غلبة رجل يصغي إلى حديثي . وفي نوابغ الحكم أكرم حديث أخيك بانصاتك ، وصنه من وصمة التفاتك . وقيل من حق الملك إذا تثاءب أو ألقى المروحة من يده أو مد رجليه أو تمطى أو اتكأ ، أو فعل ما يدل على كسله أن يقوم من بحضرته . وكان أردشير إذا تمطى قام سماره ، ومن حق الملك أن لا يعاد عليه حديث ، وإن طال الدهر . قال روح بن زنباع[2] : أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة فما أعدت عليه حديثاً إلا مرة واحدة ، فقال لي قد سمعته منك . وعن الشعبي قال : ما حدثت بحديث مرتين رجلاً بعينه . وقال عطاء بن أبي رباح : ان الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أسمعه قط وقد سمعت به من قبل أن يولد . وقيل المودة طلاقة الوجه والتودد إلى الناس . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : ان المسلمين إذا التقيا فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت ذنوبهما كتحات ورق الشجر . وقيل البُشر يدل على السخاء كما يدل النور على الثمر . وقيل من السنة إذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيباً . وقالوا :إذا أردت حسن المعاشرة فالق عدوك وصديقك بالطلاقة ، ووجه الرضا والبشاشة ، ولا تنظر في عطفيك ، ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات . وإذا جلست فلا تتكبر على أحد ، وتحفظ من تشبيك أصابعك ، ومن العبث بلحيتك ، ومن اللعب بخاتمك ، وتخليل أسنانك ، وإدخال أصبعك في أنفك ، وكثرة بصاقك ، وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة ، وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مرتباً ، واصغ إلى كلام مجالسك . واسكت عن المضاحك ، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ، ولا تلح في الحاجات . ولا تشجع أحداً على الظلم ، ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك عندهما . وإذا خاصمت فانصف ، وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك ، وتفكر في حجتك ، ولا تكثر الاشارة بيدك ، ولا الاتلفات إلى من وراءك ،وأهدىءغضبك وتكلم . وإذا قربك سلطان فكن منه على حذر ، واحذر انقلابه عليك وكلمه بما يشتهي ولا

---

(١) سورة الاحزاب الآية ٤ .

(٢) هو روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامي ـ أبو زرعة ـ أمير فلسطين ،وسيد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها . قيل له صحبة . كان عبد الملك بن مروان يقول : جمع روح طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز . وله مع عبد الملك وغيره أخبار .
أنظر : تهذيب ابن عساكر (٥ : ٣٣٧) والبداية والنهاية (٩ : ٥٤).

يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه ، وإن كنت لذلك مستحقاً عنده . وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء ، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك . ولا تجالس الملوك فإن فعلت فالتزم ترك الغيبة ، ومجانبة الكذب ، وصيانة السر ، وقلة الحوائج ، وتهذيب الألفاظ ، والمذاكرة بأخلاق الملوك والحذر منهم ، وإن ظهرت المودة . ولا تتجشأ بحضرتهم ، ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم ، ولا تجالس العامة فإن فعلت فآداب ذلك ترك الخوض في حديثهم ، وقلة الاصغاء إلى أراجيفهم ، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم ، وإياك أن تمازح لبيباً أو سفيهاً فإن اللبيب يحقد عليك ، والسفيه يتجرأ عليك ، ولأن المزاح يخرق الهيبة ، ويذهب بماء الوجه ، ويعقب الحقد ، ويذهب بحلاوة الايمان والود ، ويشين فقه الفقيه ، ويجرىء السفيه ، ويميت القلب ، ويباعد عن الرب تعالى ، ويكسب الغفلة والذلة . ومن بلي في مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه . فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك غفر له ما كان في مجلسه ذلك » .

وأما آداب المسايرة فقد روي أن رسول الله ﷺ تعاقب هو وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورجل آخر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في سفر على بعير . فكان إذا جاءت نوبته في المشي مشى فيعزمان عليه أن لا يمشي ، فيأبى ويقول ما أنتم بأقدر مني على المشي ، وما أنا بأغنى منكم على أجر . وقال ﷺ لا تتخذوا ظهور الدواب كراسي . وقيل لا تتقدم الأصاغر على الأكابر إلا في ثلاث : إذا ساروا ليلاً ، أو خاضوا سيلاً ، أو واجهوا خيلاً . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث : نكبته ، وغيبته ، ووفاته .

وأما ما جاء في الاخوان القليلي الموافاة ، العديمي المكافأة الذين ليس عندهم لصديق مصافاة .

فقال وهب بن منبه : صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لي زلة ، ولا أقال لي عثرة ، ولا ستر لي عورة . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : إذا كان الغدر طبعاً ، فالثقة بكل أحد عجز . وقيل لبعضهم ما الصديق ؟ قال اسم وضع على غير مسمى ، وحيوان غير موجود . قال الشاعر :

سمعنا بالصديق ولا نراه ... على التحقيق يوجد في الأنام
وأحسبه محالاً نمقوه ... على وجه المجاز من الكلام

وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، فصاروا أشواكاً لا ورق فيه . وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه : أقلل من معرفة الناس ، وأنكر من عرفت منهم ، وان كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين ، وكن من الواحد على حذر . وقيل لبعض الولاة كم لك صديق فقال أما في حال الولاية فكثير ، وأنشد :

الناس اخوان من دامت له نعم ... والويل للمرء ان زلت به القدم

ولما نكب علي بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحد من أصحابه الذين كانوا يألفونه في ولايته فلما ردت إليه الوزارة وقف أصحابه ببابه ثانياً فقال :

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها ... فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فإن وثبت ... يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال آخر :

فما أكثر الأصحاب حين نعدهم ... ولكنهم في النائبات قليل

وقال البحتري :

إياك تغتر أو تخدعك بارقة ... من ذي خداع يرى بشراً وألطافا
فلو قلبت جميع الأرض قاطبة ... وسرت في الأرض أوساطا وأطرافا
لم تلق فيها صديقاً صادقاً أبداً ... ولا أخاً يبذل الانصاف ان صافى

وقال بعضهم في المعنى أيضاً :

خليلي جرّبت الزمان وأهله ... فما نالني منهم سوى الهم والعنا
وعاشرت أبناء الزمان فلم أجد ... خليلاً يوفي بالعهود ولا أنا

وقال آخر :

لما رأيت بني الزمان وما بهم ... خل وفيّ للشدائد أصطفي
فعلمت أن المستحيل ثلاثة ... الغول والعنقاء والخل الوفي

وبيت مفرد :

وكل خليل ليس في الله وده ... فإني به في وده غير واثق

وقال آخر :

إذا ما كنت متخذاً خليلاً ... فلا تأمن خليلك أن يخونا
فإنك لم يخنك أخ أمين ... ولكن قلما تلقى أمينا

وقال آخر :

تحب عدّوي ثم تزعم أنني ... أودك إن الرأي عنك لعازب
وليس أخي من ودّني بلسانه ... ولكن أخي من ودّني وهو غائب
ومن ماله مالي إذا كنت معدماً ... وما لي له إن أعوزته النوائب

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة[1] وأمر بقطع يده لما بلغه أنه زور عنه كتاباً إلى أعدائه وعزله لم يأت إليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجع له ، ثم ان السلطان ظهر له في بقية يومه أنه بريء مما نسب إليه فخلع عليه ورد إليه وظائفه فأنشد يقول هذه الأبيات :

---

(١) هو محمد بن علي بن الحسين بن مقلة - أبو علي - وزير ، من الشعراء الادباء يضرب بحسن خطه المثل . ولد في بغداد سنة (٢٧٢هـ - ٨٨٦ م) سجن وقطعت يده ، وقطع لسانه أيضاً سنة (٣٢٦هـ) مات في السجن سنة (٣٢٨هـ - ٩٤٠ م).
أنظر أخباره في : وفيات الاعيان (٢ : ٦١). وثمار القلوب (١٦٧).

تحالف الناس والزمان فحيث كان الزمان كانوا
عاداني الدهر نصف يوم فانكشف الناس لي وبانوا
يا أيها المعرضون عنا عودوا فقد عاد لي الزمان

ومثله في المعنى :

أخوك أخوك من يدنو وترجو مودته وإن دُعي استجابا
إذا حاربت حارب من تعادي وزاد سلاحه منك اقترابا

وقال أبو بكر الخالدي :

وأخ رخصت عليه حتى ملني والشيء مملول إذا ما يرخص
ما في زمانك من يعز وجوده ان رمته إلا صديق مخلص

فيجب على الانسان أن لا يصحب إلا من له دين وتقوى ، فإن المحبة في الله تنفع في الدنيا والآخرة ، وما أحسن ما قال بعضهم :

وكل محبة في الله تبقى على الحالين من فرج وضيق
وكل محبة فيما سواه فكالحلفاء في لهب الحريق

فينبغي للانسان أن يجتنب معاشرة الأشرار ، ويترك مصاحبة الفجار ، ويهجر من ساءت خلته وقبحت بين الناس سيرته : قال الله تعالى : ﴿ **الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم** ﴾[2] فأثبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم وذلك إنما هو في الأخلاق خاصة فليس أحد من الخلق إلا وفيه خلق من أخلاق البهائم . ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة ، فإذا رأيت الرجل جاهلاً في خلائقه ، غليظاً في طبائعه ، قوياً في بدنه لا تؤمن ضغائنه ، فألحقه بعالم النمورة . والعرب تقول : أجهل من نمر . وإذا رأيت الرجل هجاماً على أعراض الناس فقد ماثل عالم الكلاب . فإن دأب الكلب أن يجفو من لا يجفوه ، ويؤذي من لا يؤذيه ، فعامله بما كنت تعامل به الكلب إذا نبح ، ألست تذهب وتتركه ، وإذا رأيت انساناً قد جبل على الخلاف ان قلت نعم قال لا ، وان قلت لا قال نعم . فألحقه بعالم الحمير فإن دأب الحمار إن أدنيته بَعُدَ ، وإن أبعدته قرب ، فلا تنتفع به ولا يمكنك مفارقته . وإن رأيت انساناً يهجم على الأموال والأرواح فألحقه بعالم الأسود . وخذ حذرك منه كما تأخذ حذرك من الأسد . وإذا بليت بانسان خبيث كثير الروغان فألحقه بعالم الثعالب . وإذا رأيت من يمشي بين الناس بالنميمة ، ويفرق بين الأحبة فألحقه بعالم الظربان ، وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة مشي بينهم ظربان فتفرقوا . وإذا رأيت إنساناً لا يسمع الحكمة والعلم ، وينفر من مجالسة العلماء ، ويألف أخبار أهل الدنيا فألحقه بعالم الخنافس فإنه يعجبها أكل العذرات ، وملامسة النجاسات ، وتنفر من ريح المسك والورد ، وإذ شمت الرائحة الطيبة ماتت لوقتها ، وإذا رأيت الرجل يصنع

---

(١) سورة الزخرف الآية ٦٧ .
(٢) سورة الانعام الآية ٣٨ .

بنفسه كما نصنع المرأة لبعلها ، يبيض ثيابه ويعدل عمامته ، وينظر في عطفيه فألحقه بعالم الطواويس . وإذا بليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازي بعد المدة الطويلة على السقطات ، فألحقه بعالم الجمال . والعرب تقول أحقد من جمل . فتجنب قرب الرجل الحقود . وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار وأهل الغدر ومن لا وفاء لهم فإنه إذا فعل ذلك سلم من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه والله أعلم .

وأما الزيارة والاستدعاء إليها فقد قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : وجبت محبتي للمتحابين فيّ ، والمتباذلين فيّ والمتزاورين فيّ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي وقال ﷺ : « من عاد مريضاً ، أو زار أخاً ، نادى مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً » وقيل المحبة شجرة أصلها الزيارة . قال الشاعر :

زر من تحب وان شطت بك الدار   وحال من دونه حجب وأستار
لا يمنعك بعد من زيارته   ان المحب لمن يهواه زوّار

ولتكن الزيارة غباً لقوله ﷺ :[1] « ذر غباً تزدد حباً » قال الشاعر في معنى ذلك :

عليك بأغباب الزيارة إنها   إذا كثرت صارت إلى الهجر مسلكاً
ألم تر أن الغيث يسأم دائماً   ويُسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

ويقال الإكثار من الزيارة ممل ، والاقلال منها مخل ، وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت :

إذا ما تقاطعنا ونحن ببلدة   فما فضل قرب الدار منا على البعد

وقال آخر :

وإن مروري بالديار التي بها   سليمى ولم ألم بها لجفاء

وقال آخر :

قد أتانا من آل سعدى رسول   حبذا ما يقول لي وأقول

وقال آخر :

أزور بيوتاً لاصقات ببيتها   وقلبي في البيت الذي لا أزوره

وزار محمد بن يزيد المهلبي المستعين[2] ، ووهب له مائتي ألف درهم وأقطعه أرضاً فقال :

وخصصتني بزيارة أضحى لنا   مجد بها طول الزمان مؤثل[3]

---

(١) غبّ : جاء زائراً يوماً بعد يوم.
(٢) احمد بن محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد ـ الخليفة العباسي الثاني عشر (٢١٩هـ ـ ٨٣٤ م / ٢٥٢هـ ـ ٨٦٦ م) انتشرت الفوضى في عصره ، فخلع نفسه واستسلم لاخيه المعتز . وقتل بسعي منه.
أنظر : الطبري (١١ : ٨٢ و١٣٧ و١٤٦) المسعودي (٢ : ٣١٩ ـ ٣٣٠).
ابن الاثير (٧ : ٣٧ ـ ٥٦). شذرات الذهب (٢ : ١٢٤).
(٣) الوثل : محركه ـ الحبل من الليف . والموثول : الموصول . ووثله توثيلاً : أصّله ومكّنه .

وقضيت ديني وهو دين وافر　　لم يقضه مع جوده المتوكل

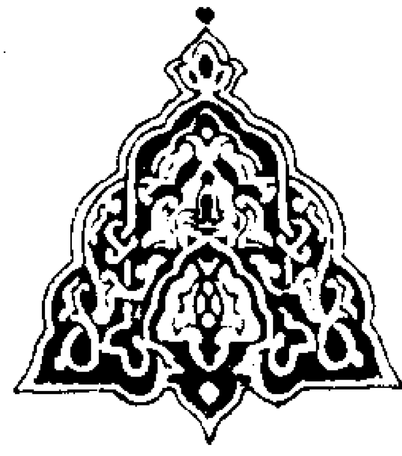
وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة :

نحن في أفضل السرور ولكن　　ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودي　　أنكم غبتم ونحن حضور
فأجدوا المسير بل ان قدرتم　　أن تطيروا مع الرياح فطيروا

وقيل لفيلسوف : أي الرسل أنجح . قال الذي له جمال وعقل . وقيل إذا أرسلتم رسولاً في حاجة فاتخذوه حسن الوجه ، حسن الاسم . وقال لقمان لابنه : يا بني لا تبعث رسولاً جاهلاً ، فإن لم تجد حكيماً عارفاً فكن رسول نفسك وقال بعضهم :

إذا أبطأ الرسول فقل نجاح　　ولا تفرح إذا عجل الرسول

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الخامس والعشرون

في الشفقة على خلق الله تعالى ، والرحمة بهم ، وفضل الشفاعة ، وإصلاح ذات البين

وفيه فصلان

الفصل الأول :

في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم

قال الله تعالى :﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾(١) ووصف الله نفسه لعباده فقال عز وجل : ﴿ **ان الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾(٢) وقال الله تعالى : ﴿ **الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم** ﴾(٣) قال المفسرون الرحمن اسم رقيق يدل على العطف والرقة واللطف والكرم والمنة والحلم على الخلق ، والرحيم مثله . وقيل يقال رحمن الدنيا ، ورحيم الآخرة . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :قال رسول اللهﷺ :«والذي يرحم نفسه وأهله خاصة ، ولكن الرحيم الذي يرحم المسلمين ». رواه أبو يعلى ، والطبراني . وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبيﷺ قال : « من لا يرحم لا يُرحم ، ومن لا يَغفر لا يُغفر له » وعنهﷺ قال : « ارحموا تُرحموا واغْفروا يُغفر لكم . » وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ قال الله عز وجل : « ان كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي . رواه أبو محمد بن عدي في كتاب الكامل . وروينا ، من طريق الطبراني ، عن الشعبي ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه . قال : فقال رسول اللهﷺ : « مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى ، له سائر الجسد بالسهر والحمى » قال الطبراني : إني رأيت رسول اللهﷺ في المنام ، فسألته عن هذا

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٤٣ .
(٣) فاتحة الكتاب الآية ١و٢ .

الحديث فقال النبي ﷺ وأشار بيده صحيح صحيح صحيح ثلاثاً . وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من مسح على رأس يتيم ، كان له بكل شعرة تمر عليه يده نور يوم القيامة » . ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فوجده مستلقياً على ظهره ، وصبيانه يلعبون على بطنه فأنكر ذلك عليه . فقال له عمر : كيف أنت مع أهلك ؟ قال : إذا دخلت سكت الناطق . فقال له اعتزل فإنك لا ترفق بأهلك وولدك ، فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ . وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال : « إن إبدال أمتي لن يدخلوا الجنة بالأعمال ، ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس ، وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين » .



في الشفاعة وإصلاح ذات البين

قال الله تعالى : ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتاً** ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه ، كما يسأله عن عمره ، فيقول له جعلت لك جاهاً ، فهل نصرت به مظلوماً أو قمعت به ظالماً ، أو غثت به مكروباً » وقال ﷺ : « أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له » . وعن أبي بردة ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جاءني طالب حاجة فاشفعوا له لكي تؤجروا » يقضي الله تعالى على لسان نبيه ما شاء . وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة صدقة اللسان ، قيل يا رسول الله وما صدقة اللسان ، قال الشفاعة تفك بها الأسير ، وتحقن بها الدماء ، وتجريها المعروف إلى أخيك ، وتدفع عنه بها كريهة » . رواه الطبراني في المكارم . وقال علي رضي الله عنه : الشفيع جناح الطالب . وقال رجل لبعض الولاة : ان الناس يتوسلون إليك بغيرك ، فينالون معروفك ويشكرون غيرك ، وأنا أتوسل إليك بك ، ليكون شكري لك لا لغيرك . وقيل كان المنصور معجباً بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، وكان الناس لعظم قدره يفزعون إليه في الشفاعات فثقل ذلك على المنصور ، فحجبه مدة ، ثم لم يصبر عنه فأمر الربيع أن يكلمه في ذلك فكلمه وقال أعف يا أمير المؤمنين ، لا تثقل عليه في الشفاعات فقبل ذلك منه . فلما توجه الى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع فسألوه إيصالها إلى المنصور فقص عليهم القصة ، فأبوا إلا أن يأخذها . فقال اقذفوها في كمي ، ثم دخل عليه وهو في الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين ، فقال له أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله . فقال له يا أمير المؤمنين : بارك الله لك فيما آتاك وهنّاك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك ، فما بنت العرب في دولة الاسلام ولا العجم في سالف الأيام ، احصن ولا أحسن من

(١) سورة النساء الآية ٨٥.

مدينتك ، ولكن سمجتها في عيني خصلة ، قال وما هي ؟ قال : ليس لي فيها ضيعة ، فتبسم . وقال : قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع قد أقطعتكها . فقال أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد ، كريم المصادر ، فجعل الله تعالى باقي عمرك أكثر من ماضيه . ثم أقام معه يومه ذلك ، فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كمه فجعل يردهن ، ويقول ارجعن خائبات ، خاسرات . فضحك المنصور ، وقال بحقي عليك ألا أخبرتني وأعلمتني بخبر هذه الرقاع فأعلمه . وقال ما أتيت يا ابن معلم الخير إلا كريماً ، وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

لسنا وإن احسابنا كرمت يوماً على الاحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ثم تصفح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها . قال محمد فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت . وقال المبرد أتاني رجل لأشفع له في حاجة فأنشدني لنفسه :

اني قصدتك لا أدلي بمعرفة ولا بقرب ولكن قد فشت نعمك
فبت حيران مكروباً يؤرقني ذل الغريب ، ويغشيني الكرى كرمك
ما زلت أنكب ، حتى زلزلت قدمي فاحتل لتثبيتها لا زلزلت قدمك
فلو هممت بغير العرف ما علقت به يداك ولا انقادت له شيمك

قال فشفعت له وأنلته من الاحسان ما قدرت عليه . وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت :

شفيعي إليك الله لا شيء غيره وليس إلى رد الشفيع سبيل

فأمره بلزوم الدهليز ، فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم ، فلما استوفى في ثلاثين ألفاً ذهب الرجل . فقال يحيى والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعتها عنه . وقال آخر :

وقد جئتكم بالمصطفى متشفعاً وما خاب من بالمصطفى يتشفع
إلى باب مولانا رفعت ظلامتي عسى الهم عني والمصائب ترفع
تشفع بالنبي فكل عبد يجار إذا تشفع بالنبيّ

وقال آخر :

ولا تجزع إذا ضاقت أمور فكم لله من لطف خفيّ

وروي ان جبريل عليه السلام قال : يا محمد لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعملنا ثلاث خصال : سقي الماء للمسلمين ، وإعانة أصحاب العيال ، وستر الذنوب على المسلمين إذا اذنبوا . اللهم استر ذنوبنا ، واقض عنّا تبعاتنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السادس والعشرون

في الحياء ، والتواضع ولين الجانب ، وخفض الجناح

وفيه فصلان

الفصل الأول : في الحياء

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : مكارم الأخلاق عشرة : صدق الحديث ، وصدق اللسان ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، والمكافأة بالصنيع ، وبذل المعروف ، وحفظ الذمام للجار ، وحفظ الذمام للصاحب ، وقرى الضيف ، وأسهن الحياء . وقال رسول الله ﷺ : « الحياء شعبة من الايمان » . وقال رسول الله ﷺ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : من كسا بالحياء ثوبه لم ير الناس عيبه . وعن زيد بن بن علي عن آبائه يرفعونه : من لم يستح فهو كافر . وقال أبوموسى الأشعري رضي الله عنه : اني لأدخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فاحني فيه صلبي حياء من ربي . وقال بعضهم : الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون في الوعاء . وقال الخواص : إن العباد عملوا على أربع منازل : على الخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والحياء فارفعها منزلة ، الحياء لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال . قالوا سواء علينا رأيناه أو رآنا ، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه . ويقال : القناعة دليل الأمانة ، والأمانة دليل الشكر ، والشكر دليل الزيادة ، والزيادة دليل بقاء النعمة ، والحياء دليل الخير كله .

الفصل الثاني

في التواضع ولين الجانب ، وخفض الجناح

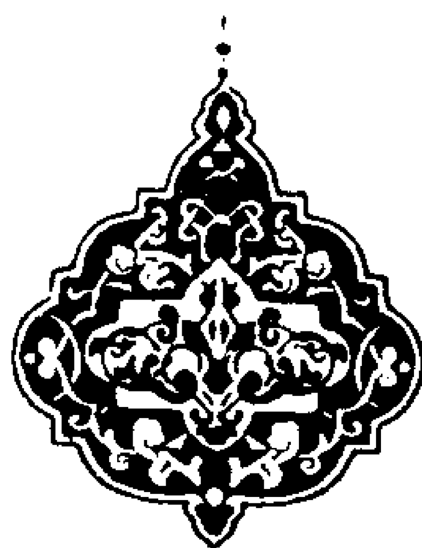
قال الله تعالى : ﴿ **واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾(٢) وقال رسول الله ﷺ : « أفضل العبادة التواضع »

---

(١) سورة الحجر الآية ٨٨.

(٢) سورة القصص الآية ٨٣.

وقال ﷺ : « ولا ترفعوني فوق قدري فتقولوا فيّ ما قالت النصارى في المسيح ، فإن الله عز وجل اتخذني عبداً ، قبل أن يتخذني رسولا » وأتاه ﷺ رجل فكلمه فأخذته رعدة . فقال ﷺ له : « هون عليك ، فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » . وكان ﷺ يرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم من في مهنة أهله ، ولم يكن متكبراً ، ولا متجبراً أشد الناس حياء ، وأكثرهم تواضعاً . وكان إذا حدث بشيء مما آتاه الله تعالى قال ولا فخر . وقال ﷺ : « إن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله ، وان التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ، فتواضعوا يرفعكم الله ، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماء ، فتصدقوا يزدكم الله » . وقال عدي بن أرطاة لإياس بن معاوية انك لسريع المشية . قال ذلك أبعد من الكبر . وأسرع في الحاجة . وخرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر ، وجلس ابن الزبير . فقال معاوية لابن عامر اجلس فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار » . وقيل التواضع سلم الشرف . ولبس مطرف بن عبد الله الصوف وجلس مع المساكين . فقيل له في ذلك فقال : إن أبي كان جباراً فأحببت أن أتواضع لربي لعله أن يخفف عن أبي تجبره . وقال مجاهد : ان الله تعالى لما أغرق قوم نوح ، شمخت الجبال ، وتواضع الجودي فرفعه فوق الجبال ، وجعل قرار السفينة عليه . وقال الله تعالى لموسى عليه السلام هل تعرف لِمَ كلمتك من بين الناس ، قال لا يا رب . قال : لأني رأيتك تتمرغ بين يدي في التراب تواضعاً لي . وقيل من رفع نفسه فوق قدره ، استجلب مقت الناس . وقال أبو مسلم صاحب الذخيرة : ما تاه إلا وضيع ، ولا فاخر إلا لقيط . وكل من تواضع لله رفعه الله ، فسبحان من تواضع كل شيء لعز جبروت عظمته ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب السابع والعشرون

في العجب ، والكبر ، والخيلاء ، وما أشبه ذلك

اعلم أن الكبر والاعجاب يسلبان الفضائل ، ويكسبان الرذائل . وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح ، وقبول التأديب ، والكبر يكسب المقت ، ويمنع من التكلف . قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر . وقال رسول الله ﷺ : « من جَرّ ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه » . وقال الأحنف بن قيس : ما تكبر أحد إلا من زلة يجدها في نفسه . ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر ، وتأنف منه . ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه . فقال وددت أني مثلك في ظنك ، وأن أعدائي مثلك في الحقيقة . ورأى رجل رجلاً يختال في مشيه . فقال : جعلني الله مثلك في نفسك ، ولا جعلني مثلك في نفسي . وقال الأحنف : عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر . ومرّ بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر في مشيه . فقال له مالك : يا بني لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل لك . فقال أو ما تعرفني قال : أعرفك معرفة جيدة ، أو لك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك تحمل العذرة ، فأرخى الفتى رأسه ، وكف عما كان عليه . وقال لا يدوم الملك مع الكبر ، وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة ، والسيادة . وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين فقال تعالى : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا** ﴾[1]. فقرن الكبر بالفساد وقال تعالى : ﴿ **سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق** ﴾[2] قال بعض الحكماء : ما رأيت متكبراً إلا تحول ما به ، بي ، يعني أتكبر عليه . واعلم أن الكبر يوجب المقت ، ومن مقته رجاله لم يستقم حاله . والعرب تجعل جذيمة الأبرش غاية في الكبر . يقال انه كان لا ينادم أحداً لتكبره ، ويقول إنما ينادمني الفرقدان . وكان ابن عوانة من أقبح الناس كبراً ، روي أنه قال لغلامه اسقني ماء . فقال نعم . فقال انما يقول نعم من يقدر أن يقول لا ، اصفعوه فصفع ، ودعا أكارا فكلمه ، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذاراً لمخاطبته . ويقال فلان وضع نفسه في درجة ، لو سقط منها لتكسر . قال الجاحظ المشهورون بالكبر من قريش : بنو مخزوم ، وبنو أمية . ومن العرب بنو جعفر بن كلاب ، وبنو زرارة بن عدي . وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون

---

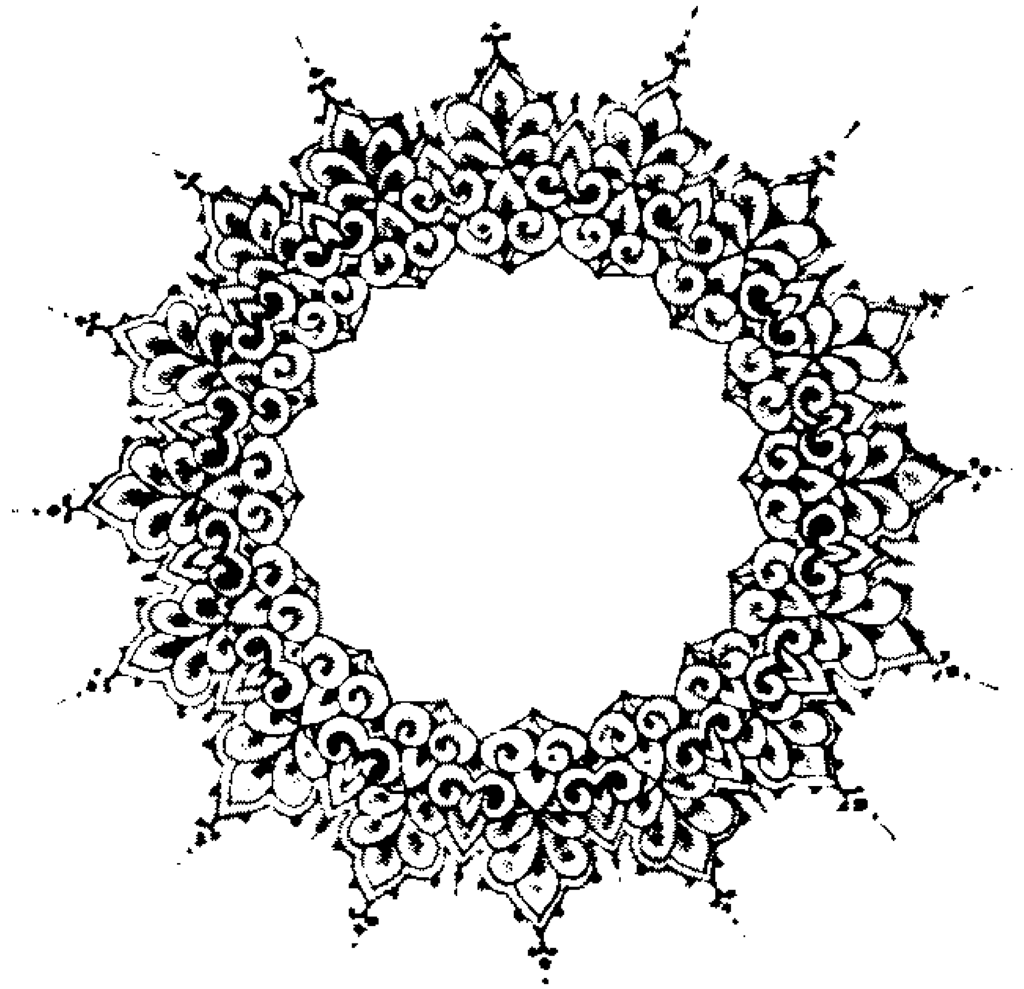
(١) سورة القصص الآية ٨٣.

(٢) سورة الاعراف الآية ١٤٦.

الناس إلا عبيداً وأنفسهم إلا أرباباً . وقيل لرجل من بني عبد الدار ألا تأتي الخليفة . فقال أخاف أن لا يحمل الجسر شرفي . وقيل للحجاج بن ارطاة ما لك لا تحضر الجماعة ؟ قال أخشى أن يزاحمني البقالون . وقيل أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فأقطعه أرضاً ، وقال لمعاوية أعرض هذه الأرض عليه وأكتبها له . فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة ، ومشي خلف ناقته ، فأحرقه حر الشمس فقال له : اردفني خلفك على ناقتك ، قال لست من أرداف الملوك . قال فاعطني نعليك قال ما بخل يمنعني يا ابن أبي سفيان ، ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن أنك لبست نعلي ، ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفاً . وقيل انه لحق زمن معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحدثه . وقال المسرور بن هند لرجل : أتعرفني قال لا ، قال أنا المسرور بن هند . قال ما أعرفك . قال : فتعساً ونكساً لمن لم يعرف القمر . قال الشاعر :

قـولا لأحمق يلوي التيه أخـدعـه ... لـو كنت تعلم مـا في التيـه لم تتـه
التيـه مفسـدة الـديـن ، منقصـة ... للعقـل ، مهلكـة للعـرض فـانتبـه

وقيل لا يتكبر إلا كل وضيع ، ولا يتواضع إلا كل رفيع ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الثامن والعشرون

في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى : ﴿ **أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون** ﴾[1] نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وعقبة بن أبي معيط وكانا تفاخرا وقوله تعالى : ﴿ **أفمن يلقى في النار خير أمن يأتي آمناً يوم القيامة** ﴾[2] نزلت في أبي جهل ، وعمار بن ياسر ، والنسب إلى سيدنا رسول الله ﷺ أشرف الأنساب . وقد قال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ، ولا فخر » . وقد نفى الله تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[3] فالفخر في الاسلام بالتقوى . وقال رسول الله ﷺ : « ان نبيكم واحد . وإن أباكم واحد . وانه لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، ألا ، هل بلغت » . (وقال الأصمعي) : بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شاباً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول :

يا من يجيب دعا المضطْر في الظلم ... يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا ... وأنت يا حيّ يا قيوم لم تنم
أدعوك ربي حزيناً هائماً قلقاً ... فارحم بكائي بحق البيت والحرم
إن كان جودك لا يرجوه ذو سفه ... فمن يجود على العاصين بالكرم

ثم بكى بكاءً شديداً وأنشد يقول :

ألا أيها المقصود في كل حاجة ... شكوت إليك الضرّ فارحم شكايتي
ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي ... فهب لي ذنوبي كلّها واقض حاجتي
أتيت بأعمال قباح رديئة ... وما في الورى[4] عبد جنى كجنايتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي ثم ، أين مخافتي

(١) سورة السجدة الآية ١٨ .
(٢) سورة فصلت الآية ٤٠ .
(٣) سورة الحجرات الآية ١٣ .
(٤) الورى : الخَلْقُ .

ثم سقط على الأرض مغشياً عليه فدنوت منه فإذا هو زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .فرفعت رأسه في حجري وبكيت فقطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينيه وقال : من هذا الذي يهجم علينا قلت : عبيدك الأصمعي ، سيدي ما هذا البكاء والجزع ، وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ، أليس الله تعالى يقول : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾[1] فقال هيهات هيهات يا أصمعي ، ان الله خلق الجنة لمن أطاعه ، ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حرّاً قرشياً أليس الله تعالى يقول : ﴿ **فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون** ﴾[2] والفخر وإن نهت عنه الأخبار النبوية ، ومجته العقول الذكية ، إلا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعاً ، لا تكلفاً ، وجبلة لا تعلماً ، ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم ، ولا ينبه على مناقبهم سواهم . وكان كعب بن زهير[3] إذا أنشد شعراً قال لنفسه أحسنت وجاوزت والله الاحسان . فيقال له أتحلف على شعرك . فيقول نعم لأني أبصر به منكم . وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة في الثناء عليها ويقول عند إنشادها ، أي علم بين جنبيّ ، وأي لسان بين فكي . وقال الجاحظ لو لم يصف الطبيب مصالح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب . ولما أبدع ابن المقفع في رسالته التي سماها باليتيمة تنزيهاً لها عن المثل سكنت من النفوس موضع ارادته من تعظيمها ولو لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله . وسنذكر في هذا الباب إن شاء الله تعالى شيئاً من نظم البلغاء ، ونثرهم في الافتخار ، ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله وتيسيره . قال أبو بكر الهذلي : سايرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوي الفلاة[4] وعليه جبة خزّ وعمامة عدنية ، وفي يده سوط ، يكاد يمس الأرض ، فلما رآه المنصور أمرني بإحضاره ، فدعوته وسألته عن نسبه وبلاده وعن قومه وعشيرته وعن ولاة الصدقة فأحسن الجواب فأعجبه ما رأى منه . فقال أنشدني شعراً فأنشده شعراً لأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بني عمرو بن تميم ، وحدثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله :

ان الأمور إذا أوردتها صدرت ... ان الأمور لها ورد وإصدار

فقال : ويحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت قال : كان أثقل العرب على عدوه وطأة ، وأقراهم لضيفه ، وأحوطهم من وراء جاره ، اجتمعت العرب بعكاظ فكلهم أقروا له بهذه الخلال : فقال له : والله يا أخا بني تميم لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك ، ولكني أحق ببيته منه ومن شعر أبي الطحان :

واني من القوم الذين هم هم ... إذا مات منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب ... بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

---

(١) سورة الاحزاب الآية ٣٣ .

(٢) سورة المؤمنون الآيات (١٠١ - ١٠٢-١٠٣).

(٣) هو كعب بن زهير بن ابي سلمى المازني - ابو المضرَّب - شاعر من أهل نجد له « ديوان شعر » . هجا النبي ﷺ فهدر النبي ﷺ دمه . فجاء إلى النبي ﷺ مستأمناً ، وأسلم وأنشده لاميته المشهورة والمسماة « نهج البردة » والتي مطلعها « بانت سعاد فقلبي اليوم مبتول » فعفا عنه النبي ﷺ وخلع عليه بردته . توفي سنة (٢٦هـ - ٦٤٥ م).
أنظر : عيون الاثر (٢ : ٢٠٨). وخزانة الادب للبغدادي (٤ : ١١و ١٢).

(٤) الفلاة: الصحراء.

أضـاءت لهم أحسـابهم ووجـوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبـه
ومـا زال فيهم حيث كـان مسـودا تسير المنايا حيث سـارت ركـائبـه

ولما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب وقال من ابن علي رضي الله تعالى عنه . فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عز وجل لم يبعث بعثاً إلا جعل له عدواً من المجرمين . فأنا ابن علي وأنت ابن صخر ، وأمك هند ، وأمي فاطمة ، وجدتك قيلة ، وجدتي خديجة . فلعن الله ألأمنا حسباً ، وأخملنا ذكراً ، واعظمنا كفراً ،وأشدنا نفاقاً . فصاح أهل المسجد آمين آمين فقطع معاوية خطبته ودخل منزله . وروي أن معاوية خرج فمرّ بالمدينة ، ففرق على أهلها أموالاً ولم يحضر الحسن بن علي رضي الله عنهما ، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن علي فقال له معاوية مرحباً برجل تركنا حتى نفد ما عندناوتعرض لنا ليبخلنا. فقال له الحسن ولم ينفد ما عندك ، وخراج الدنيا يجبى إليك . فقال معاوية اني قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة ، وأنا ابن هند . فقال الحسن قدرددته عليك وأنا ابن فاطمة . ودخل الحسين يوماً على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر ويقول : نحن ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا ، والحسين ساكت فأذن المؤذن فلما قال أشهد أن محمداً رسول الله . قال الحسين يا يزيد جُدْ من هذا ، فخجل يزيد ولم يرد جواباً وفي ذلك يقول علي بن محمد بن جعفر :

لقـد فاخـرتنـا من قـريش عصابـه بمط خـدود وامـتـداد أصـابـع
فلما تنـازعنـا الفخـار قضـى لنـا عليهم بمـا نهوى نـداء الصـوامـع
تـرانـا سكـوتـا والشهيـد بفضلنـا عليهم جهير الصوت من كل جامع
وله أيضاً : اني وقـومي من أنســاب قـومهـم كمسجد الخيف[1] من بحبوحة الخيف
مـا علق السيف منـا بابن عـاشـرة إلا وهمتـه أمضـى مـن السـيـف

وتفاخر العباس بن عبد المطلب ، وطلحة بن شيبة ، وعلي بن أبي طالب . فقال العباس : أنا صاحب السقاية والقائم عليها ، وقال طلحة أنا خادم البيت ومعي مفتاحه . فقال علي : ما أدري ما تقولان أنا صليت إلى هذه القبلة قبلكما بستة أشهر فنزلت : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر** ﴾[2] الآية . وتفاخر رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين . فقال الآخر أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته . فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أما الذي عدَّ تسعة آباء مشركين فحق على الله أن يجعل عاشرهم في النار ، والذي انتسب إلى أب مسلم فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم في الجنة . قال سلمان الفارسي :

أبي الاسـلام لا أب لي سـواه إذا افـتـخـروا بـقـيس أو تمـيـم

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك فقال الفرزدق : أنا ابن محيي الموتى . فأنكر سليمان قوله فقال يا أمير المؤمنين قال الله تعالى : ﴿ **ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً** ﴾[3] وجدي فدى الموؤدات

---

(١) الخيف : الناحية . وما انحدر عن غلظ الجبل ، وارتفع عن مسيل الماء . وكل هبوط وارتقاء في سفح الجبل .
(٢) سورة التوبة الآية ١٩ .
(٣) سورة المائدة الآية ٣٢ .

فاستحياهن . فقال سليمان انك مع شعرك لفقيه . وكان صعصعة جد الفرزدق أول من فدي المؤودات . وللعباس بن عبد المطلب :

إن القبائل من قريش كلها ليرون أنا هام أهل الأبطح
وترى لنا فضلاً على ساداتها فضل المنار على الطريق الأوضح

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المرواني من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر :

ألسنا بني مروان كيف تبدلت بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولد المولود منا تهللت له الأرض واهتزت إليه المنابر

وكتب إليه يهجوه فيه ويسبه . فكتب إليه صاحب مصر : أما بعد فإنك عرفتنا بهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك والسلام . وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضاً فحضر عنده ذات ليلة ابراهيم بن مخرمة الكندي ، وخالد بن صفوان بن الأهتم فخاضوا في الحديث وتذاكروا مصر واليمن . فقال ابراهيم بن مخرمة : يا أمير المؤمنين ان أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكاً ورثوا الملك كابراً عن كابر وآخراً عن أول . منهم النعمان ، والمنذر ، ومنهم عياض صاحب البحرين ، ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غصباً ، وليس من شيء له خطر إلا إليهم ينسب ، إن سئلوا أعطوا ، وإن نزل بهم ضيف قروه ، فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة . فقال أبو العباس : ما أظن التميمي رضي بقولك . ثم قال ما تقول أنت يا خالد ؟ قال إن أذن لي أمير المؤمنين في الكلام تكلمت . قال تكلم ولا تهب أحداً قال أخطأ المقتحم بغير علم ، ونطق بغير صواب ، وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة ، ولا لغة صحيحة ، نزل بها كتاب ، ولا جاءت بها سنة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ، ونفتخر عليهم بخير الأنام . وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، فلله المنّة به علينا وعليهم ، فمنا النبي المصطفى والخليفة المرتضى ، ولنا البيت المعمور زمزم والحطيم ، والمقام ، والحجابة ، والبطحاء ، وما لا يحصى من المآثر . ومنا الصديق والفاروق وذو النورين ، والرضا والولي وأسد الله وسيد الشهداء وبنا عرفوا الدين ، وأتاهم اليقين ، فمن زاحمنا زاحمناه ، ومن عادانا اصطلمناه[1]. ثم أقبل خالد على ابراهيم فقال ألك علم بلغة قومك . قال نعم . قال : فما اسم العين عندكم قال الجمجمة ، قال فما اسم السن ، قال الميدان ، قال فما اسم الأذن ، قال الصنارة ، قال فما اسم الأصابع ، قال الشناتير . قال فما اسم الذئب قال الكنع قال أفعالم أنت بكتاب الله عز وجل . قال نعم . قال فإن الله تعالى يقول : ﴿ **إنا أنزلناه قرآناً عربياً** ﴾[2] وقال تعالى بلسان عربي مبين وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه** ﴾[3] فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل . ألم تر أن الله تعالى قال : ﴿ **والعين بالعين** ﴾[4] ولم يقل

(١) اصطلم : الصلم : القطع ، أو قطع الاذن والانف من أصلها . ومصلّم الاذنين : وكأنّه مقطوعها . والصَّلامة : الفِرقةُ من الناس . .
(٢) سورة يوسف الآية ٢ .
(٣) سورة ابراهيم الآية ٤ .
(٤) سورة المائدة الآية ٤٥.

الجمجمة بالجمجمة وقال تعالى : ﴿ **والسن بالسن** ﴾[(١)] ولم يقل الميدن بالميدن وقال تعالى : ﴿ **والأذن بالأذن** ﴾[(٢)] ولم يقل الصنارة بالصنارة وقال تعالى : ﴿ **ويجعلون أصابعهم في آذانهم** ﴾[(٣)] ولم يقل شناتيرهم في صناراتهم وقال تعالى : ﴿ **فأكله الذئب** ﴾[(٤)] ولم يقل فأكله الكنع ثم قال لابراهيم اني أسألك عن أربع ان أقررت بهن قهرت ، وإن جحدتهن كفرت . قال وما هن . قال الرسول منا أو منكم ، قال منكم . قال فالقرآن أنزل علينا أو عليكم . قال عليكم ، قال فالمنبر فينا أو فيكم . قال فيكم قال فالبيت لنا أو لكم قال لكم . قال فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم ، بل ما أنتم إلا سائس قرد ، أو دابغ جلد ، أو ناسج بُرد . قال: فضحك أبو العباس ، وأقر لخالد وحباهما جميعاً . وقال بشار بن برد يفتخر :

إذا نحن صلنا صولة مضرية   هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة   ذرا منبر صلى علينا وسلما

وقال السموأل بن عادياء :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها   فليس إلى حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا   فقلت لها ان الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياه مثلنا   شباب تسامى للعلا وكهول
وما ضرنا أنا قليل وجارنا   عزيز وجار الأكثرين ذليل
لنا جبل يحتله من نجيره   منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسما به   إلى النجم فرع لا يزال طويل
وإنا أناس لا نرى القتل سبة   إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا   وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه   ولا ضل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظبات نفوسنا   وليست على غير الظبات تسيل
ونحن كماء المزن ما في نصابنا   كهام ولا فينا يعد بخيل
وننكر ان شئنا على الناس قولهم   ولا ينكرون القول حين نقول
إذا سيد منا خلا قام سيد   قؤول بما قال الكرام فعول
وما خمدت نار لنا دون طارق   ولا ذمنا في النازلين نزيل
وأيامنا مشهورة في عدوّنا   لها غرر مشهورة وحجول
وأسيافنا في كل شرق ومغرب   بها من قراع الدارعين فلول

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٥ .
(٢) سورة المائدة الآية ٤٥ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٩ .
(٤) سورة يوسف الآية ١٧ .

معـودة أن لا تـسـل نـصـالهـا　　فتغمـد حتى يستبـاح قـتيـل
سلي ان جهلت الناس عنا وعنهم　　فـليس سـواء عـالم وجـهـول
فـأنـا بني الـريـان قـطب لقـولهم　　تـدور رحـاهـم حـولهـم وتجـول

ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ ومعهم خطيبهم وشاعرهم خطب خطيبهم فافتخر فلما سكت ، أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم . فخطب ثابت بن قيس فأحسن ، ثم قام شاعرهم وهو الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الملوك فـلا حيّ يفـاخـرنـا　　فينـا العـلاء وفينـا تنصب البيـع
ونحن نـطعمهم في القحط ما أكلوا　　مـن العبيط إذا لم يـؤنس الـفـزع
وننحـر الكـوم عبـطاً في أرومتنـا　　للنـازلـين إذا مـا أنـزلـوا شبعـوا
تلك المكـارم حزنـاهـا مقـارعـة　　إذا الكـرام عـلى أمثـالهـا اقتـرعـوا

ثم جلس . فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت قم . فقام فقال :

ان الـدوائب من فـهـر واخـوتهم　　قـد بينـوا سننـاً لـلنـاس تتبـع
يرضى بها كـل من كانت سـريرتـه　　تقـوى الإلّه بـالأمر الـذي شرعـوا
قـوم إذا حـاربـوا ضـروا عـدوّهم　　أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعـوا
سجيـة تلك منهـم غـير محـدثـة　　ان الخـلائق فـاعلم شرهـا البـدع
لـو كان في النـاس سباقـون بعدهم　　فـكـل سبـق لأدنى سبـقهـم تـبـع
لا يـرفـع النـاس مـا أوهت أكفهم　　عنـد الدفـاع ولا يوهـون ما رفعـوا
لا يـضنـون عـن جـار بفـضلهـم　　ولا يمـسـهـم في مـطـمـع طـمـع
خذ منهم ما أتـوا عفـواً إذا عـطفوا　　ولا يكن همـك الأمر الـذي منعـوا
أكـرم بقـوم رسـول الله شيعتهم　　إذا تـفـرقـت الأهـواء والـشيـع

فقال التيميميون عند ذلك . وربكم ان خطيب القوم أخطب من خطيبنا ، وان شاعرهم أشعر من شاعرنا ، وما انتصفنا ولا قاربنا وقال شاعر من بني تميم :

أيـبـغـي آل شـداد عـلـينـا　　ومـا يـرعـى لـشـداد فـصيـل
فـإن تُغمـد منـاصلنـا نجـدهـا　　غـلاظاً في أنـامـل مـن يصـول

وقال سالم بن أبي وابصة :

عليك بـالقصـد فيـما أنت فـاعله　　ان الـتـخـلق يـأتي دونـه الخلق
ومـوقف مثل حـد السيف قمت به　　أحمي الـذمـار وتـرميني بـه الحـدق
فـما زلقت ولا أبـديت فـاحشـة　　إذا الـرجـال عـلى أمثـالهـا زلقـوا

وأما التفاضل والتفاوت

فقد روي أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل . قال : « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » لأنهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدوّ لله ولرسوله ﷺ . ومن كلام علي رضي الله عنه لمعاوية رضي الله عنه ، أما قولك انا بنو عبد مناف فكذلك نحن ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبي طالب . وقال أحمد بن سهل : الرجال ثلاثة سابق ، ولاحق ، وماحق . فالسابق الذي سبق بفضله ، واللاحق الذي لحق بأبيه في شرفه ، والماحق الذي محق شرف آبائه . وقيل ان عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث ، وأشعب الطماع وربتهما . قال أشعب : فكنت أسفل وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغايتين . وقال أبو العواذل زكريا بن هارون :

علي وعبد الله بينهما أب   وشتان ما بين الطبائع والفعل
ألم تر عبد الله يلحى على الندى   علياً ويلحاه علي على البخل

وحج أبو الأسود الدؤلي بامرأته وكانت شابة جميلة ، فعرض لها عمر ابن أبي ربيعة فغازلها فأخبرت أبا الأسود فأتاه يقول :

واني لينهاني عن الجهل والخنا   وعن شتم أقوام خلائق أربع
حياء واسلام وتقوى وانني   كريم ومثلي من يضر وينفع
فشتان ما بيني وبينك انني   على كل حال أستقيم وتضلع

وقال ربيعة البرقي :

لشتان ما بين اليزيدين في الندى   يزيد سليم والأعز بن حاتم
يزيد سليم سالم المال والفتى   فتى الازد للأموال غير مسالم
فهمّ الفتى الأزدي اتلاف ماله   وهمُّ الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب القيسيّ أني هجوته   ولكنني فضلت أهل المكارم

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في أخيه الحسين :

يقول أنا الكبير فعظموني   ألا ثكلتك أمك من كبير
إذا كان الصغير أعم نفعاً   وأجلد عند نائبة الأمور
ولم يأت الكبير بيوم خير   فما فضل الكبير على الصغير

والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب التاسع والعشرون

في الشرف والسؤدد وعلو الهمة

قال رسول الله ﷺ : « من رزقه الله مالاً فبذل معروفه ، وكف أذاه ، فذلك السيد » وقيل لقيس بن عاصم . بم سدت قومك قال : لم أخاصم أحداً إلا تركت للصلح موضعاً . وقال سعيد بن العاص : ما شاتمت رجلًا مذ كنت رجلاً ، لأني لم أشاتم إلا أحد الرجلين ، إما كريم فأنا أحق أن أجله ، وإما لئيم فأنا أولى أن أرفع نفسي عنه . وقالوا من نعت السيد أن يكون يملأ العين جمالاً ، والسمع مقالاً . وقيل قدم وفد من العرب على معاوية وفيهم الأحنف بن قيس . فقال الحاجب : ان أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد إلا لنفسه . فلما وصلوا إليه قال الأحنف : لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته ان رادفة ردفت ونازلة نزلت ، ونائبة نابت ، والكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين . فقال له معاوية : حسبك يا أبا بحر ، فقد كفيت الشاهد والغائب . وقال رجل للأحنف بم سدت قومك وما أنت بأشرفهم بيتاً ، ولا أصبحهم وجهاً ، ولا أحسنهم خلقاً . فقال : بخلاف ما فيك . قال وما ذاك ؟ قال تركي من أمرك ما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا يعنيك . وقيل السيد من يكون للأولياء كالغيث الغادي ، وعلى الأعداء كالليث العادي . وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسي وسؤدده أنه قدم من سفر فجمعه والشماخ بن ضرار المزني الطريق ، فتحادثا فقال له عرابة ما الذي أقدمك المدينة يا شماخ قال قدمتها لأمتار منها فملأ له عرابة رواحله براً وتمراً ، وأتحفه بتحف غير ذلك فأنشد يقول :

رأيت عرابة الأوسي يسمو ... إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت بمجد ... تلقاها عرابة باليمين

وأما علوّ الهمة فهو أصل الرياسة .

ممن علت همته ، وشرفت نفسه ، عمارة بن حمزة قيل انه دخل يوماً على المنصور وقعد في مجلسه فقام رجل وقال : مظلوم يا أمير المؤمنين . قال ومن ظلمك قال عمارة بن حمزة غصبني ضيعتي . فقال المنصور يا عمارة قم فاقعد مع خصمك فقال ما هو لي بخصم ، ان كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له ولا أقوم من مقام شرفني به أمير المؤمنين ورفعني ، وأقعد في أدنى منه لضيعة . وتحدث السفاح هو وأم سلمة يوماً في نزاهة نفس عمارة وكبره فقالت له : ادع به وأنا أهب له سبحتي هذه فإن ثمنها خمسون ألف دينار فإن هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس.فوجه إليه فحضر فحادثته ساعة ثم رمت إليه بالسبحة وقالت : هي من الطُرف وهي لك

فجعلها عمارة بين يديه ثم قام وتركها . فقالت لعله نسيها فبعثت بها إليه مع خادم فقال للخادم : هي لك ، فرجع الخادم فقال قد وهبها لي . فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه . وأهدى عبيد الله بن السري ، إلى عبد الله بن طاهر[1] لما ولي مصر مائة وصيف ، مع كل وصيف ألف دينار ، ووجه إليه بذلك ليلاً فرده وكتب إليه : لو قبلت هديتك ليلا لقبلتها نهاراً وما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون. (وكان) سبب فتح المعتصم عمورية ان امرأة من الثغر سبيت فنادت وامحمداه وامعتصماه فبلغه الخبر ، فركب لوقته وتبعه الجيش فلما فتحها قال لبيك أيتها المنادية . وكان سعيد بن عمرو بن العاص ، ذا نخوة وهمة ، وقيل له في مرضه ، ان المريض يستريح إلى الأنين وإلى شرح ما به إلى الطبيب . فقال : أما الأنين فهو جزع وعار والله لا يسمع الله مني أنيناً فأكون عنده جزوعاً ، وأما وصف ما بي إلى الطبيب فوالله لا يحكم غير الله في نفسي ، إن شاء أمسكها ، وإن شاء قبضها . ومن كبر النفس ما روي عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة ، واحتاج فكان يأكل الحنظل حتى قتله ولم يخبر أحداً بحاجته . ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار وحمى الذمار وكانت العرب ترى ذلك ديناً تدعو إليه ، وحقاً واجباً تحافظ عليه . وكان أبو سفيان بن حرب ، إذا نزل به جار قال يا هذا انك اخترتني جاراً واخترت داري داراً ، فجناية يدك عليّ دونك ، وان جنت عليك يد فاحتكم حكم الصبي على أهله . وكان الفرزدق يجير من عاذ بقبر أبيه غالب ابن صعصعة ، فممن استجار بقبر أبيه فأجاره امرأة من بني جعفر بن كلاب خافت لما هجا الفرزدق بني جعفر أن يسميها وينسبها ، فعاذت بقبر أبيه ، فلم يذكر لها اسماً ولا نسباً ، ولكن قال :

عجوز تصلي الخمس عاذت بغالب فلا والذي عاذت به لا أضيرها

وقال مروان بن أبي حفصة :

هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين[2] منزل

وقال ابن نباتة :

ولو يكون سواد الشعر في ذمم ما كان الشيب سلطان على القمم

وقيل إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده ، وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلطفه ، وأرغب السجان واستماله وهرب هو والسجان وقصدا الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان . وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك ، فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه ، وأحسن إليه ، وأقامه عنده . فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن ، وانه عند سليمان بن عبد الملك أخي أمير المؤمنين ، وولي عهد المسلمين ، وأن أمير المؤمنين أعلى رأياً . فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك ،

---

(١) هو عبد الله بن طاهر بن الحسين ابن مصعب ابن زريق الخزاعي ـ أبو العباس ـ أمير خراسان ، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي ، أصله من « بازغنيس » بخراسان . ولد سنة (١٨٢هـ ـ ٧٩٨ م) . انتقل إلى مصر سنة (٢١١هـ) فأقام سنة ثم انتقل إلى الدينور . توفي سنة (٢٣٠هـ ـ ٨٤٤ م)
أنظر ابن الاثير (٧ : ٥) . والطبري (١١ : ١٣) . وابن خلكان (١ : ٢٦٠) .

(٢) سمكه سمكاً : رفعه فارتفع والسَّمْك : السقف ، أو اعلى البيت إلى أسفله . والمسمكات : السموات .

فكتب سليمان إلى أخيه يقول يا أمير المؤمنين : اني ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه وأبوه واخوته من صنائعنا ، قديماً وحديثاً ، ولم أجر عدواً لأمير المؤمنين . وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلماً ، ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم ، وقد صار إليّ واستجار بي فأجرته ، وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يخزيني في ضيفي فليفعل ، فإنه أهل الفضل والكرم . فكتب إليه الوليد : انه لا بد أن ترسل إليّ يزيد مغلولاً مقيداً . فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ، ودعا يزيد بن المهلب فقيده ، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلهما جميعاً بغالين وأرسلهما إلى أخيه الوليد وكتب إليه : أما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان ، ولقد هممت أن أكون ثالثهما ، فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله ، ثم اجعل يزيد ثانياً ، واجعلني إذا شئت ثالثاً والسلام . فلما دخل يزيد بن المهلب ، وأيوب بن سليمان ، في سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء وقال : لقد أسأنا إلى أبي أيوب ، إذا بلغنا به هذا المبلغ ، فأخذ يزيد ليتكلم وليحتج لنفسه فقال له الوليد : ما يحتاج إلى كلام فقد قبلنا عذرك ، وعلمنا ظلم الحجاج . ثم إنه أحضر حداداً وأزال عنهما الحديد ، وأحسن إليهما ، ووصل أيوب بن أخيه بثلاثين ألف درهم ، ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم ، وردّهما إلى سليمان وكتب كتاباً إلى الحجاج يقول له : لا سبيل لك على يزيد بن المهلب ، فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم ، فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك ، وأقام عنده في أعلى المراتب وأرفع المنازل .

وحكي أن رجلاً من الشيعة كان يسعى في فساد الدولة فجعل المهدي لمن دلّ عليه أو أتى به مائة ألف درهم فأخذه رجل من بغداد فأيس من نفسه ، فمر به معن بن زائدة ، فقال له يا أبا الوليد ، أجرني أجارك الله . فقال معن للرجل مالك وماله . فقال : ان أمير المؤمنين طالبه . قال خل سبيله ، قال لا أفعل . فأمر معن غلمانه فأخذوه غصباً ، وأردفه بعضهم خلفه ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدي بالقصة فأرسل خلف معن فأحضره ، فلما دخل عليه قال له يا معن أتجير عليّ ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ، قتلت في يوم واحد في طاعتكم خمسة آلاف رجل ، هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيه طاعتي ، أفما تروني أهلاً أن تجيروا إليّ رجلاً واحداً استجار بي . فاستحيا المهدي وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه وقال : قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد . قال : ان رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بي فيكون قد أجاره وحباه ، قال قد أمرت له بخمسين ألف درهم . فقال معن يا أمير المؤمنين ينبغي أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية ، وان ذنب الرجل عظيم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل . قال قد أمرت له بمائة ألف درهم . فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه . وقال لا تتعرض لمساخط الخلفاء . وكان جعفر بن أبي طالب يقول لأبيه : يا أبت اني لا أستحي أن أطعم طعاماً ، وجيراني لا يقدرون على مثله . فكان أبوه يقول : اني لأرجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب . وسقط الجراد قريباً من بيت بعض العرب ، فجاء أهل الحي فقالوا نريد جارك ، فقال أما إذ جعلتموه جاري ، فوالله لا تصلون إليه وأجاره حتى طار ، فسمي مجير الجراد ، وقيل هو أبو حنبل . والحكايات في معنى ذلك كثيرة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثلاثون

في الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين رضي الله تعالى عنهم أجمعين

اعلم أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ، أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي رضي الله عنهم أجمعين ، وفضائلهم أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر ، وإني والله أحبهم وأحب من يحبهم واسأل الله أن يميتني على محبة النبي محمد ﷺ ومحبتهم ، وأن يحشرنا في زمرتهم وتحت ألويتهم انه على ما يشاء قدير ، وبالاجابة جدير .

اني أحب أبا حفص وشيعته ... كما أحب عتيقاً صاحب الغار
وقد رضيت علياً قدوة علماً ... وما رضيت بقتل الشيخ في الدار
كل الصحابة ساداتي ومعتقدي ... فهل عليّ بهذا القول من عار

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ . فقال أبو بكر أنا يا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : فمن أطعم اليوم منكم مسكيناً ؟ . فقال أبو بكر أنا . قال : فمن عاد منكم اليوم مريضاً ؟ . قال أبو بكر أنا . فقال رسول الله ﷺ : ما اجتمعن في أحد إلا دخل الجنة » . وقال ﷺ : « لو كان بعدي نبي لكان عمر » ، وقال له النبي ﷺ : «والذي بعثني بالحق بشيراً ما سلكت وادياً ، إلا سلك الشيطان وادياً غيره» ولما أسلم رضي الله عنه قال : يا رسول الله ألسنا على الحق . قال بلى . قال والذي بعثك بالحق نبياً لا نعبد الله سراً بعد هذا اليوم . ولما قدم عمر رضي الله عنه الشام وقف على طور سيناء فأرسل البطريق عظيماً لهم وقال : انظر ملك العرب فرآه على فرس ، وعليه جبة صوف مرقعة ، يستقبل الشمس بوجهه ومخلاته في قربوس(1) السرج ، وعمر يدخل يده فيها ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ويلوكها ، فوصفه للبطريق فقال لا نرى بمحاربة هذا طاقة أعطوه ما شاء . وأما أمير المؤمنين عثمان رضي الله تعالى عنه ، ففضائله كثيرة ومناقبه شهيرة ، فهو جامع القرآن ، ومن استحيت منه ملائكة الرحمن رضي الله عنه ، وقال جميع بن عمير دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت لها أخبريني ، من كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ قالت : فاطمة قلت إنما أسألك عن الرجال قالت زوجها ، فوالله لقد كان صواماً قواماً ولقد سالت نفس رسول الله ﷺ في يده فردها إلى فيه . قلت فما حملك على ما

---

(1) القَرَبُوسُ : ـ لا يسكن إلا لضرورة الشعر ـ حنو السرج . وهما قربوسان وجمعها قرابيس .

كان .فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت أمر قضي عليّ. وقال معاوية لضرار بن حمزة الكناني صف لي علياً فاستعفى ، فألح عليه . فقال أما إذن ، فلا بدّ أنه والله كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته . كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة يقلب كفه ، ويعاتب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن . وكان والله يجيبنا إذا سألناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا ، وقربه منا لا نكلمه هيبة له . يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين لا يطمع القويّ في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . فأشهد الله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ الخائف ، ويبكي بكاء الحزين فكأني الآن أسمعه يقول : يا دنيا إليّ تعرّضت ، أم إليّ تشوّقت هيهات هيهات ، غُرّي غيري لقد أبنتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير . آه من قلة الزاد ، ووحشة الطريق . قال فوكفت دموع معاوية حتى ما يملكها على لحيته وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء . وقال رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار قال : حـزني عليه والله حزن من ذُبح ولدها في حجرها فلا ترقأ[1] عبرتها ، ولا تسكن حيرتها ثم قام فخرج * وقيل أول من سل سيفاً في سبيل الله تعالى الزبير بن العوام رضي الله عنه وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلاً صائح . فقال قتلت محمد ، فخرج متجرداً وسيفه معه صلتا فتلقاه رسول الله ﷺ فقال مالك يا زبير قال سمعت أنك قتلت . قال فماذا أردت أن تصنع . قال أردت والله أن أستعرض على أهل مكة . وروي أخبط بسيفي من قدرت عليه فضمه رسول الله ﷺ وأعطاه أزاراً له فاستتر به وقال له أنت حواريي ودعا له . قال الأوزاعي كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ما له منها درهم ، بل كان يتصدق بها . وباع داراً له بستمائة ألف درهم . فقيل له يا أبا عبد الله غُبنت . قال كلا والله ، اني لم أغبن أشهدكم أنها في سبيل الله تعالى . وهبط جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ يوم أُحد فقال من حملك على ظهره ؟ وكان حمله على ظهره طلحة ، حتى استقل على الصخرة . قال طلحة قال أقرئه السلام ، وأعلمه أني لا أراه يوم القيامة في هول من أهوالها إلا استنقذته منه . من هذا الذي عن يمينك؟قال المقداد بن الأسود[2] قال ان الله يحبه ويأمرك أن تحبه . من هذا الذي بين يديك يتقي عنك ؟ . قال : عمار بن ياسر ، قال بشره بالجنة حرمت النار على عمار . ومَرَّ أبو ذر على النبي ﷺ ومعه جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي فلم يسلم . فقال جبريل هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه . فقال أتعرفه يا جبريل . قال والذي بعثك بالحق نبياً هو في ملكوت السموات السبع ، أشهر منه في الأرض . قال بم نال هذه المنزلة ؟ قال بزهده في هذه الحطام الفانية . وقال ابن عمر رضي الله عنهما سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان الله ليدفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيرانه البلاء »، ثم قرأ : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض** ﴾[3] الآية . وقال أبو بكر السفاح لأبي بكر الهذلي بم بلغ الحسن ما بلغ؟ . قال

---

(١) رقأ : جفَّ وسكن .

(٢) هو المقداد بن عمرو ، ويعرف بابن الاسود ، الكندي البهراني الحضرمي ـ أبو معبد ـ أو ـ ابو عمرو ـ صحابي أول من أظهر الاسلام . وهو أول من قاتل على فرس في سبيل الله . وفي الحديث : « إن الله عز وجل امرني بحب أربعة واخبرني أنه يحبهم : علي ، والمقداد ، وأبو ذر ، وسلمان ». توفي سنة (٣٣هـ ـ ٦٥٣ م) وله « ٤٨ » حديثاً .
أنظر : صفة الصفوة (١ : ١٦٧). مجمع الزوائد (٩ : ٣٠٦).

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥١ .

جمع كتاب الله تعالى وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، لم يجاوز سورة إلى غيرها ، حتى يعرف تأويلهَا ، ولم يقلب درهماً قط في تجارة ، ولم يل عملاً لسلطان ، ولم يأمر بشيء حتى يفعله ، ولم ينه عن شيء حتى يدعه . قال السفاح : بهذا بلغ * وقال الجاحظ : كان الحسن يستثني من كل غاية فيقال فلان أزهد الناس ، إلا الحسن ، وأفقه الناس إلا الحسن ، وأفصح الناس إلا الحسن ، وأخطب الناس إلا الحسن . وقال بعضهم كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس ، لأن عمر ملك الدنيا فزهد فيها ، وأويس لم يملكها فقيل لو ملكها لفعل كما فعل عمر ، فقال ليس من لم يجرب كمن جرب . وقال أنس في ثابت البناني ان للخير مفاتيح ، وإن ثابتاً من مفاتيح الخير، وكان حبيب الفارسي من أخيار الناس ، وهو الذي اشترى نفسه من ربه أربع مرات ، بأربعين ألفاً ، كان يخرج البدرة[1] فيقول يا رب اشتريت نفسي منك بهذه ، ثم يتصدق بها . وكان أيوب السختياني من أزهد الناس وأورعهم ، ذكر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى فقال : رحم الله أيوب ، لقد شهدت منه مقاماً عند منبر النبي لا أذكر ذلك المقام إلا اقشعر جلدي . وقال سفيان الثوري جهدت جهدي على أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر . وكان الخليل بن أحمد النحوي من أزهد الناس وأعلاهم نفساً ، وكان الملوك يقصدونه ويبذلون له الأموال ، فلا يقبل شيئاً وكان يحج سنة ، ويغزو سنة حتى مات رحمه الله . وقال ابن خارجة جالست ابن عون عشرين سنة فما أظن الملكين كتبا عليه شيئاً . وروى أنه غسل كرز بن وبرة فلم يوجد على جسده مثقال لحم . وعن محمد بن الحسن ، قال كان أبو حنيفة واحد زمانه ، ولو انشقت عنه الارض ، لانشقت عن جبل من الجبال ، في العلم والكرم والزهد والورع. وحج وكيع بن الجراح أربعين حجة ، ورابط في عبادان أربعين ليلة ، وختم بها القرآن أربعين ختمة ، وتصدق بأربعين ألفاً ، وروى أربعة آلاف حديث ، وما رؤي واضعاً جنبه قط . ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبي رباح ، وهو أسود مفلفل الشعر يفتي الناس في الحلال والحرام فتمثل يقول : تلك المكارم لا قعبان[2] من لبن . ومن مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم أجمعين ، سيدي أبو عبد الله محمد بن اسماعيل المغربي ، استاذ ابراهيم بن شيبان كان عجيب الشأن ، لم يأكل مما وصلت إليه أيدي بني آدم سنين كثيرة ، وكان أكله من أصول العشب شيئاً تعوّد أكله .

ومنهم سيدي فتح بن شحرف بن داود ويكني أبا نصر من الزاهدين الورعين لم يأكل الخبز ثلاثين سنة . قال أحمد بن عبد الجبار سمعت أبي يقول : صحبت فتح بن شحرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه إلى السماء ثم رفعها يوماً فقال طال شوقي إليك ، فعجل قدومي عليك . وقال محمد بن جعفر سمعت انساناً يقول غسلنا فتح بن شحرف فرأينا مكتوباً على فخذه لا إله إلا الله ، فتوهمناه مكتوباً ، وإذا هو عرق داخل الجلد ، ومات ببغداد فصُلي عليه ثلاثاً وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحواً من خمسة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً ومنهم . سيدي فتح بن سعيد الموصلي يكنى أبا نصر ، من أقران بشر الحافي . وسري السقطي كبير الشأن في باب الورع والمجاهدات . قال ابراهيم بن نوح الموصلي رجع فتح الموصلي إلى أهله بعد صلاة العتمة وكان صائماً فقال عشوني فقالوا ما عندنا شيء نعشيك به ،فقال ما بالكم جلوس في الظلمة فقالوا ما عندنا شيء نسرج به فجعل يبكي من الفرح ويقول إلٰهي مثلي يترك بلا عشاء ولا سراج ، بأي يد كانت مني ، فما زال يبكي إلى الصباح . وقال فتح رأيت بالبادية غلاماً لم يبلغ الحلم وهو يمشي وحده ويحرك شفتيه فسلمت عليه فرد عليّ السلام . فقلت : إلى أين ؟ فقال

---

(١) البدرة : مبلغ يساوي عشرة آلاف درهم .

(٢) القَعْبُ : القدح الضخم وقَعْب الكلام : غوره .

إلى بيت ربي عز وجل . فقلت بماذا تحرك شفتيك قال أتلو كلام ربي . فقلت إنه لم يجر عليك قلم التكاليف . قال رأيت الموت يأخذ من هو أصغر سناً مني . فقال خطاك قصيرة وطريقك بعيدة . فقال إنما علي نقل الخطا ، وعليه البلاغ . فقلت أين الزاد والراحلة ؟ قال زادي يقيني وراحلتي رجلاي . فقلت أسألك عن الخبز والماء ؟ قال يا عماه أرأيت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل زادك إلى منزله قلت . لا ، فقال إن سيدي دعا عباده إلى بيته ، وأذن لهم في زيارته فحملهم ضعف يقينهم على حمل أزوادهم ، وإني استقبحت ذلك فحفظت الأدب معه أفتراه يضيعني . فقلت حاشا وكلاّ ، ثم غاب عن بصري فلم أره إلا بمكة ، فلما رآني قال : أنت أيها الشيخ بعد على ذلك الضعف من اليقين . ومنهم سيدي أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الجبري ، صحب شاه الكرماني ويحيى بن معاذ الرازي . وكان يقال في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم : أبو عثمان الجبري بنيسابور ، والجنيد ببغداد ، وأبو عبد الله الحلاج بالشام ، ومن كلامه لا يكمل الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء : المنع ، والعطاء ، والعز ، والذل . وقال منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال فكرهته ، ولا نقلني إلى شيء فسخطته .

منهم سيدي سليمان الخواص يكنى أبا تراب كان أحد الزهاد المعروفين ، والعباد الموصوفين سكن الشام ، ودخل بيروت وكان أكثر مقامه ببيت المقدس . قيل اجتمع حذيفة المرعشي ، وابراهيم بن أدهم ، ويوسف بن أسباط ، فتذاكروا الفقر والغنى وسليمان ساكت فقال بعضهم الغنيّ من كان له بيت يسكنه وثوب يستره وسداد من عيش يكفه عن فضول الدنيا . وقال بعضهم الغني من لم يحتج إلى الناس . فقيل لسليمان ما تقول أنت في ذلك فبكى وقال رأيت جوامع الغني في التوكل ، ورأيت جوامع الفقر في القنوط ، والغنى حق الغنى من أسكن الله في قلبه من غناه يقيناً ، ومن معرفته توكلاً ، ومن قسمته رضاً ، فذلك الغنى حق الغنى ، وان أمسى طاوياً ، وأصبح معوزاً ، فبكى القوم من كلامه .

ومنهم سيدي أبو سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني أحد رجال الطريقة قدّس الله سره . كان من أجل السادات وأرباب الجد في المجاهدات ، ومن كلامه من أحسن في نهاره كفي في ليله ، ومن أحسن في ليله كفي في نهاره . ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه والله تعالى أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له . وقال لكل شيء علامة ، وعلامة الخذلان ترك البكاء . وقال لكل شيء صدأ ، وصدأ نور القلب شبع البطن . وقال أحمد بن أبي الحواري : شكوت إلى أبي سليمان الوسواس . فقال إذا أردت أن ينقطع عنك ، فأي وقت أحسست به فافرح ، فإنك إذا فرحت به انقطع عنك ، لأنه لا شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن ، وإذا اغتممت به زادك . وقال ذو النون المصري رحمة الله تعالى اجتمعوا ليلاً على أبي سليمان الداراني فسمعوه يقول : يا رب ان طالبتني بسريرتي ، طالبتك بتوحيدك ، وان طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك وإن جعلتني من أهل النار اخبرت أهل النار بحبي إياك . وقال علي بن الحسين الحداد سألت أبا سليمان بأي شيء تعرف الأبرار . قال : يكتمان المصائب ، وصيانة الكرامات . وروي عنه أنه قال: نمت ليلة عن وردي فإذا حوراء تقول لي : أتنام وأنا أربى لك في الخدور منذ خمسمائة عام .

ومنهم سيدي أبو محمد عبد الله بن حنيف من زهاد المتصوّفة كوفي الأصل ، ولكنه سكن انطاكية . ومن كلامه لا تغتم إلا من شيء يضرك غداً ، ولا تفرح إلا بشيء يسرك غداً ، وله كرامات ظاهرة ، وبركات متواترة .

ومنهم سيدي أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء ، أصبهاني الأصل كتب عن ستمائة شيخ ، ثم غلب عليه

الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف ، وقطع البادية على التجريد . وكان في ابتداء أمره يكسب في كل يوم ثلاثة دراهم وثلثاً فيأخذ من ذلك لنفسه دانقاً ، ويتصدق بالباقي . ويختم مع العمل كل يوم ختمة فإذا صلى العتمة في مسجده خرج إلى الجبل ، إلى قريب الصبح ، ثم يرجع إلى العمل ، وكان يقول في الجبل : يا رب إما أن تهب لي معرفتك ، أو تأمر الجبل أن ينطبق عليّ ، فإني لا أريد الحياة بلا معرفتك .

ومنهم سيدي يحيى بن معاذ الرازي قدّس الله سره يكنى أبا زكرياء أحد رجال الطريق كان أوحد وقته ، ومن كلامه : لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه ، ويوم حشره ميزانه . وقال ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال ، إن لم تنفعه ، فلا تضره ، وإن لم تسره فلا تغمه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه . وقال الصبر على الخلوة من علامات الاخلاص ، وقال بئس الصديق صديقاً يحتاج إلى أن يقال له اذكرني في دعائك . وقال على قدر حبك لله يحبك الخلق ، وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق ، وعلى قدر شغلك بالله تشتغل في أمرك الخلق . وقال من كان جناه في كيسه لم يزل فقيراً ومن كان غناه في قلبه لم يزل غنياً ، ومن قصد بحوائجه المخلوفين ، لم يزل محروماً . وروي أنه قدم شيراز فجعل يتكلم على الناس في علم الأسرار ، فأتته امرأة من نسائها فقالت : كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة . قال ثلاثون ألفاً أصرفها في دين عليّ بخراسان فقالت لك عليّ ذلك ، على أن تأخذها وتخرج من ساعتك . فرضي بذلك فحملت إليه المال فخرج من الغد فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت فقالت إنه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامة فغرت على ذلك .

ومنهم سيدي يوسف بن الحسين الرازي يكنى أبا يعقوب كان وحيد وقته في اسقاط التصنع . عالماً أديباً صحب ذا النون المصري ، وأبا تراب النخشبي . من كلامه إذا أردت أن تعلم العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال ، فإن قبل فاعلم أنه أحمق . وقال : إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه بشيء . وقال : لأن ألقي الله تعالى بجميع المعاصي أحب من أن ألقاه بذرة من التصنع . وقال أبو الحسن الدراج قصدت زيارة ابن الحسين الرازي من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله ، فكل من سألته يقول أي شيء تريد من هذا الزنديق فضيقوا صدري حتى عزمت على الانصراف فبت تلك الليلة في مسجد ، ثم قلت في نفسي جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته ، فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت إلى مسجده فوجدته جالساً في المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام وقال من أين ؟ قلت من بغداد فقال أتحسن من قولهم شيئاً قلت نعم وأنسد :

رأيتك تبني دائماً قطيعتي ولو كنت ذا حزم لهدّمت ما تبني

فأطبق المصحف ، ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وثوبه ورحمته من كثرة بكائه . ثم التفت إليّ وقال : يا بني أتلوم أهل البلد على قولهم يوسف بن الحسين زنديق ، وها أنا ذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن ، ولم تقطر من عيني قطرة ، وقد قامت عليّ القيامة بهذا البيت . ومنهم سيدي حاتم بن علوان الأصم قدّس الله سره يكنى أبا عبد الرحمن ، من أكابر مشايخ خراسان ، صاحب شقيقاً البلخي . ومن كلامه الزم خدمة مولاك تأتك الدنيا راغمة ، والآخرة راغبة . وقال من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كاذب . من ادعى حب الله تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب ، ومن ادعى محبة النبي ﷺ من غير محبة الفقر فهو كذاب ، ومن ادعى حب الجنة من غير انفاق ماله فهو كذاب . وسأله رجل علام بنيت أمرك في التوكل على الله عز وجل قال : على أربع خصال علمت أن

رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت به نفسي ، علمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به . وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره . وعلمت أني لا أخلوا من عين الله عز وجل حيث كنت فأنا استحي منه . وسبب تسميته بالأصم ما حكاه أبو علي الدقاق أن أمرأة جاءت تسأله عن مسألة فأتفق أنه خرج منها صوت ريح فخجلت المرأة . فقال حاتم ارفعي صوتك وأراها أنه أصم فسرت المرأة بذلك . وقالت : انه لم يسمع الصوت فغلب عليه هذا الاسم رحمة الله تعالى عليه .

ومنهم : الحسن بن أحمد الكاتب من كبار مشايخ المصريين صحب أبا بكر المصري وأبا علي الروذباري ، وكان أوحد مشايخ وقته . من كلامه روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وان كتموُها وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها ، وتدل عليهم وان ستروها وأنشدوا في هذا المعنى :

إذا ما أسرّت أنفس الناس ذكره   تبينه فيهم ولم يتكلموا
تطيب به أنفاسهم فتذيعها   وهل سر مسك أودع الريح يكتم

ومن كلامه أيضاً إذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية ، فأول ما يفيده الاستغناء به عن الناس . وقال صحبة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم . وقال إذا سكن الخوف في القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه .

ومنهم سيدي جعفر بن نصر الخلدي يكنى بأبي محمد ، بغدادي المولد والمنشأ ، صحب الجنيد وانتمى إليه ، وحج قريباً من ستين حجة روي أنه مر بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتبكي بكاء بحرقة فقال لها : مالك تبكين ؟ قالت : ثكلي بولدي فأنشأ يقول :

يقولون ثكلى ومن لم يذق   فراق الأحبة لم يثكل
لقد جرعتني ليالي الفراق   شراباً أمرّ من الحنظل

وروي أنه كان له فص فوقع منه يوماً في الدجلة وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذا دعا به عادت . فدعا به فوجد الفص في وسط أوراق كان يتصحفها ،وصورة الدعاء أن تقول : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، اجمع عليّ ضالتي . وقد روي أنه يقرأ قبله سورة الضحى ثلاثاً . وروى الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه قال : ودعت في بعض حجاتي المزين الكبير الصوفي قلت زوّدني شيئاً . فقال : إن فقدت شيئاً أو أردت أن يجمع الله بيني وبينك أو بينك وبين انسان فقل : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين كذا فإن الله يجمع بيننا ، أو بينك ، وبين ذلك الشيء أو الانسان .

ومنهم سيدي معروف بن فيروز الكرخي قدّس الله سره يكنى أبا محفوظ من كبار المشايخ . مجاب الدعوة ، وهو أستاذ السري ، وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبي . فكان المؤدب يقول له قل : هو ثالث ثلاثة فيقول بل هو الواحد الصمد ، فضربه المؤدب على ذلك ضرباً موجعاً فهرب منه فكان أبواه يقولان ليته يرجع إلينا على أي دين شاء فنوافق عليه . فرجع إلى أبويه فدق الباب فقيل من بالباب فقال معروف ، فقيل على أي دين فقال على دين الاسلام ، فأسلم أبواه وكان مشهوراً بإجابة الدعوة . ومن كلامه رضي الله عنه إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل ، وأغلق عليه باب الفترة والكسل . وكان يعاتب نفسه ويقول يا مسكين كم تبكي ، وتندب . أخلص تخلص . وقال سري سألت معروفاً عن الطائعين لله بأي شيء قدروا على الطاعات لله عز

وجل . قال بخروج حب الدنيا من قلوبهم ، ولوكانت في قلوبهم لما صحت لهم سجدة ومن انشاداته :

الماء يغسل ما بالثوب من درن وليس يغسل قلب المذنب الماء

وقال ابراهيم الأطروش،كان معروف قاعداً يوماً على الدجلة ببغداد فمر بنا صبيان في زورق يضربون بالملاهي ، ويشربون . فقال له أصحابه أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء ، فادع عليهم فرفع يده إلى السماء وقال : إلّهي وسيدي كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة . فقال له أصحابه إنما سألناك أن تدعو عليهم ، ولم نقل لك ادع لهم . فقال إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضركم ذلك . وقال سري رأيت معروفاً في المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول لملائكته من هذا ؟ فقالوا أنت أعلم يا رب . قال : هذا معروف الكرخي سكر بحبي ، لا يفيق إلا بلقائي . وقيل له في مرضه أوص . فقال إذا مت فتصدقوا بقميصي هذا فإني أحب أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها عرياناً . وقال أبو بكر الخياط : رأيت في المنام كأني دخلت المقابر فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان وإذا أنا بمعروف الكرخي بينهم يذهب ويجيء فقلت يا أبا محفوظ ما فعل الله بك ، أو ليس قدمت قال بلى ثم أنشد يقول :

موت التقي حياة لا نفاد لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء

ومنهم قاسم بن عثمان الكرخي يكنى أبا عبد الملك من أجلاء المشايخ صحب أبا سليمان الداراني وغيره وكان من أقران السري ، والحرث المحاسبي ، وكان أبو تراب النخشبي يصحبه ومن كلامه : من أصلح فيما بقي من عمره غفر له ما مضى ، وما بقي . ومن أفسد فيما بقي من عمره أخذ بما مضى وما بقي . وقال السلامة كلها في اعتزال الناس ، والفرح كله في الخلوة بالله عز وجل ، وسئل عن التوبة ، فقال التوبة رد المظالم ، وترك المعاصي ، وطلب الحلال ، وأداء الفرائض . وقال لأصحابه أوصيكم بخمس : إن ظُلمتم فلا تظلموا ، وان مُدحتم فلا تفرحوا ، وان ذممتم فلا تحزنوا ، وإن كذبتم فلا تغضبوا ، وإن خانوكم فلا تخونوا . وقال محمد بن الفرج سمعت قاسم بن عثمان يقول : ان لله عباداً قصدوا الله بهممهم ، فأفردوه بطاعتهم ، واكتفوا به في توكلهم ، ورضوا به عوضاً عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا ، فليس لهم حبيب غيره ، ولا قرة عين إلا فيما قرب إليه . وكان يقول : قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلا معرفة ، ثم قال : اعرف وضع رأسك ونم، فما عبد الله الخلق بشيء أفضل من المعرفة .

وروي عنه أنه قال : رأيت في الطواف حول البيت رجلاً ، فتقربت منه فإذا هو لا يزيد على قوله : اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتي لم تقض . فقلت له ما لك لا تزيد على هذا الكلام فقال أحدثك كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى ، غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلنا ، فاعتزل بنا لتضرب أعناقنا ، فنظرت إلى السماء فإذا سبعة أبواب مفتحة ، عليها سبع جوار ، من الحوار العين ، في كل باب جارية فقدم رجل منا فضربت عنقه فرأيت جارية في يدها منديل قد هبطت إلى الأرض ، فضربت أعناق الستة وبقيت أنا ، وبقي باب وجارية فلما قدمت لتضرب عنقي استوهبني بعض خوّاص الملك ، فوهبني له فسمعتها تقول بأي شيء فاتك هذا يا محروم وأغلقت الباب . فأنا يا أخي متحسر على ما فاتني ، قال قاسم بن عثمان أراه أفضلهم لأنه رأى ما لم يروا ، وترك يعمل على الشوق .

ومنهم سيدي أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي ، كان جليل القدر مالكي المذهب ، عظيم الشأن ، صحب

الجنيد[1] ومن في عصره ، وكان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر ، وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جد في الطاعات . يقول هذا شهر عظّمه ربي ، فأنا أولى بتعظيمه . وسئل عن قول النبي ﷺ « خير عمل المرء كسب يمينه » فقال : إذا كان الليل فخذ ماء وتهيأ للصلاة وصل ما شئت ، ومد يديك وسل الله عز وجل فذلك كسب يمينك . ولما حج ورأى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وقع مغشياً عليه فلما أفاق أنشد يقول :

هذه دراهم وأنت محب ما بقاء الدموع في الاماق

وروي أنه قال : كنت يوماً جالساً فجرى في خاطري أني بخيل . فقلت مهما فتح الله عليّ به اليوم أدفعه إلى أول فقير يلقاني . قال فبينما أنا متفكر ، إذ دخل عليّ شخص ومعه خمسون ديناراً فقال اجعل هذه في مصالحك ، فأخذتها وخرجت وإذا أنا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه ، فتقدمت إليه وناولته الصرة ، فقال لي ادفعها للمزين ، فقلت له انها دنانير ، فقال انك لبخيل قال فناولتها للمزين ، فقال المزين ان من عاداتنا ان الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجراً ، قال فرميتها في الدجلة ، وقلت ما أعزك أحد إلا أذله الله تعالى .

ومنهم سيدي زرقان بن محمد ، أخو ذي النون المصري صاحب سياحة ، كان بجبل لبنان . حكي عن يوسف ابن الحسين الرازي قال : بينما أنا بجبل لبنان أدور إذا أبصرت زرقان أخا ذي النون المصري جالساً على عين ماء وقت صلاة العصر فسلمت عليه ، وجلست من ورائه فالتفت إليّ وقال : ما حاجتك ، فقلت بيتا شعر سمعتهما من أخيك ذي النون المصري أعرضهما عليك ، فقال : قل ، فقلت سمعته يقول :

قد بقينا مذبذبين حيارى نطلب الوصل ما إليه سبيل
فدواعي الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل

فقال زرقان ولكني أقول :

قد بقين مذهلين حيارى حسبنا ربنا ونعم الوكيل
حيثما الفوز كان ذاك منانا وإليه في كل أمر نميل

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسي فقال : رحم الله ذا النون المصري ، رجع إلى نفسه فقال ، ما قال ، ورجع زرقان إلى ربه ، فقال ما قال . وقال أبو عبد الرحمن السلمي : زرقان بن محمد أخو ذي النون المصري ،

---

(١) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز ـ أبو القاسم ـ صوفي من العلماء بالدين ولد ببغداد ونشأ فيها . عرف الجنيد بالخزاز لانه كان يعمل الخز .
قال أحد معاصريه : ما رأت عيناي مثله ، الكتبة يحضرون مجلسه لالفاظه ، والشعراء لفصاحته ، والمتكلمون لمعانيه . وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد . وقال ابن الاثير في وصفه : امام الدنيا في زمانه وعده العلماء شيخ مذهب التصوف ، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة ، ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة ، محمي الاساس من شبه الغلاة ، سالماً من كل ما يوجب اعتراض الشرع . توفي سنة (٢٩٧هـ ـ ٩١٠ م) .
أنظر : وفيات الاعيان (١ : ١١٧) وتاريخ بغداد (٧ : ٢٤١) .

وأظن أنه أخوه مؤاخاة لا أخوّة نسب ، وكان من أقرانه ورفقائه . ومنهم سيدي أبو عبد الله النباجي سعيد بن بريد ، كان من أقران ذي النون المصري ، ومن أقران استاذي أحمد بن أبي الحواري له كلام حسن في المعرفة وغيرها روي عنه أنه قال : أصابني ضيق وشدة فبت وأنا مفكر في المسير إلى بعض اخواني ، فسمعت قائلاً يقول لي في النوم ، أيجمل بالحر المريد إذا وجد عند الله ما يريد أن يميل بقلبه إلى العبيد ، فانتبهت وأنا من أغنى الناس . ومنهم سيدي بشر بن الحرث قدّس الله روحه ، يكنى أبا نصر أحد رجال الطريقة أصله من مرو ، وسكن بغداد ، وكان من كبار الصالحين ، وأعيان الأتقياء المتورعين صحب الفضيل بن غياض ، وروي عن سري السقطي وغيره . ومن كلامه لا تكن كاملاً حتى يأمنك عدوّك ، وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك . وقال أوّل عقوبة يعاقبها ابن آدم في الدنيا مفارقة الأحباب . وقال غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه ، وخفاء مكانه عنهم . وقال التكبير على المتكبر من التواضع . وسئل عن الصبر الجميل فقال : للصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه إلى الناس . وقيل إنه لقي رجلاً سكران فجعل الزجل يقبل يد بشر ويقول يا سيدي يا أبا نصر ، وبشر لا يدفعه عن نفسه ، فلما ولى الرجل تغرغرت عينا بشر وجعل يقول : رجل أحب رجلاً على خير توهمه لعل المحب قد نجا ، والمحبوب لا يدري ما حاله . وروي أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله فقالت : اني امرأة أغزل بالليل والنهار وأبيعه ، ولا أبين غزل الليل من غزل النهار ، فهل عليّ في ذلك شيء . فقال يجب أن تبيني فلما أنصرفت قال أحمد لابنه اذهب فانظر أين تدخل . فرجع فقال دخلت دار بشر فقال قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر . ولما مرض مرضه الذي مات فيه قال له أهله نرفع ماءك إلى الطبيب قال أنا بعين الطبيب يفعل بي ما يريد . فألحوا عليه فقال لأخته ادفعي إليهم الماء ، فدفعته إليهم في قارورة ، وكان بالقرب منهم طبيب نصراني فدفعوا إليه القارورة ، فقال حركوا الماء ، فحركوه . فقال ضعوه فوضعوه ، فقالوا له ما بهذا وصفت لنا ، قال : ماذا وصفت لكم ؟ قالوا : وصفت بأنك أحذق أهل زمانك في الطب . قال هو كما وصفت لكم . أن هذا الماء ان كان ماء نصراني فهو ماء راهب قد فتت الخوف كبده ، وان كان ماء مسلم فماء بشر الحافي ، لأن ما في زمانه أخوف منه ، قالوا هو ماء بشر فقال أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فلما رجعوا إلى بشر قال لهم أسلم الطبيب ، قالوا له ومن أعلمك بهذا ، قال لما خرجتم من عندي نوديت يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب . توفي سنة سبع وعشرين ومائتين .

ومنهم سيدي أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي ، من أجل المشايخ ، كبير الشأن ، ومن كلامه : ما زلت أسوق إلى الله تعالى نفسي وهي تبكي ، إلى ان سقتها وهي تضحك ، وسئل بأي شيء وجدت هذه المعرفة . فقال : ببطن جائع ، وبدن عار . وقيل له ما أشد ما لقيت في سبيل الله تعالى . فقال لا يمكن وصفه ، فقيل له ما أهون ما لقيته نفسك منك . فقال أما هذا فنعم . دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبني ، فمنعتها الماء سنة . وقال : الناس كلهم يهربون من الحساب ، ويتجافون عنه ، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني ، فقيل له لِمَ ؟ فقال لعله يقول فيما بين ذلك يا عبدي . فأقول لبيك ، فقوله لي يا عبدي أحب إليّ من الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء . وقال له رجل دلني على عمل أتقرب به إلى ربي . فقال أحب أولياء الله ليحبوك ، فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه ، فلعله ينظر إلى اسمك في قلب ولي فيغفر لك . وسئل عن المحبة فقال : استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك . توفي سنة احدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى .

ومنهم شيخ الطائفة سيدي أبو القاسم الجنيدي بن محمد القواريري شيخ وقته ، وفريد عصره ، أصله من

نهاوند، ومولده ومنشؤه ببغداد صحب جماعة من المشايخ، وصحب خالد السري ، والحرث المحاسبي ، ودرس الفقه على أبي ثور ، وكان يفتي في مجلسه بحضرته وهو ابن عشرين سنة . ومن كلامه رضي الله عنه علامة أعراض الله تعالى عن العبد ، أن يشغله بما لا يعنيه . وقال الأدب أدبان ، أدب السر ، وأدب العلانية ، فأدب السر طهارة القلوب . وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب . ورؤي في يده يوماً سبحة ، فقيل له أنت مع تمكنك وشرفك تأخذ بيدك سبحة . فقال نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا نتركه أبداً . وقال الحسن بن محمد السراج سمعت الجنيد يقول : رأيت ابليس في منامي وكأنه عريان فقلت له ألا تستحي من الناس . فقال بالله هؤلاء عندك من الناس . لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة ، ولكن الناس عندي ثلاثة نفر . فقلت : ومن هم : قال في مسجد الشونيري قد أضنوا قلبي ، وأنحلوا جسمي كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عزّ وجل ، فأكاد أن أحرق . قال الجنيد فانتبهت من نومى ، ولبست ثيابي ، وجئت إلى مسجد الشونيز بليل فلما دخلت أخرج أحدهم رأسه وقال : يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شيء تقبل ، قيل إن الثلاثة الذين كانوا في المسجد الشونيزي : أبو حمزة ، وأبو الحسن الثوري ، وأبو بكر الدقاق رضي الله عنهم . وقال محمد بن قاسم الفارسي : بات الجنيد ليلة العيد في الموضع الذي كان يعتاده في البرية فإذا هو وقت السحر بشاب ملتف في عباءة وهو يبكي ويقول :

بحـرمـة غـربتي كم ذا الصـدود ... ألا تحـنـوا عـليّ ألا تجـودوا
سـرور العيـد قـد عم النـواحي ... وحـزني في ازديـاد لا يـبـيـد
فـإن كنت اقترفت خـلال سـوء ... فـعـذري في الهـوى أن لا أعـود

توفي الجنيد رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد ، وصلى عليه نحو ستين ألفاً رضوان الله عليهم أجمعين .وممن صحبته وانتفعت بصحبته وفاضت الخيرات عليّ ببركته سيدي الشيخ الامام العالم العامل أبوالمعالي وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطريني المالكي ، قدّس الله سره وروحه ونوّر ضريحه ، كان أوحد زمانه في الزهد والورع قامعاً لأهل الضلال والبدع ، وله أسرار ظاهرة ، وبركات متواترة ، قد أطاع أمره الخلائق عجماً وعرباً ، وانتشر ذكره في البلاد شرقاً وغرباً ، وأتت الملوك إلى بابه واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه ، ما أتاه مكروب إلا فرّج الله كربته ، ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته ، كان محافظاً على النوافل، ملازماً للفرض ، وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض ، لم يمتع نفسه في الدنيا بالمآكل والمشارب اللذيذة ، بل قيل انه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهوراً عديدة ، وكان رضي الله عنه كثير الشفقة والحنو على أصحابه ، نصوحاً لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه .دخل عليه أعدى عدوه ، فيقبل ببشره وبرّه عليه ، فيخرج من عنده وهو أحب الناس إليه كما قال بعضهم :

وإني لألـقـى المـرء أعـلم أنـه ... عـدوّي وفي أحشائـه الضغن كـامن
فـأمنحه بشـري فيـرجـع قلبـه ... سليـماً وقـد مـاتت لـديـه الضغـائن

وكانت حملة أهل زمانه عليه ، وأحوالهم في كل أمر راجعة إليه ، وكنت كثيراً ما أسمعه يتمثل بهذا البيت :

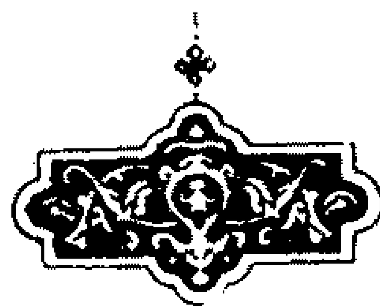
ومـا حملوني الـضيـم إلا حملتـه ... لأني محـب والمـحـب حمـول

وكان رضي الله عنه كثير المصافاة ، عظيم الموافاة ، شأنه الحلم والستر ، لم يهتك حرمة مسلم ولا فضحه . وما استشاره أحد في أمر إلا أرشده إلى الخير ونصحه ، صحبته رضي الله عنه نحو خمس عشرة سنة ، فكأنها من

طيبها كانت سنة ، ما قطع برّه يوماً واحداً عني ، حتى كنت أظن أن ليس عنده أخص مني ، وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه قاطبة بيض الله وجهه في القيامة ، وبلغه من فضل ربه مآربه . وكان رضي الله عنه فقيهاً في مذهب الامام مالك ، إمام كبير لم ير له في زمانه من شبيه ولا نظير ، وله في علم الحقيقة أقوال وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال ، ولو تتبعت مناقبه لاتسع الكلام ولكني أقول كان أوحد عصره والسلام . عاش رضي الله عنه نيفاً وستين سنة ، وكان الناس في زمانه في عيشة راضية ، وأحوال حسنة وكان رضي الله عنه كثير الأمراض والأسقام ، حصل له في آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة ثم تزايد مرضه في العشر الأول من ذي الحجة الحرام ، فلما كانت ليلة الحادي عشر اشتد به الأمر واحتضر ولم يزل في النزع إلى ثلث الليل الأول من الليلة المذكورة ثم توفي رحمه الله تعالى ، سعيداً حميداً في ليلة الجمعة حادي عشر ذي الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وثمانمائة ، ولما أخبر الناس وفاته عظم مصابه على المسلمين ، ووقع النوح والبكاء والأسف في أقطار البلدان . حتى طوائف المخالفين للملة من النصارى وغيرهم ، وصاروا يبكون ويتوجعون ويتأسفون على فراقه ، وكيف لا وهو إمام العصر علامة الدهر حق فيه قول القائل :

حلف الزمان ليأتين بمثله — حنثت يمينك يا زمان فكفر

رضي الله عنه ، ورضي عنّا به ، ونفعنا ببركته في الدين والدنيا والآخرة ، فشرعوا في تجهيزه وغسله فكنت ممن حضر غسله ، ولكن لم يكن ذهني معي في تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقده كيف لا ، وقد كان لي والداً شفوقاً وباراً محسناً عشوقاً ، فلما انتهى غسله رضي الله عنه جاء القضاة ، والنوّاب ، والكشاف والولاة ، وحملوه على أعناقهم ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة فضاق بهم الجامع على سعته وضاقت الشوارع والسكك والطرقات من كثرة الناس ، فلم ير أكثر جمعاً ، ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم وهذا دليل على أنه كان قطب أهل زمانه . قال الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه بيننا وبينهم الجنائز ، يريد بذلك اجتماع الناس . والله أعلم فارتفع نعشه على أعناقهم ، وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى سيدي سليمان الدواخلي نفعنا الله ببركته ودفن يوم الجمعة بزاويته التي أنشأها بسندفا مع والده الشيخ الامام العالم العلامة مفتي المسلمين سراج الدين أبي حفص عمر الطريني المالكي في قبر واحد نفعنا الله ببركته وجعل الجنة متقلبه ومثواه ، وحشرنا وإياه في زمرة سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبيين وأفضل المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين . ونسأله لنا التوفيق والاعانة وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطريني أدام الله أيامه للمسلمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



الباب الحادي والثلاثون

في مناقب الصالحين ، وكرامات الأولياء ، رضي الله عنهم

اعلم أن كرامات الأولياء لا تنكر ، ومناقبهم أكثر من أن تحصر ، نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم في زمرة نبينا محمد ﷺ يوم المحشر ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

حكاية قال مالك بن دينار[1] رحمه الله تعالى احتبس عنا المطر بالبصرة ، فخرجنا نستسقي مراراً فلم نر للاجابة أثراً ، فخرجت أنا وعطاء السلمي ، وثابت البناني ، ويحيى البكاء ، ومحمد بن واسع ، وأبو محمد السختياني ، وحبيب الفارسي ، وحسان بن ثابت بن أبي سنان ، وعتبة الغلام ، وصالح المزني حتى إذا صرنا إلى المصلى بالبصرة خرج الصبيان من المكاتب ثم استسقينا فلم نر للإجابة أثراً حتى انتصف النهار ، وانصرف الناس ، وبقيت أنا وثابت البناني بالمصلى ، فلما أظلم الليل إذا أنا بعبد أسود مليح ، رقيق الساقين عليه جبة صوف قوّمت ما عليه بدرهمين ، فجاء بماء فتوضأ ، ثم جاء إلى المحراب فصلى ركعتين خفيفتين . ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : إلهي وسيدي ومولاي إلي كم ترد عبادك فيما لا ينفعك ، أنفد ما عندك ، أم نقص ما في خزائنك ، أقسمت عليك بحبك لي إلا ما اسقيتنا غيثك الساعة . قال فما أتم كلامه حتى تغيمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب . قال مالك فتعرضت له ، وقلت له يا أسود أما تستحي مما قلت . قال وما قلت . قلت قولك بحبك لي وما يدريك أنه يحبك . قال تنح عني يا من اشتغل عنه بنفسه افتراه بدأني بذلك إلا لمحبته إياي . ثم قال محبته لي على قدره ، ومحبتي له على قدري . فقلت له يرحمك الله ارفق قليلاً ، فقال إني مملوك على فرض من طاعة مالكي الصغير . قال فانصرف وجعلنا نقفو أثره على البعد ، حتى دخل دار نخاس ، فلما أصبحنا أتينا النخاس فقلت : يرحمك الله عندك غلام تبيعه منا للخدمة . قال نعم عندي مائة غلام للبيع ، فجعل يعرض علينا غلاماً بعدغلام حتى عرض علينا سبعين غلاماً فلم ألق حبيبي فيهم .فقال عودا إليّ في غير هذا الوقت ، فلما

---

(١) هو مالك بن دينار البصري - ابو يحيى - من رواة الحديث كان ورعاً ، يأكل من كسبه ، ويكتب المصاحف بالاجرة . توفي بالبصرة سنة (١٣١هـ - ٧٤٨ م).
أنظر وفيات الاعيان (١ : ٤٤٠). وحلية الاولياء (٢ : ٣٥٧).

أردنا الخروج من عنده ، دخلنا حجرة خربة خلف داره وإذا بالأسود قائم يصلي . فقلت حبيبي ورب الكعبة ، فجئت إلى النخاس فقلت له بعني هذا الغلام فقال يا أبا يحيى هذا الغلام ليست له همة في الليل إلا البكاء ، وفي النهار إلا الخلوة والوحدة . فقلت له لا بد من أخذه منك وله الثمن ، وما عليك منه . فدعاه فجاء وهو يتناعس فقال خذه بما شئت بعد أن تبرئني من عيوبه كلها . فاشتريته منه بعشرين ديناراً ، وقلت له ما اسمك ؟ قال ميمون ، فأخذت بيده أريد المنزل فالتفت إليّ وقال يا مولاي الصغير لماذا اشتريتني وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين. فقلت له : والله يا سيدي إنما اشتريتك لأخدمك بنفسي . قال ولِمَ ذلك ، فقلت ألست صاحبنا البارحة بالمصلى ، قال بلى وقد اطلعت على ذلك . قلت نعم وأنا الذي عارضتك البارحة في الكلام بالمصلى . قال فجعل يمشي حتى أتى إلى مسجد فاستأذنني ودخل المسجد فصلى فيه ركعتين خفيفتين ، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : إلٰهي وسيدي ومولاي سر كان بيني وبينك ، أطلعت عليه غيرك ، فكيف يطيب الآن عيشي ، أقسمت عليك بك إلا ما قبضتني إليك الساعة ، ثم سجد فانتظرته ساعة فلم يرفع رأسه فجئت إليه وحركته فإذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه . قال فمددت يديه ورجليه فإذا هو ضاحك مستبشر وقد غلب البياض على السواد ، ووجهه كالقمر ليلة البدر وإذا شاب قد دخل من الباب وقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أعظم الله أجورنا وأجوركم في أخينا ميمون ، هاكم الكفن فناولني ثوبين ما رأيت مثلهما قط ، فغسلناه وكفناه فيهما ، ودفناه : قال مالك ابن دينار فبقبره نستسقي إلى الآن ، ونطلب الحوائج من الله تعالى رحمة الله عليه .

وحكي عن حذيفة المرعشي رضي الله عنه ، وكان قد خدم ابراهيم الخواص ،رضي الله عنه وصحبه مدة فقيل له ما أعجب ما رأيت منه . فقال بقينا في طريق مكة أياماً لم نأكل طعاماً ، فدخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خرب فنظر إليّ ابراهيم وقال : يا حذيفة أرى بك أثر الجوع . فقلت هو كما ترى . فقال عليّ بدواة وقرطاس فأحضرتها إليه فكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى ثم قال :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر	أنا جائع أنا ضائع أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها	فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها	فأجر عبيدك من لهيب النار

قال حذيفة : ثم دفع إليّ الرقعة : وقال اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ، وادفعها إلى أوّل من يلقاك . فخرجت فأوّل من لقيني رجل على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فقرأها وبكى ، وقال ما فعل بصاحب هذه الرقعة قلت هو في المسجد الفلاني فدفع إليّ صرة فيها ستمائة درهم فأخذتها ومضيت فوجدت رجلاً فسألته من هذا الراكب على البغلة ؟ فقال : هو رجل نصراني . قال فجئت ابراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمس الدراهم فإن صاحبها يأتي الساعة ، فلما كان بعد الساعة أقبل النصراني راكباً على بغلته ، فترجل على باب المسجد ودخل فأكب على ابراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول : أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده ، لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال فبكى ابراهيم الخواص فرحاً به وسروراً ، وقال الحمد لله الذي هداك للاسلام وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

وحكي أن بعضهم كان ملاحاً ببحر النيل المبارك بمصر . قال كنت أعدي من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي ، ومن الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي فبينما أنا ذات يوم في الزورق إذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة . فقال السلام عليكم . فرددت عليه السلام . فقال : أتحملني إلى الجانب الغربي لله تعالى . فقلت نعم . فطلع إلى الزورق وعديت به إلى الجانب الغربي ، وكان على ذلك الفقير مرقعة ، وبيده ركوة وعصا ، فلما أراد الخروج من الزورق قال اني أريد أن أحملك أمانة . قلت وما هي ؟ قال : إذا كان غداً وقت الظهر تجدني عند تلك الشجرة ميتاً ، وستنسى فإذا ألهمت فأتني وغسلني وكفني في الكفن الذي تجده عند رأسي ، وصل عليّ وادفني تحت الشجرة ، وهذه المرقعة ، والعصا والركوة يأتيك من يطلبها منك فادفعها إليه ولا تحتقره . قال الملاح ثم ذهب وتركني فتعجبت من قوله وبت تلك الليلة فلما أصبحت انتظرت الوقت الذي قال لي فلما جاء وقت الظهر نسيت ، فما تذكرت إلا قريب العصر فسرت بسرعة فوجدته تحت الشجرة ميتاً ، ووجدت كفناً جديداً عند رأسه تفوح منه رائحة المسك فغسلته وكفنته فلما فرغت من غسله حضر عندي جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحداً فصلينا عليه ودفنته تحت الشجرة كما عهد إليّ ثم عدت إلى الجانب الشرقي وقد دخل الليل . فنمت فلما طلع الفجر وبانت الوجود ، إذا أنا بشاب قد أقبل عليّ فحققت النظر في وجهه فإذا هو من صبيان الملاهي كان يخدمهم فأقبل وعليه ثياب رقاق ، وهو مخضوب الكفين وطارة تحت ابطه . فسلم عليّ فرددت عليه السلام فقال يا ملاح : أنت فلان بن فلان قلت نعم . قال هات الوديعة التي عندك قلت ومن أين لك هذا قال لا تسأل . فقلت لا بد أن تخبرني . فقال لا أدري ، إلا أني البارحة كنت في عرس فلان التاجر فسهرنا نرقص ونغني إلى أن ذكر الله الذاكرون على المآذن ، فنمت لأستريح وإذا برجل قد أيقظني وقال : ان الله تعالى قد قبض فلاناً الولي ، وأقامك مقامه ، فسر إلى فلان بن فلان صاحب الزورق فإن الشيخ أودع لك عنده كيت وكيت . قال فدفعتها له فخلع أثوابه الرقاق ورمى بها في المورق ، وقال تصدق بها على من شئت ، وأخذ الركوة والعصا ، ولبس المرقعة وسار وتركني أتحرق وأبكي لما حرمت من ذلك . وأقمت يومي ذلك أبكي إلى الليل ، ثم نمت فرأيت رب العزة جل جلاله في النوم فقال يا عبدي : أثقل عليك ان مننت على عبد عاص بالرجوع إليّ . إنما ذلك فضلي أوتيه من أشاء من عبادي ، وأنا ذو الفضل العظيم .

وحكي أبو اسحاق الصعلوكي قال : خرجت سنة إلى الحج ، فبينما أنا في البادية تائه ، وقد جَنَّ الليل ، وكانت ليلة مقمرة إذ سمعت صوت شخص ضعيف يقول : يا أبا اسحاق قد انتظرتك من الغداة ، فدنوت منه فإذا هو شاب نحيف الجسم ، قد أشرف على الموت ، وحوله رياحين كثيرة ، منها ما أعرف ، ومنها ما لا أعرف ، فقلت له : من أنت ، ومن أين أنت ، قل من مدينة شمشاط كنت في عزة ورفعة ، فطالبتني نفسي بالغربة والعزلة ، فخرجت وقد أشرفت الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقبض لي ولياً من أوليائه ، وأرجو أن تكون أنت هو ، فقلت ألك حاجة . قال نعم لي والدة وأخوة وأخوات . فقلت هل اشتقت إليهم قط ، قال لا إلا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم فهممت أريدهم فاحتوشتني السباع والهوام وبكين معي ، وحملوا إليّ هذه الرياحين التي تراها . قال أبو اسحاق فبينما أنا معه يرق له قلبي ، وإذا بحية عظيمة في فمها باقة نرجس كبيرة فقالت : دع ولي الله تعالى ، فإن الله

يغار على أوليائه ، قال فغشي عليه وغشي عليّ ، فما أفقت إلا وهو قد خرجت روحه رحمه الله . قال : فدخلت مدينة شمشاط بعدما حججت فاستقبلتني امرأة بيدها ركوة ما رأيت أشبه بالشاب منها ، فلما رأتني نادت : يا أبا اسحاق ما شأن الشاب الغريب الذي مات غريباً ، فإني منتظرتك منذ كذا ، فذكرت لها القصة إلى أن قلت لها أشم ريحهم ، فصاحت أوّاه أوّاه قد بلغ والله الشم ، ثم شهقت شهقة خرجت روحها ، فخرج إليها بنات أتراب عليهن مرقعات ومروط فكفلن أمرها وتولين دفنها وهن مستترات رضوان الله على الجميع .

يا نسيماً هب من وادي قبا   خبريني كيف حال الغربا
كم سألت الدهر أن يجمعنا   مثل ما كنا عليه فأبى

ويحكى أن رجلاً كان يعرف بدينار العيار، وكان له والدة صالحة تعظه وهو لا يتعظ ، فمر في بعض الأيام بمقبرة فأخذ منها عظماً فتفتت في يده ففكر في نفسه . وقال ويحك يا دينار كأني بك وقد صار عظمك هكذا رفاتاً ، والجسم تراباً فندم على تفريطه ، وعزم على التوبة ، ورفع رأسه إلى السماء وقال إلهي وسيدي ألقيت إليك مقاليد أمري فاقبلني ، وارحمني . ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب فقال يا أماه : ما يصنع بالعبد الآبق(١) إذا أخذه سيده . قالت : يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه . فقال أريد جبة من صوف ، وأقراصاً من شعير وغلين وافعلي بي كما يفعل بالعبد الآبق ، لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني ففعلت به ما أراد ، فكان إذا جنّ عليه الليل ، أخذ في البكاء والعويل ، ويقول لنفسه ويحك يا دينار ألك قوة على النار ، كيف تعرضت لغضب الجبار ، ولا يزال كذلك إلى الصباح . فقالت له أمه : يا بني ارفق بنفسك . قال دعيني أتعب قليلاً لعلي أستريح طويلاً ، يا أماه أن لي غداً موقفاً طويلاً بين يدي رب جليل ، ولا أدري أيؤمر بي إلى ظل ظليل ، أو إلى شر مقيل . قالت : يا بني خذ لنفسك راحة . قال لست للراحة أطلب كأنك يا أماه غداً بالخلائق يساقون إلى الجنة ، وأنا أساق إلى النار مع أهلها ، فتركته وما هو عليه فأخذ في البكاء والعبادة وقراءة القرآن فقرأ في بعض الليالي : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾(٢) ففكر فيها وجعل يبكي حتى غشي عليه ، فجاءت أمه إليه فنادته فلم يجبها فقالت له يا حبيبي وقرة عيني أين الملتقى فقال بصوت ضعيف : يا أماه ان لم تجديني في عرصات القيامة فاسألي مالكاً خازن النار عني ثم شهق شهقة فمات رحمه الله تعالى . فغسلته أمه وجهزته وخرجت تنادي أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار ، فجاء الناس من كل جانب فلم ير أكثر جمعاً ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة فرآه يتبختر في الجنة ، وعليه حلة خضراء ، وهو يقرأ الآية فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ، ويقول وعزته وجلاله سألني ، ورحمني ، وغفر لي ، وتجاوز عني ، ألا اخبروا عني والدتي .

وحكي عن الحسن البصري قال : نزل سائل بمسجد فسأل الناس أن يطعموه كسرة فلم يطعموه .

---

(١) ابِقَ العبدُ : ذهب بلا خوفٍ ولا كدٍ ولا عمل . او استخفى ثم ذهبَ ، فهو آبق .
(٢) سورة الحجر الآية (٩٢ و٩٣).

فقال الله تعالى لملك الموت اقبض روحه فإنه جائع ، فقبض روحه فلما جاء المؤذن رآه ميتاً فأخبر الناس بذلك ، فتعاونوا على دفنه فلما دخل المؤذن المسجد وجد الكفن في المحراب مكتوباً عليه : هذا الكفن مردود عليكم ، بئس القوم أنتم ، استطعمكم فقير فلم تطعموه ، حتى مات جوعاً ، من كان من أحبابنا لا نكله إلى غيرنا .

وحكى أبو علي المصري قال : كان لي جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يوماً : حدثني بأعجب ما رأيت من الموتى . فقال جاءني شاب في بعض الأيام مليح الوجه ، حسن الثياب فقال لي أتغسل لنا هذا الميت . قلت نعم فتبعته حتى أوقفني على باب فدخل هنيهة ، فإذا بجارية هي أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهي تمسح عينيها . فقالت أنت الغاسل ؟ قلت نعم . قالت باسم الله ادخل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فدخلت الدار ، وإذا أنا بالشاب الذي جاءني يعالج سكرات الموت وروحه في لبته ، وقد شخص بصره ، وقد وضع كفنه وحنوطه عند رأسه فلم أجلس إليه حتى قبض . فقلت سبحان الله هذا ولي من أولياء الله تعالى حيث عرف وقت وفاته ، فأخذت في غسله وأنا أرتعد ، فلما أدرجته أتت الجارية وهي أخته فقبلته وقالت أما أني سألحق بك عن قريب ، فلما أردت الانصراف شكرت لي وقالت أرسل إليّ زوجتك ان كانت تحسن ما تحسنه أنت . فارتعدت من كلامها وعلمت أنها لاحقة به ، فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى تلك الجارية فوقفت بالباب واستأذنت فقالت باسم الله تدخل زوجتك فدخلت زوجتي وإذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت فغسلتها زوجتي وأنزلتها على أخيها رحمة الله عليهما :

أأحبابنا بنتم عن الدار فاشتكت ... لعبدكم آصالها وضحاها
وفارقتم الدار الأنيسة فاستوت ... رسوم مبانيها وفاح كلاها
كأنكم يوم الفراق رحلتم ... بنومي فعيني لا تصيب كراها
وكنت شحيحاً من دموعي بقطرة ... فقد صرت سمحاً بعدكم بدماها
يراني بساماً خليلي يظن بي ... سروراً وأحشاي السقام ملاها
وكم ضحكة في القلب منها حرا ... رة يشب لظاها لو كشفت غطاها
رعى الله أياماً بطيب حديثكم ... نقضت وحياها الحيا وسقاها
فما قلت إيها بعدها لمسامر ... من الناس الاقال قلبي آها

وحكى سري السقطي[1] رحمه الله تعالى قال : أرقت ليلة ، ولم أقدر على النوم ، فلما طلع الفجر صليت فلما أصبحت دخلت المارستان فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهي تقول :

تغل يدي إلى عنقي ... وما خانت وما سرقت
وبين جوانحي كبد ... أحس بها قد احترقت

---

(١) هو سريّ بن المفلس السقطي ـ أبو الحسن ـ من كبار المتصوفة ، بغدادي المولد والوفاة . وهو أول من تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية ، وكان أمام البغداديين ، وشيخهم في وقته . وهو خال الجنيد ، واستاذه . قال الجنيد : « ما رأيت أعبد من السري » . توفي سنة (٢٥٣هـ ـ ٨٦٧ م) .
أنظر : طبقات الصوفية (٤٨ : ٥٥) . تهذيب ابن عساكر (٦ : ٧١ ـ ٧٩) .

قال : فقلت للقيّم من هذه الجارية ، قال هذه جارية اختل عقلها فحبست لعلها تصلح ، فلما سمعت كلامه تبسمت وقالت :

معشـر النـاس مـا جننت ولـكن	أنـا سكـرانـة وقـلبي صـاحي
لم غـللتـم يـدي ولم آت ذنـبـاً	غـير هتكي في حبـه وافتضـاحي
أنـا مفـتـونـة بـحب حـبـيـب	لست أبغي عن بـابـه من بـراح
مـا علـيّ من أحب مـولي المـوالي	وارتـضـاه لـنـفـسـه مـن جنـاح

قال : فلما سمعت كلامها بكيت بكاء شديداً فقالت يا سري : هذا بكاؤك من الصفة ، فكيف لو عرفته حق المعرفة ، قال فبينما هي تكلمني إذ جاء سيدها فلما رآني عظمني . فقلت : والله هي أحق مني بالتعظيم فلم فعلت بها هذا . قال لتقصيرها في الخدمة ، وكثرة بكائها ، وشدة حنينها ، وأنينها كأنها ثكلى لا تنام ولا تدعنا ننام وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فإنها مطربة . قلت فما كان بدء أمرها . قال :كان العود في حجرها يوماً فجعلت تقول :

وحقـك لا نقضت الدهـر عهـداً	ولا كـدرت بـعـد الـصـفـو وداً
مـلأت جـوانحي والـقلب وجـداً	فـكـيـف أقـر يـا سكـني وأهـدأ
فـيـا من لـيس لي مـولى سـواه	نـراك رضيـتـني بـالـبـاب عـبـدا

فقلت لسيدها اطلقها وعليّ ثمنها ، فصاح وافقراه من أين لك عشرون ألفاً يا سري . فقلت لا تعجل عليّ . فقال : تكون في المارستان حتى توفيني ثمنها ، فقلت نعم ، قال سري فانصرفت وعيني تدمع وقلبي يخشع وأنا والله ما عندي درهم من ثمنها . فبت طول ليلتي أتضرع إلى الله تعالى ، فإذا بطارق يطرق الباب ففتحت ودخل عليّ رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بدر ، فقال أتعرفني يا سري قلت لا ، قال أنا أحمد بن المثنى كنت نائماً ، فهتف بي هاتف وقال لي يا أحمد : هل لك في معاملتنا ، فقلت ومن أولى مني بذلك فقال احمل إلى سري السقطي خمس بدر من أجل الجارية الفلانية ، فإن لنا بها عناية . قال سري فسجدت لله شكراً ، وجلست أتوقع طلوع الفجر ، فلما طلع صلينا وذكرنا وانصرفنا نحوها فسمعناها تقول :

قـد تـصـبـرت إلى إن	عـيـل مـن حـبـك صـبـري
ضـاق مـن غـلي وقـيـدي	وامـتـهـاني مـنـك صـدري
لـيس يخـفـى عـنـك أمـري	يـا مـنى قـلـبـي وذخـري
أنـت قـد تـعـتـق رقـي	وتـفـك الـيـوم أسـري

قال سري فبينما أنا أسمعها ، وإذا بمولاها قد جاء وهو يبكي . فقلت لا بأس عليك قد جئناك برأس مالك وربح عشرة آلاف درهم ، فقال والله لا فعلت ذلك ، قلت نزيدك ، قال والله لو أعطيتني ما بين الخافقين ما فعلت ، وهي حرة لوجه الله تعالى . قال فتعجبت من ذلك ، وقلت ما كان هذا كلامك بالأمس ، فقال حبيبي لا توبخني فالذي وقع لي من التوبيخ كفاني ، وأشهدك أني قد خرجت من جميع مالي صدقة في سبيل الله تعالى ، وإني هارب إلى الله تعالى ، فبالله لا تردني عن صحبتك . فقلت نعم ثم التفت فرأيت صاحب المال يبكي ، فقلت ما يبكيك ،

قال يا استاذي ما قبلني مولاي لما ندبني إليه ، ورد عليّ ما بذلت أشهدك أني قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى في سبيل الله ، وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى . قال سري فقلت ما أعظم بركتك يا جارية . قال فنزعنا الغل من عنقها ، والقيد من رجلها ، وأخرجناها من المارستان فنزعت ما كان عليها من ناعم الثياب ولبست خماراً من صوف ومدرعة من شعر ، وولت . قال سري فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال إلى مكة ، فبينما نحن نطوف إذ سمعنا صوتاً فتبعناه فإذا هي امرأة كالخيال ، فلما رأتني قالت السلام عليك يا سري . فقلت لها وعليك السلام ورحمة الله وبركاته من أنت ؟ فقالت لا إله إلا الله ، وقع الشك بعد المعرفة ، فتأملتها فإذا هي الجارية . فقلت لها : ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق ، فقالت أُنسي به ، ووحشتي من غيره ، ثم توجهت إلى البيت وقالت إلٓهي كم تخلفني في دار لا أرى فيها أنيساً ، قد طال شوقي إليك ، فعجل قدومي عليك ، ثم شهقت شهقة وخرّت ميتة رحمة الله تعالى عليها . فلما نظر إليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلامه إلى أن خرّ إلى جانبها ميتاً رحمة الله عليه فدفناها في قبر واحد .

بحرمة ما قد كان بيني وبينكم ... من الود إلا ما رجعتم إلى وصل
ولا تحرموني نظرة من جمالكم ... فلن تجدوا عبداً ذليلاً لكم مثلي
فوالله ما يهوى فؤادي سواكم ... ولو رشقوه بالأسنة والنبل

وحكي أنه كان في زمن بني اسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير ، فاعتراه فتور في بعض الأيام ، فأزال الله عنه سحابته ، وحجب إجابته ، فكثر لذلك حزنه وشجونه ، وطال كمده وأنينه وما زال يشتاق إلى زمن الكرامة ويبكي ، ويتأسف ، ويتحسر ويتلهف ، فقام ليلة من الليالي فصلى ما شاء الله ، وبكى وتضرع ، ودعا الله تعالى ونام . فقيل له في المنام : إذا أردت أن يرد الله تعالى عليك سحابتك فأت الملك الفلاني في بلد كذا ، واسأله أن يدعو الله لك أن يرد عليك سحابتك . قال فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلدة التي ذكرت له في المنام فدخلها ، وسأل من يرشده إلى قصر الملك ، فجاء إلى القصر وإذا عند بابه غلام جالس على كرسي عظيم من الذهب الأحمر ، مرصع بالدر ، والجوهر ، والناس بين يديه يسألونه حوائجهم وهو يصرف الناس . فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه فقال له الغلام : من أين أنت ؟ وما حاجتك ؟ فقال : من بلاد بعيدة وقصدي الاجتماع بالملك . فقال له الغلام : لا سبيل لك إليه اليوم فسل حاجتك أقضها لك ان استطعت . فقال ان حاجتي لا يقضيها إلا الملك ، فقال الغلام ان الملك ليس له إلا يوم واحد في الجمعة يجتمع إليه الناس فيه ، فاذهب حتى يأتي ذلك اليوم ، فانصرف الرجل إلى مسجد داثر[1] وأقام يعبد الله تعالى فيه ، وأنكر على الملك لاحتجابه عن الناس ، فلما كان ذلك اليوم الذي يجلس فيه الملك جاء إلى القصر فوجد خلقاً كثيراً عند الباب ينتظرون الإذن فوقف مع جملة الناس ، فلما خرج الوزير أذن للناس في الدخول فدخل أرباب الحوائج ودخل صاحب السحابة معهم ، وإذا بالملك جالس وبين يديه

(١) الدثر : المال الكثير . ودثر الشجر : أورق . والسيف صدىء فهو داثر . وادثر : افتنى دثرا من المال . والداثر تأتي بمعنى الهالك او المنقرض .

السحابة ، فلما نظر إليه الملك قال مرحباً بصاحب السحابة . اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس وأنظر في أمرك ، قال فتحير صاحب السحابة في أمره . فلما فرغ الملك من حوايج الناس قام من مجلسه فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره ، ثم مشى به في دهليز القصر فلم يجد في طريقه إلا مملوكاً واحداً ، فسار به حتى انتهى إلى باب من جريد ، وإذا به بناء مهدوم ، وحيطان مائلة ، وبيت خرب فيه برش ، وليس هناك ما يساوي عشرة دراهم إلا سجادة خلقة ، وقدح للوضوء ، وحصير رثة ، وشيء من الخوص فانخلع الملك من ثياب الملك ، ولبس مرقعة من صوف ، وجعل على رأسه قلنسوة من شعر ، ثم جلس وأجلس صاحب السحابة ونادى يا فلانة قالت لبيك . قال أتدرين من هو الليلة ضيفنا . قالت نعم هو صاحب السحابة ، فدعا بها لحاجة فخرجت ، فإذا هي امرأة كالشن البالي عليها مسح من شعر خشن وهي شابة صغيرة قال الرجل فالتفت إليّ الملك وقال يا أخي نطلعك على حالنا أو نقضي حاجتك وتنصرف . فقلت والله لقد شغلني حالكما عما جئت بسببه ، فقال الملك الله يعلم ، انه كان لي في هذا الأمر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كابراً عن كابر ، فلما توفوا إلى رحمة الله تعالى ، ووصل الأمر إليّ بغّض الله إليّ الدنيا وأهلها فأردت أن أسيح في الأرض ، وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس أمرهم فيملكونه عليهم ، فخفت عليهم دخول الفتنة وتضييع الدين ، والشرائع ، وتبديل شمل الدين فبايعوني وأنا والله كاره . فتركت أمورهم على ما كانت عليه وجعلت السماط على عادته ، والحراس على حالها ، والمماليك على دأبها ، ولم أغير شيئاً ، وأقعدت المماليك على الأبواب بالسلاح إرهاباً لأهل الشرور ، وردعاً عن أهل الخير ، وتركت القصر مزيناً على حاله ، وفتحت له باباً وهو الذي رأيته يوصلني إلى هذه الخربة ، فأدخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا ، وأضفر الخوص[1] وأبيعه ، وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتي هذه التي رأيتها وهي ابنة عمي زهدت في الدنيا كزهدي ، واجتهدت حتى صارت كالشن البالي ، والناس لا يعلمون ما نحن فيه ، ثم أني أقمت لي نائباً ينوب عني طول الجمعة ، وعلمت أني مسؤول ، فجعلت لي يوماً في الجمعة أبرز للناس فيه ، وأكشف عن مظالمهم كما رأيت . وأنا على هذه الحالة مدة فأقم عندنا يرحمك الله حتى نبيع خويصاتنا ، ونبتاع من ثمنها طعاماً وتفطر معنا وتبيت عندنا الليلة ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى . فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسي العمر فأخذ ما عملاه من خوص ، وسار به إلى السوق فباعه واشترى من ثمنه خبزاً وفولاً ، واشترى بباقي ثمنه خوصاً ، فلما كان عند الغروب أفطرا وأفطرت معهما وبت عندهما قال : فقاما في نصف الليل يصليان ويبكيان فلما كان السحر قال الملك : اللهم إن عبدك هذا يطلب منك رد سحابته ، وانك قد دللته علينا ، اللهم ارددها عليه انك على كل شيء قدير ، والمرأة تؤمن على دعائه ، وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء فقال لي : لك البشارة بقضاء حاجتك ، وتعجيل اجابتك ، قال فودعتهما وانصرفت والسحابة معي كما كانت ، فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيئاً إلا أعطاني إياه رحمة الله تعالى عليهما .

استعمل الصبر تجني بعده العسلا ولازم الباب حتى تبلغ الأملا
ومرّغ الخد في أعتابه سحرا واحمل لمرضاته في الحب كل بلا
فما يفوز بوصل يا أخي سوى صب لثقل الهوى والوجد قد حملا
هذا الحبيب ينادي في الدجى سحرا فانهض وكن رجلاً بالسعي قد وصلا

---

(١) الخوص : مفردها خوصه وهي ورق النخل .

وحكي عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: خرجت إلى مكة حاجاً فبينما أنا سائر، إذ رأيت شاباً ساكتاً لا يذكر الله تعالى. فلما جن الليل رفع وجهه نحو السماء، وقال: يا من لا تسره الطاعات ولا تضره المعاصي، هب لي ما لا يسرك، واغفر لي ما لا يضرك، ثم رأيته بذي الحليفة وقد لبس احرامه والناس يلبون، وهو لا يلبي. فقلت هذا جاهل فدنوت منه فقلت له يا فتى، قال لبيك قلت لِمَ لا تلبي، فقال يا شيخ وما تغني التلبية وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم مكتوبات، والله اني لأخشى أن أقول، لبيك فيقول لا لبيك، ولا سعديك، لا أسمع كلامك ولا أنظر إليك. فقلت له لا تقل ذلك، فإنه حليم، إذا غضب رضي، وإذا رضي لم يغضب، وإذا وعد وفىّ ومتى توعد عفا، فقال يا شيخ أتشيرُ عليّ بالتلبية قلت نعم فبادر إلى الأرض واضطجع ووضع خده على التراب، وأخذ حجراً فوضعه على خده الآخر وأسبل دموعه، وقال لبيك، اللهم لبيك قد خضعت لك وهذا مصرعي بين يديك. فأقام كذلك ساعة ثم مضى، فما رأيته إلا بمنى وهو يقول اللهم ان الناس قد ذبحوا ونحروا، وتقربوا إليك، وليس لي شيء أتقرب به إليك سوى نفسي، فتقبلها مني ثم شهق شهقة وخر ميتاً رحمة الله تعالى عليه.

وحكي أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي عبد الله الأندلسي، وكان شيخاً لكل من بالعراق، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات. فخرج في بعض السنين إلى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلي[1] وغيرهما من مشايخ العراق. قال الشبلي فلم نزل في خدمته ونحن مكرمون بعناية الله تعالى، إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار. فطلبنا ماء نتوضأ به فلم نجد، فجعلنا ندور بتلك القرية، وإذا نحن بكنائس، وبها شمامسة، وقساوسة، ورهبان، وهم يعبدون الأصنام، والصلبان فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم، ثم انصرفنا إلى بئر في آخر القرية، وإذا نحن بجوار يستقين الماء على البئر، وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها، وفي عنقها قلائد الذهب. فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال هذه ابنة من؟ فقيل له: هذه ابنة ملك هذه القرية، فقال الشيخ فلم لا يدللها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقي الماء، فقيل له أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمته، وخدمته ولا تعجبها نفسها. فجلس الشيخ ونكس رأسه، ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل، ولا يشرب، ولا يكلم أحداً غير أنه يؤدي الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه، ولا يدرون ما يصنعون، قال الشبلي فتقدمت إليه وقلت له يا سيدي ان أصحابك ومريديك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام، وأنت ساكت لم تكلم أحداً، قال فأقبل علينا، وقال: يا قوم اعلموا ان الجارية التي رأيتها أمس قد شغفت بها حباً، واشتغل بها قلبي، وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض. قال الشبلي: فقلت له يا سيدي أنت شيخ أهل العراق، ومعروف بالزهد في سائر الآفاق، وعدد مريديك اثنا عشر ألفاً، فلا تفضحنا وإياهم، بحرمة الكتاب العزيز. فقال: يا قوم جرى القلم بما حكم، ووقعت في بحار العدم، وقد انحلت عني عرى الولاية، وطويت عني أعلام الهداية، ثم انه بكى بكاء شديداً. وقال يا قوم

---

(١) هو دلف بن جحدر الشبلي. ناسك كان في مبدأ امره والياً في دنباوند (من نواحي رستاق الري) وولي الحجابة للموفق العباسي، وكان ابوه حاجب الحجاب، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح، وله شعر جيد، سلك به مسالك المتصوفة. أصله من خراسان ونسبته إلى قرية «شبلة» من قرى ما وراء النهر ومولده بسر من رأى سنة (٢٤٧هـ - ٨٦١ م) ووفاته ببغداد سنة (٣٣٤هـ - ٩٤٦ م).
أنظر اخباره في: وفيات الاعيان (١ : ١٨٠) والنجوم الزاهرة (٣ : ٢٨٩).

انصرفوا فلقد نفذ القضاء والقدر . فتعجبنا من أمره ، وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره ، ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب ، ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد ، فخرج الناس إلى لقائه. ومريدوه في جملة الناس فلم يروه ، فسألوا عنه فعرفناهم بما جرى ، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزناً عليه وأسفاً ، وجعل الناس يبكون ، ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم ، وغلقت الرباطات[1] والزوايا والخوانق[2] ، ولحق الناس حزن عظيم ، فأقمنا سنة كاملة وخرجت مع بعض أصحابي نكشف خبره فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ فقيل لنا انه في البرية يرعى الخنازير ، قلنا وما السبب في ذلك . قالوا : انه خطب الجارية من أبيها فأبى أن يزوجها إلا ممن هو على دينها . ويلبس العباءة ، ويشد الزنار ، ويخدم الكنائس ، ويرعى الخنازير ففعل ذلك كله ها هو في البرية يرعى الخنازير ، قال الشبلي فانصدعت قلوبنا . وانهملت بالبكاء عيوننا . وسرنا إليه وإذا به قائم قدام الخنازير فلما رآنا نكس رأسه ، وإذا عليه قلنسوة النصارى ، وفي وسطه زنار وهو متوكىء على العصا التي كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب فسلمنا عليه ، فرد علينا السلام فقلنا : يا شيخ ما ذاك ، وماذا ، وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم ، فقال : يا اخواني وأحبابي ليس لي من الأمر شيء ، سيدي تصرف فيّ . كيف شاء وحيث أراد أبعدني عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبابه ، فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وابعاده ، والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء . ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : يا مولاي ما كان ظني فيك هذا ثم جعل يستغيث ويبكي ونادى يا شبلي اتعظ بغيرك ، فنادى الشبلي بأعلى صوته ، بك المستعان ، وأنت المستغاث ، وعليك التكلان اكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك . قال : فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم أقبلت إليهم ، وجعلت تمرغ وجهها بين أيديهم ، وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال . قال الشبلي فظننت أن القيامة قد قامت ، ثم ان الشيخ بكى بكاء شديداً . قال الشبلي فقلنا له : هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد فقال : كيف لي بذلك ، وقدد استرعيت الخنازير ، بعد ان كنت أرعى القلوب . فقلت يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرأه بالسبع ، فهل بقيت تحفظ منه شيئاً ، فقال نسيته كله إلا آيتين . فقلت وما هما قال : قوله تعالى : ﴿ **ومن يهن الله فما له من مكرم ان الله يفعل ما يشاء** ﴾[3] والثانية قوله تعالى : ﴿ **ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل** ﴾[4] فقلت يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ فهل تحفظ منها شيئاً قال حديثاً واحداً وهو قوله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » قال الشبلي فتركناه وانصرفنا ونحن متعجبون من أمره فسرنا ثلاثة أيام وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر ، وطلع وهو يشهد شهادة الحق ، ويجدد إسلامه فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور ، فنظر إلينا وقال : يا قوم أعطوني ثوباً طاهراً فأعطيناه ثوباً فلبسه ثم صلى وجلس فقلنا له الحمد لله الذي ردك علينا وجمع شملنا بك ، فصف لنا ما جرى لك ، وكيف كان أمرك . فقال يا قوم لما وليتم من عندي سألته بالوداد القديم ، وقلت له يا مولاي أنا المذنب الجاني ، فعفا عني بجوده ، وبستره غطاني . فقلنا له بالله نسألك هل كان لمحنتك من سبب . قال نعم : لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حول الكنائس ، قلت في نفسي ما قدر هؤلاء عندي ، وأنا مؤمن موحد ، فنوديت في سري ليس هذا منك ، ولو شئت عرّفناك ، ثم

---

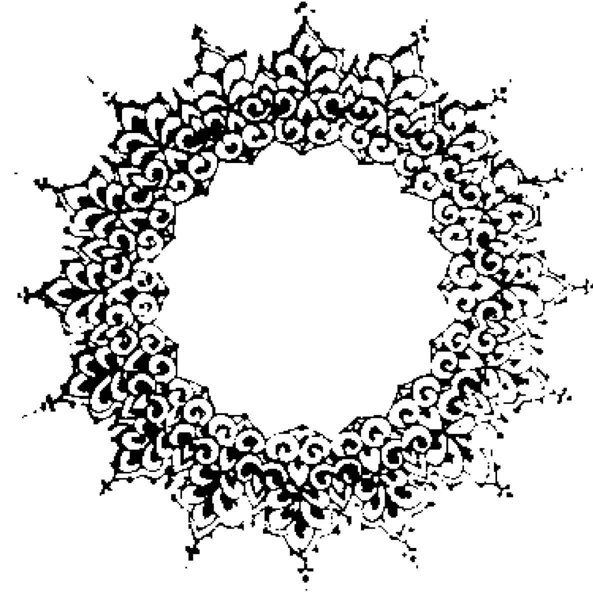
(١) الرباط : مدرسة ، ومسجد ، واقامة لاهل العلم وطلابه جمعها رباطات.

(٢) الخوانق : الطريق الضيقة .

(٣) سورة الحاج الآية ١٨.

(٤) سورة البقرة الآية ١٠٨ .

أحسست بطائر قد خرج من قلبي فكان ذلك الطائر هو الايمان . قال الشبلي ففرحنا به فرحاً شديداً وكان يوم دخولنا يوماً عظيماً مشهوداً وفتحت الزوايا ، والرباطات والخوانق ونزل الخليفة للقاء الشيخ وأرسل إليه الهدايا وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفاً ، وأقام على ذلك زماناً طويلاً ، ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث ، وزاده على ذلك . فبينما نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح ، وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية فنظرت من الباب فإذا شخص ملتف بكساء أسود فقلت له ما الذي تريد . فقال : قل لشيخكم ان الجارية الرومية التي تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك . قال فدخلت فعرّفت الشيخ فاصفر لونه ، وارتعد ، ثم أمر بدخولها فلما دخلت عليه بكت بكاء شديداً . فقال لها الشيخ كيف كان مجيئك ومن أوصلك إلى هنا . قالت يا سيدي لما وليت من قريتنا جاءني من أخبرني بك ، فبت ولم يأخذني قرار فرأيت في منامي شخصاً وهو يقول : ان أحببت أن تكوني من المؤمنات فاتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام ، واتبعي ذلك الشيخ ، وادخلي في دينه . فقلت وما دينه . قال دين الاسلام . قلت وما هو قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقلت كيف لي بالوصول إليه قال اغمضي عينيك واعطيني يدك ففعلت فمشي قليلاً ثم قال افتحي عينيك ففتحتهما فإذا أنا بشاطىء الدجلة . فقال امضي إلى تلك الزاوية واقرئي الشيخ مني السلام ، وقولي له ان أخاك الخضر يسلم عليك . قال فأدخلها الشيخ إلى جواره وقال تعبدي ههنا فكانت أعبد أهل زمانها ، تصوم النهار ، وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير لونها فمرضت مرض الموت ، وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ فقالت : قولوا للشيخ يدخل عليّ قبل الموت . فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رأته بكت . فقال لها لا تبكي . فإن اجتماعنا غداً في القيامة ، في دار الكرامة ، ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى . فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه . قال الشبلي فرأيته في المنام وقد تزوج بسبعين حوراء ، وأول ما تزوج بالجارية ، وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الثاني والثلاثون

في ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ : أنه قال : « قبل قيام الساعة يرسل الله ريحاً باردة طيبة فتقبض روح كل مؤمن ، ويبقى شرار الخلق يتهارجون ، تهارج الحمير ، وعليهم تقوم الساعة » . وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً ، ويقع في الصالحين . وقال لقمان لابنه يا بنيّ كذب من قال الشر يطفىء الشر ، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ثم ينظر ، هل تطفىء احداهما الأخرى ، وإنما يطفىء الشر الخير ، كما يطفىء الماء النار . ووصف بعضهم رجلاً من أهل الشر فقال : فلان عري من حلة التقوى ، ومحى عنه طابع الهدى ، لا تثنيه يد المراقبة ، ولا تكفه خيفة المحاسبة ، وهو لدعائم دينه مضيع ، ولدواعي شيطانه مطيع .

كأنه التيس قد أودى به هرم   فلا لحم ولا صوف ولا تمر

وقيل من فعل ما شاء ، لقي ما ساء . وقيل زنى رجل بجارية فأحبلها . فقالوا له يا عدو الله هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت . قال قد بلغني أن العزل مكروه . قالوا فما بلغك أن الزنا حرام . وقيل لأعرابي كان يتعشق قينة ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها . قال فمن لي إذ ذاك بلذة الخلسة ، ولقاء المسارقة ، وانتظار الموعد . وقال أبو العياء ، رأيت جارية مع النخاس ، وهي تحلف أن لا ترجع لمولاها فسألتها عن ذلك ، فقالت يا سيدي ، انه يواقعني من قيام ، ويصلي من قعود ، ويشتمني بإعراب ، ويلحن في القرآن ، ويصوم الخميس والاثنين ، ويفطر رمضان ، ويصلي الضحى ، ويترك الفرض . فقلت لا أكثر الله في المسلمين مثله . وكانت ظلمة القوادة وهي صغيرة في المكتب تسرق دويات الصبيان وأقلامهم ، فلما شبت زنت ، فلما كبرت قادت . وقال صاحب المسالك والممالك ، إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحاً ، خلا ملك قمار . قال الزمخشري[1] رحمه الله أقمت

---

(١) هو محمود بن عمر بن محمد بن احمد الخوارزمي الزمخشري ، جار الله ـ أبو القاسم ـ من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والادب ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) وسافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله وتنقل في البلدان ، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) وتوفي فيها سنة : (٥٣٨هـ ـ ١١٤٤ م) من كتبه : « أساس البلاغة » و« الكشاف » في تفسير القرآن و« المفصل » و« المقامات » و« المقدمة » ومعجم عربي فارسي مجلدان و« الفائق » في غريب الحديث وغيرها.

أنظر : وفيات الاعيان (٢ : ٨١). ارشاد الاريب (٧ : ١٤٧).

بقمار سنين فلم أر ملكاً أغير منه ، وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر بالقتل ، وقمار ينسب إليها العود القماري كما ينسب إلى مندل قال مسكين الدارمي :

ولا ذنب للعود القماريّ إنه   يحرق إن نمت عليه روائحه

وقال ابن عباس رضي الله عنهما عهدت الناس وهواهم تبع لأديانهم ، وإن الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم . وقال رسول الله ﷺ « حسب امرىء من الشر ، أن يحقر أخاه المسلم ».

ما جاء في الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء : قال رسول الله ﷺ : « إن مماأدرك الناس من كلام النبوة الأولى ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت » . وفي ذلك قيل :

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالقاً   وتستح مخلوقاً فما شئت فاصنع

وقال ابن سلام : العاقل شجاع القلب ، والأحمق شجاع الوجه . وذم رجل قوماً فقال : وجوههم وأيديهم حديداً ، أي وقاح بخلاء ، ووصف رجل وقحاً فقال : لو دق الحجارة بوجهه لردها ، ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها، قال الشاعر :

لو أن لي من جلد وجهك رقعة   لجعلت منها حافراً للأشهب[1]

وقال آخر :

إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً   تقلب في الأمور كما يشاء

وقال أنوشروان : أربعة قبائح ، وهي في أربعة أقبح ، البخل في الملوك ، والكذب في القضاء ، والحسد في العلماء ، والوقاحة في النساء . ويقال : من جسر أيسر ومن هاب خاب، قال الشاعر :

لا تكونن في الأمور هيوباً   فإلى خيبة يصير الهيوب

وقال علي رضي الله عنه : إذا هبت أمراً فقع فيه ، فإن شراً توقيه أعظم مما تخاف منه . وقال رضي الله عنه : الغوغاء إذا اجتمعوا ضروا وإذا افترقوا نفعوا . فقيل قد علمنا مضرة اجتماعهم ، فما منفعة افتراقهم . قال : يرجع أهل المهن إلى مهنهم فينتفع الناس بهم ، كرجوع البنّاء إلى بنائه ، والنساج إلى منسجه ، والخباز إلى مخبزه . وقال بعض السلف لا تسبوا الغوغاء فإنهم يطفئون الحريق ، ويخرجون الغريق . وقال الأحنف : ما قل سفهاء قوم إلّا ذلوا . وقال حكيم لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل ، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل ، أراد السفه . قال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقيل الجاهل من لا جاهل له ، أي من لا سفيه له يدفع عنه * وقيل بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي

---

(١) الاشهب : الاسد ويوم أشهب : يوم بارد . والاشهب أيضاً الامر الصعب .

الله عنه جالس ، إذ جاء أعرابي فلطمه ، فقام إليه واقد بن عمرو فجلد به الأرض . فقال عمر : ليس بعزيز ، من ليس في قومه سفيه . وقال الشاعر :

ولا يلبث الجهال أن يتهضموا   أخا الحلم ما لم يستعن بجهول

وقال صالح بن جناح :

إذا كنت بين الجهل والحلم قاعدا   وخيرت أنى شئت فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً   ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثل

وقال الأحنف بن قيس :

وذي ضغن أبيت القول عنه   بحلم فاستمر على المقال
ومن يحلم وليس له سفيه   يلاقي المعضلات من الرجال

وقال آخر :

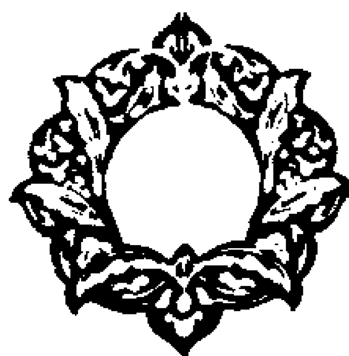
فإن كنت محتاجاً إلى الحلم انني   إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج

ولي فرس للخير بالخير ملجم   ولي فرس للشر بالشر مسرج
فمن رام تقويمي فإني مقوّم   ومن رام تعويجي فإني معوّج

وقال آخر :

فإن قيل حلم قلت للحلم موضع   وحلم الفتى في غير موضعه جهل

اللهم إنّا نعوذ بك أن نجهل ، أو يُجهل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الثالث والثلاثون

في الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد

اعلم أن الجود بذل المال ، وأنفعه ما صرف في وجه استحقاقه ، وقد ندب الله تعالى إليه في قوله تعالى : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾[1] قيل ان الجود ، والسخاء ، والايثار بمعنى واحد . وقيل من أعطى البعض وأمسك البعض ، فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود ، ومن آثر غيره بالحاضر ، وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار . وأصل السخاء هو السماحة ، وقد يكون المعطي بخيلاً إذا صعب عليه البذل ، والممسك سخياً ، إذا كان لا يستصعب العطاء فمن الايثار ما حكي عن حذيفة العدوي أنه قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى ، ومعي شيء من الماء ، وأنا أقول ان كان به رمق سقيته ، فإذا أنا به بين القتلى . فقلت له أسقيك فأشار إليّ أن نعم . فسمع برجل يقول آه ، فأشار إليّ ابن عمي أن أنطلق وأسقه ، فإذا هو هشام بن العاص[2] . قلت أسقيك، فأشار إليّ أن نعم. فسمع آخر يقول آه فأشار إليّ ان انطلق إليه . فجئته فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات .

ومن عجائب ما ذكر في الإيثار : ما حكاه أبو محمد الأزدي قال : لما احترق المسجد بمرو وظن المسلمون أن النصارى أحرقوه فأحرقوا خاناتهم . فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات ، وكتب رقاعاً فيها القطع ، والجلد ، والقتل . ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال : والله ما كنت أبالي لولا أم لي . وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له في رقعتي : الجلد ، وليس لي أم ، فخذ أنت رقعتي وأعطني رقعتك ففعل . فقتل ذلك الفتى وتخلص هذا الرجل . وقيل لقيس بن سعد ، هل رأيت قط أسخى منك . قال : نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له : انه نزل بنا ضيفان ، فجاء بناقة فنحرها . وقال شأنكم ، فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها وقال : شأنكم . فقلنا ما أكلنا من التي نحرت

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٢ .

(٢) هو هشام بن العاص بن وائل بن هاشم صحابي ، هو أخو عمرو بن العاص . أسلم بمكة ، وهاجر إلى بلاد الحبشة في الهجرة الثانية . ثم عاد إلى مكة حين بلغته هجرة النبي ﷺ إلى المدينة . ورحل إلى المدينة ، فشهد الوقائع ، وقتل في اجنادين سنة (١٣هـ ـ ٦٣٤ م).
أنظر : طبقات ابن سعد (٤ : ١٤٠). والاصابة (ت ٨٩٦٧).

البارحة إلا القليل . فقال : اني لا أطعم ضيفاني البائت . فبقينا عنده أياماً ، والسماء تمطر ، وهو يفعل كذلك ، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته . وقلنا للمرأة اعتذري لنا إليه ومضينا . فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام ، أعطيتمونا ثمن قرانا ثم انه لحقنا وقال خذوها وإلا طعنتكم برمحي هذا فأخذناها وانصرفنا . وقال بعض الحكماء أصل المحاسن كلها الكرم ، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام ، وسخاؤها بما يملك على الخاص والعام . وجميع خصال الخير من فروعه . وقال رسول الله ﷺ : « تجاوزوا عن ذنب السخي ، فإن الله آخذ بيده كلما عثر ، وفاتح له كلما افتقر » . وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا . وعنه ﷺ أنه قال : « السخي قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد عن النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، و لجاهل سخي أحب إلى الله منن عابد بخيل » . وقال بعض السلف منع الموجود سوء ظن بالمعبود وتلا قوله تعالى : ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين**﴾[1] وقال الفضيل : ما كانوا يعدون القرض معروفاً . وقال أكثم بن صيفي : صاحب المعروف لا يقع ، وان وقع وجد له متكأ . وقيل للحسن بن سهل لا خير في السرف ، فقال لا سرف في الخير فقلب اللفظ ، واستوفى المعنى . ووجد مكتوباً على حجر انتهز الفرص عند امكانها ، ولا تحمل نفسك هم ما لم يأتك ، واعلم ان تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك ، فكم من جامع لبعل حليلته . وقال علي رضي الله تعالى عنه : ما جمعت من المال فوق قوتك ، فإنما أنت فيه خازن لغيرك . وقال النعمان بن المنذر يوماً لجلسائه : من أفضل الناس عيشاً وأنعمهم بالاً ، وأكرمهم طباعاً ، وأجلّهم في النفوس قدراً ؟ فسكت القوم . فقام فتى فقال أبيت اللعن ، أفضل الناس ، من عاش الناس في فضله . فقال صدقت . وكان أسماء بن خارجة يقول : ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة ، لأنه ان كان كريماً أصون عرضه ، أو لئيماً أصون عنه عرضي . وكان مورق العجلي يتلطف في إدخال السرور والرفق على إخوانه فيضع عند أحدهم البدرة ويقول له : أمسكها حتى أعود إليك ، ثم يرسل يقول له : أنت منها في حل . وقال الحسن رضي الله عنه : باع طلحة بن عثمان رضي الله تعالى عنه أرضاً بسبعمائة ألف درهم ، فلما جاءه المال قال ان رجلاً يبيت هذا عنده ، لا يدري ما يطرقه . لغرير[2] بالله تعالى ثم قسمه في المسلمين . ولما دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها : يا أم المؤمنين أصابتني فاقة . فقالت ما عندي شيء ، فلو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعثت بها إليك . فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد فأرسلت بها إليه في أثره فأخذها ودخل بها السوق فاشترى جارية بألف درهم فولدت له ثلاثة أولاد ، فكانوا عبّاد المدينة ، وهم محمد ، وأبو بكر ، وعمرو بنو المنكدر . وأكرم العرب في الاسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه ، جاء إليه رجل فسأله برحم بينه وبينه . فقال هذا حائطي بمكان كذا ، وكذا وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم يراح إليّ بالمال العشية ، فإن شئت فالمال ، وإن شئت فالحائط . وقال زياد بن جرير رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس ، وانه ليخيط ازراره بيده .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٧٣ .

(٢) الغرير : الكفيل .

وذكر الامام أبو علي القالي(١) في كتاب الأمالي أن رجلاً جاء إلى معاوية رضي الله تعالى عنه . فقال له سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلا ما قضيت حاجتي . فقال له معاوية أمن قريش أنت قال لا ، قال فأي رحم بيني وبينك قال رحم آدم عليه السلام . قال رحم مجفوّة والله لأكونن أول من وصلها ثم قضى حاجته .

وروي أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدوراً كانت لأبيه حاتم، فملأها مالاً وبعث بها إليه ، وقال إنا لا نعيدها فارغة ، وكان الاستاذ أبو سهل الصعلوكي من الأجواد . ولم يناول أحداً شيئاً ، وإنما كان يطرحه في الأرض ، فيتناوله الآخذ من الأرض . وكان يقول الدنيا أقل خطراً من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى ، وقد قال النبي ﷺ : « اليد العليا ، خير من اليد السفلى » . وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم عن الكرم . فقال هو التبرع بالمعروف ، قبل السؤال ، والرأفة بالسائل مع البذل . وقدم رجل من قريش من سفر فمر على رجل من الاعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر ، وأضربه المرض . فقال له يا هذا أعنا على الدهر . فقال لغلامه ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه . فصب في حجره أربعة آلاف درهم فَهمّ ليقوم فلم يقدر من الضعف فبكى ، فقال له الرجل : ما يبكيك لعلك استقللت ما دفعناه إليك ، فقال لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني . وقال بعضهم قصد رجل إلى صديق له فدَقّ عليه الباب فخرج إليه وسأله عن حاجته . فقال عليّ دين كذا ، وكذا فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه ، ثم دخل الدار باكياً ، فقالت له زوجته : هلاّ تعللت حيث شقت عليك الاجابة ، فقال إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله ، حتى أحتاج إلى أن يسألني . ويروى أن عبد الله بن أبي بكر ، وكان من أجود الأجواد ، عطش يوماً في طريقه فاستسقى من منزل امرأة ، فأخرجت له كوزاً ، وقامت خلف الباب وقالت تنحوا عن الباب ، وليأخذه بعض غلمانكم ، فإني امرأة عزب مات زوجي منذ أيام فشرب عبد الله الماء ، وقال يا غلام احمل إليها عشرة آلاف درهم . فقالت سبحان الله أن أتسخر بي ؟ فقال يا غلام احمل إليها عشرين ألفاً ، فقالت أسأل الله العافية ، فقال يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفاً ، فما أمست حتى كثر خطابها . وكان رضي الله تعالى عنه ينفق على أربعين داراً من جيرانه عن يمينه ، وأربعين عن يساره ، وأربعين أمامه وأربعين خلفه ، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد ، ويعتق في كل عيد مائة مملوك رضي الله عنه . ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ اخوانه في العيادة ، فسأل عنهم فقيل له إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين . فقال : أخزى الله ما لا يمنع عني الاخوان من الزيارة ، ثم أمر منادياً ينادي من كان لقيس عنده مال فهو منه في حل ، فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد . وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود ، وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود ، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة فيفرقها في الناس ولا يُرى إلا وعليه دين . وسمّن رجل بهيمة ، ثم خرج بها ليبيعها فمر بعبد الله بن جعفر

---

(١) هو اسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان ـ ابو علي القالي ـ احفظ أهل زمانه للغة والشعر والادب ولد ونشأ في منازجرد (على الفرات الشرقي بقرب بحيرة وان) ورحل إلى العراق ، فتعلم في بغداد واقام ٢٥ سنة ثم رحل إلى المغرب سنة (٣٢٨هـ) ودخل قرطبة في أيام عبد الرحمن الناصر واستوطنها . أشهر تصانيفه : « النوادر » ويسمى « أمالي القالي » في الاخبار والاشعار و« البارع » من اوسع كتب اللغة و« المقصور والممدود والمهموز » وغيرها . توفي سنة (٣٥٦ هـ ـ ٩٦٧ م).
أنظر : نفح الطيب (٢ : ٨٥). سير النبلاء الطبقة العشرون

رضي الله تعالى عنه . فقال : يا صاحب البهيمة أتبيعها ؟ قال لا ، ولكنها هي لك هبة ، ثم تركها له وانصرف إلى بيته فلم يلبث إلا يسيراً وإذا بالحمالين على بابه عشرين نفراً ، عشرة منهم يحملون حنطة ، وخمسة لحماً وكسوة ، وأربعة يحملون فاكهة ونقلاً ، وواحد يحمل مالاً فأعطاه جميع ذلك واعتذر إليه رضي الله تعالى عنه . ولما مات معاوية رضي الله تعالى عنه وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه فقال : كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك ، فقال كان رحمه الله يعطيني ألف ألف ، فقال يزيد قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف . فقال بأبي وأمي أنت . فقال : ولهذه ألف ألف فقال أما أني لا أقولها لأحد بعدك فقيل ليزيد أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد . فقال : والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة ، ثم وكّل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم ، لينظر ما يفعل ، فلما صل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدين . وخرج رضي الله تعالى عنه هو ، والحسنان ، وأبو دحية الأنصاري رضي الله تعالى عنهم من مكة إلى المدينة ، فأصابتهم السماء بمطر ،فلجؤوا إلى خباء أعرابي ، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء ، فذبح لهم الأعرابي شاة فلما ارتحلوا قال عبد الله للاعرابي : ان قدمت المدينة فسل عنا . فاحتاج الاعرابي بعد سنين . فقالت له امرأته لو أتيت المدينة فلقيت أولئك الفتيان . فقال قد نسيت أسماءهم . فقالت سل عن ابن الطيار . فأتى المدينة فلقي سيدنا الحسن رضي الله تعالى عنه فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها . ثم أتى الحسين رضي الله تعالى عنه فقال كفانا أبو محمد مؤونة الابل . فأمر له بألف شاة ثم أتى عبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه فقال كفاني اخواني الابل والشياه . فأمر له بمائة ألف درهم ، ثم أتى أبا دحية رضي الله تعالى عنه فقال : والله ما عندي مثل ما أعطوك ، ولكن ائتني بإبلك فأوقرها لك تمراً . فلم يزل اليسار في عقب الاعرابي من ذلك اليوم . وقال الحسن والحسين يوماً لعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم : إنك قد أسرفت في بذل المال . فقال بأبي أنتما : إن الله عز وجل عودني أن يتفضل عليّ ، وعودته أن أتفضل على عباده . فأخاف أن أقطع المادة فيقطع عني المادة . وامتدحه نصيب فأمر له بخيل ، وأساس ودنانير ، ودراهم . فقال له رجل : مثل هذا الأسود تعطي ، له هذا المال . فقال ان كان أسود فان ثناءه أبيض . ولقد استحق بما قال أكثر مما نال ، وهل أعطيناه إلا ثياباً تبلى ، ومالاً يفنى ، وأعطانا مدحاً يروي ، وثناء يبقى . وخرج عبد الله رضي الله تعالى عنه يوماً إلى ضيعة له فنزل على حائط به نخيل لقوم ، وفيه غلام أسود يقوم عليه ، فأتى بقوته ثلاثة أقراص ، فدخل كلب فدنا من الغلام فرمى إليه بقرص فأكله ، ثم رمى إليه بالثاني ، والثالث فأكلهما ، وعبد الله ينظر إليه . فقال يا غلام : كم قوتك كل يوم . قال ما رأيت . قال فلم آثرت هذا الكلب . قال أرضنا ما هي بأرض كلاب ، وانه جاء من مسافة بعيدة جائعاً ، فكرهت أن أرده . قال فما أنت صانع اليوم قال أطوي يومي هذا . فقال عبد الله بن جعفر . أؤلام على السخاء ؟ وان هذا لأسخى مني ، فاشترى الحائط وما فيه من النخيل والآلات . واشترى الغلام ، ثم اعتقه ، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل والآلات . فقال الغلام : ان كان ذلك لي ، فهو في سبيل الله تعالى ، فاستعظم عبد الله ذلك منه ، فقال يجود هذا ، وأبخل أنا ، لا كان ذلك أبداً . وكان عبيد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما من الأجواد ، أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال : يا ابن عباس ان لي عندك يداً ، وقد احتجت إليها فصعّد فيه بصره فلم يعرفه . فقال ما يدك . قال رأيتك واقفاً بفناء زمزم وغلامك يمنح لك من مائها والشمس قد صهرتك فظللتك بفضل كسائي حتى شربت . فقال أجل اني لأذكر ذلك ، ثم قال لغلامه ما عندك . قال مائتا دينار ، وعشرة آلاف درهم . فقال ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده . وقدم عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما على معاوية مرة فأهدى إليه من هدايا النوروز حللاً كثيرة

ومسكاً ، وآنية من ذهب وفضة . ووجهها إليه مع حاجبه ، فلما وضعها بين يديه ، نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها . فقال له : هل في نفسك منها شيء . قال نعم . والله ان في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب بن يوسف عليهما الصلاة والسلام ، فضحك عبد الله وقال : خذها فهي لك . قال جعلت فداءك ، أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيحقد عليّ . قال فاختمها بخاتمك ، وسلمها إلى الخازن ، فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلاً . فقال الحاجب : والله لهذه الحيلة في الكرم ، أكثر من الكرم . وحبس معاوية عن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما صلاته . فقيل له : لو وجهت إلى ابن عمك عبد الله بن عباس ، فإنه قدم بنحو ألف ألف . فقال الحسين، وأنى تقع ألف ألف من عبد الله ، فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت ، وأسخى من البحر إذا زجر . ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه ، وضيق حاله ، وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم ، فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه ، وقال : ويلك يا معاوية أصبحت لين المهاد رفيع العماد ، والحسين يشكو ضيق الحال ، وكثرة العيال . ثم قال لوكيله : احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب ، وفضة ، ودواب ، وأخبره أني شاطرته ، فإن كفاه وإلا أحمل إليه النصف الثاني . فلما أتاه الرسول قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ثقلت والله على ابن عمي ، وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله . رضوان الله عليهم أجمعين . وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما . فقال له يا ابن عم محمد : إنه ولد لي في هذه الليلة مولود ، وإني سميته باسمك تبركاً بك ، وان أمه ماتت . فقال له بارك الله لك في الهبة ، وآجرك على المصيبة ، ثم دعا بوكيله وقال له : انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه ، وادفع لأبيه مائتي دينار لينفقها على تربيته ، ثم قال للأنصاري : عد إلينا بعد أيام فإنك جئتنا ، وفي العيش يبس ، وفي المال قلة . فقال الأنصاري : جعلت فداءك لو سبقت حاتماً بيوم ما ذكرته العرب. وقال أبو جهم بن حذيفة يوماً لمعاوية : أنت عندنا يا أمير المؤمنين، كما قال ابن عبد كلال :

يقيناً ما نخاف وان ظننا ... به خيراً أراناه يقينا
نميل على جوانبه كأنا ... إذا ملنا نميل على أبينا
نقلبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرماً ولينا

فأمر له بمائة ألف درهم ، وأنشده عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما :

بلوت الناس قرناً بعد قرن ... فلم أر غير ختال[1] وقال
ولم أر في الخطوب أشد وقعاً ... وأمضى من معاداة الرجال
وذقت مرارة الأشياء طرا ... فما شيء أمر من السؤال

فأعطاه مائة ألف درهم ، ودخل عليه الحسن يوماً وهو مضطجع على سريره ، فسلم عليه ، وأقعده عند رجليه . وقال ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها . تزعم أني لست للخلافة أهلاً ، ولا لها موضعاً . فقال الحسن أو عجباً مما قالت ؟ قال كل العجب . قال الحسن وأعجب من هذا كله جلوسي عند رجليك . فاستحيا معاوية ، واستوى جالساً . ثم قال أقسمت عليك يا أبا محمد إلا ما أخبرتني كم عليك ديناً قال مائة ألف درهم . فقال يا غلام أعط أبا محمد ثلثمائة ألف درهم ، مائة ألف يقضي بها دينه ، ومائة ألف يفرقها على مواليه ، ومائة ألف يستعين بها على نوائبه وسوغها إليه الساعة . وكان معن بن زائدة من الأجواد ، وكان عاملاً

---

(١) الختال : المخادع .

على العراق بالبصرة . قيل انه أتى إليه بعض الشعراء فأقام ببابه مدة يريد الدخول عليه فلم يتهيأ له ذلك . فقال يوماً لبعض الخدم: إذا دخل الأمير البستان فعرفني، فلما دخل أعلمه بذلك . فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة ، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان ، وكان معن جالساً على القناة فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها بيت مفرد :

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي — فليس إلى معن سواك شفيع

فقال من الرجل صاحب هذه ؟ فأتي به إليه . فقال : كيف قلت ، فأنشده البيت ، فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف . ووضع معن الخشبة تحت بساطه فلما كان في اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ونظر فيها ، وقال عليّ بالرجل صاحب هذه . فأُتي به . فقال له كيف قلت . فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف ، ووضع معن الخشبة تحت بساطه ، فلما كان في اليوم الثالث أخرجها ونظر فيها وقال عليّ بالرجل صاحب هذه ، فأُتي به إليه . فقال له كيف قلت . فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر فأخذها . وتفكر في نفسه ، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج من البلد بما معه ، فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده فقال معن لقد ساء والله ظنه ، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار وفيه يقول القائل :

يقولون معن لا زكاةً لماله — وكيف يزكي المال من هو باذله
إذا حال حوْل لم تجب في دياره — من المال ، إلا ذكره وجمائله
تراه إذا ما جئته متهللاً — كأنك تعطيه الذي أنت نائله
تعوّد بسط الكف حتى لو أنه — أراد انقباضاً لم تطعه أنامله
فلو لم يكن في كفه غير نفسه — لجاد بها فليتق الله سائله

ومن قول معن :

دعيني أنهب الأموال حتى — أعف الأكرمين عن اللئام

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء ، وله أخبار في الجود عجيبة . من ذلك ما حكاه عقيل ابن أبي طالب[1] رضي الله تعالى عنه قال : لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط ،أتيته فقلت : أيها الأمير ان رأيت أن تأذن لي فأصحبك ، قال : إذا قدمت واسط فائتنا إن شاء الله تعالى . فسافر وأقمت . فقال لي بعض اخواني اذهب إليه . فقلت : كان جوابه فيه ضعف . قالوا : أتريد من يزيد جواباً أكثر مما قال . قال فسرت حتى قدمت عليه ، فلما كان في الليل دعيت إلى السمر فتحدث القوم حتى ذكروا الجواري . فالتفت إليّ يزيد وقال إيه يا عقيل فقلت :

أفاض القوم في ذكر الجواري — فأما الأعزبون فلم يقولوا

---

(١) هو عقيل بن عبد مناف (أبي طالب) بن عبد المطلب الهاشمي القرشي وكنيته - أبو يزيد - اعلم قريش بأيامها ومآثرها ، ومثالبها ، وانسابها . صحابي فصيح اللسان ، شديد الجواب . وهو أخو علي وجعفر لابيهما . اسلم بعد الحديبية ، وهاجر إلى المدينة سنة ٨هـ ، وشهد غزوة مؤتة . وثبت يوم حنين . كان الناس يأخذون عنه الانساب والاخبار في مسجد المدينة . توفي سنة (٦٠هـ - ٦٨٠ م).
أنظر : الاصابة (ت : ٥٦٣٠). والبيان والتبيين (١ : ١٧٤).

قال إنك لم تبق عزباً ، فلما رجعت إلى منزلي ، إذا أنا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت ، وبدرة عشرة آلاف درهم ، وفي الليلة الثانية كذلك ، فمكثت عشر ليال وأنا على هذه الحالة ، فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر فقلت أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت ، فإن رأيت أن تأذن لي في الرجوع فأكبت عدوّي ، وأسر صديقي . فقال إنما أخيرك بين خلتين ، إما أن تقيم فنوليك ، أو ترحل فنغنيك . فقلت أو لم تغنني أيها الأمير ، قال انما هذا أثاث المنزل ، ومصلحة القدوم ، فنالني من فضله ما لا أقدر على وصفه .

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقاً يحلق رأسه ، فجاؤه بحلاق فحلق رأسه فأمر له بخمسة آلاف درهم ، فتحير الحلاق ودهش . وقال آخذ هذه الخمسة الآلاف وأمضي إلى أم فلان ، وأخبرها اني قد استغنيت . فقال : اعطوه خمسة آلاف أخرى . فقال امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك . وقيل ان الحجاج حبسه على خراج وجب عليه ، مقدار مائة ألف درهم ، فجمعت له وهو في السجن ، فجاءه الفرزدق يزوره ، فقال للحاجب استأذن لي عليه . فقال أنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه . فقال الفرزدق : إنما أتيت متوجعاً لما هو فيه ، ولم آت ممتدحاً فأذن له ، فلما أبصره قال :

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم   وقال ذوو الحاجات أين يزيد
فما قطرت بالشرق بعدك قطرة   ولا أخضر بالمروين بعدك عود
وما السرور بعد عزك بهجة   وما لجواد بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب . ادفع إليه المائة ألف درهم ، التي جمعت لنا ، ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء . فقال الحاجب للفرزدق : هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه ، ثم دفعها إليه فأخذها وانصرف . ومرّ يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه بعجوز أعرابية فذبحت له عنزاً فقال لابنه ، ما معك من النفقة قال مائة دينار . قال ادفعها إليها فقال : هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك . قال ان كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلّا بالكثير ، وان كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي . وقال مروان بن أبي الحبوب الشاعر : أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألفاً ، وخمسين ثوباً ، ورواحل كثيرة فقلت أبياتاً في شكره فلما بلغت قولي :

فأمسك ندى كفيك عني ولا تزد   فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

فقال : والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي ، وأمر له بضياع تقوم بألف ألف . وقال أبو العيناء تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية ، وعلى البرامكة في الدول العباسية ، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبي داود أسخى منهم جميعاً وأفضل وسئل إسحاق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد فقال : أما الفضل فيرضيك فعله ، وأما جعفر فيرضيك قوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد . وفي يحيى يقول القائل :

سألت الندى هل أنت حر فقال لا   ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة   توارثني من والد بعد والد

وفي الفضل يقول القائل :

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة   رأيت بها غيث السماحة ينبت

فليس بسعـال إذا سيل حـاجـة ولا بمكب في ثـرى الأرض ينكت[1]

وفي محمد يقول القائل :

سألت الندى[1] والجود مالي أراكما تـبـدلتـما عـزاً بـذل مـؤبـد
ومـا بال ركن المجد أمسى مهدما فقـالا أُصبنا بـابن يحيى محمـد
فقلت فـهـلا متّما بعـد مـوتـه وقـد كنتـما عبديه في كـل مشهـد
فقـالا أقمنـا كي نعزّى بفـقـده مـسـافـة يـوم ثم نـتلوه في غـد

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه : من كانت له إليّ حاجة فليرفعها إلّي في كتاب لأصون وجهه عن المسألة . وجاءه رضي الله تعالى عنه اعرابي . فقال يا أمير المؤمنين ان لي إليك حاجة ، الحياء يمْنعني أن أذكرها . فقال خطها في الأرض فكتب اني فقير . فقال يا قنبر : اكسه حلتي . فقال الاعرابي :

كـسـوتني حلة تبـلى محـاسـنهـا فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
ان نلت حسن الثنا قد نلت مكرمة وليس تبغي بمـا قـدمتـه بـدلا
ان الثنـاء ليحيي ذكـر صـاحبـه كـالغيث يحيى نداه السهـل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت بـه كل امرىء سوف يجزى بالذي فعلا

فقال يا قنبر : زده مائة دينار . فقال يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم . فقال رضي الله تعالى عنه صه يا قنبر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : اشكروا لمن أثنى عليكم ، وإذا أتاكم كريم قوم فاكرموه . ولعبد الله بن جدعان :

اني وإن لم ينـل مـالي مـداخلتي وهّـاب مـا ملكت كفي من المـال
لا أحبس المـال إلا حيث أنفـقـه ولا يـغيِّـرني حـال إلى حـال

وقال بعض العرب لولده : يا بنيّ لا تزهدن في معروف ، فإن الدهر ذو صروف فكم راغب كان مرغوباً إليه ، وطالب كان مطلوباً ما لديه وكن كما قال القائل :

وعـد من الـرحمن فضـلاً ونعمـة عليك إذا مـا جاء للخـير طالب
ولا تمنعن ذا حـاجـة جـاء راغبـاً فـإنـك لا تـدري متى أنت راغب

وقال بعضهم :

أبيت خميص البطن عريـان طاويـاً وأوثـر بـالـزاد الـرفيق عـلى نفسي
وأمنحـه فـرشي وأفتـرش الثـرى وأجعـل ستر الليـل من دونه لبسي
حـذار أحـاديث المحـافـل في غـد إذا ضمني يـومـاً إلى صـدره رمسي[2]

---

(١) ينكت الارض : يضربها، يحفر، ينقّب.

(٢) الرمس : القبر.

وقال يحيى البرمكي[1]: أعط الدنيا وهي مقبلة ، فإن ذلك لا ينقضك منها شيئاً ، وأعط منها وهي مدبرة فإن منعك لا يبقي عليك منها شيئاً . فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ويقول : لله دره ما أطبعه على الكرم وأعلمه بالدنيا . وقد أملى يحيى من نظمه فقال :

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة   فليس ينقصها التبذير والسرف
فإن تولت فأحرى أن تجود بها   فليس تبقى ولكن شكرها خلف

وقال يحيى لولده جعفر يا بنيّ : ما دام قلمك يرعد فأمطره معروفاً . وقال بعضهم :

لا تكثري في الجود لأئمتي   وإذا بخلت فاكثري لومي
كفى فلست بحامل أبداً   ما عشت هَمَّ غد إلى يومي

وقال علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه : لا تستح من عطاء القليل فالحرمان أقل منه . وسئل اسحاق الموصلي عن المخلوع فقال : كان أمره كله عجباً ، كان لا يبالي أين يقعد مع جلسائه ، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر . كان عنده سليمان بن أبي جعفر يوماً فأراد الرجوع إلى أهله فقال له :سفرُ البر أحب إليك أم سفر البحر ؟ قال البحر ألين عليّ.فقال أوقروا له زورقه ذهباً ، وأمر له بألف ألف درهم . وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك وقال:قد هجاني يا أمير المؤمنين . فاستحضره سليمان وقال لا أم لك ، أتهجو سعيداً . قال يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر . عشقت جارية مدنية وأتيت سعيداً فقلت اني أحب هذه الجارية ، وان مولاتها أعطيت فيها مائتي دينار وقد أتيتك فقال لي بورك فيك . فقال سليمان ليس هذا موضع بورك فيك . قال فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالي فقال : يا جارية هاتي مطرفاً فأتته بمطرف خز فصرّ لي في كل زاوية مائتي دينار فخرجت وأنا أقول :

أبا خالد أعني سعيد بن خالد   أخا العرف لا أعني ابن بنت سعيد
ولكنني أعني ابن عائشة الذي   أبو أبويه خالد بن أسيد
عقيد الندى ما عاش يرضي به الندى   فإن مات لم يرض الندى بعقيد
دَروه دَروه انكم قد رقدتمو   وما هو عن إحسانكم برقود

فقال سليمان قل ما شئت . وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها :

إذا تكرهت أن تعطي القليل ولم   تقدر على سعة لم يظهر الجود
بث النوال ولا تمنعك قلته   فكل ما سد فقراً فهو محمود

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه ، وفردة نعله . وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضاً بثمانين ألفاً . فقيل له لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً . فقال بل اجعله ذخراً لي واجعل الله ذخراً لولدي ، وقسمه

---

(١) هو يحيى بن خالد بن برمك ابو الفضل الوزير ، سيد بني برمك وأفضلهم ، وهو مؤدب الرشيد العباسي ومعلمه ومربيه ولما ولي هارون الخلافة ، دفع خاتمه إلى يحيى ، وقلده أمره ، فبدأ يعلو شأنه . واشتهر يحيى بجوده وحسن سياسته . واستمر على هذه الحال إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه في الرقة إلى أن مات سنة (١٩٠هـ ـ ٨٠٥ م).

بين ذوي الحاجات . وكان ابن مالك القشيري من الأجواد قيل إنه أنهب الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات فعاتبه خاله فقال :

يا خال ذرني ومالي ما فعلت به   وخذ نصيبك منه انني مودي[1]
فلن أطيعك إلا أن تخلدني   فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدي
الحمد لا يشترى إلا بمكرمة   ولن أعيش بمال غير محمود

وقال المهلب عجبت لمن يشتري المماليك بماله ، كيف لا يشتري الأحرار بفعاله . ونزل بأبي البحتري وهب ابن‌وهب القرشي ضيفاً ، فسارع عبيده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة ، وفعلوا به كل جميل ، فلما همّ بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه فأنكر ذلك عليهم . فقالوا نحن إنما نعين النازل على الإقامة ولا نعينه على الرحيل . ووفدت ليلى الأخيلية على الحجاج فقالت فيه :

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة   تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها   غلام إذا هز القناة سقاها

فقال : لا تقولي غلام ، ولكن قولي همام . يا غلام أعطها خمسمائة فقالت أيها الأمير اجعلها نعماً ، فجعلها ابلاً إناثاً . وقال أبو الفياض الطبري :

والعز ضيف لا يراه بربعه   من لا يرى بذل التلاد تلادا
والجود أعلى كعب كعب قبلنا   فمضى جوادا يوم مات جوادا

أيقنت أن من السماح شجاعة   وعلمت أن من السماحة جودا

وقال أحمد بن حمدون النديم : عملت أم المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب ، وأعينهم يواقيت وجواهر ، أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار ، وسألته أن يقف عليه ، وينظر إليه ، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته . قال أحمد بن حمدون فقال لي : لأترجة الهاشمي ، اذهبا فانظرا إليه ، وكان معنا الحاجب . فمضينا ورأيناه ، فوالله ما رأينا في الدنيا شيئاً أحسن منه ، ولا شيئاً حسناً إلا وقد عمل فيه . فمددت أنا يدي إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان فوضعته في كمي ، ثم جئناه فوصفنا له حسن ما رأيناه فقال : أترجة يا أمير المؤمنين انه قد سرق منه شيئاً ، وغمزه على كمي ، فأريته الغزال فقال بحياتي عليكما ارجعا فخذا ما أحببتما . فمضينا فملأنا أكمامنا ، وأقبيتنا ، وأقبلنا نمشي كالحبالى فلما رآنا ضحك . فقال بقية الجلساء : ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين ، فقال قوموا فخذوا ما شئتم ، ثم قام فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك . ونظر يزيد المهلبي سطلاً من ذهب مملوءاً مسكاً فأخذه بيده وخرج . فقال له المستعين إلى أين ؟ فقال : إلى الحمام يا أمير المؤمنين ، فضحك من قوله ، وأمر الفراشين والخدم أن‌فانتهبوا‌الباقي فانتهبوه فوجهت إليه أمه تقول : سرّ الله أمير المؤمنين ، لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرقه ، فإنني أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار . فقال يُحمل إليها مثل ذلك ، حتى تعيد مثله ففعلت ومضى حتى رآه وفعل به كفعله

(١) مودي : أي منفق له ، متلق.

بالأوّل . ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوماً فوافق فيه الفرزدق فقال يا أبا فراس اختر عشراً من الابل ففعل . فقال ضم إليها مثلها فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة . فقال هي لك فقال :

يا طلح أنت أخو الندى وعقيده ان الندى ما مات طلحة ماتا
ان الندى ألقى إليك رحاله فبحيث بتّ من المنازل باتا

وقدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور فأكرمه ، وأنعم عليه ، وبعث إليه بألف دينار . فقال :

ان السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

فقال زدني . فقال : كل شيء وثمنه . ووفد أبو عطاء السدي على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له فأنزله ، وأحسن إليه ، وقال ما عندك يا أبا عطاء . فقال : وما عسى أن أقول . وأنت أشعر العرب . غير أني قلت بيتين . قال هات ما قلت فقال :

يا طالب الجود أما كنت تطلبه فاطلب على بابه نصر بن سيار
الواهب الخيل تغدو في أعنتها مع القيان وفيها ألف دينار

فأعطاه ألف دينار ، ووصائف ، وكساه كسوة جميلة ، فقسم ذلك بين رفيقيه ولم يأخذ منه شيئاً ، فبلغ ذلك نصراً فقال :يا له ، قاتله الله من سيد ما أضخم قدره ، ثم أمر له بمثله . وقال العتبي أشرف عمرو بن هبيرة يوماً من قصره فإذاهو بإعرابي يرقل[1] قلوصه فقال عمرو لحاجبه ان أرادني هذا الاعرابي فأوصله إلّي . فلما وصل الاعرابي سأله الحاجب،فقال :أردت الأمير فدخل به عليه فلما مثل بين يديه قال له ما حاجتك فأنشد الاعرابي يقول :

أصلحك الله قل ما بيدي ولا أطيق العيال إذ كثروا
أناخ دهري عليّ كلكله فأرسلوني إليك ، وانتظروا

فأخذت عمر الأريحيةفجعل يهتّز في مجلسه، ثم قال أرسلوك إلّي وانتظروا ، إذن لا تجلس حتى ترجع إليهم ، ثم أمر له بألف دينار . وقيل أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم فجرى القلم بخمسمائة ألف . فراجعه الخازن في ذلك فقال : انفذه ما بقي إلا نفاذه ، وإن خروج المال أحب إليّ من الاعتذار فاستشرفه الخازن . فقال إذا أراد الله بعبد خيراً صرف القلم عن مجرى ارادة كاتبه إلى إرادته . وأنا أردت شيئاً ، وأراد الجواد الكريم أن يعطي عبده عشرة أضعافه ، فكانت إرادة الله الغالبة وأمره النافذ . ووقف اعرابي على بن عامر فقال : يا قمر البصرة ، وشمس الحجاز ، ويا ابن ذروة العرب ، وابن بطحاء مكة ، برّحت بي الحاجة ، وأكدت بي الآمال إلا بفنائك فامنحني بقدر الطاقة لا بقدر المجد ، والشرف ، والهمة . فأمر له بمائتي ألف . وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل :

أأترك إن قلت دراهم خالد زيارته إني إذا للئيم

---

(١) أرقل : أسرع ، بالمفازة قطعها . وناقة مرقال : مسرعة .

فقال : أو قلت دراهم خالد احملوا إليه مائة ألف درهم ، فبعثها خالد بن يحيى إلى عمارة بن عقيل وقال : هذه قطرة من سحابك . ولما عزل عبد الرحمن بن الضحّاك عن المدينة بكى ثم قال : والله ما بكائي جزعاً من العزل ، ولا أسفاً على الولاية ، ولكن أخاف على هذه الوجوه ان يلي أمرها من لا يعرف لها حقاً . وأراد الرشيد أن يخرج إلى بعض المتفرجات فقال يحيى بن خالد لرجاء بن عبد العزيز وكان على نفقاته ، ما عند وكلائنا من الأموال . قال سبعمائة ألف درهم ، قال فاقبضها إليك يا رجاء . فلما كان من الغد دخل عليه رجاء فقبل يده ، وعنده منصور بن زياد فلما خرج رجاء قال يحيى لمنصور : قد ظننت أن رجاء توهم أنّا قد وهبنا المال له ، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا إليه في وجهنا هذا . فقال منصور أنا استخبر لك هذا ، فقال يحيى إذن يقول لك قل له يقبل يدي كما قبلت يده ، فلا تقل له شيئاً فقد تركتها له . وقيل ان الرشيد وصل في يوم واحد بألف ألف وثلثمائة ألف وخمسين ألفاً ، ووصل المنصور في يوم واحد لبني هاشم ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ما ذكر . وعن الأخفش الصغير[1] قال كان أسيد بن عنقاء الغزاري من أكبر أهل زمانه قدراً ، وأكثرهم أدباً ، وأفصحهم لساناً ، وأثبتهم جناناً ، فطال عمره ، ونكبه دهره ، فخرج عشية يتتفل لأهله فمر به عميلة الفزاري فسلم عليه وقال : ما أصارك يا عم إلى ما أرى . فقال بخل مثلك بماله ، وصون وجهي عن مسجلة الناس . فقال والله لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك . فرجع ابن عنقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة فقالت له لقد غرك كلام غلام في جنح ليل . قال : فكأنما ألقمت فاه حجراً ، وبات متململاً بين رجاء ويأس ، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الابل ، وصهيل الخيل . تحت الأموال فقال ما هذا ، قالوا عميلة قد قسم ماله شطرين وبعث إليك بشطره فأنشأ يقول :

رآني علـى مـا بي عميلة فـاشتكى ... إليّ مـاله حـالي فـواسى ومـا هجـر
ولمـا رأى المجـد استعيـرت ثيـابـه ... تـردى رداء سـابـغ الـذيـل واتـزر
غـلام حبـاه الله بـالحسن يـافعـاً ... لـه سيميـاء لا تشق عـلى البصـر
كـأن الثـريـا علقـت في جبينـه ... وفي أنفه الشعري وفي جيـده القمر

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي من الأجواد . قيل انه كان لرجل جارية يهواها فاحتاج إلى بيعها فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل ، فلما قبض ثمنها أنشأت تقول :

هنيئـاً لك المـال الـذي قـد قبضتـه ... ولم يبـق في كـفـي غـير التحسـر
أبـوء بحـزن من فـراقـك مـوجـع ... أنـاجي بـه صـدراً طـويـل التفكـر

---

(١) هو علي بن سليمان بن الفضل ـ أبو المحاسن ـ المعروف بالاخفش الاصغر . نحوي من العلماء ، من أهل بغداد . أقام بمصر سنة (٢٨٧ ـ ٣٠٠هـ) وخرج إلى حلب ، ثم عاد إلى بغداد ، وتوفي بها سنة (٣١٥هـ ـ ٩٢٧ م) له تصانيف منها : « شرح سيبويه » و« الانواء » و« المهذب » .
أنظر : وفيات الاعيان (١ : ٣٣٢) . وبغية الوعاة (٣٣٨) .

فأجابها بقوله :

ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن ... يفرقنا شيء سوى الموت فاعذري
عليك سلام لا زيارة بيننا ... ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر قد شئت ، وقد وهبتك الجارية وثمنها فخذها وانصرف . ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله فوجده في دار الخراج يطالب فدخل عليه يتوجع له فلما رآه علي قال :

ولقد قدمت على رجال طالما ... قدم الرجال عليهم فتمولوا
أخنى[1] الزمان عليهم فكأنما ... كانوا بأرض أقفرت فتحولوا

فقال أبو الشمقمق :

الجود أفلسهم وأذهب مالهم ... فاليوم إن راموا السماحة يبخلوا

قال : فخلع محمد ثوبه ، وخاتمه ودفعها إليه . فكتب بذلك مستوفي الخراج إلى الخليفة . فوّقع إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام في تلك السنة ، وإسقاط ما عليه من البقايا ، وأمر له بمائة ألف درهم معونة له على مروءته * وقال أبو العيناء حصلت لي ضيقة شديدة فكتمتها عن أصدقائي فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم القاضي فقال : إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم ، وأخذ القصص فهل لك في الحضور . قلت : نعم فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين ، فلما دخلنا عليه أجلسه ، وأجلسني ، ثم قال يا أبا العيناء بالإلفة والمحبة ، ما الذي جاء بك في هذه الساعة فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم ... وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم يكن لي أسباب أعيش بها ... ففي العلا لك أخلاق هي السبب

فقال يا سلامة : انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين . فقال : بقية من مال . قال فادفع له منها مائة ألف درهم . وابعث له بمثلها في كل شهر . فلما كان بعد احد عشر شهراً مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه فدخل عليه بعض أولاده فقال يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء فأنشأ أبو العيناء يقول :

شيآن لو بكت الدماء عليهما ... عيناي حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ... فقدُ الشباب وفرقةُ الأحباب

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة ، وكان راتبه منها في الشهر ألف دينار ، سوى ما يطرأ عليه من نذر أو صلة ، وسوى ما يطبخ في دار الصدقة . وكان الموكل بصدقته سليم الخادم . فقال له سليم يوماً أيها الأمير اني

---

(١) أخنىٰ عليه الدهر : حَطَّ .

أطوف القبائل ، وأدق الأبواب لصدقاتك ، وان اليد تمتد إلّي ، وفيها الحناء وربما كان فيها الخاتم الذهب ، والسوار الذهب ، أفأُعطي أم أرد . قال فأطرق طويلاً ثم قال : كل يد امتدت إليك فلا تردها . وقال سلمة بن عياش في جعفر بن سليمان :

وما شم أنفي ريح كف شممتها　　من الناس إلّا ريح كفك أطيب

فأمر له بألف دينار ، ومائة مثقال مسك ، ومائة مثقال عنبر . وكان عبد العزيز بن عبد الله جواداً مضيافاً ، فتغدى عنده يوماً اعرابي ، فلما كان من الغد مر على بابه فرأى الناس في الدخول على هيئتهم الأمس . فقال أو كل يوم يطعم الأمير الناس . قالوا نعم ، فأنشأ يقول :

كل يوم كأنه عيد أضحى　　عند عبد العزيز أو عيد فطر
وله ألف جفنة[1] مترعات　　كل قدر يمدها ألف قدر

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص[2] فلما خرجوا بقي فتى من الشام قاعداً فقال له سعيد : ألك حاجة وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى . فذكر أن أباه مات ، وخلف ديناً ، وعيالاً ، وسأله أن يكتب له كتاباً إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله فدفع له عشرة آلاف دينار . وقال له لا أدعك تقاسي الذل على أبوابهم . ودخل رجل على علي بن سليمان الوزير فقال له : سألتك بالله العظيم ، ونبيه الكريم إلا ما أجرتني من خصمي . فقال ومن خصمك حتى أجيرك منه فقال الفقر . فأطرق الوزير ساعة وقال قد أمرت لك بمائة ألف درهم فأخذها وانصرف . فبينما هو في الطريق إذ أمر الوزير برده إليه ، فلما رجع قال له سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم متى أتاك خصمك معنفاً فارجع إلينا متظلماً . وقال الأعمش : كانت عندي شاة فمرضت ، وفقدت الصبيان لبنها ، فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني هل استوفت علفها ، وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ، وكان تحتي لبد أجلس عليه فكان إذا خرج يقول : خذ ما تحت اللبد حتى وصل إليّ من علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ .

وحكى أبو قدامة القشيري قال كنا مع يزيد بن مزيد يوماً فسمع صائحاً يقول : يا يزيد بن مزيد فطلبه فأتى به إليه فقال ما حملك على هذا الصياح قال فقدت دابتي ، ونفدت نفقتي ، وسمعت قول الشاعر :

إذا قيل من للجود والمجد والندى　　فنادي بصوت يا يزيد بن مزيد

فأمر له بفرس أبلق كان معجباً به ، وبمائة دينار ، وخلعة سنية ، فأخذها وانصرف . وحكي أن قوماً من العرب جاؤوا إلى قبر بعض أسخيائهم يزورونه فباتوا عند قبره ، فرأى رجل منهم صاحب القبر في المنام وهو يقول

---

(١) الجفنة : القصعة . وجفن الناقة : نحرها ، واطعم لحمها في الجفان .

(٢) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص ابن امية ، الاموي القرشي . صحابي من الامراء الولاة الفاتحين . ربي في حجر عمر بن الخطاب . وولاه عثمان بن عفان الكوفة وهو شاب . وعهد إليه معاوية بولاية المدينة ، فتولاها حتى مات . سنة (٥٩هـ - ٦٧٩ م).
أنظر : طبقات ابن سعد (٥ : ١٩). وتهذيب ابن عساكر (٦ : ١٣١ - ١٤٥).

له : هل لك أن تبيعني بعيرك بنجيبي[1]؟ وكان الميت قد خلف نجيباً ، وكان للرائي بعير سمين فقال نعم وباعه في النوم بعيره بنجيبه فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى البعير فنحره في النوم ، فانتبه الرائي من نومه فوجد الدم يسبح من نحر بعيره فقام وأتم نحره ، وقطع لحمه وطبخوه ، وأكلوا ثم رحلوا ، وساروا . فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق سائرون استقبلهم ركب فتقدم منهم شاب فنادى هل فيكم فلان بن فلان . فقال صاحب البعير نعم ها أنا فلان بن فلان فقال هل بعت من فلان الميت شيئاً قال : نعم بعته بعيري بنجيبه في النوم ، فقال هذا نجيبه فخذه ، وأنا ولده وقد رأيته في النوم وهو يقول :ان كنت ابني فادفع نجيبي إلى فلان. فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته .

وروي عن الهيثم بن عدي أنه قال : تتمارى ثلاثة نفر في الأجواد . فقال رجل : أسخى الناس فيَ عصرنا هذا عبد الله بن جعفر . فقال الآخر أسخى الناس قيس بن سعيد بن عبادة . فقال الآخر بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسي . فتنازعوا بفناء الكعبة . فقال لهم رجل لقد أفرطتم في الكلام فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ننظر بما يعود ، فنحكم على العيان . فقام صاحب ابن جعفر فوافاه ، وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعة له . فقال الرجل يا ابن عم رسول الله ﷺ : ابن سبيل ومنقطع به . قال : فأخرج رجله، وقال ضع رجلك واستو على الناقة وخذ ما في الحقيبة وكان فيها مطارف خز ، وأربعة آلاف دينار . ومضى صاحب قيس فوجده نائماً فقالت له جارية لقيس ما حاجتك فقال : به سبيل ، ومنقطع به ، فقالت له الجارية : حاجتك أهون من إيقاظه ، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ، ما في دار قيس اليوم غيرها ، وامض إلى معاطن[2] الابل فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبداً ، وأومض لشأنك . قيل ان قيساً لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت فاعتقها . ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله ، فخُلُق خدم الرجل مقتبس من خلقه قال بعض الشعراء :

وإذا ما اختبرت ود صديق فاختبر وده من الغلمان

ومضى صاحب عرابة فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة . فقال يا عرابة : ابن سبيل ومنقطع به ، وكان معه عبدان فصفق بيده اليمنى على اليسرى . وقال : أواه أواه والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شيء ، ولا تركت له الحقوق مالا ، ولكن خذ هذين العبدين . فقال الرجل والله ما كنت بالذي يسلبك عبديك . فقال : إن أخذتها أو لا فهما حران لوجه الله تعالى ، فإن شئت فخذ ، وان شئت فاعتق . فأخذ الرجل العبدين ومضى ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهده . قيل ان شاعراً قصد خالد بن يزيد فأنشده شعراً يقول فيه :

سألت الندى والجود حران أنتما فقالا يقيناً اننا لعبيد
فقلت ومن مولاكما فتطاولا إليّ وقالا خالد ويزيد

فقال يا غلام أعطه مائة ألف درهم . وقل له ان زدتنا زدناك فأنشد يقول :

---

(١) العطن : وطن الابل ، ومبركها حول الحوض . ومربض الغنم حول الماء . جمعها : أعطان ومعاطن .
(٢) النجيب : النفيس في نوعه ، الفاضل. النجيب من الابل : القوي منها .

كـريم كـريم الأمهـات مهـذب تـدفـق يمناه الـنـدى وشمـائـله
هـو البحـر من أي الجهـات أتيتـه فلجتـه المعـروف والجـود سـاحله
جـواد بسيط الكف حتى لـو انـه دعـاهـا لـقبض لم تجبـه أنـامله

فقال يا غلام أعطه مائة ألف درهم ، وقل له إن زدتنا زدناك فأنشد يقول :

تبـرعت لي بـالجـود حتى نعشتني وأعـطيتني حتى حسبتـك تـلعب
وأنبت ريشـاً في الجنـاحين بعدما تساقط مني الريش أو كـاد يـذهب
فأنت الندى ، وابن الندى ، وأخو الندى حليف الندى ما للندى عنك مذهب

فقال يا غلام أعطه مائة ألف درهم . وقل له ان زدتنا زدناك . فقال حسب الأمير ما سمع ، وحسبي ما أخذت وانصرف .

وأما الذين انتهى إليهم الجود في الجاهلية : فهم حاتم بن عبد الله الطائي ، وهرم بن سنان ، وخالد بن عبد الله ، وكعب بن مامة الايادي ، وضرب المثل بحاتم وكعب ، وحاتم أشهرهما . فأما كعب فجاد بنفسه ، وآثر رفيقه بالماء في المفازة ومات عطشاً ، وليس له خبر مشهور . وأما خالد بن عبيد الله فإنه جاء إليه بعض الشعراء ورجله في الركاب يريد الغزو ، فقال له إني قلت فيك بيتين من الشعر . فقال في مثل هذا الحال . قال نعم . فقال هاتهما فأنشده يقول :

يـا واحـد الـعـرب الـذي مـا في الأنـام لـه نـظير
لـو كـان مـثـلك آخـره مـا كـان في الـدنـيـا فـقـير

فقال يا غلام أعطه عشرين ألف دينار فأخذها وانصرف . وأما حاتم فأخباره كثيرة ، وآثاره في الجود شهيرة ، ويكنى أبا سفانة ، وأبا عدي ، وكان يسير في قومه بالمرباع ، والمرباع ربع الغنيمة ، وكان ولده عدي يعادي النبي ﷺ فبعث النبي ﷺ علياً إلى طيء ، فهرب عدي بأهله وولده ولحق بالشام ، وخلف أخته سفانة ، فأسرتها خيل رسول الله ﷺ . فلما أتى بها إلى النبي ﷺ قالت : يا محمد هلك الوالد وغاب الرافض ، فإن رأيت أن تخلي عني ، ولا تشمت بي أحياء العرب . فإن أبي كان سيد قومه يفك العاني ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار ، ويحمي الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ويحمل الكل ، ويعين على نوائب الدهر . وما أتاه أحد في حاجة فرده خائباً أنا بنت حاتم الطائي[1] فقال لها النبي ﷺ يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق . وقال فيها : ارحموا عزيزاً ذل ، وغنياً افتقر ، وعالماً ضاع بين جهال . فأطلقها ومنَّ عليها فاستأذنته في الدعاء له فأذن لها وقال لأصحابه اسمعوا وعوا . فقالت : أصاب الله ببرك مواقعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب

---

(١) حاتم الطائي بن عبد الله بن سعد الطائي القحطاني ـ ابو عدي ـ فارس شاعر ، جواد . يضرب المثل بجوده وكرمه توفي سنة (٤٦ق .هـ ـ ٥٧٨ م).
أنظر : تهذيب ابن عساكر (٣ : ٤٢٠ ـ ٤٢٩). وتاريخ الخميس (١ : ٢٥٥).

نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سبباً في ردها عليه . فلما أطلقهاﷺ رجعت إلى قومها فأتت أخاها عدياً ، وهو بدومة الجندل فقالت له يا أخي إئت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله ، فإني قد رأيت هدياً ورأياً سيغلب أهل الغلبة ، رأيت خصالاً تعجبني ، رأيته يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ولا أكرم منهﷺ ، واني أرى أن تلحق به فإن يك نبياً فللسابق فضله ، وان يك ملكاً فلنذل في عز اليمن . فقدم عدي إلى النبيﷺ فألقى له وسادة محشوة ليفاً ، وجلس النبيﷺ على الأرض فأسلم عدي بن حاتم ، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها وكانت من أجود نساء العرب ، وكان أبوها ، يعطيها الضريبة من ابله فتهبها وتعطيها الناس . فقال لها أبوها يا بنية ان الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلفاه فإما أن أعطي وتمسكي ، وإما أن أمسك وتعطي ، فإنه لا يبقى على هذا شيء . فقالت له منك تعلمت مكارم الأخلاق . قال ابن الأعرابي : كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية وكان جواداً يشبه جودة شعره ، ويصدق قوله فعله ، وكان حيثما نزل عرف منزله ، وكان مظفراً إذا قاتل غلب ، وإذا سئل وهب ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق ، وكان إذا هلّ رجب الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية نحر كل يوم عشراً من الابل وأطعم الناس واجتمعوا إليه . وكان قد تزوج ماوية بنت عفير وكانت تلومه على اتلاف المال ، فلا يلتفت لقولها ، وكان لها ابن عم يقال له مالك . فقال لها يوماً ، ما تصنعين بحاتم فوالله لئن وجد مالاً ليتلفنه ، وان لم يجد ليتكلفن ، ولئن مات ليتركن أولاده عالة على قومك . فقالت ماوية : صدقت إنه كذلك ، وكانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية ، وكان طلاقهن أن يكن في بيوت من شعر ، فإن كان باب البيت من قبل المشرق حولته إلى المغرب ، وإن كان من قبل المغرب حولته إلى المشرق ، وإن كان من قبل اليمن حولته إلى الشام ، وان كان من قبل الشام حولته إلى اليمن ، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته فلم يأتها . ثم قال لها ابن عمها : طلقي حاتماً وأنا أتزوجك ، وأنا خير لك منه وأكثر مالاً ، وأنا أمسك عليك وعلى ولدك . فلم يزل بها حتى طلقته فأتاها حاتم وقد حولت باب الخباء . فقال حاتم لولده : يا عدي ما ترى ما فعلت أمك . فقال : قد رأيت ذلك . قال فأخذ ابنه وهبط بطن واد فنزل فيه . فجاءه قوم فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون ، كانت عدتهم خمسين فارساً ، فضاقت بهم ماوية ذرعاً وقالت لجاريتها اذهبي إلى ابن عمي مالك وقولي له أن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً ، فارسل إلينا بشيء نقريهم ، ولبن نسقيهم ، وقالت لها انظري إلى جبينه وفمه فإن شافهك بالمعروف فاقبلي منه ، وإن ضرب بلحيته على زوره ، ولطم رأسه ، فاقبلي ودعيه . فلما أتته وجدته متوسداً وطبا من لبن ، فأيقظته وأبلغته الرسالة . وقالت له : انما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم ، فلطم رأسه بيده ، وضرب بلحيته . وقال اقرئيها السلام وقولي لها هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتماً لأجله ، وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم ، فرجعت الجارية فأخبرتها بما رأت وبما قال لها . فقالت لها اذهبي إلى حاتم وقولي له ان أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ، ولم يعلموا مكانك ، فارسل إلينا بناقة نقريهم ، ولبن نسقيهم . فأتت الجارية حاتماً فصاحت به فقال : لبيك ، قريباً دعوت ، فأخبرته بما جاءت بسببه . فقال حباً وكرامة ، ثم قام إلى الابل فأطلق اثنتين من عقالهما وصاح بهما حتى أتيا الخباء ، ثم ضرب عراقيبهما فطفقت ماوية تصيح هذا الذي طلقتك بسببه تترك أولادنا وليس لهم شيء . فقال ويحك يا ماوية الذي خلقهم ، وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم . وكان إذا اشتد البرد ، وغلب الشتاء أمر غلمانه بنار فيوقدونها في بقاع الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق ليلاً فيقصدها ، ولم يكن حاتم يمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه فإنه كان لا يجود بهما ، ثم جاد بفرسه في سنة مجدبة .

حكي ان ملكان ابن أخي ماوية قال : قلت لها يوماً يا عمة حدثيني ببعض عجائب حاتم ، وبعض مكارم أخلاقه ، فقالت يا ابن أخي أعجب ما رأيت منه : أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف وقد أخذني وإياه الجوع وأسهرنا ، فأخذت سفانة ، وأخذ عدياً وجعلنا نعللهما حتى ناما فأقبل عليّ يحدثني ويعللني بالحديث حتى أنام فرفقت به ، لما به من الجوع ، فأمسكت عن كلامه لينام فقال لي أنمت فلم أجبه ، فسكت ونظر في فناء الخباء ، فإذا شيء قد أقبل ، فرفع رأسه فإذا امرأة فقال ما هذا ، فقالت يا أبا عدي أتيتك من عند صبية يتعاوون كالكلاب ، أو كالذئاب جوعاً ، فقال لها احضري صبيانك فوالله لأشبعتهم فقامت سريعة لأولادها ، فرفعت رأسي وقلت يا حاتم بماذا تشبع أطفالها فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل ، فقال والله لأشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها ، فلما جاءت المرأة نهض قائماً وأخذ المدية بيده وعمد إلى فرسه فذبحه ثم أجج ناراً ، ودفع إليها شفرة وقال قطّعي واشوي ، وكلي ، وأطعمي صبيانك فأكلت المرأة وأشبعت صبيانها فأيقظت أولادي ، وأكلت وأطعمتهم . فقال والله ان هذا لهو اللؤم ، تأكلون وأهل الحي حالهم مثل حالكم ، ثم أتى الحي بيتاً بيتاً يقول لهم انهضوا عليكم بالنار ، فاجتمعوا حول الفرس وتقنع حاتم بكسائه وجلس ناحية فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير ، إلا العظم والحافر ، ولا والله ما ذاقها حاتم وانه لأشدهم جوعاً . وأخباره كثيرة مشهورة ، ومن شعره :

أمــاويّ ان المــال غــاد ورائــح ويبقى من المال الأحاديث والـذكر
وقـد علم الأقـوام لـو ان حـاتمـاً أراد ثـراء المـال كـان لـه وفـر

وأغار قوم على طيء فركب حاتم فرسه ، وأخذ رمحه ونادى في جيشه ، وأهل عشيرته ، ولقى القوم فهزمهم وتبعهم . فقال له كبيرهم يا حاتم هب لي رمحك فرمى به إليه . فقيل لحاتم عرضت نفسك للهلاك ولو عطف عليك لقتلك . فقال قد علمت ذلك ، ولكن ما جواب من يقول هب لي . ولما مات عظم على طيء موته فادعى أخوه أنه يخلفه . فقالت له أمه هيهات شتان والله ما بين خلفتيكما وضعته فبقي والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى ثديي طفلاً من الجيران ، وكنت أنت ترضع ثدياً ويدك على الآخر فأنى لك ذلك .

قال الشاعر : يعيش النـدى ما عـاش حاتم طيء وان مـات قـام لـلسخـاء مـآتـم

وكانت العرب تسمي الكلب ، داعي الضمير ، ومتمم النعم ، ومشيد الذكر ، لما يجلب من الأضياف بنباحه ، والضمير الغريب ، وكانوا إذا اشتد البرد ، وهبت الرياح لم تشب النيران ، فرقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها إلى العتمة لتستوحش فتنبح ، فتهدي الضلال ، وتأتي الأضياف على نباحها . والحكايات في ذكر الأجواد ، والكرماء ، والأسخياء ، وأهل المعروف وما كانوا عليه من السخاء ، والكرم ، أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر . ففي مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون ، ولمثلها فليعمل العاملون ، فإن فيها عز الدنيا ، وشرف الآخرة ، وحسن الصيت ، وخلود جميل الذكر ، فإنا لم نجد شيئاً يبقى على ممر الدهر إلا الذكر حسناً كان ، أو قبيحاً . وقد قال الشاعر :

ولا شـيء يـدوم فـكـن حـديثـاً جميـل الـذكـر ، فـالـدنيا حـديث

فانتهز فرصة العمر ، ومساعدة الدنيا ، ونفوذ الأمر ، وقدم لنفسك كما قدموا ، تذكر بالصالحات كما ذكروا ، وادخر لنفسك في القيامة كما ادخروا ، واعلم أن المأكول للبدن ، والموهوب للمعاد ، والمتروك للعدو فاختر أي الثلاث شئت ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع والثلاثون

في البخل ، والشح ، وذكر البخلاء ، وأخبارهم وما جاء عنهم

قال الله تعالى : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾[1] الآية وقال رسول الله ﷺ : « إياكم والشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم » . وعنه ﷺ أنه قال : « البخل جامع لمساوي القلوب ، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء . وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهما : « ان البخل لو كان قميصاً ما لبسته ، أو كان طريقاً ما سلكته . وقيل بخلاء العرب أربعة الحطيئة[2] وحميد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلي وخالد بن صفوان . فأما الحطيئة[1] فمر به انسان ، وهو على باب داره وبيده عصا . فقال أنا ضيف فأشار إلى العصا . وقال لكعاب الضيفان أعددتها . وأما حميد الأرقط فكان هجاء للضيفان فحّاشا عليهم ، نزل به مرة أضياف فأطعمهم تمراً أو هجاهم ، وذكر أنهم أكلوه بنواه وأما أبو الأسود فتصدق على سائل بتمرة . فقال له جعل الله نصيبك من الجنة مثلها . وكان يقول لو أطعنا المساكين في أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم . وأما خالد بن صفوان فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه : يا عيار ، كم تعير ، وكم تطوف وتطير ، لأطيلن حبسك ، ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه . وقيل له لم لا تنفق ومالك عريض . فقال الدهر أعرض منه . وأنشد بعضهم :

وهبني جمعت المال ثم خزنته ... وحانت وفاتي هل أزاد به عمرا
إذا خزن المال ، البخيلُ فإنه ... سيورثه غماً ، ويعقبه وزرا

واستأذن حنظلة على صديق بخيل فقيل هو محموم . فقال كلوا بين يديه حتى يعرق . وكتب سهل بن هارون كتاباً في مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل فوقع على ظهره قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه .

---

(١) سورة النساء الآية ٣٧.

(٢) هو جرول بن اوس بن مالك العبسي ـ ابو مليكة ـ شاعر مخضرم ، ادرك الجاهلية والاسلام . كان هجاءاً عنيفاً ، لم يكد يسلم من لسانه أحد . وهجا امه وأباه ونفسه . وأكثر هجاء الزبرقان بن بدر ، فشكاه إلى عمر بن الخطاب ، فسجنه بالمدينة ، فاستعطفه بأبيات ، فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس ، فقال : إذاً تموت عيالي جوعاً . له « ديوان شعر » . توفي سنة (نحو ٤٥ هـ ـ نحو ٦٦٥ م) .
أنظر : فوات الوفيات (١ : ٩٩) والشعر والشعراء (١١٠) .

وقال بن أبي فنن :

ذريتي وإتلافي لمالي فإنني — أحب من الأخلاق ما هو أجمل
وان أحق الناس باللوم ، شاعر — يلوم على البخل الرجال ويبخل

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخيلاً جداً أصابه القولنج في بطنه ، فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما في بطنه في الطست فقال لغلامه اجمع الدهن الذي نزل من الحقنة واسرج به . وكان المنصور شديد البخل جداً مر به مسلم الحادي في طريقه إلى الحج فحدا له يوماً بقول الشاعر :

أغر بين الحاجبين نوره — يزينه حياؤه وخيره
ومسكه يشوبه كافوره — إذا تغدى رفعت ستوره

فطرب حتى ضرب برجله المحمل . ثم قال يا ربيع أعطه نصف درهم فقال مسلم نصف درهم يا أمير المؤمنين ، والله لقد حدوت لهشام ، فأمر لي بثلاثين ألف درهم . فقال تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم يا ربيع .وكّل به من يستخلص منه هذا المال . قال الربيع فما زلت أمشي بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له في ذهابه وإيابه بغير مؤنة .وكان أبو العتاهية[1] ومروان بن أبي حفصة[2] بخيلين يضرب ببخلهما المثل قال : مروان ما فرحت بشيء أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها إليّ المهدي فوزنتها فرجحت درهماً ، فاشتريت به لحماً . واشترى يوماً لحماً بدرهم ، فلما وضعه في القدر دعاه صديقه فرد اللحم على القصاب بنقصان دانقين فجعل القصاب ينادي على اللحم ويقول هذا لحم مروان . واجتز يوماً بأعرابية فأضافته . فقال ان وهب لي أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهماً فوهبه سبعين ألف درهم فوهبها أربعة دوانق . ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو . يقال ان من عادتهم إذا ترافقوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط ، ويجمعون اللحم كله في قدر ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه ، فإذا استوى ، جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق . وقيل لبخيل : من أشجع الناس . قال من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشق مرارته . وقيل لبعضهم ، أما يكسوك محمد بن يحيى . فقال : والله لو كان له بيت مملوء إبراً وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء ، والملائكة ضمناء ، يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قُدَّ من دبر ما أعاده إياها ، فكيف يكسوني . وقد نظم ذلك من قال :

لو أن دارك أنبتت لك واحتشت — ابراً يضيق بها فناء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك ابرة — ليخيط قَدّ قميصه لم تفعل

---

(١) هو اسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي (من قبيلة عنزة) بالولاء - ابو اسحاق - الشهير بأبي العتاهية ، شاعر مكثر ، سريع الخاطر ، في شعره ابداع . جمع الامام يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي ما وجد من : « زهدياته » وشعره في الحكمة والعظة ، وما جرى مجرى الامثال ، في مجلد ، منه مخطوطة حديثة في دار الكتب بمصر . توفي سنة (٢١١هـ - ٨٢٦ م) .

(٢) مروان بن أبي حفصة : اختلف في أصله . نشأ على حب الامويين وكره العلويين . له مدائح حسنة في المهدي والرشيد ومعن بن زائدة (توفي ٧٩٨ م) .

وكان المتنبي بخيلاً جداً ، مدحه انسان بقصيدة فقال له كم أملت منا على مدحك . قال عشرة دنانير . قال له والله لو ندفت قطن الأرض ، بقوس السماء ، على جباه الملائكة ما دفعت لك دانقاً[1] . وقال دعبل كنا عند سهل بن هارون فلن نبرح حتى يكاد يموت من الجوع . فقال ويلك يا غلام آتنا غداءنا ، فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل ، فتأمل الديك فرآه بغير رأس . فقال لغلامه وأين الرأس . فقال رميته . فقال والله اني لأكره من يرمي برجله ، فكيف برأسه ، ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد وفيه فرقه الذي يتبرك به ، وعينه التي يضرب بها المثل ، فيقال شراب كعين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الكلية ، ولم تر عظماً أهش تحت الأسنان من عظم رأسه ، وهبك ظننت أني لا آكله . أما قلت عنده من يأكله . أنظر في أي مكان رميته فأتني به ، فقال والله لا أدري أين رميته . فقال لكني أنا أعرف أين رميته ، رميته في بطنك الله حسبك . وقيل من الناس من يبخل بالطعام ، ويجود بالمال . وبالعكس . قال بعضهم في أبي دلف :

أبو دلف يضيع ألف ألف ويضرب بالحسام على الرغيف
أبو دلف لمطبخه قتار ولكن دونه سل السيوف

واشتكى رجل مروزي صدره من سعال ، فوصفوا له سويق اللوز ، فاستثقل النفقة ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء . فبينما هو يماطل الأيام ، ويدافع الآلام ، إذ أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة ، وقال انه يجلو الصدر ، فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها ، فجلا صدره ووجده يعصم . فلما حضر غداؤه أمر به . فرفع إلى العشاء ، وقال لامرأته اطبخي لأهل بيتنا النخالة ، فإني وجدت ماءها يعصم ، ويجلو الصدور . فقالت لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء فالحمد لله على هذه النعمة . وعن خاقان ابن صبح قال دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً فأتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الرقة وقد علّق فيها عوداً بخيط ، فقلت له ما بال هذا العود مربوطاً ، قال قد شرب الدهن ، وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره فلا نجد إلا عوداً عطشاناً ، ونخشى أن يشرب الدهن . قال فبينما أنا أتعجب ، وأسأل الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر إلى العود فقال للرجل . يا فلان ، لقد فررت من شيء ، ووقعت فيما هو شر منه ، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء ، وينشفان هذا العود ، لم لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد ، فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف ، والعود أيضاً بما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها . فقال له الرجل الخراساني أرشدك الله ، ونفع بك ، فلقد كنت في ذلك من المسرفين . وقال الهيثم بن عدي نزل على أبي حفصة الشاعر ، رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه في هذه الليلة . فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه ثم رجع وكتب إليه :

يا أيها الخارج من بيته وهارباً من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له فارجع وكن ضيفاً على الضيف

واشترى رجل من البخلاء داراً وانتقل إليها ، فوقف ببابه سائل فقال له : فتح الله عليك . ثم وقف ثان

---

(١) الدانق : سدس الدرهم .

فقال له مثل ذلك . ثم وقف ثالث فقال له مثل ذلك ثم التفت إلى ابنته فقال لها ما أكثر السؤال في هذا المكان . قالت يا أبت ما دمت مستمسكاً لهم بهذه الكلمة فما تبالي ، كثروا ، أم قلوا ، وألأم اللئام وأبخلهم حميد الأرقط الذي يقال له : هجّاء الأضياف ، وهو القائل في ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له :

ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت ... وبين أخرى تليها قيد أظفور

وقال فيه أيضاً :

تجهز كفاه ويحدر حلقه ... إلى الزور ما ضمت عليه الأنامل

وأكل أعرابي مع أبي الأسود رطباً فأكثر ، ومد أبو الأسود يده إلى رطبه ليأخذها فسبقه الأعرابي إليها فسقطت منه في التراب ، فأخذها أبو الأسود وقال لا أدعها للشيطان يأكلها . فقال الأعرابي والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزلا من السماء ما تركها . وقال أعرابي لنزيل نزل به : نزلت بواد غير ممطور ورجل بك غير مسرور ، فأقم بعدم ، أو ارحل بندم . وللحمدوني :

رأيت أبا زرارة قال يوماً ... لحاجبه وفي يده الحسام
لئن وضع الخوان ولاح شخص ... لاختطفن رأسك والسلام
فقال سوى أبيك فذاك شيخ ... بغيض ليس يردعه الكلام
فقام وقال من حنق إليه ... ببيت لم يرد فيه القيام
أبي وابنا أبي والكلب عندي ... بمنزلة إذا حضر الطعام
وقال له ابن لي يا ابن كلب ... على خبزي أصادر أو أضام
إذا حضر الطعام فلا حقوق ... علي لوالديَّ ولا ذمام
فما في الأرض أقبح من خوان ... عليه الخبز يحضره الزحام

فأين هذا من القائل :

بخيل يرى في الجود عاراً وإنما ... يرى المرء عاراً أن يضن ويبخلا
إذا المرء أثرى ثم لم يرج نفعه ... صديق فلاقته المنية أولا

وقال آخر :

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري ... فليس إليه ما حييت سبيل
أرى الناس اخوان الكريم وما أرى ... بخيلاً له في العالمين خليل

وقالوا إذا سألت لئيماً شيئاً فعاجله ، ولا تدعه يفكر ، فإنه كلما فكر ازداد بعداً . وقال ربعي الهمداني

جمعت صنوف المال من كل وجهة ... وما نلتها إلا بكف كريم
واني لأرجو أن أموت وتنقضي ... حياتي وما عندي يد للئيم

وأنشد الجاحظ لأبي الشمقمق :

ممن تعلمت هذا ... أن لا تجود بشيء
أما مررت بعبد ... لعبد حاتم طيء

ومما قالته الشعراء في البخلاء وطعامهم : فمن أهجى ما قيل فيهم بيت جرير في بني تغلب :

والتغلبي إذا تنحنح للقرى حك استه[1] وتمثل إلا مثالا

وله أيضاً فيهم :

قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم واستوثقوا من رتاج الباب والدار
قوم إذا استنبح الضيفان كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار
فتمنع البول شحا أن تجود به وما تبول لهم إلا بمقدار
والخبز كالعنبر عندهم والقمح خمسون اردباً بدينار

فأين هؤلاء من الذي قال فيه الشاعر :

أبلج بين حاجبيه نوره إذا تغدى رفعت ستوره

وقال بعضهم في بخيل :

أتانا بخيل بخبز له كمثل الدراهم في رقته
إذا ما تنفس حول الخوان تطاير في البيت من خفته

وقال آخر :

تراهم خشية الأضياف خرسا يقيمون الصلاة بلا أذان

وقال آخر : وقد بات عند بخيل :

فبتنا كأنّا بينهم أهل مأتم على ميت مستودع بطن ملحد
يحدث بعضاً بعضنا بمصابه ويأمر بعضنا بعضاً بالتجلد

وقال آخر :

وجيرة لا نرى في الناس مثلهم إذا يكون لهم عيداً وافطار
ان يوقدوا يوسعونا من دخانهم وليس يبلغنا ما تطبخ النار

وقال آخر وأجاد :

فصدق ايمانه إن قال مجتهداً لا والرغيف فذاك البر من قسمه
فإن هممت به فاعبث بخبزته فإن موقعها من لحمه ودمه
قد كان يعجبني لو أن غيرته على جرادقه كانت على حرمه

---

(١) الأست : العجز ، وجاء في « لسان العرب » : من الدهر قدمه وأساس الشيء .

وقال آخر :

ذهب الكرام فلا كرام وبقي العضاريط[1] اللئام
من لا يقبل ولا ينيـ ـل ولا يشم له طعام

وقال آخر :

خليليّ من كعب أعينا أخاكما على دهره ان الكريم معين
ولا تبخلا بخل ابن قزعة انه مخافة أن يرجى نداء حزين
إذا جئته في حاجة سد بابه فلم تلقه إلا وأنت كمين

وقال آخر :

له يومان، يوم ندي ويوم يسل السيف فيه من القراب
فاما جوده فعلى قحاب وأما سيفه فعلى الكلاب

وقال آخر :

زففت إلى نبهان من صفو فكرتي عروساً غدا بطن الكتاب لها صدرا
فقبلها عشراً وهام بحبها فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

وقال آخر :

لو عبر البحر امواجه في ليلة مظلمة باردة
وكفه مملوءة خردلا ما سقطت من كفه واحدة

وقال آخر :

يا قائماً في داره قاعداً من غير معنى لا ولا فائدة
قد مات أضيافك من جوعهم فاقرأ عليهم سورة المائدة

وقال آخر :

نوالك دونه شوك القتاد وخبزك كالثريا في البعاد
فلو أبصرت ضيفاً في منام لحرمت الرقاد إلى المعاد

وقال آخر :

لا تعجبن لخبز زل من يده فالكوكب النحس يسقي الأرض أحياناً

وقال ابن أبي حازم :

وقالوا قد مدحت فتى كريماً فقلت وكيف لي بفتى كريم
بلوت ومرّ بي خمسون حولاً وحسبك بالمجرب من عليم
فلا أحد يعد ليوم خير ولا أحد يجود على عديم

---

(١) العضاريط : الصعاليك .

ومن رؤساء أهل البخل : محمد بن الجهم ، وهو الذي قال وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء ، وعشرة من الشعراء ، وعشرة من الأدباء ،تواطؤوا على ذميّ واستسهلوا شتمي حتى ينتشر ذلك في الآفاق ، فلا يمتد إليّ أمل آمل ، ولا يبسط نحوي رجاء راج . وقال له أصحابه يوماً . إنا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك ، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استثقالك لمجالستنا فقال علامة ذلك أن أقول يا غلام هات الغداء . وقال عمر بن ميمون مررت ببعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخاصم جاراً له . فقلت ما بالكما ؟ فقال أحدهما ان صديقاً لي زارني فاشتهى رأساً فاشتريته وتغدينا ، وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري أتجمل بها ، فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس انه هو الذي اشترى الرأس . قال رجل من البخلاء لأولاده اشتروا لي لحماً ، فاشتروه ، فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق في يده إلا عظمة ، وعيون أولاده ترمقه . فقال ما أعطي أحداً منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها . فقال ولده الأكبر أمشمشها يا أبت وأمضها حتى لا أدع للذر فيها مقيلاً . قال لست بصاحبها . فقال الأوسط ألوكها يا أبت وألحسها حتى لا يدري أحد لعام ، هي أم لعامين . قال لست بصاحبها . فقال الأصغر يا أبت أمصها ، ثم أدقها ، وأسفها سفاً . قال أنت صاحبها وهي لك زادك الله معرفة وحزماً . ووقف اعرابي على أبي الأسود وهو يتغدى فسلم فردّ عليه ثم أقبل على الأكل ، ولم يعزم عليه . فقال له الأعرابي أما اني قد مررت بأهلك . قال كذلك كان طريقك . قال وامرأتك حبلى . قال كذلك كان عهدي بها . قال قد ولدت . قال كان لا بد لها أن تلد . قال ولدت غلامين قال كذلك كانت أمها . قال مات أحدهما قال كانت تقوى على ارضاع اثنين . قال ثم مات الآخر ، قال ما كان ليبقى بعد موت أخيه ، قال وماتت الأم قال حزناً على ولديها . قال ما أطيب طعامك قال لأجل ذلك أكلته وحدي ووالله لا ذقته يا أعرابي . وقيل خرج اعرابي قد ولاه الحجاج بعض النواحي فأقام بها مدة طويلة ، فلما كان في بعض الأيام ورد عليه اعرابي من حيه فقدم إليه الطعام . وكان إذ ذاك جائعاً فسأله عن أهله وقال ما حال ابني عمير ، قال على ما تحب قد ملأ الأرض والحي رجالاً ونساء . قال فما فعلت أم عمير قال صالحة أيضاً . قال فما حال الدار قال عامرة بأهلها قال وكلبنا ايقاع . قال ملأ الحي نبحاً قال فما حال جملي زريق . قال على ما يسرك . قال فالتفت إلى خادمه ، وقال ارفع الطعام فرفعه ، ولم يشبع الاعرابي ، ثم أقبل عليه يسأله وقال : يا مبارك الناصية أعد عليّ ما ذكرت . قال سل عمّا بدا لك قال فما حال كلبي ايقاع ، قال مات قال وما الذي أماته قال اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات . قال أومات جملي زريق . قال نعم . قال وما الذي أماته قال كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير ، قال أو ماتت أم عمير قال ، نعم . قال وما الذي أماتها قال كثرة بكائها على عمير . قال أومات عمير ؟ . قال نعم . قال وما الذي أماته ، قال سقطت عليه الدار . قال أو سقطت الدار قال نعم . قال فقام له بالعصى ضارباً فولّى من بين يديه هارباً .

وحكى بعضهم قال : كنت في سفر فضللت عن الطريق ، فرأيت بيتاً في الفلاة ، فأتيته فإذا به أعرابية ، فلما رأتني قالت من تكون ؟ قلت ضيف . قالت أهلاً ومرحباً بالضيف ، انزل على الرحب والسعة . قال فنزلت فقدمت لي طعاما فأكلت ، وماء فشربت ، فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت . فقال من هذا ؟ فقالت ضيف . فقال لا أهلاً ولا مرحباً ، ما لنا وللضيف ، فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتي وسرت ، فلما كان من الغد رأيت بيتاً في الفلاة فقصدته فإذا فيه أعرابية فلما رأتني قالت من تكون ؟ قلت ضيف . قالت لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف ، ما لنا وللضيف ، فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت فلما رآني قال من هذا ؟ قالت

ضيف . قال مرحباً وأهلاً بالضيف ثم أتى بطعام حسن فأكلت ، وماء فشربت ، فتذكرت ما مرّ بي الأمس فتبسمت . فقال مم تبسمك فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الاعرابية وبعلها ، وما سمعت منه ومن زوجته ، فقال لا تعجب ان تلك الاعرابية التي رأيتها هي اختي ، وان بعلها أخو امرأتي هذه . فغلب على كل طبع أهله . وحكايات هؤلاء ، وأمثالهم كثيرة ، وأخبارهم ونوادرهم شهيرة ، وفيها ذكرته كفاية ، وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية ، انه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الخامس والثلاثون

في الطعام وآدابه ، والضيافة وآداب المضيف ، والضيف وأخبار الأكلة ، وما جاء عنهم وغير ذلك

أما إباحة الطيب من المطاعم : فقد قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **يسألونك ماذا أُحلّ لهم قل أُحلّ لكم الطيبات وما علّمتم من الجوارح مكلبين** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾[3] وقال رسول الله ﷺ : «محرم الحلال ، كمحلل الحرام » قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه » وكان الحسن رضي الله تعالى عنه يقول : ليس في اتخاذ الطعام سرف . وسئل الفضل عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص[4] للزهد. فقال ما للزهد وأكل الخبيص ليتك تأكل وتتقي الله ، إن الله لا يكره أن تأكل الحلال ، إذا اتقيت الحرام . انظر كيف برّك بوالديك وصلتك للرحم وكيف عطفك على الجار ، وكيف رحمتك للمسلمين ، وكيف قظمك للغيظ ، وكيف عفوك عمن ظلمك ، وكيف احسانك إلى من أساء إليك ، وكيف صبرك واحتمالك للأذى . أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص . (وأما نعوت الأطعمة وما جاء فيها) فقد نقل عن الرشيد أنه سأل أبا الحرث عن الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فقال يا أمير المؤمنين : لا أقضي على غائب ، فأحضرهما إليه فجعل يأكل من هذا لقمة ، ومن هذا لقمة ، ثم قال يا أمير المؤمنين : كلما أردت أن أقضي لأحدهما أتى الآخر بحجته . واختلف الرشيد وأم جعفر في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فحضر أبو يوسف القاضي فسأله الرشيد عن ذلك . فقال يا أمير المؤمنين : لا يقضى على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى فقال له الرشيد : احكم . قال : قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين فضحك الرشيد ، وأمر له بألف دينار. فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا ديناراً. وسمع الحسن البصري رجلاً يعيب الفالوذج فقال لباب البر بلعاب النحل ، بخالص السمن ، ما أظن عاقلاً يعيبه . وقال الأصمعي أول من صنع الفالوذج عبد الله بن جدعان . وأتى اعرابي بفالوذج فأكل منه لقمة فقيل له هل تعرف هذا . فقال هذا وحياتك الصراط المستقيم .

(١) سورة البقرة الآية ١٧٢ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ٣١ .

(٤) الخبيص : الحلواء المخبوصة.

وكان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم . وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم . وكان ﷺ يقول : « هو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ، وهو يزيد في السمع ، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل . وكان ﷺ يحب الدباء ويقول يا عائشة إذا طبختم قدراً فأكثروا فيها من الدباء ، فإنها تشد القلب الحزين وهي شجرة أخي يونس . وعنه ﷺ أنه قال : عليكم بالقرع فإنه يشد الفؤاد ويزيد في الدماغ ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب ، ويغزر الدمعة . وعن أبي رافع قال : كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقول أكل التمر أمان من الفولنج ، وشرب العسل على الريق أمان من الفالج ، وأكل السفرجل يحسن الولد ، وأكل الرمان يصلح الكبد ، والزبيب يشد العصب ، ويذهب بالنصب ، والوصب[١] ، والكرفس يقوي المعدة ، ويطيب النكهة ، وأطيب اللحم الكتف ، وكان يديم أكل الهريسة . وكان يأكل على سماط معاوية ، ويصلي خلف علي ، ويجلس وحده ، فسئل عن ذلك فقال : طعام معاوية أدسم ، والصلاة خلف علي أفضل ، وهو أعلم ، والجلوس وحدي لي أسلم . وسميت المتوكلية بالمتوكل ، والمأمونية بالمأمون . وقال الحسن بن سهل يوماً على مائدة المأمون : الارز يزيد في العمر ، فسأله المأمون عن ذلك فقال يا أمير المؤمنين : ان طب الهند صحيح ، وهم يقولون ان الأرز يرى منامات حسنة ، ومن رأى مناماً حسناً كان في نهارين ، فاستحسن قوله ووصله . وقال أبو صفوان : الأرز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا . وقيل لأبي الحرث ما تقول في الفالوذجة . قال وددت لو أنها وملك الموت اعتلجا[٢] في صدري ، والله لو أن موسى لقي فرعون بالفالوذجة لآمن ، ولكنه لقيه بعصا . وكانت العرب لا تعرف الألوان ، إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح . حتى كان زمن معاوية رضي الله تعالى عنه فاتخذ الألوان ويقال للمرقة المسخنة بنت نارين . وكان بعض المترفهين يقول جنبوا مائدتي بنت نارين . وقالوا كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد . وقيل إذا ألقي اللحم في العسل ثم أخرج بعد شهر طرياً فإنه لا يتغير . ويقال : للسكباج[٣] سيد المرق ، وشيخ الأطعمة ، وزين الموائد ، ويقال إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة ويقال للخبز ابن حبة قال بعضهم :

في حبة القلب مني زرعت حب ابن حبة

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رفعه : أكرموا الخبز . قالوا وما كرامته يا رسول الله . قال لا ينتظر به إلا دام ، إذا وجدتم الخبز فكلوه ، حتى تؤتوا بغيره . وفي الحديث من داوم على اللحم أربعين يوماً قسا قلبه ، ومن تركه أربعين يوماً ساء خلقه . وقيل المائدة التي أنزلت على بني اسرائيل كان عليها كل البقول إلا الكراث ، وسمكة عند رأسها خل ، وعند ذنبها ملح ، وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون ، وحب رمان . ودخل ابن قرعة يوماً على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه فقال ما بال مولانا ليس يدعوني إلى الفوز ، بأكل الموز . فقال صفه حتى أطعمك منه . فقال ما الذي أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية ، كأنها حشيت زبداً وعسلاً ، أطيب الثمر كأنه مخ الشحم ، سهل المقشر ، لين المكسر ، عذب المطعم بين

---

(١) النصب : التعب والوصب : المرض .
(٢) اعتلج القوم اقتتلوا واصطرعوا. واعتلجت الهموم في صدري أي تلاطمت.
(٣) السكباج : ضرب من الطعام الفارسي .

الطعوم ، سلس في الحلقوم ، ثم مد يده وأكل . وسمع رجلاً يذم الزبد فقال ما الذي ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه ، أم صعوبة مدخله ، أم خشونة ملمسه . وقيل له ما تقول في الباذنجان قال أذناب المحاجم بطون العقارب ، وبزور الزقوم . قيل له انه يحشي باللحم فيكون طيباً . فقال لو حشي بالتقوى والمغفرة ما أفلح . صنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لزازان هل عمل كسرى مثلها فاستعفاه ، فأقسم عليه . فقال : أو لم عبد عند كسرى فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة ، في يد كل واحدة إبريق من ذهب . فقال الحجاج أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفاً . وأهدى رجل إلى آخر فالوذجة[1] زنخة ، وكتب إليه اني اخترت لعملها السكر السوسي ، والعسل الماردانى ، والزعفران الأصبهاني . فأجابه والله العظيم ما عملت إلا قبل أن توجد أصبهان ، وقبل أن تفتح السوس . وقبل أن يوحي ربك إلى النحل . وقيل ان أبا جهم ابن عطية كان عيناً لأبي مسلم الخولاني على المنصور . فأحسن المنصور بذلك فطاوله الحديث يوماً حتى عطش فاستسقى فدعا له بقدح من سويق اللوز فيه السم فناوله إياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات فقيل في ذلك :

تجنب سويق اللوز لا تقربنه فشرب سويق اللوز أردى أبا جهم

وقال أبو طالب المأموني :

فما حملت كف امرىء متطعماً ألذ وأشهى من أصابع زينب

وأصابع زينب ضرب من الحلوى ، يعمل ببغداد ، يشبه أصابع النساء المنقوشة . ودخل السائب على علي ، رضي الله تعالى عنه في يوم شات ، فناوله قدحاً فيه عسل وسمن ولبن ، فأباه فقال أما انك لو شربته لم تزل دفئاً شبعان سائر يومك . وعن نافع بن أبي نعيم قال : كان أبو طالب يعطي علياً قدحاً من اللبن يصبه على اللات فكان علي يشرب اللبن ويبول على اللات . وأما الزهد في المآكل فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه ، ومنهم من لا يقدر عليه . قالت عائشة رضي الله تعالى عنها والذي بعث محمداًﷺ بالحق ما كان لنا منخل . ولا أكل رسول اللهﷺ خبزاً منخولاً منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض . قيل فكيف كنتم تأكلون الشعير ، قالت كنا نقول أف أف . وعن جابر رضي الله تعالى عنه رفعه . نعم الأدم الخل . وكفى بالمرء سرفاً أن يتسخط ما قرب إليه . وقال عمر رضي الله تعالى عنه ما اجتمع عند رسول اللهﷺ ، إدمان ، إلا أكل أحدهما ، وتصدق بالآخر . وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : ما كان يجتمع لونان في لقمة في فم رسول اللهﷺ ، إن كان لحماً لم يكن خبزاً ، وإن كان خبزاً لم يكن لحماً . وعن النبيﷺ قال : « يا علي ابدأ بالملح ، واختم به ، فإن فيه شفاء من سبعين دواء » . وروي أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكا إلى الله الضعف . فأمره أن يطبخ اللحم باللبن ، فان القوة فيها ، وسنذكر فضل الزهد في المآكل والمشارب في باب مدح الفقراء ان شاء الله تعالى .

وأما ما جاء في آداب الأكل : فقد قال رسول اللهﷺ من قال عند مطعمه ومشربه باسم الله خير الأسماء ، باسم الله رب الأرض والسماء ، لم يضره ما أكل وما شرب . وكانﷺ إذا وضع بين يديه الطعام قال باسم الله

---

(١) فالوذجه : نوع آخر من الطعام الفارسي .

اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وعليك خلفه ، وقالﷺ : « من أكل طعاماً فقال الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه » . وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها قال رسول اللهﷺ : « إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله فإن نسي في أوله ، فليقل بسم الله أوله وآخره » وفي حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال رسول اللهﷺ : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » . وقالﷺ : « الأكل في السوق دناءة » . وعن أنس رضي الله تعالى عنه ، أن النبيﷺ زجر عن الشرب قائماً : قال فسألناه عن الأكل قائماً فقال هو شر من الشرب . أوصي رجل من خدم الملوك ابنه فقال إذا أكلت فضم شفتيك . ولا تلتفتن يميناً وشمالاً ، ولا تلقمنّ بسكين ، ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة ، ولا تبصق في الأماكن النظيفة . ومن هذا ما رواه الزهري أن النبيﷺ نهى عن النفخ في الطعام والشراب . وقال علي رضي الله تعالى عنه : نهى رسول اللهﷺ أن يؤكل الطعام حاراً ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه . قال : ما عاب النبيﷺ طعاماً قط ، ان اشتهاه أكله ، وإلا تركه » وقال عمر بن هبيرة عليكم بمباكرة الغداء فإن مباكرته تطيب النكهة وتعين على المروءة . قيل وما اعانته على المروءة قال أن لا تتوق نفسك إلى طعام غيرك . وعن النبيﷺ قال : « من أكل من سقط المائدة عاش في سعة ، وعوفي في ولده ، وولد ولده من الحمق » . وعنهﷺ : « من لقط شيئاً من الطعام فأكله حرم الله جلده على النار » . وكان الحرث بن كلدة يقول : إذا تغدى أحدكم فلينم على غدائه ، وإذا تعشى فليخط أربعين خطوة . وقيل خير الغداء بواكره ، وخير العشاء سوافره . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : نهى رسول اللهﷺ أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه . وقال الحجاج لأعرابي يوماً على سماطه ارفق بنفسك . فقال وأنت يا حجاج اغضض من بصرك . وقال معاوية لرجل على مائدته خذ الشعرة من لقمتك . فقال وانك تراعيني مراعاة من يرى الشعرة في لقمتي ، لا أكلت لك طعاماً أبداً . ووضع معاوية بين يدي الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما دجاجة ففكها . فقال معاوية هل بينك وبين أمها عداوة . فقال الحسن فهل بينك وبين أمها قرابة . أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه ، كما توقر مجالس الملوك ، والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة رضي الله تعالى عنهما . وحضر أعرابي على مائدة بعض الخلفاء فقدّم جدي مشوي ،فجعل الأعرابي يسرع في أكله منه . فقال له الخليفة أراك تأكله بحرد ، كأن أمه نطحتك . فقال أراك تشفق عليه كأن أمه أرضعتك .

وأما ما جاء في كثرة الأكل : فقد روي عن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبيﷺ : « من قل طعامه صح بطنه . وصفا قلبه . ومن كثر طعامه سقم بطنه وقسا قلبه » . وعنهﷺ : « لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كالزرع إذا كثر عليه الماء مات » . وقالﷺ : « ما زيّن الله رجلاً بزينة أفضل من عفاف بطنه » . وقال عمرو بن عبيد ما رأيت الحسن ضاحكاً إلا مرة واحدة . قال رجل من جلسائه ما آذاني طعام قط . فقال له آخر . أنت لو كانت في معدتك الحجارة لطحنتها . وقال عليّ كرم الله وجهه : البطنة تذهب الفطنة . وقال ابن المقفع ، كانت ملوك الأعاجم إذا رأت الرجل نهماً شرهاً أخرجوه من طبقة الجد إلى باب الهزل ، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار . وتقول العرب أقلل طعاماً تحمد مناماً . وكانت العرب تعير بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا :

لست بآكل كأكل العبد ولا بنوّام كنوم الفهد

وأنشد الأصمعي لرجل من بني فهد :

إذا لم أزر إلا لآكل أكلة فلا رفعت كفي إليّ طعامي
فما أكلة إن نلتها بغنيمة ولا جوعة ان جعتها بغرام

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها ، أراد رسول الله ﷺ أن يشتري غلاماً ، فألقى بين يديه تمراً يأكله فأكثر فقال ﷺ : ان كثرة الأكل شؤم . وقالوا الوحدة خير من جليس السوء وجليس السوء خير من الاكيل السوء . وشكا أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال . فقال اشكر فإن الله قد رزقك الاسلام ، والعافية . قال أجل ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد . ودعت أبا الحرث ، حبيبة له فحادثته ساعة فجاع ، فطلب الأكل فقالت له أما في وجهي ما يشغلك عن الأكل . قال جعلت فداءك لو أن جميلاً وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وافترقا .

وأما أخبار الأكلة : فقد قيل ان وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل . فقال أكلت مائة رغيف بمكوك[1] بلح . ومر ميسرة المذكورة يوماً بقوم وهو راكب حماراً فدعوه للضيافة فذبحوا له حماره ، وطبخوه وقدموه له ، فأكله كله ، فلما أصبح طلب حماره ليركبه فقيل له هو في بطنك . وقال المعتمر بن سليمان قلت لهلال المازني : ما أكلة بلغتني عنك . قال جعت مرة ومعي بعير لي فنحرته وشويته ، وأكلته . ولم أبق منه إلا شيئاً يسيراً حملته على ظهري . فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لي فلم أقدر أصل إليها . فقالت كيف تصل إليّ ، وبيننا جمل . فقلت له كم تكفيك هذه الأكلة فقال أربعة أيام . وقال الأصمعي إن سليمان بن عبد الملك كان شرهاً نهماً ، وكان من شرهه أنه إذا أُتي بالسفود[2] وعليه الدجاج السمين المشوي لا يصبر إلى أن يبرد ، ولا أن يؤتى بمنديل فيأخذ بكمه فيأكل واحدة ، واحدة ، حتى يأتي عليها . فقال الرشيد ويحك يا أصمعي ما أعلمك بأخبار الناس اني عرضت عليّ جباب سليمان فرأيت فيها آثار الدهن فظننته طيباً حتى حدثتني ، ثم أمر لي بجبة منها فكنت إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك . وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إلي ، وقال يا شمردل ما عندك ما تطعمني قلت عندي جدي كأعظم ما يكون سمناً قال عجّل به فأتيته به كأنه عكة سمن فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر ، حتى إذا لم يبق منه إلا فخذ قال هلم يا أبا جعفر . فقال إني صائم فأكله ، ثم قال يا شمردل ويلك أما عندك شيء قلت ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام فأتيته بهن فأتى عليهن ، ثم قال يا شمردل أما عندك شيء . قلت سويق كأنه قراضة الذهب ، فأتيته به فعبه حتى أتى عليه ، ثم قال يا غلام أفرغت من غدائنا ؟ قال نعم . قال ما هو ؟ قال نيف وثلاثون قدراً قال ائتني بقدر قدر فأتاه بها ، ومعه الرقاق فأكل من كل قدر ثلثه ثم مسح يده ، واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا ، وصف الخوان فقعد وأكل مع الناس . وكان هلال بن الأسمر يضع القمع على فيه ويصب اللبن أو النبيذ وكان غليظاً عتلاً . وقال اعرابي لرجل رآه سميناً أرى عليك قطيفة[3] من نسج أضراسك . وقال أبو المجسر الاعرابي كانت لي بنت تجلس معي على

(١) المكوك : يسع صاعاً ونصف او نحو ذلك .
(٢) صفيحة من المعدن يصف عليها اللحم .
(٣) القطيفة نوع من الثياب يصنع من المخمل .

المائدة ، فتبرز كفاً كأنها صلفة[1] في ذراع ، كأنه جمارة فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتني بها ، فكبرت وزوجتها ، وصرت أجلس إلى المائدة مع ابن لي ، فيبرز كفاً كأنها كرنافة ، فوالله لن تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها . وقال مسلم بن قتيبة عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفاً مع كل رغيف سمكة . ويقال فلان يحاكي حوت يونس في جودة الالتقام ، وعصا موسى في سرعة الالتهام . وقيل لأبي مرة أي الطعام أحب إليك قال :لحم سمين،وخبز سميذ. أضرب فيه ضرب ولي السوء في مال اليتيم . وقال صدقة بن عبيد المازني : أولم لي أبي لما تزوجت فعمل عشر جفان ثريد من جزور ، فكان أول من جاءنا هلال المازني فقدمنا له جفنة مترعة فأكلها ، ثم أخرى فأكلها حتى أتي على الجميع ، ثم أتى بقربة مملوءة من النبيذ فوضع طرفها في شدقه ، وفرغها في جوفه ، ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام . وكان عبيد الله بن زياد يأكل وفي كل يوم خمس أكلات ، فخرج يوماً يريد الكوفة . فقال له رجل من بني شيبان : الغداء ، أصلح الله الأمير ، فنزل فذبح له عشرين طائراً من الأوز فأكلها ، ثم قدم الطعام فأكل ، ثم أتى بزنبيلين في إحداهما تين ، وفي الآخر بيض فجعل يأكل من هذا تينة ، ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه ثم رجع وهو جائع ، وكان ميسرة البراش يأكل الكبش العظيم ، ومائة رغيف . فذكر ذلك للمهدي فقال دعوت يوماً بالفيل ، وأمرت فألقي إليه رغيف رغيف فأكل تسعة وتسعين ، وألقي إليه تمام المائة فلم يأكله . وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهري انه سمع الشيخ الامام عز الدين بن عبد السلام يقول : ان معاوية بن أبي سفيان كان يأكل في كل يوم مائة رطل بالدمشقي ولا يشبع . ونزل رجل بصومعة راهب ، فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة ، وذهب ليحضر إليه العدس ، فحمله وجاء فوجده قد أكل الخبز فذهب فأتى بخبز ، فوجده قد أكل العدس ، ففعل معه ذلك عشر مرات ، فسأله الراهب أين مقصدك قال إلى الأردن قال : لماذا ، قال بلغني أن بها طبيباً حاذقاً أسأله عما يصلح معدتي ، فاني قليل الشهوة للطعام فقال له الراهب : إن لي إليك حاجة قال : وما هي قال : إذا ذقت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك عليّ .

وأما المهازلة على الطعام : فقد روي عن يحيى بن عبد الرحمن رضي الله تعالى عنه قال : قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : كان عندي رسول الله ﷺ وسودة ، فصنعت حريرة فجئت به . فقلت لسودة كلي فقالت : لا أحبه . فقلت والله لتأكلين ، أو لألطخن وجهك . فقالت ما أنا بذائقته فأخذت من الصحفة شيئاً فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها ، فتناولت من الصفحة شيئاً فلطخت به وجهي . وجعل رسول الله ﷺ يضحك . واشترى غندر يوماً سمكاً . وقال لأهله اصلحوه ونام فأكل عياله السمك ولطخوا يده ، فلما انتبه قال قدموا إليّ السمك ، قالوا قد أكلت . قال لا ، قالوا شم يدك ففعل فقال صدقتم ولكن ما شبعت . ودخل الحمدوني على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوة ، ولا يمدون أيديهم . فقال لقد ذكرتموني ضيف ابراهيم . وقول الله تعالى : ﴿ **فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة** ﴾[2] ثم قال كلوا رحمكم الله ، فضحكوا وأكلوا . والحكايات في ذلك كثيرة .

وأما الضيافة ، وإطعام الطعام : فقد قال الله تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين** ﴾[3]

---

(١) الصلف : الاناء الثقيل .

(٢) سورة هود الآية ٧٠.

(٣) سورة الذاريات الآية ٢٤ .

وقال رسول الله ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ولا يؤذ جاره » وقال ﷺ : « من أكل وذو عينين ينظر إليه ، ولم يواسه ابتلى بداء لا دواء له » . وقال الحسن كنا نسمع أن احدى مواجب الرحمة ، اطعام الأخ المسلم الجائع ، وقيل لابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بم اتخذك خليلاً ، قال بثلاث . ما خيرت بين شيئين ، إلا اخترت الذي لله على غيره ، ولا اهتممت بما تكفل لي به ، ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف . ويقولون ما خلا مضيف الخليل عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف . وكان الزهري إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام ، وقالوا المائدة مرزوقة . أي من كان مضيافاً فأوسع الله عليه . وقالوا أول من سن القرى[1] إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . وأول من ثرد الثريد وهشمه هاشم ، وأول من أفطر جيرانه على طعامه في الاسلام عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وهو أول من وضع موائده على الطريق ، وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شيء ، فإن لم يجد من يأكله تركه على الطريق ، وقيل لبعض الكرماء ، كيف اكتسبت مكارم الأخلاق ، والتأدب مع الأضياف ، فقال : كانت الأسفار تحوجني إلى أن أفد على الناس ، فما استحسنته من أخلاقهم اتبعته ، وما استقبحته اجتنبته .

وأما آداب المضيف فهو أن يخدم أضيافه ، ويظهر لهم الغنى ، وبسط الوجه ، فقد قيل البشاشة في الوجه ، خير من القرى . قالوا فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك ، وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوي رحمه الله هذا الكلام بأبيات فقال :

إذا المرء وافى منزلاً منك قاصداً ... قراك وأرمته لديك المسالك
فكن باسماً في وجهه متهللاً ... وقل مرحباً أهلاً ويوم مبارك
وقدم له ما تستطيع من القرى ... عجولاً ولا تبخل بما هو هالك
فقد قيل بيت سالف متقدم ... تداوله زيد وعمرو ومالك
بشاشة وجه المرء خير من القرى ... فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك

وقالت العرب : تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المؤاكلة . وقال حاتم الطائي :

سلي الطارق المعتر يا أم مالك ... إذا ما أتاني بين نادي ومجزري[2]
أأبسط وجهي إنه أوّل القرى ... وأبذل معروفي له دون منكري

وقال آخر في عبد الله بن جعفر :

إنك يا ابن جعفر خير فتى ... وخيرهم لطارق إذا أتى

ولله در القائل :

الله يعلم أنه ما سرني ... شيء كطارقة الضيوف النزل
ما زلت بالترحيب حتى خلتني ... ضيفاً له ، والضيف رب المنزل

---

(١) القرى : الضيافة . وأقرى : طلب ضيافة .

(٢) المجزر : من جزر يجزر وسلخ يسلخ . مسلخ .

أخذه من قول الشاعر :

يـا ضيفنا لـو زرتنا لـوجدتنـا ... نحن الضيـوف وأنـت رب المنـزل

وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان :

مـنـزلـنـا رحـب لمـن زاره ... نـحـن سـواء فـيـه والـطارق
وكـل مـا فـيـه حـلال لـه ... إلا الـذي حـرمـه الخـالـق

وقال الأصمعي : سألت عيينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق فقال : أو ما سمعت قول عاصم بن وائل :

وأنـا لنقـري الضيف قبـل نـزولـه ... ونشبعه بالبشـر من وجه ضاحـك

وقال بعض الكرام :

أضاحك ضيفي قبل أن أنزل رحله ... ويخصب عنـدي والمحـلّ جـديب
وما الخصيب للأضياف أن تكثر القرى ... ولـكنـما وجـه الـكـريم خـصيـب

وقال آخر :

عـوّدت نفسي إذا ما الضيف نبهني ... عقـرت العشار عـلى عسـر وإيسـار

ومن آداب المضيف أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها ، قبل إكرام الضيف . قال الشاعر :

مـطية الضيف عنـدي تلو صاحبـها ... لن يأمن الضيف حتى تكرم الفرسا

وقال علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه ، كما خدمهم أبونا ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه بنفسه وأهله أما سمعت قول الله عز وجل ﴿**وامرأته قائمة**﴾[1] ومن آداب المضيف أن يحدث أضيافه بما تميل إليه نفوسهم ، ولا ينام قبلهم ، ولا يشكو الزمان بحضورهم ، ويبش عند قدومهم ، ويتألم عند وداعهم ، وأن لا يحدث بما يروعهم به ، كما حكى بعضهم قال : استدعاني اسحاق بن ابراهيم الظاهري إلى أكل هريسة في بكرة نهار ، فدخلت فأحضرت لنا الهريسة ، فأكلنا فاذا شعرة قد جاءت على لقمة غفل عنها طباخه ، فاستدعى خادمه فأسر إليه شيئاً لم نعلمه ، فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة ، فكشف عن الصينية فاذا يد الطباخ مقطوعة تختلج ، فتكدر علينا عيشنا ، وقمنا من عنده ، ونحن لا نعقل . فيجب على المضيف أن يراعي خواطر أضيافه كيفما أمكن ، ولا يغضب على أحد بحضورهم ، ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه ، ولا يعبس بوجهه ، ولا يظهر نكدا ، ولا ينهر أحداً ، ولا يشتمه بحضرتهم ، بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن . كما حكى عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه ، وعمل لهم سماطاً ، وكان له ولد جميل الطلعة ، فكان الولد في أول النهار يخدم القوم ، ويأنسون به ففي آخر النهار صعد إلى السطح فسقط فمات لوقته ، فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ ، ولا تبكي إلى أن تصبح فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده فقال هو نائم ، فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم ان رأيتم أن تصلوا على ولدي فانه بالامس سقط من على السطح فمات لساعته فقالوا له لم لا أخبرتنا حين سألناك فقال ما ينبغي لعاقل أن ينغص على أضيافه في التذاذهم ، ولا يكدر عليهم في عيشهم ، فتعجبوا من صبره وتجلده ، ومكارم

---

(١) سورة هود الآية ٧١.

أخلاقه ، ثم صلوا على الغلام وحضروا دفنه ، وبكوا عليه وانصرفوا . وعلى المضيف أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه وتفقد غلمانهم بما يكفيهم ويسهل حجابه وقت الطعام ولا يمنع وارداً . وقيل لبعض الأمراء الكرام لا بأس بالحجاب ، لئلا يدخل من لا يعرفه الأمير ، ويحترز عن العدو . فقال : ان عدوا يأكل كل طعامنا ولا ينخدع لا يمكنه الله منا ، والأليق بالكريم الرئيس أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام ، فان ذلك أول الشناعة عليه ، وعليه أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيذ المحادثة وغريب الحكايات وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الطرف ان كان من أهل ذلك وأن يرى أضيافه مكان الخلاء . فقد قيل عن ملك الهند ، أنه قال : إذ ضافك أحد فأره الكنيف فاني ابتليت به مرة فوضعته في قلنسوتي . وقالوا لا بأس أن يدخل الرجل دار أخيه يستطعم للصداقة الوكيدة وقد قصد النبيﷺ والشيخان منزل الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الانصاري وكذلك كانت عادة السلف رضي الله تعالى عنهم . كان لعون بن عبد الله المسعودي ثلثمائة وستون صديقاً فكان يدور عليهم في السنة ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقة فيأكل وهو غائب فقد دخل رسول اللهﷺ دار بريرة رضي الله عنها فأكل كل طعامها وهي غائبة وكان الحسن رضي الله عنه يوماً عند بقال فجعل يأخذ من هذه الجونة تينة ، ومن هذه فستقة فيأكلها ، فقال له هشام ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع . فقال له يا لكع اتل عليّ آية الاكل فتلا . ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم إلى قوله أو صديقكم فقال : الصديق من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، وعلى المضيف الكريم ، أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعه عن ذلك قلة ما في يده بل يحضر إليهم ما وجد . فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة ، وحشف التمر ، ويقولون ما ندري أيهما أعظم وزراً ، الذي يحتقر ما قدم إليه ، أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه . وعن أنس رضي الله عنه عن النبيﷺ قال : « من ألقم اخاه لقمة حلوة صرف الله عنه مرارة الموقف » وحكي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه كان نازلاً ببغداد فكان الزعفرانيّ يكتب في كل رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية فأخذها الشافعي منها يوماً ، ولحق فيها لوناً آخر ، فعرف الزعفراني ذلك ، فأعتق الجارية سروراً بذلك وكانت سنة السلف رضي الله عنهم أن يقدموا جملة الالوان دفعة ، ليأكل كل شخص ما يشتهي . ومن السنة أن يشيّع المضيف الضيف إلى باب الدار ، وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينتظر من يحضر من عشيرته ، فقد قيل ثلاثة تضني سراج لا يضيء ، ورسول بطيء ، ومائدة ينتظر لها من يجيء . ونزل الامام الشافعي رضي الله عنه بالامام مالك رضي الله عنه فصبّ بنفسه الماء على يديه ، وقال له لا يرعك ، ما رأيت مني فخدمة الضيف على المضيف فرض .

قالت أما ترحل تبغي الغنى ... قلت فمن للطارق المعتم
قالت فهل عندك شيء له ... قلت نعم جهد الفتى المعدم
فكم وحق الله من ليلة ... قد أطعم الضيف ولم أطعم
إن الغنى بالنفس يا هذه ... ليس الغنى بالمال والدرهم

وقال بعض البخلاء :

سرى نحونا يبغي القرى طاوي الحشي ... لقد عملت فيه الظنون الكواذب
فبات له منا إلى الصبح شاتم ... يعدد تطفيل الضيوف وضارب

فشتان ما بين القائلين .

وأما آداب الضيف فهو أن يبادر إلى موافقة المضيف في أمور ، منها أكل الطعام ، ولا يعتذر بشبع ، بل يأكل كيف أمكن . فقد حكي أنه ورد على بعض الأعراب ضيف فدخل به إلى بيته وقدم له الطعام فقال الضيف لست بجائع . وإنما احتاج إلى مكان أبيت فيه . فقال الاعرابي إذا كان هذا عزمك فكن ضيف غيري فأني لا أرى أن تمدحني في البلاد وتهجوني فيما بيني وبينك . وحكي عن بعض التجار قال : استدعاني أبو حفص محمد بن القاسم الكرخي لأعرض عليه قماشاً من تجارتي ، فبينما أنا بين يديه ، وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرت فقمت من مجلسه فقال يا فلان ما هذا الخلق العامي اجلس فجلست وتحققت كرمه ، وجعلت آكل الكمثراة في لقمة ، والتفاحة في لقمة ، ثم قدم الطعام وكنت جائعاً فأكلت أكلاً جيداً ثم انصرفت فلم أشعر في اليوم الثاني إلا وقد جاءني غلامه ببغلته فاستدعاني إليه فقال لي يا فلان اني قليل الاكل ، بطيء الهضم ولقد طابت لي مؤاكلتك بالأمس فأريد أن لا تنقطع بعدها عني . قال فكنت متى انقطعت حضر غلامه في طلبي ، فحصل لي بقربي منه مال كثير ، وجاه عريض ، ومن آداب الضيف أيضاً أن لا يسأل صاحب المنزل عن شيء من داره سوى القبلة ، وموضع قضاء الحاجة ، وأن لا يتطلع إلى ناحية الحريم ، وأن لا يخالفه إذا أجلسه في مكان أكرمه به ، وأن لا يمتنع من غسل يديه ، وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها . فقد نقل في بعض المجاميع أن بعض الكرماء كان عربيداً على أضيافه سيء الخلق بهم ، فبلغ ذلك بعض الأذكياء فقال الذي يظهر لي من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف ، ولا بد أن أتطّفل عليه لأرى حقيقة أمره ، قال فقصدته وسلمت عليه فقال هل لك أن تكون ضيفي . قلت نعم فسار بين يديّ إلى أن جاء إلى باب داره فأذن لي فدخلت فأجلسني في صدر مجلسه فجلست حيث أجلسني ، وأعطاني مسنداً فاستندت إليه ، فأخرج لي شطرنجاً وقال أتتقن شيئاً قلت نعم . فلعبت معه فلما حضر الطعام جعل يقدم لي ما استطابه وأنا آكل ، فلما فرغنا قدم طستاً وإبريقاً وأراد أن يسكب الماء على يديّ فلم أمنعه من ذلك ، وأراد الخروج من بين يديّ بعد أن قدم نعلي فلم أرده عن ذلك فلما أراد الرجوع قلت يا سيدي أنشدك الله الا فرجت عني كربة . قال وما هي فأخبرته الخبر فقال والله ما يحوجني لذلك إلا سوء أدبهم ، يصل الضيف إلى داري فأجلسه في الصدر فيأبى ذلك ثم أقدم إليه الطعام فلا أتحفه بشيء مستظرف إلا ردّه عليّ . ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل ، ثم أريد أن أشيعه فلا يمكنني من ذلك فأقول في نفسي لا يحكم الانسان على نفسه حتى في بيته ، فعند ذلك أشتمه وألعنه . بل وأضربه وفي معنى ذلك يقول بعضهم :

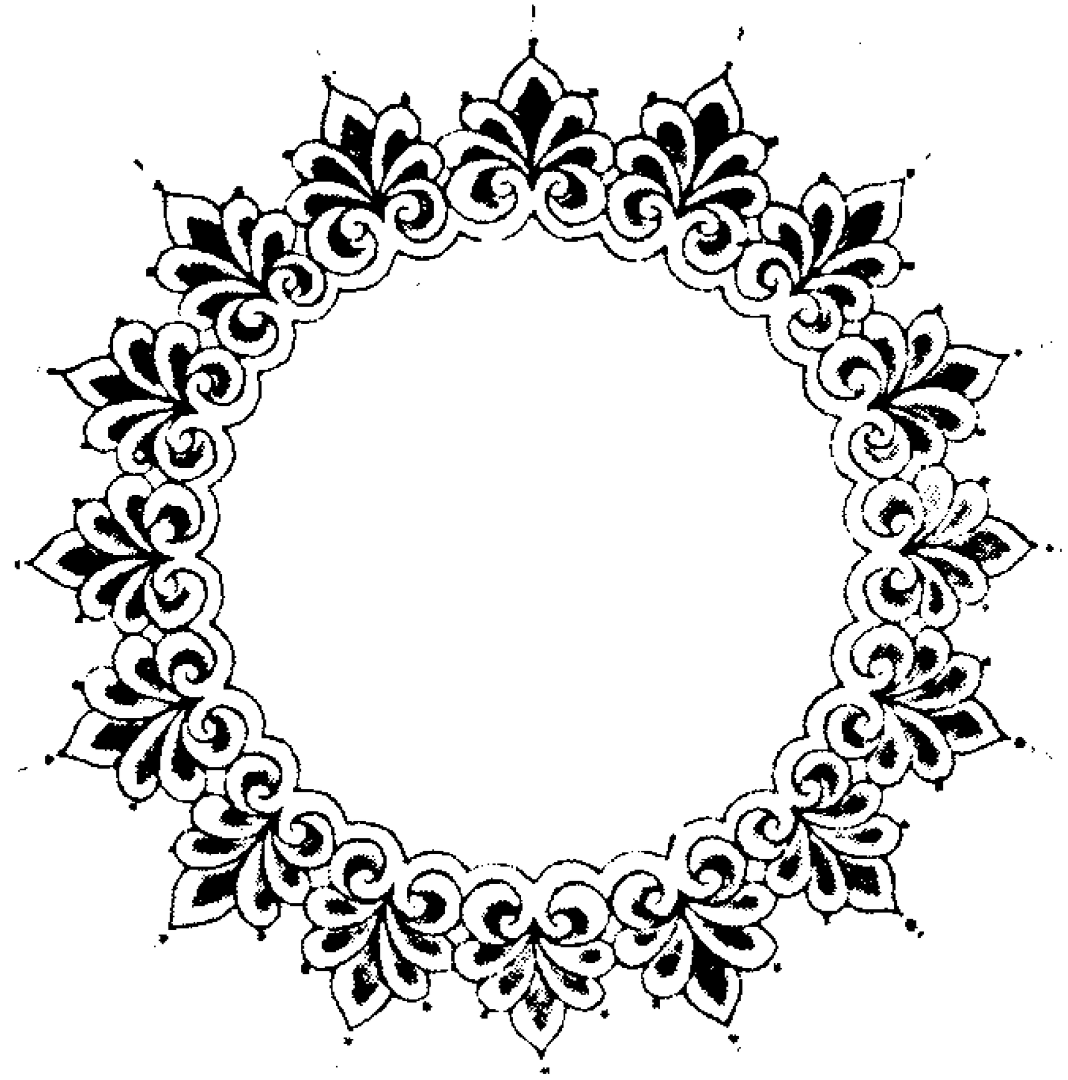
لا ينبغي للضيف أن يعترض ان كان ذا حزم وطبع لطيف
فالأمر للانسان في بيته إن شاء أن ينصف أو أن يحيف

ومما يعاب على الضيف أمور منها ، كثرة الأكل المفرط إلا أن يكون بدوياً فانها عادته . ومنها أن يتتبع طريق الشرهين كمن يتخذ معه خريطة مشمعة ، يقلب فيها الزبادي ، والامراق ، والحلوى وغير ذلك ، ومنها أن يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه أن يبكي وقت الانصراف من الطعام ، ليعطى على اسم ولده الصغير ، ومنها قبح المؤاكلة وقد عد فيها عيوب كثيرة فمنها ، المتشاوف ، والعداد ، والجراف ، والرشاف ، والنفاض ، والقراض ، والبهات ، واللتات ، والعوام ، والقسام ، والمخلل ، والمزبد ، والمرنخ ، والمرشش ، والمفتش ، والمنشف ، والملبب ، والصباغ ، والنفاخ ، والحامي ، والمجنح ، والشطرنجي ، والمهندس والمتمني والفضولي . فأما المتشاوف فهو الذي يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام فلا تراه إلا متطلعاً لناحية الباب يظن أن كل ما دخل هو

الطعام ، وأما العداد فهو الذي يستغرق في عد الزبادي ويعد على أصابعه ، ويشير إليها ، وينسى نفسه . والجراف هو الذي يجعل اللقم في جانب الزبدية ويجرف بها إلى الجانب الآخر . والرشاف هو الذي يجعل اللقمة في فيه ويرتشفها فيسمع لها حين البلع حس لا يخفى على جلسائه وهو يلتذ بذلك . والنفاض هو الذي يجعل اللقمة في فيه وينفض أصابعه في الزبدية . والقراض هو الذي يقرض اللقمة بأطراف أسنانه حتى يهذ بها ويضعها في الطعام بعد ذلك . والبهات هو الذي يبهت في وجوه الآكلين حتى يبهتهم ويأخذ اللحم من بين أيديهم . واللتات هو الذي يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها في الطعام . والعوام هو الذي يميل ذراعيه يمنة ويسرة لأخذ الزبادي ، والقسام هو الذي يأكل نصف اللقمةويعيد باقيها في الطعام من فيه . والمخلل هو الذي يخلل أسنانه بأظفاره . والمزبد هو الذي يحمل معه الطعام . والمرنخ هو الذي يرنخ اللقمة في الامراق فلا يبلغ الأولى ، حتى تلين الثانية . والمرشش هو الذي يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مؤاكليه . والمفتش هو الذي يفتش على اللحم بأصابعه ، والمنشف هو الذي ينشف يديه من الدهن باللقم ، ثم يأكلها . والملبب هو الذي يملأ الطعام لباباً . والصباغ هو الذي ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده . والنفاخ هو الذي ينفخ في الطعام . والحامي هو الذي يجعل اللحم بين يديه فيحميه عن مؤاكليه . والمجنح هو الذي يزاحم مؤاكليه بجناحيه حتى يفسح له في المجلس فلا يشق عليه الأكل . والشطرنجي هو الذي يرفع زبدية ، ويضع زبدية أخرى مكانها . والمهندس هو الذي يقول لمن يضع الزبادي ضع هذه هنا ، وهذه ههنا حتى يأتي قدامه ما يحب . والمتمني هو الذي يقول ليتني لم يكن معي من يأكل . والفضولي هو الذي يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام ، ان كان قد بقي عندك في القدور شيء فاطعم الناس فان فيهم من يأكل . ومن الأضياف من لا يلذ له حديث إلا وقت غسل يديه ، فيبقى الغلام واقفاً والابريق في يده ، والناس ينتظرونه ، ومنهم من يغسل يديه بالاشنان مرة واحدة ، فاذا اجتمع الوسخ والذفر تسوك بهما ، ومنهم من يدخل الدار فيبتدىء بالهندسة أولاً ، فيقول كان ينبغي أن يكون باب المجلس من ههنا ، والايوان كان ينبغي أن يكون ههنا . وينتقل من الهندسة إلى ترتيب المجلس ، فينقل الفاكهة من موضعها إلى موضع آخر ، وان كان قد استحكم جوعه استعفى من الطعام وذهل عن بقية الأضياف وشدة جوعهم . ومنهم من يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة فيتألم من انقطاعهم ، ويستوحش من غيبتهم ، ويسلطهم على عرض صاحبهم . ولقد حكي عن مغن غير مجيد أنه لم يبطل ولا ليلة واحدة وما ذاك إلا أنه كان إذا سئل أين كنت قال كنت عند الناس ، وإذا قيل له أين أكلت قال أكلت في بطني ، وإذا قيل له أين شربت قال شربت في فمي .

ومنهم من يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه اشتر كذا ، فيقول : والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشتري شيئاً . فأذوقه فيعجز صاحب المنزل ويخجله إذا لم يكن في بيته شيء موجود ، وليت شعري إذا كان لا يأكل فلأي شيء حضر ، ومنهم من يرى صاحب البيت قد أسر إلى صديقه فيقول ما الذي قال المولى لصاحبنا وهو لا يريد أن يعلمه . ومنهم من يستعجل صاحب المنزل بالأكل ، ويشكو الجوع ، ويظن أن ذلك بسط ومكارم أخلاق ، وانما ذلك يكون في بيته لا في بيوت الناس ، ومنهم من يقول لصاحب الدعوة من يغني لنا . فيقول فلان فيقول له غلطت لم لا دعوت فلاناً ، ومنهم من يسأل صاحب البيت كيف قوته في النكاح فيقول له أنا رجل كبير قد ضعفت قوتي وشهوتي ، أو يقول ما لي قوة طائلة في ذلك فيقول أنا والله كلما مرّ عليّ عام تزايدت شهوتي وكثر لهذا الفن تشوقي ، ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت . ومنهم من يشكو حاله مع أهل بيته ، ويذكر نفقته عليهن وكسوته لهن ، وكثرة أنعامه وإحسانه إليهن ، وما عليه زوجته من سوء الاخلاق ، وكبر النفس لتستقل زوجة

صاحب البيت ما هي فيه مع زوجها ، وربما كان ذلك سبباً لفراقها ، ومنهم من تعجبه نفسه ويستحسن لباسه ويستطيب رائحته ، وإذا سمع الغناء تواجد وأظهر الطرب وحرك رأسه ، ويقوم قائماً يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل ، بديع الحركات ، ويظن في نفسه أنه يعشق ، وأن رسول صاحبة البيت لا يبطيء عنه . ومنهم من يقال له العب الشطرنج فيأباه ، ويشتغل بالدندنة فيقع في الفضول . ومنهم من يتأمر على غلمان صاحب البيت ويهين أولاده ويظن أنه يدل عليهم ، ومنهم من يقول له صاحب البيت كُلْ فيقول : ما آكل إلا أنا ورفيقي . ومنهم من يسمع السائل على الباب فيتصدق عليه من صاحب البيت بغير إذنه ، أو يقول للسائل فتح الله عليك . ومنهم من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير اذنه ، ويقلده بذلك المنن ، واكثر الناس واقع في ذلك . نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه انه جواد كريم رؤوف رحيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب السادس والثلاثون

في العفو ، والحلم ، والصفح ، وكظم الغيظ ، والاعتذار ، وقبول المعذرة ، والعتاب ، وما أشبه ذلك

قد ندب الله عز وجل نبيهﷺ إلى الصفح والعفو بقوله تعالى : ﴿ **فاصفح الصفح الجميل** ﴾[1] قيل هو الرضا بلا عتاب وقال تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **ولمن صبر وغفر** ﴾[4] ﴿ **إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾[5] وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول اللهﷺ : « رأيت قصوراً مشرفة على الجنة ، فقلت يا جبريل لمن هذه قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثني رسول اللهﷺ إلى اليمن قال : « ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالعفو ، فلولا علمي بالله لظننت أنه يوصيني بترك الحدود » وقال الحسن بن أبي الحسن إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم ، فلا يقم إلا العافون عن الناس ، وتلا قوله تعالى : ﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾[6] وقال علي كرم الله وجهه : أولى الناس بالعفو أقدرهم على العفو به . وكان المأمون رحمه الله تعالى يحب العفو ويؤثره ويقول : لقد حبب إليّ العفو ، حتى إني أخاف أن لا أثاب عليه . وكان يقول لو علم أهل الجرائم لذتي في العفو لارتكبوها . وقال لو علم الناس حبي للعفو لما تقربوا إليّ إلّا بالجنايات . وقال علي كرم الله وجهه : إذا قدرت على عدوك ، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه . وقال رضي الله تعالى عنه : اقيلوا ذوي المروءات عثراتهم ، فما يعثر منهم عاثر ، إلا ويده بيدالله يرفعه *وقال رضي الله عنه : أن أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصار له على الجاهل . وقال : المنتصر لذة العفو يلحقها حمد العاقبة ، ولذة التشفي يلحقها ذم الندم ، وقال ابن المعتز : لا تشن وجه العفو بالتقريع به ، وقيل ما عفا عن الذنب من قرع به ، وقال رجل لرجل سبه : إياك اعني فقال له وعنك أعرض . وكان الأحنف رحمه الله تعالى : كثير العفو والحكم ، وكان يقول ما آذاني أحد إلا أخذت في أمره باحدى ثلاث : ان كان فوقي

---

(١) سورة الحجر الآية ٨٥ .
(٢) سورة الاعراف الآية ١٩٩ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١٣٤ .
(٤) سورة الشورى الآية ٤٣ .
(٥) سورة آل عمران الآية ١٨٦ .
(٦) سورة الشورى الآية ٤٠ .

عرفت له فضله ، وإن كان مثلي تفضلت عليه ، وان كان دوني أكرمت نفسي عنه . وكان مشهوراً بين الناس بالحلم وبذلك ساد عشيرته وكان يقول : وجدت الاحتمال أنصر من الرجال . وقيل له ممن تعلمت الحُلم فقال : من قيس بن عاصم كنا نختلف إليه في الحلم ، كما يختلف إليّ الفقهاء في الفقه ، ولقد حضرت عنده يوماً وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه ، فجاؤا به مكتوفاً فقال : ذعرتم أخي أطلقوه ، واحملوا إلى أم ولدي ديته ، فانها ليست من قومنا ، ثم انشأ يقول :

أقـول للنفس تـصبيـراً وتعـزيـة إحـدى يـديّ أصـابتني ولم تـرد
كـلاهما خلف من فقـد صاحبـه هـذا أخي حين أدعـوه وذا ولـدي

وقيل من عادة الكريم إذا قدر غفر ، وإذا رأى زلة ستر ، وقالوا ليس من عادة الكرام سرعة الغضب ، والانتقام . وقيل من انتقم فقد شفي غيظه ، وأخذ حقه ، فلم يجب شكره ولم يحمد في العالمين ذكره . والعرب تقول : لا سؤدد مع الانتقام ، والذي يجب على العاقل اذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته ، وان كان لا بدّ من الانتقام فليرفق في انتقامه إلا أن يكون حداً من حدود الله تعالى . وقال المنصور لجار عجز عن العذر ما هذا الوجوم وعهدي بك خطيباً لسنا . فقال يا أمير المؤمنين : ليس هذا موقف مباهاة ولكنه موقف توبة ، والتوبة بالاستكانة والخضوع ، فرقّ له ، وعفا عنه . وسعي إلى المنصور برجل من ولد الاشتر النخعي ذكر له عنه أنه يميل إلى بني علي ، والتعصب لهم . فأمر باحضاره فلما مثل بين يديه قال يا أمير المؤمنين ذنبي أعظم من نقمتك وعفوك أعظم من ذنبي ثم قال :

فهبني مسيئاً كـالـذي قلت ظـالـمـاً فعفواً جميلاً كي يكون لك الفضـل
فـان لم أكن للعفو منك لسوء مـا أتيت بـه اهلا فـأنت لـه أهـل

فعفا عنه ، وأمر له بصلة . وأحضر إلى المأمون رجل قد أذنب ذنباً . فقال له أنت الذي فعلت كذا وكذا قال نعم يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذي أسرف على نفسه واتكل على عفوك ، فعفا عنه وخلى سبيله . وأحضر إلى الهادي رجل من أصحاب عبد الله بن مالك فوبخه على ذنب . فقال يا أمير المؤمنين ان إقراري يلزمني ذنباً لم أفعله ، ويلحق بي جرماً لم أقف عليه ، وانكاري رد عليك ، ومعارضة لك ، ولكني أقول :

فـان كنت تبغي بـالعقـاب تشفيـا فلا تزهـدن عند التجاوز في الأجر

فقال لله درك من معتذر بحق أو باطل ، ما أمضى لسانك ، وأثبت جنانك . وعفا عنه وخلى سبيله . وركب يوماً عمرو بن العاص رضي الله عنه بغلة له شهباء ومرَّ على قوم . فقال بعضهم : من يقوم للأمير فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف فقال واحد منهم أنا فقام وأخذ بعنان بغلته وقال أصلح الله الأمير ، أنت أكرم الناس خيلاً فلم ركبت دابة اشهاب وجهها فقال اني لا أمل دابتي حتى تملني ، ولا أمل رفيقي حتى يملني . فقال أصلح الله الأمير أما العاص فقد عرفناه ، وعلمنا شرفه ، فمن الأم قال على الخبير سقطت أمي النابغة بنت حرملة بن عزة ، سبتها رماح العرب فأتى بها سوق عكاظ ، فبيعت فاشتراها عبد الله بن جدعان ، ووهبها للعاص بن وائل ، فولدت وانجبت ، فان كان قد جعل لك جعل ، فارجع وخذه وأرسل عنان الدابة . وقيل أن أمه كانت بغياً عند عبد الله بن جدعان فوطئها في طهر واحد أبو لهب ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، والعاص بن وائل فولدت عمراً فادعاه كلهم فحكمت فيه أمه فقالت للعاص ، لأن العاص هو الذي كان ينفق عليها ، وقالوا كان أشبه بأبي

سفيان . وكان الواثق يتشبه بالمأمون في أخلاقه وحلمه ، وكان يقال له المأمون الصغير ، نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال لست به . فقالت السلام عليك أيها الأمير فقال لها وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فقالت ليسعنا عدلكم فقال إذاً لا يبقى على وجه الأرض منكم أحد ، لأنكم حاربتم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه ، ومنعتم حقه وسمعتم الحسن رضي الله عنه ، ونقضتم شرطه وقتلت الحسين رضي الله عنه وسبيتم أهله ، ولعنتم علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منابركم وضربتم علي بن عبد الله ظلماً بسياطكم ، فعدلنا لا يبقي منكم أحداً . فقالت فليسعنا عفوكم قال أما هذا فنعم ، وأمر برد أموالها عليها وبالغ في الاحسان إليها . وكان معاوية رضي الله عنه يعرف بالحلم ، وله فيه أخبار مشهورة ، وآثار مذكورة ، وكان يقول أني لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي ، وذنب لا يسعه عفوي وحاجة لا يسعها جودي ، وهذه مروءة عالية المرتبة . وقال له رجل يوماً ما أشبه استك باست أمك . فقال ذاك الذي أعجب أبا سفيان منها . وكتب معاوية إلى عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه يعتذر إليه من شيء جرى بينهما . يقول من معاوية بن أبي سفيان إلى عقيل بن أبي طالب أما بعد ، يا بني عبد المطلب ، فأنتم والله فروع قصي ، ولباب عبد مناف ، وصفوة هاشم ، فأين أخلاقكم الراسية ، وعقولكم الكاسية ، وقد ، والله أساء أمير المؤمنين ما كان جرى ولن يعود لمثله ، إلى أن يغيب في الثرى . فكتب إليه عقيل يقول :

صدقت وقلت حقاً غير أني ... أرى أن لا أراك ولا تراني
ولست أقول سوءاً في صديقي ... ولكني أصد إذا جفاني

فركب إليه معاوية رضي الله عنه وناشده في الصفح عنه ، واستعطفه حتى رجع وحكي عنه رضي الله عنه أنه لما ولي الخلافة ، وانتظمت إليه الأمور ، وامتلأت منه الصدور ، وأذعن لأمره الجمهور ، وساعده في مراده القدر المقدور ، واستحضر ليلة خواص أصحابه وذاكرهم وقائع أيام صفين ، ومن كان يتولى كبر الكريهة من المعروفين ، فانهمكوا في القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى من كان يجتهد في ايقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض . فقالوا : امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدي كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة يا أصحاب علي تسمعهم كلاماً كالصوارم مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل ، والمدبر لأقبل ، والمسالم لحارب ، والفار لكرّ والمتزلزل لاستقر . فقال لهم معاوية رضي الله عنه أيكم يحفظ كلامها فقالوا كلنا نحفظه قال فما تشيرون علي فيها ، قالوا نشير بقتلها فانها أهل لذلك فقال لهم معاوية رضي الله عنه بئسما أشرتم به ، وقبحاً لما قلتم ، أتحسن أن يشتهر عني ، أنني بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها ، إني إذا للئيم . لا والله لا فعلت ذلك أبداً ثم دعا بكاتبه فكتب كتاباً إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إليّ الزرقاء بنت عدي مع نفر من عشريتها وفرسان من قومها ومهّد لها وطاء ليناً ، ومركباً ذلولا . فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأ عليها فقالت بعد قراءة الكتاب ما أنا بزائغة عن الطاعة ، فحملها في هودج ، وجعل غشاءه خزاً مبطناً ثم أحسن صحبتها فلما قدمت على معاوية قال لها مرحباً وأهلاً خير مقدم قدمه وافد ، كيف حالك يا خالة وكيف رأيت سيرك ، قالت خير مسير . فقال هل تعلمين لم بعثت إليك . قالت : لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه تعالى . قال ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين ، وأنت بين الصفوف وتوقدين نار الجرب وتحرضين على القتال قالت نعم قال فما حملك على ذلك . قالت يا أمير المؤمنين أنه قد مات الرأس وبتر الذنب والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعده الأمر . فقال : صدقت فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلت . قالت لا والله قال لله أبوك فلقد سمعتك تقولين أيها الناس إن المصباح لا يضيء في

الشمس ، وأن الكواكب لا تضيء مع القمر ، وأن البغل لا يسبق الفرس ، ولا يقطع الحديد إلاابالحديد .إلا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه ، ان الحق كان يطلب ضالة فأصابها فصبرا يا معشر المهاجرين والانصار فكأنكم وقد التأم شمل الشتات وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله فانه لا يستوي المحق والمبطل . أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون فالنزال النزال ، والصبر الصبر . ألا وإن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء ، والصبر خير الأمور عاقبة ، ائتوا الحرب غير ناكصين ، فهذا يوم له ما بعده ، يا زرقاء أليس هذا قولك وتحريضك قالت لقد كان ذلك قال لقد شاركت علياً في كل دم سفكه . فقالت أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك مثلك من يبشر بخير ويسر جليسه فقال معاوية :أو قد سرك ذلك قالت نعم والله لقد سرني قولك ،وأنىّ لي بتصديقه فقال لها معاوية : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إليّ من حبكم في حياته ، فاذكري حوائجك تقضى . فقالت يا أمير المؤمنين اني آليت على نفسي أن لا اسأل أحداً بعد علي حاجة . فقال قد أشار عليّ بعض من عرفك بقتلك ، فقالت لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته ، قال كلا بل نعفو عنك ونحسن إليك ونرعاك فقالت يا أمير المؤمنين ، كرم منك ، ومثلك من قدر فعفا ، وتجاوز عمن أساؤ وا ، وأعطى من غير مسألة . قال فأعطاها كسوة ودراهم ، وأقطعها ضيعة تغل لها في كل سنة عشرة آلاف درهم ، وأعادها إلى وطنها سالمة ، وكتب إلى والي الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها . وقيل كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أرض ، وكان له فيها عبيد يعملون فيها ، وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيديعملون فيها ، فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله بن الزبير . فكتب عبد الله كتاباً إلى معاوية يقول له فيه أما بعد يا معاوية ، ان عبيدك قد دخلوا في أرضي ، فانههم عن ذلك ،وإلا كان لي ولك شأن والسلام . فلما وقف معاوية على كتابه وقرأه دفعه إلى ولده يزيد ، فلما قرأه قال له معاوية يا بني ما ترى ، قال أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده ، وآخره عندك يأتوك برأسه فقال بل غيرذلك خير منه يا بنيّ ثم أخذ ورقة وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير يقول فيه : أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله ﷺ وساءني ما ساءه ، والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه ، نزلت عن أرضي فاضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد ، والأموال والسلام . فلما وقف عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما على كتاب معاوية رضي الله عنه كتب إليه . قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، ولا أعدمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام . فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد فلما قرأه تهلل وجهه وأسفر فقال له أبوه يا بني من عفا ساد ، ومن حلم عظم ، ومن تجاوز استمال إليه القلوب . فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدوار فداوه بمثل هذا الدواء . ولما دخل الفيل دمشق واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية في مكان مرتفع ينظر إليه ، فبينما هو كذلك إذ نظر في بعض الحجر من قصره رجلاً مع بعض حرمه . فأتى الحجرة ودق الباب فلم يكن من فتحه بدّ فوقعت عينه على الرجل فقال له : يا هذا في قصري ، وتحت جناحي تهتك حرمتي وأنك في قبضتي ، ما حملك على هذا . قال فبهت الرجل وقال حلمك أوقعني . فقال له معاوية فان عفوت عنك تسترها علي . قال نعم فعفا عنه ، وخلّى سبيله وهذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجاني وهو عروض قول الشاعر :

إذا مرضتم أتيناكم نعودكم ... وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

وحكي عن الربيع مولى الخليفة المنصور، قال: ما رأيت رجلاً أربط جأشاً، وأثبت جناناً من رجل سُعي به إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالاً لبني أمية فأمرني باحضاره فأحضرته إليه . فقال له المنصور : قد رفع الينا خبر الودائع والأموال التي عندك لبني أمية ، فاخرج لنا منها وأحضرها ولا تكتم منها شيئاً فقال يا أمير المؤمنين أنت وارث بني أمية ؟ قال لا ، قال أفوصي لهم في أموالهم ورباعهم[1] ؟ قال لا قال فما مسألتك عما في يدي من ذلك . قال فأطرق المنصور وتفكر ساعة ثم رفع رأسه وقال : إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها ، وأنا وكيل المسلمين في حقوقهم وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه فأجعله في بيت أموالهم . فقال يا أمير المؤمنين فتحتاج إلى إقامة بينة عادلة أن ما في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه ، فان بني أمية كانت لهم أموال غير أموال المسلمين . قال فاطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال يا ربيع ما أرى الشيخ إلا قد صدق ، وما يجب عليه شيء ، وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه . ثم قال هل لك من حاجة قال نعم : حاجتي يا أمير المؤمنين أن تجمع بيني ، وبين من سعى فيّ إليك ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، ما في يدي ، لبني أمية مال ، ولا وديعة ، ولكنني لما مثلت بين يديك وسألتني عما سألتني عنه قابلت بين هذا القول الذي ذكرته الآن ، وبين ذلك القول الذي ذكرته أولاً . فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة ، فقال يا ربيع اجمع بينه ، وبين من سعى به فجمعت بينهما . فلما رآه قال هذا غلامي اختلس لي ثلاثة آلاف دينار من مالي ، وأبق مني[2] ، وخاف من طلبي له فسعى بي عند أمير المؤمنين . قال فشدد المنصور على الغلام وخوّفه ، فأقر بأنه غلامه ، وأنه أخذ المال الذي ذكره وسعى به كذباً عليه ، وخوفاً من أن يقع في يده . فقال له المنصور سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه فقال قد عفوت عنه وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التي أخذها ، وثلاثة آلاف أخرى أدفعها إليه . فقال له المنصور ما على ما فعلت من مزيد . قال بلى يا أمير المؤمنين أن هذا كله لقليل في مقابلة كلامك لي ، وعفوك عني ، ثم انصرف . قال الربيع فكان المنصور يتعجب منه وكلما ذكره يقول : ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع . وغضب الرشيد على حميد الطوسي فدعا له بالنطع[3] والسيف فبكى ، فقال له ما يبكيك فقال والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بد منه ، وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط عليّ فضحك وعفى عنه وقال أن الكريم إذا خادعته انخدع . وأمر زياد بضرب عنق رجل فقال أيها الأمير : إن لي بك حرمة قال وما هي قال : ان أبي جارك بالبصرة . قال ومن أبوك قال يا مولاي أني نسيت اسم نفسي ، فكيف لا أنسى اسم أبي ، فرد زياد كمه على فمه وضحك وعفا عنه . وأمر الحجاج بقتل رجل فقال أسألك بالذي أنت غدا بين يديه أذل موقفاً مني بين يديك ، الا عفوت عني . فعفا عنه. ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث ، أتى رجل من بني تميم فقال : والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب ، ما أحسنت في العفو . فقال الحجاج أف لهذه الجيف ، أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا وعفا عنه ، وخلّى سبيله . وكان إبراهيم بن المهدي يقول : والله ما عفا عني المأمون تقرباً إلى الله تعالى ، ولا صلة للرب ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي . وسئل الفضل عن الفتوة فقال : لصفح عن عثرات الأخوان . وفي بعض الكتب

---

(١) الرباع : الفيصل الذي ينتج في فصل الربيع .

(٢) أبق : ذهب بلا خوف ولا كد ولا عمل أو استخفى ثم ذهب فهو آبق .

(٣) النطع : بساط من الاديم . ونطع لونه : تغيّر . وتنطّع بالكلام : غالى وتأنّق . وتنطّع في عمله : تحذّق .

المنزلة . إن كثرة العفو زيادة في العمر ، وأصله قوله تعالى : ﴿ **وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾[1] وقال يزيد بن مزيد أرسل إليّ الرشيد ليلاً يدعوني فأوجست منه خيفة فقال له : أنت القائل أنا ركن الدولة ، والثائر لها ، والضارب أعناق بغاتها ،لا أم لك أي ركن ، وأي ثائر أنت . قلت يا أمير المؤمنين ما قلت هذا إنما قلت أنا عبد الدولة ، والثائر لها فأطرق وجعل ينحل غضبه عن وجهه ، ثم ضحك فقلت أحسن من هذا قولي :

خـلافـة الله في هـارون ثـابـتـة وفي بنيـه إلى أن ينفـخ الـصـور

فقال يا فضل أعطه مائتي ألف درهم قبل أن يصبح . وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل فقال ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذي يستضاء به ، فأتعلق بأطواقك . وأقول أي رب سل مصعباً لم قتلني فقال : اطلقوه ، فلما أطلقوه قال أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض عيش قال قد أمرت لك بمائة ألف درهم فقال :

أنـا المذنب والخـطاء والعفـو واسـع ولـو لم يكن ذنب لما عـرف العفـو

وتغيظ عبد الملك بن مروان على رجل فقال : والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا ، فلما صار بين يديه قال له رجاء بن حيوة : يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت فاصنع ما أحب الله فعفا عنه ، وأمر له بصلة . وقال الحسن ان افضل رداء تردى به الإنسان الحلم ، وهو والله عليك أحسن من برد الحبر ، وفيه قال أبو تمام :

رفيق حـواشي الحلم لـو أن حلمـه يكفيك ما ماريت[2] في أنه بـرد[3]

ويقال الحليم عليم ، والسفيه كليم ، وقال محمد بن عجلان : ما شيء أشد على الشيطان من عالم معه حلم ، ان تكلم ، تكلم بعلم ، وان سكت سكت بحلم يقول الشيطان سكوته عليّ أشد من كلامه :

إذا كنت تبغي شيمـة غـير شيمـة طبعت عليهـا لم تـطعـك الضـرائب

وعن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما : أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب . وفي التوراة اذكرني إذا غضبت . اذكرك إذا غضبت . فلا أمحقك فيما أمحق،وإذا ظلمت فاصبر وارض بنصرتي ، فان نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك . وكان ابن عون إذا غضب على انسان قال له بارك الله فيك ، وكانت له ناقة كريمة فضربها الغلام فاندر عينها ، فقالوا إن غضب ابن عون فإنه يغضب اليوم . فقال للغلام غفر الله لك . وقال رجل لرسول الله ﷺ أي شيء أشد. قال غضب الله قال فما يباعدني من غضب الله . قال أن لا تغضب ، ويقال من أطاع الغضب ، أطاع الأرب ، قال أبو العتاهية :

ولم أر في الاعـداء حـين اختبـرتهم عـدو العقـل أعـدى من الغضب

وقال أبو هريرة رضي الله عنه ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب . وقال

---

(١) سورة الرعد الآية ١٧.

(٢) مار : خادع .

(٣) البرد : أثواب مخططة .

ابن مسعود رضي الله عنه : كفى بالمرء إثماً أن يقال له اتق الله فيغضب ويقول عليك نفسك . وكتب عمر بن العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله : أن لا تعاقب عند غضبك ، وإذا غضبت على رجل فاحبسه ، فاذا سكن غضبك فاخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً . قيل لابن المبارك رحمه الله تعالى اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة . قال : ترك الغضب . وقال المعتمر بن سليمان : كان رجل ممن كان قبلكم يغضب ، ويشتد غضبه ، فكتب ثلاث صحائف ، فأعطى كل صحيفة رجلاً ، وقال للأول إذا اشتد غضبي فقم إليّ بهذه الصحيفة ، وناولنيها . وقال للثاني إذا سكن بعض غضبي فناولنيها ، وقال للثالث إذا ذهب غضبي فناولنيها. وكان في الأولى أقصر ، فما أنت وهذا الغضب ، أنك لست بالاه ، انما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً . وفي الثانية أرحم من في الارض ، يرحمك من في السماء . وفي الثالثة احمل عباد الله على كتاب الله فأنه لا يصلحهم إلا ذاك . روي أنه أنو شروان. وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت :

ليست الأحلام في حال الرضا   انما الأحلام في حال الغضب

وعن معاذ بن جبل عن أنس رضي الله عنهما عن النبيﷺ : « من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء » وروي ملأه الله أمناً وايماناً . وقال ابن السماك: أذنب غلام لامرأة من قريش، فأخذت السوط ومضت خلفه حتى إذا قاربته رمت بالسوط وقالت: ما تركت التقوى احداً يشفي غيظه . وقال أبو ذر لغلامه لم أرسلت الشاة على علف الفرس قال أردت أن أغيظك قال لأجمعن مع الغيظ أجراً أنت حر لوجه الله تعالى . واستأذن رهط من اليهود على رسول اللهﷺ فأذن لهم ، فقالوا : السام عليك يا محمد فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها ، بل السام عليكم : واللعنة، فقال: يا عائشة ان الله يحب الرفق في الأمر كله فقالت ألم تسمع ما قالوا: قال قد قلت وعليكم . ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابي يقال له حمزة، سرق، وقامت عليه البيّنة. فهم عبد الملك بقطع يده فكتب إليه حمزة من السجن يقول :

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها   بعفوك أن تلقى مقاما يشينها
فلا خير في الدنيا وكانت خبيثة   إذا ما شمال فارقتها يمينها

قال فأبى عبد الملك إلا قطعه ، فدخلت عليه أم حمزة . وقالت يا أمير المؤمنين بنيّ وكاسبي وواحدي . فقال لها عبد الملك بئس الكاسب لك ، هذا حد من حدود الله تعالى . فقالت يا أمير المؤمنين فاجعله أحد ذنوبك التي تستغفر الله منها ، فقال عبد الملك ادفعوه اليها وخلّى سبيله .

إذا ما طاش حلمك عن عدو   وهان عليك هجران الصديق
فلست إذاً أخا العفو وصفح   ولا لأخ على عهد وثيق
إذا زل الرفيق وأنت ممن   بلا رفق بقيت بلا رفيق
إذا أنت اتخذت أخا جديداً   لما أنكرت من خلق عتيق
فما تدري لعلك مستجير   من الرمضاء فرّ إلى الحريق
فكم من سالك لطريق أمن   أتاه ما يحاذر في الطريق

وشتم رجل رجلاً . فقال له يا هذا لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعاً فأني أبيت مشاتمة الرجال صغيراً ، فلن اجيئها كبيراً ، وأني لا أكافيء من عصى الله فيّ بأكثر من أن أطيع الله فيه .

وحكي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أن غلاماً وقف يصب الماء على يديه فوقع الابريق من يد الغلام في الطست ، فطار الرشاش في وجهه فنظر جعفر إليه نظر مغضب فقال يا مولاي والكاظمين الغيظ، قال قد كظمت غيظي ،قال والعافين عن الناس .قال قد عفوت عنك ،قال والله يحب المحسنين، قال اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى . وقيل لما قدم نصر بن منيع بين يديّ الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه قال يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمات أقولها، قال: قل فأنشأ يقول :

زعموا بأن الصقر صادف مرة عصفور برّ ساقه التقدير
فتكلم العصفور تحت جناحه والصقر منقض عليه يطير
اني لمثلك لا أتمم لقمة ولئن شويت فانني لحقير
فتهاون الصقر المدل بصيده كرماً وأفلت ذلك العصفور

قال فعفا عنه ، وخلّى سبيله . قال الشاعر :

أقرر بذنبك ثم أطلب تجاوزهم عنه فان جحود الذنب ذنبان

وقال بعضهم :

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف وتاب عما قد جناه واقترف
لقوله قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

وقال آخر :

إذا ذكرت أياديك التي سلفت مع قبح فعلي وزلاتي ومجترمي
أكاد أقتل نفسي ثم يدركني علمي بأنك مجبول على الكرم

وروي أن عمر رضي الله عنه رأى سكران فأراد أن يأخذه ليعزره . فشتمه السكران فرجع عنه فقيل له يا أمير المؤمنين لمّا شتمك تركته . قال : إنما تركته لأنه اغضبني ، فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسي ، فلا أحب أن أضرب مسلماً لحمية نفسي .

وغضب المنصور على رجل من الكتاب فأمر بضرب عنقه فأنشأ يقول :

وأنّا الكاتبونا وان أسأنا فهبنا للكرام الكاتبينا

فعفا عنه وخلّى سبيله وأكرمه . وقال الرشيد لأعرابي بم بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة . قال : بحلمه عن سفيهنا ، وعفوه عن مسيئنا ، وحمله عن ضعيفنا ، لا منان إذا وهب ، ولا حقود إذا غضب ، رحب الجنان ، سمح الْبنان ، ماضي اللسان . قال فأومأ الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه وقال : والله لو كانت هذه في هذا الكلب لاستحق بها السؤدد[1]* وقيل لمعن بن زائدة المؤاخذة بالذنب من السؤدد قال : لا ولكن أحسن ما يكون الصفح عمن عظم أرمه ، وقلّ شفعاؤه ، ولم يجد ناصراً . وقال محمود الوراق :

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب وان عظمت منه عليّ الجرائم

---

١) السؤدد : المجد والرفعة .

فما الناس إلا واحداً من ثلاثة شريف ، ومشروف ، ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فاعرف قدره وأتبع فيه الحق ، والحق لازم
وأما الذي دوني فان قال صنت عن اجابته نفسي ، وان لام لائم
وأما الذي مثلي فان زل ، أو هفا تفضلت ، إنَّ الحرّ بالفضل حاكم

وقال الأحنف بن قيس لابنه يا بني ، إذا أردت أن تؤاخي رجلاً ، فاغضبه فان أنصفك ، وإلافاحذره. قال الشاعر :

إذا كنت مختصاً لنفسك صاحباً فمن قبل أن تلقاه بالود أغضبه
فأن كان في حال القطيعة منصفاً وإلا فقد جربته فتجنبه

ومن أمثال العرب : احلم تسد . قال الشاعر :

لن يبلغ المجد أقوامٌ وان شرفوا حتى يذلوا ، وان عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان مسفرة لا صفح ذلّ ولكن صفح اكرام

وقال آخر :

وجهل رددناه بفضل حلومنا ولو أنّنا شئنا رددناه بالجهل

وقال الاحنف : اياكم ورأي الاوغاد قالوا وما رأي الأوغاد قال الذين يرون الصفح والعفو عاراً . وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه لاسبنك سباً يدخل معك قبرك . فقال معك والله يدخل لا معي . وقيل إن الاحنف سبه رجل وهو يماشيه في الطريق فلما قرب من المنزل وقف الاحنف وقال له: يا هذا ان كان قد بقي معك شيء فهات وقله ههنا فاني أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك ، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا . وقال لقمان لابنه يا بني ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة ، لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير :

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا(٢) أصبت حليماً أو أصابك جاهل

وقال آخر :

وإذا بغى باغ عليك بجهله فاقتله بالمعروف لا بالمنكر

وقال آخر :

قل ما بدا لك من صدق ومن كذب حلمي أصم وأذني غير صماء

ويروى في بعض الأخبار أن ملكاً من الملوك أمر أن يصنع له طعام ، وأحضر قوماً من خاصته ، فلما مدّ السماط أقبل الخادم ، وعلى كفه صحن فيه طعام . فلما قرب من الملك أدركته الهيبة ، فعثر فوقع من مرق الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك ، فأمر بضرب عنقه . فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك فقال له : ويحك ما هذا؟ فقال أيها الملك انما صنعت هذا شحاً على

---

(١) الخنا : الفحش .

عرضك ، وغيرة عليك لئلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبي الذي به تقتلني ، قتله في ذنب خفيف فلم يضره وأخطأ فيه العبد ولم يقصده ، فتنسب إلى الظلم والجور ، فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر في قتلي ، وترفع عنك الملامة . قال فأطرق الملك ملياً ثم رفع رأسه إليه وقال : يا قبيح الفعل يا حسن الاعتذار ، قد وهبنا قبيح فعلك ، وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك ، اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى .

وحكي عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه ، والمشهور في الآفاق بعفوه وحلمه ، أنه لما خرج عمه ابراهيم بن المهدي عليه وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون . وكان المأمون إذ ذاك بخراسان ، فلما بلغه الخبر قصد العراق ، فلما بلغ بغداد اختفى ابراهيم بن المهدي ، وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون ، ولم يزل المأمون متطلباً لابراهيم حتى أخذه وهو متنقب مع نسوة . فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدي المأمون فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال المأمون لا سلم الله عليك ، ولا قرب دارك . استغواك الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام ، فقال ابراهيم مهلاً يا أمير المؤمنين : فان ولي الثأر محكم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة ، وعدل السياسة ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، كما جعل كل ذي ذنب دونك . فان اخذت فبحقك ، وان عفوت فبفضلك ، والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال هذه الأبيات :

ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا فاصفح بعفوك عنه
ان لم أكن في فعالي من الكرام فكنه

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال : يا إبراهيم الندم توبة ، وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول ، وأكثر مما تأمل ، ولقد حبب إليّ العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه ، لا تثريب عليك اليوم ثم أمر بفك قيوده ، وادخاله الحمام ، وازالة شعثه ، وخلع عليه ورد أمواله جميعها اليه فقال فيه مخاطباً :

رددت مالي ولم تبخل عليّ به   وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
فان جحدتك ما أوليت من كرم   اني لباللوم أولى منك بالكرم

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكري فقال له عباد : أيها الأمير انشدك الله أن لا تقتلني ، فوالله اني لأعول أربعاً وعشرين امرأة . ما لهن كاسب غيري ، فرق لهن واستحضرهن ، واذا واحدة منهن كالبدر . فقال لها الحجاج ما أنت منه ، قالت : أنا بنته فاسمع يا حجاج مني ما أقول ثم قالت :

أحجاج إما أن تمن بتركه   علينا ، واما أن تقتلنا معا
أحجاج لا تفجع به أن قتلته   ثماناً وعشرا واثنتين وأربعا
أحجاج لا تترك عليه بناته   وخالاته يندبنه الدهر أجمعا

فبكي الحجاج ، ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة . ولما قدم عيينة بن الحصن على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه ، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً ، كانوا أو شباناً ، فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي ، لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي

عليه فاستأذن ، فأذن له عمر . فلما دخل قال هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم فينا بالعدل . فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر يا أمير المؤمنين ان الله سبحانه وتعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾[1] وان هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى .

وحكي أن رجلاً زوّر ورقة عن خط الفضل بن الربيع ، تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ، ثم جاء بها إلى وكيل الفضل ، فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل ، فشرع في أن يزن له الألف دينار ، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمر مهم . فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل ، وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها ، ثم نظر في وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل ، فأطرق الفضل بوجهه ثم قال للوكيل أتدري لم أتيتك في هذا الوقت قال لا ، قال : جئت لاستنهضك حتى تعجل هذا الرجل اعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة . فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحير في أمره . فالتفت اليه الفضل وقال له : طب نفساً وامض إلى سبيلك آمناً على نفسك فقبل الرجل يده وقال له سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة ، ثم اخذ المال ومضى . فيجب على الإنسان أن يتأسى بهذه الأخلاق الجميلة ، والافعال الجليلة ، ويقتفي سنة نبيه عليه الصلاة والسلام . فقد كان أكثر الناس حلماً ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم خلقاً ، وأكثرهم تجاوزاً وصفحاً ، وأبرهم للمقتر عليه نجحاﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين وأما ما جاء في العتاب فقد قيل العتاب خير من الحقد ، ولا يكون العتاب إلا على زلة ، وقد مدحه قوم فقالوا العتاب حدائق المتحابين ، ودليل على بقاء المودة ، وقد قال أبو الحسن بن منقذ :

أسطو عليه وقلبي لو تمكن من ... يدي غلها غيظاً إلى عنقي
وستعير له من سطوتي حنقاً ... وأين ذل الهوى من عزة الحنق

وذمه بعضهم ، قال اياس بن معاوية : وخرجت في سفر ، ومعي رجل من الاعراب ، فلما كان في بعض المناهل لقيه ابن عم له فتعانقا ، وتعاتبا وإلى جانبهما شيخ من الحي . فقال لهما : أنعما عيشاً ، ان المعاتبة تبعث التجني ، والتجني يبعث المخاصمة ، والمخاصمة تبعث العداوة ، ولا خير في شيء ثمرته العداوة قال الشاعر :

فدع ذكر العتاب فرب شر ... طويل هاج أوله العتاب

وقيل العتاب من حركات الشوق ، وإنما يكون هذا بين المتحابين قال الشاعر :

علامة ما بين المحبين في الهوى ... عتابهم في كل حق وباطل

وكتب بعضهم ، يعاتب صديقه على تغير حاله معه يقول :

عرضنا أنفسنا فعزت علينا ... عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا رفعناها لعزت ... ولكن كل معروض مهان

وقال آخر يعاتب صديقه :

وكنت إذا ما جئت أدنيت مجلسي ... ووجهك من البشاشة يقطر

---

(١) سورة الاعراف الآية ١٩٩.

فمن لي بـالعـين التي كـنت مـرة　　إليّ بهـا في سـالف الـدهـر تنـظر

وقال أبو الحسن بن منقذ :

أخـلاقـك الغـرّ السجـايـا ، مـالهـا　　حملت قـذى الواشـين وهي سـلاف
ومـرآة رأيـك في عبيـدك مـالهـا　　صـدئت وأنت الجـوهـر الشفـاف

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه حط عليه :

إقـرأ كتـابـك ، واعتبـره قـريبـاً　　فكفى بنفسـك لي عليك حسيبـاً
أكـذا يكون خـطاب إخوان الصفـا　　إن أرسلوا جعلوا الخطاب خطوباً
مـا كـان عـذري إن أجبت بمثله　　أو كنت بـالعتب العنيف مجيبـاً
لـكنـني خـفـت انتـقـاص مـودتي　　فـيعـد إحسـاني إليـك ذنـوبـاً

وقال آخر :

أراك إذا مـا قلت قـولاً قبلتـه　　ولـيس لأقـوالي لـديـك قـبـول
ومـا ذاك إلا أن ظـنـك سـيء　　بـأهـل الـوفـا والـظن فيك جميـل
فكن قـائـلاً قـول الحماسي تـائهـاً　　بنفسـك عجبـاً وهـو منك قليـل
وننكـر إن شئنا عـلى النـاس قـولهم　　ولا ينكـرون القـول حـين نقـول

كان لمحمد بن الحسن بن سهل ، صديق فنالته إضاقة ثم ولي عملاً فأثرى فقصده محمد مسلماً، فرأى منه تغيراً فكتب إليه :

لئن كـانت الـدنيـا أنـالتـك ثـروة　　فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقـد كشف الإثـراء منك خـلائقـاً　　من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وقال آخر في المعنى :

دعـوت الله أن تـسمـو وتـعـلو　　عـلوّ الـنـجم في أفـق الـسـماء
فـلما أن سمـوت بـعـدت عـني　　فـكـان إذا عـلى نفسي دعـائي

وكان ابن عرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان ، وكان له مكرماً ، وابن عرادة يتجنى عليه ففارقه وصاحب غيره ثم ندم ورجع إليه وقال :

عـتبـت عـلى سلم فلما فـقـدتـه　　وصـاحبت أقوامـاً بكيت عـلى سلم
رجعت إليـه بعـد تجـريب غيـره　　فكـان كبرء بعـد طـول من السقم

وقال مسلم بن الوليد :

ويـرجعـني إلـيـك إذا نـأت بي　　ديـاري عنـك تجـربـة الـرجـال

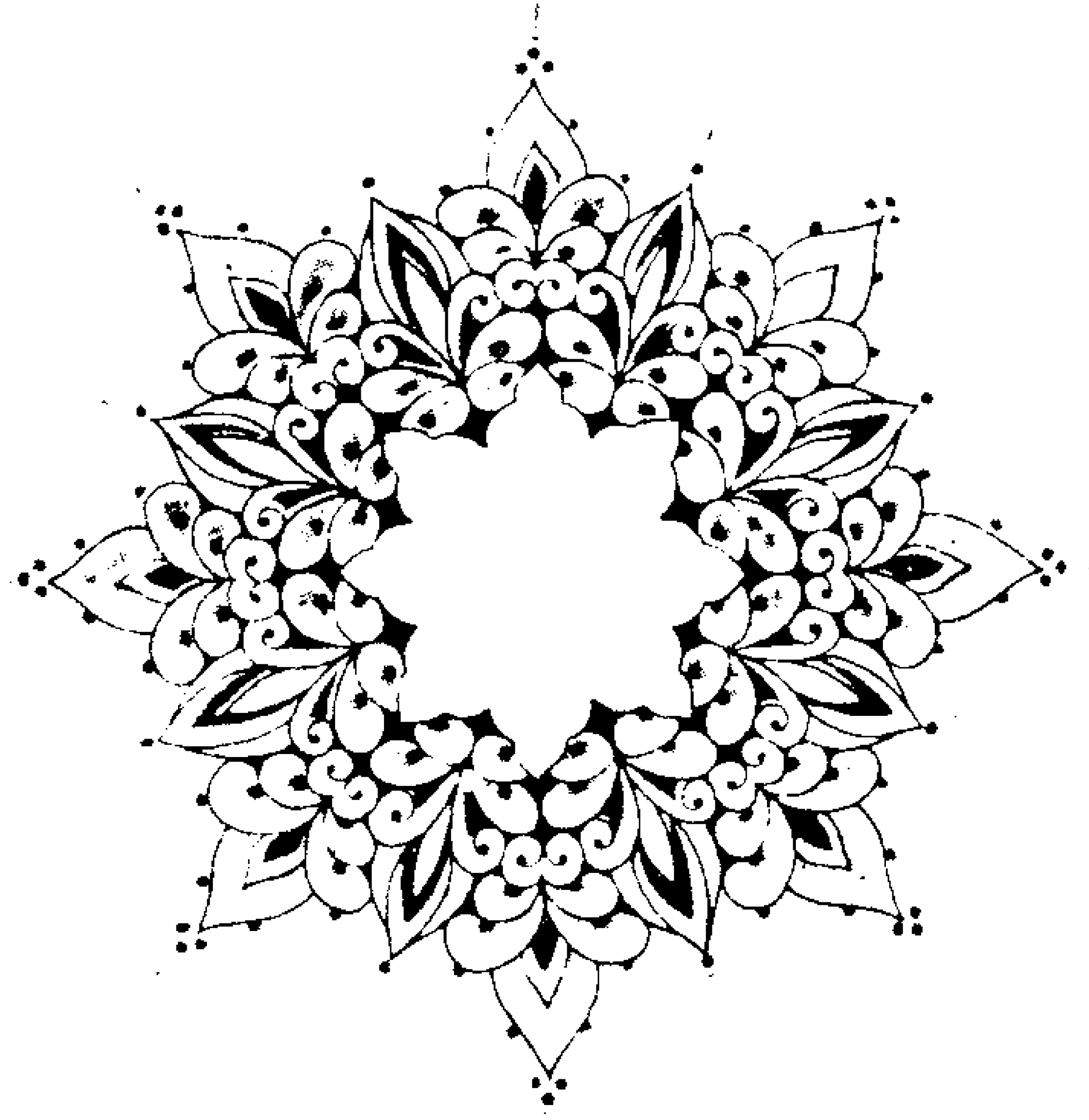
وقال أبو الحسن القابسي :

إذا أنـا عـاتـبـت المـلوم فـإنمـا　　أخط بـأقـلامي عـلى المـاء أحـرفـاً
وهبـه ارعوى بعـد العتاب ألم تكن　　مـودتـه طبعـاً فصـارت تكـلفـاً

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : معاتبة الصديق أهون من فقده . وما أحسن ما قيل في العتاب :

وفي العتاب حياة بين أقوام وهو المحك لدى لبس وإيهام

فما ثم شيء أحسن من معاتبة الأحباب ، ولا ألذ من مخاطبة ذوي الألباب ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب السابع والثلاثون

في الوفاء بالوعد ، وحفظ العهد ، ورعاية الذمم

أرجح دليل يتمسك به الإنسان كتاب الله تعالى ، الذي من تمسك به هداه ، ومن استدل به أرشده هداه ، قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾(١) وقال جل ذكره وتقدس اسمه : ﴿ **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** ﴾(٢)وقال جلّ وعلا: ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلاً** ﴾(٤) والآيات في ذلك كثيرة ومن أشدها قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون*كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾(٥).وروي في صحيحيّ البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » . فالوفاء من شيم النفوس الشريفة ، والأخلاق الكريمة ، والخلال الحميدة ، يعظم صاحبه في العيون ، وتصدق فيه خطرات الظنون » ويقال : الوعد وجه، والإنجاز محاسنه ، والوعد سحابة ، والإنجاز مطره . وقال عمر بن الخطاب رضي الله :عنه لكل شيء رأس ، ورأس المعروف تعجيله وأنشدوا :

إذا قلت في شيء نعم فأتمه ... فإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا ، تسترح وترح بها ... لئلا تقول الناس إنك كاذب

وقال آخر :

لا كلف الله نفساً فوق طاقتها ... ولا تجود يد إلا بما تجد
فلا تعد عدة إلا وفيت بها ... واحذر خلاف مقال للذي تعد

وقال أعرابي : وعد الكريم نقد وتعجيل . ووعد اللئيم مطل وتعليل . وقال أعرابي أيضاً : العذر

---

(١) سورة المائدة الآية ١ .
(٢) سورة الرعد الآية ٢٠ .
(٣) سورة النحل الآية ٩١.
(٤) سورة الاسراء الآية ٣٤ .
(٥) سورة الصف الآية ٢و٣.

الجميل خير من المطل الطويل . ومدح بشار خالد بن برمك فأمر له بعشرين ألفاً ، فأبطأت عليه فقال لقائده أقمني حيث يمر فأقامه ، فمر فأخذ بلجام بغلته وأنشأ يقول :

أظلت علينا منك يوماً سحابة أضاء لها برق وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يجلي فييأس طامع ولا غيثها يأتي فتروي عطاشها

فقال لا نبرح حتى تؤتي بها وقال صالح اللخمي :

لئن جمع الآفات فالبخل شرها وشر من البخل المواعيد والمطل
ولا خير في وعد إذا كان كاذباً ولا خير في قول إذا لم يكن فعل

وقيل ماتت للهذلي أم ولد ، فأمر المنصور الربيع أن يعزيه ويقول له : إن امير المؤمنين موجه إليك جارية نفيسة لها أدب وظرف ، يسليك بها ، وأمر لك معها بفرس ، وكسوة ، وصلة . فلم يزل الهذلي يتوقع وعد أمير المؤمنين . ونسيه المنصور فحج المنصور ومعه الهذلي فقال المنصور وهو بالمدينة . إني أحب أن أطوف الليلة المدينة ، فأطلب لي من يطوف بي . فقال الهذلي أنا لها يا أمير المؤمنين فطاف به حتى وصل بيت عاتكة فقال يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص :

يا بيت عاتكة الذي أتغزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدود وإنني قسماً إليك مع الصدود لأميل

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه ، فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فإذا فيها :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فذكر المنصور الوعد الذي كان وعد به الهذلي فأنجزه له واعتذر إليه وقال الشاعر :

تعجيل وعد المرء أكرومة تنشر عنه أطيب الذكر
والحر لا يمطل معروفه ولا يليق المطل بالحر

وقال آخر :

ولقد وعدت وأنت أكرم واعد لا خير في وعد بغير تمام
أنعم عليّ، بما وعدت تكرماً فالمطل يذهب بهجة الأنعام

وقال آخر :

لعبدك وعد قد تقدم ذكره فأوله حمد ، وآخره شكر
وقد جمعت فيك المكارم كلها فما لك عن تأخير مكرمة عذر

وقال آخر :

وميعاد الكريم عليه دين فلا تزد الكريم على السلام
يذكره سلامك ما عليه ويغنيك السلام عن الكلام

وقال آخر :

شكاك لساني ثم أمسكت نصفه فنصف لساني بامتداحك ينطق
فإن لم تنجز ما وعدت تركتني وباقي لساني بالمذمة مطلق

وقال آخر :

باتت لوعدك عيني غير راقدة والليل حي الدياجي منبت السحر
هذا وقد بت من وعد على ثقة فكيف لو بت من هجر على حذر

وقال آخر :

نذكر بالرقاع إذا نسينا ويأبى الله أن تنسى الكرام

وأما الوفاء بالعهد ورعاية الذمم : فقد نقل فيه من عجائب الوقائع ، وغرائب البدائع ، ما يطرب السماع ، ويشنف المسامع ، كقضية الطائي وشريك نديم النعمان بن المنذر . وتلخيص معناها أن النعمان كان قد جعل له يومين ، يوم بؤس ، من صادفه فيه قتله وأرداه ، ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه ، وكان هذا الطائي قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره ، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد شيئاً لصبيته وصغاره . فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان في يوم بؤسه ، فلما رآه الطائي علم أنه مقتول ، وأن دمه مطلوب . فقال حيا الله الملك إن لي صبية صغاراً ، وأهلاً جياعاً ، وقد أرقت ماء وجهي في حصول شيء من البلغة لهم ، وقد أقدمني سوء الحظ على الملك في هذا اليوم العبوس ، وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا تلف من الطوى ولن يتفاوت الحال في قتلي بين أول النهار وآخره ، فإن رأى الملك أن يأذن لي في أن أوصل إليهم هذا القوت ، وأوصي بهم أهل المروءة من الحي ، لئلا يهلكوا ضياعاً ، ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسي لنفاد أمره . فلما سمع النعمان صورة مقاله ، وفهم حقيقة حاله ، ورأى تلهفه على ضياع أطفاله ، رقّ له ورثى لحاله ، غير أنّه قال : له لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا ، فإن لم ترجع قتلناه ، وكان شريك بن عدي ابن شرحبيل نديم النعمان معه ، فالتفت الطائي إلى شريك وقال له :

يا شريك بن عدي ما من الموت انهزام
من لأطفال ضعاف عدموا طعم الطعام
بين جوع وانتظار وافتقار وسقام
يا أخا كل كريم أنت من قوم كرام
يا أخا النعمان جد لي بضمان والتزام
ولك الله بأني راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدي أصلح الله الملك ، عليّ ضمانة ، فمر الطائي مسرعاً ، وصار النعمان يقول لشريك : إن صدر النهار قد ولى ، ولم يرجع . وشريك يقول : ليس للملك عليّ سبيل حتى يأتي المساء ، فلما قرب المساء قال النعمان لشريك قد جاء وقتك ، قم فتأهب للقتل . فقال شريك هذا شخص قد لاح مقبلاً ، وأرجو أن يكون الطائي ، فإن لم يكن فأمر الملك ممتثل . قال فبينما هم كذلك ، وإذا بالطائي قد اشتد عدوه في سيره مسرعاً حتى وصل . فقال خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي . ثم وقف قائماً وقال أيها الملك مر

بأمرك . فأطرق النعمان ، ثم رفع رأسه وقال : والله ما رأيت أعجب منكما ، أما أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقاماً يقول فيه ، ولا ذكراً يفتخر به . وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء ، فلا أكون أنا الأم الثلاثة ، ألا وأني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس ، ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائي ، وكرم شريك . فقال الطائي :

ولقـد دعتـني للخـلاف عشيـرتي   فعـددت قـولهمـو ومن الأضـلال
إني امـرؤ مـني الـوفـاء سجيـة   وفعـال كـل مهـذب مفضـال

فقال له النعمان ما حملك على الوفاء ، وفيه إتلاف نفسك ، فقال ديني ، فمن لا وفاء فيه لا دين له . فأحسن إليه النعمان ، ووصله بما أغناه مكرماً إلى أهله وأناله ما تمناه .

ومن ذلك ما حكي أن الخليفة المأمون ، لما ولّى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام ، وأطلق حكمه دخل على المأمون بعض إخوانه يوماً فقال : يا أمير المؤمنين إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب ، وهواه مع العلويين ، وكذلك كان أبوه قبله ، فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر ، فتشوش فكره وضاق صدره . فاستحضر شخصاً وجعله في زي الزهاد ، والنساك الغزاة ودسه إلى عبد الله بن طاهر وقال له امض إلى مصر ، وخالط أهلها ، وداخل كبراءها واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوي ، واذكر مناقبه ، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وأدعه إلى القاسم بن محمد العلوي ، وأكشف باطنه ، وأبحث عن دفين نيته وائتني بما تسمع . ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون ، وتوجه إلى مصر ، ودعا جماعة من أهلها ، ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه ، فلما نزل من الركوب وجلس في مجلسه ، خرج الحاجب إليه وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده ، فقال له : لقد فهمت ما قصدته ، فهات ما عندك فقال ولي الأمان قال نعم فأظهر له ما أراده ودعاه إلى القاسم بن محمد . فقال له عبد الله ، أو تنصفني فيما أقوله لك . قال نعم قال : فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة قال نعم قال : فيجب عليّ وأنا في هذه الحالة التي تراها من الحكم والنعمة ، والولاية ولي خاتم في المشرق ، وخاتم في المغرب ، وأمري فيما بينهما مطاع ، وقولي مقبول . ثم إني ألتفت يميناً وشمالاً فأرى نعمة هذا الرجل غامرة ، وإحسانه فائضاً عليّ ، أفتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة ، وتقول أغدر وجانب الوفاء ، والله لو دعوتني إلى الجنة عياناً لما غدرت ولما نكثت بيعته ، وتركت الوفاء له . فسكت الرجل فقال له عبد الله ، والله ما أخاف إلا على نفسك . فارحل من هذا البلد ، فلما يئس الرجل منه وكشف باطنه ، وسمع كلامه رجع إلى المأمون فأخبره بصورة الحال فسره ذلك ، وزاد في إحسانه إليه ، وضاعف إنعامه عليه .

ومما يعد من محاسن الشيم ، ومكارم أخلاق أهل الكرم ، ويحث على الوفاء بالعهود ورعاية الذمم ، ما رواه حمزة بن الحسين الفقيه في تاريخه قال : قال لي أبو الفتح المنطيقي كنا جلوساً عند كافور الأخشيدي ، وهو يومئذ صاحب مصر والشام ، وله من البسطة والمكنة ونفوذ الأمر ، وعلو القدر ، وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصر فحضرت المائدة والطعام فلما أكلنا نام . وانصرفنا فلما انتبه من نومه طلب جماعة منا ، وقال امضوا الساعة إلى عقبة النجارين وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك ، فإن كان حياً فاحضروه ، وإن كان قد توفي فسلوا عن أولاده ، واكشفوا أمرهم . قال فمضينا إلى هناك وسألنا عنه فوجدناه قد مات ، وترك

ابنتين ، إحداهما متزوجة ، والأخرى عاتق .فرجعنا إلى كافور وأخبرناه بذلك فسير في الحال واشترى لكل واحدة منهما داراً وأعطاهما مالاً جزيلاً ، وكسوة فاخرة ، وزوج العاتق وأجرى على كل واحدة منهما رزقاً وأظهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما . فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك . وقال أتعلمون سبب هذا ؟ قلنا لا فقال : اعلموا أني مررت يوماً بوالدهما المنجم ، وأنا في ملك ابن عباس الكاتب ، وأنا بحالة رثة فوقفت عليه فنظر إليّ واستجلبني وقال أنت تصير إلى رجل جليل القدر ، وتبلغ منه مبلغاً كبيراً ، وتنال خيراً كثيراً . ثم طلب مني شيئاً فأعطيته درهمين كانا معي ، ولم يكن معي غيرهما فرما بهما إليّ ، وقال أبشرك بهذه البشارة ، وتعطيني درهمين . ثم قال وأزيدك أنت والله تملك هذا البلد ، وأكثر منه . فاذكرني إذا صرت إلى الذي وعدتك به ، ولا تنس . فقلت له نعم . فقال : عاهدني أنك تفي لي ، ولا يشغلك ذلك عن افتقادي فعاهدته . ولم يأخذ مني الدرهمين ، ثم إني شغلت عنه بما تجدد لي من الأمور والأحوال ، وصرت إلى هذه المنزلة ، ونسيت ذلك . فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته في المنام قد دخل عليّ ، وقال لي . أين الوفاء بالعهد الذي بيني وبينك ، وإتمام وعدك لا تغدر ، فيغدر بك ، فاستيقظت وفعلت ما رأيتم . ثم زاد في إحسانه إلى بنات المنجم وفاء لوالدهما بما وعده ، والله أعلم .

ومما أسفرت عنه وجوه الأوراق ، وأخبرت به الثقات في الآفاق ، وظهرت روايته بالشام والعراق وضرب به الأمثال في الوفاء بالإتفاق ، حديث السموءل بن عادياً ، وتلخيص معناه أن امرأ القيس الكندي ، لما أراد المضي إلى قيصر ملك الروم ، أودع عند السموءل دروعاً وسلاحاً ، وأمتعة تساوي من المال جملة كثيرة . فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند المسوأل . فقال السموأل لا أدفعها إلا لمستحقها . وأبى أن يدفع إليه منها شيئاً ، فعاوده فأبى ، وقال لا أغدر بذمتي ، ولا أخون أمانتي ، ولا أترك الوفاء والواجب عليّ . فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره فدخل السموأل في حصنه ، وامتنع به . فحاصره ذلك الملك ، وكان ولد السموأل خارج الحصن فظفر به ذلك الملك فأخذه أسيراً ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموأل . فأشرف عليه من أعلى الحصن . فلما رآه قال له إن ولدك قد أسرته ، وها هو معي ، فإن سلمت إليّ الدروع والسلاح التي لامرىء القيس عندك رحلت عنك وسلمت إليك ولدك ، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر فاختر أيهما شئت . فقال له السموأل : ما كنت لأخفر ذمامي ، وأبطل وفائي ، فاصنع ما شئت . فذبح ولده وهو ينظر . ثم لما عجز عن الحصن رجع خائباً ، واحتسب السموأل ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه . فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرىء القيس سلم إليهم الدروع والسلاح . ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه . فصارت الأمثال في الوفاء تضرب بالسموأل وإذا مدحوا أهل الوفاء في الأنام ذكر السموأل في الأول . وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتقله بيديه ، وأغلى قيمة من جعله نصب عينيه ، واستنطق الأفواه لفاعله بالثناء عليه ، واستطلق الأيدي المقبوضة عنه بالإحسان إليه .

ومما وضع في بطون الدفاتر ، واستحسنته عيون البصائر ، ونقلته الأصاغر عن الأكابر ، وتداولته الألسنة من الأوائل ، والأواخر ، ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون . قال طلبني أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه . فقال لي : خذ معك فلاناً وفلاناً وسماهما : أحدهما علي بن محمد ، والآخر دينار الخادم واذهب مسرعاً لما أقوله لك ، فإنه قد بلغني أن شيخاً يحضر ليلاً إلى دور البرامكة وينشد شعراً ، ويذكرهم ذكراً ، ويندبهم ويبكي عليهم ثم ينصرف . فامض الآن أنت وعلي ودينار حتى تروا هذه الخرابات ، فاستتروا خلف بعض الجدران ،

فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئاً فائتوني به . قال : فأخذتها ومضينا حتى أتينا الخرابات وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسي حديد ، وإذا الشيخ وسيم ، له جمال ، وعليه مهابة ووقار ، قد أقبل فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول :

ولما رأيت السيف جندل جعفراً ونادى مناد للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها وردها ، فلما فرغ قبضنا عليه، وقلنا له أجب أمير المؤمنين ، ففزع فزعاً شديداً وقال : دعوني حتى أوصي وصية ، فإني لا أوفن بعدها بحياة . ثم تقدم إلى بعض الدكاكين فاستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه . ثم سرنا به فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين زجره وقال له : من أنت ؟ وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم ، وما تقوله فيها . قال الخادم ونحن وقوف نسمع . فقال يا أمير المؤمنين إن البرامكة عندي أيادي خطيرة أفتأذن لي أن أحدثك حديثي معهم . قال قل قال: يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عني نعمتي ، كما تزول عن الرجال ، فلما ركبني الدين واحتجت إلى بيع مسقط رأسي ، ورؤوس أهلي . أشاروا عليّ بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبياً وصبية ، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد ، فدعوت بثويبات لي كنت قد أعددتها لأستمنح بها الناس فلبستها وخرجت وتركتهم جياعاً لا شيء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد أسائل عن دور البرامكة . فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة ، وعلى الباب خادمان فطمعت في القوم ، وولجت المسجد ، وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي . وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم ، وإذا بيحيى جالس على دكة له في وسط بستان فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحداً وبين يديه عشرة من ولده . وإذا غلام أمرد عذاراه خداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل خادم مجمرة من ذهب ، في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر[٢] ، قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام ، وجلس الغلام إلى جنب يحيى ثم قال يحيى للقاضي تكلم وزوّج ابنتي عائشة من ابن عمي هذا . فخطب القاضي وزوجه وشهد أولئك الجماعة ، وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر ، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت فإذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايخ ، وولده والغلام مائة وإثناعشر رجلاً ، فخرج إلينا مائة وإثنا عشر خادماً ، مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار ، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ، ويجعلون الصواني تحت آباطهم ، ويقوم الأول فالأول . حتى بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر على أخذ الصينية فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي ، وأخذت الصينية في يدي . وقمت وجعلت ألتفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب بها . فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحظني إذ قال للخادم ائتني بذلك الرجل فرددت إليه فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان

---

(١) تصغير ثوب.

(٢) الفهر : الحجر قدر ما يدق به الجوز أو ما يملأ الكف وجمعها : أفهار وفهور .

في كمي ، ثم أمرني بالجلوس فجلست . فقال لي ممن الرجل فقصصت عليه قصتي فقال للخادم ائتني بولدي موسى ، فأتى به. فقال له : يا بني هذا رجل غريب فخذه إليك ، واحفظه بنفسك ، وبنعمتك . فقبض موسى على يدي وأدخلني إلى دار من دوره فأكرمني غاية الإكرام وأقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش وأتم سرور ، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال إن الوزير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل . وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك وأكرمه . ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام فلما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد ، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني ، أفي الأموات هم أم في الأحياء . فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا لي: قم فاخرج إلى عيالك بسلام . فقلت واويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج إلى عيالي على هذه الحالة إنا لله وإنا إليه راجعون فرفع الستر الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، ثم الرابع ، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لي مهما كان لك من الحوائج فارفعها إليّ فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به . فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسناً ونوراً واستقبلني منها رائحة الند والعود ، ونفحات المسك . وإذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج ، وحمل إليّ ألف ألف درهم ، وعشرة آلاف دينار . ومنشورين بضيعتين وتلك الصينية التي كنت أخذت بما فيها من الدنانير والبنادق وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعوني. فلما جاءتهم البلية ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل أجحفني عمرو بن مسعدة ، وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ، مالاً يفي دخلهما به . فلما تحامل عليّ الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خرابات القوم فأندبهم ، وأذكر حسن صنيعهم إليّ ، وأشكرهم على إحسانهم . فقال المأمون عليّ بعمرو بن مسعدة ، فلما أتي به قال له يا عمرو أتعرف هذا الرجل . قال : نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة . قال كم الزمته في ضيعته . قال كذا وكذا قال رد له كل ما استأديته منه في مدته ، ووقّع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده . قال فعلا نحيب الرجل وبكاؤه ، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له يا هذا قد أحسنا إليك فلم تبكي . قال يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من صنائع البرامكة ، إذ لو لم آت خراباتهم فأبكيهم ، وأندبهم ، حتى اتصل خبري بأمير المؤمنين ففعل ما فعل فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين . قال إبراهيم بن ميمون فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عيناه ، وظهر عليه حزنه . وقال لعمري هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك ، وإياهم فاشكر ، ولهم فاوف ، ولأحسانهم فاذكر . قيل إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ودوام عهده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه ، وكثرة بكائه على ما مضى من زمانه قال الشاعر :

سقى الله أطلال الوفاء بكفه   فقد درست أعلامه ومنازله

وقال آخر :

أشدد يديك بمن بلوت وفاءه   إن الوفاء من الرجال عزيز

وقال مالك بن عمارة اللخمي . كنت جالساً في ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان وقبيصة ابن ذؤيب ، وعروة بن الزبير وكنا نخوض في الفقه مرة ، وفي المذاكرة مرة ، وفي أشعار العرب وأمثال الناس مرة. فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الإتساع في المعرفة ، والتصرف في فنون العلم ، وحسن استماعه إذا حُدّث ، وحلاوة لفظه إذا حَدّث . فخلوت معه ليلة فقلت له : والله إني لمسرور جداً بك لما شاهدته من كثرة تصرفك ، وحسن حديثك ، وإقبالك على جليسك . فقال : إن تعش قليلاً

فسترى العيون طامحة إليّ والأعناق نحوي متطاولة فإذا صار الأمر إليّ فلعلك أن تنقل إلى ركابك فلأملأن يديك . فلما أفضت إليه الخلافة توجهت إليه فوافيته يوم الجمعة وهو يخطب على المنبر . فلما رآني أعرض عني فقلت لعله لم يعرفني ، أو عرفني ، وأظهر لي نكره . فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن خرج الحاجب فقال : أين مالك بن عمارة فقمت فأخذ بيدي ، وأدخلني عليه فمد إليّ يده وقال إنك تراءيت لي في موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت ، فأما الآن فمرحباً وأهلاً ، كيف كنت بعدي فأخبرته . فقال لي : أتذكر ما كنت قلت لك قلت نعم . فقال : والله ما هو بميراث رعيناه ، ولا أثر رويناه ، ولكني أخبرك بخصال مني سمت بها نفسي إلى الموضع الذي ترى . ما خنت ذا ود قط ، ولا شمت بمصيبة عدو قط ، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهي حديثه ، ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذاً بها فكنت أؤمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتي وقد فعل . ثم دعا بغلام فقال له : يا غلام بوئه منزلاً في الدار ، فأخذ الغلام بيدي وأفرد لي منزلاً حسناً ، فكنت في ألذّ حال ، وأنعم بال ، وكان يسمع كلامي ، واسمع كلامه . ثم أدخل عليه في وقت عشائه ، وغدائه فيرفع منزلتي . ويقبل عليّ ، ويحادثني ويسألني مرة عن العراق ، ومرة عن الحجاز حتى مضت لي عشرون ليلة فتغديت يوماً عنده فلما تفرق الناس نهضت قائماً . فقال على رسلك . فقعدت . فقال أي الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة لك في المعاشرة ، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة . فقلت يا أمير المؤمنين فارقت أهلي وولدي على أني أزور أمير المؤمنين وأعود إليهم . فإن أمرني أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد فقال : لا بل أرى لك الرجوع إليهم ، والخيار لك بعد في زيارتنا ، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار ، وكسوناك وحملناك ، أتراني قد ملأت يديك ، فلا خير فيمن ينسي إذا وعد وعداً ، إذا شئت صحبتك السلامة .

ومن ذلك ما روي عن أبي بكار الأعمى وكان قد انقطع إلى آل برمك . قال مسرور الكبير : لما أمرني الرشيد بقتل جعفر بن يحيى دخلت عليه فوجدت عنده أبا بكار الأعمى يغنيه ويقول :

فلا تحزن فكل فتى سيأتي ... عليه الموت يطرق أو ينادي

فقلت في هذا والله قد أتيتك . ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته وضربت عنقه . فقال أبو بكار ناشدتك الله إلا ما ألحقتني به . فقلت له ما الذي حملك على هذا ، فقال أغناني عن الناس . فقلت حتى استأمر الرشيد . ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد وأخبرته بخبر أبي بكار فقال هذا رجل فيه مصطنع أضممه إليك ، وانظر ما كان يجري عليه جعفر ، فادفعه إليه ، وكان يحيى بن خالد إذا أكد في يمينه قال لا والذي جعل الوفاء أعزّ ما يرى . قال أبو فراس بن حمدان الشاعر :

بمن يتقي الإنسان فيما ينوبه ... ومن أين للحر الكريم صحاب
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ... ذئاباً على أجسادهن ثياب

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره في الحروب ، فقال كان رحمه الله تعالى يفعل كذا وكذا . فقال المنصور عليك لعنة الله تطأ بساطي ، وتترحم على عدوي . فقال إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي ، لا ينزعها إلا غاسلي . فقال له المنصور إرجع يا شيخ ، فإني أشهد أنك لوفي ، حافظ للخير . ثم أمر له بمال فأخذه ثم قال : والله لولا جلالة أمير المؤمنين ، وإمضاء طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة . فقال له المنصور : لله درك فلو لم يكن في قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً . وخرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن

المهلب في بعض جبابين الشام فإذا امرأة جالسة على قبر تبكي . قال سليمان فرفعت البرقع عن وجهها فحكت شمساً عن متون غمامة . فوقفنا متحيرين ننظر إليها فقال لها يزيد بن المهلب : يا أمة الله هل لك في أمير المؤمنين بعلاً فنظرت إلينا ثم أنشأت تقول :

فإن تسألني عن هواي فإنه ... يجول بهذا القبر يا فتيان
وإني لأستحييه والتراب بيننا ... كما كنت استحييه وهو يراني

ومن ذلك ما روي عن نائلة بنت القرافصة بن الأخوص الكلبي ، زوج عثمان رضي الله عنهما : إن عثمان لما قتل أصابتها ضربة على يدها ، وخطبها معاوية فردته . وقالت ما يعجب الرجل مني . قالوا ثناياك فكسرت ثناياها ، وبعثت بها إلى معاوية ، فكان ذلك مما رغب قريشاً في نكاح نساء بني كلب . ولما أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف . وقال له انج بهذا فأخذ زياد ودقه بين حجرين وقال والله لا ينتفع به أحد بعدك . ولما قدّم هدبة بن الخشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم قالت زوجته : إن لهدبة عندي وديعة فأمهله حتى آتيك بها . فقال أسرعي فإن الناس قد كثروا ، وكان مروان قد جلس لهم بارزاً عن داره فمضت إلى السوق وأتت إلى قصاب فقالت : أعطني شفرتك ، وخذ هذين الدرهمين وأنا أردها عليك . فأخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفتها على وجهها ، ثم جدعت أنفها من أصله ، وقطعت شفتيها وردت الشفرة إلى القصاب ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس . فقالت أتراني يا هدبة متزوجة بعد ما ترى . فقال الآن طابت نفسي بالموت فجزاك الله من حليلة وفية خيراً .

ولنجعل لهذا الباب من القضايا ختاماً هو أوجزها كلاماً ، وأحسنها نظاماً ، وأبينها حكماً وأحكاماً . وهي قضية جمعت الأمرين : وفاء وغدراً ، وعرفاً ونكراً ، وخيراً وشراً ، ونفعاً وضراً ، واشتملت على حالة شخصين أحدهما وفيّ بعهده ففاز ونجا وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا . وغدر الاخر فلم يجد له من جزاء غدره إلى النجاة ، فرجاً ولم يلق له من ضيق الغدر مخرجاً ، وهو ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم ، وكان مطلعاً على أحوال أحمد بن طولون عارفاً بأموره عالماً بوروده وصدوره . فقال ما معناه : إن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلاً مطروحاً فالتقطه ورباه ، وسماه أحمد وشهره باليتيم . فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيّاً وصورة ، فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن ، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به فأخذه إليه . فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه : وقال له : أنت عندي بمكانة أرعاك بها . ولكن عادتي أني آخذ العهد على كل من أصرفه في شيء أنه لا يخونني . فعاهده ثم حكمه في أمواله وقدمه في أشغاله فصار أحمد اليتيم مستحوذاً على المقام ، حاكماً على جميع الحاشية ، الخاص والعام . والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ، ومساعيه متسمة بالنجح . ركن إليه واعتمد في أمور بيوته عليه . فقال له يوماً : يا أحمد امض إلى الحجرة الفلانية ففي المجلس حيث أجلس سبحة جوهر فائتني بها فمضي أحمد ، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب . فلما رأياه خرج الفتى ، وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه ، ودعته إلى قضاء وطرة . فقال لها معاذ الله أن أخون الأمير ، وقد أحسن إليّ ، وأخذ العهد عليّ ، ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه . وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعد ما أخذ

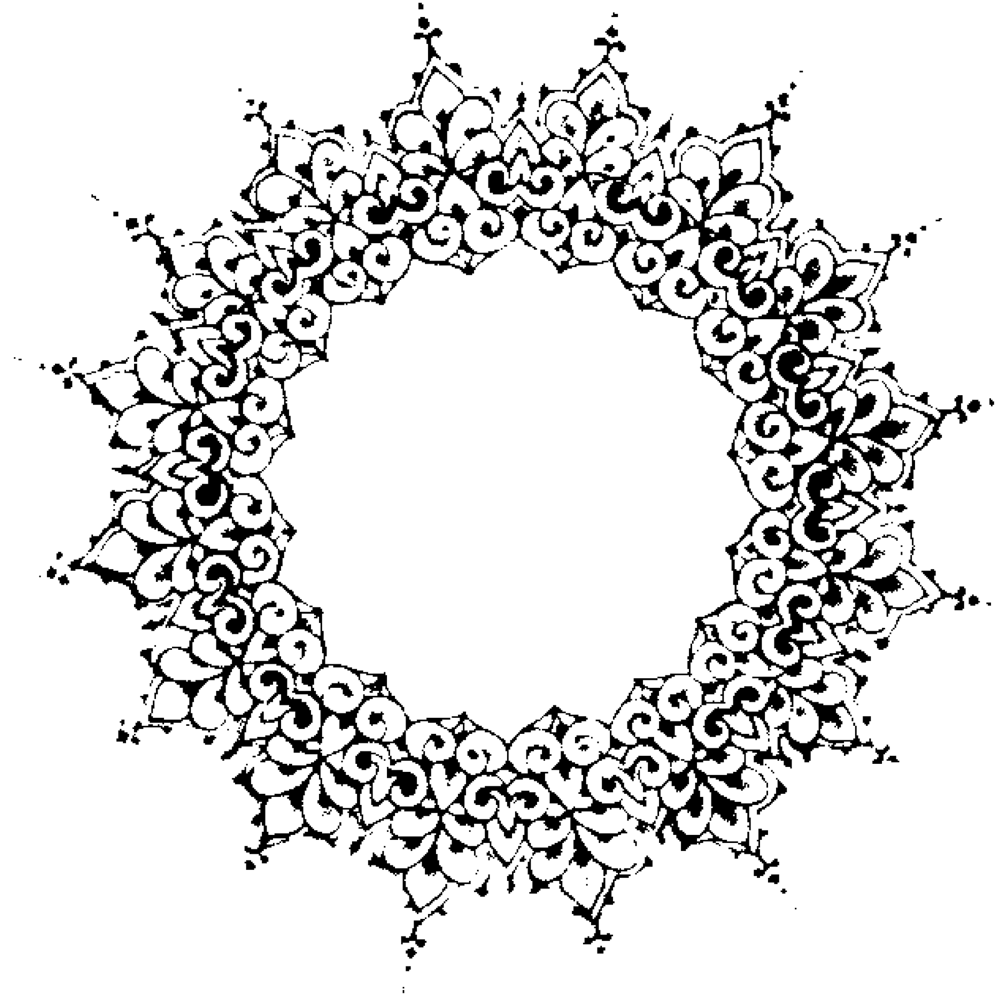
السبحة وخرج من الحجرة ، لئلا يذكر حالها للأمير . فأقامت أياماً لم تجد من الأمير ما غيره عليها ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه ، وغمرها بعطاياه ، واشتغل بها عمن سواها ، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده ، حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ولا يراها . وكان أولاً مشغولاً بتلك الجارية الخاسرة الخائنة الغادرة العائبة العاهرة الفاسقة الفاجرة ، فلما أعرض عنها اشتغالاً بالجارية الجديدة الممجدة السعيدة ، المسعدة ، الجامدة المحمودة ، الوصيفة الموصوفة ، الأليفة المألوفة ، العارفة المعروفة . وصرف لبهجة محاسنها وكثرة أدبها وجهه من ملاعبة أترابها ، وشغلته بعذوبة رضابها[1] عن ارتشاف رضب أترابها . وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره ، فكبر عليها أعراضه عنها ، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها . فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها ، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها . وقالت : إن أحمد اليتيم راودني عن نفسي فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظاً وغضباً وهم في الحال بقتله ،ثم عاوده حاكم عقله فتأنى في فعله واستحضر خادماً يعتمد عليه وقال له إذا أرسلت إليك إنساناً ومع طبق من ذهب وقلت لك على لسانه إملأ هذا الطبق مسكاً فأقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه في الطبق وأحضره مغطى . ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماءه الخواص ، وأدناهم لمجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سربه لم يخطر بخاطره شيء ، ولا هجس هاجس في قلبه فلما مثل بين يديّ الأمير وأخذ منه الشراب شرع في التدبير فقال يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم وقل له يقول لك أمير المؤمنين إملأ هذا الطبق مسكاً فأخذه أحمد اليتيم ومضى فاجتاز في طريقه بالمغنين ، وبقية الندماء والخواص . فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم ، فقال أنا ماض في حاجة للأمير أمرني بإحضارها في هذا الطبق . فقالوا له أرسل من ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت ، وادخل بها على الأمير ، فأدار عينيه فرأى الفتى الفراش الذي كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال له امض إلى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املأ هذا الطبق مسكاً فمضى ذلك الفراش إلى الخادم فذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر . فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله : وقال ما هذا فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين ، وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من إنفاذ الطبق ، وإرساله مع الفراش وأنه لا علم عنده غير ما ذكره . قال أتعرف لهذا الفراش خبراً يستوجب به ما جرى عليه فقال أيها الأمير إن الذي تم عليه بما ارتكبه من الخيانة وقد كنت رأيت الأعراض عن إعلام الأمير بذلك. وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية ، من أوله إلى آخره لما أنفذه لاحضار السبحة الجوهر . فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها فأقرت بصحة ما ذكره أحمد فأعطاه إياها وأمره بقتلها ففعل . وازدادت مكانة أحمد عنده ، وعلت منزلته لديه ، وضاعف إحسانه إليه ، وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيديه . فانظر رحمك الله إلى آثار الوفاء ، كيف تحمي من المعاطب ، وتنجي من قبضة التلف ، بعد إمضاء القواضب[2]، ويفضي بصاحبه إلى ارتقاء غوارب المراتب . فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعده ، وهو بشر مثله ، وليس في الحقيقة بعبده ، وأطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده ، دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من

---

(١) ارضب رقب الجارية : ترشفه.

(٢) القواضب : السيوف القاطعة .

عنده ، فإذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافياً في طاعته بعقده ، كيف لا يفيض عليه من ألطاف مواهب بره ، ورفده ، ويفتح له من أبواب رحمته ، وأقسام نعمته ، مما لا ممسك له من بعده . وقالوا ليس شيء أوفى من القمرية[1]، إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده . ولا تزال تنوح عليه إلى أن تموت والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .



---

(١) القمري : ضرب من الحمام حسن الصوت .

الباب الثامن والثلاثون

في كتمان السر ، وتحصينه وذم إفشائه

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ **يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك** ﴾[1] الآية ، فلما أفشي يوسف عليه رؤياه بمشهد امرأة يعقوب ، أخبرت أخوته فحل به ما حل . ومن شواهد الكتاب العزيز في السر قوله تعالى : ﴿ **فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **وما هو على الغيب بضنين** ﴾[3] أي بمتهم ، وفي الحديث استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان . فإن كل ذي نعمة محسود . وقال علي رضي الله عنه وكرم وجهه : سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره واعلم أن أمناء الأسرار ، أقل وجوداً من أمناء الأحوال ، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار ، لأن احراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال ، واحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ، ويشيعها كلام سابق ، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال ، فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به ، ولا يستطيع كتم السر وإن الرجل يكون سره في قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال ، فإذا أذاعه استراح قلبه ، وسكن خاطره ، وكأنما ألقي عن نفسه حملاً ثقيلاً . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : القلوب أوعية ، والشفاه أقفالها ، والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كل انسان مفتاح سره . ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزانها كان أوثق لها ، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزانها كان أضيع لها ، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه ، ولو كتمه أمن من سطوته . وقال أنو شروان : من حصّن سرّه فله بتحصنه خصلتان ، الظفر بحاجته ، والسلامة من السطوات ، وقيل كلما كثرت خزان الأسرار زادت ضياعاً . وقيل انفرد بسرك لا تودعه حازماً فيزل . ولا جاهلاً فيخون . وقال كعب بن سعد الغنوي :

ولست بمبد للرجال سريرتي … ولا أنا عن أسرارهم بسؤول

وقال أبو مسلم صاحب الدولة :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت … عنه ملوك بني مروان إذ جهدوا

---

(١) سورة يوسف الآية ٥ .
(٢) سورة النجم الآية ١٠ .
(٣) سورة التكوير الآية ٢٤ .

مـا زلت أسعى عليهم في ديـارهم   والقـوم في غفلة بالشـام قد رقـدوا
حتى ضـربتهم بـالسيف فـانتبهـوا   من نـومـة لم ينمهـا قبلهم أحـد
من رعـا غنـماً في أرض مسبـغـة   ونـام عنهـا تـولى رعيهـا الأسـد

وأسرّ رجل إلى صديقه حديثاً ، ثم قال له أفهمت ؟ قال بل جهلت . ثم قال له أحفظت ؟ قال بل نسيت . وقيل لبعضهم كيف كتمانك للسر . قال أجحد المخبر ، وأحلف للمستخبر . وقال المهلب : أدنى أخلاق الشريف كتمان السر ، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه . ومن أحسن ما قيل في كتمان السر قول الشاعر :

ولهـا سرائـر في الضمير طـويتها   نـسي الـضـمـير بـأنها في طيـه

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البدوي فقال :

إني كتمت حـديث ليـلى لم أبـح   يـومـاً بـظاهـره ولا بـخفـيـه
وحفـظت عهد ودادهـا متمسكـاً   في حـبـهـا بـرشـاده أو غـيـه
ولهـا سرائـر في الضمير طـويتها   نـسي الـضـمـير بـأنها في طيـه

وقيل كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال ، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها ، فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سره . قال الشاعر :

ومستـودعي سـراً كتمت مكـانـه   عن الحس خوفاً أن يَنُم به الحسُّ
وخفت عليه من هوى النفس شهوة   فـأودعتـه من حيث لا يبلغ الحس

وقال قيس بن الخطيم(١) :

أجـود بمـكـنـون الـتـلاد وإنـي   بـسـري عمـن سـألني لـضـنـين
وإن ضيّـع الأقـوام سـري فـإنني   كـتـوم لأسـرار الـعـشـير أمـين

وقال جعفر بن عثمان :

يـا ذا الـذي أودعـني سـره   لا تـرجُ أن تـسـمـع مـني
لم أجـره قط عـلى فـكـرتي   كـأنـه لم يجـر في أذني

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : ما أفشيت سري إلى أحد قط فأفشاه ، فلمته إذ كان صدري به أضيق . وقال الأحنف بن قيس : يضيق صدر الرجل بسره ، فإذا حدث به أحداً قال اكتمه عليّ . قال الشاعر :

---

(١) هو قيس بن الخطيم بن عدي الادسي - أبو يزيد - شاعر الأوس ، وأحد صناديدها في الجاهلية . له في وقعة « بعاث » التي كانت بين الاوس والخزرج قبل الهجرة أشعار كثيرة . أدرك الاسلام وتريث في قبوله . فقتل قبل أن يدخل فيه . له « ديوان » . توفي سنة (نحو ٢ ق . هـ) .
أنظر الاغاني : (٢ : ١٥٤) . وخزانة البغدادي (٣ : ١٦٨ - ١٦٩) .

إذا المــرء أفــشى ســره بـلســانــه ولام عــلـيــه غـيــره فــهــو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصـدر الذي يستـودع السر أضيق

وقال آخر :

إذا مـا ضـاق صـدرك عن حـديث وأفـشتــه الــرجــال فـمـن تـلـوم
وان عــاتبت مـن أفشى حـديثي وسـري عــنــده فـأنــا المـلـوم

وقال صالح بن عبد القدوس : لا تودع سرك إلى طالبه ، فالطالب للسر مذيع . ولا تودع مالك عند من يستدعيه ، فالطالب للوديعة خائن . وقيل لأعرابي ما بلغ من حفظك للسر . قال : أفرقه تحت شغاف قلبي ثم أجمعه ، وأنساه ، كأني لم أسمعه . وكان يقال، أحزم للناس من لا يفشي سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيه عليه . وقال حكيم قلوب الأحرار قبور الأسرار . وقيل الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار حمق . وقال بعضهم :

إذا ما غفرت الذنوب يوماً لصاحب فلست معيداً ما حييت لـه ذكـراً
ولست إذا مـا صاحب خـان عهـده وعنـدي لـه سرٌ مـذيعـاً لـه سـراً

وأين هذا من قول القائل :

ولا تــودع الأســرار أذني فــإنمــا تــصــبــن مــاء في إنــاء مــثـلـم

أو القائل :

ولا أكـتم الأســرار لـكن أذيـعهــا ولا أدع الأســرار تعلو عــلى قلبي
وإن قيــل العقــل من بــات لـيلة تقلبــه الأســرار جنبــاً إلى جنب

وقال آخر :

وإنــك كـلـما اســتـودعـت ســراً أنم من الـنسيم عــلى الــريــاض

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

أنــاس أمنّــاهم فنمــوا حــديثــاً فلما كتمنــا الســر عنهم تقــولــوا

ولله در المتنبي حيث قال :

وللســر مني مــوضــع لا ينــالــه نــديم ولا يفـضي إلـيــه شــراب

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ، إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

الباب التاسع والثلاثون

في الغدر والخيانة ، والسرقة ، والعداوة ، والبغضاء والحسد

وفيه فصول

الفصل الأول

في الغدر والخيانة

قال رسول الله ﷺ : « أعجل الأشياء عقوبة البغي » . وعن أبي هريرة[1] رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المكر والخديعة والخيانة في النار » وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ثلاث من كن فيه كن عليه ، البغي والنكث والمكر . قال الله تعالى : ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **فمن نكث فإنما ينكث على نفسه** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله** ﴾[4] وكم أوقع الغدر في المهالك من غادر ، وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر ، وطوقه غدره طوق خزي . فهو على فكه غير قادر ، وأوقعه في خطة خسف وورطة حنف ، فما له من قوة ولا ناصر . ويشهد لصحة هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوي الألباب ، من قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري . وتلخيص معناها أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبي ﷺ فجاءه يوماً وقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً . فقال له رسول الله ﷺ : « ويحك يا ثعلبة قليل

---

(١) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي الملقب بأبي هريرة ، صحابي ، كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث ، ورواية له . اسلم سنة (٧هـ) ولزم صحبة النبي ﷺ وروى عنه (٥٣٧٤) حديثاً نقلها عن ابي هريرة أكثر من (٨٠٠) رجل بين صحابي وتابعي . ولي امرة المدينة مدة . ولما صارت الخلافة إلى عمر استعمله على البحرين . توفي سنة (٥٩هـ - ٦٧٩ م) .

أنظر تهذيب الاسماء ، واللغات (٢ : ٢٧٠) . وصفوة الصفوة (١ : ٢٨٥) .

(٢) سورة يونس الآية ٢٣ .

(٣) سورة الفتح الآية ١٠ .

(٤) سورة فاطر : الآية ٤٣ .

تؤدي شكره ، خير من كثير لا تطيقه » ، ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً . فقال رسول الله ﷺ : « يا ثعلبة أمالك في رسول الله أسوة حسنة ، والذي نفسي بيده ، لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت » ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق نبياً لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، وعاهد الله تعالى على ذلك فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارزق ثعلبة ما قال » فاتخذ ثعلبة غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ونزل وادياً من أوديتها ، وهي تنمو كما ينمو الدود ، وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له حمامة المسجد ، فلما كثرت الغنم ، وتنحى . وصار يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر ، ويصلي بقية الصلوات في غنمه . فكثرت ونمت حتى بعد عن المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة ثم كثرت ونمت فتباعد أيضاً عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة . فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقي الناس ويسألهم عن الأخبار فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم . فقال ما فعل ثعلبة . قالوا يا رسول الله اتخذ غنماً ما يسعها واد . فقال رسول الله ﷺ : يا ويح ثعلبة فأنزل الله تعالى آية الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين ، رجل من بني سليم ، ورجل من جهينة ، وكتب لهما أنصاب الصدقة وكيف يأخذانها . وقال لهما مرا بثعلبة بن حاطب ، وبرجل آخر من بني سليم ، فخذا صداقاتهما ، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال ما هذه إلا جزية ، أو ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلّي . فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار ابله فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها ، فلما رأياه قالا ما هذا ، قال : خذاه فان نفسي به طيبة . فمرا على الناس ، وأخذا الصدقات ، ثم رجعا إلى ثعلبة . فقال : أروني كتابكما فقرأه ثم قال ما هذه إلا جزية ، أو ما هذه إلا أخت الجزية . اذهبا حتى أرى رأياً قال فذهبا من عنده ، وأقبلا على رسول الله ﷺ فلما رآهما قال : قبل أن يتكلما ، يا ويح ثعلبة فانزل الله تعالى : ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصّدّقنّ ولنكونن من الصالحين*فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون*فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون*ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علاّم الغيوب**[1] ﴾ وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى للنبي ﷺ فسأله أن يقبل صدقته فقال إن الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقة ، فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ووجهه . فقال رسول الله ﷺ هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني . فلما أبى رسول الله أن يقبل صدقته رجع إلى منزله ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً . ثم أتى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار . فاقبل صدقتي فقال أبو بكر رضي الله عنه لم يقبلها رسول الله ﷺ منك فلا أقبلها أنا فقبض أبو بكر رضي الله تعالى عنه ولم يقبلها.فلما ولي عمر رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين : أقبل صدقتي فلم يقبلها منه . وقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضي الله عنه فأنا لا أقبلها . وقبض عمر رضي الله عنه ولم يقبلها . ثم ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه فسأله أن يقبل صدقته فقال له لم يقبلها رسول الله ﷺ ، ولا أبو بكر ، ولا عمر رضي الله عنهما فأنا لا أقبلها . ثم هلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه . فانظر إلى سوء عاقبة غدرة كيف أذاقه وبال أمره ، وسمه بسمة عار

---

(١) سورة التوبة الآيات (٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨).

قضت عليه بخسره ، وأعقبه نفاقاً يخزيه يوم فاقته وفقره . فأي خزي أرجح من ترك الوفاء بالميثاق ، وأي سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق . وأي عار أفضح من نقض العهد إذا عدت مساويء الأخلاق . وكان يقال لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء ، واتضاع قدره عن احتمال المكاره ، في جنب نيل المكارم ، قال الشاعر :

غدرت بأمر كنت أنت جذبتنا إليه وبئس الشيمة الغدر بالعهد

ولما حلف محمد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام وهما وليا عهد . طالبه جعفر بن يحيى أن يقول : خذلني الله ان خذلته . فقال ذلك ثلاث مرات . فقال الفضل بن الربيع : قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله . يا أبا العباس أجد في نفسي أن امري لا يتم . فقلت له ولم ذلك أعز الله الأمير . قال لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر ، وكان كذلك لم يتم أمره. وورد في أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة ، كان ملكاً بين دجلة والفرات ، وكان له هناك قصر مشيد ، يعرف بالجوسق ، وبلغ ملكه الشام ، فأغار على مدينة سابور ذي الاكتاف ، فأخذها وأخذ أخت سابور . وقتل منهم خلقاً كثيراً ، ثم إن سابور جمع جيوشاً وسار إلى الضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شيء . ثم ان النضيرة بنت الضيزن عركت أي حاضت . فخرجت من الربض وكانت من أجمل أهل دهرها ، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن . وكان سابور من أجمل أهل زمانه فرآها ورأته فعشقها وعشقته ، وأرسلت إليه تقول ما تجعل لي أن دللتك على ما تهدم به هذه المدينة . وتقتل أبي . فقال أحكمك . فقالت عليك بحمامة مطوقة ورقاء فاكتب عليها بحيض جارية ثم أطلقها فإنها تقعد على حائط المدينة ، فتتداعى المدينة كلها . وكان ذلك طلسماً لا يهدمها إلا هو ، ففعل ذلك فقالت له وأنا أسقي الحرس الخمر ، فإذا صرعوا فاقتلهم ففعل ذلك . فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة ، وقتل الضيزن واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها ، فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر وتتململ في فراشها وهو من حرير محشوّ بريش النعام . فالتمس ما كان يؤذيها فإذا هو ورقة آس التصقت بعنكتها ، وأثرت فيها وقيل كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها . ثم أن سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها. وقيل إنه أمر رجلاً فركب فرساً جموحاً ،وضفر غدائرها بذنبه ثم استركضه فقطعها قطعاً. قطّعه الله ما أغدره .

وتقول العرب جزاني جزاء سمار ، وهو أن ازدجرد بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مريء . فدل على ظهر الجزيرة فدفع ابنه بهرام إلى النعمان ، وهو عامله على أرض العرب ، وأمره أن يبني له جوسقاً فامتثل أمره ، وبنى له جوسقاً كأحسن ما يكون . وكان الذي بني الجوسق رجلاً يقال له سنمار ، فلما فرغ من بنائه ، عجبوا من حسنه . فقال : لو علمت أنكم توفوني أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت . فقالوا : وانك لتبني أحسن من هذا ولم تبنه ، ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع . فكانت العرب تقول جزاني جزاء سنمار . وممن غدر،عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله غدر بعلي رضي الله عنه وقتله . وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضي الله عنه وقتله . وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقتله . وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى ، ثم غدر به وأخره ، وقدم المهدي عليه فقال : عيسى :

أينسى بنو العباس ذبي عنهم بسيفي ونار الحرب زاد سعيرها
فتحت لهم شرق البلاد وغربها فذل معاديها وعز نصيرها

أقطع أرحاماً عليّ عزيزة | وأبدي مكيدات لها وأثيرها
فلما وضعت الأمر في مستقره | ولاحت له شمس تلألأ نورها
دفعت عن الأمر الذي أستحقه | وأوسق أوساقاً من الغدر عيرها

وخرج قوم لصيد ، فطردوا ضبعة حتى ألجؤها إلى خباء اعرابي فأجارها ، وجعل يطعمها ويسقيها فبينا هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت . فجاء ابن عمه يطلبه فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها وأنشد يقول :

ومن يصنع المعروف مع غير أهله | يلاقي كما لاقى مجير ام عامر
أعد لها لما استجارت بينه | أحاليب ألبان اللقاح الدرائر
وأسمنها حتى إذا ما تمكنت | فرته بأنياب لها وأظافر
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من | يجود بمعروف على غير شاكر

وحكى بعضهم قال : دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة ، وإلى جانبها جرو ذئب . فقالت أتدري ما هذا ، فقلت لا . قالت هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا وربيناه ، فلما كبر فعل بشاتي ما ترى وأنشدت :

بقرت شهويتي وفجعت قومي | وأنت لشاتنا ابن ربيب
غذيت بدرها ونشأت معها | فمن أنباك أن أباك ذيب
إذا كان الطبع طباع سوء | فلا أدب يفيد ولا أديب

اللهم أنا نعوذ بك من البغي . وأهله ، ومن الغادر وفعله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



في السرقة والسرّاق

قيل : مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال : ما هذا . قيل : السلطان يقطع سارقاً . فقال لا إله إلا الله . سارق العلانية يقطع سارق السر . وأمر الاسكندر بصلب سارق . فقال أيها الملك إني فعلت ما فعلت وأنا كاره . فقال وتصلب أيضاً وأنت كاره . وسرق مدني قميصاً فأعطاه لابنه يبيعه فسرق منه ، فجاء له فقال بكم بعته قال برأس المال . وقال أكتل السلمي وكان لصاً فاتكاً :

وإني لأستحيي من الله أن أرى | أجرجر حبلي ليس فيه بعير

وأن أسأل الدنيء بعيره　　واجمال ربي في البلاد كثير

قال الفرزدق :

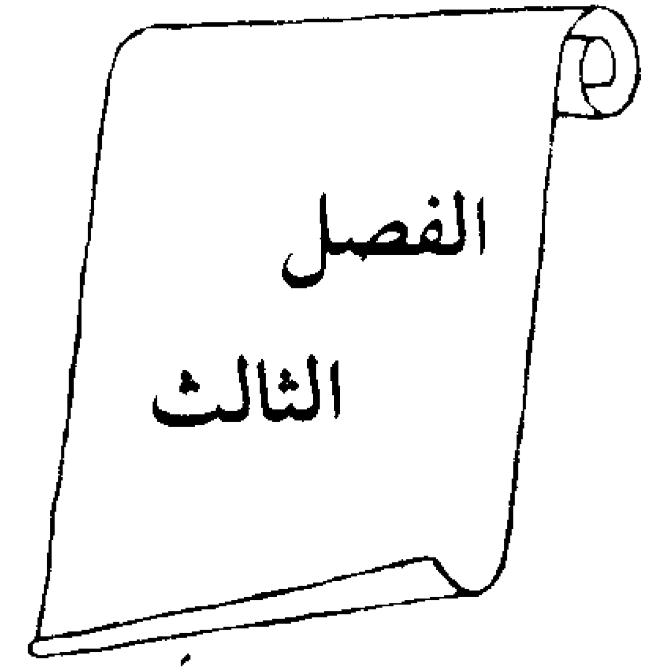
وان أبا الكرشاء ليس بسارق　　ولكن متى ما يسرق القوم يأكل

وكان لعمرو بن دويرة البجلي أخ قد كلف ببنت عم له ، فتسور عليها الدارذات ليلة فأخذه أخوتها وأتوا به خالد بن عبد الله القسري وجعلوه سارقاً فسأله خالد فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية . فهم خالد بقطعه فقال عمر وأخوه :

أخالد قد والله أوطئت عشوة　　وما العاشق المظلوم فينا بسارق

أقر بما لم يأته المرء أنه　　رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق

فعفا عنه خالد ، وزّوجه الجارية .



فيما جاء في العداوة والبغضاء

قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى : ﴿**فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة**﴾[١]وقال تعالى : ﴿ **إن الشيطان للإنسان عدو مبين** ﴾[٢] . . وقال تعالى : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً** ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فأحذروهم** ﴾[٤] وقال رسول الله ﷺ : « أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك » وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : العداوة تتوارث . وقال زياد بن عبد الله :

فلو أني بليت بهاشمي　　خؤلته بنو عبد المذان

صبرت على عداوته ولكن　　تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

وبث رجل في وجه أبي عبيدة مكروهاً فأنشأ يقول :

فلو أن لحمي إذ وهى لعبت به　　سباع كرام أو ضباع وأذؤب

لهون وجدي ، أو لسلى مصيبتي　　ولكنما أودى بلحمي أكلب

---

(١) سورة المائدة الآية ١٤ .

(٢) سورة يوسف الآية ٥ .

(٣) سورة فاطر الآية ٦ .

(٤) سورة التغابن الآية ١٤ .

وقيل لكسرى : أي الناس أحب إليك أن يكون عاقلاً . قال : عدوي . قيل وكيف ذلك . قال لأنه إذا كان عاقلاً كنت منه في عافية وأمن . وقيل كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشح المعلن ، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة ، أهون من مداواة ما خفي وبطن . وقالوا إياك أن تعادي من إذا شاء طرح ثيابه ، ودخل مع الملك في لحافه . وقال ابو العتاهية :

تنح عن القبيح ولا ترده ومن أوليته حسناً فزده
ستلقى من عدوك كل كيد إذا كاد العدو ولم تكده

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب ، فقتل أخوها وزوجها وهي حبلى بهجرس بن كليب . فلمّا كبر وشب قال :

أصاب أبي خالد وما أنا بالذي أميل وأمري بين خالي ووالدي
وأورث جساس بن مرة غصة إذا ما اعترتني حرها غير بارد

ثم قال بعد ذلك :

يـا للرجـال لقـلب مـا لـه جلد كيف العـزاء وثـاري عنـد جسـاس

ثم حمل على خاله فقتله وقال

ألم تـرني أبي كـليـبـا وقـد يـرجى المـرشـح للدخـول
غسلت العـار عن جسم ابن بكـر بـجسـاس بـن مـرة ذي البتـول
سـن العـداوة آبـاء لـنـا سلفـوا فـلن تـبـيـد ولـلآبـاء أبـنـاء

ويقال : دار عدوك لأحد أمرين ، إما لصداقة تؤمنك ، أو لفرصة تمكنك . وكتب سويد إلى مصعب :

فـبـلغ مـصـعـبـاً عـني رسـولي وهـل تلقي الـنصيـح بكـل واد
تـعـلم أن أكـثر مـن تـنـاجـي وان ضحكـوا إليـك هم الأعـادي

ويقال فلان كثير المراق من المذاق ، وقال الحجاج لخارجي : والله اني لأبغضك . قال : أدخل الله الجنة أشدنا بغضاً لصاحبه . ولما أراد أنو شروان[1] أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته فأنكروا عليه . وقال بعضهم : إن أمة تركية وقد علمت في أخلاقهم ما علمت . فقال ان الأبناء ينسبون إلى الآباء ، لا إلى الأمهات . وكانت أم قباذ تركية وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم . فقيل هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك . فقال : ان قصره من رجليه ، ولا يكاد يرى إلا جالساً أو راكباً ، فلا يستبين ذلك فيه . فقيل هو بغيض في الناس . أواه هلك ابني هرمز . فقد قيل إذا كان في الإنسان خير واحد ، ولم يكن ذلك الخير المحبة في الناس ، فلا خير فيه ، وإذا كان فيه عيب واحد ، ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه .

---

(١) انوشران : كسرى ملك الفرس . (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) وانوشران (كلمة فارسية) بمعنى ذو النفس الخالدة .

لست بــراء عيب ذي الــود كـلـه ولا بعض مـا فيه إذا كنت راضيـاً
فعـين الرضـا عن كـل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويـا

وفي المعنى قيل :

وعــين البغض تبــرز كــل عيب وعــين الحب لا تجـد العيــوبـا

و أبي حيان قال : قال لقمان نقلت الصخور ، وحملت الحديد ، فلم أر شيئاً أثقل من الدين . وأكلت الطيبات وعانقت الحسان ، فلم أر شيئاً ألذ من العافية وأنا أقول لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء ، خصوصاً إذا كانوا مساهمين في نسب ، أو مجاورين في بلد . اللهم أنا نعوذ بك من تتابع الاثم ، وسوء الفهم ، وشماتة ابن العم ، وقيل لأيوب عليه السلام أي شيء كان عليك في بلائك أشد قال : لشماتة الأعداء . وأنشد الجاحظ :

تـقـول الـعـاذلات تـسـل عـنهـا وداو عـلـيـل قـلـبـك بـالـسـلوّ
وكيف ، ونـظرة منهـا اختـلاسـا ألـذ مـن الـشـمـاتـة بـالـعـدوّ

وقال ابن أبي جهينة المهلبي :

كـل المصـائب قـد تمر عـلى الفتى فتهـون غـير شـمـاتـة الأعـداء

قال الجاحظ : ما رأيت سناناً أنفذ من شماتة الأعداء ، وقيل لما قبض رسول الله ﷺ وسمع بموته نساء من كندة ، وحضرموت ، فحضبن أيديهن وضربن بالدفوف فقال رجل منهم :

أبـلغ أبـا بـكـر إذا مـا جئـتـه إن الـبـغـايـا مـن بـني مرّام
أظهــرن في مــوت النبي شمـاتـة وخـضـبـن أيـديـهـن بـالـعـلام
فـاقـطع هـديت أكفهن بـصـارم كـالبـرق أومض في متـون غمـام

فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المهاجر عامله فأخذهن وقطع أيديهن . ويقال فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل ، ولا يؤمل صلاحاً إلا في فسادك ، ولا رفعة إلا في سقوط حالك . وقال حكيم : لا تأمن من عدوك وان كان ضعيفاً ، فان القناة قد تقتل ، وان عدمت السنان . قال الشاعر :

فـلا تـأمـن عـدوّك لـو تـراه أقـل إذا نـظرت مـن الـقـراد[1]
فـان الحـرب يـنشـأ مـن جبـان وان الـنـار تـضـرم مـن رمـاد

بيت مفرد :

فمن لم يكن منكم مسيئـاً فـإنـه يشـد عـلى كف المسيء فيجـلب

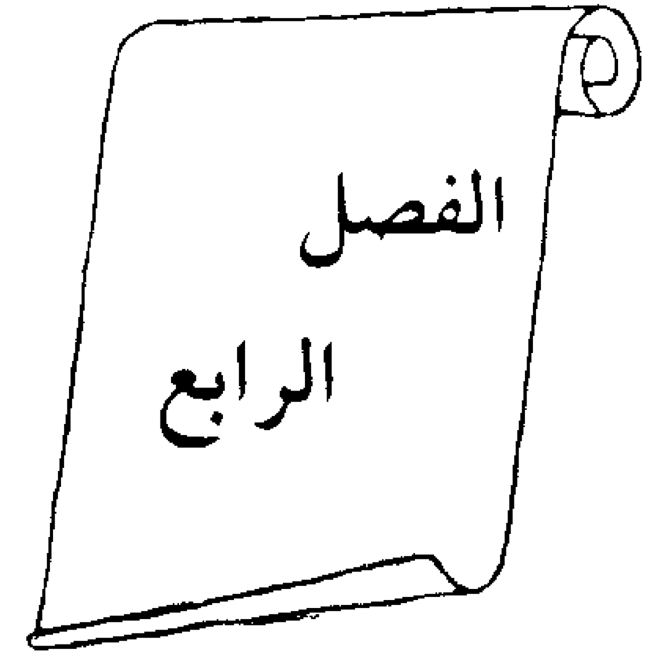
وقال عبد الله بن سليمان بن وهب :

كـفـايـة الله خـير من تـوقـيـنـا وعـادة الله في المـاضـين تكفينـا
كـاد الأعادي فـلا والله مـا تـركـوا قـولاً وفعـلاً وتلقينـا وتهجينـا

---

(١) القراد : حشرة صغيرة تتعلق بالبعير كما يتعلق القمل في الانسان .

ولم نــزد نـحن في ســر وفي عـلن　　عــلى مقــالتنــا يــا ربنــا أكفيـنــا
فــكــان ذاك ورد الله حــاسـدنــا　　بـغيــظه لم يـنــل تقــديــره فـينــا


الفصل
الرابع

في الحسد

قال الله تعالى : ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾(١) وقال رسول الله ﷺ : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود » . وقال عليّ رضي الله عنه الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له . وقيل بئس الشعار الحسد . وقيل لبعضهم ما بال فلان يبغضك . قال لأنه شقيقي في النسب . وجاري في البلد . وشريكي في الصناعة ، فذكر جميع دواعي الحسد . وقال اعرابي الحسداء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود ، وهو مأخوذ من الحديث : قاتل الله الحسد ما أعد له ، بدأ بصاحبه فقتله . وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمه الله تعالى : يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود . أولاها غم لا ينقطع ، الثانية ، مصيبة لا يؤجر عليها الثالثة مذمة لا يحمد عليها ، الرابعة سخط الرب . الخامسة يغلق عنه باب التوفيق. **من ذلك** ما حكي أن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه ، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان . وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه . ان لم أحتمل على هذا البدوي في قتله ، أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني عنه . فصار يتلطف بالبدوي ، حتى أتى به إلى منزله ، فطبخ له طعاماً ، وأكثر فيه من الثوم ، فلما أكل البدوي منه فقال له : احذر أن تقترب من أمير المؤمنين ، فيشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك ، فأنه يكره رائحته . ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به وقال يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس : إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه . فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم . فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال ان الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح . فكتب أمير المؤمنين كتاباً إلى بعض عماله يقول له فيه : إذا وصل إليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله ، ثم دعا بالبدوي ودفع إليه الكتاب وقال له امض به إلى فلان ، وائتني بالجواب . فامتثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين ، وأخذ الكتاب وخرج به من عنده فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير . فقال أين تريد قال أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان ، فقال الوزير في نفسه ان هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل . فقال له : يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار . فقال : أنت الكبير ، وأنت الحاكم ، ومهما رأيته

---

(٢) سورة النساء الآية ٥٤.

من الرأي افعل . قال اعطني الكتاب فدفعه إليه ، فأعطاه الوزير ألفي دينار وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصد . فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير : فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي . وسأل عن الوزير فأخبر بأن له أياماً ما ظهر ، وأن البدوي بالمدينة مقيم ، فتعجب من ذلك وأمر باحضار البدوي فحضر . فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير بما ليس لي به علم ، وإنما كان ذلك مكراً منه وحسداً ، واعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم ، وما جرى له معه . فقال : يا أمير المؤمنين قاتل الله الحسد ما أعدله،بدأ بصاحبه فقتله . ثم خلع على البدوي واتخذه وزيراً ، وراح الوزير بحسده . وقال المغيرة شاعر آل المهلب :

آل المهلب قوم ان مدحتهم ... كانوا الأكارم آباء وأجداداً
ان العرانين تلقاها محسدة ... ولا نرى للئام الناس حسادا

وقال عمر رضي الله عنه : يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك . وقال مالك بن دينار : شهادة القراء مقبولة في كل شيء ، إلا شهادة بعضهم على بعض ، فإنهم أشدتحاسداً من التيوس. وعن أنس رضي الله عنه . رفعه ان الحسد يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب . وقال منصور الفقيه :

منافسة الفتى فيما يزول ... على نقصان همته دليل
ومختار القليل أقل منه ... وكل فوائد الدنيا قليل

يقول الله عز وجل الحاسد عدوّ نعمتي ، متسخط لفعلتي ، غير راض بقسمتي ، التي قسمت لعبادي قال الشاعر :

أيا حاسداً لي على نعمتي ... أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه ... لأنك لم ترض لي ما وهب
فأخزاك ربي بأن زادني ... وسد عليك وجوه الطلب

وقال الأصمعي : رأيت اعرابياً بلغ عمره مائة وعشرين سنة . فقلت له ما أطول عمرك . فقال : تركت الحسد فبقيت . وقالوا لا يخلوا السيد من ودود يمدح وحسود يقدح . وقال ابن مسعود رضي الله عنه ألا لا تعادوا نعم الله ، قيل ومن يعادي نعم الله . قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم من فضله . وقيل لعبد الله بن عروة لم لزمت البدو وتركت قومك ؟ فقال وهل بقي إلا حاسد على نعمة ، أو شامت على نكبة.وقال الشاعر :

يا طالب العيش في أمن وفي دعة ... رغدا بلا قتر صفوا بلا رنق[1]
خلص فؤادك من غل ومن حسد ... فالغل في القلب مثل الغل في العنق

وقال آخر :

اصبر على حسد الحسـ ... ـود فان صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

---

(١) رنق : كدر . وصار الماء رنقةً : غلب الطين على الماء .

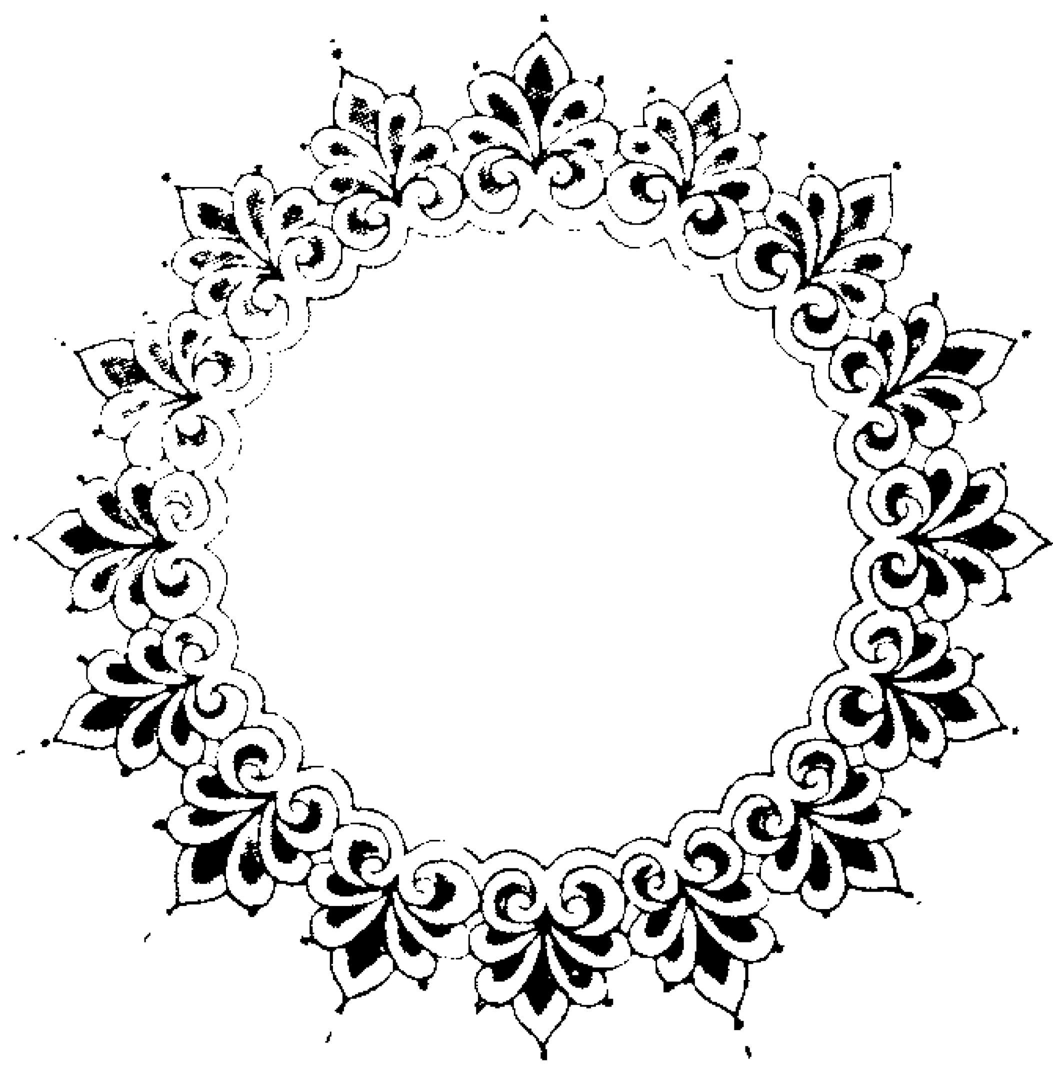
وفي نوابغ الحكم : الحسد حسك ، من تعلق به هلك ولبعضهم :

اني حسـدت فـزاد الله في حسـدي ... لا عاش من عاش يوماً غير محسود

وقال نصر بن سيار :

اني نشـأت وحسـادي ذوو أعـدد ... يـا ذا المعارج لا تنقص لهم عـددا
أن يحسدوني على مـا بي لمـا بهم ... فمثـل مـا بي ممـا يجلب الحسـدا

وكان عمر رضي الله عنه يقول : نعوذ بالله من كل قدر وافق ارادة حاسد . وقيل لارسطاطاليس ما بال الحسود أشد غمّاً . قال لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا ، ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس . والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الأربعون

في الشجاعة وثمرتها، والحروب وتدبيرها، وفضل الجهاد،وشدة البأس والتحريض على القال.

وفيه فصلان

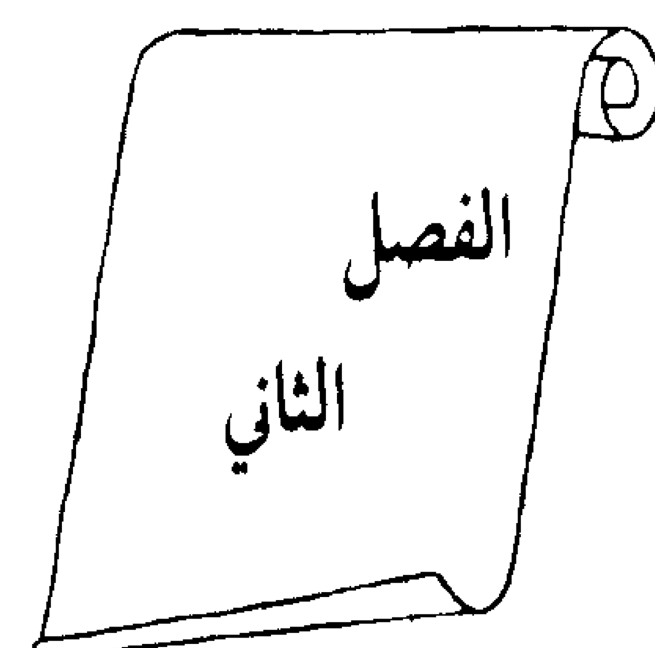
الفصل الاول

في فضل الجهاد في سبيل الله ، وشدة البأس

قد أثنى الله تعالى على الصابر في البأساء والضراء وحين البأس ، ووصف المجاهدين فقال تعالى : ﴿ **ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾[1]وندب إلى جهاد الأعداء ووعد عليه أفضل الجزاء ، والرأي في الحرب أمام الشجاعة قال رسول الله ﷺ « الحرب خدعة » . وقال ﷺ « ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم في سبيله ، أو قطرة دمع في جوف ليل من خشيته » . وسمع رجل عبد الله بن قيس رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ « إن الجنة تحت ظلال السيوف » فقال يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقوله قال نعم فرجع إلى أصحابه فقال اقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل . وكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد : اعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك ، وتراك ، فاذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة ، ولا تغسل الشهداء من دمائهم ، فان دم الشهيد يكون له نوراً يوم القيامة . وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حين انتهينا إلى خيبر ، الله أكبر ، خربت خيبر ، أنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » وعنه رفعه . لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها . وعن ابن مسعود رفعه : إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل . وقيل أن أنس بن النضر ، عم أنس بن مالك رضي الله عنه ، لم يشهد بدراً فلم يزل متحسراً يقول : أول مشهد شهده رسول

(١) سورة الصف الآية ٤ .

الله ﷺ غيبت عنه ، فلما كان يوم أحد قال واهالريح الجنــة دون أحد، فقاتل حتى قتل فوجد في بدنه بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ، ورمية . فقالت أخته الربيع بنت النضر فما عرفت أخي إلا ببنانه . وعن فضالة بن عبيد رفعه : « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فانه ينمي له عمله إلى يوم القيامة ، ويؤمن من فتنة القبر » وعن سهل بن حنيف رفعه : « من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وان مات على فراشه » . فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة ويجعلنا من الذين أحسنوا ، فلهم الحسنى وزيادة .



في الشجاعة وثمرتها ، والحروب وتدبيرها

اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل ، ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة يعبر عنها بالصبر وقوة النفس . قال الحكماء : وأصل الخير كله في ثبات القلب ، والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه : الوجه الأول إذ التقى الجمعان ، وتزاحف العسكران وتكالحت الأحداق بالأحداق ، برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكرّ وينادي هل من مبارز ، والثاني إذا نشب القوم واختلطوا ، ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت ، يكون رابط الجأش ، ساكن القلب حاضر اللب ، لم يخالطه الدهش ، ولا تأخذه الحيرة ، فيتقلب تقلب المالك لأموره ، القائم على نفسه . والثالث إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ، ويضرب في وجوه القوم ، ويحول بينهم وبين عدوهم ، ويقوي قلوب أصحابه ، ويرجي الضعيف ، ويمدهم بالكلام الجميل ، ويشجع نفوسهم ، فمن وقع أقامه ، ومن وقف حمله ، ومن كبا به فرسه حماه حتى ييأس العدو منهم . وهذا أحمدهم شجاعة وعن هذا قالوا : إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين ، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم .

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه في كتابه سراج الملوك . قال كان شيوخ الجند يحكون لنا في بلادنا قالوا : دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افترقوا فوجدوا في المعترك قطعة خودة قدر الثلث بما حوته الرأس ، فقالوا إنه لم ير قط ضربة أقوى منها ، ولم يسمع بمثلها في جاهلية ، ولا إسلام فحملتها الروم وعلقتها في كنيسة لهم ، فكانوا إذا عيروا بانهزامهم يقولون : لقينا أقواماً هذا ضربهم فيرحل أبطال الروم إليها ليروها . قالوا من الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وان كان ذليلاً ، ولا يغفل عنه وان كان حقيراً فكم برغوث أسهر فيلاً ، ومنع الرقاد ملكاً جليلاً قال الشاعر :

فلا تحقرن عدواً رماك ... وان كان في ساعديه قصر
فان السيوف تحز الرقاب ... وتعجز عما تنال الابر

واعلموا أن الناس قد وضعوا في تدبير الحروب كتباً ، ورتبوا فيها ترتيباً ، منها أشياء نبدأ منها أولاً بما ذكره

الله تعالى في القرآن العظيم قال الله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾[1] فقوله تعالى ما استطعتم مشتمل على كل ما هو في مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة . وفسر النبيﷺ القوة حين مر على أناس يرمون فقال « ألا ان القوة الرمي ألا ان القوة الرمي ، ألا ان القوة الرمي »، وأفضل العدة أن تقدم بين يدي اللقاء عملاً صالحا من صدقة وصيام ، ورد المظالم ، وصلة الرحم ، ودعاء مخلص ، وامر بمعروف ، ونهي عن منكر وأمثال ذلك . والشان كل الشان في استجادة القوادّ وانتخاب الامراء وأصحاب الألوية فقد قالت حكماء العجم أسد يقود ألف ثعلب ، خير من ثعلب يقود ألف أسد. فلا ينبغي أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة ، والنجدة والشجاعة ، والجرأة ، ثابت الجأش ، صارم القلب ، صادق البأس ممن قد توسط الحروب ، ومارس الرجال ومارسوه ، ونازل الأقران ، وقارع الأبطال ، عارفاً بمواضع الفرص ، خبيراً بمواقع القلب ، والميمنة ، والميسرة ، من الحروب ، فانه إذا كان كذلك ، وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعاً كأنهم مثله ، فأنه ان رأى لقراع الكتائب وجهاً ، وإلا ردّ الغنم إلى الزريبة . واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء ، وكان عظماء الترك يقولون ينبغي للعاقل العظيم القياد أن يكون فيه عدة أخلاق : من البهائم شجاعة الديك ، وبحث الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب على الجراح ، وحراسة الكركي ، وغارة الذئب ، وسمن نغير ، وهي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء . وكان يقال أشد خلق الله تعالى عشرة : الجبال والحديد ينحت الجبال ، والنار تأكل الحديد ، والماء يطفيء النار ، والسحاب يحمل الماء ، والريح تصرف السحاب ، والانسان يتقي الريح بجناحيه ، والسكر يصرع الإنسان ، والنوم يذهب السكر ، والهم يمنع النوم ، فأشد خلق ربك الهم ، اللهم إنّا نعوذ بك من الهم ، والحزن . ومن الحيل في الحرب أن يبث جواسيسه في عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم ، ويستميل قلوب رؤسائهم وذوي الشجاعة منهم ، فيدس إليهم ويعدهم وعداً جميلاً ويقوي أطماعهم في نيل ما عنده من الهبات الفخيمة ، والولايات السنية ، وان رأى وجهاً عاجلهم بالهدايا ، وسامهم . أما الغدر بصاحبهم ، وإما الاعتزال وقت اللقاء ، ويكتب على السهام أخباراً مزورة ، يرمي بها في جيوشهم . واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر ، وان الدول إذ زالت صارت حيلتها وبالاً عليها ، وإذا اذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة . وقال الحكماء إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة ، ويغلب الضعيف باقبال دولته ، كما يغلب القوي ببقاء مدته ، فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب ، أن تكون حماة الرجال ، وكماة الابطال في القلب ، فانه إذا انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة إلى القلب ، فاذا كانت رايته تخفق ، وطبوله تضرب ، كان حصناً للجناحين ، يأوي إليه كل منهزم ، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان ، مثال ذلك أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه ترجى عودته ولو بعد حين . وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان ،وقلَّ عسكر انكسر قلبه فأفلح ، أو تراجع . اللهم إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش ، فيخلي القلب قصداً أو تعمداً حتى إذا توسطه العدو ، واشتغل بنهبه انطبق عليه الجناحان ، فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب . ويقال حبب إلى عدوّك الفرار ، بأن لا تتبعهم إذا انهزموا . ويقال الشجاع محبب حتى إلى عدّوه ، والجبان مبغض حتى إلى أمه . ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه : أما تستعد ؟ قال عدتي ثياب قلبي ،

---

(١) سورة الانفال الآية ٦٠.

وإصابة رأيي ، ونصل سيفي ، ونصرة خالقي . وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع ، وذلك في أيام قتال يزيد بن المهلب[١] فأنشده مسلمة قول الحطيئة :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهار

فقال يزيد : إنما ذاك إذا حاربنا أكفاءنا ، وأما مثل هذا ونظرائه فلا ، فقام إليه مسلمة فقبله بين عينيه . وقيل لما مات ملك الفرس أرادوا أن يملكوا عليهم رجلاً من آل ساسان ، فوفد عليهم بهرام جور فقال : اعمدوا إلى أسدين جائعين فأطرحوا بينهما التاج فمن أخذه فهو الملك ففعلوا ، فدنا منهما فأهويا نحوه ، فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر ثم نطحه به فقتلهما جميعاً ، وشدّ على التاج فأخذه ووضعه على رأسه وملكته الفرس عليهم .

وقيل : لم يكن في العجم أرمى من الملك بهرام ، خرج يتصيد يوماً وهو مردف حظية له كان يعشقها ، فعرضت له ظباء . فقال في أي موضع تريدين أن أضع هذا السهم . فقالت أريد أن تشبه ذكرانها بالإناث ، وأناثها بالذكران ، فرمى ظبياً ذكراً بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه ، ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما في موضع القرنين . ثم سألته أن يجمع بين ظلف الظبي وأذنه بنشابة ، فرمى أصل الأذن ببندقة ثم أهوى الظبي برجله إلى أذنه ليحتك فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه . ويقال إن من أعظم المكايد في الحرب الكمين ، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع ، وحمي الذمار ، وحتى يلتفت فيرى وراءه بنداً منشوراً ، ويسمع صوت الطبل فحينئذ يكون همه خلاص نفسه ، وعليك بانتخاب الفرسان ، واختيار الأبطال ، ولا تنس قول الشاعر :

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عني

بل قد جرب ذلك فوجد الواحد خيراً من عشرة آلاف . وسأحكي لك من ذلك ما ترى فيه العجب . فمن ذلك لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن روميل النصراني على مدينة وشقة[٢] من ثغور بلاد الأندلس ، وكان العسكران كالمتكافئين كل واحد منهما يقارب عشرين الف مقاتل ، خيل ورجل . فحدث من حضر الوقعة من الأجناد قال : لما دنا اللقاء ، قال الطاغية بن روميل لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله ، استعلم لي من في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ، ومن غاب منهم ، ومن حضر . فذهب ثم رجع فقال : فيهم فلان وفلان فعدّ سبعة رجال . فقال له : أنظر في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة ، ومن غاب منهم فعدهم فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون . فقام الطاغية ضاحكاً مسروراً ، وهو يقول ما أبيضك من يوم . ثم ثارت الحرب بينهم فلم تزل المضاربة بين الفريقين ، ولم يول أحدهم دبره ، ولا تزحزح عن مقامه حتى فني أكثر العسكريين ، ولم يفر واحد منهم . قال : فلما كان وقت

---

(١) هو يزيد بن المهلب بن ابي صفرة الازدي ـ أبو خالد ـ امير من القادة الشجعان الاجواد ، ولي خراسان بعد وفاة ابيه (سنة ٨٣هـ) . ولما افضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك ولاه العراق ثم خراسان ، وافتتح جرجان وطبرستان . ثم نقل إلى امارة البصرة إلى ان استخلف عمر بن عبد العزيز فعزله .قتل بعد حروب كثيرة سنة(١٠٢هـ ـ ٧٢٠ م) . أنظر : اخباره في وفيات الاعيان (٢ : ٢٦٤) . وخزانة البغدادي (١ : ١٠٥) .

(٢) مدينة بالاندلس .

العصر نظروا إلينا ساعة ثم حملوا علينا جملة ، وداخلونا مداخلة ، ففرقوا بيننا وصرنا شطرين ، وحالوا بيننا وبين أصحابنا . فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا ، ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن في خسارة معهم. فأشار مقدّم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه . وانكسر عسكر المسلمين ، وتفرق جمعهم ، وملك العدو من مدينة وشقة فليعتبر ذو الحزم والبصيرة ، من جمع يحتوي على أربعين ألف مقاتل ، ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفراً ، وليعتبر بضمان العلج بالظفر ، واستبشاره بالغنيمة لما زاد في أبطاله رجل واحد .

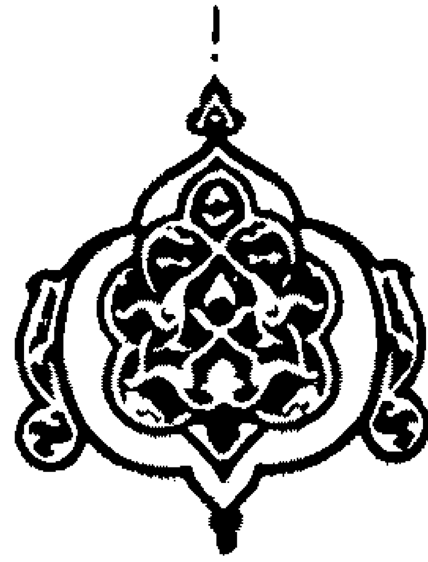
وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه . قال : سمعت أستاذنا القاضي أبا الوليد يحيى ، قال بينما المنصور بن عامر في بعض غزواته إذ وقف على نشز[1] من الأرض مرتفع فرأى جيوش المسلمين من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله . قد ملؤوا السهل والجبل ، فالتفت إلى مقدّم العسكر وهو رجل يعرف بابن المضجعي فقال له كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير . قال : أرى جمعاً كثيراً ، وجيشاً واسعاً كبيراً . فقال له المنصور وما ترى هل يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة . فسكت ابن المضجعي فقال له المنصور ما سكوتك أليس في هذا الجيش ألف مقاتل . قال لا ، فتعجب المنصور . ثم قال فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين قال لا ، فحنق المنصور ، ثم قال أفيهم مائة رجل من الأبطال قال لا ، قال فيهم خمسون رجلاً من الأبطال قال لا. قال فسبّه المنصور وأغلظ عليه وأمر به فأخرج على أسوأ حال ، فلما توسطوا بلاد الروم واجتمعت الروم وتصاف الجمعان فبرز علج من الروم بين الصفين شاكي السلاح وجعل يكر ويفر ويقول هل من مبارز؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج ، ففرح المشركون وصاحوا واضطرب المسلمون لها . ثم جعل العلج يموج بين الصفين وينادي هل من مبارز إثنين لواحد فبرز إليه رجل من المسلمين ، فتجاولا ساعة فقتله العلج وجعل يكر ويحمل وينادي ويقول هل من مبارز ثلاثة لواحد فبرز إليه رجل من المسلمين فقتله العلج . فصاح المشركون وذّل المسلمون وكادت أن تكون كسرة فقيل للمنصور ما لها إلا ابن المضجعي ، فبعث إليه فحضر . فقال له المنصور ألا ترى ما صنع هذا العلج الكلب منذ اليوم . فقال لقد رأيته فما الذي تريد . قال أن تكفي المسلمين شره قال الآن يكفى المسلمون شره إن شاء الله تعالى ، ثم قصد إلى رجال يعرفهم ، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراكها هزالاً ، وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس ، والرجل في حليته ونفسه غير متصنع . فقال له ابن المضجعي : ألا ترى ما يصنع هذا العلج منذ اليوم ، قال قد رأيته فما الذي تريد . قال أريد أن تكفي المسلمين شره . قال حباً وكرامة . ثم إنه وضع القربة بالأرض وبرز إليه غير مكترث به فتجاولا ساعة ، فلم ير الناس إلا المسلم خارجاً إليهم يركض ، ولا يدرون ما هناك وإذا برأس العلج يلعب بها في يده ثم ألقى الرأس بين يدي المنصور . فقال له ابن المضجعي عن هؤلاء الرجال أخبرتك . قال : فرد ابن المضجعي إلى منزلته وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين .

حكي أنه كان للعرب فارس يقال له ابن فتحون ، وكان أشجع العرب والعجم في زمانه . وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجري له في كل عطية خمسمائة دينار . وكانت جيوش الكفار تهابه وتعرف منه الشجاعة ، وتخشى لقاءه . فيحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له: ويلك لم لا تشرب هل رأيت ابن

(١) نشز المكان : ارتفع .

فتحون في الماء ، فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلته من السلطان . فوشوا به عند المستعين فأبعده ومنعه من عطائه . ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم فتقابل المسلمون والمشركون صفوفاً ، ثم برز علج إلى وسط الميدان ونادى وقال هل من مبارز فبرز إليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومي فصاح المشركون سروراً وانكسرت نفوس المسلمين وجعل الكلب الرومي يجول بين الصفين وينادي : هل من اثنين لواحد فخرج إليه فارس من المسلمين فقتله الرومي . فصاح الكفار سروراً ، وانكسرت نفوس المسلمين ، وجعل الكلب يجول بين الصفين وينادي ويقول : ثلاثة لواحد فلم يجترىء أحد من المسلمين أن يخرج إليه ، وبقي الناس في حيرة فقيل للسلطان ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون فدعاه وتلطف به ، وقال له : يا أبا الوليد أما ترى ما يصنع هذا العلج ؟ فقال ها هو بعيني ، قال فما الحيلة فيه ، قال : الساعة أكفي المسلمين شره ، فلبس قميص كتان واستوى على سرج فرسه بلا سلاح وأخذ بيده سوطاً طويلاً ، وفي طرفه عقدة معقودة ، ثم برز إليه فتعجب منه النصراني . ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون . وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ، ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج ، ثم انقلب في سرجه وحمل على العلج ، وضربه بالسوط فالتوى على عنقه فجذبه بيده من السرج فاقتلعه ، وجاء به يجره حتى ألقاه بين يديّ المستعين . فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في صنعه مع أبي الوليد بن فتحون فاعتذر إليه ، وأكرمه ، وأحسن إليه ، وبالغ في الإنعام عليه ، ورده إلى أحسن أحواله ، وكان من أعز الناس إليه . وينبغي لقائد الجيش أن يخفي العلامة التي هو مشهور بها ، فإن عدوّه وقد يستعلم حيلته ، وألوان حيله ، ورايته ولا يلزم خيمته ليلاً ولا نهاراً ، أو ليبدل زيه ، ويغير خيمته كيلا يلتمس عدوّه غرة منه ، وإذا سكنت الحرب فلا يمشي في النفر اليسير من قومه خارج عسكره ، فإن عيون عدوّه متجسسة عليه ، وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش أفريقية عند فتحها . وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار ، فجعل مقدّم العدوّ يمشي خارج عسكره يتميز عساكر المسلمين فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبي السرج وهو نائم في قبته ، فخرج فيمن وثق به من رجاله ، وحمل على العدوّ فقتل الملك وكان الفتح . وبمثل هذا قهر الب أرسلان ملك الترك ملك الروم وقمعه ، وقتل رجاله ، وأباد جمعه . وكانت الروم قد جمعت جيوشاً يقل أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلها ، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل ، كتائب متواصلة ، وعساكر مترادفة ، وكراديس يتلو بعضها بعضاً ، لا يدركهم الطرف ، ولا يحصيهم العدد ، وقد استعدوا من الكراع ، والسلاح ، والمجانيق ، والآلات المعدّة للحروب وفتح الحصون بما لا يحصى . وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين : الشام ، والعراق ، ومصر ، وخراسان ، وديار بكر . ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم ، وأن نجوم السعود قد خدمتهم . ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم إلى بلاد المسلمين ، واضطربت لها ممالك أهل الاسلام . فاحتشد للقائهم الملك الب ارسلان وهو الذي يسمى الملك العادل ، وجمع جموعه بمدينة أصبهان ، واستعد بما قدر عليه ، ثم خرج يؤمهم فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين . وقالوا لالب ارسلان غداً يتراءى الجمعان ، فبات المسلمون ليلة الجمعة ، والروم في عدد لا يحصيهم إلا الله الذي خلقهم ، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع ، فبقي المسلمون وجلين لما دهمهم ، فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض ، فهال المسلمون ما رأوا من كثرة العدوّ ، فأمر ألب ارسلان أن يعد المسلمون ، فبلغوا اثني عشر ألفاً ، فكانوا كالشامة البيضاء في الثور الأسود . فجمع ذوي الرأي من أهل الحرب والتدبير ، والشفقة على المسلمين ، والنظر في العواقب ،

واستشارهم في استخلاص أصوب الرأي فتشاوروا برهة ، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء. فتوادع القوم ، وتحاللوا ، وناصحوا الاسلام وأهله ، وتأهبوا أهبة اللقاء . وقالوا لألب ارسلان : باسم الله نحمل عليهم . فقال ألب أرسلان : يا معشر أهل الاسلام أمهلوا ، فان هذا يوم الجمعة ، والمسلمون يخطبون على المنابر ، ويدعون لنا في شرق البلاد وغربها ، فإذا زالت الشمس ، وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ودعوا الله أن ينصر دينه ، حملنا عليهم إذ ذاك . وكان الب ارسلان قد عرف خيمة ملك الروم ، وعلامته ، وزيه ، وزينته ، وفرسه . ثم قال لرجاله : لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلي ، ويتبع أثري ، ويضرب بسيفه ويرمي سهمه حيث أضرب بسيفي ، وأرمي بسهمي ، ثم حمل برجاله حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونها ، ووصلوا إلى الملك فقتلوا من كان دونه ، وجعلوا ينادون بلسان الروم :قتل الملك ، قتل الملك . فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل ، فتبددوا ، وتمزقوا كل ممزق ، وعمل السيف فيهم أياماً ، وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم . وأتوا بالملك أسيراً بين يديّ ألب ارسلان ، والحبل في عنقه . فقال له ألب أرسلان ماذا كنت تصنع بي لو أسرتني ، قال : وهل تشك أنني كنت أقتلك . فقال له ألب أرسلان أنت أقل في عيني من أن أقتلك اذهبوا به فبيعوه لمن يزيد فيه ، فكان يقاد والحبل في عنقه ، وينادي عليه من يشتري ملك الروم . وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام ، ومنازل المسلمين وينادون عليه بالدراهم ، والفلوس فلم يدفع فيه أحد شيئاً حتى باعوه من انسان بكلب ، فأخذه الذي ينادي عليه ، وأخذ الكلب وأتى بهما إلى ألب ارسلان وقال قد طفت به جميع العسكر ، وناديت عليه ، فلم يبذل أحد فيه شيئاً ، سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب . فقال قد أنصفك . أن الكلب خير منه ، ثم أمر الب ارسلان بعد ذلك باطلاقه وذهب إلى القسطنطينية ، فعزلته الروم وكحلوه بالنار . فانظر ماذا يأتي على الملوك إذا عرفوا في الحرب من الحيلة ، والمكيدة . اللهم انصر جيوش المسلمين ، وعساكر الموحدين وأهلك الكفرة والمشركين ، وانصر المسلمين نصراً عزيزاً برحمتك يا أرحم الراحمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .



الباب الحادي والاربعين

في ذكر أسماء الشجعان ، وذكر الأبطال ، وطبقاتهم ، وأخبارهم وذكر الجبناء، وأخبارهم، وذم الجبن.

الطبقة الأولى الذين أدركوا الجاهلية والاسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، عم رسول الله ﷺ أسد الله ، وأسد رسوله ﷺ قتل في غزاة أحد رماه وحشي مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله وكان فارس قريش غير مدافع وبطلها غير ممانع وعظم قتله على النبي ﷺ ونذر أن يقتل به سبعين رجلاً من قريش ، وكبر عليه في الصلاة سبعين تكبيرة . أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه ، آية من آيات الله ، ومعجزة من معجزات رسول الله ﷺ ، ومؤيد بالتأييد الإلَهي ، كاشف الكروب ومجليها ، ومثبت قواعد الاسلام ومرسيها ، وهو المتقدم على ذوي الشجاعة كلهم بلا مرية ، ولا خلاف . روي عنه رضي الله عنه أنه قال : والذي نفس ابن أبي طالب بيده ، لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من موتة على فراش . وقال بعض العرب ما لقينا كتيبة فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلا أوصى بعضنا على بعض . وقال رضي الله عنه لمعاوية : قد دعوت الناس إلى الحرب فدع الناس جانباً وأخرج إليّ ليعلم أينا المران على قلبه ، والمغطى على بصره ، وأنا أبو الحسن قاتل جدك ، وخالك ،وأخيك شدخاً[1] يوم بدر ،وذلك السيف معي ، وبذلك القلب ألقى عدوّي . وقيل له كرم الله وجهه . إذا جالت الخيل ، فأين نطلبك ؟ قال : حيث تركتموني . وقيل له كيف كنت تقتل الأبطال . قال : لأني كنت ألقى الرجل فأقدر أني أقتله ، ويقدر هو أني قتلته ، فأكون أنا ونفسه عوناً عليه . وقال : مصعب بن الزبير كان علي رضي الله عنه حذراً في الحروب ، شديد الروغان ، لا يكاد أحد يتمكن منه ، وكان درعه صدراً لا ظهر لها . فقيل له أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك ؟ فقال: إذا مكنت عدوّي من ظهري فلا أبقى الله عليه ، إن أبقى عليّ . قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي لعنة الله تعالى عليه،غدره وهو في صلاة الصبح . وسبب ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم لعنة الله تعالى عليه مكررة تزوج بقطام بنت علقمة وكانت خارجية فقالت له لا أقنع إلا بصداق اسميه . وهو ثلاثة آلاف درهم ، وعبد وأمة ، وأن تقتل علي بن أبي طالب . فقال لها لك ما سألت إلا علي بن أبي طالب وكيف لي به . قالت : تغتاله فإن سلمت أرحت الناس من شره وأقمت مع أهلك وان أصبت دخلت الجنة فقال :

ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب علي بالحسام المخذم[2]

(١) شدخه السيف: اي قطعه من رأسه حتى وسطه.
(٢) خذم : خذمه: قطعه . وسيف خذم : قاطع . واذن خذيم : مقطوعة . والخذماء من الشاة: التي شقت أذنها عرضاً ولم تبن .

فـلا مهر أغـلى من عـلي وان عـلا   ولا فيـك إلا دون فتك ابن ملجم

قيل أنه طعنه وهو داخل المسجد في الغلس[1] وذلك في التاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين . كفن رضي الله عنه في ثلاثة أثواب ودفن في الرحبة ، مما يلي كندة من أبواب المسجد . قالوا ولما ضربه ابن ملجم لعنه الله ثار الحسن ، والحسين ، وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم فاحتضنوه ، وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب فأخذه فأومأ عليّ رضي الله عنه إلى المغيرة أن صل بالناس . فصلى بهم الفجر . وأقبلت همدان فدخلوا على علي فقالوا : يا أمير المؤمنين لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله تعالى . فقال لا تفعلوا إنما النفس بالنفس . قال ثم إن الحسن رضي الله عنه صلى الفجر ، وصعد المنبر فأراد الكلام فخنقته العبرة ثم نطق فقال : الحمد لله على ما أحببنا وكرهنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسولهﷺ ، واني أحتسب عند الله عز وجل مصابي بأفضل الآباء رسول الله القائلﷺ : من أصيب بمصيبة فليتسل بمصيبته في فإنها أعظم المصائب . والله الذي لا إله إلا هو ، الذي أنزل على عبده الفرقان ، لقد قبض في هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول اللهﷺ . ولا يدركه الآخرون . فعند الله نحتسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمدﷺ . فوالله لا أقول اليوم إلا حقاً لقد دخلت مصيبة اليوم على جميع العباد ، والبلاد ، والشجر والدواب . ولقد قبض في الليلة التي رفع فيها عيسى بن مريم عليهما السلام إلى السماء ، وقبض فيها موسى بن عمران ، ويوشع بن نون عليهما السلام . وأنزل فيها القرآن على محمدﷺ . ولقد كان رسول اللهﷺ يبعثه في السرية ، ويسير جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، فما يرجع حتى يفتح الله عز وجل على يديه . وما ترك صفراء ، ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله ، ألا إن أمور الله تعالى تجري على أحوالها ، فما أحسنها من الله ، وأسوأها من أنفسكم ، ألا ان قريشاً أعطت أزمتها شياطينها ، فقادتها بأعنتها إلى النار . فمنهم من قاتل رسول اللهﷺ حتى أظهره الله تعالى عليهم . ومنهم من أسر الضغينة حتى وجد على النفاق أعواناً رفع الكتاب وجف القلم . وأمور تقضي في كتاب قد خلا . ثم أطرق الحسن . فبكى الناس بكاءً شديداً ثم نزل فجرد سيفه ودعا بابن ملجم فأقبل يخطر واضعاً شعره على أذنيه ، حتى قام بين يديه . فقال يا حسن : اني ما عاهدت الله تعالى على عهد قط إلا وفيت به . عاهدت الله تعالى على أن أقتل أباك وقد قتلته . فإن تخلني أقتل معاوية . فإن أنا قتلته أضع يدي على يدك . وأن أقتل فهو الذي تريد . فقال الحسن رضي الله عنه : أما والله لا سبيل إلى بقائك ، ثم قام إليه فضربه بالسيف فاتقاه ابن ملجم بيده ، ثم أسرع السيف فيه فقتله . ومن الابطال خالد بن الوليد بن المغيرة المخذومي رضي الله عنه ، سيف الله ، وسيف رسولهﷺ ، بطل مذكور ، وفارس مشهور ، في الجاهلية والاسلام . قتل مالك بن نويرة[2] ، وقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله . وكان الفتح لخالد يوم اليمامة ، وهو الذي فتح دمشق وأكثر بلاد الشام ، وله وقائع عظيمة في الروم أيدّ الله بها

---

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل .

(٢) مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي ـ أبو حنظلة ـ فارس ، شاعر . يقال له : « فارس ذي الخمار » ادرك الاسلام وأسلم ولاه رسول اللهﷺ صدقات قومه (بني يربوع) ارتد . فقتله ضرار بن الاوزور الاسدي بأمر من خالد بن الوليد . سنة : (١٢هـ ـ ٦٣٤ م) .
أنظر : الشعر والشعراء (١١٩) . الاصابة (ت ٧٦٩٨) .

الاسلام ، مات على فراشه . وكان يقول : لقد شهدت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدي موضع شبر ، إلا وفيه أثر من طعنة ، أو ضربة ، أو رمية ، وها أنا أموت على فراشي ، لا نامت عين الجبان ، وكان ينشد ويتجز ويقول رضي الله عنه:

لا تـرعبـونـا بـالسيـوف المبرقـة ان الـسـهـام بـالـردى مـفـوّقـة
والحـرب دونها العقـال مـطلقـة وخـالـد مـن ديـنـه عـلى ثـقـة

الزبير بن العوام رضي الله عنه حواريّ رسول الله ﷺ ، وابن عمته ، بطل شجاع لا يماري ، وشهم لا يجارى ، قتله عمرو بن جرموز ، اغتاله وهو في الصلاة . عمرو بن معد كرب الزبيدي ، فارس من فرسان الجاهلية ، وله مواقف مذكورة ، ومواطن مشهورة ، وأسلم ثم ارتد ، ثم عاد إلى الإسلام وشهد حروب الفرس ، وكان له فيها أفعال عظيمة ، وأحوال جسيمة . وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رآه قال الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمراً . روي عنه رضي الله عنه أنه سأل يوماً فقال له : يا عمرو أي السلاح أفضل في الحرب؟ قال فعن أيها تسأل . قال : ما تقول في السهام ، قال : منها ما يخطىء ويصيب . قال : فما تقول في الرمح . قال : أخوك ربما خانك ، قال فما تقول في الترس . قال هو الدائرة ، وعليه تدور الدوائر . قال : فما تقول في السيف . قال : ذلك العدة عند الشدة . وقيل : انه نزل يوم القادسية على النهر فقال لأصحابه : انني عابر على هذا الجسر ، فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور ، وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي ، وقد عرفني القوم ، وأنا قائم بينهم ، وان أبطأتم وجدتموني قتيلاً بينهم ، ثم انغمس فحمل على القوم . فقال بعضهم لبعض يا بني زبيد علام تدعون صاحبكم ، والله ما نظن إنكم تدركونه حياً فحملوا فانتهوا إليه وقد صرع عن فرسه . وقد أخذ برجل فرس رجلاً من العجم ، فأمسكها الفارس يضرب فرسه ، فلم تقدر أن تتحرك ، فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه ، وخلّى فرسه فركبه عمرو . وقال أنا أبو ثور كدتم والله تفقدونني ، فقالوا أين فرسك . فقال رمي بنشابة فغار ، وشب فصرعني . ويروي أنه حمل يوم القادسية على رستم ، وهو الذي كان قدّمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين ، فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل ، فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوبه فسقط رستم ، وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار . فقتل رستم وانهزمت العجم . وقتل عمرو بنهاوند في وقعة الفرس بعد أن عمّر حتى ضعف ، وكان من الشعراء المعدودين . وفيه يقول العباس بن مرداس :

إذا مـات عمرو قلت للخيـل اوطئي زبيـداً فقـد أودى بنجـدتهـا عمـرو

طلحة الأسدي رضي الله عنه ، كان من أكبر الشجعان جاهلية واسلاماً ، ثم ارتد وتنبأ وجمع جمعاً عظيماً ففل خالد بن الوليد جمعه . وكان يتكهن ، ثم عاد إلى الاسلام وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح . المقداد بن الأسود رضي الله عنه ، كان من أشجع الفرسان ، شديد البأس ، قوي الجنان ، رابط الجأش ، وله في الشجعان اسم مشهور ، ووصف مذكور ، يعجز الواصف عن وصف صفاته رضي الله عنه وأرضاه . سعد بن أبي وقاص الزهري الأنصاري رضي الله عنه ، كان فارساً بطلاً رامياً ، وهو

أول من رمى في سبيل الله بسهم . ولما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه اعتزل ولم يشهد الحرب بعده ، ومات حتف أنفه. أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه الذي خرج يتبختر بين الصفين فقال عليه الصلاة والسلام انها لمشية يبغضها الله تعالى إلا في هذا الموضع . المثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه هو أوّل من فتح حرب الفرس . أبو عبيد بن مسعود الثقفي رضي الله عنه قاتل القوم يوم قس الناطف في حرب القادسية. عمار بن ياسر رضي الله عنه صاحب رسول الله والذي قال فيه رسول الله : الحق يدور مع عمار حيث دار ، وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية فقتل بصفين وكان مع علي رضي الله عنه . هاشم ابن عتبة رضي الله عنه من أكابر الشجعان ، صاحب راية علي رضي الله عنه بصفين. مالك بن الحرث النخعي الأشتر رضي الله عنه مات مسموماً في شربة من عسل . فقال معاوية ان لله جنوداً منها العسل . القمقاع بن عمرو طاعن الفيل في عشية القادسية رضي الله عنه .

الطبقة الثانية عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه قاتل جرجير ملك أفريقية الذي كان يرى أنه أشجع أهل عصره . قال عمر بن عبد العزيز لابن أبي مليكة : صف لي عبد الله بن الزبير . فقال : والله ما رأيت جلداً قط ركب على لحم ، ولا لحماً على عصب ، ولا عصباً على عظم ، مثل جلده ، ولحمه ، وعصبه . ولا رأيت نفساً بين جنبين مثل نفس ركبت بين جنبيه ، ولقد قام يوماً إلى الصلاة فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحيته وصدره فوالله ما خشع له بصره ، ولا قطع له قراءته ، ولا ركع دون الركوع الذي كان يركع . قتله الحجاج بعد أن حوصر بمكة ، وأسلمه أصحابه وعشيرته ، وصلبه الحجاج ، ألا إلى الله تصير الأمور . أبو هاشم محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية رضي الله عنه كان أبوه يلقيه في الوقائع ، ويتقي به العظائم ، وهو شديد البأس ، ثابت الجنان . قيل له يوماً ما بال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه يقحمك الحروب ، دون الحسن والحسين رضي الله عنهما . فقال لأنهما كانا عينيه ، وكنت أنا يديه ، فكان يتقي عينيه بيديه . وقيل إن أباه علياً رضي الله عنه اشترى درعاً فاستطالها فأراد أن يقطع منها . فقال له محمد : يا أبت علّم موضع القطع ، فعلّم على موضع منها ، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها ، وبالأخرى على موضع العلامة ، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حدّه أبوه . وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه في الشجاعة يحسده على قوته ، وإذا حدث بهذا الحديث غضب . مات حتف أنفه بشعب رضوي . عبد الله بن حازم السلمي رضي الله عنه ، والي خرسان ، شجيع مضر وفارسها في عصره ، قتله وكيع بن أبي سويد بخراسان في الفتنة. وكيع بن أبي سويد قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره ، شجاع فاتك أهوج والي خراسان ، قيل لما قتل عبد الله بن حازم ، ولم يتم أمره لهوجه مات حتف أنفه. مصعب بن الزبير بن العوام شجاع بطل جواد ، جاد بما له وبنفسه ، قتله عبيد الله بن زياد في الحروب التي كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان. عمير بن الحباب السلمي فارس الاسلام ، قتله بنو تغلب في الحرب التي كانت بينهم وبين قيس . مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، فحل بني أمية وفارسها ووالي حروبها ، قيل إنه جلس يوماً ليقضي بين الناس بمصر فكلمته امرأة ، فلم يقبل عليها فقالت ما رأيت أقل حياء من هذا قط . فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات . فقال لها هل ترين أثر هذا الطعن . والله لو أخرت رجلي قيد شبر ما أصابتني واحدة منهن ، وما منعني من

تأخيرها إلا الحياء ، وأنت تنحليني قلته . المعتصم بطل شجاع ، فارس صنديد ، لم يكن في بني العباس أشجع منه ولا أشد قلباً قال ابن أبي داود : كان المعتصم يقول لي : يا أبا عبد الله عض على ساعدي بأكثر قوتك . فأقول : والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك . فيقول إنه لا يضرني فأروم ذلك . فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة ، فكيف تعمل فيه الأسنان . ويقال إنه طعنه بعض الخوارج وعليه درع . فأقام المعتصم ظهره فقصم الرمح نصفين ، وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها ، ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقاً في العنق . ابراهيم بن الأشتر النخعي كان من الشجعان المعدودين ، حارب عبيد الله بن زياد وهو في أربعة آلاف ، وعبيد الله في سبعين ألفاً فظفر به ، وقتله بيده ، وهزم جيشه . عبد الله بن الحر الجعفي ، شجاع ، شاعر فاتك ، له وقائع عظيمة هائلة ، وأخباره في الشجاعة مشهورة . جحدر بن ربيعة العكلي كان بطلاً شجاعاً فاتكاً مغيراً ، شاعراً ، قهر أهل اليمامة ، وأبادهم فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف فكتب إلى عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه ، ويأمره بالتجرد له حتى يقتله . أو يحمله إليه أسيراً . فوجه العامل إليه فتية من بني حنظلة ، وجعل لهم جعلاً عظيماً ان هم قتلوا جحدراً أو أتوا به أسيراً ، فتوجه الفتية في طلبه ، حتى إذا كانوا قريباً منه ، أرسلوا يقولون له ، إنهم يريدون الانقطاع إليه والارتفاق به ، فوثق بذلك منهم ، وسكن إلى قولهم ، فبينما هو معهم يوماً ، إذ وثبوا عليه فشدوه وثاقاً ، وقدموا به على العامل فوجه به إلى الحجاج معهم ، فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له : أنت جحدر . قال نعم أصلح الله الأمير قال ما جرأك على ما بلغني عنك . قال أصلح الله الأمير : كلب الزمان ، وجفوة السلطان ، وجرأة الجبان . قال وما بلغ من أمرك . قال لو ابتلاني الأمير ، وجعلني مع الفرسان لرأى مني ما يعجبه . قال فتعجب الحجاج من ثبات عقله ، ومنطقه ، ثم قال يا جحدر إني قاذف بك في حاجر فيه أسد عظيم فإن قتلك كفانا مؤنتك ، وان قتلته عفونا عنك . قال أصلح الله الامير قرب الفرج إن شاء الله تعالى فأمر به فصفدوه بالحديد ، ثم كتب إلى عامله أن يرتاد له أسداً ويحمله إليه . فتحيل العامل وارتاد له أسداً كان كاسراً خبيثاً قد أفنى عامة المواشي ، فتحيلوا حتى أخذوه وصيروه في تابوت وسحبوه على عجل . فلما قدموا به على الحجاج أمر به ، فألقي في الحاجر ولم يطعم شيئاً ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب ، ثم أمر بجحدر ، فلما نظر الأسد إلى جحدر نهض ، ووثب ، وتمطى وزعق زعقة دويت منها الجبال ، وارتاعت أهل الأرض ، فشد عليه جحدر وهو ينشد ويقول :

ليث وليث في مجال ضنك ... كلاهما ذو قوة وسفك
وصولة وبطشة وفتك ... أن يكشف الله قناع الشك
فأنت لي في قبضتي وملكي

ثم دنا منه ، وضربه بسيفه ، ففلق هامته ، فكبّر الناس ، وأعجب الحجاج ذلك . وقال لله درك ما أنجبك . ثم أمر به فأخرج من الحاجز ، وفك عنه قيوده ، وقال له اختر إمّا أن تقيم معنا فنكرمك ، ونقرّب منزلتك ، وأما أن نأذن لك فتلحق ببلادك وأهلك ، على أن تضمن لنا أن لا تحدث بها حدثاً ، ولا تؤذي بها أحداً قال بل اختار صحبتك أيها الامير ، فجعله من سماره وخواصه ، ثم لم يلبث أن ولاه على اليمامة ، وكان من أمره ما كان المهلب بن أبي صفرة كان من الشجعان ، ومن الأبطال المعدودة ،

وأولاده كلهم أنجاد أبطال ، إلا أن المغيرة من بينهم ، كان أشد تمكناً ، وكان المهلب يقول : ما شهد معي حرباً ، إلا رأيت البشرى في وجهه ، وحمل عليه بعض الشجعان وفي يده شجرة ، فلما رآها نكس رأسه على قربوس السرج ، وحمل من تحتها فبراها بسيفه ، وكان المهلب يقول أشجع الناس ثلاثة : ابن الكلبية ، واحمر قريش ، وراكب البغلة . فإبن الكلبية ، مصعب بن الزبير . وأحمر قريش عمر بن عبيد الله بن معمر . ما لقي خيلاً قط إلا فرقها . وراكب البغلة عباد بن الحصين ، ما كان قط في كربة إلا فرجها ، وهو من فرسان الاسلام ، وكان للمهلب في الحروب مكايد مشهورة ، ووقائعه أبادت الخوارج بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين ، وكان سيداً كريماً ، مات حتف أنفه وكذلك ابنه المغيرة وفيه يقول زياد الأعجم :

مـات المغيـرة بعـد طـول تعـرض   لـلقتـل بـين أسنـة وصفـائـح

وكان في الخوارج فوارس مشهورة ، لا تثبت لهم الرجال ، وذكرهم يطول ويخرج عما أردناه . فمنهم أبو بلال مرداس خرج في أربعين فهزم ألفين. وشبيب الخارجي الذي غرق في الفرات ، نذرت امرأته غزالة أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين ، تقرأ في الأولى البقرة ، وفي الثانية آل عمران ، فعبر بها جسر الفرات ، وأدخلها الجامع ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرها ، والحجاج في الكوفة في خمسين ألفاً . ومنهم قطري بن الفجاءة ، كان رأي الخوارج ، وخاطبوه بأمير المؤمنين ، وعظموه وبجلوه ، وأشعاره في الشجاعة تدل على مكانه منها . قتل في بعض وقائع الخوارج .

الطبقة الثالثة معن بن زائدة الشيباني قتله الخوارج بسجستان في أيام المهدي . الوليد بن طريف الشيباني قتله يزيد بن مزيد . عمرو بن حنيف كان من الفرسان المعدودة نقل عنه إنه كان يتصيد فتتبع حمار وحش ، وما زال يركض إلى أن حاذاه فجمع رجليه ووثب من على فرسه ، وصار على ظهر حمار الوحش ، وصار يحز عنقه بسيف أو سكين في يده حتى قتله . أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي ، فارس بطل شاعر ، نديم ، جامع لما تفرق في غيره ، طعن فارسين رديفين فأنفذ الرمح من ظهريهما ، وحمل برمحه أربعة نفر ، وفيه يقول بكر بن النطاح .

قـالـوا وينـظم فـارسـين بـطعنـة   يـوم الـلقـاء ولا يـراه جـليـلاً
لا تعجبـوا لـو كـان مَـدُّ قنـاتـه   ميـلاً إذا نـظم الـفـوارس ميـلا

وسأله يوماً رجل شيئاً . فقال له أتسأل وجدك القائل :

ومن يفتقـر منـا يعش بـحسـامـه   ومن يفتقـر من سائـر النـاس يسأل
وأنـا لنلهـو بـالسيـوف كـما لهت   فتـاة بعقـد أو سخـاب قـرنـفـل

فخرج الرجل ، فجرد سيفه ، فلم يصادفه في طريقه إلا وكيل لأبي دلف ومعه مال جزيل ، فاستلبه منه وقتله ، فبلغ الخبر أبا دلف فقال : دعوه فإني علمته في نفسي . بكر بن النطاح بطل شجاع ، فارس فاتك ، له أشعار مشهورة ، وأخبار مذكورة

ومما جاء في مدح السيف قال رسول الله ﷺ : الخير في السيف ، والخير مع السيف ، والخير بالسيف ،

وكان صمصام[1] عمرو ، وأشهر سيوف العرب وممن تمثل به نهشل فقال :

أخ ماجد ما خانني يوم مشهد ... كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن قال :

خليلي لم أخنه ولم يخني ... إذا ما صاب أوساط العظام
خليلي لم أهبه من قلاه ... ولكن المواهب للكرام
حبوت به كريماً من قريش ... فسر به وصين عن اللئام
وودعت الصفي صفيّ نفسي ... على الصمصام أضعاف السلام

ولم يزل في آل سعيد ، حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسري بمال جزيل لهشام ، وكان قد كتب إليه فيه . فلم يزل عند بني مروان ، ثم طلبه السفاح ، والمهدي فلم يجدوه ، فجدّ الهادي في طلبه حتى ظفر به وكان مكتوباً عليه هذا البيت :

ذكر على ذكر يصول بصارم ... ذكر ايمان في يمين يماني

وقال ابن الرومي :

لم أر شيئاً حاضراً نفعه ... للمرء كالدرهم والسيف
يقضي له الدرهم حاجاته ... والسيف يحميه من الحيف[2]

وقال زيد بن علي رضي الله عنهما :

السيف يعرف عزمي عند هزته ... والرمح بي خبر ، والله لي وزر
إنّا لنأمل ما كانت أوائلنا ... من قبل تأمله إن ساعد القدر

وقال عبد الله بن طاهر :

يبيت ضجيعي السيف طوراً وتارة ... تعض بهامات الرجال مضاربه
أخو ثقة أرضاه في الروع صاحباً ... وفوق رضاه أنني أنا صاحبه
وليس أخو العلياء إلا فتى له ... بها كلف ما تستقر ركائبه

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله فطلب منه سيف الزبير وقال له : رده عليّ ، فإنه السيف الذي أعطاه رسول الله ﷺ له يوم حنين . فقال له عبد الملك أو تعرفه قال نعم : قال بماذا قال . أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك أعرفه بقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وقال الأجدع الهمداني :

لقد علمت نسوان همدان أنني ... لهن غداة الروع غير خذول

---

(١) الصمصام : السيف .
(٢) الحيف : الجور والظلم .

وأبـــذل في الهيجـــاء وجـهي وانـــني　　لــه في ســوى الهيجـاء غـير بـــذول

وقال آخر :

عشـــرون ألف فتى ما منهم أحـــد　　إلا كـــألـف فتى مـقـــدامـــة بـــطل
راحـــت مـــزاودهـــم مـمـــلوءة أمـــلاً　　ففـــرغـوهـــا وأوكـوهـــا من الأجـــل

ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد : قال : نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين وكنت مشغوفاً بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها ، فبينما أنا أدور في بعض أحيائهم إذا أنابامرأة واقفة في فناء خبائها ، وهي آخذة بيد غلام قلّما رأيت مثله في حسنه وجماله ، له ذؤبتان كالسبج[1] المنظوم ، وهي تعاتبه بلسان رطب ، وكلام عذب ، تحن إليه الأسماع ، وترتاح له القلوب ، وأكثر ما أسمع منها : أي بني وهو يتبسم في وجهها ، قد غلب الحياء والخجل ، كأنه جارية بكر لا يرد جواباً . فاستحسنت ما رأيت واستحليت ما سمعت ، فدنوت منه ، وسلمت فرد عليّ السلام ، فوقفت أنظر إليهما . فقالت : يا حضري ما حاجتك ، فقلت الاستكثار مما أسمع ، والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام . فقالت : يا حضري إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من منظره . فقلت : قد شئت يرحمك الله . فقالت : حملته والرزق عسر ، والعيش نكد ، حملاً خفيفاً حتى مضت له تسعة أشهر ، وشاء الله عز وجل أن أضعه ، فوضعته خلقاً سوياً ، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه ، حتى أفضل الله عز وجل وأعطى ، وأتى من الرزق بما كفى وأغنى ، ثم أرضعته حولين كاملين ، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه فربى كأنه شبل أسد ، أقيه برد الشتاء ، وحر الهجير . حتى إذا مضت له خمس سنين ، أسلمته إلى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه ، وعلمه الشعر فرواه ، ورغب في مفاخر قومه وآبائه وأجداده . فلما أن بلغ الحلم ، واشتد عظمه ، وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرس ، وتمرس ، ولبس السلاح ، ومشى بين بويتات الحي الخيلاء . فأخذ في قرى الضيف ، وإطعام الطعام ، وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه . فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب ، فخرج فتيان الحي في طلب ثأر لهم ، وشاء الله تعالى ان أصابته وعكة شغلته عن الخروج ، حتى إذا أمعن القوم ولم يبق في الحي غيره ، ونحن آمنون وادعون إلى أن أدبر الليل ، وأسفر الصباح ، حتى طلعت علينا غرر الجياد ، وطلائع العدو ، فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها ، وهو يسألني عن الصوت ، وأنا أستر عنه الخبر اشفاقاً عليه ، وضناً به إذ علت الأصوات وبرزت المخدرات ، رمى دثاره ، وثار كما يثور الأسد ، وأمر باسراج فرسه ، ولبس لامة حربه ، وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم ، فطعن أدناهم منه فرمى به ، ولحق أبعدهم منه فقتله ، فانصرفت وجوه الفرسان فرأوه صبياً صغيراً ، لا مدد وراءه . فحملوا عليه فأقبل يؤم البيت ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة ، حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم ففرق شملهم ، وشتت جمعهم ، وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق ، ومرق كما يمرق السهم ، وناداهم خلوا عن المال فوالله لا رجعت إلا به ، أو لأهلكن دونه . فانصرفت إليه الأقران ، وتمايلت نحوه الفرسان ، وتميزت له الفتيان وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنة وعطفوا عليه بالأعنة . فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الأبل . وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها ، ولا كتيبة إلا مزقها ، حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه

---

(١) السبج : الخرز الاسود .

ثم ساق المال ، وأقبل به فكبر القوم عند رؤيته ، وفرح الناس بسلامته ، فوالله ما رأينا قط يوماً كان أسمح صباحاً ، وأحسن رواحاً من ذلك اليوم ، ولقد سمعته يقول في وجوه فتيان الحي هذه الأبيات :

تـأملن فعـلي هـل رأيتن مثله ... إذا حشرجت نفس الجبان من الكرب
وضـاقت عليه الأرض حتى كـأنه ... من الخوف مسلوب العزيمة والقلب
ألم أعط كـلاً حـقـه ونـصـيبه ... من السمهري[1] اللدن والمرهف العضب
أنـا ابن هنـد بن قيس بن مالك ... سليـل المعـالي والمكـارم والسيب
أبى لي أن أعطي الظلامة مرهف ... وطرف قوي الظهر والجوف والجنب
وعزم صحيح لو ضربت بحده الـ ... ـجبال الرواسي لا نحططن إلى الترب
وعـرض نـقي ، اتـقى أن أعيبه ... وبيت شريف في ذرى ثعلب الغلب
فـإن لم أقـاتـل دونكن واحتمي ... لكن وأحميكن بـالطعن والضـرب
فـلا صدق الـلاتي مشين إلى أبي ... يهنينـه بـالفـارس البـطل النـدب

وقال الشاعر :

آراؤهـم ووجـوهـهـم وسيـوفـهـم ... في الحـادثـات إذا دجـون نجـوم
منهـا معـالم لـلهـدى ومصـابـح ... تجلوا الـدجى والأخـريـات رجـوم

وقال آخر :

فـوارس قـوّالـون للخيـل اقـدمي ... وليس عـلى غـير الـرؤوس مجـال
بـأيـديهم سمـر العـوالي كـأنما ... تـشـب عـلى أطـرافـهـن ذبـال

وقال آخر :

قـوم إذا اقتحموا العجـاج رأيتهم ... شمسـاً وخلت وجـوههـم أقمـاراً
لا يعـدلـون بـرفـدهم عن سـائـل ... عـدل الـزمـان عـليـهـم أوجـارا
وإذا الـصـريـخ دعـاهـم لملمـة ... بـذلـوا النفـوس وفـارقـوا الأعمـارا

ذكر الجبن ، والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم : قد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن فقال : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل . وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين ، وقهر الرجال » . نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ . ويكفيك أن يقال في وصف الجبان إن أحس بعصفور طار فؤاده ، وإن طنت بعوضة طال سهاده ، يفزع من صرير الباب ، ويقلق من طنين الذئاب ، ان نظرت إليه شزراً أغمي عليه شهراً يحسب خفوق الرياح قعقعة الرماح قال الشاعر :

إذا صـوّت العصفـور طـار فؤاده ... وليث حـديد النـاب عنـد الثـرائد

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه من الجبناء . روي عن ابن الزبير أنه قال . كان حسان في قاع أطم مع النساء يوم الخندق ، فأتاهم في ذلك اليوم يهودي يطوف بالحصن . فقالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله

---

(١) السمهري : السيف .

عنها : يا حسان ان هذا اليهودي كما ترى يطوف بالحصن ، واني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءه من اليهود . فأنزل إليه فاقتله . فقال يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب . لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . قال فاعتجرت صفية ثم أخذت عموداً ونزلت من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته ورجعت إلى الحصن . فقالت يا حسان قم إليه فاسلبه فإنه ما منعني من سلبه إلا أنه رجل فقال مالي بسلبه من حاجة .

وقيل : كان لفتى من قريش ، جارية مليحة الوجه ، حسنة الأدب ، وكان يحبها حباً شديداً فأصابته إضاقة وفاقة ، فاحتاج إلى ثمنها ، فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه فأنزله قريباً منه . وأحسن إليه فدخل على الحجاج والجارية تكبسه ، وكان الفتى جميلاً فجعلت الجارية تسارقه النظر ففطن الحجاج بها فوهبها له ، فأخذها وانصرف فباتت معه ليلتها وهربت بغلس . فأصبح لا يدري أين هي وبلغ الحجاج ذلك فأمر منادياً أن ينادي برئت الذمة ممن رأى وصيفة ، من صفتها كذا وكذا ، ولم يحضرها فلم يلبث أن أتى له بها . فقال لها الحجاج يا عدوة الله كنت عندي من أحب الناس إليّ ، فاخترت لك ابن عمي شاباً حسن الوجه ، ورأيتك تسارقينه النظر فعلمت أنك شغفت به فوهبتك له ، فهربت من ليلتك . فقالت : يا سيدي اسمع قصتي ثم اصنع بي ما شئت . قال هاتي ولا تخفي شيئاً . قالت : كنت للفتى القرشي فاحتاج إلى ثمني فحملني إلى الكوفة ، فلما قربنا منها دنا مني فوقع عليّ فسمع زئير الأسد فوثب واخترط سيفه وحمل عليه وضربه فقتله وأتى برأسه . ثم أقبل عليّ وما بردّ ما عنده ، ثم قضى حاجته . وان ابن عمك هذا الذي اخترته لي لما أظلم الليل قام إليّ ، فلما علا بطني وقعت فارة من السقف ، فضرط ثم غشي عليه . فمكث زماناً طويلاً وأنا أرش عليه الماء وهو لا يفيق . فخفت أن يموت فتتهمني به فهربت فزعاً منك ، فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك . وقال ويحك اكتمي هذا ، ولا تعلمي به أحداً ، قالت على أن لا تردني إليه ، قال لك ذلك . .

وحدّث جار لأبي حنيفة النميري قال : كان لأبي حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق ، وكان يسميه لعاب المنية ، فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه وهو واقف على باب بيته ، وقد سمع حساً في داره وهو يقول : أيها المغتر بنا ، المجترىء علينا بئس والله ما اخترت لنفسك ، خير قليل وسيف صقيل وهو لعاب المنية ، الذي سمعت به ، أخرج بالعفو عنك ، قبل أن أدخل بالعقوبة عليك . ثم فتح الباب على وجل فإذا كلب قد خرج فقال الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفانا حرباً . وخرج المعتصم يوماً إلى بعض متصيداته فظهر له أسد فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه ، وسلاحه ، وتمام خلقه ، أفيك خير يا رجل ؟ قال لا ، فضحك المعتصم . وقال قبح الله الجبان . ورأى الاسكندر سمياً له ، لا يزال ينهزم . فقال له يا رجل إما أن تغير فعلك وأما أن تغير اسمك . ووقع في بعض العساكر ضجة فوثب خراساني إلى دابته ليلجمها ، فصير اللجام في الذنب من الدهش . وقال يخاطب الفرس : هب جبهتك عرضت فناصيتك كيف طالت .

وخرج أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين لمحاربة أبي بلال مرداس وكان مرداس في أربعين رجلاً فانهزم أسلم منه فلاموه على ذلك ، وذمه ابن أبي زياد فقال : لأن يذمني ابن أبي زياد حياً أحبّ إليّ من أن يمدحني ميتاً . وكان أسلم بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومر بصبيان صاحوا به : أبو بلال وراءك فكبر ذلك عليه فشكاهم إلى ابن زياد فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه وفي ذلك يقول بعضهم شعراً :

يقول جبان القوم في حال سكره   وقد شرب الصهباء هل من مبارز

وأين الخيول الاعوجيات في الوغى أنـازل منهم كـل لـيث منـاهـز
ففي السكر قيس ، وابن معدي وعامر وفي الصحـو تلقاه كبعض العجـائـز

هذا ما انتهى إلينا من هذا الباب والحمد لله الكريم الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطاهرين والحمد لله رب العالمين .



الباب الثاني والأربعون

في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة

وفيه فصول

الفصل الاول

في المدح والثناء

المدح وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها يكون نعتاً حميداً ، وهذا يصح من المولى في حق عبده . فقد قال الله تعالى في حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام : ﴿ **إنّا وَجدناهُ صابراً نعم العبد أنه أواب** ﴾[1] وقال تعالى لنبيه محمدﷺ:﴿ **وإنكَ لعلىٰ خلق عظيم** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿**قد أفلح المؤمنون* الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾[3] إلى آخر الآية فعلى هذا يجوز مدح الانسان بما فيه من الأخلاق الحميدة وأما قولهﷺ : « إذا رأيتم المادحين فاحثوا في وجوههم التراب » . فقد قال العتبي هو المدح الباطل والكذب . وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به ، وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول اللهﷺ . ولم يبلغنا أنه حثا في وجه مادح تراباً . وقد مدح هوﷺ المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم . وفي حثو التراب معنيان أحدهما التغليظ في الرد عليه ، والثاني كأنه يقال له يكفيك التراب . وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مدح قال : اللهم أنت اعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منهم ، واللهم اجعلني خيراً مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون . ومدح سارية الديلي رسول اللهﷺ وهو سارية الذي أمره عمر رضي

---

(١) سورة ص الآية ٤٤ .
(٢) سورة ن والقلم الآية ٤ .
(٣) سورة المؤمنون الآية ١ و٢ .

الله عنه على السرية ، وناداه في خطبته بقوله يا سارية الجبل ، فمن مدحه في رسول الله ﷺ قوله :

فما حملت من ناقة فوق ظهرها   أبرّ وأوفى ذمة من محمد

وهو أصدق بيت قالته العرب ، ومن أحسن ما مدحه به حسان رضي الله عنه قوله :

وأحسن منك لم تر قط عيني   وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب   كأنك قد خلقت كما تشاء

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه قوله :

لو لم تكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تنبيك بالخبر

ولما حججت وزرته ﷺ تطفلت على جنابه المعظم وامتدحته بأبيات مطوّلة وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة ، تجاه الصندوق الشريف ، وأنا مكشوف الرأس وأبكي من جملتها :

يا سيد السادات جئتك قاصداً   أرجو رضاك واحتمي بحماكا
والله يا خير الخلائق إنّ لي   قلباً مشوقاً لا يروم سواكا
ووحق جاهك انني بك مغرم   والله يعلم أنني أهواكا
أنت الذي لولاك ما خُلق امرؤ   كلا ولا خلق الورى لولاكا
أنت الذي من نورك البدر اكتسى   والشمس مشرقة بنور بهاكا
أنت الذي لما رفعت إلى السما   بك قد سمتْ وتزينت لسُراكا
أنت الذي ناداك ربك مرحباً   ولقددعاك لقربه وحباكا
أنت الذي فينا سألت شفاعة   ناداك ربك لم تكن لسواكا
أنت الذي لما توسل آدم   من ذنبه بك فاز وهو أباكا
وبك الخليل دعا فعادت ناره   برداً وقد خمدت بنور سناكا
ودعاك أيوب لضر مسّه   فأزيل عنه الضرّ حين دعاكا
وبك المسيح أتى بشيراً مخبراً   بصفات حسنك مادحاً لعلاكا
وكذاك موسى لم يزل متوسلاً   بك في القيامة مرتج لنداكا
والأنبياء وكل خلق في الورى   والرسل والأملاك تحت لواكا
لك معجزات أعجزت كل الورى   وفضائل جلت فليس تحاكى
نطق الذراع بسمة لك معلناً   والضب قد لبّاك حين أتاكا
والذئب جاءك والغزالة قد أتت   بك تستجير وتحتمي بحماكا
وكذا الوحوش أتت إليك وسلمت   وشكا البعير إليك حين رآكا
ودعوت أشجاراً أتتك مطيعة   وسعت إليك مجيبة لنداكا
والماء فاض براحتيك وسبّحت   صمُّ الحصى بالفضل في يمناكا
وعليك ظللّت الغمامة في الورى   والجذع حنّ إلى كريم لقاكا
وكذاك لا أثر لمشيك في الثرى   والصخر قد غاصت به قدماكا

وشفيت ذا العاهات من أمراضه ... وملأت كل الأرض من جدواكا
ورددت عين قتادة بعد العمى ... وابن الحصين شفيته بشفاكا
وكذا حبيب وابن عفرا عندما ... جرحا شفتيهما بلمس يداكا
وعليّ من رمد به داويته ... في خيبر فشفى بطيب لماكا
وسألت ربك في ابن جابر بعدما ... قد مات أحياه وقد أرضاكا
ومسست شاة لأم معبد بعدما ... نشفت فدرّت من شفا رقياكا
ودعوت عام المحل ربك معلناً ... فانهلّ قطر السحب عند دعاكا
ودعوت كل الخلق فانقادوا إلى ... دعواك طوعاً سامعين نداكا
وخفضت دين الكفر يا علم الهدى ... ورفعت دينك فاستقام هناكا
أعداك عادوا في القليب بجهلهم ... صرعى وقد حرموا الرضا بجفاكا
في يوم بدر قد أتتك ملائك ... من عند ربك قاتلت أعداكا
والفتح جاءك يوم فتحك مكّة ... والنصر في الأحزاب قد وافاكا
هود ويونس من بهاك تجملا ... وجمال يوسف من ضياء سناكا
قد فقت يا طه جميع الأنبيا ... نوراً فسبحان الذي سوّاكا
والله يا ياسين مثلك لم يكن ... في العالمين وحقّ من نباكا
عن وصفك الشعراء يا مدّثر ... عجزوا وكلّوا عن صفات علاكا
إنجيل عيسى قد أتى بك مخبراً ... وأتي الكتاب لنا بمدح حلاكا
ماذا يقول المادحون وما عسى ... أن يجمع الكتّاب من معناكا
والله لو أن البحار مدادهم ... والعشب أقلام جعلن لذاكا
لم تقدر الثقلان تجمع ذرّة ... أبداً وما استطاعوا له ادراكا
لي فيك قلب مغرم يا سيّدي ... وحشاشة محشوّة بهواكا
فإذا سكتّ ففيك صمتي كله ... وإذا نطقت فمادح علياكا
وإذا سمعت فعنك قولاً طيباً ... وإذا نظرت فلا أرى الآكا
يا مالكي كن شافعي من فاقتي ... إني فقير في الورى لغناكا
يا أكرم الثقلين يا كنز الورى ... جدّ لي بجودك وارضني برضاكا
أنا طامع في الجود منك ولم يكن ... لابن الخطيب من الأنام سواكا
فعساك تشفع عند حسابه ... فلقد غدا مستمسكاً بعراكا
ولأنتَ أكرم شافع ومشفع ... ومن التجا لحماك نال وفاكا
فاجعل قراي شفاعة لي في غد ... فعسى أُرى في الحشر تحت لواكا
صلّى عليك الله يا خير الورى ... ما حنّ مشتاق إلى مثواكا.
وعلى صحابتك الكرام جميعهم ... والتابعين وكلّ من والاكا

وماذا عسى أن يقول المادحون في وصف من مدحه الله تعالى ، وأثنى عليه وقد قالﷺ أنا سيد ولد آدم ولا

فخر ، والله لو أن البحار مداد ، والأشجار أقلام ، وجميع الخلائق كتّاب ، لما استطاعوا أن يجمعوا النزر اليسير من بعض صفاته ، ولكلّوا عن الاتيان ببعض بعض وصف معجزاتهﷺ . ومدح رجل هشام بن عبد الملك فقال له : يا هذا إنه قد نهي عن مدح الرجل في وجهه . فقال ما مدحتك ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجدد له شكراً . فقال له هشام هذا أحسن من المدح ، ووصله وأكرمه ، وكتب رجل إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان ، رأيت نفسي فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر ، وأيقنت أني حيث أنتهي بي القول منسوب إلى العجز مقصر عن الغاية . فانصرفت عن الثناء عليك ، إلى الدعاء لك ، ووكلت الأخبار عنك إلى علم الناس بك . وقال الحرث بن ربيعة في رجل من آل المهلب :

فتى دهره شطران فيما ينوبه ... ففي بأسه شطر وفي جوده شطر
فلا من بغاة الخير في عينه قذى ... ولا من زئير الحرب في أذنه وقر

وقال اعرابي لرجل : لا يذم بلد أنت تأويه ، ولا يشتكي زمان أنت فيه . وكان الحجاج يستثقل زياد بن عمرو العكلي ، فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال : يا أمير المؤمنين : إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو وسهمك الذي لا يطيش ، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم ، فلم يكن بعد ذلك على قاب الحجاج أخف منه . وقال رجل لآخر أنت بستان الدنيا ، فقال له : وأنت النهر الذي يسقي منه ذلك البستان . وقال رجل لأبي عمرو الزاهد صاحب كتاب الياقوتة[1] في اللغة : أنت والله عين الدنيا . فقال له : وأنت والله نور تلك العين . وقال القاسم بن أمية بن أبي الصلت الثقفي[2] :

قوم إذا نزل الغريب بدارهم ... تركوه رب صواهل[3] وقيان
وإذا دعوتهم ليوم كريهة ... سدوا شعاع الشمس بالفرسان

وقال أوس بن حاتم الطائي :

فإن تنكحي مارية الخير حاتماً ... فيما مثله فينا ولا في الأعاجم
فتى لا يزال الدهر أكبر همّه ... فِكاك أسير ، أو معونة غارم

وقال ابن حمدون في آل المهلب :

آل المهلب معشر أمجاد ... ورثوا المكارم والوفاء فسادوا
شاد المهلب ما بنى آباؤه ... وأتى بنوه ما بناه فشادوا
وكذاك من طابت مغارس نبته ... وبنى له الآباء والأجداد

---

(١) الياقوتة في الوعظ : كتاب لابي فرج بن الجوزي البغدادي .

(٢) هو قاسم بن أمية بن أبي الصلت الثقفي . شاعر، ابن شاعر حكيم ، من أهل الطائف ، يعد من الصحابة . عاش إلى ما بعد عثمان بن عفان ، ورثاه . وله شعر في مجالس ثعلب ، والحماسة الصغرى ، وسمط اللآلي . توفي سنة (بعد ٣٥هـ).
أنظر الاصابة (٧٠٥٠) . والشعر والشعراء (٤٣٣) .

(٣) الصاهل : الفرس .

وكان الفرزدق هجاء لعمر بن هبيرة . فلما سجن ونقب له السجن ، وسار هو وبنوه تحت الأرض قال الفرزدق :

ولما رأيت الأرض قد سد ظهرها ولم يبق إلا بطنها لك مخرجا
دعوت الذي ناداه يونس بعدما ثوى في ثلاث مظلمات ففرجا

فقال ابن هبيرة ، ما رأيت أشرف من الفرزدق هجاني أميراً ، ومدحني أسيراً . وقال سري بن عبد الرحمن الرفاء في خالد بن حاتم :

يا واحد العرب الذي دانت له قحطان قاطبة وساد نزارا
إني لأرجو إن لقيتك سالماً أن لا أعالج بعدك الأسفارا

وقال كعب بن مالك الأنصاري في آل هاشم :

يا آل هاشم الإله حباكم ما ليس يبلغه اللسان المفصل
قوم لأصلهم السيادة كلها قدماً وفرعهم النبيّ المرسل

وقال الحسين بن دعبل الخزاعي :

ملك الأمور بجوده وحسامه شرفاً يقود عدوّه بزمامه
فأطاع أمر الجود في أمواله وأطاع أمر الله في أحكامه

وقال آخر :

يلقي السيوف بصدره وبنحره ويقيم هامته مقام المغفر
ويقول للطرف اصطبر لسنى القنا فعقرت ركن المجد إن لم تعقر
وإذا تراءى شخص ضيف مقبل متسربل أثواب محل أغبر
أومى إلى الكوماء هذا طارق نحرتني الأعداء ان لم تنحري

وقال شاعر بني تميم :

إذا لبسوا عمائمهم طووها على كرم وان سفروا أناروا
يبيع ويشتري لهم سواهم ولكن بالطعان هم تجار
إذا ما كنت جار بني تميم فأنت لأكرم الثقلين جار

وقالت امرأة من بني نمير[1] وقد حضرتها الوفاة وأهلها مجتمعون من ذا الذي يقول :

لعمري ما رماح بني نمير بطائشة الصدور والأقصار

قالوا : زياد الأعجم . قالت : أشهدكم أن له الثلث من مالي . وكان مالاً كثيراً . أو أثنى رجل على رجل فقال : هو أفصح أهل زمانه إذا حدّث ، وأحسنهم استماعا إذا حُدّث ، وأمسكهم عن الملاحاة إذا

---

(١) نمير بن عامر بن صعصعة : قبيلة عربية قطنت اليمامة . كانت تعيش من التلصلص . وهجاها جرير بشعر صار مثلاً :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

خولف يعطي صديقه النافلة ، ولا يسأله الفريضة له نفس عن الفحشاء محصورة على المعالي ، مقصورة كالذهب الابريز الذي يعز كل أوان ، والشمس المنيرة التي لا تخفي بكل مكان ، هو النجم المضيء للحيران والمنهل العذب للعطشان ، وقال الحسن بن هانىء :

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرت الألفاظ يوماً بمدحة لغيرك انساناً فأنت الذي نعني

وله في الفضل بن الربيع :

لقد نزلت أبا العباس منزلة ما أن ترى خلفها الأبصار مطرحاً
وكلت بالدهر عيناً غير غافلة بجود كفّك تأسو كلّ ما جرحا

وقال زياد الأعجم في محمد بن القاسم الثقفي :

ان المنابر أصبحت مختالة بمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة يا قرب سورة سؤدد من مولد

ومن بدائع مدائح المتنبي قوله :

ليت المدائح تستوفي مناقبه فما كليب وأهل الأعصر الأول
خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل
وقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء فأعطاه سبعين ألفاً ، وخلع عليه خلعاً سنيّة، حتى أنه لم يستطع أن يقوم فغار الشعراء منه . فجمعهم وقال يا لله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض ، ان أحدكم يأتينا لمدحنا فيتغزل في قصيدته بخمسين بيتاً فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره . وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيرة ثم قال :

اني أمنت من الزمان وصرفه لما علقت من الأمير حبالا
لو يستطيع الناس من إجلاله جعلوا له حرّ الوجوه نعالا
ان المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك سباسباً[1] ورمالا
فإذا وردن بنا وردن خفائفا وإذا صدرن بنا صدرن ثقالا

ووفد أبو نواس[2] على الخصيب بمصر فأذن له وعنده الشعراء ، فأنشد الشعراء أشعارهم ، فلما فرغوا

---

(١) السباسب : البلاد البعيدة . والسبسب : المفازة ، أو الارض المستوية البعيدة .

(٢) ابو نواس : هو الحسن بن هانىء ابن عبد الأول بن صباح الحكمي ـ ابو نواس ـ شاعر العراق في عصره ولد بالاهواز . (من بلاد خوزستان) سنة (١٤٦هـ ـ ٧٦٣ م) ونشأ بالبصرة ، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس ومدح بعضهم ، وخرج إلى دمشق ومنها إلى مصر . ثم عاد إلى بغداد فأقام فيها إلى أن توفي فيها سنة : (١٩٨هـ ـ ٨١٤ م) .

أنظر اخباره في : تهذيب ابن عساكر (٤ : ٢٥٤) . ومعاهد التنصيص (١ : ٨٣) .

قال أبو نواس أنشدُ أيها الأمير قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا . قال : أنشد فأنشده قصيدته التي منها قوله :

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا فأي فتى بعد الخصيب تزور
فتى يشتري حسن الثناء بماله ويعلم ان الدائرات تدور
فما فاته جود ولا ضلّ دونه ولكن يسير الجود حيث يسير

فاهتز الخصيب لها طرباً وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة .

وحكي أن أبا دلف سار يوماً مع أخيه معقل فرأيا امرأتين . تتماشيان فقالت احداهما للأخرى هذا أبو دلف قالت نعم الذي يقول فيه الشاعر :

إنما الدنيا أبو دلف بين بادية ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف حتى جرت دموعه . فقال له معقل مالك يا أخي تبكي ؟ فقال لأني لم أقض حق الذي قال هذا ، قال أو لم تعطه مائة ألف درهم ، قال والله ما في نفسي حسرة إلا لكوني لم أعطه مائة ألف دينار . ويقال هذه المدحة فأين المنحة ، قال بعضهم :

إذا ما المدح صار بلا نوال من الممدوح كان هو الهجاء

وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن جيوش محمد بن نصر صاحب حلب فأجازه بألف دينار . ثم مات محمد بن نصر ، وقام ولده نصر مقامه ، فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها :

تباعدت عنكم حرمة لا زهادة وسرت إليكم حين مسني الضرّ
فجاد أبو نصر بألف تصرّمت وأني عليم أن سيخلفها نصر

فلما فرغ من انشادها قال نصر : والله لو قال سيضاعفها نصر لاضعفتها له وأعطاه ألف دينار في طبق فضة . ومدح بعض الشعراء ، وقيل هو البديع الهمداني انساناً فقال :

يكاد يحكيه صوب الغيث منسكباً لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

وقال آخر :

أخو كرم يفضي الورى من بساطه إلى روض مجد بالسماح مجود
وكم لجباه الراغبين لديه من مجال سجود في مجالس جود

ويقال فلان رفيق الجود ودخيله ، وزميل الكرم ونزيله ، وغرة الدهر وتحجيله ، مواهبه الأنواء ، وصدره الدهناء ، عونه موقوف على اللهيف ، وغوثه مبذول للضعيف ، يطفو جوده على موجوده ، وهمته على قدرته ، ينابيع الجود تتفجر من أنامله ، وربيع السماح يضحك عن فواضله ، إن طلبت كريماً في جوده ، متْ قبل وجوده ، أو ماجداً في أخلاقه متْ ولم تلاقه ، باسل تعود الإقدام ، حيث تزل الأقدام ، وشجاع يرى الإحجام عاراً لا تمحوه الأيام ، له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته وصفّى كدورته ، خلق كنسيم الأسحار على

صفحات الأنهار ، وأطيب من زمن الورد في الأيام ، وأبهج من نور البدر في الظلام ، خلق يجمع الأهواء المتفرقة على محبته ، ويؤلف الآراء المتشتتة في مودته ، هو ملح الأرض إذا فسدت ، وعمارة الدنيا إذا خربت . يحلّ دقائق الأشكال ، ويزيل جلائل الأشكال ، البيان أصغر صفاته ، والبلاغة عنوان خطراته كأنما أوحى التوفيق إلى صدره ، وحبس الصواب بين طبعه وفكره ، فهو يعبث بالكلام ويقوده بألين زمام ، حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره ، والمعاني تتغاير في الأمتثال لأوامره ، يوجز فلا يخل ، ويطنب فلا يمل ، كلامه يشتد مرة حتى تقول الصخر أو أيبس ، ويلين تارة حتى تقول الماء أو أسلس . فهو إذا أنشأ وشى . وإذا عبّر حبّر ، وإذا أوجز أعجز ، تاهت به الأيام ، وباهت في يمينه الأقلام ، له أدب لو تصوّر شخصاً لكان بالقلوب مختصاً قال الشاعر :

له خلق على الأيام يصفو ... كما تصفو على الزمن العقار[1]

وقال آخر :

لو كان يحوي الروض ناضر خلقه ... ما كان يذبل نوره بشتائه
أو قابل الأفلاك طالع سعده ... ما صار نحس في نجوم سمائه

وقال آخر :

ووجهك بدر في الغياهب مشرق ... وكفك في شهب السنين غمام
عجيب لبدر لا يزال أمامه ... سحاب ولا يغشاه منه ظلام
وأعجب من هذا غمام إذا سطا ... تلظى مكان البرق منه حسام

وقال الحسين بن مطير الأسدي :

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس ... ويوم نعيم فيه للناس أنعم
فيمطر يوم الجود من كفه الندى ... ويمطر يوم البؤس من كفه الدم
فلو أن يوم البؤس خلى عقابه ... على الناس لم يصبح على الأرض مجرم
ولو أن يوم الجود خلى يمينه ... عن المال لم يصبح على الأرض معدم

وللشيخ جمال الدين بن نباتة :

والله ما عجبي لقدرك إنه ... قدر على باغي مداه بعيد
إلا لكونك لست تشكو وحشة ... في هذه الدنيا وأنت وحيد

ولصفي الدين الحلي :

اثني فتثنيني صفاتك مظهراً ... عيا وكم أعيت صفاتك خاطباً
لو أنني والخلق جمعاً ألسن ... نثني عليك لما قضينا الواجبا

---

(١) العقار : ـ بالضم ـ الخمر لمعاقرتها اي لملازمتها الدّن ، او لعقرها شاربها عن المشي . والعقار : ضرب من الثياب احمر .

وللشيخ برهان الدين القيراطي :

أوصافكم تجري أحاديثها مجرى النجوم الزهر في الأفق
كما أحاديث الندى عنكم تسندها الركبان من طرق

وللشيخ جمال الدين بن نباتة :

روت عنك أخبار المعالي محاسنا كفت بلسان الحال عن ألسن الحمد
فوجهك عن بشر وكفك عن عطا وخلقك عن سهل ورأيك عن سعد

وقال غيره :

من زار بابك لم تبرح جوارحه تروي أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة ، والكهف عن صلة والقلب عن جابر والسمع عن حسن

ولأبي فراس بن حمدان :

لئن خلق الأنام لحب كاس ومزمار وطنبور وعود
فلم يخلق بنو حمدان إلّا لمجد أو لبأس أو لجود

وقال آخر :

إنّ الهبات التي جاد الكرام بها مطروقة وندى كفيك مبتكر
ما زلت تسبق حتى قال حاسدكم له طريق إلى العلياء مقتصر

ولمحمد بن مناذر في آل برمك :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك فيا طيب أخبار وأحسن منظر
لهم رحلة في كلّ عام إلى الندا وأخرى إلى البيت العتيق المنّور
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خلقت إلّا لجود أكفّهم وأقدامهم إلا لسعي مظفر
إذا رام يحيى الأمر ذلت صعابه وناهيك من راع له ومدبر

ولما عزل ابراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون وأنشد :

ليت شعري أي قوم أجدبوا فأغيثوا بك من بعد العجف
نظر الله لهم من بيننا وحرمناك بذنب قد سلف
يا أبا اسحاق سر في دعة وامض مصحوباً فما منك خلف
إنما أنت ربيع باكر حيثما صرفه الله انصرف

وقال آخر :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس وارتفعوا إلى السماء فأنتم سادة الناس

وللحسين بن مطير الأسدي في المهدي :

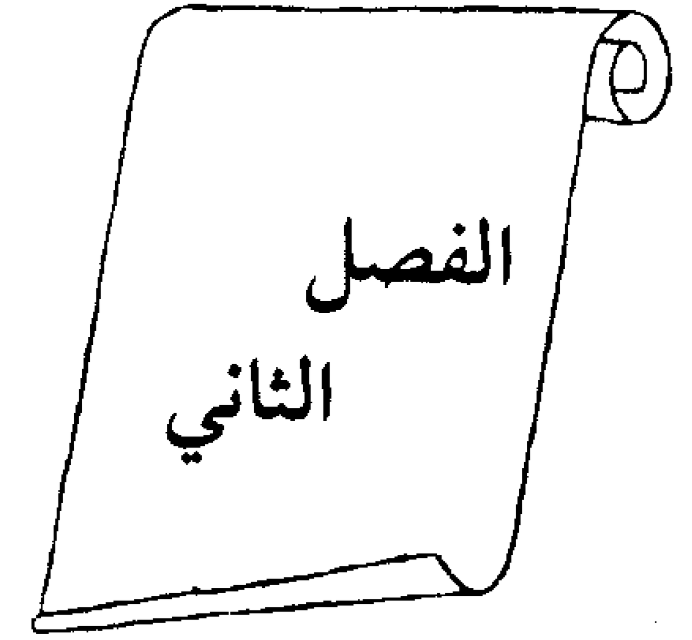
لو يعبد الناس يا مهدي أفضلهم ما كان في الناس إلا أنت معبود
أضحت يمينك من جود مصوّرة لا بل يمينك منها صوّر الجود
لو أن من نوره مثقال خردلة في السود طرّاً اذن لابيضت السود

وقال آخر :

أوليتني نعماً وفضلاً زائداً وبررتني حتى رأيتك والدا
أقسمت لو جاز السجود لمنعم ما كنت إلا راكعاً لك ساجدا

وقال آخر :

ثناؤك في الدنيا من المسك أعطر وحظك في الدنيا جزيل موقر
وكفك بحر والأنامل أنهر رعى الله كفاً فيه بحر وأنهر
أعيذك بالرحمن من كل حاسد فلا زالت الحساد تغبى وتصقر
لساني قصير في مديحك سيدي لأني فقير والفقير مقصر



من هذا الباب في شكر النعمة

أما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب ، وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله عز وجل ، وأن لا نعمة على الخلق من أهل السموات والأرض إلاّ وبدايتهامن الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك ، وعن غيرك ، والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى : ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾[1] أي أيقنوا أنها من الله . وقيل الشكر معرفة العجز عن الشكر . وقد روي أن داود عليه السلام قال : إلٰهي كيف أشكرك ، وشكري لك نعمة من عندك . فأوحى الله تعالى إليه : الآن قد شكرتني . وفي هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر . ولمحمود الوراق :

إذا كان شكري نعمة الله نعمة علـيّ لـه في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وان طالت الأيام واتصل العمر
إذا مسّ بالسراء عمّ سرورها وان مس بالضرّاء أعقبها الأجر
فما منهما إلاّ له فيه نعمة تضيق بها الأوهام والسر والجهر

---

(١) سورة النحل الآية ٥٣ .

وفي مناجاة موسى عليه السلام : إلٰهي خلقت آدم بيدك ، وفعلت وفعلت فكيف شكرك ؟ فقال : علم أن ذلك مني فكانت معرفته بذلك شكره لي . وأما شكر اللسان فقد قال الله تعالى فيه : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾[1] ويروى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يشكر القليل ، لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعم شكر » . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تذكروا للنعم فإن ذكرها شكر . وأما الشكر الذي في الجوارح . فقد قال الله تعالى : ﴿ **اعملوا آل داود شكراً** ﴾[2] الآية فجعل العمل شكراً . وروي أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه ، فقيل له يا رسول الله ، أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال : أفلا أكون عبداً لله شكوراً . وقال أبو هارون دخلت على أبي حازم فقلت له يرحمك الله ، ما شكر العينين قال إذا رأيت بهما خيراً ذكرته ، وإذا رأيت بهما شراً سترته . قلت فما شكر الأذنين . قال : إذا سمعت بهما خيراً حفظته ، وإذا سمعت بهما شراً نسيته . وفي حكمة ادريس عليه الصلاة والسلام . لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الأنعام على خلقه ليكون صانعاً إلى الخلق ، مثل ما صنع الخالق إليه ، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك فأدم مواساة الفقراء وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر . فقال تعالى : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾[3] وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر ، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر ، فإذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه ، وماله في نقصان علمنا أنه قد أخل بالشكر ، أمّا إنه لا يزكي ماله ، أو يزكيه لغير أهله ، أو يؤخره عن وقته ، أو يمنع حقاً واجباً عليه ، من كسوة عريان ، أو إطعام جائع أو شبه ذلك فيدخل في قول النبي ﷺ « لو صدق السائل ما أفلح من رده » . قال الله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[4] وإذا غيروا ما بهم من الطاعات غير الله ما بهم من الاحسان . وقال بعض الحكماء : من أعطى أربعاً ، لم يمنع من أربع . من أعطى الشكر لا يمنع المزيد . ومن أعطى التوبة لا يمنع القبول . ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة . ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب . وقال المغيرة بن شعبة : أشكر من أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك فإنه لا بقاء للنعم إذا كفرت ، ولا زوال لها إذا شكرت . وكان الحسن يقول : ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتهن بها . كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلّا إلى ما هو أعظم منها . وروي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دعي إلى أقوام ليأخذهم على ريبة فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان ، فأعتق رقبة شكراً لله تعالى إذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم . ويروي أن نملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام يا نبيّ الله أنا على قدري أشكر لله منك . وكان راكباً على فرس ذلول فخر ساجداً لله تعالى ، ثم قالت لولا أني أبجلك لسألتك أن تنزع مني ما أعطيتني . وقال صدقة بن يسار بينما داود عليه السلام في محرابه إذا مرت به دودة فتفكر في خلقها وقال ما يعبأ الله بخلق هذه ، فأنطقها الله تعالى له . فقالت يا داود تعجبك نفسك وأنا على قدر ما آتاني الله تعالى أذكر لله وأشكر له منك على ما آتاك . وقال علي رضي الله عنه احذروا نفار النعم فما كل شارد مردود . وعنه عليه السلام : « إذا وصلت إليكم أطراف النعم

---

(١) سورة الضحىٰ الآية ١١ .

(٢) سورة سبأ الآية ١٣ .

(٣) سورة ابراهيم الآية ٧ .

(٤) سورة الرعد الآية ١١.

فلا تنفروا اتصالها بقلة الشكر ». وقيل إذا قصرت يداك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر . وقال حكيم : الشعر ثلاث منازل ، ضمير القلب ، ونشر اللسان ، ومكافأة اليد . قال الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

وقال ابن عائشة : كان يقال ما أنعم الله على عبد نعمة فظلم بها إلا أن كان حقاً على الله تعالى أن يزيلها عنه . وأنشد أبو العباس بن عمارة في المعنى :

أعارك ماله لتقوم فيه ... بواجبه وتقضي بعض حقه
فلم تقصد لطاعته ولكن ... قويت على معاصيه برزقه
ولو أن لي في كل منبت شعرة ... لساناً يطيل الشكر كنت مقصراً

وقال محمد بن حبيب الراوية : إذا قل الشكر خسر المنّ . وروي إذا جحدت الصنيعة خسر الامتنان . وسئل بعض الحكماء ما أضيع الأشياء . قال : مطر الجود في أرض سبخة لا يجف ثراها ، ولا ينبت مرعاها ، وسراج يوقد في الشمس ، وجارية حسناء تزف إلى أعمى ، وصنيعة تسد إلى من لا يشكرها . وقال عبد الأعلى بن حماد ، دخلت على المتوكل فقال : يا أبا يحيى قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعته الأمور . فقلت يا أمير المؤمنين بلغني عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال : من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة . وأنشدته :

لأشكرنّ لك معروفاً هممت به ... فإنّ همك بالمعروف معروف
ولا ألومك ان لم يمضه قدر ... فالشر بالقدر المحتوم مصروف

وقال أبو فراس بن حمدان[١] :

وما نعمة مكفورة قد صنعتها ... إلى غير ذي شكر تمانعني أخرى
سآتي جميلاً ما حييت فإنني ... إذا لم أفد شكراً أفدت به أجراً

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من امتطى الشكر بلغ به المزيد . وقيل من جعل الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد . وقال ابن السماك : النعمة من الله تعالى على عبده مجهولة . فإذا فقدت عرفت . وقيل من لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها . وكان يقال إذا كانت النعمة وسيمة فاجعل الشكر لها تميمة[٢] . وقال حكيم : لا تصطنعوا ثلاثة ، اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة ، والفاحش فإنه يرى أن الذي صنعت إليه إنما هو لمخافة فحشه ، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه . وإذا اصطنعت الكريم

---

(١) هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي - ابو فراس الحمداني - امير ، شاعر ، فارس ، وهو ابن عم سيف الدولة ، كان الصاحب بن عباد يقول : بدىء الشعر بملك وختم بملك - يعني امرؤ القيس وابا فراس - له وقائع كثيرة ، قاتل بها بين يدي سيف الدولة . وكان سيف الدولة يحبه ويجله ، ويستصحبه في غزواته ويقدمه على سائر قومه . توفي سنة (٣٥٧ هـ - ٩٦٨ م) .
أنظر : وفيات الاعيان (١ : ١٢٧) . وتهذيب ابن عساكر (٣ : ٤٣٩) .
(٢) التميمة : جمعها تمائم وهي الحرز أو الدعاء الدائم .

ازرع المعروف واحصد الشكر . ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده . فقال ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة .

أمسلمـة يـا فخـر كـل خليفـة ... ويا فارس الدنيا ويـا جبل الأرض
شكرتك ان الشكـر دين على الفتى ... ومـا كـل من أوليتـه نعمـة يقضي
وأحييت لي ذكرى وما كـان خامـلاً ... ولكن بعض الـذكر أنبـه من بعض

وسمعه الرشيد . فقال هكذا يكون شعر الاشراف مدح صاحبه ولم يضع نفسه . وعن نصر بن سيّار[٣] عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيﷺ أنه قال : « من أنعم على رجل نعمة فلم يشكر له فدعا عليه استجيب له ». ثم قال نصر : اللهم اني أنعمت على بني سام فلم يشكروا اللهم اقتلهم ، فقتلوا كلهم . وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال : قال رسول اللهﷺ : « إن المؤمن ليشبع من الطعام فيحمد الله تعالى فيعطيه من الأجر ما يعطي الصائم القائم ، ان الله شاكر يحب الشاكرين ». وعن محمد بن علي : ما أنعم الله على عبد نعمة ، فعلم أنها من الله ، إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها . ولا أذنب عبد ذنباً فعلم أن الله قد اطلع عليه ، ان شاء غفر له ، وإن شاء آخذه قبل أن يستغفره ، إلا غفر الله له قبل أن يستغفره . وأولى رجل رجلاً إعرابياً فقال لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك . وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك ، وأنشد بعضهم وأجاد :

سـأشكـر لا أني أجـازيك منعـماً ... بشكري ولكن كي يزاد لك الشكر
وأذكـر أيـامـاً لـديّ اصـطنعتهـا ... وآخر ما يبقى عـلى الشاكـر الذكـر

وقال آخر :

أولـيتـني نعـماً أبـوح بـشكـرهـا ... وكفيتني كـل الأمـور بـأسـرهـا
فـلأشكـرنـك مـا حييت وإن أمت ... فلتشكـرنـك أعـظمي في قبـرهـا

وقال آخر :

أيـا رب قـد أحسنت عـوداً وبـدأة ... إليّ فلم ينهض بـاحسـانـك الشكـر
فمن كـان ذا عذر لـديـك وحجـة ... فعـذري إقراري بـأن ليس لي عذر

وقال محمود الوراق :

إلّهي لـك الحمـد الـذي أنت أهله ... عـلى نعم مـا كنت قط لهـا أهـلا
إن ازددت تقصيـراً تـزدني تفضـلاً ... كـأني بـالتقصير أستـوجب الفضـلا

---

(١) هو نصر بن سيار بن رافع بن حري بن ربيعة الكناني . أمير من الدهاة الشجعان ، كان شيخ مضر بخراسان ووالي بلخ ، ثم ولي امرة خراسان سنة ١٢٠هـ ، بعد وفاة اسد بن عبد الله القسري ، ولاه هشام بن عبد الملك . وغزا ما وراء النهر ، ففتح حصوناً وغنم مغانم كثيرة . توفي سنة (١٣١هـ ـ ٧٤٨ م).
أنظر : اخباره في : ابن الاثير (٥ : ١٤٨). وخزانة البغدادي (١ : ٣٢٦).

وقد أحسن نصيب في وصف الثناء والشكر بقوله :

فعاجوا وأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وقال رجل من غطفان :

الشكر أفضل ما حاولت ملتمساً ... به الزيادة عند الله والناس

قيل اشكر المنعم عليك، وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن أخيك المناصحة .



في المكافأة

قال رسول الله ﷺ : « من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تقدروا فادعوا له » . ولما قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ قام يخدمهم بنفسه . فقيل له يا رسول الله : لو تركتنا كفيناك . فقال كانوا لأصحابي مكرمين . وقيل أتى رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال :

أذكر صنيعي إذا فاجاك ذو سفه ... يوم السقيفة والصديق مشغول

فقال عمر بأعلى صوته ادن مني فدنا منه ، فأخذ بذراعه حتى استشرفه الناس وقال : ألا إن هذا ردّ عني سفيهاً من قومه يوم السقيفة . ثم حمله على نجيب وزاد في عطائه وولاه صدقة قومه وقرأ : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان** ﴾[1] وقال رجل لسعيد بن العاص وهو أمير الكوفة يدي عنك بيضاء ، قال وما هي قال : كبت بك فرسك فتقدمت إليك قبل غلمانك فأخذت بعضدك وأركبتك وأسقيتك ماء . وقال فأين كنت إلى الآن . قال : حجبت عن الوصول إليك . قال قد أمرنا لك بمائتي ألف درهم وبما يملكه الحاجب إذا حجبك عنّا .

وقال : قطرى بن الفجاءة لخارجي أسره الحجاج ثم منّ عليه فأطلقه : عاود قتال عدوّ الله . فقال: هيهات شدّ يداً مطلقها وأرق رقبة معتقها . ثم قال :

أأقاتل الحجاج عن سلطانه ... بيد تقرّ بأنها مولاته
ماذا أقول إذا وقفت إزاءه ... في الصف واحتجت له فعلاته
أأقول جار عليّ لا إني إذاً ... لأحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الأقوام أنّ صنائعاً ... عرست لديّ ، فحنظلت نخلاته

---

(١) سورة الرحمن الاية ٦٠ .

واجتاز الشافعي رحمه الله تعالى بمصر في سوق الحدادين فسقط سوطه ، فقام انسان فأخذه ومسحه وناوله إياه . فقال لغلامه كم معك قال عشرة دنانير قال ادفعها إليه ، واعتذر له . واستشهد عبد الملك عامر الشعبي فأنشده لغير ما شاعر ، حتى أنشد لحسّان :

من سرّه شرف الحياة فلم يزل — في عصبة من صالحي الأنصار
البائعين نفوسهم لنبيهم — بالمشرفيّ وبالقنا الخطار
الناظرين بأعين محمرة — كالجمر غير كليلة الأبصار

فقام أنصاري فقال : يا أمير المؤمنين أستوجب عامر الصلة ، عليّ له ستون من الابل كما أعطينا حسان يوم قالها . فقال عبد الملك وله عندي ستون ألفاً ، وستون من الابل . وعن عليّ كرم الله وجهه أحسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم . وقال المدائني[1] : رأيت رجلاً يطوف بين الصفا والمروة على بغلة ، ثم رأيته ماشياً في سفر فسألته عن ذلك فقال : ركبت حيث يمشي الناس فكان حقاً على الله أن يرجلني حيث يركب الناس .

ومما جاء في المكافأة : ما حكي عن الحسن بن سهل[2] قال : كنت يوماً عند يحيى بن خالد البرمكي وقد خلا في مجلسه لأحكام أمر من أمور الرشيد ، فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج فقضاها لهم ، ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قياماً أحمد بن أبي خالد الأحول . فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنه وقال يا بني : إن لأبيك مع أبي هذا الفتى حديثاً فإذا فرغت من شغلي هذا فذكرني أحدثك به ، فلما فرغ من شغله وطعم قال له ابنه الفضل : أعزك الله يا أبي أمرتني أن أذكرك حديث أبي خالد الأحول . قال نعم يا بنيّ ، لما قدم أبوك من العراق أيام المهدي كان فقيراً لا يملك شيئاً ، فاشتد بي الأمر إلى أن قال لي من في منزلي أنّا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شيء نقتات به . قال فبكيت يا بنيّ لذلك بكاء شديداً ، وبقيت ولهان حيران مطرقاً مفكراً ، ثم تذكرت منديلاً كان عندي فقلت لهم ما حال المنديل فقالوا هو باق عندنا . فقلت ادفعوه إليّ فأخذته ودفعته إلى بعض أصحابي وقلت له : بعه بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهماً فدفعتها إلى أهلي . وقلت انفقوها إلى أن يرزق الله غيرها ، ثم بكرت من الغد إلى باب أبي خالد وهو يومئذ وزير المهدي ، فإذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه ، فخرج عليهم راكباً ، فلما رآني سلم عليّ ، وقال كيف حالك فقلت يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلاً بسبعة عشر درهماً . فنظر إليّ نظراً شديداً وما أجابني جواباً ، فرجعت إلى أهلي كسير القلب وأخبرتهم بما اتفق لي مع أبي خالد . فقالوا : بئس والله ما فعلت توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل ، فكشفت له سرك وأطلعته على مكنون أمرك فأزريت

---

(١) هو علي بن محمد بن عبد الله ـ ابو الحسن ـ المدائني ، راوية ، مؤرخ ، كثير التصانيف ، من أهل البصرة ، سكن المدائن ، ثم انتقل إلى بغداد ، فلم يزل بها إلى أن توفي . أورد ابن النديم اسماء نيف ومئتي كتاب من مصنفاته في المغازي والسيرة النبوية ، وأخبار النساء ، وتاريخ الخلفاء . . . توفي سنة (٢٢٥هـ ـ ٨٤٠ م).
أنظر : تاريخ بغداد (١٢ : ٥٤). ارشاد الاريب (٥ : ٣٠٩).

(٢) هو الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي ـ ابو محمد ـ وزير المأمون العباسي ، وأحد كبار القادة والولاة في عصره . اشتهر بالذكاء المفرط ، والادب والفصاحة ، والكرم . وللشعراء فيه أماديح هو والد بوران (زوجة المأمون) وكان المأمون يجله ويبالغ في اكرامه . توفي سنة (٢٣٦هـ ـ ٨٥١ م).
أنظر : وفيات الاعيان (١ : ١٤١). وتاريخ بغداد (٧ : ٣١٩).

عنده بنفسك ، وصغّرت عنده منزلتك ، بعد أن كنت عنده جليلاً فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين . فقلت : قد قضي الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه ، فلما كان من الغدّ بكرت إلى باب الخليفة ، فلما بلغت الباب استقبلني رجل فقال لي : قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين . فلم ألتفت لقوله . فاستقبلني آخر فقال لي كمقالة الأول ثم استقبلني حاجب أبي خالد فقال لي أين تكون ؟ قد أمرني أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين فجلست حتى خرج . فلما رآني دعاني وأمر لي بمركوب . فركبت وسرت معه إلى منزله فلما نزل قال عليّ بفلان وفلان الحناطين فاحضرا فقال لهما . ألم تشتريا مني غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم . قالا نعم قال : ألم أشترط عليكما شركة رجل معكما قالا بلى : قال هو الرجل الذي اشترطت شركته لكما ثم قال لي قم معهما . فلما خرجنا قالا لي أدخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك في أمر يكون له فيه الربح الهنيء . فدخلنا مسجداً فقال لي انك تحتاج في هذا الأمر إلى وكلاء ، وأمناء وكيالين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شيء ، فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله لك فتنتفع به ، ويسقط عنك التعب والكلف ، فقلت لهما وكم تبذلان لي فقالا مائة ألف درهم فقلت لا أفعل . فما زالا يزيداني ، وأنا لا أرضى إلى أن قالا لي ثلثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا . فقلت حتى أشاور أبا خالد قالا ذلك لك . فرجعت إليه وأخبرته فدعا بهما وقال لهما هل وافقتماه على ما ذكر ، قالا نعم : قال اذهبا فاقبضاه المال الساعة . ثم قال لي أصلح أمرك وتهيأ فقد قلدتك العمل . فأصلحت شأني وقلدني ما وعدني به ، فما زلت في زيادة حتى صار أمري إلى ما صار . ثم قال لولده الفضل يا بنيّ فما تقول في ابن من فعل بأبيك هذا الفعل ، وما جزاؤه ؟ قال حق لعمري وجب عليك له . فقال والله يا ولدي ما أجد له مكافأة غير أني أعزل نفسي وأوليه ففعل ذلك رضي الله عنه وهكذا تكون المكافأة .

ومن ذلك ما حكي عن العباس صاحب شرطة المأمون ، قال دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين . قال : خذ هذا إليك فاستوثق منه ، واحتفظ به وبكربه إليّ في غد ، واحترز عليه كل الاحتراز ، قال العباس فدعوت جماعة فحملوه ، ولم يقدر أن يتحرك . فقلت في نفسي مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي ، فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري . ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ، ومن أين هو ؟ فقال أنا من دمشق . فقلت جزى الله دمشق وأهلها خيراً ، فمن أنت من أهلها قال وعمن تسأل ؟ قلت أتعرف فلاناً قال ومن أين تعرف ذلك الرجل ، فقلت وقع لي معه قضية . فقال ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه . فقلت ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق ، فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى أن الوالي تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه ، وهربت في جملة القوم ، فبينما أنا هارب في بعض الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفي ، فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم ، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره ، فقلت أغثني أغاثك الله . قال لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت فقالت زوجته ادخل تلك المقصورة فدخلتها ، ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك ، فقال دونكم الدار فتشوها ، ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها . فقالوا : هو ههنا فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة ، وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف . فقالت المرأة اجلس لا بأس عليك . فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال لا تخف قد صرف الله عنك شرهم . وصرت إلى الأمن والدعة إن

شاء الله تعالى . فقلت له : جزاك الله خيراً ، فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها ، وأفرد لي مكاناً في داره ، ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالي فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة ، وهدأت ، وزال أثرها فقلت له : أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني ، فلعلي أقف منهم على خبر فأخذ عليّ المواثيق بالرجوع إليه . فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثراً ، فرجعت إليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا كلّه لا يعرفني ، ولا يسألني ، ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلا بالكنية . فقال : علام تعزم فقلت عزمت على التوجه إلى بغداد . فقال القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج ، وها أنا قد أعلمتك ، فقلت له إنك تفضلت عليّ هذه المدة ولك عليّ عهد الله أني لا أنسى لك هذا الفضل ، ولأوفينك مهما استطعت . قال فدعا غلاماً له أسود وقال له : أسرج الفرس الفلاني ، ثم جهزّ آلة السفر فقلت في نفسي : أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي ، فأقاموا يومهم ذلك في كدّ وتعب ، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني السحر وقال لي يا فلان : قم فإن القافلة تخرج الساعة ، وأكره أن تنفرد عنها ، فقلت في نفسي كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكري به مركوباً ، ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس ، وخفين جديدين ، وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي ، ثم قدّم بغلاً فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ودفع إليّ نسخة ما في الصندوقين ، وفيهما خمسة آلاف درهم ، وقدم إليّ الفرس الذي كان جهزه ، وقال اركب ، وهذا الغلام الأسود يخدمك ، ويسوّس مركوبك ، وأقبل هو وامرأته يعتذران إليّ من التقصير في أمري وركب معي يشيعني ، وانصرفت إلى بغداد وأنا أسأل عنه . فلما سمع الرجل الحديث قال لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له ، ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه ، بلا كلفة عليك ، ولا مؤنة تلزمك . فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أنا ذلك الرجل ، وإنما الضرّ الذي أنا فيه غيّر عليك حالي ، وما كنت تعرفه مني ، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته فما تمالكت ، أن قمت وقبلت رأسه ، ثم قلت له فما الذي أصارك إلى ما أرى . فقال هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إليّ وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت ، وبعث بي إلى أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم وخطبي لديه جسيم ، وهو قاتلي لا محالة وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية ، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري ، وهو نازل عند فلان فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد ، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حدّ المكافأة ، وقمت لي بوفاء عهدك . قال العباس : قلت يصنع الله خيراً ، ثم أحضر حداداً في الليل فكّ قيوده ، وأزال ما كان فيه من الأنكال[1]، وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ثم سيّر من أحضر إليه غلامه. فلما رآه جعل يبكي ويوصيه ، فاستدعى العباس نائبه وقال : عليّ بالفرس الفلاني ، والفرس الفلاني . والبغل الفلاني والبغلة الفلانية . حتى عدّ عشرة ، ثم عشرة من الصناديق من الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا ، قال ذلك الرجل ، وأحضر لي بدرة عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه في الشرطة : خذ هذا الرجل وشيعه إلى حدّ الأنبار ، فقلت له : إنّ ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم ، وخطبي جسيم ، وإن أنت احتججت بأني هربت بعث

---

(١) النكل ـ بالكسر ـ القيد الشديد . جمعها انكال . انكل أيضاً : القيد من نار ، وضرب من اللجم . وتأتي بمعنى حديدة اللجام .

أمير المؤمنين في طلبي كلّ من على بابه فأردّ وأقتل ، فقال لي : انج بنفسك ودعني أدبر أمري ، فقلت : والله م أبرح بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك ، فإن احتجت إلى حضوري حضرت . فقال لصاحب الشرطة إن كان الأمر على ما يقول فليكن في موضع كذا ، فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته وإن أنا قتلت فقد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه . وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم وتجتهد في إخراجه من بغداد . قال الرجل : فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان أثق به ، وتفرّغ العباس لنفسه وتحنط وجهز له كفناً . قال العباس : فلم أفرغ من صلاة الصبح ، إلا ورسل المأمون في طلبي يقولون : يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم . قال فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس وعليه ثيابه ، وهو ينتظرنا فقال أين الرجل ؟ فسكت . فقال ويحك أين الرجل ؟ فقلت يا أمير المؤمنين اسمع مني ، فقال : لله علي عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربنّ عنقك . فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب ، ولكن اسمع حديثي وحديثه ثم شأنك ما تريد أن تفعله في أمري . قال قل . فقلت : يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أنني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي ، وقلت أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين : إما أن يصفح عني فأكون قد وفيت وكافأت ، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنطت ، وها كفني يا أمير المؤمنين فلما سمع المأمون الحديث قال : ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً . إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة ، والعهد بهذا لا غير ، هلاّ عرفتني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له . فقلت يا أمير المؤمنين : إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتي فإن احتجت إلى حضوره حضر . فقال المأمون وهذه منّة أعظم من الأولى اذهب الآن إليه فطيب نفسه ، وسكن روعه ، وائتني به حتى أتولى مكافأته . قال العباس فأتيت إليه وقلت له ليزل خوفك . إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت فقال الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه . ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا ، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدّثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه ، وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى ، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها ، وعشرة أبغال بآلاتها ، وعشر بدر ، وعشرة آلاف دينار ، وعشرة مماليك بدوابهم . وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به ، وإطلاق خراجه ، وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق . فصارت كتبه تصل إلى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي يا عباس : هذا كتاب صديقك . والله تعالى أعلم . ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه ما أورده محمد بن القاسم الأنباري[1] رحمه الله تعالى : أن سواراً صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال : انصرفت يوماً من دار الخليفة المهدي ، لما دخلت منزلي دعوت بالطعام فلم تقبله نفسي فأمرت به فرفع . ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسي فدخل وقت القائلة فلم يأخذني النوم . فنهضت وأمرت ببغلة لي فأسرجت وأحضرت فركبتها فلما

---

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار - ابو بكر الانباري - من اعلم أهل زمانه بالادب واللغة ، ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والاخبار ، قيل : كان يحفظ ثلثمائة الف شاهد في القرآن . ولد في الانبار (على الفرات) سنة (٢٧١هـ - ٨٨٤ م) . وتوفي ببغداد سنة (٣٢٨هـ - ٩٤٠ م) . من كتبه : « الزاهر » في اللغة ، و« شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات » ، و« الهاآت » و« عجائب علوم القرآن » و« عجائب علوم القرآن » و« الاضداد » وغيرها .

أنظر : وفيات الاعيان (١ : ٥٠٣) . وتذكرة الحفاظ (٣ : ٥٧) .

خرجت من المنزل استقبلني وكيل لي ومعه مال . فقلت ما هذا ؟ فقال : ألفا درهم جبيتها من مستغلك الجديد . قلت أمسكها معك واتبعني فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ثم مضيت في شارع دار الرقيق ، حتى انتهيت إلى الصحراء ، ثم رجعت إلى باب الأنبار وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة ، وعلى الباب خادم فعطشت فقلت للخادم أعندك ماء تسقينيه قال نعم . ثم دخل وأحضر قلة[1] نظيفة طيبة الرائحة ، عليها منديل فناولني فشربت ، وحضر وقت العصر فدخلت مسجداً على الباب فصليت فيه ، فلما قضيت صلاتي إذا أنا بأعمى يلتمس فقلت ما تريد يا هذا ؟ قال : إياك أريد قلت فما حاجتك ، فجاء حتى جلس إلى جانبي وقال شممت منك رائحة طيبة ، فظننت أنك من أهل النعيم ، فأردت أن أحدّثك بشيء ، فقلت قل . قال ألا ترى إلى باب هذا القصر قلت نعم . قال : هذا قصر كان لأبي فباعه وخرج إلى خراسان ، وخرجت معه . فزالت عنّا النعم التي كنا فيها ، وعميت فقدمت هذه المدينة فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئاً يصلني به ، وأتوصل إلى سوار فإنه كان صديقاً لأبي . فقلت ومن أبوك ؟ قال فلان بن فلان فعرفته ، فإذا هو كان من أصدق الناس إلّي فقلت له يا هذا إن الله تعالى قد أتاك بسوار ، منعه من الطعام والنوم والقرار ، حتى جاء به فأقعده بين يديك . ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتها إليه وقلت له : إذا كان الغد فسر إلى منزلي ثم مضيت وقلت : ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هذا فأتيته ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي فلما دخلت عليه حدّثته لما جرى لي فأعجبه ذلك ، وأمر لي بألفي دينار فأحضرت . فقال : ادفعها إلى الأعمى . فنهضت لأقوم ، فقال اجلس . فجلست فقال أعليك دين قلت نعم قال كم دينك قلت خمسون ألفاً فحادثني ساعة وقال امض إلى منزلك، فمضيت إلى منزلي فإذا بخادم معه خمسون ألفاً . وقال يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك . قال : فقبضت منه ذلك فلما كان من الغد أبطأ عليّ الأعمى ، وأتاني رسول المهدي يدعوني فجئته فقال قد فكرت البارحة في أمرك . فقلت يقضي دينه ، ثم يحتاج إلى القرض أيضاً ، وقد أمرت لك بخمسين ألفاً أخرى . قال : فقبضتها وانصرفت فجاءني الأعمى فدفعت إليه الألفي دينار وقلت له قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافأك على إحسان أبيك ، وكافأني على إسداء المعروف إليك ، ثم أعطيته شيئاً آخر من مالي فأخذه وانصرف . والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومما هو أوضح حسناً وأرجح معنى ما حكاه القاضي يحيى بن أكثم رحمة الله تعالى عليه قال : دخلت يوماً على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدي وهو مطرق مفكر فقال لي : أتعرف قائل هذا البيت :

الخير أبقى وإن طال الزمان به والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

فقلت يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت شأناً مع عبيد بن الأبرص[2] فقال : عليّ بعبيد فلما حضر بين يديه قال له : أخبرني عن قضية هذا البيت . فقال يا أمير المؤمنين : كنت في بعض السنين حاجاً فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة في القافلة ألحقت أوّلها بآخرها . فسألت عن القصة فقال لي رجل من

---

(١) القلة : الجرّة الكبيرة .

(٢) هو عبيد بن الابرص بن عوف بن جشم الاسدي ، من مضر ـ ابو زياد ـ شاعر من دهاة الجاهلية وحكمائها . وهو أحد أصحاب « المجمهرات » المعدودة طبقة ثانية عن المعلقات . عاصر امرؤ القيس وله معه مناظرات ومناقصات . وعمر طويلاً حتى قتله النعمان بن المنذر سنة (نحو٢٥هـ ـ نحو ٦٠٠ م) له « ديوان شعر » .
أنظر الاغاني (١٩ : ٨٤). وخزانة البغدادي (١ : ٣٢٣).

القوم تقدم ترَ ما بالناس . فتقدمت إلى أول القافلة ، فإذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجذع ، وهو يخور كما يخور الثور ، ويرغو كرغاء البعير ، فهالني أمره وبقيت لا أهتدي إلى ما أصنع في أمره فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى ، فعارضنا ثانياً فعلمت أنه لسبب ، ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه فقلت أفدي هذا العالم بنفسي ، وأتقرّب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا . فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسللت سيفي وتقدمت . فلما رآني قربت منه سكن ، وبقيت متوقعاً منه وثبة يبتلعني فيها . فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة في فيه ، وصببت الماء كما يصب في الاناء فلما فرغت القربة تسيب في الرمل ، ومضى فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه . ومضينا لحجنا ثم عدنا في طريقنا ذلك . وحططنا في منزلنا ذلك في ليلة مظلمة مدلهمة ، فأخذت شيئاً من الماء وعدت إلى ناحية عن الطريق فقضيت حاجتي ، ثم توضأت وصليت وجلست أذكر الله تعالى فأخذتني عيني ، فنمت مكاني فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً وقد ارتحلوا ، وبقيت منفرداً لم أر أحداً ولم أهتد إلى ما أفعله ، وأخذتني الحيرة وجعلت أضطرب ، وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول :

يا أيها الشخص المضلّ مركبه ... ما عنده من ذي رشاد يصحبه
دونك هذا البكر منا تركبه ... وبكرك الميمون حقاً تجنبه
حتى إذا ما الليل زال غيهبه ... عند الصباح في الفلا تسيبه

فنظرت فإذا أنا ببكر قائم عندي ، وبكري إلى جانبي فأنخته وركبته وجنبت بكري فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة ، وانفجر الفجر ووقف البكر ، فعلمت أنه قد حان نزولي فتحولت إلى بكري وقلت :

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب ... ومن هموم تضلّ المدلج الهادي
ألا تخبرني بالله خالقنا ... من ذا الذي جاد بالمعروف في الوادي
وارجع حميداً فقد أبلغتنا مننا ... بوركت من ذي سنام رائح غادي

فالتفت البكر إليّ وهو يقول :

أنا الشجاع الذي ألفيتني رمضاً ... والله يكشف ضر الحائر الصادي
فجدت بالماء لما ضنّ حامله ... تكرّماً منك لم تمنن بأنكاد
فالخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد
هذا جزاؤك مني لا أمنّ به ... فاذهب حميداً رعاك الخالق الهادي

فعجب الرشيد من قوله ، وأمر بالقصة والأبيات فكتبت عنه ، وقال لا يضيع المعروف أين وضع . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .



الباب الثالث والأربعون

في الهجاء ومقدماته

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾
« قرآن كريم »

القصد من الهجاء الوقوف على ملحه ، وما فيه من ألفاظ فصيحة ومعان بديعة ، لا التشفي بالأعراض والوقوع فيها ، وليس الهجاء دليلاً على إساءة المهجو ، ولا صدق الشاعر فيما رماه به ، فما كل مذموم بذميم ، وقد يهجى الإنسان بهتاناً وظلماً أو عبثاً أو إرهاباً . قال المتوكل لأبي العيناء : كم تمدح الناس وتذمهم . قال : ما أحسنوا وأساءوا . وقد رضي الله تعالى على عبد من عبيده فمدحه فقال نعم العبد إنه أواب . وغضب على آخر فقال منّاع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم . قيل الزنيم الملصق بالقوم وليس منهم . وقال دعبل[1] في المأمون بعد البيعة له وقتل الأمين :

إني من القوم الذين همو همو   قتلوا أخاك وشرّفوك بمقعد
شادوا لذكرك بعد طول خموله   واستنقذوك من الحضيض الأوهد[2]

فقال المأمون ما أبهته ، ليت شعري متى كنت خاملاً ؟ وفي حجر الخلافة ربيت ، وبدرّها غذيت . ولما قتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس .فقيل له أتبكي على جعفر وأنت هجوته ؟ فقال كان ذلك لركوب الهوى وقد بلغه والله أني قلت :

ولست وإن أطنبت في وصف جعفر   بأوّل إنسان خري في ثيابه

(١) هو دعبل بن علي بن رزين الخزاعي ـ أبو علي ـ شاعر هجاء ، أصله من الكوفة . أقام ببغداد . له اخبار وشعر جيد ، وكان صديق البحتري . وصنف كتاباً في « طبقات الشعراء » . قال ابن خلكان في ترجمته : « كان بذيء اللسان مولعاً بالهجو والحط من اقدار الناس ، وهجا الخلفاء ـ الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق ـ فمن دونهم ، وطال عمره فكان يقول : لي خمسون سنة احمل خشبتي على كتفي ادور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك ! » توفي سنة : (٢٤٦هـ ـ ٨٦٠ م).
أنظر : وفيات الاعيان (١ : ١٧٨). ولسان الميزان (٢ : ٤٣٠).

(٢) الاوهد : الارض المنخفضة.

فكتب يدفع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه .

ومن العبث بالهجو ما روي أن الحطيئة ، همّ بهجاء فلم يجد من يستحقه فقال :

أبت شفتاي اليوم إلا تكلما   فما بسوء فلا أدري لمن أنا قائله
أرى بي وجهاً قبّح الله خلقه   فقبّح من وجه وقبّح حامله

وعبث بأمه فقال :

تنحي فاجلسي عنا بعيدا   أراح الله منك العالمينا
أغربالا إذا استودعت سراً   وكانونا على المتحدثينا
حياتك ما علمت حياة سوء   وموتك قد يسر الصالحينا

قال رجل ما أبالي ، أهجيت أم مدحت . فقال له الأحنف[1] : ارحت نفسك من حيث تعب الكرام .

وقال رجل لآخر : إن هجوتني أتموت ابنتي قال لا ، قال أفتخرب ضيعتي . قال لا ، قال فرجلي مع ساقي إلى حلقي في حر أمك ، قال ولم تركت رأسك قال لأنظر ما تصنع . وأنا أقول إنما يخشى من الهجو من يخاف على عرضه ، وأما من لا يخاف على عرضه فقد يستوي عنده المدح والذم وبئس الرجل ذاك . وكان الرجل من نمير إذا قيل له ممن الرجل يقول : من نمير وأمال بها عنقه فلما هجاهم جرير بقوله :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

صار إذا قيل لأحدهم ممن الرجل يقول : من بني عامر . وما لقيت قبيلة من العرب بهجوٍ ما لقيت نمير بهجو جرير. وهجا ابن بسام رجلاً فقال :

يا طلوع الرقيب من غير إلف   يا غريماً أتى على ميعاد
يا ركودا في وقت غيم وصيف   يا وجوه التجار يوم كساد

وقصد ابن عيينة قبيصة المهلبي واستماحه فلم يسمح له بشيء ، فانصرف مغضباً فوجه إليه داود بن حاتم فترضاه وأحسن إليه فقال في ذلك :

داود محمود وأنت مذمم   عجباً لذاك وأنتما من عود
ولرب عود قد يشق لمسجد   نصفا وباقيه لحش يهودي
فالحش أنت له وذاك بمسجد   كم بين موضع مسلح وسجود
هذا جزاؤك يا قبيص لأنه   جادت يداه وأنت قفل حديد

وله هجاء في خالد :

---

(١) هو الاحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرّي السعدي التميمي ـ ابو بحر ـ سيد تميم ، واحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين يضرب به المثل في الحلم . اعتزل الفتنة يوم الجمل وشهد صفين مع علي . توفي سنة (٧٢هـ ـ ٦٩١ م) . .
أنظر : تهذيب التهذيب (١ : ١٩١).

أبـوك لنـا غيث يغيث بـوبله[1]   وأنت جـراد لست تبقى ولا تـذر
لـه أثـر في المكـرمـات يسـرنّـا   وأنـت تعفـي دائـماً ذلـك الأثـر

وقال المبرّد في حقه : لم يجتمع لأحد من المحدثين في بيت واحد هجاء رجل ، ومدح أبيه إلا له . ولما قعد حماد عجرد[2] لتأديب ولد الأمين قال بشار بن برد :

قـل لـلأمـين جزاك الله صـالحـة   لا يجمع الله بين السخـل والديب
الـسخـل يـعلم ان الـذئـب آكله   والذئب يعلم ما بالسخل من طيب

وقال فيه أيضاً :

يـا أبـا الـفـضـل لا تـنـم   وقـع الـذئـب في الـغـنـم
إن حـمـاد عـجـرد   شـيـخ سـوء قـد اغـتـنـم
بـين فـخـذيـه حـربـة   في غـلاف مـن الأدم
إن رأى ثـم غـفـلة   يجـمـع المـيـم بـالـقـلم

فشاعت الأبيات فأمر الأمين باخراج حماد . وقال رجل لأخيه لأبويه : لأهجونك هجاء يدخل معك في قبرك قال كيف تهجوني وأبوك أبي وأمك أمي قال أقول :

بني أميـة هبـوا طـال نـومكمـو   إن الخليفـة يـعقـوب بـن داود
ضاعت خلافتكم يـا قوم فـالتمسوا   خـليفـة الله بـين المـاء والـعـود

فدخل يعقوب على المهدي فأخبره أن بشاراً هجاه ، فاغتاظ المهدي وانحدر إلى البصرة لينظر في أمرها فسمع أذاناً في ضحى النهار فقال انظروا ما هذا ؟ وإذا به بشار وهو سكران . فقال له يا زنديق عجب أن يكون هذا من غيرك ، ثم أمر به فضربه سبعين سوطاً حتى أتلفه بها ، وألقي في سفينة . فقال عين الشمقمق تراني حيث يقول :

إن بـشـار بـن بـرد   تـيس أعـمـى في سـفـيـنـة

فلما مات ألقيت جثته في الماء ، فحمله الماء فأخرجه إلى الدجلة ، فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة وأخرجت جنازته فما تبعه أحد ، وتباشر عامة الناس بموته لما كان يلحقهم من الأذى منه . وخاصم أبو دلامة رجلاً فارتفعا إلى عافية القاضي فلما رآه أبو دلامة أنشد يقول :

لقـد خـاصمني دهـاة الـرجـال   وخـاصـمتـهـا سـنـة وافـيـة
فـما أدحض الله لي حـجـة   ولا خـيـب الله لي قـافـيـة
ومن خفت من جـوره في الـقضـ   ـاء فلست أخـافـك يـا عـافيـة

---

(١) كناية عن البخل .

(٢) هو حماد بن عمر بن يونس بن كليب السوائي ـ ابو عمرو ـ المعروف بعجرد شاعر ، من الموالي ، من أهل الكوفة من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية . قتل بالاهواز سنة (١٦١هـ ـ ٧٧٨ م) .
أنظر اخباره في : وفيات الاعيان (١ : ١٦٥) . ولسان الميزان (٢ : ٣٤٩) .

فقال عافية : لأشكونك إلى أمير المؤمنين ولأعلمنه أنك هجوتني . قال له أبو دلامة : إذاً والله يعزلك قال ولم ؟ قال لأنك لا تعرف الهجاء من المدح قال فبلغ ذلك المنصور فضحك وأمر له بجائزة . ودخل أبو دلامة على المهدي وعنده إسماعيل بن علي ، وعيسى بن موسى ، والعباس بن محمد ، وجماعة من بني هاشم فقال له المهدي والله لئن لم تهج واحداً ممن في هذا البيت لأقطعن لسانك . فنظر إلى القوم وتحير في أمره ، وجعل ينظر إلى كل واحد فيغمزه بأن عليه رضاه . قال أبو دلامة فازددت حيرة ، فما رأيت أسلم لي من أن أهجو نفسي فقلت :

ألا أبلغ لديك أبا دلامة ... فلست من الكرام ولا كرامه
جمعت دمامة وجمعت لؤما ... كذاك اللؤم تتبعه الدمامة
إذا لبس العمامة قلت قردا ... وخنزيراً إذا نزع العمامة

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه .

وقال ابن الأعرابي : إنّ أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن وهب في محمد بن هاشم :

لم تند كفاك من بذل النوال كما ... لم يند سيفك مذ قلّدته بدم

وهجا بعضهم القمر فقال : يهدم العمر ، ويوجب أجرة المنزل ، ويشحب الألوان ويقرض الكتان ويضل الساري ويعين السارق ويفضح العاشق .

ولأبن منقذ في ابن طليب المصري وقد احترقت داره :

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا ... قسرا إلى الأقدار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره ... نارا وكان خرابها بالنار

وكان للوجيه بن صورة المصري دلال الكتب،دار بمصر موصوفة بالحسن فاحترقت فقال فيها ابن المنجم :

أقول وقد عاينت دار ابن صورة ... وللنار فيها وهجة تتضرّم
فما هو إلا كافر طال عمره ... فجاءته لما استبطأته جهنّم

وقد أحسن الأديب كمال الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى في ذم دار كان يسكنها حيث قال : ؟

دار سكنت بها أقلّ صفاتها ... أن تكثر الحشرات في جنباتها
الخير عنها نازح متباعد ... والشرّ دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته ... كم أعدم الأجفان طيب سناتها
وتبيت تسعدها براغيث متى ... غنّت لها رقصت على نغماتها
رقص بتنقيط ولكنّ قافه ... قد قدمت فيه على أخواتها
وبها ذباب كالضباب يسد عيـ ... ـن الشمس ما طربي سوى غناتها
أين الصوارم والقنا من فتكها ... فينا وأين الأسد من وثباتها
وبها من الخطاف ما هو معجز ... أبصارنا عن وصف كيفياتها

وبها خفافيش تطير نهارها ... مع ليلها ليست على عاداتها
وبها من الجرذان ما قد قصرت ... عنه العتاق الجرد في حملاتها
وبها خنافس كالطنافس أفرشت ... في أرضها وعلت على جنباتها
لوشم أهل الحرب منتن فسوها ... أردى الكماة الصيد عن صهواتها
وبنات وردان وأشكال لها ... مما يفوت العين كنه ذواتها
أبداً تمص دماءنا فكأنها ... حجامة لبدت على كاساتها
وبها من النمل السليمانيّ ما ... قد قلّ ذر الشمس عن ذراتها
ما راعني شيء سوى وزغاتها ... فتعوّذوا بالله من لدغاتها
سجعت على أوكارها فظننتها ... ورق الحمام سجعن في شجراتها
وبها زنابير تظن عقاربا ... حرّ السموم أخف من زفراتها
وبها عقارب كالأقارب رتع ... فينا حمانا الله لدغ حماتها
كيف السبيل إلى النجاة ولا نجـ ... ـاة ولا حياة لمن رأى حيّاتها
منسوجة بالعنكبوت سماؤها ... والأرض قد نسجت على آفاتها
فضجيجها كالرعد في جنباتها ... وترابها كالرمل في خشناتها
والبوم عاكفة على أرجائها ... والدود يبحث في ثرى عرصاتها
والجن تأتيها إذا جنّ الدجى ... تحكي الخيول الجرد في حملاتها
والنار جزء من تلهب حرها ... وجهنم تعزي إلى لفحاتها
شاهدت مكتوباً على أرجائها ... ورأيت مسطوراً على جنباتها
لا تقربوا منها وخافوها ولا ... تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها
أبدا يقول الداخلون ببابها ... يا رب نج الناس من آفاتها
قالوا إذا ندب الغراب منازلا ... يتفرق السكان من ساحاتها
وبدارنا ألفا غراب ناعق ... كذب الرواة فأين صدق رواتها
صبرا لعلّ الله يعقب راحة ... للنفس إذ غلبت على شهواتها
دار تبيت الجن تحرس نفسها ... فيها وتندب باختلاف لغاتها
كم بت فيها مفرداً والعين من ... شوق الصباح تسحّ من عبراتها
وأقول يا رب السموات العلا ... يا رازقاً للوحش في فلواتها
أسكنتني بجهنم الدنيا ففي ... أخراي هبْ لي الخلد في جناتها
واجمع بمن أهواه شملي عاجلاً ... يا جامع الأرواح بعد شتاتها

ولبعضهم في بلان :

أشكو إلى الله بلانا بليت به ... مست أنامله ظهري فأدماني
فلا يدلك تدليكا بمعرفة ... ولا يسرح تسريحا باحسان

وللشيخ شمس الدين البدوي في بلان أيضاً :

وبـلان لـه ظـهـر يـبـاهـي ... بـه حـد الشـفـار المـرهـفـات
هـرى جسمي فـألبسـه نجيعـاً ... عـلى حلل السـتـور السـابـلات
ورام يـلين أعـضـائـي بـرفـق ... فـأيبسـهـا وكسـر فـوقـحـاتي
ولم أنـظر لـه أبـدا جمـيـلاً ... وذلـك من عـظيم المـهلكـات
وأعـمى مـقلتي بـصـنـان إبط ... يـفـوح بـه عـلى كـل الجهـات
فـلا تجـعـل إلهي مـثـل هـذا ... يـغـسـلني إذا حـانـت وفـاتي

ولبعضهم في حمام :

وحـمـام دخـلـنـاه لأمـر ... حكى سقـرا وفيهـا المجـرمـونـا
فيصـطرخـوا يقـولـون أخـرجـونـا ... فـان عـدنـا فـإنّا ظـالمـونـا

وللشريف أبي يعلى الهاشمي البغدادي في نظام الملك يهدده بالهجاء يقول :

أيجـمـل يـا نـظام المـلك أني ... أعـاود مـن ذراك كـما قـدمـت
وأصـدر عن حياضـك وهي نهب ... بـأفـواه الـسـقـاة ومـا وردت
يـدل عـلى فعـالـك سـوء حـالي ... ويخبـر عن نـوالـك إن كـتـمـت
إذا استخـبـرت مـاذا نلت منـه ... وقـد عمّ الـورى كـرمـا سكت

ومن عرّض بالهجو في شعره الخوارزمي[1] قال في أبي جعفر :

أبـا جعـفـر لـست بـالمنصف ... ومـثـلك إن قـال قـولا يـفـي
فـان أنت أنجـزت لي مـا وعـدت ... وإلا هـجـيـت وادخـلـت في
وقـد عـلم الـنـاس مـا بـعـد في ... فـغطِّ الحـديـث ولا تـكـشـف

ومدح السراج الوراق إنساناً فلم يجزه فكتب يعرض له بالهجاء ويهدده يقول :

أعـد مـدحي عـليّ وخـذ سـواه ... فـقـد أتـعـبـتـني يـا مسـتـريـح
ولا تـغضـب إذا أنشـدت يـومـا ... سـواه وقـيـل هـذا صـحـيـح

وله أيضاً يقول :

أعـد مـدحـا كـذبت عليـك فيه ... وقـد عـوقبت بـالحـرمـان عنـه
ولـكـني سـأصـدق فـيـك قـولا ... فـلا يـصعب عليـك الحق منـه

---

(١) هو محمد بن موسى الخوارزمي - ابو عبد الله - رياضي ، فلكي ، مؤرخ ، من أهل خوارزم ، ينعت بالاستاذ ، اقامه المأمون العباسي قيماً على خزانة كتبه ، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها .
من كتبه : « صورة الارض من المدن والجبال » و« عمل الاسطرلاب » و« وصف افريقية » وغيرها . توفي سنة (بعد ٢٣٢هـ - بعد ٨٤٧ م).
أنظر : دائرة المعارف الاسلامية (٩ : ١٠ - ٢٢).

وقال بعضهم في حجاج قدموا ولم يهدوا إليه شيئاً :

مضـــوا ليحجـوا والـــوجـــوه كـــأنها ... تكاد لفرط البشر أن توضح السبلا
وعـادوا كـأن القـار فـوق وجـوههم ... فـلا مرحبا بـالقـادمـين ولا سهـلا
وجـــاءوا ومـا جـــادوا بعـود أراكـــة ... ولا وضعـوا في كف طفل لنـا نقلا

وقال آخر :

إذا رمت هجـوا في فـلان تصـــدني ... خـــلائق قبـح عنــه لا تتـزحــزح
تجـــاوز قـــدرالهجـــو حتى كـــأنــه ... بـأقبـح مـا يهجى بـه المـرء يمدح

وهجا بعضهم امرأة فقال :

لهـا جسم برغـوث وسـاق بعـوضـة ... ووجـه كوجـه القرد بـل هـو أقبح
تـبــرّق عيـنـيـهـــا إذا مـــا رأيـتـهـــا ... وتعبس في وجــه الضجيــع وتكلح
لهــا مــنــظر كـــالـنـــار تحسب أنها ... إذا ضحكت في أوجه الناس تلفـح
إذا عـاين الشيـطان صـورة وجههـا ... تعـــوّذ منهـــا حـــين يمسي ويصبـــح

ولبعضهم في عظيم أنف :

لـــك وجــه وفيـــه قـطعـــة أنـف ... كــجــدار قــد دعــمــوه بــبـغــلة
وهـــو كـــالـقـبــر في المـثـــال ولـكـن ... جـعلوا نـصـفــه عــلى غــير قـبـلة

وفيه أيضاً :

رأيــنـــا لــلزكــي جــدار أنــف ... يـضــاهـي في تـشــامخــه الجـبـــالا
تــصــدّى لـلهـلال لــكـي يــراه ... فــلولا عــظمــه لــرأى الهــلالا

ولبعضهم في أبخر مخنث :

قـــالـــوا فــلان بــه نتن فقلت لهم ... يا قوم قد حار فكري في مساويه
يـا قوم لا تعجبـوا من نتن نكهتـه ... فـالايـر يــدفـع مــا فيـه إلى فيــه

ولصفيّ الدين الحلي :[1]

رأى فرسي إصطبل عيسى فقال لي ... قفـا نبك من ذكـرى حبيب ومنـزل
بـــه لم أذق طعم الـشعـــير كـــأنـني ... بسقط اللوى بين الدخـول فحومـل
تقعقـــع من بـرد الشتـــاء أضـالعي ... لمـــا نسجتهـا من جنـــوب وشمـــأل

---

(١) هو عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم السنبسي الطائي . شاعر عصره ولد ونشأ في الحلة (بين الكوفة وبغداد) واشتغل بالتجارة ، فكان يرحل إلى انسام ومصر وماردين ، وغيرها في تجارته ، ويعود إلى العراق ، تقرب من ملوك الدولة الارتقية ، ومدحهم ، واجزلوا له عطاياهم . ورحل إلى القاهرة سنة (٧٢٦هـ) فمدح السلطان الملك الناصر . توفي ببغداد سنة (٧٥٠هـ - ١٣٤٩ م). له « ديوان شعر » و« العاطل الحالي » و« درر النحور » وهي قصائده المعروفة بالارتقيات و« صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء » . وغيرها .
أنظر : الدرر الكامنة : (٣ : ٣٦٩) . الوفيات : (١ : ٢٧٩).

وله أيضاً :

ليهنك أن لي ولداً وعبداً   سواء في المقال وفي المقام
فهذا سابق من غير سين   وهذا عاقل من غير لام

وله في طبيب يدعى إسحاق :

مباضع إسحاق الطبيب كأنها   لها بفناء العالمين كفيل
معوّدة أن لا تسلّ نصالها   فتغمد حتى يستباح قتيل

وله في أحمق طويل اللسان :

لو أن قوة وجهه في قلبه   قنص الأسود وجندل الأبطالا
أو كان طول لسانه بيمينه   أفنى الكنوز وأنفد الأموالا

وهجا إعرابي رجلاً ثم مدحه فقال :

إني مدحتك من فساد قريحتي   وعلمت أن المدح فيك يضيع
لكن رأيت المسك عند فساده   يدني إلى بيت الخلا فيضوع

وقيل لبعضهم ما تقول في فلان وفلان قال هما الخمر والميسر ، إثمهما أكبر من نفعهما . وقيل لرجل . كيف وجدت فلاناً ؟ قال طويل اللسان في اللؤم ، قصير الباع في الكرم ، وثاباً على الشر ، منّاعاً للخير . وسمع اعرابي قوله تعالى : **﴿ الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً ﴾**[1] **انتفض ثم سمع قوله تعالى :﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾**[2] فقال الله أكبر هجانا ثم مدحنا وكذلك قال الشاعر :

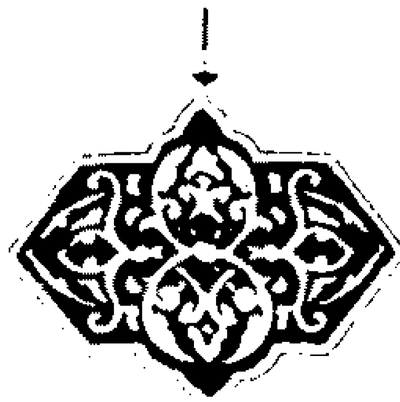
هجوت زهيراً ثم إني مدحته   وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

استبّ رجلا فقال أحدهما للآخر : لو قطع زبك وعلّق لم تبق زانية بالكوفة إلا عرفته . وقال أبو زيد العبدي :

ولقد قتلتك بالهجاء فلم تمت   إن الكلاب طويلة الأعمار

وقال المتوكل لأبي العيناء : ما بقي أحد في المجلس إلا هجاك وذمك غيري فقال :

إذا رضيت عني كرام عشيرتي   فلا زال غضباناً عليّ لئامها



(١) سورة المائدة الآية ١٢٢ .
(٢) سورة الاحزاب الآية ٣٥ .

الباب الرابع والأربعون

في الصدق، والكذب،

وفيه فصلان

الفصل الاول

في الصــدق

قال الله تعالى مبشراً للصادقين : ﴿ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ **والصادقين والصادقات** ﴾[2]، فمدحهم وبينّ لهم المغفرة والأجر العظيم . وقال عمر رضي الله عنه : عليك بالصدق وإن قتلك . وما أحسن ما قيل في ذلك :

عليك بالصدق ولو أنه ... أحرقك الصدق بنار الوعيد
وابغ رضا المولى فأغبى الورى ... من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقال إسماعيل بن عبيد الله : لما حضرت أبي الوفاة جمع بنيه فقال لهم يا بنيّ : عليكم بتقوى الله ، وعليكم بالقرآن فتعاهدوه ، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتيلاً . ثم سئل عنه أقربه ، والله ما كذبت قط مذ قرأت القرآن . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بم يعرف المؤمن قال : بوقاره ، ولين كلامه ، وصدق حديثه . وقيل : لكل شيء حلية ، وحلية النطق الصدق . وقال محمود الورّاق :

الصدق منجاة لأربابه ... وقربة تدني من الرب

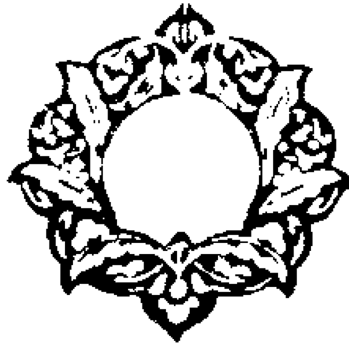
وقيل : الصدق عمود الدين ، وركن الأدب ، وأصل المروءة فلا تتم هذه الثلاثة إلا به . وقال ارسطاطاليس : أحسن الكلام ما صدق فيه قائله ، وانتفع به سامعه . وقال المهلب بن أبي صفرة : ما السيف الصارم في يد الشجاع بأعزّ له من الصدق . وكان يقال عن الصدوق فلان وقف لسانه على

---

(١) سورة المائدة الآية ١١٩ .

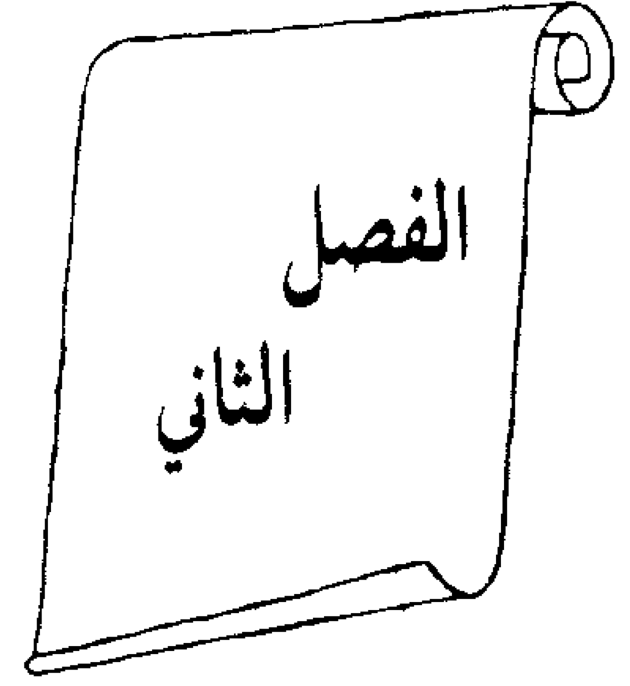
(٢) سورة الاحزاب الآية ٣٥ .

الصدق . ويقال : الصدق محمود من كل أحد ، إلا من الساعي . ويقال : لو صدق عبد فيما بينه وبين الله تعالى حقيقة الصدق لأطلع على خزائن الغيب ولكان أميناً في السموات والأرض . وقيل : من لزم الصدق وعوّد لسانه به وفق . ويقال : الصدق بالحرّ أحرى . وقال عتبة بن أبي سفيان : إذا اجتمع في قلبك أمران لا تدري أيهما أصوب ، فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه ، فان الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى . وقال أرسطاطاليس : الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب . وكان نقش خاتم ذي يزن : وضع الخد للحق عز . وامتدح بن ميادة جعفر بن سليمان.فأمر له بمائة ناقة ، فقبل يده وقال والله ما قبلت يد قرشي غيرك إلا واحداً فقال أهو المنصور قال لا والله قال فمن هو : قال الوليد بن يزيد . قال فغضب . وقال والله ما قبلتها لله تعالى ، فقال والله ولا يدك ما قبلتها لله تعالى ، ولكن قبلتها لنفسي . فقال والله لاضرك الصدق عندي أعطوه مائة أخرى . وقال عامر العدواني في وصيته : إني وجدت صدق الحديث طرفاً من الغيب فاصدقوا . يعني من لزم الصدق وعوّده لسانه وفق ، فلا يكاد ينطق بشيء يظنه إلا جاء على ظنه . وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية فقال لأهلها : نحن من قد عرفتم ، كنا عبدين فأعتقنا الله تعالى ، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى ، وكنا فقيرين فأغنانا الله تعالى ، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخي فان تنكحوها له فالحمد لله تعالى ، وإن تردونا فالله أكبر . فأقبل بعضهم على بعض فقالوا بلال ممن عرفتم سابقته ومشاهده ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوجوا أخاه فزوجوه ، فلما انصرفوا قال له أخوه يغفر الله لك ما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ ،وتترك ما عدا ذلك فقال مه[1] يا أخي : صدقت فأنكحك الصدق . وخطب الحجاج فأطال فقام رجل فقال الصلاة ، فان الوقت لا ينتظرك ، والرب لا يعذرك . فأمر بحبسه فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلي سبيله فقال : إن أقرّ بالجنون خليته فقيل له . فقال معاذ الله ، لا أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني ، فبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه .



---

(١) مه : اسم فعل بمعنى كف .



في الكذب وما جاء فيه

قال الله تعالى في الكاذبين ﴿ **ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة** ﴾[2] وقال رسول الله ﷺ : « إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار وتحرّوا الصدق ، فان الصدق يهدي إلى البرّ والبر يهدي إلى الجنة » وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال رسول الله ﷺ « إذا كذب العبد كذبة تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به » ويقال : راوي الكذب أحد الكذابين . ويقال رأس المآثم الكذب ، وعمود الكذب البهتان . وقيل أمران لا ينفكان من الكذب كثرة المواعيد ، وشدة الاعتذار . وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ **ولكم الويل مما تصفون** ﴾[3] وهي لكل واصف كذب إلى يوم القيامة . وقال الأصمعي : قلت لكذاب أصدقت قط قال : لولا أني أخاف أن أصدق في هذا لقلت لك لا ، فتعجب .

وقال محمود بن أبي الجنود :

لي حيلة فيمن ينمّ ... وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقو ... ل فحيلتي فيه قليلة

ويقال فلان أكذب من لمعان السراب ومن سحاب تموز . وكان بفارس محتسب يعرف بجراب الكذب وكان يقول : إن منعت الكذب انشقت مرارتي ، وإني والله لأجد به مع ما يلحقني من عاره من المسرة ، ما لا أجده بالصدق ، مع ما ينالني من نفعه . وقال فيلسوف: من عرف من نفسه الكذب لم يصدّق الصادق فيما يقوله .

ولبعضهم :

حسب الكذوب من البلـ ... ـية بعض ما يحكى عليه
فمتى سمعت بكذبة ... من غيره نسبت إليه

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠ .
(٢) سورة الزمر الآية ٦٠ .
(٣) سورة الانبياء الآية ١٨ .

وأضاف صيرفي قوماً فأقبل يحدثهم فقال بعضهم : نحن كما قال تعالى : ﴿ **سماعون للكذب أكالون للسحت** ﴾[1] وعن عبد الله بن السدي قال قلت لأبن المبارك : حدثنا حديثاً . قال ارجعوا فلست أحدثكم فقيل له إنك لم تحلف . فقال لو حلفت لكفرت وحدثتكم . ولكن لست أكذب فكان هذا أحب إلينا من الحديث . وقال مجاهد يكتب على ابن آدم كل شيء حتى أنينه في سقمه ، وحتى ان الصبي ليبكي فتقول له أمه اسكت وأشتري لك كذا ثم لا تفعل فتكتب كذبة . وقال الفضيل : ما من مضغة أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقاً ، ولا مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوباً . وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً « أعظم الخطايا اللسان الكذوب » .

قال الشاعر :

لا يكـذب المرء إلا من مهـانتـه أو فعله السـوء أو من قـلة الأدب
لبعض جيفـة كـلب خـير رائحـة من كـذبة المـرء في جـدّ وفي لعب

ولما نصب معاوية رضي الله عنه ابنه يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء وجعل الناس يسلمون على معاوية ، ثم يسلمون على يزيد ، حتى جاء رجل ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية فقال يا أمير المؤمنين اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها ، والأحنف ساكت . فقال معاوية مالك لا تقول يا أبا بحر . فقال أخاف الله تعالى إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت . فقال جزاك الله خيراً عما تقول ثم أمر له بألوف ، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب فقال له يا أبا بحر إني لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى ، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت . فقال له الأحنف يا هذا أمسك ، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً . وقيل إن الكذب يحمد إذا وصل بين المتقاطعين ، أو أصلح بين الزوجين ، ويذم الصدق إذا كان غيبة ، وقد رفع الحرج عن الكاذب في الحرب وعن المصلح بين المرء وزوجه . وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه ، يقوي بذلك جأشهم . فكانوا إذا رأوه مقبلاً إليهم قالوا جاءنا بكذب . وقال يحيى بن خالد رأينا شارب خمر نزع ، ولصاً أقلع ، وصاحب فواحش رجع ، ولم نر كذّاباً صار صادقاً . وكان عمرو بن معد يكرب[2] مشهوراً بالكذب . وقيل لخلف الأحمر وكان شديد التعصب لليمن أكان ابن معد يكرب يكذب . فقال كان يكذب في المقال ، ويصدق في الفعال . قيل إن بلالاً لم يكذب مذ أسلم رضي الله تعالى عنه . والحمد لله وحده .

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٢ .

(٢) هو عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي . فارس اليمن . وفد على المدينة سنة (٩هـ) في عشرة من بني زبيد ، فأسلم ، واسلموا وعادوا . شهد القادسية . كان يكنى ـ أبا ثور ـ وأخبار شجاعته كثيرة . له شعر جيد أشهره قصيدته التي يقول فيها :

« إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع »

توفي سنة (٢١هـ ـ ٦٤٢ م).أنظر طبقات ابن سعد (٥ : ٣٨٣). وخزانة البغدادي (١ : ٤٢٥ ـ ٤٢٦).

الباب الخامس والأربعون

في بـر الوالـدين، وذم العقوق، وذكـر الاولاد وما يجب لهم وعليهم، وصلة الـرحم، والقـرابـات، وذكـر الانسـاب

وفيـه فصول

الفصل الأول :

في بر الوالدين وذم العقوق

قال الله تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً** ﴾[1] وقـال تعالى : ﴿ **وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً** ﴾[4] وعن علي رضي الله تعالى عنه لو علم الله شيئاً في العقوق أدنى من أف لحرمه ، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة ، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار . وقيل أن رضا الرب في رضا الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين . وحكى أبو سهل عن أبي صالح ، عن أبي نجيح ، عن ربيعة ، عن عبد الرحمن ، عن عطاء بن أبي مسلم[5] أن رسول الله ﷺ قال : من حج عن والده بعد وفاته كتب الله لوالده حجة ، وكتب له براءة من النار . وقال رسول الله ﷺ « إياكم وعقوق الوالدين فان ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ريحها عاق ». وكان رجل من النساك يقبل كل يوم قدم أمه فأبطأ يوماً على إخوته فسألوه ، فقال : كنت أتمرغ في رياض الجنة ، فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات . وبلغنا أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦.

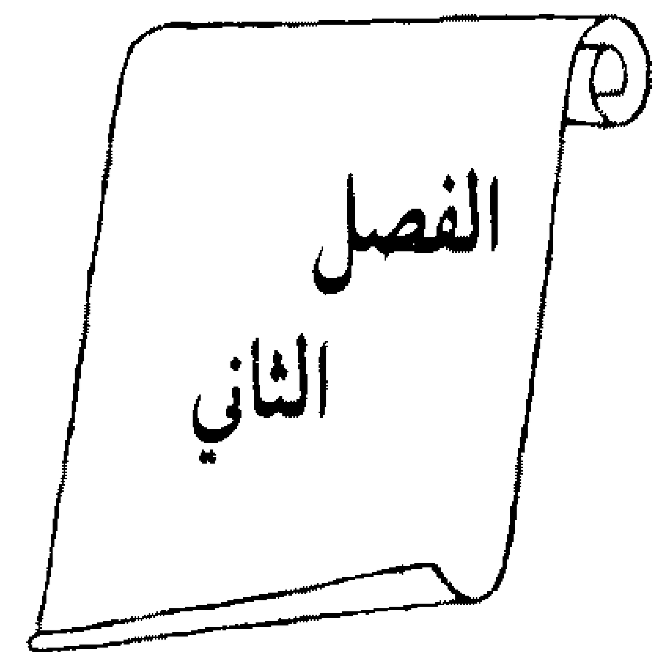
(٢) سورة الاسراء الآية ٢٣ .

(٣) سورة لقمان الآية ١٤ .

(٤) سورة الاسراء الآيتان٢٣ و٢٤ .

(٥) هو عطاء بن اسلم بن صفوان ، تابعي ، من اجلاء الفقهاء . كان عبداً أسود ولد في جند (باليمن) سنة (٢٧هـ ـ ٦٤٧ م) ونشأ بمكة فكان مفتي أهلها ومحدثهم ، وتوفي فيها سنة (١١٤هـ ـ ٧٣٢ م) .
أنظر : تذكرة الحفاظ (١ : ٩٢). وصفوة الصفوة (٢ : ١١٩).

ثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة . فكان آخر كلامه : يا رب أوصني قال أوصيك بأمك حسناً قال له سبع مرات . قال حسبي ، ثم قال يا موسى إن رضاها رضاي وسخطها سخطي . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه لأبن مهران لا تأتين أبواب السلاطين وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر ، ولا تخلون بامرأة ، وإن علمتها سورة من القرآن ، ولا تصحبن عاقاً فانه لن يقبلك وقد عق والديه . وقال فيلسوف من عق والديه عقه ولده . وقال المأمون لم أر أحداً أبر من الفضل بن يحيى بأبيه ، بلغ من بره له أنه كان لا يتوضأ إلا بماء سخن فمنعهم السجان من الوقود في ليلة باردة فلما أخذ يحيى مضجعه قام الفضل إلى قمقم من نحاس فملأه ماء وأدناه من المصباح ، فلم يزل قائماً وهو في يده إلى الصباح ، حتى استيقظ يحيى من منامه . وقيل طلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء ، فلما أتاه بالشربة نام أبوه ، فما زال الولد واقفاً والشربة في يده إلى الصباح حتى استيقظ أبوه من منامه . وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إن لي أماً بلغ منها الكبر ، أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية ، فهل أديت حقها ، قال : لا لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنى بقاءك ، وأنت تصنعه وتتمنى فراقها . وقال ابن المنكدر : بت أكبس رجل أبي وبات آخر يصلي ولا يسرني ليلته بليلتي . وقيل إن محمد بن سيرين كان يكلم أمه كما يكلم الأمير الذي لا ينتصف منه . وقيل لعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنه إنك من أبر الناس ، ولا تأكل مع أمك في صحفة فقال : أخاف أن تسبق يدي يدها إلى ما تسبق عيناها إليه فأكون قد عققتها .



في الأولاد وحقوقهم ، وذكر النجباء ، والأذكياء ، والبلداء ، والأشقياء

قال رسول الله ﷺ : « الولد ريحانة من الجنة » . وقال الفضل ريح الولد من الجنة ، وكان يقال ابنك ريحانتك سبعاً ، ثم حاجبك سبعاً ، ثم عدو أو صديق . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه . قال : قلت لسيدي رسول الله ﷺ يا رسول الله هل يولد لأهل الجنة قال : والذي نفسي بيده ، إن الرجل يشتهي أن يكون له ولد فيكون حمله ووضعه وشبابه الذي ينتهي إليه في ساعة واحدة . وقيل من حق الولد على والده أن يوسع عليه حاله كي لا يفسق . وقال عمر رضي الله تعالى عنه : إني لأكره نفسي على الجماع رجاء أن يخرج الله مني نسمة تسبحه وتذكره . وقال رضي الله تعالى عنه : أكثروا من العيال فأنكم لا تدرون بمن ترزقون . وقال شبيب بن شبة ذهب اللذات إلا من ثلاث : شم الصبيان ، وملاقاة الأخوان ، والخلو مع النسوان . ودخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة فقال :

من هذه يا أمير المؤمنين قال هذه تفاحة القلب . فقال انبذها عنك فانهن يلدن الأعداء ويقربن البعداء ، ويورثن الضغائن . قال لا تقل يا عمرو ذلك ، فوالله ما مرض المرضى ، ولا ندب الموق ، ولا أعان على الأخوان إلا هنَّ . فقال عمرو يا أمير المؤمنين إنك حببتهن إليّ . وقيل لرجل أي ولدك أحب إليك قال : صغيرهم حتى يكبر ، ومريضهم حتى يبرأ ، وغائبهم حتى يحضر . وقال ابن عامر لأمرأته أمامة بنت الحكم الخزاعية : إن ولدت غلاماً فلك حكمك فلما ولدت قالت حكمي أن تطعم سبعة أيام كل يوم على ألف خوان ، من فالوذج ، وأن تعلق بألف شاة ففعل لها ذلك . وغضب معاوية على يزيد فهجره . فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليلة ، وبهم نصول على كل جليلة ، فان غضبوا فأرضهم ، وإن سألوا فأعطهم ، وإن لم يسألوا فابتدئهم ولا تنظر إليهم شزراً فيملوا حياتك ، ويتمنوا وفاتك . فقال معاوية : يا غلام إذا رأيت يزيد فاقرئه السلام واحمل إليه مائتي ألف درهم ، ومائتي ثوب . فقال يزيد من عند أمير المؤمنين ؟ فقيل له الأحنف . فقال يزيد بن معاوية عليّ به فقال : يا أبا بحر كيف كانت القصة فحكاها له فشكر صنيعه وشاطره الصلة .

وحكى الكسائي أنه دخل على الرشيد يوماً فأمر باحضار الأمين والمأمون ولديه ، قال فلم يلبث قليلاً أن أقبلا ككوكبي أفق يزينهما هداهما ، وقد غضا أبصارهما حتى وقفا في مجلسه فسلما عليه بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء فاستدناهما وأسند محمداً عن يمينه ، وعبد الله عن يساره ، ثم امرني أن ألقي عليهما أبواباً من النحو فما سألتهما شيئاً إلا أحسنا الجواب عنه فسرّه ذلك سروراً عظيماً وقال كيف تراهما فقلت :

أرى قمريّ أفق وفرعين شامة ... يزينهما عرق كريم ومحتد
سليليّ أمير المؤمنين وحائزيّ ... مواريث ما أبقى النبي محمد
يسدان أنفاق النفاق بشيمة ... يزينهما حزم وسيف مهند

ثم قلت ما رأيت أعز الله أمير المؤمنين أحداً من أبناء الخلافة ، ومعدن الرسالة ، وأغصان هذه الشجرة الزلالية آدب منهما ألسناً ، ولا أحسن ألفاظاً ، ولا أشد اقتداراً على الكلام روية وحفظاً منهما ، أسأل الله تعالى أن يزيد بهما الاسلام تأييداً وعزاً ، ويدخل بهما على أهل الشرك ذلاً وقمعاً،وأمن الرشيد على دعائه ثم ضمهما إليه وجمع عليهما يديه فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تتحدر على صدره ، ثم أمرهما بالخروج . وقال كأنكم بهما وقد دهم القضاء ، ونزلت مقادير السماء ، وقد تشتت أمرهما ، وافترقت كلمتهما بسفك الدماء وتهتك الستور . وكان يقال : بنو أمية دن[1] خل ، أخرج الله منه زق عسل . يعني عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه . وسب اعرابي ولده وذكر له حقه فقال : يا أبتاه إن عظيم حقك عليّ لا يبطل صغير حقي عليك . قال سيدي عبد العزيز الديريني رحمه الله تعالى :

---

(١) الدَّن : الراقود العظيم ، أو أطول من الحبّ ، أو أصغر ، له عسعس ، لا يقعد إلا أن يحفر له .

أحب بنيتي ووددت أني دفنت بنيتي في قاع لحد
وما بي أن تهون عليّ لكن مخافة أن تذوق الذل بعدي
فان زوجتها رجلاً فقيراً أراها عنده والهم عندي
وإن زوجتها رجلاً غنياً فيلطم خدها ويسب جدي
سألت الله يأخذها قريباً ولو كانت أحب الناس عندي

وقال هارون بن علي بن يحيى المنجم : (١)

أرى ابني تشابه من علي ومن يحيى وذاك به خليق
وإن يشبههما خلقاً وخلقاً فقد تسرى إلى الشبه العروق

وقال أبو النصر مولى بني سليم :

ونفرح بالمولود من آل برمك ولا سيما أن كان من ولد الفضل

وقال الحسن بن زيد العلوي :

قالوا عقيم ولم يولد له ولد والمرء يخلفه من بعده الولد
فقلت من علقت بالحرب همته عاف النساء ولم يكثر له عدد

وكان الزبير بن العوام(٢) رضي الله عنه يرقص ولده ويقول :

أزهر من آل بني عتيق مبارك من ولد الصدّيق
الذه كما ألذ ريقي

وكانت أعرابية ترقص ولدها وتقول :

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى في البلد
أهكذا كل ولد أم لم يلد مثلي أحد

وكان أعرابي يرقص ولده ويقول :

أحبه حب الشحيح ماله قد ذاق طعم الفقر ثم ناله
إذا أراد بذله بدا له

---

(١) هو هارون بن علي بن يحيى ، ابو عبد الله ، ابن المنجم البغدادي . عالم بالادب ، من أهل بغداد ، له تصانيف منها : « كتاب النساء » في أخبارهن وما قيل فيهن من منظوم ومنثور ، و« المختار » في الاغاني و« اختيار الشعراء » و« البارع » في أخبار الشعراء المولدين ، جمع فيه ١٦١ شاعراً ، أولهم بشار بن برد ، وآخرهم محمد بن عبد الملك بن صالح . توفي ببغداد سنة (٢٨٨هـ ـ ٩٠١ م).
انظر وفيات الاعيان (٢ : ١٩٤). ومفتاح السعادة (١ : ٢١٢).

(٢) الزبير بن العوام بن خويلد الاسدي القرشي ـ ابو عبد الله ـ الصحابي الشجاع أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأول من سلّ سيفه في الاسلام ، وهو ابن عمة النبي ﷺ ، شهد بدراً وأحداً وغيرهما . قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل سنة (٣٦هـ ـ ٦٥٦ م). وله ٢٨ حديثاً .
انظر تهذيب ابن عساكر (٥ : ٣٥٥). وصفة الصفوة (١ : ١٣٢).

وكان لأعرابي امرأتان فولدت إحداهما جارية ، والأخرى غلاماً فرقصته أمه يوماً . وقالت معايرة لضرتها :

الحمد لله الحميد العالي | أنقذني العام من الجوالي
من كل شوهاء كشن بالي | لا تدفع الضيم عن العيال

فسمعتها ضرّتها فأقبلت ترقص ابنتها وتقول :

وما عليّ أن تكون جارية | تغسل رأسي وتكون الفالية
وترفع الساقط من خمارية | حتى إذا ما بلغت ثمانية
أزرتها بنقبة يمانية | أنكحتها مروان أو معاوية

أصهار صدق ، ومهور غالية

قال فسمعها مروان فتزوجها على مائة ألف مثقال ، وقال إن أمها حقيقة أن لا يكذب ظنها ولا يخان عهدها . فقال معاوية لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر ولكن لا تحرم الصلة ، فبعث إليها بمائتي ألف درهم والله أعلم .

ومما جاء في الأولاد البلداء القليلي التوفيق : قيل : نظر أعرابي إلى ولد له قبيح المنظر فقال له : يا بنيّ إنك لست من زينة الحياة الدنيا . وقال رجل لولده وهو في المكتب : في أيّ سورة أنت ؟ قال لا أقسم بهذا البلد ، ووالدي بلا ولد . فقال لعمري من كنت أنت ولده فهو بلا ولد . وأرسل رجل ولده يشتري له رشاء للبئر طوله عشرون ذراعاً ، فوصل إلى نصف الطريق ثم رجع فقال : يا أبت عشرون في عرض كم قال في عرض مصيبتي فيك يا بنيّ . وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة فبينما هو يمشي مع أبيه إذا برجل يصيح بشاب يا عبد الله فلم يجبه ذلك الشاب فقال ألا تسمع فقال يا عم كلنا عبيد الله فأي عبد الله تعني فالتفت أبو حمزة إليه وقال يا حمزة ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشاب . فلما كان من الغد إذا برجل ينادي شاباً يا حمزة ، فقال حمزة بن الأعرابي كلنا حماميز الله ، فأي حمزة تعني ، فقال له أبوه ليس يعنيك يا من أخمد الله به ذكر أبيه . وكان لمحمد بن بشير الشاعر ابن جسيم ، فأرسله في حاجته فأبطأ عليه ثم عاد ولم يقضها فنظر إليه ثم قال :

عقله عقل طائر وهو في خلقة الجمل

فأجابه : مشبه بك يا أبي ليس لي عنك منتقل

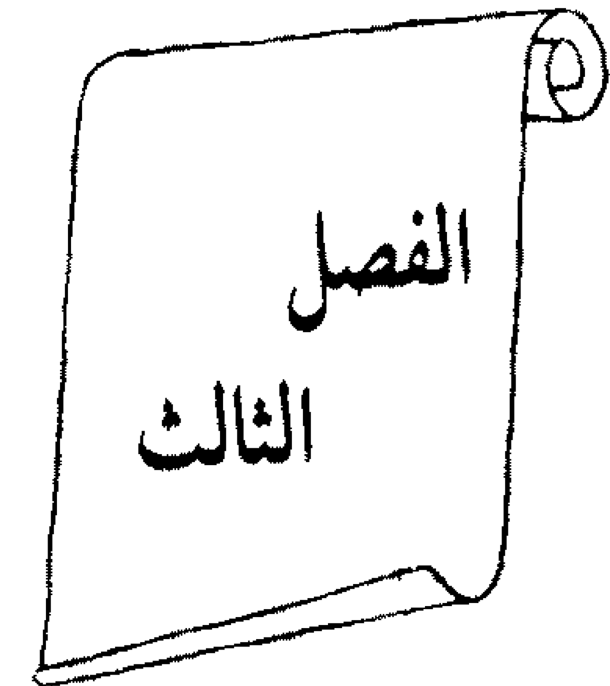
ونهى أعرابيّ ابنه عن شرب النبيذ فلم ينته وقال :

أمن شربة من ماء كرم شربتها | غضبت عليّ الآن طابت لي الخمر
سأشرب فاسخط لأرضيت كلاهما | حبيب إلى قلبي ، عقوقك والسكر

وقيل قال ذلك يزيد بن معاوية لأبيه حين نهاه عن شرب الخمر .

ومما جاء في صلة الرحم قال رسول الله ﷺ : « صلة الرحم منجاة للولد مثراة للمال » وقيل وجد

حجر حين حفر إبراهيم الخليل عليه السلام أساس البيت مكتوب عليه بالعبرانية أنا الله ذو بكة[1] خلقت الرحم ، وشققت لها أسماء من أسمائي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته أي قطعته . وقال رسول الله ﷺ « أعجل الخير ثواباً ، صلة الرحم » وحدثنا أبو سهل عن صالح بن جرير بن عبد الحميد عن منصور عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه عن كعب الأحبار أنه قال : والذي فلق البحر لموسى بن عمران إن في التوراة لمكتوباً يا ابن آدم اتق ربك ، وبرّ والديك ، وصل رحمك أزد في عمرك ، وأيسر لك في يسيرك ، وأصرف عنك عسيرك . وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة السرّ تطفىء غضب الرب جلّ وعلا ، وصلة الرحم تزيد في العمر » وذكر تمام الحديث .



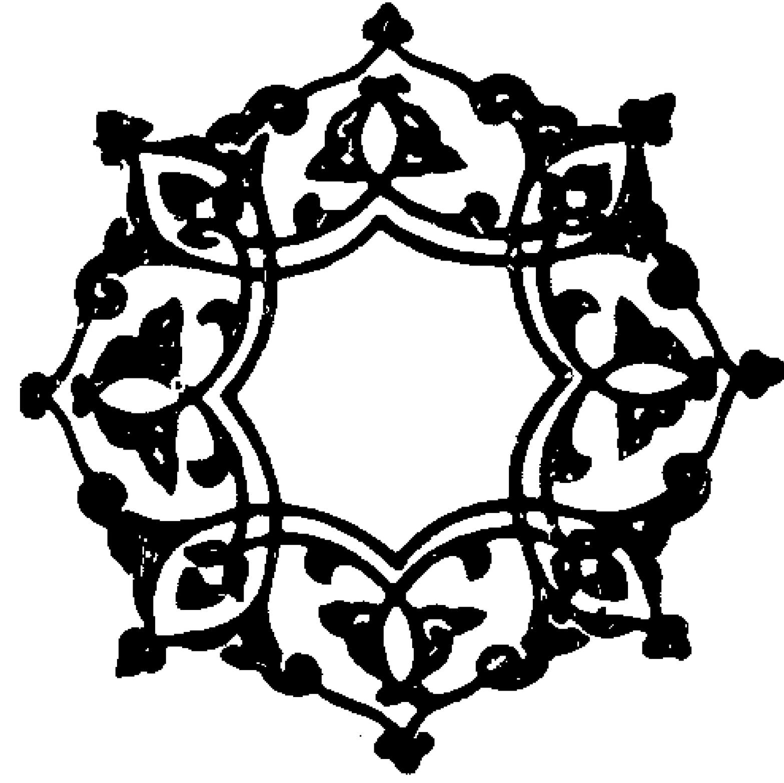
في ذكر الأنساب ، والأقارب ، والعشيرة

قال عمر رضي الله عنه : تعلموا أنسابكم تعرفوا بها أصولكم ، فتصلوا بها أرحامكم . وقيل : لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الأعداء ، وتنازع الأكفاء لكان تعلمها من أحزم الرأي ، وأفضل الثواب ، ألا ترى إلى قول قوم شعيب عليه السلام حيث قالوا : « ولولا رهطك لرجمناك » فأبقوا عليه لرهطه . وقال عمر رضي الله عنه : تعلموا العربية فانها تزيد في المروءة ، وتعلموا النسب فرب رحم مجهولة قد وصلت بعرفان نسبها . وسئل عيسى عليه السلام : أيّ الناس أشرف فقبض قبضتين من تراب وقال أي هاتين أشرف ، ثم جمعهما وطرحهما . وقال الناس كلهم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم . كان أبو كبشة جدّ رسول الله ﷺ من قبل أمه ، فلما خالف رسول الله ﷺ دين قريش قالوا نزعه عرق أبي كبشة ، حيث خالفهم في عبادة الشعري . وقال خالد بن عبد الله القشيري : سألت واصل بن عطاء عن نسبه فقال : نسبي الإسلام الذي من ضيعه فقد ضيع

(١) ذو قهر وغلبة .

نسبه ، ومن حفظه فقد حفظ نسبه ، فقال خالد : وجه عبد وكلام حرّ . ومن كلام عليّ كرم الله وجهه : أكرم عشيرتك فانهم جناحك الذي به تطير ، فانك بهم تصول ، وبهم تطول وهم العدّة عند الشدّة أكرم كريمهم ، وعد سقيمهم وأشركهم في أمورك ، ويسر عن معسرهم . وكان يقال إذا كان لك قريب فلم تمش إليه برجلك ، ولم تعطه من مالك فقد قطعته . ويقال : حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر ، وحنو الأكبر على الأصغر . قال رسول الله ﷺ « حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده » قال بعضهم :

وإذا رزقت من النوافل ثروة   فامنح عشيرتك الأدانى فضلها
واعلم بانك لا تسود فيهم   حتى ترى دمث الخلائق سهلها



الباب السادس والأربعون

في الخلق وصفاتهم، واحوالهم، وذكر الحسن، والقبيح

الفصل الأول :

في الحسن ومحاسن الأخلاق

وإلى سيدنا محمد رسول اللهﷺ ينتهي الحسن والجمال . كان سيدنا محمدﷺ ربعة من القوم . لا بائناً من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، أبيض اللون مشرباً بحمرة ،أدعج[1] العينين ، مفلج الثنايا[2] دقيق المسربة ، أزهر الجبين ، واضح الخد ، أقنى الأنف كأن عنقه إبريق فضة ، ظاهر الوضاءة ، يتلألأ وجهه تلألوء القمر ، شثن[3] الكفين ، مسيح القدمين ، واسع الصدر من لبته إلى سرّته ، شعر يجري كالقضيب ، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره ، أشعر الذراعين والمنكبين ، لم يبلغ شيبه في رأسه ولحيته عشرين شعرة ، ضخم الكراديس[4]، أنور المتجرد إذا مشى كأنما ينحط من صبب وإذا التفت التفت جميعاً ، بين كتفيه خاتم النبوّة كأنه زرّ حجلة ، أو بيض حمامة لونه كلون جسده ، أبلج الوجه حسن الخلق ، وسيما قسيماً في جبينه زجج ، وفي عينيه دعج ، وفي عنقه سطع وفي لحيته كثافة إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سما وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم وأكملهم من قريب ، كأنما منطقه خرزات نظم يتحدّرن . قال أنس رضي الله عنه : ما رأيت من ذي لمة سوداء في حلة حمراء أحسن من رسول اللهﷺ ، ومدحهﷺ حسان بن ثابت ، رضي الله عنه فقال :

وأحسن منك لم تر قطّ عيني ... وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرّأ منْ كلّ عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

اللهمّ صلّ وسلم عليه واجعله شفيعاً لمن يصلي عليه . وقالﷺ : « ما حسن الله خلق عبد وخلقه إلا استحيا أن يطعم لحمه النار » . وقد كان المتوكل رحمه الله من أحسن الخلفاء العباسيين

---

(١) ادعج : واسع . ٢ ـ اي الاسنان في أول الفم .
(٣) شثن : خشن ٤ ـ كراديس : مفردها كردس، وهي رؤوس العظام .

وجهاً ، وأبهاهم منظراً ، وكان مصعب بن الزبير[1] من أحسن الناس وجهاً .

حكي أنه كان جالساً بفناء داره يوماً بالبصرة إذا جاءت امرأة فوقفت تنظر إليه ، فقال لها : ما وقوفك يرحمك الله ؟ فقالت : طفىء مصباحنا ، فجئنا نقتبس من وجهك مصباحاً . وقيل لأعرابية ظريفة : ما بال شفتيك مشققة ؟ فقالت : إن التين إذا حلا تشقق ، والورد يتشقق إذا مسه الندى . وكانت لبابة بنت عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم ، من أجمل الناس وجهاً ، وكانت عند الوليد بن عتبة بن أبي سفيان فكانت تقول : ما نظرت وجهي في مرآة مع إنسان إلا رحمته من حسن وجهي ، إلا الوليد ، فكنت إذا نظرت إلى وجهي مع وجهه رحمت وجهي من حسن وجهه . قال الشاعر :

ولـو أنها في عهـد يـوسف قـطعت   قلوب الـرجـال ، لا أكف نسـاء

وقال كثير :

لو أن عزة حاكمت شمس الضحى   في الحسن عنـد مـوفق لقضى لهـا

ومما جاء في محاسن الخلق منظوماً على الترتيب ، من الفرق إلى القدم . ما قيل في الشعر،كان يقال : من تزوّج امرأة او اتخذ جارية فليستحسن من شعرها ، فإن الشعر الحسن أحد الوجهين . قال بكر بن النطاح :

بيضـاء تسحب من قيام شعـرهـا   وتـغيـب فيـه وهـو وجـه أسحم
فـكـأنها فـيـه نهار سـاطـع   وكـأنـه لـيـل عـليـهـا مـظلم

وللمتنبـي :

نشـرت ثـلاث ذوائب من شعـرهـا   في لـيـلة فـأرت لـيـالي أربـعـا
واستقبلت قمـر الـزمـان بـوجهها   فـأرتـني القـمـرين في وقـت معـا

وله أيضاً :

لـبسـن الـوشي لا مـتـجـمـلات   ولـكـن كي يصـن بـه الجمـالا
وضـفـرن الـغـدائـر لا لحسـن   ولكن خفن في الشعـر الـضـلالا

وقال الصفدي :

لـولا شفـاعـة شعـره في صبـه   مـا كـان زار ولا أزال سـقـامـا
لكن تنـازل في الشفـاعـة عنـده   فـغـدا عـلى أقـدامـه يـترامـى

---

(١) اخو عبد الله بن الزبير المنافس بعد الملك بن مروان. قاوم الخوارج بشدة وقضى عل المختار الثقفي. حاربه عبد الملك وقتل. اشتهر بشجاعته وكرمه. توفي سنة ٧١هـ ، ٦٩٠ م .

وقال ابن الصائغ :

ثنى غصنا ومدّ عليه فرعا   كحظي حين أطلب منه وصلا
وبلبله على الأرداف منه   فلم أر مثل ذاك الفرع أصلا

وقال آخر :

أرخى ثلاثا يوم حمامه   ذوائبا تعبق منها الغوال
فقلت والقصد ذؤاباته   واسهري في ذي الليالي الطوال

وقال آخر :

بدت ثريا قرطها وشعرها   متصل بكعبها كما ترى
يا عجبا لشعرها لما ابتدى   من الثريا فانتهى إلى الثرى

وقال ابن المعتز :

توارت عن الواشي بليل ذوائب   لها من محيا واضح تحته فجر
يغطي عليها شعرها بظلامه   وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

ومما قيل في الأصداغ . قال ابن المعتز :

ريم يتيه بحسن صورته   عبث النعاس بلحظ مقلته
وكأنّ عقرب صدغه وقفت   لما دنت من ورد وجنته

وقال العادلي :

وعهدي بالعقارب حين تشتو   يخفف لدغها ويقلّ ضرّاً
فما بال الشتاء أتى وهذي   عقارب صدغها تزداد شرّاً

وقال آخر :

وما ضرّه نار بخديّه ألهبت   ولكن بها قلب المحبّ يعذّب
عناقيد صدغيه بخديّه تلتوي   وأمواج ردفيه بخصريه تلعب
شربت الهوى صرفاً زلالا وإنما   لواحظه تسقى وقلبي يشرب

وقال آخر :

حلّ القبا ولوى صدغيه فانعقدا   واحيرتي بين محلول ومعقود
وأسكرتني ثناياه وريقته   هل هذه الخمر من تلك العناقيد

ومما قيل في مدح العذار . قال أبو فراس بن حمدان :

يا من يلوم على هواه جهالة   انظر إلى تلك السوالف تعذر
حسنت وطاب نسيمها فكأنها   مسك تساقط فوق خد أحمر

وقال محمد بن وهب :

صدودك والهوى هتكا استتاري ... وساعدني البكاء على اشتهاري
وكم أبصرت من حسن ولكن ... عليك لشقوتي وقع اختياري
ولم أخلع عذاراً فيك إلا ... لما عاينت من خلع العذار

وقال آخر :

ومعذر رقّت حواشي خدّه ... فقلوبنا وجدا عليه رقاق
لم يكس عارضه السواد وإنما ... نفضت عليه سوادها الأحداق

وقال آخر :

ومهفهف راقت نضارة وجهه ... والعين تنظر منه أحسن منظر
أصلى بنار الخدّ عنبر خاله ... فبدا العذار دخان ذاك العنبر

وقال آخر :

أصبحت سلطان القلوب ملاحة ... وجمال وجهك للبرية عسكر
طلعت طلائع وجنتيك منيرة ... بالنصر يقدمها اللواء الأخضر

وقال آخر :

يا ذا الذي خطّ العذار بخدّه ... خطين هاجا لوعة وبلابلا
ما صحّ عندي أن لحظك صارم ... حتى حملت بعارضيك حمائلا

وقال آخر :

من لا أرى كعبة الحسن التي حرست ... بالنمل حيث مقام النحل في فمه
فلينظر النمل أضحى فوق عارضه ... يطوف سبعاً وسبعا حول مبسمه

وقال بدر الدين الدماميني :

يحدث ليل عارضه بأني ... سأسلوه وينصرم المزار
فأشرق صبح غرّته ينادي ... حديث الليل يمحوه النهار

وقال آخر :

وقالوا تسلى فقد شانه ... عذار أراحك من صدّه
فقلت وهمتم ولكنني ... خلعت العذار على خدّه

وقال سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء :

على وجنتيه جنة ذات بهجة ... ترى لعيون الناس فيها تزاحما
حمى ورد خديه حماة عذاره ... فيا حسن ريحان العذار حماحمي

وقال ابن نباتة[1] :

ومهجتي رشأ يميس قوامه ... فكأنه نشوان من شفتيه
شغف العذار بخده ورآه قد ... نعست لواحظه فدب عليه

وقال الموصلي :

لحديث نبت العارضين حلاوة ... وطلاوة هامت بها العشاق
فاذا نهاني المرء قلت ترفقوا ... فإليكم هذا الحديث يساق

وقال آخر :

أصبحت مكسوراً بسهم لحاظه ... ومقيداً من صدغه بلسانه
حتى بدا سيف العذار مجرداً ... فخشيت يقتلني وذا من شأنه

وقال آخر :

يا صاح قد حضر المدام ومنيتي ... وحظيت بعد الهجر بالايناس
وكسا العذار الخد حسناً فاسقني ... واجعل حديثك كله في الكاس

وقال ابن نباتة :

وضعت سلاح الصبر عنه فما له ... يغازل بالألحاظ من لا يغازله
وسال عذار فوق خدّيه سائل ... على خدّه فليتق الله سائله

ومما قيل في ذم العذار . قال الشاعر :

غدا لما التحى ليلاً بهيماً ... وكان كأنه قمر منير
وقد كتب السواد بعارضيه ... لمن يقرأ وجاءكم النذير

وقال آخر في ذمه :

قلت لأصحابي وقد مرّ بي ... منتقباً بعد الضيا بالظلم
بالله يا أهل ودّي قفوا ... ثم انظروا كيف زوال النعم

وقال آخر :

ما زال ينتف ريحاناً بعارضه ... حتى استطال عليه صار يحلقه
كأنما طور سينا فوق عارضه ... طول الزمان فموسى لا يفارقه

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المصري - ابو بكر - جمال الدين - ابن نباته - شاعر عصره وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالادب. ولد بالقاهرة سنة (٦٨٦هـ - ١٣٦٦ م). كان صاحب سر السلطان الناصر حسن . له : « ديوان شعر » و« سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » و« مطلع الفوائد » و« المختار من شعر ابن الرومي » وغيرها . توفي سنة (٧٦٨هـ - ١٣٦٦ م).
أنظر حسن المحاضرة (١ : ٣٦٩). والبداية والنهاية (١٤ : ٣٢٢). وآداب اللغة (٣ : ١٢٢).

وقال آخر :

مـا زال يحـلف لي بـكـل ألـيـة   أن لا يزال مدى الـزمان مصاحبي
لمـا جـن نـزال الـعـذار بـخـده   فتعجبـوا لـسـواد وجـه الكـاذب

وقال ابن المعتز :

يـا رب إن لم يكن في وصله طمع   ولم يكن فـرج من طول جفـوتـه
فاشف السقام الـذي في لحظ مقلته   واستر مـلاحـة خـديـه بلحيته

ومما قيل في الجبين والحواجب. قال خالد الكاتب :

لهـا من ظباء الـرمل عـين مـريضـة   ومن نـاضر الـريحان خضـرة حاجب
ومن يـانـع الأغصــان قـدّ وقـامـة   ومن حالك الحبـر اسوداد الـذوائب

وقال آخر :

غـزاني الهـوى في جيشـه وجنـوده   وهبّ علـيّ الجيش من كـل جـانب
بميسـرة أجنـادهـا أعـين المهـا   وبيمنـة تقضي بـزج الحـواجـب

وقال آخر :

أيـا قـمـراً تـبـسـم عـن إقـاح   ويـا غصنـاً يميـل مـع الـريـاح
جبيـنـك والمقـبـل والـثـنـايـا   صـبـاح في صـبـاح في صـبـاح

ومما قيل في العيون . قال الأصمعي ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع في قوله :

وكـأنمـا دون الـنـسـاء أعـارهـا   عينيـه أحـور من جـآذر جـاسـم
وسنـان أقصـده النعـاس تـلاعبت   في جـفـنـه سـنـة وليس بـنـائـم

وقال ابن المعتز :

عليم بمـا تحت العيون من الهـوى   سـريع بكسر اللحظ والقلب جازع
فيجـرح أحشـائي بعـين مـريضـة   كـما لان متن السيف والحدّ قـاطـع

وقال الأخطل :(1)

ولا تـلـمـم بـدار بـني كـلـيـب   ولا تـقـرب لهـا أبـداً رجـالا
تـرى فـيـهـا بـوارق مـرهـفـات   يكـدن يكـدن بـالحـرق الـرجـالا

(1) هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمر ، من بني تغلب ـ ابو مالك ـ شاعر ، مصقول الالفاظ ، حسن الديباجة ، في شعره ابداع ، اشتهر في عهد بني امية بالشام ، وأكثر من مدح ملوكهم . وهو أحد الثلاثة المتفق على انهم أشعر أهل عصرهم : جرير ، والفرزدق ، والاخطل . اتصل بالامويين فكان شاعرهم ، وتهاجى مع جرير والفرزدق . له « ديوان شعر » توفي سنة (٩٠هـ ـ ٧٠٨ م).
أنظر اخباره في الاغاني طبعة دار الكتب (٨ : ٢٨٠). وخزانة البغدادي (١ : ٢١٩ ـ ٢٢١).

وقال أبو فراس وأحسن :

وبيض بألحاظ العيون كأنما ... هززن سيوفاً واستللن خناجرا
تصدّين لي يوماً بمنعرج اللوى ... فغادرن قلبي بالتصبر غادرا
سفرن بدورا وانتقبن أهلة ... ومسن غصوناً والتفتن جآذرا

وقال آخر :

ومريض جفن ليس يصرف طرفه ... نحو امرىء إلا رماه بحتفه
قد قلت إذا أبصرته متمايلاً ... والردف يجذب خصره من خلفه
يا من يسلم خصره من ردفه ... سلم فؤاد محبه من طرفه

وقال أبو هتان :

أخو دنف رمته فأقصدته ... سهام من جفونك لا تطيش
فواتك لا يقال سوى أحورار ... بهن ولا سوى الأهداب ريش
أصبن فؤاد مهجته فأضحى ... سقيماً لا يموت ولا يُعيش
كئيباً إن ترحل عنه جيش ... من البلوى أناخ به جيوش

وقال آخر :

وجاءوا إليه بالتعاويذ والرقي ... فصبوا عليه الماء من شدة النكس
وقالوا به من أعين الجنّ نظرة ... ولو أنصفوا به أعين الأنس

وقال عز الدين الموصلي :

لها عين لها غزو وغزل ... مكحلة ولي عين تباكت
وحاكت في فعائلها المواضي ... فيا لك مقلة غزلت وحاكت

وقال برهان الدين القيراطي :

شبه السيف والسنان بعيني ... من لقتلي بين الأنام استحلا
فأتى السيف والسنان وقالا ... حدنا دون ذاك حاشى وكلا

وله أيضاً :

بأبي أهيف المعاطف لدن ... حسد الأسمر المثقف قده
ذو جفون مذ رمت منها كلاماً ... كلمتني سيوفهن بحده

وقالبدر الدين بن حبيب :

عيناه قد شهدت بأني مخطىء ... وأتت بخط عذاره تذكارا
يا حاكم الحب اتئد في قتلتي ... فالخط زور والشهود سكارى

وقال جلال الدين بن خطيب داريا :

شهدت جفون معذبي بملالة ... مني وأنّ وداده تكليف
لكنني لم أنأ عنه لأنه ... خبر رواه الجفن وهو ضعيف

وقال الشيخ عز الدين الموصلي :

يا مقلة الحبّ مهلاً ... فقد أخذت بثارك
وأنت يا وجنتيه ... لا تحرقيني بنارك

وقال ابن الصائغ :

لمثلي من لواحظها سهام ... لها في القلب فتك أيّ فتك
إذا رامت تشك به فؤاداً ... يموت المستهام بغير شك

وقال الصلاح الصفدي :[1]

يا عاذلي على عين محجبة ... خف سحر ناظرها فالسحر فيه خفي
وخذ فؤادي ودعه نصب مقلتها ... لا ترم نفسك بين السهم والهدف

وقال آخر :

بسهم أجفانه رماني ... فذبت من هجره وبينه
إن مت مالي سواه خصم ... لأنه قاتلي بعينه

وقال آخر :

سهام الجفن كم قتلت لنفس ... مبرأة من السلوى زكية
فما أقوى جفونك وهي مرضى ... وأقدرها على قتل البرية

ومما قيل في الخال للصلاح الصفدي :

بروحي خدّه المحمر أضحى ... عليه شامة شرط المحبة
كأن الحسن يعشقه قديماً ... فنقطة بدينار وحبة

ولابن الصائغ :

بروحي أفدي خاله فوق خدّه ... ومن أنا في الدنيا فأفديه بالمال
تبارك من أخلي من الشعر خده ... وأسكن كل الحسن في ذلك الخال

---

(١) هو خليل بن ايبك بن عبد الله الصفدي ـ صلاح الدين ـ اديب ، كاتب ، مؤرخ ، كثير التصانيف ، ولد في صفد سنة (٦٩٦هـ ـ ١٢٩٦ م) ولع بالادب وتراجم الايمان ، وتولى ديوان الانشاء في صفد ومصر وحلب . ثم وكالة بيت المال بدمشق . توفي بدمشق سنة : (٧٦٤هـ ـ ١٣٦٣ م).

له تصانيف منها « الوافي بالوفيات » و« نكت الهميان » والحان السواجع » و« الغيث المسجم في شرح لامية العجم » وغيرها .

أنظر الدرر الكامنة (٢ : ٨٧). وآداب اللغة (٣ : ١٦١).

وللشيخ جمال الدين بن نباتة :

لله خال على خد الحبيب له ... في العاشقين كما شاء الهوى عبث

أورثته حبة القلب القتيل به ... وكان عهدي بأن الخال لا يرث

وقال آخر :

يا سالباً قمر السماء جماله ... ألبستني في الحزن ثوب سمائه

أحرقت قلبي فارتمى بشرارة ... علقت بخدك فانطفت في مائه

وللشيخ تقي الدين بن حجة[1] :

قلت للخال إبد بدا ... في نقا جيده السعيد

فزت يا عبد قال لي ... أنا عبد لكل جيد

وقال ابن ايبك :

في الجانب الأيمن من خدها ... نقطة مسك أشتهي شمها

حسبته لما بدا خالها ... وجدته من حسنها عمها

وقال الحسين بن الضحاك :

يا صائد الطير كم ذا ... باللحظ تضني وتسبي

نصبت نقطة خال ... فصدت طائر قلبي

ومما قيل في الخدود . قال ابن المعتز :

صل بخدي خديك تلق عجيباً ... من معان يحار فيها الضمير

فبخديك للربيع رياض ... وبخديّ للدموع غدير

وقال آخر :

ورد الخدود ونرجس اللحظات ... وتصافح الشفتين في الخلوات

شيء أسرّ به وأعلم أنه ... وحياته أحلى من اللذات

ومما قيل في الثغور . قال يوسف بن مسعود الصوّاف :

بروحي من ولى فولى بمهجتي ... وولى منامي وهو كالوصل شارد

حمى ثغره مني بسيف لحاظه ... وحتام يحمي ثغره وهو بارد

وقال آخر :

أنفقت كنز مدامعي في ثغره ... وجمعت فيه كل معنى شارد

وطلبت منه جزاء ذلك قبلة ... فمضى وراح تغزلي في البارد

وقال آخر :

رأى ثغر من أهوى عذولي فقال لي ... ولم يدر أن اللوم في خدّه يغري

---

(١) هو ابن حجة الحموي . عمل في ديوان الانشاء في القاهرة زمن السلطان المؤيد (توفي سنة ٨٣٨هـ = ١٤٣٤ م)

شغلت بهذا وارتبطت بحسنه   وأحسن ما كان الرباط على ثغر

وقال ابن ريان :

لاحت على مبسمه المشتهي   ثلاث شامات غدت في التئام
لا تعجبوا إن كثرت حوله   فالمنهل العذب كثير الزحام

ومما قيل في طيب الريق والنكهة . قال ذو الرمة :

أسيلة مجرى الدمع هيفاء طفلة   عروب كايماض الغمام ابتسامها
كأنّ على فيها وما ذقت طعمه   زجاجة خمر طاب فيها مدامها

قال شهاب الدين الكردي :

ذكرت ريح حبيبي   بشرب راح تعطر
وليس ذا بعجيب   فالشيء بالشيء يذكر

وقال غيره :

رشفت ريقك حلواً   ولم يكن لي صبر
وسوف أحظى بوصل   فأول الغيث قطر

وقال الصلاح الصفدي :

نقل الأراك بأن ريقة ثغره   من قهوة مزجت بماء الكوثر
قد صحّ ما نقل الأراك لأنه   يرويه نصاً عن صحاح الجوهري

وقال آخر :

ثلاث تجمعن في ثغرها   ملاح أدلتها واضحة
فإن قيل ما هي قل لي أقل   هي الطعم واللون والرائحة

وقال آخر :

يا رب ممتنع الوصال محجب   بستوره كالبدر بين غيومه
دارت مراشفه عليّ وكأسه   فسكرت في الحالين من خرطومه

وقال آخر :

أريقاً من رضابك أم رحيقا   رشفت فكدت منه لن أفيقا
وللصهباء أسماء ولكن   جهلت بأن في الأسماء ريقاً

ومما قيل في حسن الحديث . قال البحتري :

ولما التقينا والنقا موعد لنا   تعجب رائي الدّر حسناً ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها   ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وقال سلم الخاسر :

ظللنا فبتنا عند أم محمد   بيوم ولم نشرب شراباً ولا خمرا
إذا صمتت عنا ضجرنا لصمتها   وإن نطقت هاجت لألبابنا سكرا

وقال ابن الرومي :(١)

يمسي ويصبح معرضاً فكأنه   ملك عزيز قاهر سلطانه
ليست إساءته بناقصة له   درّ يساقطه إليّ لسانه

وما أحسن هذه الأبيات ، وهي من طارف الشعر ووافره وناقده وجيد الكلام وبارع الوصف :

وكل حديث الناس إلا حديثها   رجيع وفيها حدثتك الطرائف
جرحن بأعناق الظباء وأعين الـ   ـجآذر وارتجت بهن الروادف
رجحن بأرداف ثقال وأسوق   جذال وأعضاء عليها المطارف

ومما قيل في رقة البشرة . قال ابن المعتز :

نضت عنها القميص لصب ماء   فورد خدها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرت   بمعتدل أرقّ من الهواء
ومدّت راحة كالماء منها   إلى ماء عتيد في إناء
فلما أن قضت وطراً وهمت   على عجل إلى أخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على تدان   فأسبلت الظلام على الضياء
فغاب الصبح منها تحت ليل   وظلّ الماء يقطر فوق ماء

وقال آخر :

تغير عن مودّته وحالا   وكان مواصلاً فطوى الوصالا
وعلمه التدلل كيف هجري   فليت الوصل كان له دلالا
ترى من فوق حقويه(٢) قضيبا   إذا ما حركته خطاه مالا
إذا كلمته أثرت فيه   وإن حركته فالخمر سالا

وقال بشار :

وما ظفرت عيني غداة لقيتها   بشيء سوى أطرافها والمحاجر
كحوراء من حور الجنان غريرة   يرى وجهه في وجهها كل ناظر

ومنه أخذ أبو نواس قوله :

نظرت إلى وجهه نظرة   فأبصرت وجهي في وجهه

---

(١) هو علي بن العباس بن جريج ، الرومي ـ ابو الحسن ـ شاعر كبير ، من طبقة بشار والمتنبي ، رومي الاصل . كان جده من موالي بني العباس . ولد ونشأ ببغداد ومات فيها مسموماً سنة (٢٨٣هـ ـ ٨٩٦ م). له « ديوان شعر » في ثلاثة أجزاء . اختصره كامل الكيلاني وسمي المختصر « ديوان ابن الرومي ».انظر اخباره في وفيات الاعيان (١ : ٣٥٠). وتاريخ بغداد (١٢ : ٢٢).

(٢) حقويه : خصريه حيث يعقد الازار .

وقال آخر :

تـوهمـه قـلبـي فـأصـبـح خـدّه وفيه مكان الـوهم من نـظري أثـر
ومَــرّ بفكــري جسمـه فجـرحتـه ولم أر جسـماً قط تجـرحـه الفكـر

وقال آخر :

سقى الله روضاً قد تبدّى لناظـر به شـادن كـالغصن يلهـو ويمـرح
وقـد نضحت خدّاه من مـاء ورده وكــل إناء بـالـذي فيـه ينضـح

وقال آخر :

وأهـيـف قـدّه كـسـى احمـرارا وحـاز الحسن فـهـو بـلا شبيـه
فـلو أخجـلتـه بـالقـول جهـدي لحـمـرة خـده مـا بـان فـيـه

ومما قيل في التقبيل المظفر الأعمى :

قـبلتـه فـتـلظى جمـر وجـنـتـه وفـاح من عـارضيـه العنبـر العبق
وجـال بـينهـما مـاء ولا عـجـب لا يـنـطفىء ذا ولا ذا منـه يحتـرق

وقال آخر :

سـألـتـه في ثـغـره قـبـلة فـقـال الثغـري لم يجـز لـثـمـه
فهاكها في الخد واقنع بها ما قارب الشيء له حكمه

قال صاحب حماة :

قـال الـذي تـيـمـني قـولـوا لمـن خـبـلتـه
يــروم مــني قـــلة لـو مـات مـا قـبـلتـه

وقال الشيخ عزّ الدين الموصلي :

كـالـزرد المنـظوم أصداغـه وخــدّه كـالـورد لمـا ورد
بـالـغت في الـلثم وقبـلتـه في الخدّ تقبيلاً يفـك الـزرد

وقال آخر :

رأيـت الهـلال عـلى وجـهـه فـلم أدر أيـهـما أنـور
سـوى أن ذاك بـعـيـد المـزار وهـذا قـريـب لم يـنـظر
وذاك يـغـيـب وذا حـاضـر ومـا من يغيـب كـمـن يحضـر
ونـفـع الهـلال قـليـل لـنـا ونـفـع الحـبـيـب لـنـا أكـثر

وقال ابن صابر :

قـبلت وجنتـه فـألفـت جيـده خجـلاً ومـاس بعـطفـه الميـاس
فـانهلّ من خـدّيـه فـوق عـذاره عـرق يحـاكي الـطلّ فـوق الآس

فكأنني استقطرت ورد خدوده ... بتصاعد الزفرات من أنفاسي

وقال آخر :

قبلت رجل حبيبي ... فازورّ واحمرّ خدّا
وقال تلثم رجلي ... لقد تنازلت جدّا
فقلت ما جئت بدعا ... ولا تجاوزت حدّا
رجل سعت بك نحوي ... حقوقها لا تؤدى

ومما قيل في الوجه الحسن لابن نباتة :

إنسية في مثال الجنّ تحسبها ... شمساً بدت بين تشريق وتغميم
شقت لها الشمس ثوباً من محاسنها ... فالوجه للشمس والعينان للريم

وقال عبد الله بن أبي خبيص :

تصدّ من غير علة ... بالعزّ أضحت مذلة
كأنها حين تدنو ... شمس عليها مظلة
وإن أضاءت بليل ... تفوق نور الأهلة

وقال آخر :

أقسم بالّله وآياته ... ما نظرت عيني إلى مثله
ولا بدا وجهه طالعاً ... إلا سألت الله من فضله

وقال آخر :

أقيمي مكان البدر إن أفل البدر ... وقومي مقام الشمس قدامّها الفجر
ففيك من الشمس المنيرة نورها ... وليس لها منك التبسم والثغر

وقال عمر بن أبي ربيعة :

ذات حسن إن تغب شمس الضحى ... فلنا من وجهها عنها خلف
أجمع الناس على تفضيلها ... وهواهم في سوى هذا اختلف

أخذ أبو تمام هذا المعنى فرده إلى المدح فقال :

لو أن إجماعنا في فضل سؤدده ... في الدين لم يختلف في الأمة اثنان

وقال آخر :

يا مفرداً في الحسن والشكل ... من دلّ عينيك على قتلي
البدر من شمس الضحى نوره ... والشمس من نورك تستملي

وقال آخر :

ففي أربع مني حلت منك أربع ... فما أنا أدري أيها هاج لي كربي

أوجهك في عيني أم الريق في فمي   أم النطق في سمعي أم الحب في قلبي

فلما سمعه إسحاق بن يعقوب الكندي قال : هذا تقسيم فلسفي ، وجعله العلوي خمسة فقال :

وفي خمسة مني حلت منك خمسة   فريقك منها في فمي طيب الرشف
ووجهك في عيني ولمسك في يدي   ونطقك في سمعي وعرفك في أنفي

وقال ابن نباتة :

أيها العاذل الغبي تأمل   من غدا في صفاته القلب ذائب
وتعجب لطرّة وجبين   إنّ في الليل والنهار عجائب

وقال محمود المخزومي :

رأيتك في الشمس المنيرة غدوة   فكنت على عينيّ أبهى من الشمس
لأنك تزهو إن بدا الليل بهجة   وشمس الضحى ليست تضيء إذا تمسي

وقال آخر :

إذا احتجبت لم يكفك البدر وجهها   وتكفيك فقد البدر إن غرب البدر
وحسبك من خمر مذاقة ريقها   ووالله ما من ريقها حسبك الخمر

ومما قيل في البنان المخضب . قال ابن الرومي :

وقفت وقفة بباب الطاق   ظبية من مخدّرات العراق
بنت سبع وأربع وثلاث   أسرت قلب صبها المشتاق
قلت من أنت يا غزال فقالت: أنا من لطف صنعة الخلاق
لا ترم وصلنا فهذا بنان   قد صبغناه من دم العشاق

وقال الراضي بالله :

قالوا الرحيل فأنشبت أظفارها   في خدّها وقد اعتقلت خطابها
فظننت أن بنانها من فضة   قطفت بنور بنفسج عنابها

وقال آخر :

لما اعتنقنا للوداع وأعربت   عبراتنا عنا بدمع ناطق
فرّقن بين محاجر ومعاجر   وجمعن بين بنفسج وشقائق

وقال آخر :

ولما تلاقينا رأيت بنانها   مخضبة تحكي عصارة عندم[1]
فقلت خضبت الكف بعدي أهكذا   يكون جزاء المستهام المتيم
فقالت وأذكت في الحشا لاعج الجوى   مقالة من بالودّ لم يتبرمّ
بكيت دماً يوم النوى فمسحته   بكفيّ فاحمرت بناني من دمي

---

(١) العندم : نبات يصبغ به .

وقال آخر :

دنــون عــشيــة الــتــوديــع مــني ... ولي عــيــنــان بــالــدم تجــريــان
فــلــم يمــســحــن إكــرامــاً جــفــوني ... ولــكــن رمــن تخــضــيــب الــبــنــان

ومما قيل في النحور . قال دعبل :

أتــاح لــك الهــوى بيضــاً حســانــا ... تــبــاهــى بــالــعــيــون وبــالــنــحــور
نــظرت إلى النحــور فكــدت تقضي ... فــكــيــف إذا نــظــرت إلى الخــصــور

ومما قيل في نعت النهود . قال العباس بن الأحنف :

والله لــو أن الــقــلــوب كــقــلــبــهــا ... مــا رقّ للولــد الضعيف الــوالــد
جــال الــوشــاح عــلى قضيب زانــه ... تفــاح صــدر مــا حــوتــه نــاهــد

وقال آخر :

ومحــبــوبــة عــنــد الــوداع رأيــتهــا ... تنشــف دمعــاً بــالــرداء الممســك
وتبكي حــذار البين منهــا بــدمعــة ... تسيل على الخدين في حسن مسلك
فتحسب مجرى الدمع من وجناتها ... بــقــيــة طــلّ فــوق ورد ممــعــك
وقــد سفــرت عن غــرة بــابــليــة ... وصــدر بــه نهد بــحــق مــفــلك

وقال عمرو بن كلثوم :(1)

نــراك إذا دخلت عــلى خــلاء ... قــد امتدت عيــون الكاشحينا(2)
لنهــد مثــل حق(3) العــاج حسنــاً ... حصينــاً من أكفّ الــلامسينــا

وقال آخر :

بــصــدرهــا كــوكــبــا در كــأنهما ... ركنــان لم يــدنســا من لمس مستلم
صــانتهــما بستــور مــن غــلائلهــا ... فالناس في الحل والركنان في الحرم

وقال آخر :

صــدور فــوقــهــن حــقــاق عــاج ... ودرّ زانــه حــســن اتــســاق
يــقــول ألــنــاظــرون إذا رأوه ... أهــذا الحــلي مــن هــذي الحقــاق
ومــا تــلك الحقــاق ســوى ثــدى ... جــعلن مــن الحــقــاق عــلى وفــاق
نــواهــد لا يــعــدّ لهــن عــيــب ... ســوى منــع المحبّ من الــعــنــاق

---

(1) هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب ، من بني تغلب ، ابو الاسود ، شاعر جاهلي ، من الطبقة الاولى . ولد في شمالي جزيرة العرب ، في بلاد ربيعة . من الشجعان. ساد قومه (تغلب) من أشهر شعره معلقته التي مطلعها :

« ألا هبي بصحنك فاصبحينا »

ويقال : أنها كانت في نحو الف بيت . توفي سنة (نحو ٤٠ق . هـ ـ نحو ٥٨٤ م) .

انظر : تهذيب التهذيب (٨ : ٩٢) . وتاريخ الاسلام للذهبي (٥ : ٢٨٧ ـ ٢٨٩) .

(2) الكاشحين : المبغضين .

(3) الحق : الاناء من جلد .

وقال آخر :

لقد فتكت عيون الغيد فينا ... ببيض مرهفات وهي سود

وتطعننا القدود إذا التقينا ... بسمر من أسنتها النهود

ومما قيل في الأرداف والخصور . قال ابن الرومي :

وشربت كأس مدامة من كفها ... مقرونة بمدامة من ثغرها

وتمايلت فضحكت من أردافها ... عجبا ولكني بكيت لخصرها

وقال الطنبغا المحاربي :

ردفه زاد في الثقالة حتى ... أقعد الخصر والقوام السويا

نهض الخصر والقوام وقالا ... فضعيفان يغلبان قويا

وقال آخر :

يا خصره كم جفاء ... تبدي وأنت نحيل

يا ردفه ملت عني ... ما أنت إلا بخيل

وقال القيراطي :

بدت روادف بدري ... تحت الحنين لعيني

فقلت يا بدر هذا ... حقاً خيال لحيني

وقال آخر :

اسائلها أين الوشاح وقد سرت ... معطلة منه معطرة النشر

فقالت وأومت للسوار نحلته ... إلى معصمي لما تلقلق في خصري

وقال آخر :

بيض وسمر مقلتاه وقده ... بدر وليل وجنتاه وشعره

أقسى من الحجر الأصمّ فؤاده ... وأرقّ من شكوى المتيم خصره

وقال آخر :

رخيمات المقال مدللات ... جواعل في الثرى قضبا جذالا

جمعن فخامة وخلوص جيد ... وقدّاً بعد ذلك واعتدالا

ومما قيل في المعاصم . قال عمر بن أبي ربيعة :

حسروا الوجوه بأذرع ومعاصم ... ورنوا بنجل للقلوب كوالم

حسروا الأكمة عن سواعد فضة ... فكأنما انتصبت متون صوارم

ومما قيل في اعتدال القوام . قال صلاح الدين الصفدي :

تقول له الأغصان مذ هزّ عطفه ... أتزعم أن اللين عندك ما نوى

فقم نحتكم للروض عند نسيمه ليقضي على من مال منّا إلى الهوى

وقيل : ليس لأحد من شعراء العرب في نعت محاسن النساء من الأوصاف البارعة مع جودة السبك ورقة اللفظ ما لذي الرمة حتى كأنه حضري من أهل المدن لا من أهل الوبر .

وقال القاضي مجد الدين بن مكانس :

أقول لحبي قم ومل يا معذبي كميلة خود غير السكر حالها
ولا تله عن شيء إذا ما حكيتها فقام كغصن البان ليناً ومالها

وقال آخر :

ومحكم أعاطفه في قتل صبّ ما غوى
فأعجب لعادل قدّه في النفس يحكم بالهوى

وقال آخر :

ومهفهف عني يميل ولم يمل يوماً إليّ فصحت من ألم الجوى
لم لا تميل إليّ يا غصن النقا فأجاب كيف وأنت من أهل الهوى

ومما قيل في الساق . قال ذو الرمة :

لم أنسه إذا قام يكشف عامداً عن ساقه كاللؤلؤ البرّاق
لا تعجبوا إن قام فيه قيامتي إن القيامة يوم كشف الساق

وقال آخر :

جاءت بساق أبيض أملس كلؤلؤ يبدو لعشاقها
فافتتنت فيها جميع الورى وقامت الحرب على ساقها

وقال ابن منقذ :

بدر ولكنه قريب ظبي ولكنه أنيس
إن لم يكن قدّه قضيبا فما لأعطافه تميس

ومما قيل في مشي النساء . قال بعضهم :

يهززن للمشي أطرافاً مخضبة هزّ الشمال ضحى عيدان نسرين
أو كاهتزاز رديني تداوله أيدي الرجال فزاد المتن في اللين

وقال آخر :

يمشين مشي قطا البطاح تأوّدا قبّ البطون رواجح الأكفال
فكأنهنّ إذا أردن زيارة يقلعن أرجلهنّ من أوحال

ومما قيل في العناق وطيبه . ابن المعتز :

ما أقصر الليل على الراقد وأهون السقم على العائد

كأنني عانقت ريحانة   تنفست في ليلها البارد
فلو ترانا في قميص الدجى   حسبتنا في جسد واحد

وقال آخر :

وموشح نازعت فضل وشاحه   وأعرته من ساعديّ وشاحا
بات الغيور يشقّ جلدة وجهه   وأمال أعطافاً عليّ ملاحا

وقال ابن المعدل :

أقول وجنح الدجى مسبل   ولليل في كل فج يد
ونحن ضجيعان في مسجد   فلّله ما ضمنا المسجد
أيا غد إن كنت لي محسنا   فلا تدن من ليلتي يا غد
ويا ليلة الوصل لا تقصري   كما ليلة الهجر لا تنفد

وقال آخر :

وليل رقيق الطرتين تظلمت   كواكبه من بدره المتألق
لهونا بغزلان الصريمة تحته   تميت الهوى ما بين صدر ومرفق

وقال ابن المعتز :

وكم عناق لنا وكم قبل   مختلسات حذار مرتقب
نقر العصافير وهي خائفة   من النواطير يانع الرطب

وقال ديك الجن :

ومعدولة مهما أمالت إزارها   فغصن وأما قدّها فقضيب
لها القمر الساري شقيق وإنها   لتطلع أحياناً له فيغيب
أقول لها والليل مرخ سدوله   وغصن الهوى غض النبات رطيب
لأنت المني يا زين كل مليحة   وأنت الهوى أدعى له فأجيب

وقال علي بن الجهم :[1]

سقى الله ليلاً ضمنا بعد فرقة   وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب
فبتنا جميعاً لو تراق زجاجة   من الخمر فيما بيننا لم تسرّب

---

(١) علي بن الجهم بن بدر- ابو الحسن- من بني سامة ، من لؤي بن غالب ، شاعر ، رقيق الشعر ، أديب ، من أهل بغداد له « ديوان شعر » توفي سنة (٢٤٩هـ - ٨٦٣ م). انظر الاغاني (طبعة دار العلم) : (١٠ : ٢٠٣ - ٢٣٤). وابن خلكان (١ : ٣٤٩).

وقال آخر :

يا ليل دم لي لا أريد براحا ... حسبي بوجه معذبي مصباحا
حسبي به نورا وحسبي ريقه ... خمرا وحسبي خدّه تفاحا
حسبي بمضحكه إذا استضحكته ... مستغنياً عن كل نجم لاحا
طوّقته طوق العناق بساعد ... وجعلت كفي للثام وشاحا
هذا هو اليوم النعيم فخلنا ... متعانقين فلا نريد براحا

وقال آخر :

ولم أنس ضمي للحبيب على رضا ... ورشفي رضابا كالرحيق المسلسل
ولا قوله لي عند تقبيل خدّه ... تنقل فلذات الهوى في التنقل

ومما قيل في السمن . قال الربيع بن سليمان سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول : ما رأيت سميناً عاقلاً إلا محمد بن الحسن . قال الشاعر :

لا أعشق الأبيض المنفوخ من سمن ... لكنني أعشق السمر المهازيلا
إني امرؤ أركب المهر المضمر في ... يوم الرهاب ، وغيري يركب الفيلا

ومما قيل في مدح الألوان والثياب . مدح البياض ، قال رسول الله ﷺ « البياض نصف الحسن » ، وكان ﷺ أبيض أزهر اللون مشرباً بحمرة . قال الشاعر :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شمّ الأنوف من الطراز الأول

ومما قيل في مدح السواد . قيل لبعضهم : ما تقول في السواد ؟ قال : النور في السواد أراد بذلك نور العينين في سوادهما . وقال بعضهم :

قالوا تعشقتها سوداء قلت لهم ... لون الغوالي ولون المسك والعود
إني امرؤ ليس شأن البيض مرتفعا ... عندي ولو خلت الدنيا من السود

وقال الحيقطان :

لئن كنت جعد الرأس واللون فاحم ... فإني بسيط الكف والعرض أزهر

ومما قيل في الوجه الحسن :

وإن سواد اللون ليس بضائري ... إذا كنت يوم الروع بالسيف اخطر

ودخل إبراهيم بن المهدي على المأمون فقال إنك لنعم الخليفة الأسود ، فقال إبراهيم نعم ، فتمثل المأمون ببيت نصيب ، فقال :

إن كنت عبداً فنفسي حرّة كرما ... أو أسود اللون إني أبيض الخلق

ثم قال : يا عمّ أخرجنا الهزل إلى الجدّ ،

فأنشد إبراهيم :

ليس يزرى السواد بالرجل الشهـ ـم ولا بالفتى الأريب الأديب
إن يكن للسواد فيك نصيب فبياض الأخلاق منك نصيبي

وقال آخر :

لام العواذل في سوداء فاحمة كأنها في سواد القلب تمثال
وهام في الخال أقوام وما علموا أني أهيم بشخص كله خال

وقيل لمدني : كيف رغبتم في السواد ؟ فقال لو وجدنا بيضاء لسوّدناها .

وقال آخر :

يكون الخال في خدّ قبيح فيكسوه الملاحة والجمالا
فكيف يلام ذو عشق على من يراها كلها في الخدّ خالا

وقال آخر :

فاستحسنوا الخال في خدّ فقلت لهم إني عشقت مليحاً كله خال

وكان أبو حاتم المدني ينشد :

ومن يك معجباً ببنات كسرى فإني معجب ببنات حام

وتفاخرت حبشية ورومية ، فقالت الرومية ، أنا حبة كافور ، وأنت عدل فحم . فقالت الحبشية : أنا حبة مسك ، وأنت عدل ملح . وقد قال الشاعر :

أحبّ لحبها السودان حتى أحبّ لحبها سود الكلاب

وقال آخر :

أشبهك المسك وأشبهته قائمة في لونه قاعدة
لا شك إذ لونكما واحد أنكما من طينة واحدة

ومما قيل في الصفرة . قال الشاعر :

أصفراء كأنّ الهجر منك مزاحا ليالي كان الودّ منك مباحا
كأنّ نساء الحي ما دمت فيهم قباحا فلما غبت صرن ملاحا

وقال آخر :

قالوا به صفرة شانت محاسنه فقلت ما ذاك من عيب به نزلا
عيناه مطلوبة في ثأر من قتلت فلست تلقاه إلا خائفاً وجلا

ومما قيل في طول اللحية . قيل : إن اللحية الطويلة عش البراغيث . ونظر يزيد الشيباني إلى

رجل ذي لحية عظيمة تلتف على صدره وإذا هوخاضب[1]. فقال له : يا هذا إنك من لحيتك في مؤنة فقال أجل ولذلك أقول :

لها درهم للدهن في كل جمعة   وآخر للحناء ينتدبان
ولولا نوال من يزيد بن مزيد   لأصبح في حافاتها الحمنان

وقال اسحاق بن خلف في قصير طويل اللحية :

ماشيت داود فاستضحكت من عجب   كأنه والد يمشي بمولود
ما طول داود إلا طول لحيته   يظن داود فيها غير موجود

وقال ابن المقفع :

تأملت أسواق العراق فلم أجد   دكاكينهم إلا عليها المواليا
جلوساً عليها ينفضون لحاءهم   كما نفضت عجف البغال المخاليا

ومما جاء في عظم الخلقة والطول والقصر . قيل : خرب القهندر[2] فبرزت منه جماجم أموات فتصدعت جمجمة فانتثرت أسنانها فوّزن السن منها فكان وزنها أربعة أرطال فأُتي بها إلى ابن المبارك فجعل يقلبها ويتعجب من عظمها ثم قال :

إذا ما تذكرت أجسامهم   تصاغرت النفس حتى تهون

وأراد ملك الروم أن يباهي أهل الشام فبعث إلى معاوية رجلين أحدهما طويل ، والثاني قصير شديد القوّة ، فدعا للطويل بقيس بن سعد بن عبادة فنزع قيس سراويله ورمى بها إليه فلبسها الطويل فبلغت ثدييه فلاموا قيساً على نزع السراويل فقال :

أردت لكيما يعلم الناس أنها   سراويل قيس والوفود شهود
وكي لا يقولوا خان قيس وهذه   سراويل عاد أحرزتها ثمود
وإني من القوم اليمانين سيد   وما الناس إلا سيد ومسود

ثم دعا معاوية للرجل الشديد في قوّته بمحمد بن الحنفية فخيّره بين أن يقعد فيقيمه ، أو يقوم فيقعده فغلبه في الحالتين وانصرفا مغلوبين . وقيل : كان سلمة بن مرّة الناموسي أسر امرأ القيس بن النعمان اللخمي الملك ، وكان الناموسي قصيراً مقتحماً ، واللخمي طويلاً جسيماً ، فقالت بنت امرىء القيس يا هذا القصير أطلق أبي ، فسمعها سلمة بن مرة فقال :

لقد زعمت بنت امرىء القيس أنني   قصير وقد أعيا أباها قصيرها
وربّ طويل قد نزعت سلاحه   وعانقته والخيل تدمى نحورها

وقالوا : عظم اللحية يدل على البله ، وعرضها على قلة العقل ، وصغرها على لطف الحركة ، وإذا وقع الحاجب على العين دلّ على الحسد ، والعين المتوسطة في حجمها تدل على الفطنة وحسن الخلق والمروءة ، والتي يطول تحديقها تدل على الحمق . والتي تكسر طرفها تدل على خفة وطيش ،

---

(١) خاضب : مصبوغة بالخضاب (الحناء) .
(٢) التقهندر : مكان .

والشعر على الأذن يدل على جودة السمع ، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان .

ومما قيل في القبح والدمامة : أراد رجل أن يكتب كتاباً لبعض أصحابه فلم يجد من يرسله معه إلا رجلاً وخش الصورة بشع المنظر فلم يقدر على تحليته لفرط دمامته ، فكتب إلى صاحبه يقول : يأتيك بهذا الكتاب آية من آيات الله تعالى وقدره ، فدعه يذهب إلى نار الله وسقره .

ومرّ أبو الأسود الدؤلي بمجلس لبني بشير ، فقال بعض فتيانهم ، كأن وجهه عجوز راحت إلى أهلها بطلاقها . وقال الجاحظ : ما أخجلني قط إلا امرأة مرّت بي إلى صائغ فقالت له اعمل مثل هذا ، فبقيت مبهوتاً ، ثم سألت الصائغ فقال هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان ، فقلت لا أدري كيف أصوّره ، فأتت بك إلّي لأصوّره على صورتك . وفي الجاحظ يقول الشاعر :

لـو يمسـخ الخنـزيـر مسخـاً ثـانيـاً ... مـا كـان إلا دون قبـح الجـاحظ
رجـل ينـوب عن الجحيم بـوجهـه ... وهـو القذى في عين كـل مـلاحظ
ولـو أن مـرآة جـلـت تـمـثـالـه ... ورآه كـان لـه كـأعـظم واعظ

وقال الأصمعي : رأيت بدوية من أحسن الناس وجهاً ولها زوج قبيح . فقلت يا هذه أترضين أن تكوني تحت هذا ؟ فقالت يا هذا لعله أحسن فيما بينه وبين ربه فجعلني ثوابه ، وأسأت فيما بيني وبين ربي فجعله عذابي ، أفلا أرضى بما رضي الله به . وحج مخنث فرأى رجلاً قبيح الوجه يستغفر . فقال : يا حبيبي ما أراك أن تبخل بهذا الوجه على جهنم . وقال بعضهم لرجل : طلع لي دمل في أقبح المواضع فقال له كذبت هذا وجهك ليس فيه شيء . وخرج رجل قبيح الوجه إلى المتجر فدخل اليمن فلم ير فيها أحسن منه وجهاً فقال :

لـم أر وجـهـاً حـسـنـاً ... مـنـذ دخـلـت الـيـمـنـا
فـيـا شـقـاء بـلـدة ... أحـسـن مـن فـيـهـا أنـا

وخطب رجل عظيم الأنف امرأة فقال لها : قد عرفت أني رجل كريم المعاشرة محتمل المكاره ، فقالت لا شك في احتمالك المكاره مع حملك هذا الأنف أربعين سنة . وقال الشاعر في رجل كبير الأنف :

لـك وجـه فيـه قـطعـة أنف ... كجـدار قـد أدعمـوه ببغـلة
وهو كالقبـر في المثال ولكن ... جعلوا نصبـه على غيـر قبلة

وقال آخر :

لـك أنـف ذو أنـوف ... أنـفـت مـنـه الأنـوف
أنـت في الـقـدس تـصـلي ... وهـو في الـبـيـت يـطوف

ومما جاء في الثقلاء . قال مطيع بن أياس :

قـل لـعـبـاس أخـيـنـا ... يـا ثـقـيـل الـثـقـلاء

أنت في الصيف سموم وجليد في الشتاء
أنت في الأرض ثقيل وثقيل في السماء

ومما جاء في الملابس وألوانها والعمائم ونحوها ، قال الله تعالى : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدّث** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾[2] وقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده » وقال ﷺ : « تعمموا تزدادوا جمالاً » وقال ﷺ : « العمائم تيجان العرب ». وكان الزبير بن العوام يقاتل يوم بدر وعليه عمامة صفراء فنزلت الملائكة وعليهم عمائم صفر قد أرخوها . وبعث رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فتخلف عن الجيش وأتى إلى رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء من خز فنقضها رسول الله ﷺ وعممه بيده وأسدلها بين كتفيه قدر شبر وقال : هكذا اعتم يا ابن عوف . وبعث ملك الروم إلى النبي ﷺ جبة ديباج فلبسها ثم كساها عثمان . وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم ، ويدخل المسجد . فقيل له في ذلك فقال إني أجالس ربي . وقيل المروءة الظاهرة ، الثياب الطاهرة . وقيل : البس البياض والسواد فان الدهر هكذا بياض ونهار وسواد وليل .

ومما قيل في لبس السواد قول أبي قيس :

رأيتك في السواد فقلت بدرا بدا في ظلمة الليل البهيم
وألقيت السواد فقلت شمس امحت بشعاعها ضوء النجوم

وقدم تاجر إلى المدينة يحمل من خُمُر العراق فباع الجميع منها إلا السود ، فشكا إلى الدارمي ذلك ، وكان الدارمي قد نسك وتعبد فعمل بيتين وأمر من يغني بهما في المدينة ، وهما هذان البيتان :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بزاهد متعبد
قد كان شمر للصلاة إزاره حتى قعدت له بباب المسجد

قال : فشاع الخبر في المدينة أن الدارمي رجع عن زهده وتعشق صاحبة الخمار الأسود فلم يبق في المدينة مليحة إلا واشترت لها خماراً أسود ، فلما أنفد التاجر ما كان معه رجع الدارمي إلى تعبده وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها . وقال آخر في لابسة الأحمر :

وشمس من قضيب في كثيب تبدّت في لباس جلناري
سقتني ريقها صرفا وحيت بوجنتها فهاجت جلّ ناري

---

(١) سورة الضحى الآية ١١ .
(٢) سورة الاعراف الآية ٣١ .

وقال آخر في لابسة ثوب خمري :

في ثوبها الخمريّ قد أقبلت ... بوجنة حمراء كالجمر
فملت سكرا حين أبصرتها ... لا تنكروا سكري من الخمر

وقال الصنوبري في لابسة أخضر :

وجارية أدّبتها الشطارة ... ترى الشمس من حسنها مستعارة
بدت في قميص لها أخضر ... كما ستر الورق الجلنارة
فقلت لها ما اسم هذا اللباس ... فأبدت جواباً لطيف العبارة
شققنا مرائر قوم به ... فنحن نسميه شق المرارة

وقال حكيم لأبنه : إياك أن تلبس ما يديم الملأ نظره إليك به ، واعلم أن الوشي لا يلبسه إلا الأحمق أو ملك ، وعليك بالبياض . وقيل : لباس البخلاء الاستبرق لطول بقائه ، ولباس المترفين السندس لقلة بقائه ، ولباس المقتصدين الديباج لتوسط بقائه . وقال بعض الأمراء لحاجبه : أدخل عليّ عاقلاً ، فأتاه برجل ، فقال : بم عرفت عقله ؟ فقال : رأيته يلبس الكتان في الصيف ، والقطن في الشتاء ، والملبوس في الحرّ ، والجديد في البرد . وقيل كان لأبرويز عمامة طولها خمسون ذراعاً إذا اتسخت ألقاها في النار فيحترق الوسخ ولا تحترق ، وكان له رداء حسن يتلوّن كل ساعة ، وسراويل مجوهرة وتكة من أنابيب الزمرد . وقيل : الأقبية لباس الفرس ، والقراطق لباس الهند ، والأُزر لباس العرب . وسئل بعض العرب عن الثياب فقال : الصفر أشكل ، والحمر أجمل ، والخضر أقبل ، والسود أهول ، والبيض أفضل . وقال أفلاطون : الصبغ الشقائقي والروائح الزعفرانية تسكن الغضب ، والصبغ الياقوتي والروائح الوردية تحرك السرور ، وإذا قرب اللون الأحمر إلى اللون الأصفر تحركت القوّة العشقية ، وإذا مزجت الحمرة بالصفرة تحركت القوّة الغريزية ، وإذا مزجت التفاحية بالحمرة تحركت الطبائع كلها . وكان مصعب بن الزبير يقول : لكل شيء راحة ، وراحة البيت كنسه ، وراحة الثوب طيه . وقال بعض الأعراب : رأيت بالبصرة بروداً كأنها نسجت بأنواع الربيع . ودخل بعض العذريين على معاوية وعليه عباءة فازدراه ، فقال : يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك ، وإنما يكلمك من فيها .

ومما قيل فيمن رذل لبسه وعرف نفسه . قال الأصمعي : رأيت اعرابياً فاستنشدته أبياتاً ، وروى أخباراً فتعجبت من جماله ، وسوء حاله فسكت سكتة ثم قال :

أأخيّ إن الحادثـ ... ـات عركنني عرك الأديم
لا تنكرن أن قد رأيت ... أخاك في طمري عديم
إن كان أثوابي رثـ ... ـات فإنهنّ على كريم

قال بعضهم ، وقيل للشافعي رحمه الله تعالى :

عليّ ثياب لو تقاس جميعها ... بفلس لكان الفلس منهنّ أكثرا

وفيهّن نفس لـو يقـاس ببعضهـا نفـوس الورى كـانت أجلّ وأكبـرا
وما ضر نصل السيف اخلاق غمده إذا كان عضباً[1] حيث وجهته برى

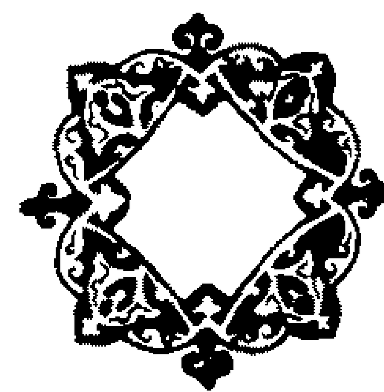
ودخل بعضهم على الرشيد فازدراه فأنشده :

ترى الرجل الخفيف فتزدريه وفي أثـوابـه أسـد هصـور
ويعجبـك الـطريـر فتبتليـه فيخلف ظنك الرجـل الطريـر
لقـد عـظم البعيـر بغير لبّ فلم يستغن بـالعـظم البعيـر
يصـرفـه الصبي بغيـر وجـه ويحبسه على الخسف الجرير
وتضـربـه الـوليـدة بـالهـراوي فـلا عـار عليـه ولا نكيـر
فـإن أك في شراركمـو قليـلاً فـإني في خيـاركمـو كثيـر

ويقال : كُل ما تشتهيه نفسك ، والبس ما تشتهيه الناس . وقد نظمه من قال :

إن العيـون رمتـك إذا فـاجـأتهـا وعليـك من مهن الثيـاب لـبـاس
أما الطعام فكل لنفسك ما اشتهت واجعـل لباسـك ما اشتهتـه النـاس

وفي هذا القدر كفاية والله أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) العضب : القطع ، والتناول بالضرب ، والطعن . والعضباء : الناقة المشقوقة الاذن . والعضب أيضاً السيف القاطع والعضباء أيضاً : الشاة المكسورة القرن الداخل .

الباب السابع والأربعون

في التختم ،والحلّي ،والمصوغ ، والطيب ،والتطيب ،وما أشبه ذلك.

ما جاء في التختم : عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يتختم في يمينه ، وقبض عليه الصلاة والسلام والخاتم في يمينه . قال بعض من مدحه عليه الصلاة والسلام :

كفّ الـرسـالـة ليس يخفى حسنها ... وتمـام حسن الـكفّ لـبس الخـاتم

وذكر السلامي : أن رسول الله ﷺ كان يتختم في يمينه والخلفاء بعده ، فنقله معاوية رضي الله تعالى عنه إلى اليسار ، وأخذ الأموية بذلك ، ثم نقله السفاح إلى اليمين فبقي إلى أيام الرشيد رضي الله تعالى عنه فنقله إلى اليسار وأخذ الناس بذلك . وعن عليّ رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ « تختموا بخواتيم العقيق فإنه لا يصيب أحدكم غمّ ما دام عليه ذلك ». وبلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن ابنه اشترى فصّ خاتم بألف دينار فكتب إليه : عزمت عليك إلا ما بعت خاتمك بألف دينار وجعلتها في بطن جائع واستعمل خاتماً من ورق وانقش عليه : رحم الله امرأ عرف نفسه . وكان خاتم عليّ رضي الله عنه من ورق ونقشه ، نعم القادر . وكان لأبي نواس خاتمان : أحدهما عقيق مربع وعليه مكتوب :

تعـاظمني ذنبي فلما قـرنتـه ... بعفوك ربي كان عفـوك أعظما

والآخر حديد صيني وعليه : أشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً ، وأوصى عند موته أن يغسل الفصّ ويجعل في فمه . قال جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنه : ما افتقرت يد تختمت بخاتم فيروزج ، وقيل : الخواتم أربعة : الياقوت للعطش ، والفيروزج للمال ، والعقيق للسنة ، والحديـد الصيني للحرز ، وقيل : للخوف ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ما جاء في الحليّ .قيل إنّ قرطيّ مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية كان فيهما درتان كبيض الحمام لم ير مثلهما ولم يدر قيمتهما . وقال محمد : بعثني يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء يخرج طرفاها من كفي،كانت للرائقة جارية خالد بن عبد الله القسري اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار ، وحبة لؤلؤ أعظم ما يكون من الحبّ فدخلت عليه بهما فقال : اكتب معك بوزنهما ، فقلت : يا أمير المؤمنين هما أعظم من أن يكتب بوزنهما فقال : صدقت . وبعث معاوية إلى عائشة رضي الله تعالى عنها

طوقاً من ذهب فيه جوهرة قوّمت بمائة ألف دينار فقسمته بين أزواج النبي ﷺ . وكان ملك العرب كلما مرّت عليه سنة من سني ملكه زيدت في تاجه خرزة . وكان يقال لها خرزات الملك .

ذكر ما جاء في الطيب والتطيب . قال رسول الله ﷺ « أطيب الطيب المسك » وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : كأني أنظر إلى وبيص الطيب في مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم . وعن سهل بن سعد يرفعه : « إنَّ في الجنة لمرعى من مسك مثل مراعي دوابكم هذه » . وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : دخل علينا رسول الله ﷺ فنام عندنا فعرق ، فجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها فاستيقظ وقال : يا أم سليم ما هذا الذي تصنعين ؟ فقالت : هذا عرقك نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب . وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال : لو كنت تاجراً ما اخترت على العطر ، إن فاتني ربحه لم يفتني ريحه . وناول المتوكل فتى فأرة المسك فقال :

لئن كان هذا طيبنا وهو طيب　　لقد طيبته من يديك الأنامل

وأهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية ، فسأله كم أنفق عليها ؟ فذكر مالاً جزيلاً ، فقال : هذه غالية فسميت بذلك ، وشمها مالك بن سليمان بن خارجة من أخته هند بنت أسماء ، فقال : علميني كيف تصنعين طيبك ؟ فقالت : لا أفعل ، تريد أن تعلمه جواريك ، هو لك مني كلما أردته ، ثم قالت : والله إني ما تعلمته إلا من شعرك حيث تقول :

أطيب الطيب عرف أم أبان　　فأر مسك بعنبر مسحوق

قال أبو قلابة : كان ابن مسعود رضي الله تعالى عنه إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه مرّ ، من طيب ريحه . وعن الحسن بن زيد الهاشمي عن أبيه قال : رأيت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يطلي جسده فإذا مرّ في الطريق قال الناس : أمرّ ابن عباس أم مرّ المسك ؟ وعنه عن أبيه قال : رأيت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما حين أحرم والغالية على صدغيه كأنها لزقة . وقال أبو الضحى : رأيت على رأس الزبير من المسك ما لو كان لي لكان رأس مالي . وقيل : لما بنى عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه بفاطمة بنت عبد الملك أسرج في مسارجه تلك الليلة بالغالية . وقال الشعبي : الرائحة الطيبة تزيد في العقل . وقال علي كرّم الله تعالى وجهه : تشمموا النرجس ولو في العام مرّةً فانّ في قلب الإنسان حالة لا يزيلها إلا النرجس . وكان الشعبي يقول : إذا أورد الورد صدر البرد ، وكانت الصحابة رضي الله تعالى عنهم يستحبون إذا قاموا من الليل أن يمسوا لحاهم بالطيب . وكان من اختلف في طرقات المدينة وجد عرفاً طيباً . قيل : ولذلك سميت طيبة ، وأقول : والله ما طابت إلا بالطيب الطاهر ، وما أحسن ما قيل :

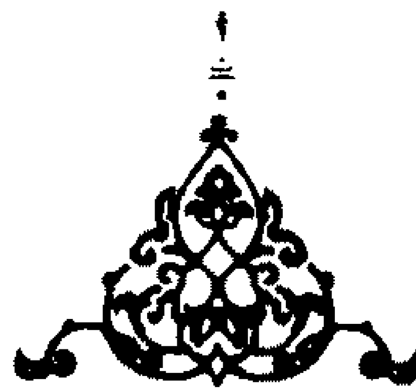
إذا لم أطب في طيبة عند طيب　　به طيبة طابت فأين أطيب

وقيل إن فأرة المسك دويبة شبيهة بالخشف تصاد لسرتها فاذا صادها الصياد عصب السرّة بعصابة شديدة فيجتمع فيها دمها ثم يذبحها ، ثم يأخذ السرّة فيدفنها في الشعير حتى يستحيل الدم المجتمع فيها

مسكاً ذكياً بعد أن كان لا يرام نتناً . وقد يوجد جرذان سود يقال لها فأرات المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها . وحكي أن العنبر يأتي على طفاوة الماء لا يدري أحد معدنه فلا يأكله شيء إلا مات . ولا ينقره طائر إلا بقي منقاره فيه ، ولا يقع عليه حيوان إلا نصلت أظفاره فيه ، والتجار والعطارون ربما وجدوا أظفاراً فيه . وقال الزمخشري عفا الله عنه : سمعت ناساً من أهل مكة يقولون هو من زبد بحر سرنديب ، وأجود العنبر الأشهب ، ثم الأزرق وأدونه الأسود . وفي حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ليس في العنبر زكاة إنما هو شيء نثره البحر . وأما العود فأجوده المندلي ، وهو منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند ، وأجوده أصلبه ، وامتحان رطبه أن تطبع فيه نقش الخاتم فان انطبع فرطب وإلا فلا ، ومن خصائصه أن رائحته تطبع في الثوب أسبوعاً فلا يقمل ما دامت فيه . وأما الكافور فهو ماء شجر بجزيرة الكافور . يحزونه بالحديد فاذا خرج ظاهراً وضربه الهواء انعقد كالصموغ الجامدة على الأشجار . وأما الند فمصنوع وهو العود المستقطر والعنبر واللبان .

لو كنت أحمل جمراً حين زرتكم — لم ينكر الكلب أني صاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك يقدمني — والعنبر الندّ مشبوب على النار

وكانت ملوك الفرس تأمر برفع الطيب أيام الورد . وكان المتوكل يلبس أيام الورد الثياب الموردة ويفرش الورد في مجلسه ، ويطيب جميع آلاته بالورد . وقال الحسن بن سهل : أمهات الرياحين تقوى بأمهات الطيب ، فالنرجس يقوى بالورد ، والورد يقوى بالمسك ، والبنفسج يقوى بالعنبر والريحان يقوى بالكافور ، والنسرين يقوى بالعود . وقال جالينوس : المسك يقوّي القلب ، والعنبر يقوّي الدماغ ، والكافور يقوّي الرئة ، والعود يقوّي المعدة ، والغالية تحل الزكام ، والصندل يحل الأورام . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تردّوا الطيب فأنه طيب الريح خفيف المحمل » . تبخر بعض الأمراء وعنده أعرابي ففرطت من الأمير ريح خفيفة فأراد أن يعلم هل فطن بها الأعرابيّ أم لا ، فقال ما أطيب هذا المثلث ، قال نعم ولكنك ربعتها . وقال الأحنف : إن شم رائحة المسك يحيي القلب . وقال سلمة لأبن عباس وعنده جعفر بن سليمان : ما شمت أنفي من ريح مسك شممته من الناس إلا ريح كفك أطيب . فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر ، والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

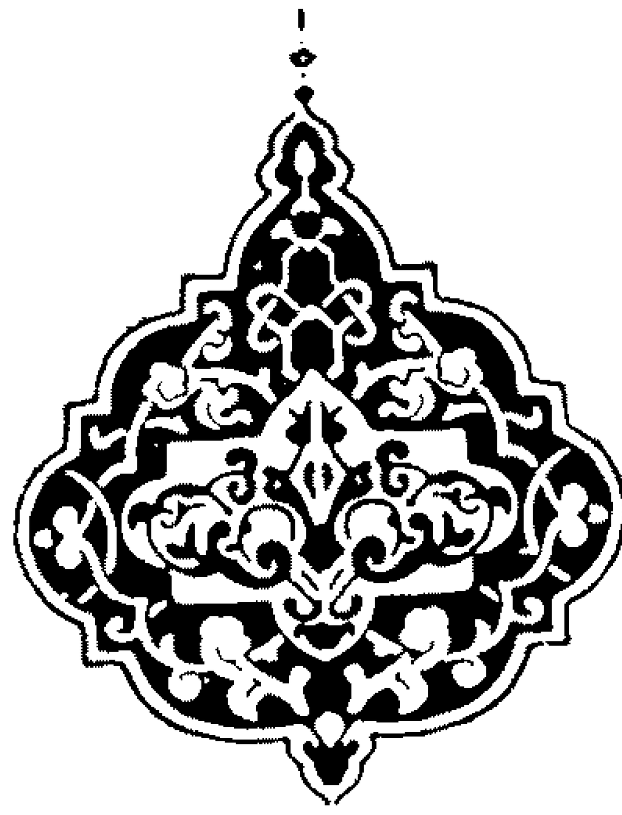


فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة



هذا الكتاب

المستطرف في كل فن مستظرف كتاب مشتمل على كل فن ظريف ، نقل فيه مؤلفه شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الابشيهي كثيراً مما أودعه الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار ، وما نقله ابن عبد ربه في العقد الفريد ، وجمع فيه لطائف وظرائف عديدة ، وأودعه الاحاديث النبوية والأمثال الشعرية والألفاظ اللغوية والحكايات الجدية والنوادر الهزلية ومن الفرائد والدقائق في أربع وثمانين باباً من أحسن الفنون ، فكان سفراً تشنف بذكره الأسماع ، وتقر برؤيته العيون وينشرح بمطالعته كل قلب محزون .